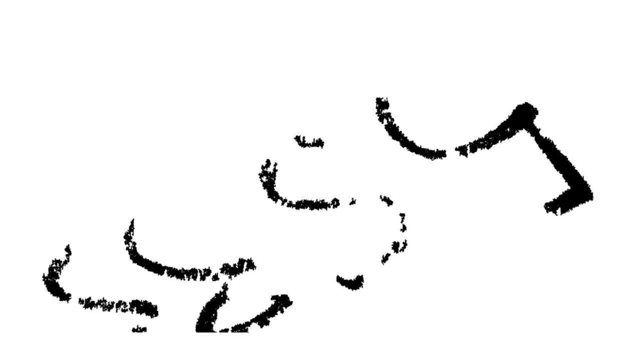
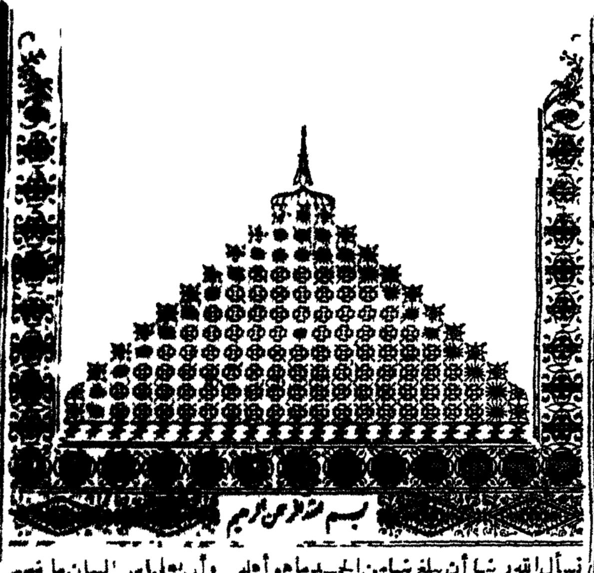


المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر للشيخ
الامام والعلامة الهمام ضياء الدين
أبي الفتح نصر الله بن محمد بن
محمد بن عبد الكريم
الموصلي الشافعي
رحمه الله
آمين



نسأل الله ربنا أن يبلغ بنا من الحمد ما هو أهله وأن يعلمنا من البيان ما يقصر
عنه مزية الفضل وأصله وحكمة الخطاب وفصله ونرغب إليه أن يوفقنا
للصلاة على نبينا ومولانا محمد رسوله الذي هو أفصح من نطق بالضاد ونسخ به
شريعة كل هاد وعلى آله وصحبه الذين منهم من سبق وبدر ومنهم من صابر وصبر
ومنهم من آوى ونصر (وبعد) فان علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول
الفقه للاحكام وأدلة الاحكام وقد ألف الناس فيه كتبا وجلبوا ذهبا وحطبا
وما من تأليف الا وقد تصفحت شينه وسينه وعلمت غثه وسمينه فلم أجد ما ينتفع
به في ذلك الا كتاب الموازنة لابي القاسم الحسن بن بشر الآمدي وكتاب سر
الفصاحة لابي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي غير أن كتاب الموازنة أجمع
أصولا وأجدى محصولا وكتاب سر الفصاحة وان نبه فيه على نكت منيرة
فانه قد أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الاصوات والحروف والكلام عليها
ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما لا حاجة الى أكثره ومن الكلام
في مواضع شذ عنه الصواب فيها وسيرد بيان ذلك كله في مواضع من هذا

الكتاب

الكتاب ان شاء الله تعالى على أن كلا الكتابين قد أهملا من هذا العلم أبوابا وربما ذكرا في بعض المواضع قشورا وتركا لبابا وكنت عثرت على ضروب كثيرة منه في غضون القرآن الكريم ولم أجد أحدا ممن تقدمني تعرض لذكر شيء منها وهي اذا عدت كانت في هذا العلم بمقدار شطره واذا نظر الى فوائدها وجدت محتوية عليه بأسره وقد أوردتها هاهنا وشفعتها بضروب أخر مدونة في الكتب المتقدمة بعد أن حذفت منها ما حذفته وأضفت اليها ما أضفته وهداني الله لابتداع أشياء لم تكن من قبلي مبتدعة ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعة وانما هي متبعة وكل ذلك يظهر عند الوقوف على كتابي هذا وعلى غيره من الكتب (وقد بنيته) على مقدمة ومقالتين (فالمقدمة) تشتمل على أصول علم البيان (والمقالتان) تشتملان على فروعه فالأولى في الصناعة اللفظية والثانية في الصناعة المعنوية ولا أدعي فيما ألفته من ذلك فضيلة الاحسان ولا السلامة من سبق اللسان فان الفاضل من تعد سقطاته وتحصى غلطاته ويسيء بالاحسان ظنا لا كمن هو ببيانه وشعره مفتون واذا تركت الهوى قلت ان هذا الكتاب بديع في اغرابه وليس له صاحب في الكتب فيقال انه من أخدانه أومن أترابه مفرد بين أصحابه ومع هذا فاني أتيت بظاهر هذا العلم دون خافيه وحمت حول حماه ولم أقع فيه اذ الغرض انما هو الحصول على تعليم الكلام الذي به اتساق العقود وترصع وتجتاب العقول فتخدع وذلك شيء تحيل عليه الخواطر لا تنطق به الدفاتر (واعلم) أيها الناظر في كتابي أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذي هو أنفع من ذوق التعليم وهذا الكتاب وان كان فيما يلقيه اليك أستاذا واذا اهتديت بما ينتفع به في فنه قيل لك هذا فان الدربة والادمان أجدى عليك نفعا وأهدى بصرا وسمعا وهما يريانك الخبر عيانا ويجعلان عسر لك من القول امكانا وكل جارحة منك قلبا ولسانا فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك واستنبط بادمانك ما أخطاك وما مثلي فيما مهدته لك من هذه الطريق الا كمن طبع سيفا ووضعه في يمينك لتقاتل به وليس عليه أن يخلق لك قلبا فان حمل النصال غير مباشرة القتال

وانما يبلغ الانسان غايته • ما كل ماشية بالرحل شملال

ولنرجع الى ما نحن بصدده فنقول أما مقدمة الكتاب فانها تشتمل على عشرة فصول

(الفصل الاول) في موضوع علم البيان. موضوع كل علم هو الشيء الذي يسأل فيه عن أحواله التي تعرض لذاته فموضوع الفقه هو أفعال المكلفين والفقيه يسأل عن أحوالها التي تعرض لها من الفرض والنفل والحلال والحرام والندب والمباح وغير ذلك وموضوع الطب هو بدن الانسان والطبيب يسأل عن أحواله التي تعرض له من صحته وسقمه وموضوع الحساب هو الاعداد والحاسب يسأل عن أحوالها التي تعرض لها من الضرب والقسمة والتسمية وغير ذلك وموضوع النحو هو الالفاظ والمعاني والنحوي يسأل عن أحوالهما في الدلالة من جهة الاوضاع اللغوية وكذلك يجري الحكم في كل علم من العلوم وبهذا الضابط انفرد كل علم برأسه ولم يختلط بغيره وعلى هذا فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية وهو والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الالفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي وتلك دلالة عامة وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة والمراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن وذلك أمر وراء النحو والاعراب ألا ترى أن النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم مواقع اعرابه ومع ذلك فانه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة ومن ههنا غلط مفسرو الاشعار في اقتصارهم على شرح المعنى وما فيها من الكلمات اللغوية وتبيين مواضع الاعراب منها دون شرح ما تضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة

(الفصل الثاني) في آلات علم البيان وأدواته. اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر الى آلات كثيرة وقد قيل ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم حتى قيل كل ذي علم يسوغ له أن ينسب نفسه اليه فيقول فلان النحوي وفلان الفقيه وفلان المتكلم ولا يسوغ له أن ينسب نفسه الى الكتابة فيقول فلان الكاتب وذلك لما يفتقر اليه من الخوض في كل فن وملاك هذا كله الطبع فانه اذا لم يكن ثم طبع فانه لا تغني تلك الآلات شيأ ومثال ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد والحديدة التي يقدح بها ألا ترى أنه اذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيأ وكثيرا ما رأينا وسمعنا من غرائب الطباع في تعلم العلوم حتى ان بعض الناس يكون له نفاذ في تعلم علم مشكل المسلك صعب المأخذ فاذا كلف تعلم ما هو دونه من سهل العلوم نكص على عقبيه ولم يكن له فيه

نفاذ وأغرب من ذلك أن صاحب الطبع في المنظوم يجيد في المديح دون الهجاء
أو في الهجاء دون المديح أو يجيد في المراثي دون التهاني أو في التهاني دون
المراثي وكذلك صاحب الطبع في المنثور هذا ابن الحريري صاحب المقامات قد
كان على ما ظهر عنه من تنميق المقامات واحدا في فنه فلما حضر ببغداد ووقف
على مقاماته قيل هذا يستصلح لكتابة الانشاء في ديوان الخلافة ويحسن أثره فيه
فأحضر وكلف كتابة كتاب فأفحم ولم يجر لسانه في طويلة ولا قصيرة فقال فيه بعضهم

شيخ لنا من ربيعة الفرس * ينتف عثنونه من الهوس
أنطقه الله بالمشان وقد * ألجمه في بغداد بالخرس

وهذا مما يعجب منه وسئلت عن ذلك فقلت لا عجب لأن المقامات مدارها
جميعها على حكاية تخرج الى مخلص وأما المكاتبات فانها بحر لا ساحل له لأن
المعاني تتجدد فيها بتجدد حوادث الأيام وهي متجددة على عدد الأنفاس
ألا ترى أنه اذا خطب الكاتب المفلق عن دولة من الدول الواسعة التي يكون
لسلطانها سيف مشهور وسعي مذكور ومكث على ذلك برهة يسيرة لا تبلغ
عشر سنين فانه يدون عنه من المكاتبات ما يزيد على عشرة أجزاء كل جزء منها
أكبر من مقامات الحريري حجما لأنه اذا كتب في كل يوم كتابا واحدا
اجتمع من كتبه أكثر من هذه العدة المشار اليها واذا نخلت وغربلت واختير
الأجود منها اذ تكون كلها جيدة فيخلص منها النصف وهو خمسة أجزاء والله يعلم
ما اشتملت عليه من الغرائب والعجائب وما حصل في ضمنها من المعاني المبتدعة
على أن الحريري قد كتب في أثناء مقاماته رقاعا في مواضع عدة فجاء بها منحطة
عن كلامه في حكاية المقامات لا بل جاء بالغث البارد الذي لا نسبة له الى باقي كلامه
فيها وله أيضا كتابة أشياء خارجة عن المقامات واذا وقف عليها أقسم ان قائل
هذه ليس قائل هذه لما بينهما من التفاوت البعيد وبلغني عن الشيخ أبي محمد أحمد
ابن الخشاب النحوي رحمه الله أنه كان يقول ابن الحريري رجل مقامات أي
انه لم يحسن من الكلام المنثور سواها وان أتى بغيرها لا يقول شيأ فانظر أيها
المتأمل الى هذا التفاوت في الصناعة الواحدة من الكلام المنثور ومن أجل
ذلك قيل شيآن لا نهاية لهما البيان والجمال * وعلى هذا فاذا ركب الله تعالى
في الانسان طبعا قابلا لهذا الفن فيفتقر حينئذ الى ثمانية أنواع من الآلات

(النوع الاول) معرفة علم العربية من النحو والتصريف (النوع الثانى) معرفة ما يحتاج اليه من اللغة وهو المتداول المألوف استعماله فى فصيح الكلام غير الوحشى الغريب ولا المستكره المعيب (النوع الثالث) معرفة أمثال العرب وأيامهم ومعرفة الوقائع التى جاءت فى حوادث خاصة بأقوام فان ذلك يجرى مجرى الامثال أيضا (النوع الرابع) الاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة المنظومة منه والمنثورة والتحفظ الكثير منه (النوع الخامس) معرفة الاحكام السلطانية الامامة والامارة والقضاء والحسبة وغير ذلك (النوع السادس) حفظ القرآن الكريم والتدرب باستعماله وادراجه فى مطاوى كلامه (النوع السابع) حفظ ما يحتاج اليه من الاخبار الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم والسلوك بها مسلك القرآن الكريم فى الاستعمال (النوع الثامن) وهو مختص بالناظم دون الناثر وذلك علم العروض والقوافى الذى يقام به ميزان الشعر ولنذكر بعد ذلك فائدة كل نوع من هذه الانواع ليعلم أن معرفته مما تمس الحاجة اليه فنقول أما علم النحو فانه فى علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد فى تعليم الخط وهو أول ما ينبغى اتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربى ليأمن معرة اللحن ومع هذا فانه وان احتيج اليه فى بعض الكلام دون بعض لضرورة الافهام فان الواضع لم يخص منه شيأ بالوضع بل جعل الوضع عاما والا فاذا نظرنا الى ضرورته وأقسامه المدونة وجدنا أكثرها غير محتاج اليه فى افهام المعانى ألا ترى أنك لو أمرت رجلا بالقيام فقلت له قوم باثبات الواو ولم تجزم لما اختل من فهم ذلك شئ وكذلك الشرط لو قلت ان تقوم أقوم ولم تجزم لكان المعنى مفهوما والفضلات كلها تجرى هذا المجرى كالحال والتمييز والاستثناء فاذا قلت جاء زيد راكب وما فى السماء قدر راحة سحاب وقام القوم الا زيد فلزمت السكون فى ذلك كله ولم تبين اعرابا لما توقف الفهم على نصب الراكب والسحاب ولا على نصب زيد وهكذا يقال فى المجرورات وفى المفعول فيه والمفعول له والمفعول معه وفى المبتدا والخبر وغير ذلك من أقسام أخر لا حاجة الى ذكرها لكن قد تخرج عن هذه الامثلة ما لا يفهم الا بقيود تقيده وانما يقع ذلك فى الذى تدل صيغته الواحدة على معان مختلفة ولنضرب لذلك مثالا نوضحه فنقول اعلم أن من أقسام الفاعل

والمفعول مثلا لا يفهم الا بعلامة كتقديم المفعول على الفاعل فانه اذا لم يكن ثم علامة تبين أحدهما من الآخر والا أشكل الامر كقولك ضرب زيد عمرو ويكون زيد هو المضروب فانك اذا لم تنصب زيدا أو ترفع عمرا والا لا يفهم ما أردت وعلى هذا ورد قوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وكذلك لو قال قائل ما أحسن زيد ولم يبين الاعراب في ذلك لما علم غرضه منه اذ يحتمل أن يريد به التعجب من حسنه أو يريد به الاستفهام عن أي شيء منه أحسن ويحتمل أن يريد به الاخبار بنفي الاحسان عنه ولو بين الاعراب في ذلك فقال ما أحسن زيدا وما أحسن زيد وما أحسن زيد علمنا غرضه وفهمنا معنى كلامه لانفراد كل قسم من هذه الاقسام الثلاثة بما يعرف به من الاعراب فوجب حينئذ بذلك معرفة النحو اذ كان ضابطا لمعاني الكلام حافظا لها من الاختلاف * وأول من تكلم في النحو أبو الاسود الدؤلي وسبب ذلك أنه دخل على ابنته بالبصرة فقالت له يا أبت ما أشد الحر متعجبة ورفعت أشد فظنها مستفهمة فقال شهر ناجر فقالت يا أبت انما أخبرتك ولم أسألك فأتى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال يا أمير المؤمنين ذهبت لغة العرب ويوشك ان تطاول عليها زمان أن تضمحل فقال له وما ذلك فأخبره خبر ابنته فقال هلم صحيفة ثم أملى عليه الكلام لا يخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ثم رسم له رسوما فنقلها النحويون في كتبهم وقيل ان أبا الاسود دخل على زياد ابن أبيه بالبصرة فقال اني أرى العرب قد خالطت العجم وتغيرت ألسنتها أفتأذن لي أن أضع ما يقيمون به كلامهم فقال لا فقام من عنده ودخل عليه رجل فقال أيها الامير مات أبانا وخلف بنون فقال زياد مات أبانا وخلف بنون ؟؟ ردوا علي أبا الاسود فردوه فقال له اصنع ما كنت نهيتك عنه فوضع شيأ ثم جاء بعده ميمون الاقرن فزاد عليه ثم جاء بعده عنبسة بن معدان المهري فزاد عليه ثم جاء بعده عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي وأبو عمرو ابن العلاء فزادا عليه ثم جاء بعدهما الخليل بن أحمد الازدي وتتابع الناس واختلف البصريون والكوفيون في بعض ذلك فهذا ما بلغني من أمر النحو في أول وضعه وكذلك العلوم كلها أول وضعها في مبادى أمرها شيء يسير ثم يزاد بالتدريج الى أن يستكمل آخرا (فان قيل) أما علم النحو فسلم اليك أنه يجب معرفته لكن التصريف لا حاجة اليه لان التصريف انما هو معرفة أصل

الكلمة وزيادتها وحذفها وابدالها وهذا لا يضر جهله ولا تنفع معرفته ولنضرب
لذلك مثالا كيف اتفق فنقول اذا قال القائل رأيت سرداحا لا يلزمه أن يعرف
الالف في هذه الكلمة زائدة هي أم أصلية لان العرب لم تنطق بها الا كذلك
ولو قالت سردحا بغير ألف لما جاز لأحد أن يزيد الالف فيها من عنده فيقول
سرداحا فعلم بهذا أنه انما ينطق بالالفاظ كما سمعت من العرب من غير زيادة فيها ولا
نقص وليس يلزم بعد ذلك أن يعلم أصلها ولا زيادتها لان ذلك أمر خارج تقتضيه
صناعة تأليف الكلام (فالجواب) عن ذلك أنا نقول اعلم أنا لم نجعل معرفة
التصريف كمعرفة النحو لان الكاتب أو الشاعر اذا كان عارفا بالمعاني مختارا
لها قادرا على الالفاظ مجيدا فيها ولم يكن عارفا بعلم النحو فانه يفسد ما يصوغه
من الكلام ويختل عليه ما يقصده من المعاني كما أريناك في ذلك المثال المتقدم
وأما التصريف فانه اذا لم يكن عارفا به لم تفسد عليه معاني كلامه وانما تفسد
عليه الاوضاع وان كانت المعاني صحيحة وسيأتي بيان ذلك في تحرير الجواب
فنقول أما قولك ان التصريف لا حاجة اليه واستدلالك بما ذكرته من المثال
المضروب فان ذلك لا يستمر لك الكلام فيه ألا ترى أنك انما مثلت كلامك في لفظة
سرداح وقلت انه لا يحتاج الى معرفة الالف زائدة هي أم أصل لانها انما نقلت
عن العرب على ما هي عليه من غير زيادة ولا نقص وهذا لا يطرد الا فيما هذا سبيله
من نقل الالفاظ على هيئتها من غير تصرف فيها بحال فأما اذا أريد تصغيرها
أو جمعها والنسبة اليها فانه اذا لم يعرف الاصل في حروف الكلمة وزيادتها
وحذفها وابدالها يضل حينئذ عن السبيل وينشأ من ذلك مجال للعائب
والطاعن ألا ترى أنه اذا قيل للنحوي وكان جاهلا بعلم التصريف كيف تصغر لفظة
اضطراب فانه يقول ضطيرب ولا يلام على جهله بذلك لان الذي تقتضيه صناعة
النحو قد أتى به وذلك أن النحاة يقولون اذا كانت الكلمة على خمسة أحرف وفيها
حرف زائد أو لم يكن حذفته نحو قولهم في منطلق مطيلق وفي جحمرش جحيمر
فلفظة منطلق على خمسة أحرف وفيها حرفان زائدان هما الميم والنون الا أن الميم
زيدت فيها لمعنى فلذلك لم تحذف وحذفت النون وأما لفظة جحمرش فخماسية
لا زيادة فيها وحذف منها حرف أيضا ولم يعلم النحوي أن علماء النحو انما قالوا
ذلك معولا اتكالا منهم على تحقيقه من علم الصرف لانه لا يلزمهم أن يقولوا

فى كتب النحو أكثر مما قالوا وليس عليهم أن يذكروا فى باب من أبواب النحو شيأ من التصريف لان كلا من النحو والتصريف علم منفرد برأسه غير أن أحدهما مرتبط بالآخر ومحتاج اليه وانما قلت ان النحوى اذا سئل عن تصغير لفظة اضطراب يقول ضطيرب لانه لا يعلم اما أن يحذف من لفظة اضطراب الالف أو الضاد أو الطاء أو الراء أو الباء وهذه الحروف المذكورة غير الالف ليست من حروف الزيادة فلا تحذف بل الاولى أن يحذف الحرف الزائد ويترك الحرف الذى ليس بزائد فلذلك قلنا ان النحوى يصغر اللفظة اضطرابا على ضطيرب فيحذف الالف التى هى حرف زائد ويعتبرها مما ليس من حروف الزيادة وأما الذى يعلم أن الطاء فى اضطراب مبدلة من تاء وأنه اذا أريد تصغيرها تعاد الى الاصل الذى كانت عليه وهو التاء فيقال ضتيرب فان هذا لا يعلمه الا التصريفى وتكليف النحوى الجاهل بعلم التصريف معرفة ذلك كتكليفه علم ما لا يعلمه فثبت بما ذكرناه أنه يحتاج الى علم التصريف لئلا يغلط فى مثل هذا (ومن العجب) أن يقال انه لا يحتاج الى معرفة التصريف ألم تعلم أن نافع بن أبى نعيم وهو من أكبر القراء السبعة قدرا وأفخمهم شأنا قال فى معايش معائش بالهمز ولم يعلم الاصل فى ذلك فأخذ عليه وعيب من أجله ومن جملة من عابه أبو عثمان المازنى فقال فى كتابه فى التصريف ان نافعا لم يدر ما العربية وكثيرا ما يقع أولو العلم فى مثل هذه المواضع فكيف الجهال الذين لا معرفة لهم بها ولا اطلاع لهم عليها واذا علم حقيقة الامر فى ذلك لم يغلط فيما وجب قدما ولا حديثا وهذه لفظة معايش لا يجوز همزها باجماع من علماء العربية لان الياء فيها ليست مبدلة من همزة وانما الياء التى تبدل من الهمزة فى هذا الموضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف ويكون بعدها حرف واحد ولا تكون عينا فى مثل شقائق وفى هذا الموضع غلط نافع رحمة الله عليه لانه لاشك اعتقد أن معيشة بوزن فعيلة وجمع فعيلة هو على فعائل ولم ينظر الى أن الاصل فى معيشة معيشة على وزن مفعلة وذلك لان أصل هذه الكلمة من عاش التى أصلها عيش على وزن فعل ويلزم مضارع فعل المعتل العين يفعل لتصح الياء فهو يعيش ثم تنقل حركة العين الى الفاء فتصير يعيش ثم يبنى من يعيش مفعول فيقال معيوش به كما يقال مسيور به ثم يخفف ذلك بحذف الواو فيقال معيش به كما يقال مسير به ثم تؤنث هذه اللفظة فتصير معيشة ومع هذا فلا ينبغى لصاحب هذه

قوله لان الياء ليست الخ الظاهر أن يقول لان المد فى مفرده غير زائد كما قال ابن مالك والمد زيد ثالثا فى الواحد همزا يرى فى مثل كالقلائد اه

الصناعة من التعلم والتعليم أن يهمل من علم العربية ما يخفى عليه بإهماله اللحن
الخفي فإن اللحن الظاهر قد كثرت مفاوضات الناس فيه حتى صار يعلمه غير النحوي
ولا شك أن قلة المبالاة بالأمر واستشعار القدرة عليه توقع صاحبه فيما لا يشعر أنه
وقع فيه فيجهل بما يكون عالما به ألا ترى أن أبا نواس كان معدودا في طبقات العلماء
مع تقدمه في طبقات الشعراء وقد غلط فيما لا يغلط مثله فيه فقال في صفة الخمر

كأن صغرى وكبرى من فواقعها ● حصباء در على أرض من الذهب

وهذا لا يخفى على مثل أبي نواس فإنه من ظواهر علم العربية وليس من غوامضه
في شيء لأنه أمر نقلي يحمل ناقله فيه على النقل من غير تصرف وقول أبي
نواس صغرى وكبرى غير جائز فإن فعلى أفعل لا يجوز حذف الألف واللام منها
وإنما يجوز حذفهما من فعلى التي لا أفعل لها نحو حبلى إلا أن تكون فعلى
أفعل مضافة وههنا قد عريت عن الإضافة وعن الألف واللام فانظر كيف وقع
أبو نواس في مثل هذا الموضع مع قربه وسهولته وقد غلط أبو تمام في قوله

بالقائم الثامن المستخلف اطأدت ● قواعد الملك ممتدا لها الطول

ألا ترى أنه قال اطأدت والصواب اتطدت لأن التاء تبدل من الواو في موضعين
أحدهما مقيس عليه كهذا الموضع لأنك إذا بنيت افتعل من الوعد قلت اتعد
ومثله ما ورد في هذا البيت فإنه من وطد يطد كما يقال وعد يعد فإذا بني منه افتعل
قيل اتطد ولا يقال اطأد وأما غير المقيس فقولهم في وجاه تجاه وقالوا تكلان
وأصله الواو لأنه من وكل يكل فأبدلت الواو تاء للاستحسان فهذه الأمثلة
قد أشرت إليها ليعلم مكان الفائدة في أمثالها ويوقف على أني لم أجد أحدا من
الشعراء المفلقين سلم من مثل ذلك فإما أن يكون لحنا يدل على جهله بمواقع
الإعراب وإما أن يكون خطأ في تصريف الكلمة ولا أعني بالشعراء من هو
قريب عهد بزماننا بل أعني بالشعراء من تقدم زمانه كالمتنبي ومن كان قبله
كالبحتري ومن تقدمه كأبي تمام ومن سبقه كأبي نواس والمعصوم من
عصمه الله تعالى على أن الخطأ في التصريف أندر وقوعا من الخطأ في النحو لأنه
قل ما يقع فيما يحتاج في استعمالها إلى الإبدال والنقل في حروفها وأما النحو
فإنه يقع الغلط فيه كثيرا حتى إنه ليشذ في ظاهره في بعض الأحوال فكيف خافيه
كقول أبي نواس في الأمين محمد رحمه الله

ياخير من كان ومن يكون • الا النبى الطاهر الميمون

فرفع فى الاستثناء من الموجب وهذا من ظواهر النحو وليس من خافيه فى شئ وكذلك قال أبو الطيب المتنبي

أرأيت همة ناقتى فى ناقة • نقلت يدا سرحا وخفا مجمرا
تركت دخان الرمث فى أوطانها • طلبا لقوم يوقدون العنبرا
وتكرمت ركباتها عن مبرك • تقعان فيه وليس مسكا اذفرا

فجمع فى حال التثنية لان الناقة ليس لها الا ركبتان فقال ركبات وهذا من أظهر ظواهر النحو وقد خفى على مثل المتنبي ومع هذا فينبغى لك أن تعلم أن الجهل بالنحو لا يقدح فى فصاحة ولا بلاغة ولكنه يقدح فى الجاهل به نفسه لانه رسوم قوم تواضعوا عليه وهم الناطقون باللغة فوجب اتباعهم والدليل على ذلك أن الشاعر لم ينظم شعره وغرضه منه رفع الفاعل ونصب المفعول أو ماجرى مجراهما وانما غرضه ايراد المعنى الحسن فى اللفظ الحسن المتصفين بصفة الفصاحة والبلاغة ولهذا لم يكن اللحن قادحا فى حسن الكلام لانه اذا قيل جاء زيدا كب ان لم يكن حسنا الا بأن يقال جاء راكبا بالنصب لكان النحو شرطا فى حسن الكلام وليس كذلك فتبين بهذا أنه ليس الغرض من نظم الشعر اقامة اعراب كلماته وانما الغرض أمر وراء ذلك وهكذا يجرى الحكم فى الخطب والرسائل من الكلام المنثور وأما الادغام فلا حاجة اليه لكاتب لكن الشاعر ربما احتاج اليه لانه قد يضطر فى بعض الاحوال الى ادغام حرف والى فك ادغام من أجل اقامة الميزان الشعرى (النوع الثانى) وهو قولنا انه يحتاج الى معرفة اللغة مما تداول استعماله فسيرد بيانه عند ذكر اللفظة الواحدة والكلام على جيدها ورديئها فى المقالة المختصة بالصناعة اللفظية ويفتقر أيضا مؤلف الكلام الى معرفة عدة أسماء لما يقع استعماله فى النظم والنثر ليجد اذا ضاق به موضع فى كلامه بايراد بعض الالفاظ فيه العدول عنه الى غيره مما هو فى معناه وهذه الاسماء تسمى المترادفة وهى اتحاد المسمى واختلاف أسمائه كقولنا الخمر والراح والمدام فان المسمى بهذه الاسماء شئ واحد واسماؤه كثيرة وكذلك يحتاج الى معرفة الاسماء المشتركة ليستعين بها على استعمال التجنيس فى كلامه وهى اتحاد الاسم واختلاف المسميات كالعين فانها تطلق على العين الناظرة وعلى

ينبوع الماء وعلى المطر وغيره الا ان المشترك تفتقر في استعماله الى قرينة
تخصصها كي لا تكون مبهمة لانا اذا قلنا عين وسكتنا وقع ذلك على مسميات
كثيرة من العين الناظرة والعين النابعة والمطر وغيره مما هو موضوع بازاء هذا
الاسم واذا قرناها بقرينة تخصه زال ذلك الابهام بأن نقول عين حسنة أو عين
نضاخة أو هطالة أو غير ذلك * وهذا موضع للعلماء فيه مجاذبات جدلية (فمنهم)
من ينكر أن يكون اللفظ المشترك حقيقة في المعنيين جميعا ويقول ان ذلك
يخل بفائدة وضع اللغة لان اللغة انما هي وضع الالفاظ فيدلالتها على المعاني
أي وضع الاسماء على المسميات لتكون منبئة عنها عند اطلاق اللفظ والاشتراك
لا بيان فيه وانما هو ضد البيان لكن طريق البيان أن يجعل أحد المعنيين
في اللفظ المشترك حقيقة والآخر مجازا فاذا قلنا هذه كلمة وأطلقنا القول فهم
منه اللفظة الواحدة واذا قصدنا اللفظ فقلنا هذه كلمة شاعرة فهم منه القصيدة
المقصدة من الشعر وهي مجموع كلمات كثيرة ولو أطلقنا من غير تقييد وأردنا
القصيدة من الشعر لما فهم مرادنا البتة * هذا خلاصة ما ذهب اليه من ينكر
وقوع اللفظ المشترك في المعنيين حقيقة وفي ذلك ما فيه * وأبين ما يدخله من
الخلل فأقول في الجواب عن ذلك ما استخرجته بفكري ولم يكن لاحد فيه
قول من قبلي وهو أما قولك ان فائدة وضع اللغة انما هو البيان عند اطلاق اللفظ
واللفظ المشترك يخل بهذه الفائدة فهذا غير مسلم بل فائدة وضع اللغة هو البيان
والتحسين (أما البيان) فقد وفى الاسماء المتباينة التي هي كل اسم واحد دل على
مسمى واحد فاذا أطلق اللفظ في هذه الاسماء كان بينا مفهوما لا يحتاج الى
قرينة ولو لم يضع الواضع من الاسماء شيأ غيرها لكان مكتفيا في البيان
(وأما التحسين) فان الواضع لهذه اللغة العربية التي هي أحسن اللغات نظر الى
ما يحتاج اليه أرباب الفصاحة والبلاغة فيما يصوغونه من نظم ونثر ورأى أن
من مهمات ذلك التجنيس ولا يقوم به الا الاسماء المشتركة التي هي كل اسم واحد
دل على معنيين فصاعدا فوضعها من أجل ذلك * وهذا الموضع يتجاذبه جانبان
يترجح أحدهما على الآخر وبيانه أن التحسين يقضي بوضع الاسماء المشتركة
ووضعها يذهب بفائدة البيان عند اطلاق اللفظ وعلى هذا فان وضعها الواضع
ذهب بفائدة البيان وان لم يضع ذهب بفائدة التحسين لكنه ان وضع

استدرك ما ذهب من فائدة البيان بالقرينة وان لم يضع لم يستدرك ما ذهب من فائدة التحسين فترجح حينئذ جانب الوضع فوضع (فان قيل) فلم لا تنسب الاسماء المشتركة الى اختلاف القبائل لا الى واضع واحد (قلت) في الجواب هذا تعسف لا حاجة اليه وهو مدفوع من وجهين أحدهما ما قدمنا القول فيه من الترجيح الذي سوغ للواضع أن يضع الآخر ألا ترى أنه قد ورد من الجموع ما يقع على مسميين اثنين كقولهم كعاب جمع كعب الذي هو كعب الرجل وجمع كعبة وهي البنية المعروفة واذا أطلقنا اللفظ فقلنا كعاب من غير قرينة لا يدرى ما المراد بذلك أكعب الرجل أم البنية المعروفة وكذلك ورد واحد وجمع على وزن واحد كقولهم راح اسم للخمر وراح جمع راحة وهي الكف وكقولهم عقاب وهو الجزاء على الذنب وجمع عقبة أيضا وفي اللغة من هذا شئ كثير وهو بالاجماع من علماء العربية أنه لم يجر فيه خلاف بين القبائل فاتضح بهذا أن الاسماء المشتركة من واضع واحد (فان قلت) ان الواضع انما وضع المفرد من الالفاظ والجمع وضعه غيره (قلت) في الجواب ان الذي وضع المفرد هو الذي وضع الجمع لان من قواعد وضع اللغة أن يوضع المفرد والجمع والمذكر والمؤنث والمصغر والمكبر والمصادر وأسماء الفاعلين وما يجري هذا المجرى واذا أخل بشئ من ذلك كان قد أخل بقاعدة من قواعد وضع اللغة ثم لو سلمت اليك أن واضع الجمع غير واضع المفرد لكان ذلك قد فات الواضع الثاني اذ جاء بالابهام عند اطلاق اللفظ لانه جمع كعبة التي هي البنية وكعب الرجل على كعاب وهذا لفظ مشترك مبهم عند الاطلاق ولا فرق بين أن يضعه الواضع الاول أو واضع ثان فان الابهام حاصل منه • وكان فاوضني بعض الفقهاء في قوله تعالى في سورة البقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين وقال ان لون البقرة كان أسود والاصفر هو الاسود فأنكرت عليه هذا القول فأخذ يجادل مجادلة غير عارف ويعزو ذلك الى تفسير النقاش وتفسير البلاذري فقلت له اعلم أن هذا الاسم الذي هو الاصفر لا يخلو في دلالته على الاسود من وجهين اما أنه من الاسماء المتباينة التي يدل كل اسم منها على مسمى واحد كالانسان والاسد والفرس وغير ذلك واما أنه من الاسماء المشتركة التي يدل الاسم منها على مسميين فصاعدا ولا يجوز أن يكون من الاسماء المتباينة لانا نراه متجاذبا بين لونين أحدهما هذا اللون

الزعفراني الشكل والآخر اللون المظلم الشكل وعلى هذا فانه يكون من الاسماء
المشتركة واذا كان من الاسماء المشتركة فلا بد له من قرينة تخصصه باللون
الزعفراني دون اللون المظلم لان الله تعالى قال صفراء فاقع لونها والفاقع من
صفات اللون الزعفراني خاصة لانه قد ورد للالوان صفات متعددة فلكل لون منها
صفة فقيل أبيض يقق وأسود حالك وأحمر قان وأصفر فاقع ولم يقل أسود فاقع
ولا أبيض حالك فعلم حينئذ أن لون البقرة لم يكن أسود وانما كان أصفر فاقعا فتحقق
عند ذلك الفقيه ما أشرت اليه أذعن بالتسليم (وأما النوع الثالث) فهو
معرفة أمثال العرب وأيامهم ومعرفة الوقائع التي وردت في حوادث خاصة
بأقوام وقولي هذا لا يقتضي كل الامثال الواردة عنهم فان منها ما لا يحسن
استعماله كما أن من ألفاظهم أيضا ما لا يحسن استعماله وكنت جردت من
كتاب الامثال للميداني أوراقا خفيفة تشتمل على الحسن من الامثال الذي
يدخل في باب الاستعمال وسبيل المتصدي لهذا الفن أن يسلك ما سلكته وليعلم
أن الحاجة اليها شديدة وذلك أن العرب لم تضع الامثال الا لاسباب أوجبتها
وحوادث اقتضتها فصار المثل المضروب لامر من الامور عندهم كالعلامة التي
يعرف بها الشيء وليس في كلامهم أوجز منها ولا أشد اختصارا وسبب ذلك
ما أذكره لك لتكون من معرفته على يقين (فأقول) قد جاء عن العرب من جملة
أمثالهم ان يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر وهو مثل يضرب للامر الظاهر
المشهور والاصل فيه كما قال المفضل بن محمد انه بلغنا أن بني ثعلبة بن سعد بن ضبة
في الجاهلية تراهنوا على الشمس والقمر ليلة أربع عشرة من الشهر فقالت
طائفة تطلع الشمس والقمر يرى وقالت طائفة يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس
فتراضوا برجل جعلوه حكما فقال واحد منهم ان قومي يبغون علي فقال الحكم
ان يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر فذهبت مثلا ومن المعلوم أن قول
القائل ان يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر اذا أخذ على حقيقته من غير
نظر الى القرائن المنوطة به والاسباب التي قيل من أجلها لا يعطي من المعنى ما قد
أعطاه المثل وذلك أن المثل له مقدمات وأسباب قد عرفت وصارت مشهورة بين
الناس معلومة عندهم وحيث كان الامر كذلك جاز ايراد هذه اللفظات
في التعبير عن المعنى المراد ولولا تلك المقدمات المعلومة والاسباب المعروفة لما فهم

من قول القائل ان يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر ما ذكرناه من المعنى المقصود بل ما كان يفهم من هذا القول معنى مفيد لان البغي هو الظلم والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحدا فكان يصير معنى المثل ان كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر وهذا كلام مختبل المعنى ليس بمستقيم فلما كانت الامثال كالرموز والاشارات التي يلوح بها على المعاني تلويحا صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصارا ومن أجل ذلك قيل في حد المثل انه القول الوجيز المرسل ليعمل عليه وحيث هي بهذه المثابة فلا ينبغي الاخلال بمعرفتها (وأما أيام العرب) فانها تتنوع وتتشعب فمنها أيام مفاخرة ومنها أيام محاربة ومنها أيام منافرة ومنها غير ذلك ولا يخلو الناظم والناثر من الاحتياج لوصف يوم يمر به في بعض الاحوال شبيها بيوم من تلك الايام ومماثلا له فاذا ما ابتدأ بذكر بعض تلك الايام المناسبة لمراده الموافقة له وقاس عليه يومه فانه يكون في غاية الحسن والرونق هذا لا خفاء به (وأما الوقائع) التي وردت في حوادث خاصة بأقوام فانها كالامثال في الاستشهاد بها وسأبين لك نبذة منها حتى تعلم مقدار الفائدة بها فمن ذلك أنه ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث بيعة الحديبية تحت الشجرة وكان أرسل عثمان رضي الله تعالى عنه الى مكة في حاجة عرضت له ولم يحضر البيعة فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الشمال على اليمين وقال هذه عن عثمان وشمالي خير من يمينه وقد استعملت أنا هذا في جملة كتاب فقلت ولا يعتد البر برا حتى يلحق الغيب بالحضور ويصل من لم يصله بجزاء ولا شكور فزنة الغائب بالشاهد من كرم الاحسان ولهذا نابت شمال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمين عثمان ومن ذلك أنه ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه استدعى أبا موسى الاشعري ومن يليه من العمال وكان منهم الربيع بن زياد الحارثي فمضى الى يرفأ مولى عمر وسأله عما يروج عنده وينفق عليه فأشار الى خشونة العيش فمضى ولبس جبة صوف وعمامة دسماء وخفا مطابقا وحضر بين يديه في جملة العمال فصوب عمر نظره وصعده فلم يقع الا عليه فأدناه وسأله عن حاله ثم أوصى أبا موسى الاشعري به وقد استعملت أنا هذا في جملة تقليد لبعض العمال من ديوان الخلافة فقلت واذا استعنت بأحد على عملك فاضرب عليه بالارصاد ولا ترض بما رقته من مبدإ حاله فان الاحوال تنتقل بتنقل الاجساد واياك أن تخدع

البز الثياب كذا في القاموس

بصلاح الناظر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد فانظر كيف ضمنت الحكايتين
القصتين وكيف أوردتهما في الغرض الذي قصدته واعمل أنت على هذا النهج
فانه من محاسن هذه الصناعة وعرض على كتاب كتبه عبد الرحيم بن علي
البيساني رحمه الله عن الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله الى ديوان
الخلافة ببغداد في سنة احدى وسبعين وخمسمائة وضمنه ما بلاه في خدمة الدولة
من فتح الديار المصرية ومحو الدولة العلوية واقامة الدعوة العباسية وشرح فيه
ما قاساه في الفتح من الاهوال ولما تأملته وجدته كتابا حسنا قد وفى فيه
الخطابة حقها الا أنه أخل بشيء واحد وهو أن مصر لم تفتح الا بعد أن قصدت من
الشام ثلاث مرات وكان الفتح في المرة الثالثة وهذا له نظير في فتح النبي صلى الله
عليه وسلم مكة فانه قصدها عام الحديبية ثم سار اليها في عمرة القضاء ثم سار اليها
عام الفتح ففتحها وقد سألني بعض الاخوان أن أنشئ في ذلك كتابا الى ديوان
الخلافة معارضا الكتاب الذي أنشأه عبد الرحيم بن علي رحمه الله فأجبته الى
سؤاله وعددت مساعي صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله فقلت وتلك جملتها
ما فعله الخادم في الدولة المصرية وقد قام بها منبر وسرير وقالت منا أمير ومنكم
أمير فرد الدعوة العباسية الى معادها وأذكر المنابر ما نسيته بها من ذكر أعوادها
وكانت أخرجت منها اخراج النبي صلى الله عليه وسلم من قريته وقذف الشيطان
على حقها بباطله وعلى صدقها بفريته ثم طوتها الليالي طي السجل للكتاب وكر
عليها مرور الدهر حتى نسي لها عدد السنين والحساب ولم يعدها الى وطنها حتى
تغربت لها الارواح عن أوطانها وهجرت لها أجفان السيوف سمر العيون من
أجفانها وتطاردت الآراء في تسهيل أمرها قبل مطاردة أقرانها وحتى
تقسمتها غربات ثلاث كلها ذوات غروب وكل خطب من خطوبها ذو خطوب
الى أن تمخض ليلها عن صبحه وأصبحت في الاسلام كعام حديبيته وعمرة قضائه
وعام فتحه وفي ذكر أخبارها ما يطبع الاسنة في رؤس الاقلام ويرهب سامعها
ولم ينله شيء من مكروهها سوى الكلام ويومها الدولة هو اليوم الذي أرخ فيه
معاد نصرها ومعاد بشرها فاذا عدت لياليها السالفة كانت كسائر الليالي وهذه
ليلة قدرها فهذا فصل من فصول الكتاب فانظر كيف ماثلت بين الفتح المصري
وفتح مكة وذكرت أيضا حديث الحباب بن المنذر الانصاري حيث قال بعد وفاة

النبى صلى الله عليه وسلم منا أمير ومنكم أمير وذلك لما حضر أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم فى سقيفة بنى ساعدة والقصة مشهورة فقال الحباب بن المنذر منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر رضى الله عنه بل نحن الأمراء وأنتم الوزراء وهذا الذى ذكرته هو نكتة هذا الفن التى عليها المعول ومركزه الذى عليه يدور (وعجبت) من عبد الرحيم بن على البيسانى مع تقدمه فى فن الكتابة كيف فاته أن يأتى به فى الكتاب الذى كتبه وكذلك وجدت لابن زيادة البغدادى كتابا كتبه الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف المقدم ذكره فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وضمنه فصولا تشتمل على أمور أنكرت عليه من ديوان الخلافة فمن تلك الأمور التى أنكرت عليه أنه تلقب بالملك الناصر وذلك لقب هو لأمير المؤمنين خاصة فانه الامام الناصر لدين الله فلما وقفت على ذلك الكتاب وجدته كتابا حسنا قد أجاد فيه كل الاجادة ولم أجد فيه مغمزا الا فى هذا الفصل الذى يتضمن حديث اللقب فانه لم يأت بكلام يناسب باقى الفصول المذكورة بل أتى فيه بكلام فيه غثاثة كقوله ما يستحله المولى فهو على عبده حرام وشيأ من هذا النسق وكان الاليق والأحسن أن يحتج بحجة فيما روح ويذكر كلاما فيه ذلاقة ورشاقة وحضر عندى فى بعض الأيام بعض أخوانى وجرى حديث ذلك فسألنى عما كان ينبغى أن يكتب فى هذا الفصل فذكرت ما عندى وهو قد علم أن للأنبياء والخلفاء خصائص يختصون بها على حكم الانفراد وليس لأحد من الناس أن يشاركهم فيها مشاركة الأنداد وقد أجرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فى أشياء نص عليها بحكمه ومن جملتها أنه نهى غيره أن يجمع بين كنيته وبين اسمه وهذا مسوغ لأمير المؤمنين أن يختص بأمر يكون به مشهورا وعلى غيره محظورا وقد وسم نفسه بسمة نزلت عليه من السماء وتميزت به من بين المسميات والأسماء ثم استمرت عليها الأيام حتى خوطب بها من الحاضر والباد ورفعها الخطباء على المنابر فى أيام الجمع ومواسم الأعياد وقد شاركته أنت فيها غير مراقب لمزية التعظيم ولا فارق بين فسحة التحليل وحرج التحريم والشرع والأدب يحكمان عليك بأن تلافى ما فرط منك بالمتاب ولا تحوج فيه الى التقريع الذى هو أشد العتاب ومثلك من عرف الحق فأمسكه بيده ونسخ اغفال أمسه باستئناف التيقظ فى غده

والله قد رفع المؤاخذة عن أتى الشئ خطأ لا عمدا وقبل التوبة عن أخذ على نفسه بالاخلاص عهدا * فانظر أيها المتأمل كيف جئت بالخبر النبوى وجعلته شاهدا على هذا الموضع ولا يمكن أن يحتج فى مثل ذلك الا بمثل هذا الاحتجاج وما أعلم كيف شذ عن ابن زياد أن يأتى به مع أنه كان كاتبا مفلقا أرتضى كتابته ولم أجد فى متأخرى العراقيين من يماثله فى هذا الفن (وأما النوع الرابع) وهو الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور فان فى ذلك فوائد جمة لانه يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم ويعرف به مقاصد كل فريق منهم والى أين ترامت به صنعته فى ذلك فان هذه الاشياء مما تشحذ القريحة وتذكى الفطنة واذا كان صاحب هذه الصناعة عارفا بها تصير المعانى التى ذكرت وتعب فى استخراجها كالشئ الملقى بين يديه يأخذ منه ما أراد ويترك ما أراد وأيضا فانه اذا كان مطلعا على المعانى المسبوق اليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق اليه ومن المعلوم أن خواطر الناس وان كانت متفاوتة فى الجودة والرداءة فان بعضها لا يكون عاليا على بعض أو منحطا عنه الا بشئ يسير وكثيرا ما تتساوى القرائح والافكار فى الاتيان بالمعانى حتى ان بعض الناس قد يأتى بمعنى موضوع بلفظ ثم يأتى الآخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينهما من غير علم منه بما جاء به الاول وهذا الذى يسميه أرباب هذه الصناعة وقوع الحافر على الحافر وسيأتى لذلك باب مفرد فى آخر كتابنا هذا ان شاء الله تعالى (وأما النوع الخامس) وهو معرفة الاحكام السلطانية من الامامة والامارة والقضاء والحسبة وغير ذلك فانما أوجبنا معرفتها والاحاطة بها لما يحتاج اليه الكاتب فى تقليدات الملوك والامراء والقضاة والمحتسبين ومن يجرى مجراهم وأيضا فانه قد يحدث فى الامامة حادث فى بعض الاوقات بأن يموت الامام القائم بأمر المسلمين ثم يتولى من بعده من لم تكمل فيه شرائط الامامة أو يكون كامل الشرائط غير أن الامام الذى كان قبله عهد بها الى آخر غيره وهو ناقص الشرائط أو يكون قد تنازع الامامة اثنان أو يكون أرباب الحل والعقد قد اختاروا اماما وهم غير كاملى الشرائط التى تجب أن توجد فيهم أو يكون أمر غير ما ذكرناه فتختلف الاطراف فى ذلك وينتصب ملك من الملوك له عناية بالامام الذى قد قام للمسلمين فيأمر كاتبه أن يكتب كتابا فى أمره الى الاطراف المخالفة له واذا لم يكن الكاتب

عند ذلك عارفا بالحكم فى هذه الحوادث واختلاف أقوال العلماء فيها وما هو
رخصة فى ذلك وما ليس برخصة لا يكتب كتابا ينتفع به ولسنا نعنى بهذا القول
أن يكون الكتاب مقصورا على فقه محض فقط لانا لو أردنا ذلك لما كنا نحتاج
فيه الى كتب كتاب بلاغى بل كنا نقتصر على ارسال مصنف من مصنفات الفقه
عوضا عن الكتاب وانما قصدنا أن يكون الكتاب الذى يكتب فى هذا المعنى
مشتملا على الترغيب والترهيب والمسامحة فى موضع والمناقشة فى موضع مشحونا
ذلك بالنكت الشرعية المبرزة فى قوالب البلاغة والفصاحة كما فعل الكاتب
الصابى فى الكتاب الذى كتبه عن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه
الى الامام الطائع لما خلع المطيع فانه من محاسن الكتب التى تكتب فى هذا
الفن (وأما النوع السادس) وهو حفظ القرآن الكريم فان صاحب هذه
الصناعة ينبغى له أن يكون عارفا بذلك لان فيه فوائد كثيرة منها أنه يضمن كلامه
بالآيات فى أماكنها اللائقة بها ومواضعها المناسبة لها ولا شبهة فيما يصير الكلام
بذلك من الفخامة والجزالة والرونق ومنها أنه اذا عرف مواقع البلاغة
وأسرار الفصاحة المودعة فى تأليف القرآن اتخذه بحرا يستخرج منه الدرر
والجواهر ويودعها مطاوى كلامه كما فعلته أنا فيما أنشأته من المكاتبات
وكفى بالقرآن الكريم وحده آلة وأداة فى استعمال أفانين الكلام فعليك أيها
المتوشح لهذه الصناعة بحفظه والفحص عن سره وغامض رموزه واشاراته فانه
تجارة لن تبور ومنبع لا يغور وكنز يرجع اليه وذخر يعول عليه (وأما النوع
السابع) وهو حفظ الاخبار النبوية مما يحتاج الى استعماله فان الامر فى ذلك
يجرى مجرى القرآن الكريم وقد تقدم القول عليه فاعرفه (وأما النوع
الثامن) وهو ما يختص بالناظم دون الناثر وذلك معرفة العروض وما يجوز
فيه من الزحاف وما لا يجوز فان الشاعر محتاج اليه ولسنا نوجب عليه المعرفة
بذلك لينظم بعلمه فان النظم مبنى على الذوق ولو نظم بتقطيع الافاعيل لجاء شعره
متكلفا غير مرضى وانما أريد للشاعر معرفة العروض لان الذوق قد ينبو عن
بعض الزحافات ويكون ذلك سائغا فى العروض وقد ورد للعرب مثله فاذا كان
الشاعر غير عالم به لم يفرق بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوز وكذلك أيضا يحتاج
الشاعر الى العلم بالقوافى والحركات ليعلم الروى والردف وما يصح من ذلك

وما لا يسمع فاذا أكمل صاحب هذه الصناعة معرفة هذه الآلات وكان له طبع مجيب وقريحة مواتية فعليه بالنظر في كتابي هذا والتصفح لما أودعناه من حقائق علم البيان ونبهنا عليه من أصول ذلك وفروعه على أن الذي ذكرناه من هذه الآلات الثمان هو كالاصل لما يحتاج اليه الخطيب والشاعر ومعرفته ضرورية لابد منها وههنا أشياء أخر هي كالتوابع والروادف وبالجملة فان صاحب هذه الصناعة يحتاج الى التشبث بكل فن من الفنون حتى انه يحتاج الى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء والماشطة عند جلوة العروس والى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة فما ظنك بما فوق هذا والسبب في ذلك أنه مؤهل لان يهيم في كل واد فيحتاج أن يتعلق بكل فن

(الفصل الثالث في الحكم على المعاني) وفائدة هذا الفصل الاحاطة بأساليب المعاني على اختلافها وتباينها وصاحب هذه الصناعة مفتقر الى هذا الفصل والذي يليه بخلاف غيرهما من هذه الفصول المذكورة لا سيما مفسري الاشعار فانهم به أعنى * واعلم أن الاصل في المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ومن يذهب الى التأويل يفتقر الى دليل كقوله تعالى وثيابك فطهر فالظاهر من لفظ الثياب هو ما يلبس ومن تأول ذهب الى أن المراد هو القلب لا الملبوس وهذا لا بد له من دليل لانه عدول عن ظاهر اللفظ وكذلك ورد عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال اذا أردت أن تصلي فادخل بيتك وأغلق بابك فالظاهر من هذا هو البيت والباب ومن تأول ذهب الى أنه أراد أنك تجمع عليك همّ قلبك وتمنع أن يخطر به سوى أمر الصلاة فعبر عن القلب بالبيت وعن منع الخواطر التي تخطر له باغلاق الباب وهذا يحتاج الى دليل لانه عدول عن ظاهر اللفظ فالمعنى المحمول على ظاهره لا يقع في تفسيره خلاف والمعنى المعدول عن ظاهره الى التأويل يقع فيه الخلاف اذ باب التأويل غير محصور والعلماء متفاوتون في هذا فانه قد يأخذ بعضهم وجها ضعيفا من التأويل فيكسوه بعبارته قوة تميزه على غيره من الوجوه القوية فان السيف بضاربه

ان السيوف مع الذين قلوبهم * كقلوبهن اذا التقى الجمعان
تلقى الحسام على جراءة حده * مثل الجبان بكف كل جبان

وذهب بعضهم في الفرق بين التفسير والتأويل الى شيء غير مرضي فقال التفسير

بيان وضع اللفظ حقيقة كتفسير الصراط بالطريق والتأويل اظهار باطن اللفظ كقوله تعالى ان ربك لبالمرصاد فتفسيره من الرصد يقال رصدته اذا رقبته وتأويله تحذير العباد من تعدى حدود الله ومخالفة أوامره والذى عندى فى ذلك أنه أصاب فى الآخر ولم يصب فى الاول لان قوله التفسير بيان وضع اللفظ حقيقة لا مستند لجوازه بل التفسير يطلق على بيان وضع اللفظ حقيقة ومجازا لانه من الفسر وهو الكشف كتفسير الرصد فى الآية المشار اليها بالرقبة وتفسيره بالتحذير من تعدى حدود الله ومخالفة أوامره وأما التأويل فانه أخص من التفسير وذلك أنه رجوع عن ظاهر اللفظ وهو مشتق من الاول وهو الرجوع يقال آل يؤول اذا رجع وعلى هذا فان التأويل خاص والتفسير عام فكل تأويل تفسير وليس كل تفسير تأويلا ولهذا يقال تفسير القرآن ومن تفسيره ظاهر وباطن وهذا الفصل الذى نحن بصدد ذكره ههنا يرجع أكثره الى التأويل لانه أدق ولا يخلو تأويل المعنى من ثلاثة أقسام اما أن يفهم منه شىء واحد لا يحتمل غيره واما أن يفهم منه الشىء وغيره وتلك الغيرية اما أن تكون ضدا أو لا تكون ضدا وليس لنا قسم رابع فالاول يقع عليه أكثر الاشعار ولا يجرى فى الدقة واللطافة مجرى القسمين الآخرين وأما القسم الثانى فانه قليل الوقوع جدا وهو من أظرف التأويلات المعنوية لان دلالة اللفظ على المعنى وضده أغرب من دلالته على المعنى وغيره مما ليس بضده فمما جاء منه قول النبى صلى الله عليه وسلم صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فى غيره من المساجد الا المسجد الحرام فهذا الحديث يستخرج منه معنيان ضدان أحدهما أن المسجد الحرام أفضل من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والآخر أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من المسجد الحرام أى ان صلاة واحدة فيه لا تفضل ألف صلاة فى المسجد الحرام بل تفضل ما دونها بخلاف المساجد الباقية فان ألف صلاة فيها تقصر عن صلاة واحدة فيه وكذلك جاء قول النبى صلى الله عليه وسلم أيضا من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ما شئت وهذا يشتمل على معنيين ضدين أحدهما أن المراد به اذا لم تفعل فعلا تستحى منه فافعل ما شئت والآخر أن المراد به اذا لم يكن لك حياء يزعك عن فعل ما يستحى منه فافعل ما شئت وهذان معنيان ضدان أحدهما مدح والآخر ذم ومثله

من الكلام يسمى الموجه أى له وجهان وهو مما يدل على براعة الشاعر وحسن تأتيه • وأما القسم الثالث فانه يكون أكثر وقوعا من القسم الثانى وهو واسطة بين طرفين لان القسم الاول كثير الوقوع والقسم الثانى قليل الوقوع وهذا القسم الثالث وسط بينهما فمما جاء منه قوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم فان هذا له وجهان من التأويل أحدهما القتل الحقيق الذى هو معروف والآخر هو القتل المجازى وهو الاكباب على المعاصى فان الانسان اذا أكب على المعاصى قتل نفسه فى الآخرة ومن ذلك ما ورد فى قصة ابراهيم وذبح ولده عليهما السلام فقال الله تعالى حكاية عنه وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين فقوله تعالى وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين قد يكون بشارة بنبوته بعد البشارة بميلاده وقد يكون استئنافا بذكره بعد ذكر اسمعيل عليه السلام وذبحه والتأويل متجاذب بين هذين الامرين ولا دليل على الاختصاص بأحدهما ولم يرد فى القرآن ما يدل على أن الذبيح اسمعيل ولا اسحق عليهما السلام وكذلك لم يرد فى الاخبار التى صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما ما روى عنه أنه قال أنا ابن الذبيحين فخارج عن الاخبار الصحيحة وفى التوراة ان اسحق عليه السلام هو الذبيح ومن ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم لازواجه أطولكن يدا أسرعكن لحوقا بى فلما مات صلوات الله عليه جعلن يطاولن بين أيديهن حتى نظرن أيتهن أطول يدا ثم كانت زينب أسرعهن لحوقا به وكانت كثيرة الصدقة فعلمن حينئذ أنه لم يرد الجارحة وانما أراد الصدقة فهذا القول يدل على المعنيين المشار اليهما ومن ذلك ما روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فلم يقل لشئ فعلته لم فعلته ولا لشئ لم أفعله لم لا فعلته وهذا القول يحتمل وجهين من التأويل أحدهما وصف

رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر على خلق من يصحبه والآخر أنه وصف نفسه بالفطنة والذكاء فيما يقصده من الاعمال كأنه متفطن لما في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيفعله من غير حاجة الى استئذانه ومن ذلك ما ورد في الادعية النبوية فانه صلى الله عليه وسلم دعا على رجل من المشركين فقال اللهم اقطع أثره وهذا يحتمل ثلاثة أوجه من التأويل الاول أنه دعا عليه بالزمانة لانه اذا زمن لا يستطيع أن يمشي على الارض فينقطع حينئذ أثره الوجه الثاني أنه دعا عليه بأن لا يكون له نسل من بعده ولا عقب الوجه الثالث أنه دعا عليه بأن لا يكون له أثر من الآثار مطلقا وهو أن لا يفعل فعلا يبقى أثره من بعده كائنا ما كان من عقب أو بناء أو غراس أو غير ذلك وظفرت الحرورية برجل فقالوا له ابرأ من علي وعثمان فقال انا من علي ومن عثمان أبرأ فهذا يدل على معنيين أحدهما أنه بريء من عثمان وحده والآخر أنه بريء منهما جميعا والرجل لم يرد الا الوجه الاول ومن ذلك ما يحكى عن عبد المسيح بن بقيلة لما نزل بهم خالد ابن الوليد على الحيرة وذاك أنه خرج اليه عبد المسيح بن بقيلة فلما مثل بين يديه قال أنعم صباحا أيها الملك فقال له خالد قد أغنانا الله عن تحيتك هذه بسلام عليكم ثم قال له من أين أقصى أثرك قال من ظهر أبي قال فمن أين خرجت قال من بطن أمي قال فعلام أنت قال على الارض قال ففيم أنت قال في ثيابي قال ابن كم أنت قال ابن رجل واحد قال خالد ما رأيت كاليوم قط أنا أسأله عن الشيء وهو ينحو في غيره وهذا من توجيه الكلام على نمط حسن وهو يصلح أن يكون جوابا لخالد عما سأل ويصلح أن يكون جوابا لغيره مما ذكره عبد المسيح بن بقيلة وقد ورد في التوراة أن لا يؤكل الجدي بلبن أمه وهذا يحتمل التحريم في وجهين أحدهما ما دل عليه ظاهر لفظه وهو تحريم لحم الجدي بلبن أمه خاصة واذا أكل بلبن غير ابن أمه جاز ذلك ولم يكن حراما وهذا لا يأخذ به أحد من اليهود والوجه الآخر وهو الذي يؤخذ به عند اليهود جميعهم أن أكل اللحم باللبن حرام كائنا ما كان من اللحوم الا طائفة منهم يسمون القرائين فانهم تأولوا فأكلوا لحم الطير باللبن وقالوا انما حرم اللحم باللبن من اللحوم ذوات الالبان والطير من ذوات البيض لا من ذوات الالبان ومما يجري على هذا النهج ما يحكى عن افلاطون أنه قال ترك الدواء دواء فذهب بعض الاطباء أنه أراد ان لطف

المزاج

المزاج وانتهى الى غاية لا يحتمل الدواء فتركه حينئذ والاضراب عنه دواء وذهب آخرون الى أنه أراد بالترك الوضع أى وضع الدواء على الداء دواء يشير بذلك الى حذق الطبيب فى أوقات علاجه ومثله فى الشعر قول الفرزدق

اذا جعفر مرّت على هضبة الحمى * فقد أخذت الأحياء منها ثؤورها

وهذا يدل على معنيين أحدهما أخذ الاحياء والآخر أخذ الاموات أما أخذ الاحياء فهو أنهم خذلوا الاموات يريد أنهم تلاقوا اقتالهم وقوما آخرين فغزا الاحياء عنهم وأسلموهم أو أنهم استنجدوهم فلم ينجدوهم وأما أخذ الاموات فهو أن لهم مغازى وفضائل توجب عارا وشنارا فهم يعدونها وينبهها الاحياء ويلومونهم آباءهم وعلى هذا ورد قول أبى تمام

بالشعر طول اذا اصطكت قصائده * فى معشر وبه عن معشر قصر

فهذا البيت يحتمل تأويلين أحدهما أن الشعر يتسع مجاله بمدحك ويضيق بمدح غيرك يريد بذلك ان مآثره كثيرة وما آثر غيره قليلة والآخر أن الشعر يكون ذا فخر ونباهة بمدحك وذا خمول بمدح غيرك فاذا لفظة الطول يفهم منها ضد القصر ويفهم منها الفخر من قولنا طال فلان على فلان أى فخر عليه (ومما) ينتظم بهذا السلك قول أبى كبير الهذلى

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها * فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وهذا يحتمل وجهين من التأويل أحدهما أنه أراد بسعى الدهر سرعة تقضى الاوقات مدة الوصال فلما انقضى الوصل عاد الدهر الى حالته فى السكون والبطء الآخر أنه أراد بسعى الدهر سعى أهل الدهر بالنمائم والوشايات فلما انقضى ما كان بينهما من الوصل سكنوا وتركوا السعاية وهذا من باب وضع المضاف اليه مكان المضاف كقوله تعالى واسأل القرية أى أهل القرية * ومن الدقيق المعنى فى هذا الباب قول أبى الطيب المتنبى فى عضد الدولة من جملة قصيدته التى أولها أوه بديل من قولتى واها فقال

لو فطنت خيله لنائله * لم يرضها أن تراه يرضاها

وهذا يستنبط منه معنيان غيران أحدهما أن خيله لو علمت مقدار عطاياه النفيسة لما رضيت له بأن تكون من جملة عطاياه لان عطاياه أنفس منها الآخر أن خيله لو علمت أنه يهبها من جملة عطاياه لما رضيت ذلك اذ تكره خروجها

من ملكه وهذان الوجهان أنا ذكرتهما وانما المذكور منهما أحدهما وهنا الذى أشرت اليه من الكلام على المعانى وتأويلاتها كاف لمن عنده ذوق وله قوة على حلها على أشباهها ونظائرها

(الفصل الرابع) فى الترجيح بين المعانى وهذا الفصل هو ميزان الخواطر الذى يوزن به نقد درهمها ودينارها بل المحك الذى يعلم منه مقدار عيارها ولا يزن به الا ذو فكرة متقدة وفطنة منتقدة فليس كل من حمل ميزانا سمى صرافا ولا كل من وزن به سمى عرافا والفرق بين هذا الترجيح والترجيح الفقهى أن هناك يرجح بين دليل الخصمين فى حكم شرعى وههنا يرجح بين جانبى فصاحة وبلاغة فى ألفاظ ومعان خطابية وبيان ذلك أن صاحب الترجيح الفقهى يرجح بين خبر التواتر مثلا وبين خبر الآحاد أو بين المسند والمرسل أو ما جرى هذا المجرى وهذا لا يتعرض اليه صاحب علم البيان لانه ليس من شأنه ولكن الذى هو من شأنه أن يرجح بين حقيقة ومجاز أو بين حقيقتين أو بين مجازين ويكون ناظرا فى ذلك كله الى الصناعة الخطابية وربما اتفق هو وصاحب الترجيح الفقهى فى بعض المواضع كالترجيح بين عام وخاص أو ما شابه ذلك . وكنا قدمنا القول فى الحكم على المعانى وانقسامها ولنبين فى هذا الفصل مواضع الترجيح بين وجوه تأويلاتها فنقول (أما القسم الاول) من المعانى فلا تعلق للترجيح به اذ ما دل عليه ظاهر لفظه ولا يحتمل الا وجها واحدا فليس من هذا الباب فى شئ والترجيح انما يقع بين معنيين يدل عليهما لفظ واحد ولا يخلو الترجيح بينهما من ثلاثة أقسام اما أن يكون اللفظ حقيقة فى أحدهما مجازا فى الآخر أو حقيقة فيهما جميعا أو مجازا فيهما جميعا وليس لنا قسم رابع والترجيح بين الحقيقتين أو بين المجازين يحتاج الى نظر وأما الترجيح بين الحقيقة والمجاز فانه يعلم ببديهة النظر لمكان الاختلاف بينهما والشيآن المختلفان يظهر الفرق بينهما بخلاف ما يظهر بين الشيئين المشتبهين فمثال الحقيقة والمجاز قوله تعالى ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى اذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون فالجلود ههنا تفسر حقيقة ومجازا أما الحقيقة فيراد بها الجلود مطلقا وأما المجاز فيراد بها الفروج خاصة وهذا هو المانع البلاغى الذى يرجح جانب المجاز على الحقيقة لما فيه من لطف الكناية

عن

من المكنى عنه وقد يسأل ههنا في الترجيح بين الحقيقة والمجاز من غير الجانب البلاغي ويقال ما بيان هذا الترجيح فيقال طريقه لفظ الجلود عام فلا يخلو اما أن يراد به الجلود مطلقا أو يراد به الجوارح التي هي أدوات الاعمال خاصة ولا يجوز أن يراد به الجلود على الاطلاق لان شهادة غير الجوارح التي هي الفاعلة شهادة باطلة اذ هي شهادة غير شاهد والشهادة هنا يراد بها الاقرار فتقول اليد أنا فعلت كذا وكذا وتقول الرجل أنا مشيت الى كذا وكذا وكذلك الجوارح الباقية تنطق مقرة بأعمالها فترجح بهذا أن يكون المراد به شهادة الجوارح واذا أريد به الجوارح فلا يخلو اما أن يراد به الكل أو البعض فان أريد به الكل دخل تحته السمع والبصر ولم يكن لتخصيصهما بالذكر فائدة وان أريد به البعض فهو بالفرج أخص منه بغيره من الجوارح لامرين أحدهما أن الجوارح كلها قد ذكرت في القرآن الكريم شاهدة على صاحبها بالمعصية ماعدا الفرج فكان حمل الجلد عليه أولى ليستكمل ذكر الجميع الآخر أنه ليس في الجوارح ما يكره التصريح بذكره الا الفرج فكنى عنه بالجلد لانه موضع يكره التصريح فيه بالمسمى على حقيقته (فان قيل) ان تخصيص السمع والبصر بالذكر من باب التفضيل كقوله تعالى فاكهة ونخل ورمان والنخل والرمان من الفاكهة (قلت) في الجواب هذا القول عليك لا لك لان النخل والرمان انما ذكرا لتفضيلهما في الشكل أو في الطعم والفضيلة ههنا في ذكر الشهادة انما هي تعظيم لأمر المعصية وغير السمع والبصر أعظم في المعصية لان معصية السمع انما تكون في سماع غيبة أو في سماع صوت مزمار أو وتر أو ما جرى هذا المجرى ومعصية البصر انما تكون في النظر الى محرم وكلتا المعصيتين لا حد فيها وأما المعاصي التي توجد من غير السمع والبصر فأعظم لان معصية اليد توجب القطع ومعصية الفرج توجب جلد مائة أو الرجم وهذا أعظم فكان ينبغي أن تخص بالذكر دون السمع والبصر واذا ثبت فساد ما ذهبت اليه فلم يكن المراد بالجلود الا الفروج خاصة (وأما مثال المعنيين) اذا كانا حقيقيين فقول النبي صلى الله عليه وسلم التمسوا الرزق في خبايا الارض والخبايا جمع خبية وهو كل ما يخبأ كأنما كان وهذا يدل على معنيين حقيقيين أحدهما الكنوز المخبوأة في بطون الارض والآخر الحرث والغراس وجانب الحرث والغراس أرجح لان مواضع الكنوز

لانه لم يحق للقبر والنبي صلى الله عليه وسلم لا يأمر بذلك لانه شيء مجهول غير معلوم فبقي المراد بضبابا الارض ما يحرث ويغرس وكذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم اذا ابتلت النعال فالصلاة في الرحال وهذا الحديث مرخص في ترك صلاة الجماعة بسبب المطر وله تأويلان أحدهما أنه أراد نعال الارض وهو ما غلظ منها والآخر أنه أراد الاحذية والوجه هو الثاني لظهوره في الدلالة على المعنى وأكثر العلماء عليه ولو كان المراد به ما غلظ من الارض لخرج عن هذا الحكم كل بلد تكون أرضه سهلة لا غلظ فيها (وأما مثال المعنيين المجازيين) فقول أبي تمام

قد بلونا أبا سعيد حديثا * وبلونا أبا سعيد قديما

ووردناه ساحلا وقليبا * ورعيناه بارضا وجميما

فعلمنا ان ليس الا بشق الانفس صار الكريم يدعى كريما

فالساحل والقليب يستخرج منهما تأويلان مجازيان أحدهما أنه أراد بهما الكثير والقليل بالنسبة الى الساحل والقليب والآخر أنه أراد بهما السبب وغير السبب فان الساحل لا يحتاج في وروده الى سبب والقليب يحتاج في وروده الى سبب وكلا هذين المعنيين مجاز فان حقيقة الساحل والقليب غيرهما والوجه هو الثاني لانه أدل على بلاغة القائل ومدح المقول فيه أما بلاغة القائل فالملائمة من مجانسة التكرير بالمخالفة بين صدر البيت وعجزه فان عجزه يدل على القليل والكثير لان البارض هو أول النبت حين يبدو فاذا كثر وتكاثف سمي جميما فكأنه قال أخذنا منه تبرعا ومسئلة وقليلا وكثيرا وأما مدح المقول فيه فلتعدد حالاته الاربع في تبرعه وسؤاله واكثاره واقلاله وما في معاناة هذه الاحوال من المشاق فهذا ما يتعلق بالترجيح البلاغي بين الحقيقة والحقيقة وبين المجاز والمجاز وبين الحقيقة والمجاز (وههنا) ترجيح آخر لا يتعلق بما أشرنا اليه اذ هو خارج عما تقتضيه المعاني الخطابية من جهة الفصاحة والبلاغة وذلك أن يرجح بين معنيين أحدهما تام والآخر مقدر أو يكون أحدهما مناسبا لمعنى تقدمه أو تأخر عنه والآخر غير مناسب أو بأن ينظر في الترجيح بينهما الى شيء خارج عن اللفظ فمثال المعنيين المشار اليهما أن المعنى التام هو الذي يدل عليه لفظه ولا يتعداه وأما المقدر فهو الذي لا يدل عليه لفظه بل يستدل عليه بقرينة أخرى وتلك القرينة قد تكون من توابعه وقد لا تكون (فمما) جاء

من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في سائمة الغنم زكاة فهذا اللفظ يستخرج منه معنيان أحدهما تام والآخر مقدر فالتام دلالته على وجوب الزكاة في السائمة لا غير والمقدر دلالته على سقوط الزكاة عن المعلوفة إلا أنه ليس مفهوما من نفس اللفظ بل من قرينة أخرى هي كالتابعة وهي أنه لما خصت السائمة بالذكر دون المعلوفة علم من مفهوم ذلك أن المعلوفة لا زكاة فيها وللفقهاء في ذلك مجاذبات جدلية يطول الكلام فيها وليس هذا موضعها والذي يترجح عندي هو القول بفحوى المعنى المقدر وهو الذي يسميه الفقهاء مفهوم الخطاب وله في الشعر أشباه ونظائر (فمما) جاء من ذلك شعرا قول جري بن كلاب الفقعسي من شعراء الحماسة وقد خطب اليه ابن كوز ابنته فرده

تبغى ابن كوز والسفاهة كاسمها * ليستادنا ان سنونا لياليا
فلا تطلبنها يا ابن كوز فانه * غذا الناس مذ قام النبي الجواريا

وهذا البيت الثاني يشتمل على المعنيين التام والمقدر أما التام فان ابن كوز سأل أباه هذه الجارية أن يزوجه اياها في سنة والسنة الجدب فرده وقال قد غذا الناس البنات مذ قام النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أيضا أغذوهن ولولا ذلك لوأدتها كما كانت الجاهلية تفعل وثمة معنى آخر وهو أنهم كانوا يئدون البنات قبل الاسلام فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك فقوله غذا الناس مذ قام النبي الجواريا أي في النساء كثرة فتزوج بعضهن وخل ابنتي وهذان المعنيان هما اللذان دل عليهما ظاهر اللفظ وأما المعنى المقدر الذي يعلم من مفهوم الكلام فانه يقول ان النبي صلى الله عليه وسلم أمر باحياء البنات ونهى عن الوأد ولو أنكحتكها لكنت قد وأدتها فلا فرق بين انكاحك اياها وبين وأدها وهذا ذم للمخاطب وهو معنى دقيق ومجيء المعاني المستخرجة من المفهوم قليل في الشعر (وأما) ما يستدل عليه بقرينة ليست من توابعه فان ذلك أدق من الاول وألطف مأخذا فمما ورد منه قول النبي صلى الله عليه وسلم من جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين فهذا يستخرج منه المعنيان المشار اليهما فالتام منهما يدل على أنه من جعل قاضيا فقد عرض نفسه لخطر عظيم كالذبح بغير سكين وأما المقدر فانه يدل على أنه من جعل قاضيا فقد أمر بمفارقة هواه وهذا لا يدل عليه اللفظ بنفسه بل يستدل عليه بقرينة أخرى ولكنها ليست من توابعه

ووجه ذلك أن لفظ الحديث عام يشمل القضاة على الاطلاق ولا يخلو اما أن يراد به عذاب الآخرة أو عذاب الدنيا ولا يجوز أن يكون المراد به عذاب الآخرة لانه ليس كل قاض معذبا في الآخرة بل المعذب منهم قضاة السوء فوضح بهذا أن المراد بالحديث عذاب الدنيا وعلى هذا فلا يخلو اما أن يكون العذاب صورة أو معنى ولا يجوز أن يكون صورة لانا نرى الانسان اذا جعل قاضيا لا يذبح ولا يناله شيء من ذلك فحق أن يكون المراد به عذابا معنويا وهو الذبح المجازى غير الحقيقى وتفسير ذلك ان نفس الانسان مركبة على حب هواها فاذا جعل قاضيا فقد أمر بترك ما جبل على حبه من الامتناع من الرشوة والحكم لصديقه على عدوه ورفع الحجاب بينه وبين الناس والجلوس للحكم في أوقات راحته وغير ذلك من الاشياء المكروهة التي تشق على النفس وتجد لها ألما مبرحا والذبح هو قطع الحلقوم والالم حاصل به وهو كالذبح الحقيقى بل أشد منه لان ألم الذبح الحقيقى يكون لحظة واحدة ثم ينقضى ويزول وألم قطع النفس من هواها يدوم ولا ينقضى وهو أشد العذاب قال الله تعالى في عذاب أهل النار وحيل بينهم وبين ما يشتهون وقال في نعيم أهل الجنة وفيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين وكثيرا ما رأينا وسمعنا من حمله حب الشيء على اتلاف نفسه في طلبه وركوب الاهوال من أجله فاذا امتنع عنه مع حبه اياه فقد ذبح نفسه أى قطعها عنه كما يقطع الذابح حلق الذبيحة ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم انتقلنا عن الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر فسمى جهاد الكفار الجهاد الاصغر وجهاد النفس الجهاد الاكبر فكما أن مجاهدة النفس عن هواها قتال بغير سيف فكذلك قطعها عن هواها ذبح بغير سكين وهذا موضع غامض والترجيح فيه مختص بالوجه الآخر لاشتماله على المعنى المقصود وهو المراد من القضاة على الاطلاق

(وأما) مثال المعنيين اذا كان أحدهما مناسبا لمعنى تقدمه أو لمعنى تأخر عنه والآخر غير مناسب فالاول وهو ما كان مناسبا لمعنى تقدمه كقوله تعالى لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا فالدعاء ههنا يدل على معنيين أحدهما النهى أن يدعى الرسول باسمه فيقال يا محمد كما يدعو بعضهم بعضا بأسمائهم وانما يقال له يا رسول الله أو يا نبى الله الآخر النهى أن يجعلوا حضورهم عنده اذا دعاهم لأمر من الامور كحضور بعضهم عند بعض بل يتأدبون معه بأن

لا يفارقوا مجلسه الا باذنه وهذا الوجه هو المراد لمناسبة معنى الآية التي قبله وهو قوله تعالى إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه وأما الثاني وهو ما كان مناسبا للمعنى تأخر عنه كقوله تعالى والتين والزيتون وطور سينين فالتين والزيتون هما هذا الشجر المعروف وهما اسما جبلين أيضا وتأويلهما بالجبلين أولى للمناسبة بينهما وبين ما أتى بعدهما من ذكر الجبل الذي هو الطور وعلى هذا ورد قول الشاعر في أبيات الحماسة

ولو كنت مولى قيس عيلان لم تجد • على لانسان من الناس درهما
ولكنني مولى قضاعة كلها • فلست أبالي أن أدين وتغرما

فاذا نظرنا الى البيت الاول وجدناه يحتمل مدحا وذما أي أنهم كانوا يغنونه بعطائهم أن يدين أو أنه كان يخاف الدين حذر أن لا يقوموا عنه بوفائه لكن البيت الثاني حقق أن الاول ذم وليس بمدح فهذا المعنى لا يتحقق فهمه الا بآخره وأما الذي يكون الترجيح فيه بسبب شيء خارج عن مفهوم اللفظ فقوله تعالى وهو الله في السموات وفي الارض يعلم سركم وجهركم فهذا مستنبط منه معنيان أحدهما أن الله يعلم السر والجهر في السموات والارض وفي ذلك تقديم وتأخير أي يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الارض الآخر أنه في السموات وأنه يعلم السر والجهر في الارض من بني آدم لان الوقف يكون على السموات ثم يستأنف الكلام فيقول يعلم سركم وجهركم في الارض الا أن هذا يمنع منه اعتقاد التجسيم وذلك شيء خارج عن مفهوم اللفظ

(الفصل الخامس في جوامع الكلم) قال النبي صلى الله عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم فالكلم جمع كلمة والجوامع جمع جامعة والجامعة اسم فاعلة من جمعت فهي جامعة كما يقال في المذكر جمع فهو جامع والمراد بذلك أنه صلى الله عليه وسلم أوتي الكلم الجوامع للمعاني وهو عندي ينقسم قسمين القسم الاول منهما هو ما استخرجته ونبهت عليه ولم يكن لأحد فيه قول سابق وهو أن لنا ألفاظا تتضمن من المعنى ما لا تتضمنه أخواتها مما يجوز أن يستعمل في مكانها (فمن ذلك) ما يأتي على حكم المجاز ومنه ما يأتي على حكم الحقيقة أما ما يأتي على حكم المجاز فقوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين الآن حمي الوطيس

وهذا لم يسمع من أحد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو أتينا بما زعم فى ذلك فى معناه فقلنا استعرت الحرب لما كان مؤديا من المعنى ما يؤديه حمى الوطيس والفرق بينهما أن الوطيس هو التنور وهو موطن الوقود ومجتمع النار وذلك يخيل الى السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته فى حميها وتوقدها وهذا لا يوجد فى قولنا استعرت الحرب أو ما جرى مجراه وكذلك قال صلى الله عليه وسلم بعثت فى نفس الساعة فقوله نفس الساعة من العبارة العجيبة التى لا يقوم غيرها مقامها لان المراد بذلك أنه بعث والساعة قريبة منه لكن قربها منه لا يدل على ما دل عليه النفس وذلك أن النفس يدل على أن الساعة منه بحيث يحس بها كما يحس الانسان بنفس من هو الى جانبه وقد قال صلى الله عليه وسلم فى موضع آخر بعثت أنا والساعة كهاتين وجمع بين اصبعيه السبابة والوسطى ولو قال بعثت على قرب من الساعة أو والساعة قريبة منى لما دل ذلك على ما دل عليه نفس الساعة وهذا لا يحتاج الى الاطالة فى بيانه لانه بين واضح وقد ورد شئ من ذلك فى أقوال الشعراء المفلقين ولقد تصفحت الاشعار قديمها وحديثها وحفظت ما حفظت منها وكنت اذا مررت بنظرى فى ديوان من الدواوين ويلوح لى فيه مثل هذه الالفاظ أجد لها نشوة كنشوة الخمر وطربا كطرب الالحان وكثير من الناظمين والناثرين يمر على ذلك ولا يتفطن له سوى أنه يستحسنه من غير نظر فيما نظرت أنا فيه ويظنه كغيره من الالفاظ المستحسنة (فمما) جاء من ذلك قول أبى تمام

كم صارم عضب أناف على قفا * منهم لأعباء الوغى حمال

سبق المشيب اليه حتى ابتزه * وطن النهى من مفرق وقذال

فقوله وطن النهى من الكلمات الجامعة وهى عبارة عن الرأس ولا يجاء بمثلها فى معناها بما يسدها وكذلك ورد قول البحترى

قلب يطل على افكاره ويد * تمضى الامور ونفس لهوها التعب

فقوله قلب يطل على افكاره من الكلمات الجوامع ومراده بذلك أن قلبه لا تملكه الافكار ولا تحيط به وانما هو عال عليها يصف بذلك عدم احتفاله بالقوادح وقلة مبالاته بالخطوب التى تحدث أفكارا تستغرق القلوب وهذه عبارة عجيبة لا يؤتى بمثلها بما يسدها (وأما) ما يأتى على حكم الحقيقة فكقول ابن الرومى

سقى الله أوطار الناو ما ربا * تقطع من أقرانها ما تقطعا

ليالى تنسينى الليالى حسابها • بلهنية أقضى بها الحول أجمعا
سوى عزة لا أعرف اليوم باسمه • وأعمل فيه اللهو مرأى ومسمعا

فقوله لا أعرف اليوم باسمه من الكلمات الجامعة أى انى قد شغلت باللذات عن معرفة الليالى والايام ولو وصف اشتغاله باللذات مهما وصف لم يأت بمثل قوله لا أعرف اليوم باسمه (وأما القسم الثانى) من جوامع الكلم فالمراد به الايجاز الذى يدل به بالالفاظ القليلة على المعانى الكثيرة أى ان ألفاظه صلوات الله عليه جامعة للمعانى المقصودة على ايجازها واختصارها وجل كلامه جار هذا المجرى فلا يحتاج الى ضرب الامثلة به وسيأتى فى باب الايجاز منه ما فيه كفاية ومقنع (فان قيل) فما الفرق بين هذين القسمين اللذين ذكرتهما فانهما فى النظر سواء (قلت) فى الجواب ان الايجاز هو أن يؤتى بألفاظ دالة على معنى من غير ان تزيد على ذلك المعنى ولا يشترط فى تلك الالفاظ أنها لا نظير لها فانها تكون قد اتصفت بوصف آخر خارج عن وصف الايجاز وحينئذ يكون ايجازا وزيادة (وأما) هذا القسم الآخر فانه ألفاظ أفراد فى حسنها لا نظير لها فتارة تكون موجزة وتارة لا تكون موجزة وليس الغرض منها الايجاز وانما الغرض مكانها من الحسن الذى لا نظير له فيه ألا ترى الى قول أبى تمام وطن النهى فان ذلك عبارة عن الرأس ولا شك أن الرأس أوجز لان الرأس لفظة واحدة ووطن النهى لفظتان الا أن وطن النهى أحسن فى التعبير عن الرأس من الرأس فبان بهذا أن أحد هذين القسمين غير الآخر

(الفصل السادس فى الحكمة التى هى ضالة المؤمن) قال النبى صلى الله عليه وسلم الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فهو أحق بها اذا وجدها والمراد بذلك أن الحكمة قد يستفيدها أهلها من غير أهلها كما يقال رب رمية من غير رام وهذا لا يختص علما واحدا من العلوم بل يقع فى كل علم والمطلوب منه ههنا هو ما يختص علم البيان من الفصاحة والبلاغة دون غيره ومذ سمعت هذا الخبر النبوى جعلت كدى فى تتبع أقوال الناس فى مفاوضاتهم ومحاوراتهم فانه قد تصدر الاقوال البليغة والحكم والامثال عن لا يعلم مقدار ما يقوله فاستفدت بذلك فوائد كثيرة لا أحصرها عددا وأنا أذكر منها طرفا يستدل به على أشباهه ونظائره فمن ذلك انى سرت فى بعض الطرق وفى صحبتى رجل بدوى من الانباط

لا يعتد بقوله فكان يقول غدا ندخل البلد وتستقبل منى وكان الامر كما قال فدخلت مدينة حلب وشغلت عنه أياما ثم لقينى فقال لى من ترى قرت عظامه وهذا القول من الاقوال البليغة وهى من الحكمة التى هى الضالة المطلوبة عند ذوى الفصاحة والبلاغة ثم انى سمعت منه بعد ذلك شيأ يناسب قوله الاول فانى سفرته الى صاحب فى حلب فى شئ آخذه منه فاستقله وقال الماء أروى لشدوق النيب وهذا أيضا من الحكمة فى بابها وسافرت مرة أخرى على طريق المناظر وكان فى صحبتى رجل بدوى فسألته عن مسافة ما بين تدمر وأركة فقال اذا خرج سرحاهما التقيا فعبر عن قرب المسافة بينهما بأوجز عبارة وأبلغها ثم سألته ليلة من الليالى عن الصبح لنرحل من موضعنا فقال قد ظهر الصبح الا أنه لم يملك الانسان بصره وهذا القول من الحكمة أيضا وكان تزوج غلام من غلمانى بدمشق فوقعت المرأة منه بموقع وشغف بها ثم انى سافرت عن دمشق لمهم عرض لى وسافر ذلك الغلام فى صحبتى فلما عدنا من السفر شغل بامرأته والمقام عندها فسألته عن حاله فقال انها الدعالة وحسنت وهى كذا وكذا وأخذ يصفها فقال آخر له ممن كان حاضرا يا مولاى هى تلك لم تزد شيأ وانما هى فى عينه جبارة من الجبابرة وكذا القول قد ورد فى بعض أبيات الحماسة وهو معدود من أبيات المعانى

أهابك اجلالا وما بك قدرة * على ولكن ملء عين حبيبها

فكثيرا ما يصدر مثل هذه الاقوال عن ألسنة الجهال * وسمعت ما يجرى هذا المجرى من بعض العبيد الاحابيش الذين لا يستطيعون تقويم صيغ الالفاظ فضلا عما وراء ذلك وذلك أنه رأى صبيا فى يده طاقة ريحان فقال هذه طاقة آس تحمل طاقة ريحان فلما سمعت ذلك منه أخذتنى هزة التعجب وذكرت شعر أبى نواس الذى تواصفه الناس فى هذا المعنى وهو قوله

ووردة جاء بها شادن * فى كفه اليمنى فحيانا
سبحت ربى حين أبصرتها * ريحانة تحمل ريحانا

وحضر عندى فى بعض الايام رجل نصرانى موسوم بالطب وكان لا يحسن أن يقول كلمة واحدة وهو أقلف اللسان يسىء العبارة فسألته عن زيارة شخص وهل يتردد اليه أم لا فقال

ظلام الليل يهدين الى باب من أودّه   وضوء النهار يضلّني عن باب من لا أودّه
وهذا من ألطف المعاني وأحسنها وهو من الحكمة المطلوبة * وكنت قصدت زيارة
بعض الاخوان من الاجناد وهو من الاغنام الاعجام فسألته عن حاله وكان
توالت عليه نكبات طالت أيامها وعظمت آلامها فقال لى فى الجواب ما معناه انه
لم يبق عندى ارتياع لوقوع نائبة من النوائب وهذا معنى لو أتى به شاعر مفلق
أو كاتب بليغ لاستحسن منه غاية الاستحسان * وكنت فى سنة ثمان وثمانين
وخمسمائة بأرض فلسطين فى الجيش الذى كان قبالة العدو الكافر من الفرنج لعنهم
الله وتقابل الفريقان على مدينة يافا وكان الى جانبى ثلاثة فرسان من المسلمين
فتماقدوا على الحملة الى نحو العدو فلما حملوا اصدق منهم اثنان وتلكأ واحد فقيل
له فى ذلك فقال الموت طعام لا تحبه المعدة   فلما سمعت هذه الكلمة استحسنتها
واذا هى صادرة عن رجل من أهل بصرى خدم من الاقدام ولو أخذت فى ذكر
ما سمعته من هذه الاخلاط والاغنام لأطلت واغنا دللت بيسير ما ذكرته على المراد وهو أنه يجب على
المتصدى للشعر والخطابة أن يتتبع أقوال الناس فى محاوراتهم فانه لا يعدم مما
يسمعه منهم حكما كثيرة ولو أراد استخراج ذلك بفكره لأعجزه. ويحكى عن أبى تمام
أنه لما نظم قصيدته البائية التى أولها

على مثلها من أربع وملاعب * انتهى منها الى قوله

يرى أقبح الاشياء أوبة آمل * كسته يد المأمول حلة خائب

ثم قال   وأحسن من نور يفتحه الصبا * ووقف عند صدر هذا البيت يردده واذا
سائل يسأل على الباب وهو يقول من بياض عطايا كم فى سواد مطالبنا فقال
أبو تمام * بياض العطايا فى سواد المطالب * فأتم صدر البيت الذى كان يردده من
كلام السائل   وسمعت امرأة قد توفى لها ولد وهو بكرها الذى هو أول أولادها
فقالت كيف لا أحزن له وهو أول درهم وقع فى الكيس فأخذت أنا هذا المعنى
وأودعته كتابا من كتبى فى التعازى وهو كتاب كتبته الى بعض الاخوان وقد توفى
بكره من الاولاد فقلت   وهو أول درهم ادخرته فى كيس الادخار وأعددته
لحوادث الليل والنهار   وبلغنى عن الشيخ أبى محمد أحمد بن أحمد المعروف بابن
الخشاب البغدادى وكان اماما فى علم العربية وغيره فقيل انه كان كثيرا ما يقف على
حلق القصاص والمشعبذين فاذا أتاه طلبة العلم لا يجدونه فى أكثر أوقاته الاهناك

فلم على ذلك وقيل له أنت امام الناس فى العلم وما الذى يحملك على الوقوف بهذه المواقف الرذيلة فقال لو علمتم ما أعلم لما لمتم ولطالما استفدت من هؤلاء الجهال فوائد كثيرة تجرى فى ضمن هذيانهم معانى غريبة لطيفة ولو أردت أنا أو غيرى أن نأتى بمثلها لما استطعنا ذلك ولا شك أن هذا الرجل رأى ما رأيته ونظر الى ما نظرت اليه

(الفصل السابع فى الحقيقة والمجاز) وهذا الفصل مهم كبير من مهمات علم البيان لا بل هو علم البيان بأجمعه فان فى تصريف العبارات على الاسلوب المجازى فوائد كثيرة وسيرد بيانها فى مواضعها من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى وقد نبهنا فى هذا الموضع على جملتها دون تفصيلها فأما الحقيقة فهى اللفظ الدال على موضوعه الاصلى واما المجاز فهو ما أريد به غير المعنى الموضوع له فى أصل اللغة وهو مأخوذ من جاز من هذا الموضع الى هذا الموضع اذا تخطاه اليه فالمجاز اذا اسم للمكان الذى يجاز فيه كالمعاج والمزار وأشباههما وحقيقته هى الانتقال من مكان الى مكان فجعل ذلك لنقل الالفاظ من محل الى محل كقولنا زيد أسد فان زيدا انسان والاسد هو هذا الحيوان المعروف وقد جزنا من الانسانية الى الاسدية أى عبرنا من هذه الى هذه لوصلة بينهما وتلك الوصلة هى صفة الشجاعة وقد يكون العبور لغير وصلة وذلك هو الاتساع كقولهم فى كتاب كليلة ودمنة قال الاسد وقال الثعلب فان القول لا وصلة بينه وبين هذين بحال من الاحوال وانما أجرى عليهما اتساعا محضا لا غير ولهذا مثال فى المجاز الحقيقى الذى هو المكان المجاز فيه فانه لا يخلو اما أن يجاز من سهل الى سهل أو من وعر الى وعر أو من سهل الى وعر فالجواز من سهل الى سهل أو من وعر الى وعر هو كقولنا زيد أسد فالمشابهة حاصلة فى ذات بينهما كالمشابهة الحاصلة فى المكان والجواز من سهل الى وعر كقولهم قال الاسد وقال الثعلب فكما أنه لا مشابهة بين القول وبين هذين فكذلك لا مشابهة بين السهل والوعر وسيأتى كشف الغطاء عن ذلك واشباع القول فى تحقيقه فى باب الاستعارة فليؤخذ من هناك وقد ذهب قوم الى أن الكلام كله حقيقة لا مجاز فيه وذهب آخرون الى انه كله مجاز لا حقيقة فيه وكلا هذين المذهبين فاسد عندى وسأجيب الخصم عما ادعاه فيهما فأقول محل النزاع هو أن اللغة كلها حقيقة أو أنها كلها مجاز ولا فرق عندى بين قولك انها كلها حقيقة

أو أنها كلها مجاز فإن كلا الطرفين عندي سواء لأن منكرهما غير مسلم لهما وأنا بصدد أن أبين أن في اللغة حقيقة ومجازا والحقيقة اللغوية هي حقيقة الالفاظ في دلالتها على المعاني وليست بالحقيقة التي هي ذات الشيء أي نفسه وعينه فالحقيقة اللفظية اذا هي دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له في أصل اللغة والمجاز هو نقل المعنى عن اللفظ الموضوع له الى لفظ آخر غيره وتقرير ذلك بأن أقول المخلوقات كلها تفتقر الى أسماء يستدل بها عليها ليعرف كل منها باسمه من أجل التفاهم بين الناس وهذا يقع ضرورة لا بد منها فالاسم الموضوع بازاء المسمى هو حقيقة له فاذا نقل الى غيره صار مجازا ومثال ذلك أنا اذا قلنا شمس أردنا به هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء وهذا الاسم له حقيقة لانه وضع بازائه وكذلك اذا قلنا بحر أردنا به هذا الماء العظيم المجتمع الذي طعمه ملح وهذا الاسم له حقيقة لانه وضع بازائه فاذا نقلنا الشمس الى الوجه المليح استعارة كان ذلك له مجازا لا حقيقة وكذلك اذا نقلنا البحر الى الرجل الجواد استعارة كان ذلك له مجازا لا حقيقة (فان قيل) ان الوجه المليح يقال له شمس وهو حقيقة فيه وكذلك البحر يقال للرجل الجواد وهو حقيقة فيه (فالجواب) عن ذلك من وجهين أحدهما نظري والآخر وضعي. أما النظري فهو أن الالفاظ انما جعلت أدلة على افهام المعاني ولو كان ما ذهبت اليه صحيحا لكان البحر يطلق على هذا الماء العظيم الملح وعلى الرجل الجواد بالاشتراك وكذلك الشمس أيضا فانها كانت تطلق على هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء وعلى الوجه المليح بالاشتراك وحينئذ فاذا ورد أحد هذين اللفظين مطلقا بغير قرينة تخصصه فلا يفهم المراد به ما هو من أحد المعنيين المشتركين المندرجين تحته ونحن نرى الامر بخلاف ذلك فانا اذا قلنا شمس أو بحر وأطلقنا القول لا يفهم من ذلك وجه مليح ولا رجل جواد وانما يفهم منه ذلك الكوكب المعلوم وذلك الماء المعلوم لا غير فبطل اذا ما ذهبت اليه بما بيناه وأوضحناه (فان قلت) ان العرف يخالف ما ذهبت اليه فان من الالفاظ ما اذا أطلق لم يذهب الفهم منه الا الى المجاز دون الحقيقة كقولهم الغائط فان العرف خصص ذلك بقضاء الحاجة دون غيره من المطمئن من الارض (قلت) في الجواب هذا شيء ذهب اليه الفقهاء وليس الامر كما ذهبوا اليه لانه ان كان اطلاق اللفظ فيه بين عامة الناس من اسكاف وحداد ونجار وخباز ومن جرى مجراهم

إعتراض على الفقهاء في تخصيصهم الغائط بقضاء الحاجة

فهؤلاء لا يفهمون من الغائط الا قضاء الحاجة لانهم لم يعلموا أصل وضع هذه الكلمة وأنها المطمئن من الارض وأما خاصة الناس الذين يعلمون أصل الوضع فانهم لا يفهمون عند اطلاق اللفظ الا الحقيقة لا غير ألا ترى أن هذه اللفظة لما وردت في القرآن الكريم وأريد بها قضاء الحاجة قرنت بألفاظ تدل على ذلك كقوله تعالى أو جاء أحد منكم من الغائط فان قوله أو جاء أحد منكم من الغائط دليل على أنه أراد قضاء الحاجة دون المطمئن من الارض فالكلام في هذا وأمثاله انما هو مع علم أصل الوضع حقيقة والنقل عنه مجازا وأما الجهال فلا اعتبار بهم ولا اعتداد بأقوالهم والعجب عندي من الفقهاء الذين دونوا ذلك على ما دونوه وذهبوا الى ما ذهبوا اليه وأما الوجه الوضعي فهو أن المرجع في هذا وما يجري مجراه الى أصل اللغة التي هي وضع الاسماء على المسميات ولم يوجد فيها أن الوجه المليح يسمى شمسا ولا أن الرجل الجواد يسمى بحرا وانما أهل الخطابة والشعر توسعوا في الاساليب المعنوية فنقلوا الحقيقة الى المجاز ولم يكن ذلك من واضع اللغة في أصل الوضع ولهذا اختص كل منهم بشيء اخترعه في التوسعات المجازية هذا امرؤ القيس قد اخترع شيئا لم يكن قبله فمن ذلك أنه أول من عبر عن الفرس بقوله قيد الاوابد ولم يسمع ذلك لاحد من قبله وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم حنين الآن حمي الوطيس وأراد بذلك شدة الحرب فان الوطيس في أصل الوضع هو التنور فنقل الى الحرب استعارة ولم يسمع هذا اللفظ على هذا الوجه من غير النبي صلى الله عليه وسلم وواضع اللغة ما ذكر شيئا من ذلك فعلمنا حينئذ أن من اللغة حقيقة بوضعه ومجازا بتوسعات أهل الخطابة والشعر وفي زماننا هذا قد يخترعون أشياء من المجاز على حكم الاستعارة لم تكن من قبل ولو كان هذا موقوفا من جهة واضع اللغة لما اخترعه أحد من بعده ولا زيد فيه ولا نقص منه * وأما الفرق بينه وبين الحقيقة فهو أن الحقيقة جارية على العموم في نظائرها ألا ترى أنا اذا قلنا فلان عالم صدق على كل ذي علم بخلاف واسأل القرية لانه لا يصح الا في بعض الجمادات دون بعض اذ المراد أهل القرية لانهم ممن يصح السؤال لهم ولا يجوز أن يقال واسأل الحجر والتراب وقد يحسن أن يقال واسأل الربع والطلل (واعلم) أن كل مجاز فله حقيقة لانه لم يصح أن يطلق عليه اسم المجاز الا لنقله عن حقيقة

موضوعة له اذ المجاز هو اسم للموضع الذى ينتقل فيه من مكان الى مكان فجعل ذلك لنقل الالفاظ من الحقيقة الى غيرها واذا كان كل مجاز لا بد له من حقيقة نقل عنها الى حالته المجازية فكذلك ليس من ضرورة كل حقيقة أن يكون لها مجاز فان من الاسماء مالا مجاز له كاسماء الاعلام لانها وضعت للفرق بين الذوات لا للفرق بين الصفات وكذلك فاعلم أن المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة فى باب الفصاحة والبلاغة لانه لو لم يكن كذلك لكانت الحقيقة التى هى الاصل أولى منه حيث هو فرع عليها وليس الامر كذلك لانه قد ثبت وتحقق أن فائدة الكلام الخطابى هو اثبات الغرض المقصود فى نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر اليه عيانا ألا ترى أن حقيقة قولنا زيد أسد هى قولنا زيد شجاع لكن فرق بين القولين فى التصوير والتخييل واثبات الغرض المقصود فى نفس السامع لان قولنا زيد شجاع لا يتخيل منه السامع سوى أنه رجل جرىء مقدام فاذا قلنا زيد أسد يخيل عند ذلك صورة الاسد وهيئته وما عنده من البطش والقوة ودق الفرائس وهذا لا نزاع فيه وأعجب ما فى العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعى فى بعض الاحوال حتى أنها ليسمح بها البخيل ويشجع بها الجبان ويحكم بها الطائش المتسرع ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر حتى اذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال أو ترك عقوبة أو اقدام على أمر مهول وهذا هو فحوى السحر الحلال المستغنى عن القاء العصا والحبال (واعلم) أنه اذا ورد عليك كلام يجوز أن يحمل معناه على طريق الحقيقة وعلى طريق المجاز باختلاف لفظه فانظر فان كان لا مزية لمعناه فى حمله على طريق المجاز فلا ينبغى أن يحمل الا على طريق الحقيقة لانها هى الاصل والمجاز هو الفرع ولا يعدل عن الاصل الى الفرع الا لفائدة مثال ذلك قول البحترى

مهيب كحد السيف لو ضربت به * ذرى أجإ ظلت وأعلامها وهد

ويروى أيضا لو ضربت به طلى أجإ جمع طلية وهى العنق فهذا البيت لا يجوز حمله على المجاز لان الحقيقة أولى به ألا ترى أن الذرى جمع ذروة وهو أعلى الشئ يقال ذروة الجبل أعلاه والطلى جمع طلية وهى العنق والعنق أعلى الجسد ولا فرق بينهما فى صفة العلو ههنا فلا يعدل اذا الى المجاز اذ لا مزية له على الحقيقة وهكذا كل

مايجيء من الكلام الجاري هذا المجرى فانه ان لم يكن في المجاز زيادة فائدة على الحقيقة لا يعدل اليه

(الفصل الثامن في الفصاحة والبلاغة) اعلم أن هذا باب متعذر على الوالج ومسلك متوعر على الناهج ولم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول فيه والبحث عنه ولم أجد من ذلك ما يعول عليه الا القليل وغاية ما يقال في هذا الباب ان الفصاحة هي الظهور والبيان في أصل الوضع اللغوي يقال أفصح الصبح اذا ظهر ثم انهم يقفون عند ذلك ولا يكشفون عن السر فيه وبهذا القول لا تتبين حقيقة الفصاحة لانه يعترض عليه بوجوه من الاعتراضات أحدها أنه اذا لم يكن اللفظ ظاهرا بينا لم يكن فصيحا ثم اذا ظهر وتبين صار فصيحا الوجه الآخر انه اذا كان اللفظ الفصيح هو الظاهر البين فقد صار ذلك بالنسب والاضافات الى الاشخاص فان اللفظ قد يكون ظاهرا لزيد ولا يكون ظاهرا لعمرو فهو اذا فصيح عند هذا وغير فصيح عند هذا وليس كذلك بل الفصيح هو فصيح عند الجميع لا خلاف فيه بحال من الاحوال لانه اذا تحقق حد الفصاحة وعرف ماهي لم يبق في اللفظ الذي يختص به خلاف الوجه الآخر أنه اذا جيء بلفظ قبيح ينبو عنه السمع وهو مع ذلك ظاهر بين ينبغي أن يكون فصيحا وليس كذلك لان الفصاحة وصف حسن اللفظ لا وصف قبح فهذه الاعتراضات الثلاثة واردة على قول القائل ان اللفظ الفصيح هو الظاهر البين من غير تفصيل * ولما وقفت على أقوال الناس في هذا الباب ملكتني الحيرة فيها ولم يثبت عندي منها ما أعول عليه ولكثرة ملابستي هذا الفن ومعاركتي اياه انكشف لي السر فيه وسأوضحه في كتابي هذا وأحقق القول فيه فأقول ان الكلام الفصيح هو الظاهر البين وأعني بالظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها الى استخراج من كتاب لغة وانما كانت بهذه الصفة لانها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرة في كلامهم وانما كانت مألوفة الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الالفاظ لمكان حسنها وذلك أن أرباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار ألفاظها وسبروا وقسموا فاختاروا الحسن من الالفاظ فاستعملوه ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه فحسن الاستعمال سبب استعمالها دون غيرها واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها فالفصيح اذا من الالفاظ هو الحسن (فان قيل)

من أى وجه علم أرباب النظم والنثر الحسن من الالفاظ حتى استعملوه وعلموا القبيح منها حتى نفوه ولم يستعملوه (قلت فى الجواب) ان هذا من الامور المحسوسة التى شاهدها من نفسها لان الالفاظ داخلة فى حيز الاصوات فالذى يستلذه السمع منها ويميل اليه هو الحسن والذى يكرهه وينفر عنه هو القبيح ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل اليهما ويكره صوت الغراب وينفر عنه وكذلك يكره نهيق الحمار ولا يجد ذلك فى صهيل الفرس والالفاظ جارية هذا المجرى فانه لا خلاف فى أن لفظة المزنة والديمة حسنة يستلذها السمع وأن لفظة البعاق قبيحة يكرهها السمع وهذه اللفظات الثلاث من صفة المطر وهى تدل على معنى واحد ومع هذا فانك ترى لفظتى المزنة والديمة وما جرى مجراهما مألوفة الاستعمال وترى لفظ البعاق وما جرى مجراه متروكا لا يستعمل وان استعمل فانما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو من ذوقه غير ذوق سليم لا جرم أنه ذم وقدح فيه ولم يلتفت اليه وان كان عربيا محضا من الجاهلية الاقدمين فان حقيقة الشئ اذا علمت وجب الوقوف عندها ولم يعرج على ما خرج عنها واذن ثبت أن الفصيح من الالفاظ هو الظاهر البين وانما كان ظاهرا بينا لانه مألوف الاستعمال وانما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه وحسنه مدرك بالسمع والذى يدرك بالسمع انما هو اللفظ لانه صوت يأتلف عن مخارج الحروف فما استلذه السمع منه فهو الحسن وما كرهه فهو القبيح والحسن هو الموصوف بالفصاحة والقبيح غير موصوف بفصاحة لانه ضدها لمكان قبحه وقد مثلت ذلك فى المثال المتقدم بلفظة المزنة والديمة ولفظة البعاق ولو كانت الفصاحة لامر يرجع الى المعنى لكانت هذه الالفاظ فى الدلالة عليه سواء ليس منها حسن ومنها قبيح ولما لم يكن كذلك علمنا أنها تخص اللفظ دون المعنى وليس لقائل ههنا أن يقول لا لفظ الا بمعنى فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى فانى لم أفصل بينهما وانما خصصت اللفظ بصفة هى له والمعنى يجئ فيه ضمنا وتبعا (الوجه الثانى) ان وزن فعيل هو اسم فاعل من فعل بفتح الفاء وضم العين نحو كرم فهو كريم وشرف فهو شريف ولطف فهو لطيف وهذا مطرد فى بابه وعلى هذا فان اللفظ الفصيح هو اسم فاعل من فصح فهو فصيح واللفظ هو الفاعل للابانة عن المعنى فكانت الفصاحة مختصة به (فان قيل) انك قلت ان الفصيح من الالفاظ

هو الظاهر البين أى المفهوم ونرى من آيات القرآن ما لا يفهم ما تضمنه من المعنى الا باستنباط وتفسير وتلك الآيات فصيحة لا محالة وهذا بخلاف ماذكرته (قلت) لان الآيات التى تستنبط وتحتاج الى تفسير ليس شئ منها الا ومفردات ألفاظه كلها ظاهرة واضحة وانما التفسير يقع فى غموض المعنى من جهة التركيب لا من جهة ألفاظه المفردة لان معنى المفردة يتداخل بالتركيب ويصير له هيئة تخصه وهذا ليس قادحا فى فصاحة تلك الالفاظ لانها اذا اعتبرت لفظة لفظة وجدت كلها فصيحة أى ظاهرة واضحة وأعجب ما فى ذلك أن تكون الالفاظ المفردة التى تركبت منها المركبة واضحة كلها واذا نظر اليها مع التركيب احتاجت الى استنباط وتفسير وهذا لا يختص به القرآن وحده بل فى الاخبار النبوية والاشعار والخطب والمكاتبات كثير من ذلك (وسأورد ههنا منه شيأ فأقول) قد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال صومكم يوم تصومون وفطركم يوم تفطرون وأضحاكم يوم تضحون وهذا الكلام مفهومة مفردات ألفاظه لان الصوم والفطر والاضحى مفهوم كله واذا سمع هذا الخبر من غير فكرة قيل علمنا أن صومنا يوم نصوم وفطرنا يوم نفطر وأضحانا يوم نضحى فما الذى أعلمنا به مما لم نعلمه واذا أمعن الناظر نظره فيه علم أن معناه يحتاج الى استنباط والمراد به أنه اذا اجتمع الناس على أن أول شهر رمضان يوم كذا ولم يكن ذلك اليوم أوله فان الصوم صحيح وأوله هو ذلك اليوم الذى اجتمع الناس عليه وكذا يقال فى يوم الفطر ويوم الاضحى ولهذا الخبر المشار اليه أشباه كثيرة تفهم معانى ألفاظها المفردة واذا تركبت تحتاج فى فهمها الى استنباط (وأما) ما ورد من ذلك شعرا فكقول أبى تمام

ولهت فأظلم كل شئ دونها * وأضاء منها كل شئ مظلم

فان الوله والظلمة والاضاءة كل ذلك مفهوم المعنى لكن البيت بجملته يحتاج فى فهمه الى استنباط والمراد به أنها ولهت فأظلم ما بينى وبينها لما نالنى من الجزع لولهها كما يقول الجازع أظلمت الارض على أى انى صرت كالاعمى الذى لا يبصر وأما قوله وأضاء منها كل شئ مظلم أى وضح لى منها ما كان مستترا عنى من حبها اياى وكذلك ورد قول أبى عبادة البحترى فى شعره

اذا سار سهبا عاد ظهرا عدوه * وكان الصديق بكرة ذلك السهب

فان السير والسهب والظهر والعدو والصديق كل ذلك مفهوم المعنى لكن البيت

بعده وعده ويحتاج معناه الى استنباط والمراد أن هذا المنهزم يرى ما بين يديه محبوبا اليه وما خلفه مكروها عنده لانه يطلب النجاء فيؤثر البعد عما خلفه والقرب مما أمامه فاذا قطع سهبا وخلفه وراءه صار عنده كالعدو وقبل أن يقطعه كان له صديقا أى يطلب لقاءه ويحب الدنو منه فانظر أيها المتأمل الى ما ذكرته من هذه الامثلة حتى يثبت عندك ما أردت بيانه (وأما البلاغة) فان أصلها فى وضع اللغة من الوصول والانتهاء يقال بلغت المكان اذا انتهيت اليه ومبلغ الشئ منتهاه وسمى الكلام بليغا من ذلك أى أنه قد بلغ الاوصاف اللفظية والمعنوية والبلاغة شاملة للالفاظ والمعانى وهى أخص من الفصاحة كالانسان من الحيوان فكل انسان حيوان وليس كل حيوان انسانا وكذلك يقال كل كلام بليغ فصيح وليس كل كلام فصيح بليغا ويفرق بينها وبين الفصاحة من وجه آخر غير الخاص والعام وهو أنها لا تكون الا فى اللفظ والمعنى بشرط التركيب فان اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم البلاغة ويطلق عليها اسم الفصاحة اذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة وهو الحسن وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها لخلوها من المعنى المفيد الذى ينتظم كلاما (مسئلة تتعلق بهذا الفصل) هل أخذ علم البيان من ضروب الفصاحة والبلاغة بالاستقراء من أشعار العرب أم بالنظر وقضية العقل (الجواب) عن ذلك أنا نقول لم يؤخذ علم البيان بالاستقراء فان العرب الذين ألفوا الشعر والخطب لا يخلو أمرهم من حالين اما أنهم ابتدعوا ما أتوا به من ضروب الفصاحة والبلاغة بالنظر وقضية العقل أو أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم فان كانوا ابتدعوه عند وقوفهم على أسرار اللغة ومعرفة جيدها من رديئها وحسنها من قبيحها فكذلك هو الذى أذهب اليه وان كانوا أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم فهذا يتسلسل الى أول من ابتدعه ولم يستقره فان كل لغة من اللغات لا تخلو من وصفى الفصاحة والبلاغة المختصين بالالفاظ والمعانى الا أن للغة العربية مزية على غيرها لما فيها من التوسعات التى لا توجد فى لغة أخرى سواها (مسئلة أخرى تتعلق بهذا الفصل أيضا) هل علم البيان من الفصاحة والبلاغة جار مجرى علم النحو أم لا (الجواب) عن ذلك أنا نقول الفرق بينهما ظاهر وذاك أن أقسام النحو أخذت من واضعها بالتقليد حتى لو عكس القضية فيها لجاز له ذلك ولما كان

العقل يأباه ولا ينكره فانه لو جعل الفاعل منصوبا والمفعول مرفوعا قلد في ذلك كما قلد في رفع الفاعل ونصب المفعول وأما علم البيان من الفصاحة والبلاغة فليس كذلك لانه استنبط بالنظر وقضية العقل من غير واضع اللغة ولم يفتقر فيه الى التوقيف منه بل أخذت ألفاظ ومعان على هيئة مخصوصة وحكم لها العقل بمزية من الحسن لا يشاركها فيها غيرها فان كل عارف بأسرار الكلام من أي لغة كانت من اللغات يعلم أن اخراج المعاني في ألفاظ حسنة رائقة يلذها السمع ولا ينبو عنها الطبع خير من اخراجها في ألفاظ قبيحة مستكرهة ينبو عنها السمع ولو أراد واضع اللغة خلاف ذلك لما قلدناه (فان قيل) لو أخذت أقسام النحو بالتقليد من واضعها لما أقيمت الادلة عليها وعلم بقضية النظر أن الفاعل يكون مرفوعا والمفعول منصوبا (فالجواب) عن ذلك أنا نقول هذه الادلة واهية لا تثبت على محك الجدل فان هؤلاء الذين تصدوا لاقامتها سمعوا عن واضع اللغة رفع الفاعل ونصب المفعول من غير دليل ابداه لهم فاستخرجوا لذلك أدلة وعللا والا فمن أين علم هؤلاء أن الحكمة التي دعت الواضع الى رفع الفاعل ونصب المفعول هي التي ذكروها

(الفصل التاسع في أركان الكتابة) اعلم أن للكتابة شرائط وأركانا أما شرائطها فكثيرة وهذا التأليف موضوع لجموعها وللقسم الآخر من الكلام المنظوم وليس يلزم الكاتب أن يأتي بالجميع في كتاب واحد بل يأتي بكل نوع من أنواعها في موضعه الذي يليق به كما أرشدناه فيما يأتي من هذا التأليف (وأما) الاركان التي لا بد من ايداعها في كل كتاب بلاغي ذي شأن فخمسة (الاول) أن يكون مطلع الكتاب عليه جدة ورشاقة فان الكاتب من أجاد المطلع والمقطع أو يكون مبنيا على مقصد الكتاب ولهذا باب يسمى باب المبادي والافتتاحات فليحذ حذوه وهذا الركن يشترك فيه الكاتب والشاعر (الركن الثاني) أن يكون الدعاء المودع في صدر الكتاب مشتقا من المعنى الذي بني عليه الكتاب وقد نبهنا على طرف من ذلك في باب يخصه أيضا فليطلب من هناك وهو مما يدل على حذاقة الكاتب وفطانته وكثيرا ما تجده في مكاتباتي التي أنشأتها فاني قصدته فيها وتوخيته بخلاف غيري من الكتاب لانه ربما يوجد في كتابة غيري قليلا وتجده في كتابتي كثيرا (الركن الثالث) أن يكون خروج الكاتب من معنى الى معنى

رابطة لتكون رقاب المعانى آخذة بعضها ببعض ولا تكون مقتضبة ولذلك باب مفرد أيضا يسمى باب التخلص والاقتضاب وهذا الركن أيضا يشترك فيه الكاتب والشاعر (الركن الرابع) أن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلولقة بكثرة الاستعمال ولا أريد بذلك أن تكون ألفاظا غريبة فان ذلك عيب فاحش بل أريد أن تكون الالفاظ المستعملة مسبوكة سبكا غريبا يظن السامع أنها غير ما فى أيدى الناس وهى مما فى أيدى الناس وهناك معترك الفصاحة التى تظهر فيه الخواطر براعتها والاقلام شجاعتها كما قال البحترى

باللفظ يقرب فهمه فى بعده ٭ عنا ويبعد نيله فى قربه

وهذا الموضع بعيد المنال كثير الاشكال يحتاج الى لطف ذوق وشهامة خاطر وهو شبيه بالشئ الذى يقال انه لا داخل العالم ولا خارج العالم فلفظه هو الذى يستعمل وليس بالذى يستعمل أى أن مفردات ألفاظه هى المستعملة المألوفة ولكن سبكه وتركيبه هو الغريب العجيب واذا سموت أيها الكاتب الى هذه الدرجة واستطعمت طعم هذا الكلام المشار اليه علمت حينئذ أنه كالروح الساكنة فى بدنك التى قال الله فيها قل الروح من أمر ربى وليس كل خاطر براق الى هذه الدرجة ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ومع هذا فلا تظن أيها الناظر فى كتابى أنى أردت بهذا القول اهمال جانب المعانى بحيث يؤتى باللفظ الموصوف بصفات الحسن والملاحة ولا يكون تحته من المعنى ما يماثله ويساويه فانه اذا كان كذلك كان كصورة حسنة بديعة فى حسنها الا أن صاحبها بليد أبله والمراد أن تكون هذه الالفاظ المشار اليها جسما لمعنى شريف على أن تحصيل المعانى الشريفة على الوجه الذى أشرت اليه أيسر من تحصيل الالفاظ المشار اليها (ويحكى) عن المبرد رحمه الله تعالى أنه قال ليس أحد فى زمانى الا وهو يسألنى عن مشكل من معانى القرآن أو مشكل من معانى الحديث النبوى أو غير ذلك من مشكلات علم العربية فأنا امام الناس فى زمانى هذا واذا عرضت لى حاجة الى بعض اخوانى وأردت أن أكتب اليه شيأ فى أمرها أحجم عن ذلك لانى أرتب المعنى فى نفسى ثم أحاول ان أصوغه بألفاظ مرضية فلا أستطيع ذلك ولقد صدق فى قوله هذا وأنصف غاية الانصاف ولقد رأيت كثيرا من الجهال الذين هم من السوقة أرباب الحرف والصنائع وما منهم الا من يقع له المعنى الشريف ويظهر من خاطره

للمعنى الدقيق ولكنه لا يحسن أن يزوج بين لفظتين فالعبارة عن المعاني هي التي تخلب بها العقول وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون في استخراج المعاني فانه لا يمنع الجاهل الذي لا يعرف علما من العلوم أن يكون ذكيا بالفطرة واستخراج المعاني انما هو بالذكاء لا بتعلم العلم وبلغني أن قوما ببغداد من رعاع العامة يطوفون بالليل في شهر رمضان على الحارات وينادون بالسحور ويخرجون ذلك في كلام موزون على هيئة الشعر وان لم يكن من بحار الشعر المنقولة عن العرب وسمعت شيأ منه فوجدت فيه معاني حسنة مليحة ومعاني غريبة وان لم تكن الالفاظ التي صيغت به صيغة وهذا الركن أيضا يشترك فيه الكاتب والشاعر (الركن الخامس) أن لا يخلو الكتاب من معنى من معاني القرآن الكريم والاخبار النبوية فانهما معدن الفصاحة والبلاغة وايراد ذلك على الوجه الذي أشرت اليه في الفصل الذي يلي هذا الفصل من حل معاني القرآن الكريم والاخبار النبوية أحسن من ايراده على وجه التضمين وتوخي ذلك في كل كتاب ضرب حقا وأنا انفردت بذلك دون غيري من الكتاب فاني استعملته في كل كتاب حتى انه ليأتي في الكتاب الواحد في عدة مواضع منه ولقد أنشأت تقليدا لبعض الملوك مما يكتب من ديوان الخلافة ثم اني اعتبرت ما ورد فيه من معاني الآيات والاخبار النبوية فكان ما يزيد على الخمسين وهذا لا أتكلفه تكلفا وانما يأتي على حسب ما يقتضيه الموضع الذي يذكر فيه وقد عرفتك أيها الكاتب كيف تستعمل ما تستعمله من ذلك في الفصل الذي يأتي بعد هذا الفصل فخذه من هناك وهذا الركن يختص بالكاتب دون الشاعر لان الشاعر لا يلزمه ذلك اذ الشعر أكثره مدائح وأيضا فانه لا يتمكن من صوغ معاني القرآن والاخبار في المنظوم كما يتمكن منه في المنثور ولربما أمكن ذلك في الشيء اليسير في بعض الاحيان (واذا) استكملت معرفة هذه الاركان الخمسة وأتيت بها في كل كتاب بلا ني ذي شأن فقد استحققت حينئذ فضيلة التقدم ووجب لك أن تسمي نفسك كاتبا

(الفصل العاشر في الطريق الى تعلم الكتابة) هذا الفصل هو كنز الكتابة ومنبعها وما رأيت أحدا تكلم فيه بشيء ولما هديت الى هذه الفضيلة وبلغني الله منها ما بلغني وجدت الطريق ينقسم فيها الى ثلاث شعب (الاولى) أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ويطلع على أوضاعهم في استعمال الالفاظ والمعاني

ثم يحذو حذوهم وهذه أدنى الطبقات عندي (الثانية) أن يمزج كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادة حسنة إما في تحسين ألفاظ أو في تحسين معان وهذه هي الطبقة الوسطى وهي أعلى من التي قبلها (الثالثة) أن لا يتصفح كتابة المتقدمين ولا يطلع على شيء منها بل يصرف همه إلى حفظ القرآن الكريم وكثير من الأخبار النبوية وعدة من دواوين فحول الشعراء ممن غلب على شعره الإجادة في المعاني والألفاظ ثم يأخذ في الاقتباس من هذه الثلاثة أعني القرآن والأخبار النبوية والأشعار فيقوم ويقعد ويخطئ ويصيب ويضل ويهتدي حتى يستقيم على طريقة يفتتحها لنفسه وأخلق بتلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة لا شركة لأحد من المتقدمين فيها وهذه الطريق هي طريق الاجتهاد وصاحبها يعد إماما في فن الكتابة كما يعد الشافعي وأبو حنيفة ومالك رضي الله تعالى عنهم وغيرهم من الأئمة المجتهدين في علم الفقه إلا أنها مستوعرة جدا ولا يستطيعها إلا من رزقه الله تعالى لسانا هجاما وخاطرا رقاما وقد سهلت لك صعابها وذللت محاجها وكنت أشم بارق ذلك لما عانيت من نيله من العناء فإني سلكت إليه كل طريق حتى بلغته آخرا وإنما تكون نفاسة الأشياء لعزة حصولها ومشقة وصولها

ليس يعلو ويجود الشيء ثمنه إلا حتى يعز طلابه

ولقد مارست الكتابة ممارسة كشفت لي عن أسرارها وأظفرتني بكنوز جواهرها إذ لم يظفر غيري بأحجارها فما وجدت أعون الأشياء عليها إلا حل آيات القرآن الكريم والأخبار النبوية وحل الأبيات الشعرية وقد قصرت هذا الفصل على ذكر وجوهها وتقسيمها وتمهيد الطريق إلى تعلمها فمن وقف على ما ذكرته علم أنني لم آت شيئا فريا وأن الله قد جعل تحت خواطري من بنات الأفكار سريا وهذه الطريق يجهلها كثير من متعاطي هذه الصناعة والذي يعلمها منهم يرضى بالحواشي والأطراف ويقنع من لآلئها بمعرفة ما في الأصداف ولو استخرج منها ما استخرجت واستنتج ما استنتجت لهام بها في كل واد وتزود إلى سلوك طريقها كل زاد

لو يسمعون كما سمعت كلامها * خروا لعزة ركعا وسجودا

ولا أريد بهذه الطريق أن يكون الكاتب مرتبطا في كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم والأخبار النبوية والشعر بحيث إنه لا ينشئ كتابا إلا من ذلك بل

أريد أنه إذا حفظ القرآن الكريم وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار ثم
نقب عن ذلك تنقيب مطلع على معانيه مفتش عن دفائنه وقلبه ظهرا لبطن عرف
حينئذ من أين تؤكل الكتف فيما ينشئه من ذات نفسه واستعان بالمحفوظ
على الغريزة الطبيعية ألا ترى أن صاحب الاجتهاد من الفقهاء يفتقر إلى معرفة
آيات الأحكام وأخبار الأحكام وإلى معرفة الناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة
وإلى معرفة علم العربية وإلى معرفة الفرائض والحساب من المعلوم والمجهول من
أجل مسائل الدور والوصايا وغيرها وإلى معرفة إجماع الصحابة فهذه أدوات
الاجتهاد فإذا عرفها استخرج بفكرته حينئذ ما يؤديه إليه اجتهاده كما فعل أبو
حنيفة والشافعي ومالك وغيرهم من أئمة الاجتهاد وكذلك يجري الحكم في
الكاتب إذا أحب الترقي إلى درجة الاجتهاد في الكتابة فإنه يحتاج إلى أشياء
كثيرة قد ذكرتها في صدر كتابي هذا الآن رأسها وعمودها وذروة سنامها ثلاثة
أشياء هي حفظ القرآن الكريم والإكثار من حفظ الأخبار النبوية والأشعار
وحيث انتهى بنا القول إلى هذا الموضع فأول ما أبدأ به عقيب ذلك أن أقول
حل الأبيات الشعرية ينقسم إلى ثلاثة أقسام (الأول) منها وهو أدناها مرتبة
أن يأخذ الناثر بيتا من الشعر فينثره بلفظه من غير زيادة وهذا عيب فاحش
ومثاله كمن أخذ عقدا قد أتقن نظمه وأحسن تأليفه فأوهاه وبدده وكان يقوم
عذره في ذلك أن لو نقله عن كونه عقدا إلى صورة أخرى مثله أو أحسن منه
وأيضا فإنه إذا نثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهور السرقة فيقال هذا شعر
فلان بعينه لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء وقد سلك هذا المسلك بعض
العراقيين فجاء مستهجنا لا مستحسنا كقوله في بعض أبيات الحماسة

وألدّ ذي حنق عليّ كأنما * تغلي عداوة صدره في مرجل
أرجيته عني فأبصر قصده * وكويته فوق النواظر من عل

(فقال) في نثر هذين البيتين فكم لقي ألدّ ذي حنق كأنه ينظر إلى الكواكب
من عل وتغلي عداوة صدره في مرجل فكواه فوق ناظريه وأكبه لفمه
ويديه فلم يزد هذا الناثر على أن أزال رونق الوزن وطلاوة النظم لا غير ومن
هذا القسم ضرب محمود لا عيب فيه وهو أن يكون البيت من الشعر قد تضمن شيئا
لا يمكن تغيير لفظه فحينئذ يعذر ناثره إذا أتى بذلك اللفظ ومثاله قول الشاعر في

أول الحماسة

لو كنت من مازن لم تستبح ابلى * بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

(وقد) نثرت ذلك فقلت لست ممن تستبيح ابلى بنو اللقيطة ولا الذى اذا اهتم بأمر كانت الآمال اليه وسيطة ولكنى أحمل الهمل وأقرب الامل وأقول سبق السيف العذل فذكر بنى اللقيطة ههنا لابد منه على حسب ما ذكره الشاعر وكذلك الامثال السائرة فانه لابد من ذكرها على ما جاءت فى الشعر (وأما القسم الثانى) وهو وسط بين الاول والثالث فى المرتبة وهو أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه ويعوض عن البعض بألفاظ أخر وهنالك تظهر الصنعة فى المماثلة والمشابهة ومؤاخاة الالفاظ الباقية بالالفاظ المرتجلة فانه اذا أخذ لفظا الشاعر مجيد قد نقحه وصححه فقرنه بما لا يلائمه كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة ولاخفاء بما فى ذلك من الانتصاب للقدح والاستهداف للطعن والطريق المسلوك الى هذا القسم أن تأخذ بعض بيت من الابيات الشعرية هو أحسن ما فيه ثم تماثله وسأورد ههنا مثالا واحدا ليكون قدوة للمتعلم (فأقول) قد ورد هذا البيت من شعر أبى تمام فى وصف قصيدة له

وحذاء تملأ كل أذن حكمة * وبلاغة وتدر كل وريد

فقوله تملأ كل أذن حكمة من الكلام الحسن وهو أحسن ما فى البيت فاذا أردت أن تنثر هذا المعنى فلابد من استعمال لفظه بعينه لانه فى الغاية القصوى من الفصاحة والبلاغة فعليك حينئذ أن تؤاخيه بمثله وهذا عسر جدا وهو عندى أصعب منالا من نثر الشعر بغير لفظه لانه مسلك مضيق لما فيه من التعرض لمماثلة ما هو فى غاية الحسن والجودة وأما نثر الشعر بغير لفظه فذلك يتصرف فيه ناثره على حسب ما يراه ولا يكون مقيدا فيه بمثال يضطر الى مؤاخاته وقد نثرت هذه الكلمات المشار اليها وأتيت بها فى جملة كتاب فقلت وكلامى قد عرف بين الناس واشتهر وفاق مسير الشمس والقمر واذا عرف الكلام صارت المعرفة له علامة وأمن من سرقته اذ لو سرق لدلت عليه الوسامة ومن خصائص صفاته أن يملأ كل أذن حكمة ويجعل فصاحة كل لسان عجمة واذا برزت نفثاته فى الافهام قالت أهذه بنت فكرة أم بنت كرمة فانظر كيف فعلت فى هذا الموضع فانى لما أخذت تلك الكلمات من البيت

الشعرى التزمت بأن آتى باخيها باهو مثلها أو أحسن منها جئت بهذا الفصل كاثرا وكذلك ينبغى أن يفعل فيما هذا سبيله (وأما القسم الثالث) وهو أعلى من القسمين الاولين فهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بألفاظ غير ألفاظه وثم يتبين حذق الصائغ فى صياغته ويعلم مقدار تصرفه فى صناعته فان استطاع الزيادة على المعنى فتلك الدرجة العالية والا أحسن التصرف وأتقن التأليف ليكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الاول (واعلم) أن من أبيات الشعر ما يتسع المجال لناثره فيورده بضروب من العبارات وذلك عندى شبيه بالمسائل السيالة فى الحساب التى يجاب عنها بعدة من الاجوبة ومن الابيات ما يضيق فيه المجال حتى ليكاد الماهر فى هذه الصناعة ان لا يخرج عن ذلك اللفظ وانما يكون هذا لعدم النظير فأما ما يتسع المجال فى نثره فكقول أبى الطيب المتنبى

لا تعذل المشتاق فى اشواقه ✱ حتى يكون حشاك فى أحشائه

وقد نثرت هذا المعنى فمن ذلك قولى لا تعذل المحب فيما يهواه حتى تطوى القلب على ما طواه ومن ذلك وجه آخر وهو اذا اختلفت العينان فى النظر فالعذل ضرب من الهذر ومن هذا الباب قول أبى الطيب المتنبى أيضا

ان القتيل مضرجا بدموعه ✱ مثل القتيل مضرجا بدمائه

أخذت هذا المعنى فنثرته فمن ذلك قولى القتيل بسيف العيون كالقتيل بسيف المنون غير أن ذلك لا يجرد من غمده ولا يقاد صاحبه بعمده فزدت على المعنى الذى تضمنه البيت وغيرت اللفظ ومن ذلك وجه آخر وهو دمع المحب ودم القتيل متفقان فى التشبيه والتمثيل ولا تجد بينهما بونا الا أنهما يختلفان لونا وهذا أحسن من الاول ✱ وأما ما يضيق فيه المجال فيعسر على الناثر تبديل ألفاظه فكقول أبى تمام

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى ✱ لها الليل الا وهى من سندس خضر

وقول أبى الطيب المتنبى

وكان بها مثل الجنون فأصبحت ✱ ومن جثث القتلى عليها تمائم

وأمثال هذا لا تأتى الا قليلا وسببه أن المعنى ينحصر فى مقصد من المقاصد حتى لا يكاد يأتى الا قدّا كهذين البيتين ألا ترى أن أبا تمام قصد المؤاخاة فى ذكر لون الثياب من الاحمر والاخضر وجاء ذلك واقعا على المعنى الذى أراده من لون ثياب

القتلى وثياب الجنة فاذا فك نظم هذا البيت وأريد صوغه بغير لفظه لا يمكن ذلك وبيت أبي الطيب جار هذا المجرى فانه بناه على واقعة من الوقائع وذاك أن حصنا من حصون سيف الدولة قصده الروم وانتزعوه وأخربوه ونهض سيف الدولة اليه واسترجعه وجدد بناءه وهزم الروم ونصب من جثث القتلى على السور فنظم المتنبي في هذا قصيدة أولها * على قدر أهل العزم تأتي العزائم * فلما انتهى الى ذكر الحصن جاء بهذا البيت في جملة أبيات فشرح صورة الحال في ازعاج الحصن بالقتال وتعليق القتلى عليه وأبرز ذلك في معنى التمثيل بالجنون والتمائم وهذا لا يمكن تبديل لفظه وهو وأمثاله مما يجب على الناثر أن يحسن الصنعة في فك نظامه لانه يتصدى لنثره بألفاظه فان كان عنده قوة تصرف وبسطة عبارة فانه يأتي به حسنا رائقا وقد نثرت هذين البيتين أما بيت أبي تمام فاني قلت في نثره لم تكسه المنايا نسج شعارها حتى كسته الجنة نسج شعارها فبدل أحمر ثوبه بأخضره وكأس حمامه بكأس كوثره وهذا من الحسن على غاية يكون كذ حسودها من جملة شهودها وأما بيت أبي الطيب المتنبي فاني قلت في نثره سرى الى حصن كذا فاستعبدها منه سبية نزعها العدو اختلاسا وأخذها مخادعة لا افتراسا فما نزلها حتى استقادها ولا نزلها حتى استعادها وكأنما كان بها جنون فبعث لها من عزائمه عزائم وعلق عليها من رؤس القتلى تمائم وفي هذا من الحسن ما لا خفاء به فمن شاء أن ينثر شعرا فلينثر هكذا والا فليترك وقد جئت بهذا المعنى على وجه آخر وأبرزته في صورة أخرى وذاك أني أضفت الى هذا البيت البيت الذي قبله وهو

بناها فأعلى والقنا تقرع القنا * وموج المنايا حولها متلاطم

ولما نثرت هذين البيتين قلت في نثرهما ما أذكره وهو بناها والاسنة في بنائها متخاصمة وأمواج المنايا فوق أيدي البانين متلاطمة وما أحلت الحرب عنها حتى زلزلت أقطارها بركض الجياد وأصيبت بمثل الجنون فعلقت عليها تمائم من الرؤس والاجساد ولا شك أن الحرب تغرّد عن عجائبه وتقول الا هكذا فليكسب المجد كاسبه وهذا أحسن من الاول وأتم معنى * وقد تصرفت في هذا الموضع بزيادة في معناه ونثرته على أسلوب أحسن من هذا الاسلوب فقلت بناها ودون ذلك البناء شوك الاسل وطرقات المنايا الذي لا يقال ساوى منه الى جبل

ولم يكن بناؤها الا بعد أن هدمت رؤس عن أعناق وكأنما أصيبت بعيون فعلقت القتلى عليها مكان التمائم أو ثنيت بعطل فعلقت مكان الأطواق وهذا الفصل فيه زيادة على الفصل الذى قبله ٭ واذا انتهى بنا الكلام الى ههنا فى التنبيه على نثر الشعر وكيفية نثره وذكر ما يسهل منه وما يعسر فلنتبع ذلك بقول كلى فى هذا الباب فنقول من أحب أن يكون كاتبا أو كان عنده طبع مجيب فعليه بحفظ الدواوين ذوات العدد ولا يقنع بالقليل من ذلك ثم يأخذ فى نثر الشعر من محفوظاته وطريقه أن يبتدئ فيأخذ قصيدا من القصائد فينثره بيتا بيتا على التوالى ولا يستنكف فى الابتداء أن ينثر الشعر بألفاظه أو بأكثرها فانه لا يستطيع الا ذلك واذا مرنت نفسه وتدرب خاطره ارتفع عن هذه الدرجة وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ثم يرتفع عن ذلك حتى يكسوه ضروبا من العبارات المختلفة وحينئذ يحصل لخاطره بمباشرة المعانى لقاح فيستنتج منها معانى غير تلك المعانى وسبيله أن يكثر الادمان ليلا ونهارا ولا يزال على ذلك مدة طويلة حتى يصير له ملكة فاذا كتب كتابا أو خطب خطبة تدفقت المعانى فى أثناء كلامه وجاءت ألفاظه معسولة لا مغسولة وكان عليها حدة حتى تكاد ترقص رقصا وهذا شئ خبرته بالتجربة ولا ينبئك مثل خبير (فان قيل) الكلام قسمان منظوم ومنثور فلم حضضت على حفظ المنظوم وجعلته مادة للمنثور وهلا كان الامر بالعكس (قلت) فى الجواب ان الاشعار أكثر والمعانى فيها أغزر وسبب ذلك أن العرب الذين هم أصل الفصاحة كل جل كلامهم شعر ولا نجد الكلام المنثور فى كلامهم الا يسيرا ولو كثر فانه لم ينقل عنهم بل المنقول عنهم هو الشعر فأودعوا أشعارهم كل المعانى كما قال الله تعالى ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ثم جاء الطراز الاول من المخضرمين فلم يكن لهم الا الشعر ثم استمرت الحال على ذلك فكان الشعر هو الاكثر والكلام المنثور بالنسبة اليه قطرة من بحر ولهذا صارت المعانى كلها مودعة فى الاشعار وحيث كانت بهذه الصورة فكان حثى على حفظها واستعمال معانيها فى الخطب والمكاتبات لهذا السبب وقد نثرت فى هذا الموضع أبياتا لتكون قدوة للمتعلم ٭ فمن ذلك قولى فى فصل من فصول الكلام يتضمن ذكر السيادة وهو الشريف من شرف بنفسه لا بما دفن مع أبيه فى رمسه فان تلك المكارم أتت فحصل الزمان بها آباها ثم مات أربابها فدفنت مع موتاها

ولو ساد الناس بآبائهم لكانت السادة للطينة الاولى ولقد خلق الابناء من الآباء مجبولا وهذا المعنى مأخوذ من قول الشاعر

وما الفخر بالعظم الرميم وانما * فخار الذى يبغى الفخار بنفسه

غير أن الفصل الذى ذكرته يتضمن من المعنى زيادة على ماتضمنه هذا البيت (ومن ذلك) ما كتبته فى فصل من كتاب يتضمن معاتبة أخ لاخوته وتنصله اليهم فقلت جرحوا قلبى وحبهم يذهب بألم الجراحة وطرفوا عينى وهم يزيدون فى نظرها ملاحة واذا صدرت الاساءة عن الاحباب لم يكن وقرها وقرا وأصبحت وهى منسية اذا تجددت الاساءة بالذكرى وما منهم الامن سيط دمى بدمه ولحمى بلحمه ولولا أن الاسماء معارف الاشخاص لكان اسمى واردا على اسمه وكيف أخشن عليهم وقد جبلنى الله لهم على اللين أم كيف أذود النفس عنهم وهى مشتقة منهم وآدم بين الماء والطين ومتى أوصل من شجرتى أغصانا كهذه الاغصان وقد أصيبت جرثومتها بالجداد ولهذا قيل ان الاخوة يتعذر الاعتياض عنهم ولا يتعذر الاعتياض عن الاولاد آخر هذا الفصل مأخوذ من شعر ابن الرومى وهو قوله

تعزيت عمن أغرتك حياته * وويلك التعزى عن غلالك أجدر

تعذر أن نعتاض عن أمهاتنا * وأبنائنا والنسل لا يتعذر

غير أن ابن الرومى ذكر ذلك فى تعزية انسان بابنه فتصرفت أنا فى هذا المعنى ونقلته الى هذا الفصل فى تضمنه معاتبة أخ لاخوته (ومن ذلك) ماذكرته فى فصل من كتاب يتضمن ذم المشيب فقلت والعيش كل العيش فى سن الحداثة وما يأتى بعدها فلا يدعى الابسن الغثاثة وليس بعد الاربعين من مصيف للذة ولا مربع وهى نهاية القوة الصالحة من الطبائع الاربع فاذا تجاوزها المرء أشفت غار عمره على نرصها وصارت زيادته كزيادة التصغير التى هى زيادة تدل على نقصها واصبح بعد ذلك يدعى أبا بعد ان كان يدعى ابنا وتقمص ثوبا من المشيب لا يجر ثوبه خيلاء ولا يزهى به حسنا وان قيل ان أحسن الثياب شعارا البياض قيل الا هذا الثوب فانه مستثنى ويكفيه من الفظاعة أن ينظر الاحباب اليه نظر القتال ولولا أن الجود بعده لما استعير له لفظة الاشتعال ومن الناس من يداس لونه بصبغة الخضاب وليس ذلك الاحدادا على فقد الشباب وهو فى فعله هذا

كذب ولا يخفى أنس الصادق من وحشة الكذاب وخداع النفس أن تسلو عن بزة المعطلة والعمرة المشيدة وتحسن لها الخروج في ثوب مرقع وهي تراه بعين الثوب الجديد وبعض هذا مأخوذ من شعر ابن الرومي وهو قوله

رأيت خضاب المرء بعد مشيبه • حدادا على شرخ الشبيبة يلبس

غير أن في هذا الفصل معاني كثيرة لطيفة لا توجد في كلام آخر (ومن ذلك) قولي في وصف الجود والسخاء وهذا الفصل يشتمل على معان متعددة فمنها قولي في العطاء وهو شاقوتني أسباب الغنى برؤيته حتى كادت تنطق واخضرت أكناف منزلي بعطائه حتى كادت تورق ومن فضيلة بره أنه لا يأتي به على أعين الناس وإذا غرسه عند إنسان ربت ذلك الغراس فلا يستكثر ما جادت به سحاب يده ولا يمنعه عطاء يومه عن عطاء غده وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبي نواس

كانوا إذا غرسوا سقوا وإذا بنوا • لم يهدموا لبنائهم أساسا

ومن هذا المعنى أيضا قولي وهو أخذ المكارم من سمائها وأرضها وقام بنقلها في الناس وفرضها وفضل بعض أسماء الشهور حتى أصبح بعضها حاسدا لبعضها فالمحرم للعائذ بحرمه وصفر للطامع في سعادة قدمه وربيع لانتظار نواله ورجب لأقوال عذاله وهذا مأخوذ من قول الفرزدق

يد النيد ربيع الناس فيها • وفي الأخرى الشهور من الحرم

وقد قال الشعراء في ذلك كثيرا إلا أني أنا تصرفت في هذا المعنى تصرفا لم يتصرف فيه أحد غيري (ومن هذا المعنى) ما ذكرته في فصل من كتاب وهو ولقد سوى بين أعدائه في البغض وبين أمواله فهذه مغتنمة بوقع نصاله وهذه مغتنمة بصنائع نواله ولو أحب المال لكان أحبه إليه ما يبذله كما أن أحب الناس إليه من يسأله ومن أحسن ما سنه من الكرم أنه جاد حتى بدل رغب العارفين زهدا ورأى الحمد عوضا من الصنيعة فأبى أن يعتاض من صنائعه حمدا وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبي نواس وهو

ليت أعدائي كانوا • لأبي إسحق مالا

(ومن ذلك) قولي في وصف القتال وموطن الحرب ووصف الشجاعة والإقدام وما يتعلق بذلك ويجري معه وهذا الفصل يشتمل على معان مختلفة (فمن ذلك) ما ذكرته في وصف العسكر وهو فسرنا في غمامة من الكتائب تظلها غمامة

من الطيور الاشائب فهذه يضمها بحر من حديد وهذه يضمها بر من صعيد وما مرّت ببلد الا أزالت أرضه من سمائه وألبست نهاره ثوب ظلمائه وبدلت اسراره بعيده وحرائره باماته وكذلك فعلت بمدينة فلانة وقد ضرب الامن عليها أسوارا وبعد عهدها بالنوائب فلم تدخل لها دارا فهى تخبر عن بلهنية الخفض ولم ترع عنه بالانتقال ولا رأت السيف وقد ألق لونه فى ذوائب الاطفال فما شعر أهلها الا وقد رجمها الجيش بكلكله ورماها بوابله قبل طله وطل السحاب قبل وابله وبرزت خيل القوم ولها زى فرسانها وهى مستبقة الى طرادها كاستباقها الى ميدانها وما منهم الا من تتأود القناة عن يده بين لهذمين وتستقل السرج منه ومن جواده بين مطهمين فجرت المقادير الى المقادير وتلاقت الرياح بالاعاصير وكان الطعن بينهم عناقا والليث وفاقا وسبق ألم الموت ألم الجراح ونفذت غير مختضبة لسرعتها أسنة الرماح وحصل القوم القبضة وذموا عقبى النهضة وجىء بالاسرى مقترنين فى الاصفاد موقنين أن رؤسهم عوارى على تلك الاجساد ولو استطاع رأس أحدهم أن ينكر عنقه لانكره ولا يود وهو المعظم أن يقال ما أعظمه بل يقال ما أحقره وتصرفت أيدى المسلمين فى القتل والنهاب وكان للسيف رقاب وللسبى رقاب فى هذا الفصل معان كثيرة مستحسنة ومنها ما أخذ من شعر المتنبى كقوله

سحاب من العقبان ترجف تحتها * سحاب اذا استسقت سقتها صوارمه

وكقوله

واستعار الحديد لونا وألقى * لونه فى ذوائب الاطفال

(ومن ذلك) ما ذكرته فى وصف المسلوبين فى فصل من جملة كتاب يتضمن البشرى بهزيمة الكفار وهو فسلبوا وعاضتهم الدماء عن اللباس فهم فى صورة عار وزيهم زى كاس وما أسرع ما خيط لهم لباسها الاحمر غير أنه لم يجب عليهم ولم يزرّ وما لبسوه حتى لبس الاسلام شعار النصر الباقى على الدهر وهو شعار نسجه السنان الخارق لا الصنع الحاذق ولم يغب عن لابسه الا ريثما غابت البيض فى الطلى والهام وألف الطعن بين ألف الخط واللام وهذه معان حسنة رائقة ومنها معنى واحد مأخوذ من شعر البحترى وهو

سلبوا وأشرقت الدماء عليهم * محمرة فكأنهم لم يسلبوا

(ومن ذلك) ما ذكرته في صدر كتاب يتضمن قصارة وهو أصدر هذا الكتاب والنقع غض طرى لم تنسل حرة يومه ولا أغمدت سيوف قومه فسطوره مترتبة عثار هجابه عثلثة بخط ضربه واعجام نباجه وهذا المعنى ينظر الى قول أبي تمام

كتبت أوجههم مشقا ونمنمة • ضربا وطعنا يقات الهام والصلفا
كتابة ما تنى مقروءة أبدا • وما خطت بها لاما ولا ألفا

الا أن أبا تمام مثل آثار الضرب والطعن في الوجوه بالكتابة وأنا مثلت الكتابة واعجامه بالضرب والطعن فكأني عكست المعنى الذي ذكره أبو تمام وهذا مقصد في حل الابيات الشعرية حسن فان استخراج المعنى من عكسه أدق من استخراجه من نفسه وقد نبهت على ذلك في مواضع أخر من هذا الباب (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن قصارمن فتوح الكفار وهو وأقبلت احزاب الكفر وهي متقمصة بصلبها ورافعته على أعواد عالية كهيئة خطيبها ولم تعلم أن الله كتب عليه الهوان بعد تلك الكرامة وأنه ذو شعب أربع والتربيع ضد في حكم النصامة وكيف ترجو بكفرها ظهورا ولها منه معنى الاختفاء وللاسلام معنى السلامة ولما التقى الجمعان اصطفقت يمين وشمال وزحفت جبال الى جبال وكثرت النفوس على المنايا حتى كادت لا تفي بالآجال وأقدمت الخيل اقدام فرسانها وأظلم النقع فلم تبصر الا بآذانها ونابت الصدور ثارها من كعوب الرماح واشتكت الاسنة فلا طريق فيها لمهب الرياح واستوصلت شجرة الكافرين بالقطع لا بالجداد وسال حد السيف دون حديد الاصفاد ونقلوا الى جهنم يصلونها وبئس المهاد وانقلب المسلمون وقد ملؤا الاغماد نصرا والعصائب أجرا والايدي وقرا والقلوب جذلا والالسنة شكرا وكان ذلك اليوم في الايام علما وفي الاقسام قسما ولم يره الزمان متسويا اليه الا راجع شبابا بعد أن ناهز هرما في هذا الفصل شيء من معاني الشعر وذلك من قول أبي الطيب المتنبي

أتاهم بأوسع من أرضهم • طوال السبيب قصار العسب
تغيب الشواهق في جيشه • وتبدو صغارا اذا لم تغب
ولا تعبر الريح في جوه • اذا لم تخط القنا أو تثب

(ومن

(ومن قوله أيضا)

في جحفل ستر العيون غباره * فكأنما يبصرن بالآذان

(ومن ذلك) ما ذكرته في الانجاد واجابة الصريخ وهو اذا استصرخ أصرخ بعزم عذبته صعبة الجيش عن لذة العيش فهو يستعذب حز الثغور على برد الثغور ويلهو بالبيض الذكور عن بيض الخدور ولا طيب عنده الا رهج العجاج ولا عناق الا أطراف الزجاج ولا أرب له في الرقاد الا على صهوات الجياد فعسكر قلبه أمضى في الوغى من عسكر ونجدة بأسه تأبى لقاء الاقران في درع أو مغفر وهذه المعاني مأخوذة من أبيات الحماسة ومن شعر مسلم بن الوليد (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف المخبر دون المنظر وهو اذا سموت لامر فكن واحدا في مكانك ولا ترض بكثرة الشركاء فيقال فلان من أقرانك ألم تر الى الحرباء الذي هو دويبة حقيرة الشان ضعيفة الاركان فانه ارتفع في هواه عن الارض وأنسها الى السماء وشمسها وقال لا أحب من تفسد الايام من حسنه ولا من أحد بسمة خله ولا خدنه والهمم ليست منوطة بجهارة المناظر والتعويل على الخبر المستتر في الافئدة الباطنة لا على الظواهر ومن ههنا قيل ان وضاءة النفوس أنضر من وضاءة الاجساد ورقم الشيم أحسن من رقم الابراد وآخر هذا الفصل ينظر الى قول سحيم عبد بني الحسحاس

ان كنت عبدا فنفسي حرة كرما * أو أسود اللون اني أبيض الخلق

الا أن الفصل يتضمن معنى غريبا لم يسبقني اليه أحد (ومن ذلك) ما ذكرته في الحسد في فصل من كتاب وهو حاسد سيدنا ينظر الى زهرة دنياه ولا ينظر الى استحقاقه وهو كالناظر الى الاطواق الموضوعة في الجيد ولا يدري أن الجيد أحسن من أطواقه ولو قاس الدنيا بالاستحقاق لذهب الحسد من صدره وقال مالي أحسد من لم ينته قدر دنياه الى معشار قدره (ومن ذلك) ما ذكرته في صدر كتاب يتضمن الاعتذار عن تواتر المكاتبات وهو اذا اعتذر من انقطاع الكتب اعتذر الخادم من اتصالها ولو كانت واردة على غير ذلك الباب الكريم لخاف من املالها وقد عد احتمال تثقيلها من جملة الايادي التي أثقلته وأراد أن يجري معها بسوابق شكره فأعجلته وما أمهلته وهو الآن مرتهن بين قديم وجديد وأصبح كخراش اذ تكاثرت عليه الظباء فلم يدر

لكثرتها مايصيد فان أمسك سيد نامن أياديه والا فليتفضل على الشكر بالاقتار واعلم أن ذمته وفائه كذمته ديوان المال فى الامصار هذا فصل فى هذا المعنى قلما يوقى بمثله وفيه معنى واحد من قول الشاعر

تكاثرت الظباء على خراش • فمايدرى خراش مايصيد

(ومن ذلك) ماذكرته فى استصلاح مودة فقلت كنت عنده بالمنزلة التى آمن بها ما أجنبه فصرت أخاف ما لم أجنه وكان لا يقبل على شهادة عينه فأصبح الآن يقبل على شهادة أذنه لكن لم يجعل الله القلوب بين اصبعين من أصابعه الاليذهب بها كل واد ومن ههنا كانت تنتقل من وداد الى قلى ومن قلى الى وداد ولا شك أن لها بين الحالتين عمرا تنتهى اليه كما تنتهى أعمار الاجساد والصبر خير ما استعمل فى جفاء الاخوان والماء اذا جرى فى مكان ثم انحرف عنه فلابد أن يعود الى ذلك المكان وبعض هذا مأخوذ من شعر ابن الرومى

عهدتك لا تعتد بالعين شاهدا • على فلم أصبحت تعتد بالاذن

(ومن ذلك) ماذكرته فى فصل من كتاب الى بعض الملوك على يد بعض العفاة وهو الشيم الكريمة للانسان بمنزلة المسك فى سرر الغزلان غير أن طيب هذه يعبق بالانوف وطيب هذه يعبق بالآذان وقد جعل تفاوت المزية بين هذين الطيبين فرقا فأحدهما يبقى دائما ولا يذهب والآخر يذهب ولا يبقى ونصيب مولانا من الطيب الباقى نصيب زكت معادنه وكثرت خزائنه وسارت فى الارض محاسنه ورفعه الله به الى محل يبعد شأوه على الطالب ولا يرى الا فى لسان شاعر أو لسان خاطب وهو مما استثنى من خلق الناس الذى هو من طين لازب ومن أجل ذلك يرون أشباها ماعداه ومامنهم الا من يقر بفضله ولو كان من حساده أوعداه وقد أصبحوا وهم يقلون لديه حين يكثرون ويقول كل منهم لصاحبه أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون هذا الفصل وان تضمن شيأ من القرآن الكريم فليس المراد ههنا القرآن الكريم بل منه شئ مأخوذ من الشعر وهو قول المتنبى

الناس مالم يروك أشباه • والدهر لفظ وأنت معناه

(ومن ذلك) ماذكرته فى وصف الخمر وهو الخمر لا تفى لذة اسكارها بتنغيص خمارها فهى خرقاء البيان بذية اللسان وتأبيتها لك أنها من ناقسات العقول

والاديان وقد عرف منها سنة الجور فى أحكامها ولولا ذلك لما استأثرت من الرؤس بجناية اقدامها وهذا أحسن من قول الشاعر وأغرب وألطف لانه قال

ذكرت حقائدها القديمة اذ غدت * وهنا تداس بأرجل العصار
لانت لهم حتى انتشوا فتحكمت * فيهم فنادت فيهم بالثار

وكذلك قلت فى وصفها أيضا وهو مدامة تنفى خواطر الهموم وتسرى مسرى الارواح فى الجسوم وتشهد بأن الكرم مستمدة من ماء الكروم ويتمثل حبها نجوما الا أنها مضلة والهداية للنجوم وبعض هذا مأخوذ من قول أبى نواس

اذا هى حلت فى اللهاة من الفتى * دعى همه من صدره برحيل

ومازال الشعراء يتواردون على هذا المعنى حتى مج لكن الذى ذكرته بعد هذا المعنى من محاسن المعانى فى وصفها وكذلك ماذكرته فى وصفها وهو الخمر كالعذراء فى نفورها وملازمة خدورها ولهذا تشمئز من نكاح المزاج وتصحب لبس الماء صحب الابكار لبس الازواج ومن شأنها أن تلبس عند الزفاف اكليلا على راسها وكذلك شأن العرائس عند زفافها الى أعراسها وهذه المماثلة بين الخمر وبين البكر على هذا النسق لم يأت بها أحد غيرى وانما وصفت بانها بكر كقول أبى نواس

فقلت لشيخ منهم متكاتم * له دين قسيس وفى نطقه كفر
أعندك بكر مزة الطعم قرقف * صنيعة دهقان تراخى له العمر
فقال عروس كان كسرى ربيبها * معتقة من دونها الباب والستر

(ووصفت) بالنكاح والزواج كقوله أيضا

وقهوة كالعقيق صافية * يطير من كأسها لها شرر
زوجتها الماء كى تذل له * فامتعضت حين مسها الذكر

(ومن ذلك) ماذكرته فى الحزم وهو لا ينبغى للحازم أن يساور المورد المؤذن بضيقه وان أفضى الصدر الى رحيبه فان توقى الداء خير من التعرض له مع وجود طبيبه ولندع قول من يقعد على تل السلامة ثم يلبس الكتائب بالكتائب ويقول ليس للعزم الا تمام الصدور وليس له تمام العواقب بعض هذا مأخوذ من شعر أبى تمام

وركب كاطراف الاسنة عرسوا * على مثلها والليل تسطو غياهبه

لأمر عليهم أن يتم صدوره * وليس عليهم أن تتم عواقبه

(ومن ذلك) ما ذكرته في وصف الرأي والكيد وهو أخفى على العدو كيده حتى لم يدع كائدا وأعمى عليه سلوك الطريق حتى ظله سلفا فسيوفه لسطوته في بعدها ولا تنقطع الاوهي في غمدها وبعض هذا المعنى أخذته من شعر أبي تمام وهو

سكن الكيد فيهم ان من أعظم كيد أن لا يسمى أريبا

(وكذلك) قولي في هذا المعنى وهو أخذ بسمع العدو وبصره وستطلع ورده وصدره فيداه مغلولة مع أنها مطلقة السراح ومقاتله بادية على أنها شاكية السلاح وهذا المعنى ينظر الى المعنى الذي قبله وكذلك قولي أيضا وهو يبيت برأيه العدو قبل جيشه وتلقاه بطيش قلبه الذي كل الحلم في طيشه فاذا أظلمت وجوه الآراء كان رأيه لها مصباحا واذا جهزت الجحافل لحرب كان قلبه لها سلاحا وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر البحتري

وهو المرء ما غزا بلدا بالرأي الا كفاه غزو الجنود

(ومن ذلك) ما ذكرته في وصف السير والركاب والخيل والقفار وما يتعلق بها (فمنه) ما يتعلق بالسير وهو ركب ظهر الليل يباري سيره به سيرا أشهبه ويستقرب بعد المدى في نيل مطلبه غير أن تلك تفري أديم الغياهب وهذا يفري أديم السباسب وهذا مأخوذ من قول المتنبي

يباري نجوم القذف في كل ليلة * نجوم له منهن ورد وأدهم

(ومن هذا المعنى) أيضا قولي وهو اتخذ الليل ظهرا واستلان خشونة المسرى فلم يزل يقذف صبغة سواده بصبغة سواده حتى بدت في أديم الليل شيات صباحه وشابه الادهم في غرته وأوضاحه فعند ذلك أخذ أحدهما في رحيله وأخذ الآخر في نزوله وهذا المعنى ينظر الى الذي قبله وفيه من شرف الصنعة ما لا خفاء به (ومن ذلك) ما ذكرته أيضا في فصل من كتاب وهو سرت وتحتي بنت قفرة لا يذهب السرى بجماحها ولا تستزيد الحادي من مراحها فهي طموح باثناء الزمام واذا سارت بين الآكام قيل هذه واحدة من الآكام ولم تسم جسرة الا لأنها تقطع عرض الفلاة كما يقطع الجسر عرض الماء ولا سميت حرفا الا لأنها جاءت لمعنى في العزائم لا لمعنى في الافعال والاسماء وخلفها جنيب من الخيل يقبل بجذع ويدبر بصخره وينظر من عين جخظة ويسمع بأذن حشره

ويجري

ويجرى مع الريح الزعزع فيـذرها وقد ظهر فيها أثر الفترة وما قيد خلفها الا وهو يهتدى بها فى المسالك المضلة ويطأ على اثرها فيرقم وجوه البدور باشكال الاهلة هذا والليل قد ألقى جرانه فلم يبرح والكواكب قد ركدت فيه فلم تسبح وانا أود لو زاد طوله ولم تظهر غرة أدهمه ولا حجوله فقد قيل انه أدنى للبعد وأكتم للاسرار ودل عليه القول النبوى بأن الارض تطوى فيه مالا تطوى فى النهار ومازلت أسير بيدها تنوء به حتى كاد ينضو لون السواد وظهر لون السرحان فأغار على سرح السماء كما يغير السرحان على سرح النقاد فعند ذلك نهلت العين من الكرى نهلة الطائر ولم يكن ذلك على ظهر الارض المطمئنة وانما كان على الظهر السائر فى هذا الفصل كل مليحة من المعانى ولو لم يكن فى هذا الكتاب سواه لكان كافيا وبعضه مأخوذ من الشعر كقول أبى تمام

طموح بأثناء الزمام كأنما * يخال بها من عدوها طيف جنة

وكقوله

بالشذقيات العتاق كأنما * أشباحها بين الاكام اكام

(ومن ذلك) ماذكرته فى النسب فى فصل من كتاب وهو لهم نسب لاتدخله لام التعريف وهو موضوع لايجرى على سنن التوقيف فاذا ذكرأوله وقفت من عرفانه على طلل ووجدته مهملا فى جملة الهمل وان قيل انه من نجوم السماء قلت لكنه لايخرج عن الثور أو الحمل فما أرعف لوصفه لسان الانباء ولا اقتدح له زناد خاطر الاكبا وهم منه كآوى الذى يرى الناس له ابناولا يرون لابنه أبا وهذا من أغرب مايؤتى به فى ذم النسب وهو من باب توليد المعانى الذى يسمى الكيمياء وبعضه مستولد من قول أبى نواس فى هجاء الخصيب

وما خبره الا كآوى يرى ابنه * ولم يرآوى فى حزون ولاسهل

فأبو نواس ذم خبر الخصيب فى عدم رؤيته وأنا نقلت ذلك الى النسب فجاء ألطف وأحسن وأليق وأدخل فى باب الصنعة واذا حقق النظر فيما ذكره أبو نواس فى هذا المعنى لم يوجد مناسبا فان الخبر فى عدم رؤيته لايحمل على ابن آوى وانما المناسبة تقع فى النسب من أجل ذكر الابن والاب (ومن ذلك) ماذكرته فى ذم قوم وهو فصل من كتاب فقلت تركت قوما لم ينقعوا صدى ولم يجروا الى مدى فأعراضهم نكرة المعارف وأموالهم حنظلة الناقف لا تمطر سحبهم

على كثرة مائها ولا تركوا الزريعة بأرضهم على غلتها وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر الشريف الرضى

تركت أناسا لم يهشوا لمنة ... ولم يتقعوا غلة الظماء الخوامس

على القرب فيهم انني غير طامع ... ومنك على بعد المدى غير آيس

ومن هذا الباب أيضا قولى وهو تركت قوما يسلون الحبيب ويملون القريب ولا يرعون من يرعاهم ولا يدر اللبن على مرعاهم فنوالهم خبايا واعراضهم ضحايا ومن أحسن صفاتهم أنهم يصافون على الظنة ولا يرتاحون لمنة فالدرائع لديهم مدفونة والصنائع غير مصونة وبعض هذه المعانى مأخوذ من شعر أبى الطيب المتنبى

رأيتكم لا يصون العرض جاركم ... ولا يدر على مرعاكم اللبن

جزاء كل قريب منكم ملل ... وحظ كل محب منكم ضغن

(ومن ذلك) ماذكرته فى الحث على الاغتراب وهو لولا التغرب لما ارتقت بنات الاصداف الى شرف الاعناق ولا ارتقى تراب الاحجار الى نور الاحداق (وكذلك) قولى فى هذا المعنى وهو فى الانتقال تنويه لخامل الاقدار ولولا ذلك لم يكس الهلال حلة الابدار والمندل الرطب حطب فى أوطانه والمسك دم فى سرر غزلانه ولولا فراق السهم وتره لم يحظ بفضل الاصابة ولولا فراق الوشيج منبته لم يتصل بعز السنان ولا شرف الذؤابة وهذا الفصل فصل من القول فى معناه وعالم ينبش للخواطر ابتناء مبناه فمنه ما هو مأخوذ من الشعر ومنه ما سمح به الخاطر على غير مثال وهو يشهد لنفسه (ومن ذلك) ماذكرته فى وصف الايام وهو أيام تعتد بأعوام لقصر أعمارها وشهور لا يشعر بانصافها ولا سرارها فالاوقات بها أصائل والمحاسن فيها شمائل والمآرب فى ساعاتها رياض فى خمائل فما أدرى أهى خيالات أحلام عرت أم أحاديث أمان مرت وبعض هذا المعنى مأخوذ من أبيات الحماسة

شهور ينقضين وما شعرنا ... بانصاف لهن ولا سرار

(ومن ذلك) ماذكرته فى وصف الاخوان وهو ليس الصديق من عد سقطات قرينه وجازاه بغثه وسمينه بل الصديق من ماشى أخاه على عرجه واستقام له على عوجه فذلك الذى ان رأى سيئة وطئها بالقدم وان رأى حسنة رفعها

على علم ويعض هذا المعنى مأخوذ من أبيات الحماسة

ان يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا * عنى وما سمعوا من صالح دفنوا

الا أن الذى ذكرته ضد هذا المعنى وقد يستخرج المعنى من ضده وهو أحسن مما يستخرج من نفسه (ومن هذا) قولى أيضا وهو ليس الصديق من صرّى اخلاف ودّه وغش فى صفقة عهده بل الصديق من لا ترد سلعة ودّه باقالة ولا عيب ولا تخص محافظة اخائه بشهادة دون غيب فذلك أخى من غير نسب وكنزى من غير نشب وهذا مأخوذ من الفقه فى تصرية ضرع الشاة عند البيع وذلك يوجب الردّ (ومما) ينتظم بهذا السلك قولى وهو الانتقال عن خلة الوداد كالانتقال عن نسب الميلاد وكما يحرم هذا فى نص الحكم المشروع فكذا يحرم هذا فى خلق الكرم المطبوع على أن نسب الخلة الذى ينميه القلب الى القلب أوصل من نسب الرحم الذى ينميه الابن الى الأب ولهذا كانت مودّة سلمان قربى ونسب أبى لهب سبا وتبا وبعض هذا مأخوذ من شعر أبى نواس وهو

كانت مودّة سلمان له نسبا * ولم يكن بين نوح وابنه رحم

(ومن ذلك) ما ذكرته فى وصف الديار وهو دار كانت مقاصر جنة فأصبحت وهى ملاعب جنة ولقد عميت أخبار قطانها وأنشاز أوطانها حتى شابهت احداهما فى الخفاء الاخرى فى العفاء وكنت أظن أنها لا تسقى بعدهم بغمام ولا يرفع عنها جلباب ظلام غير أن السحاب بكاهم فجرت بها سوافح دموعه والليل شق عليهم ثوبه فظهر الصباح من خلال صدوعه وهذه معان لطيفة جدّا وبعضها مأخوذ من شعر الشريف الرضى رحمه الله تعالى

أمرابع الغزلان غيرك البلا * حتى غدوت مراتع الغزلان

(ومما) يلتئم بهذا المعنى قولى أيضا وهو دار أصبحت مراتع أذواد بعد أن كانت مناجع روّاد فلو تصوّرت الآمال التى مثلت بفنائها كما تصوّرت الآثار المماثلة من بنائها لرأيت رسوم مهامع رسوم القباب وعلمت كم غار بها من بحر ونضب من سحاب وهذا معنى حسن له من نفسه مثن وحامد ومن سامعه يمين وشاهد وهو من معانى المستخرجة (ومن ذلك) قولى أيضا وهو النقص موكل بكمال النعماء ولذلك كان الوخم مقترنا بالمرعى والماء وقلما ترى ثمرة الا ومعها زنبور ولا لذة الا والى جانبها شئ محذور (وكذلك) قولى أيضا وهو لا يظفر الرجل

بمطالبه شفعا ولا تؤتيه من كل جهة نفعا بل يرى مرعى بلا ماء وماء بلا مرعى ولذلك كانت الصلة مع الشهدة والشوكة مع الوردة وبعض هذه المعانى مأخوذ من قول أبى تمام

أرض بها عشب زاك وليس بها ٭ ماء وأخرى بها ماء ولا عشب

الا أن فى الكلام المنثور زيادة على ما تضمنه الشعر وكأنه يتطلع اليه تطلعا بعيدا ومن سبيل المتصدى لهذا الفن أن يأخذ المعنى من الشعر فيجعله مثل الاكسير فى صناعة الكيمياء ثم يخرج منه ألوانا مختلفة من جوهر وذهب وفضة كما فعلت فى هذا الموضع فانى أخذت معنى هذا البيت من الشعر فأخرجت منه ما ليس منه وهذا أعلى الدرجات فى نثر المعانى الشعرية وقد بسطت القول فى هذا الموضع وكشفت عن دقائقه فى الكتاب الذى وسمته بالوشى المرقوم فى حل المنظوم وهو كتاب مفرد لهذا الفن خاصة ومن هذا الضرب الذى هو الكيمياء فى توليد المعانى ما ذكرته فى وصف الربيع فقلت فصل الربيع هو أحد ميزانى عامه والمستقيد لسامه من حامه وقد وصف بأنه ميعاد نطق الاطيار وميلاد أجنة الازهار والذى تسترق به حواسه الافئدة العقار فاذا اسلت السحب فيه سيوفها كان ذلك للرضا لا للغضب واذا خلعت على الارض غلائلها الدكناء ابتسمت منها ديباجة منسوجة بالذهب وهذا المعنى مستولد من قول أبى تمام فى وصف السحاب

سابته الجنوب والدين والدنيا وصافى الحياة فى سلبه

الا أن فى الذى ذكرته معنيين غريبين اذا أمعن الناظر نظره فهمهما (ومن ذلك) ما ذكرته فى لين القول واعادته وما يجرى مجراه كقولى فى فصل من كتاب وهو لم أعد عليه القول لانه لا يبلغ مدى ميدانه الا بتحريك سوطه وعنانه بل أخذا بأدب الله فى أذكار القرآن واتباعا لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فى تثويب الاذان وبعض هذا مأخوذ من شعر أبى تمام

لو رأينا التأكيد خطة عجز ٭ ما شفعنا الاذان بالتثويب

(وكذلك) قولى أيضا وهو وقد علم أن لين القول أنجع قبولا وهو من أدب كليم الله اذ بعثه الى فرعون رسولا ألا ترى أن الحدا يبلغ من المطايا بلطفه ما لا يبلغه السوط على عنفه وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبى تمام

وخــذهم بالرقراق المهارى ٭ يحسبها على السير الحداء

(ومن ذلك) ماذكرته فى ذم الدنيا وهو أنكاد الدنيا مشوبة بالاشياء التى جبلت النفوس على حبها وكل ماتستلذه الابدان من ما كلها فانه يضرها من جهة طبها واهذا يذم من منفعة الهليلج ومضرة اللوزينج وأعجب من ذلك أنه لا ينتفع الانسان بشىء من لذاتها الاضره من جهة ثوابه وهو كالذى ينتفع باصطلاء النار وهى محرقة لا ثوابه وقد ضرب لذلك مثل من الامثال وقيل ان كل ماينفع الكبد مضر بالطحال وهذا مأخوذ من الامثال العربية والمولدة (ومن ذلك) ماذكرته فى الزهد وهو الناس فى الدنيا أبناء الساعة الراهنة وكما أن النفوس ليست فيها بقاطنة فكذلك الاحوال ليست بقاطنة ولهذا كانت المآتم بها كالاعراس يتفرق ذى جمعها فهذه تنسى ما مضى من لذة سرورها وهذه تنسى ما مضى من ألم فجعها ولاشبيه لها على ذلك الا الاحلام التى تلاشى خيالها عاجلا وتجعل اليقظة حقها باطلا وما ينبغى حينئذ أن يفرح بها مقبلة ولا يؤسى عليها مدبرة وكل ماتراه العين منها ثم يذهب فكأنها لم تره وغاية مطلوب الانسان منها أن يمتد فى مدة عمره ويملى له فى امتداد كثره أما تعميره فيعترضه الشيب الذى هو عدم فى وجود وهو أشد الموت فى كل شىء الا فى سكنى اللحود فالجوارح القيد ولذتها الشهوات ترى وكل منها قد تحول وأصبح كالطلل الدارس الذى ليس عنده من معول فلا الليل بليل ولا النوار بالنوار ولا الاسماع أسماع ولا الابصار أبصار وأما ماله فان أمسكه فهو عرضة لوارث يأكله أو لحادث يستأصله وان أنفقه كان عليه فى الحلال حسابا وفى الحرام عقابا فهذه زهرة الدنيا الناضرة وهذه عقباها الخاسرة وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر صالح بن عبد القدوس

واذا الجنازة والعروس تلاقيا ٭ ألفيت جمعا كله يتفرق

ومن قول أبى العتاهية

انما أنت طول عمرك ما عمرت فى الساعة التى أنت فيها

(ومن ذلك) ماذكرته فى فصل من كتاب يتضمن تعزية وهو كيف يظلم ذلك اللحد وبه من أعمال ساكنه أنوار أم كيف يجدب وبه من فيض يمينه سحاب مدرار أم كيف توحش أقطاره والملائكة داخلة عليه من تلك الاقطار أم كيف يخفيه

طول السهد على تقاوته وطيب ثراه هاله الزوار وما أعلم ما أقوله فى هذا الخطب
الجليل الذى دق فيه الحزن الجليل وسمحت النفوس بالفدية على حب
الحياة وذلك من الفداء القليل وقد قيل انه لم يخلق الدمع الا انذارا بأن نوائب
الزمان ستنوب وقد جعل الله ذخر البكاء لها وانما يدخر السلاح للقاء الحروب
والذى ذخرته منه لم يغن عنى فى هذه النائبة وأى جنة تقوم فى وجه سهامها
الصائبة لا جرم أنى أصبحت بين يديها هدفا للرماء ولم يبق فى الا الذماء الحشاشة
ومن العجب بقاء الذماء وشئ من هذا الفصل مأخوذ من شعر ابن الرومى

لم يخلق الدمع لامرئ عبثا * الله أدرى بلوعة الحزن

(وكذلك) ذكرت فصلا فى كتاب آخر يتضمن تعزية وهو فيا ويح أبدا أسلمته
الى الثرى وما كان يسلمها الى الاعدام وألبسته حلة اللحد وطالما جلا عنها
غيابة الظلم والاظلام وغادرته بوحدته مستوحشا وقد كان يؤنسها بزوار فى
الالمام ومثلا لا وارى الثرى منه الا صورة يدركها الفناء وتبلى كما يبلى غيرها
من الاجساد ولكنه لا يستطيع موارات الذكر الخالد الذى يذهب بشماتة الحساد
ويتمثل فى السماء بصورة الكواكب وفى الارض بصورة الاطواد وبعض هذا
مأخوذ من قول بعض شعراء الحماسة

فان تدفنوا البكرى لا تدفنوا اسمه * ولا تدفنوا معروفه فى القبائل

(ومن ذلك) ما ذكرته فى وصف كلام بالفصاحة وهو فصل من كتاب فقلت
وله البيان الذى يفض منه نسق الفريد ولا يخلق نضرة لباسه الجديد وهو
فوق كلام العبيد ودون القرآن المجيد واذا اختصر واصفه قال انه يستميل سمع
الطروب ويستخف وقار القلوب ويتمثل آيات بيضاء من غير سوء الى الجيوب
ويرى فى الارض غير لاغب اذا مس غيره فترة اللغوب ولا تزال الناس فى عشق
معانيه ضربا واحدا والعاشقون ضروب ولما وقفت عليه قلت سبحان
من أعطى سيدنا فلم يبخل وخصه بنبوة البيان الا أنه لم يرسل ولولا أن الوحى
قد سد بابه لقيل هذا كتاب منزل ولقد شاء الله لأولى الفصاحة اذ لم يعيشوا
الى عصره ولم يجتلوا فيه بداءة الحسد الذى يصليهم بتوقد جمره ولئن سلموا
من ذلك فما سلمت أقوالهم من أقواله التى محتها محو المداد وقد كانت باقية
بعدهم فلما أن صارت كما صاروا الى الالحاد فى هذا الفصل شئ من المعانى

الشعرية

الشعرية كقول البحتري

مستقيل سمع الطروب المعنّى * عن أغاني معبد وعقيد

وقول الشريف الرضي رحمه الله

عشقت ومالي يعلم الله حاجة * سوى نظري والعاشقون ضروب

وفيه أيضا شيء من معاني القرآن الكريم الا أنها جاءت ضمنا وتبعا وموضعها يأتي بعد الابيات الشعرية (وكذلك) ذكرت فصلا آخر من هذا الاسلوب وهو وان للكلامة طعما يعرف مذاقه من بين الكلام وخفة الارواح معلومة من بين ثقل الاجسام فلو لم نعرفه بنعته عرفناه بوسمه والصباح لا يتمارى في اسفاره ولا يفتقر الى دليل على اشراق أنواره وقد علم أن العرق يعرف بغصنه وأن القول يعرف بلحنه ونفائس هذه العقود لا يبرزها الا أنفاسه فدررها لفظه وسلوكها قرطاسه (ومن) هذا الباب قولي أيضا وهو ألفاظ كنفق البرود أوزار الأسود ومعان تدل بارهافها أنها هي السيوف وان قلوبا غمتها هي الغمود فيخالها المتأمل حومة طعان أو حلبة رهان وبعض هذا مأخوذ من شعر البحتري

يقظان ينتخب الكلام كأنه * جيش لديه يريد أن يلقى به

(ومن ذلك) ماذكرته في فصل من كتاب الى بعض الاخوان من أهل الكتابة كان اعتدى عليه شخص يدّعي الكتابة وليس من أهلها فقلت وقد يلتبس بسيد ناقلا اغلط اللذان ينسب أحدهما الى المداد وينسب الآخر الى الصعاد فهو يدير هذا في معركة المقال وهذا في معركة الطراد ولربما صهل أحد قلبيه من فوق صفحات الدروج كما تصهل الجياد من تحت أعواد السروج فله احتفال المواطن والمجالس والبعثاء أصحاب العمائم والقلانس لاكن لا يتجاوز همه طرفي ردائه واذا نودي لفضيلة قيل اغاب سمع الحي بندائه وكم في الناس من صور لا تجد لمعناها أثرا واذا رأيتها كانت أرى خالا ولا أرى مطرا وأي جمال عند من ليس له الا جمال ثيابه وهل ينفع السيف الكهام أن يجعل من الذهب حلية قرابه وكل من هؤلاء ذنب يسمى بغير راس ولا همة الا في عيشة الطاعم الكاسي واذا اعتبر حاله وجد من البهائم وان كان منسوبا الى الناس والسيادة ليست في وشي الثياب ولا في طيب الطعام والشراب وانما هي في شيئين اما شهامة قلم تفرق لها قلوب الغمود أو شهامة رمح تفرق لها قلوب

الاسود وكأني بقوم يسمعون هذا وكلهم يتمعض امتعاض المغضب وتتلاحج
نفسه تلاحج المتعب ويعترض الشجي في حلقه حتى يغص من غير أن يشرب
ولم يزل بالحساد من حسد ناداه يورثهم أرقا ويوسعهم شرقا وكثيرا ما ترى له
جباههم وكذا الميت تندى جبينه عرقا وما أرى لهؤلاء دواء الا أن يطرحوا
عن مناكبهم ثقل المساجلة والحسد انما يكون عن يجرى مع صاحبه
في مضمار المماثلة وكنت أحب أن يقام على الكتابة محتسب حتى يتعلم منها
خلق كثير وتستريح جياد كثيرة من ركوب حمير وفي مثل هذا السوق يظهر
أهل الخلابة والغبن وما منهم الا من هو في الحضيض الاسفل وقد أجاش
نفسه قائمة العرش ونار الآلة العمرية تميز خالص النقود من زيفها ولا حيف
في هذا المقام على من أسرفت دعواه الكاذبة في حقها وبعض هذا الفصل
مأخوذ من شعر عبد السلام بن رغبان عرف بديك الجن

ترمى به القلبان الا أن ذا ... لدن المجس وان ذا مكعوب
عودان يقضب ذا الطلى بلعابه ... ويجوب ذا الهضبات بالتركيب

ويكفيك أيها المترشح لنثر الشعر أن تنظر الى هذا الفصل وتتأمل الموضع الذى
أخذت معنى هذين البيتين ووضعته فيه فانى ذهبت فيه مذهبا ومقنعا (وأما) حل آيات
القرآن العزيز فليس كنثر المعانى الشعرية لان ألفاظه ينبغى أن يحافظ عليها
لمكان فصاحتها الا أنه لا ينبغى أن يؤخذ لفظ الآية بجملته فان ذلك من باب
التضمين وانما يؤخذ بعضه فاما أن يجعل أولا للكلام أو آخرا على حسب
ما يقتضيه موضعه وكذلك تفعل بالاخبار النبوية على أنه قد يؤخذ معنى الآية
والخبر فيكسى لفظا غير لفظه وليس لذلك من الحسن ما للقسم الاول للفائدة التى
أشرنا اليها وقد سلكت فى ذلك طريقا اخترعتها وكنت أنا ابن عذرتها وعند تأمل
ما أوردته منها فى هذا الكتاب يظهر للمتأمل صحة دعاوى ولئن كان من تقدمني أتى
بشئ من ذلك فانى ركبت فيه جوادا وركب جملا ونال من مورده نهلة واحدة
ونلت منه نهلا وعللا ومن آتاه الله فى القرآن بصيرة فانه يسبك ألفاظه ومعانيه
فى كلامه ويستغنى به عن غيره الا أنه ينبغى أن يكون فيه صواغا يخرج منه
ضروب المصوغات أو صرافا ينتقد فى نقوده المختلفة من الذهب المختلف الالوان
ولا أقول من الفضة فانه ليس فيه من الفضة شئ وهو أعلى من ذلك أو يكون فيه

تايرايديره على يده ويتصرف فى أرباحه ويخرج من الامتعة المجلوبة من مناجمه كل غريبة عجيبة وكل هـذا يفهمه من عرف فلزم وحكم فعلم

وما كل من قال القريض بشاعر * ولا كل من عانى الهوى بمتيم

(واعلم) أن المتصدى لحل معانى القرآن يحتاج الى كثرة الدرس فانه كلما ديم على درسه ظهر من معانيه مالم يظهر من قبل وهذا شئ جربته وخبرته فانى كنت آخذ سورة من السور وأتلوها وكلما مررت بمعنى أثبته فى ورقة مفردة حتى أنتهى الى آخرها ثم آخذ فى حل تلك المعانى التى أثبتها واحدا بعد واحد ولا أقنع بذلك حتى أعاود تلاوة تلك السورة وأفعل مثل ما فعلته أولا وكلما صقلتها التلاوة مرة بعد مرة ظهر فى كل مرة من المعانى مالم يظهر فى المرة التى قبلها وسأورد فى هـذا الموضع سورة من السور ثم أردفها بآيات أخرى من سور متفرقة حتى يتبين لك أيها المتعلم ما فعلته فتحذو حذوه وقد بدأت بالسورة أولا وهى سورة يوسف عليه السلام لانها قصة مفردة برأسها وفيها معان كثيرة * فالاول ماذكرته فى دعاء كتاب من الكتب وهو وصل كتاب الحضرة السامية أحسن الله أثرها وأعلا خطرها وقضى من العلياء وطرها وأظهر على يدها آيات المكارم وسورها وأسجد لها كواكب السيادة وشمسها وقمرها وهذا أول معنى فى السورة وقد نقلته عن قصة المنام الى الدعاء ثم أبرزت هذا المعنى فى صورة أخرى وهو أكرم النعم ما كان فيها ذكرى للعابدين وتقدمه انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين فهذه النعمة هى التى تأتى بتيسير العسير وتجلو ظلمة الخطب بالصباح المنير فانظر الى أثر رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شئ قدير ثم تصرفت فى هذا المعنى فأخرجته فى معرض آخر وهو فصل من جملة تقليد بكتب من ديوان الخلافة لبعض الوزراء فقلت وقد علمه أمير المؤمنين فادنى مجلسه من سمائه وآنسه على وحدة الانفراد بحفل ندمائه ورفعه حتى ودت الشمس لو كانت من أترابه والقمر لو كان من ندمائه وذلك مقام لا تستطيع الحدود أن ترقى الى رتبته ولا الآمال أن تطوف حول كعبته ولا الشفاه أن تتشرف بتقبيل تربته فليزدد عجائبا بما ناله مواطئ أقدامه ولينظر الى سجود الكواكب له فى يقظته لا فى منامه (ومن ذلك) ماذكرته فى ذم بخيل وهو لم أركراهب فلان ملأت أملى بطامع وعودها وفرغت يدى من نيل جودها

فما حسنة الا بلاغ سرابها وكانت كدم القميص في كذابها (ومن ذلك)
ما ذكرته في تزكية انسان عارى به وهو لم يرم بذنب الا بات البراءة مناب
الشاهد وجرى من أهلها بشهادة القميص المقدود (ومن ذلك) ما ذكرته
في عذر الورى وهو لم يوحشنا الا كان لاهل التقى فيه اسوة ولا ليم من
أجله الا اعتذر عذر امرأة العزيز الى النسوة (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من
جواب كتاب الى بعض الاخوان وهو ان كان الكلام كما قيل ذكرا والجواب أتى
بجواب هذا العروس تجلى في حلل الحبر ومقودها المنشورة وتزهى بما آتاها الله
من الحسن الذي ليس بالمجلوب ولا ترضى بتقطيع الايدي دون تقطيع القلوب
وما اقدر أوساتها الى سيدنا حتى يعلم أن نتائج خاطري على الفطرة وأنها معشوقة
العيون فكل الناس في هواها مثلها عذرة في هذا الفصل معنى الآية والخبر النبوي
والبيت من الشعر (ومن ذلك) ما ذكرت في تقلب الايام وهو لقينا أياما ضاحكات
وليتها أيام عابسات فكانت كسبع سنبلات خضر وأخر يابسات (ومن ذلك)
ما ذكرته في وصف كريم وهو ليس ممن يرقب صرف الزمان فيذر الحب في سنبله
ولكنه يستأنف الصبر في آخره ويستهلك المال في أوله فلا يبقى من يومه لغده
ولا يتهم ربه فيما بيده (ومن ذلك) ما ذكرته في حب الرشوة وهو الرشوة تحل عقد
القلوب وتهون فراق المحبوب ألا ترى أن رد البضاعة حكم على أخي يوسف
بالاضاعة (ومن ذلك) ما ذكرته في الاستسلام لحكم الاقدار وهو لا تحترس
من جنود الاقدار بالآراء المتعمقة وسواء عندها الباب الواحد والابواب
المتفرقة (ومن ذلك) ما ذكرته في تتابع الاساءة وهو لم يزل يرشقني بعوارضه
حتى تكاثر النبل واستحكم النبل ولم يكفه الالقاء في غيابة الجب حتى قال
ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل (ومن ذلك) ما ذكرته في التوكل وهو اذا طلب
امرأ أجمل في المطلوب ووكله الى الذي بيده مفاتيح الغيوب وتأسى في حاجته
منه بالحاجة التي كانت في نفس يعقوب (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف الكيد
وهو لم يأت امر الا أخفى أسباب أواخيه وبدأ فيه بالاوعية قبل وعاء أخيه
وهذه ثلاثة عشر معنى من سورة يوسف عليه السلام (وأما) الآيات التي هي
من سور متفرقة فأولها ما كتبته في صدر كتاب الى بعض الاخوان جوابا عن كتابه
وهو ورد كتابه عشية يوم كذا فعرض على عرض الجياد على سليمان

وتساوى شأنى الاشتغال منه ومنها بالاستحسان غير أن الجياد وان حسنت فانها
لا تبلغ فى الحسن مبلغ الكتاب لكن قلت كما قال انى أحببت حب الخير عن ذكر
ربى حتى توارت بالحجاب ولئن قضى الاشتغال هناك بمسح سوق وأعناق فانه
لم يقض ههنا بمسح سطور ولا أوراق وانما اشتغلت عن عبادة بعبادة ولو شئت
لقلت عن افادة بافادة وهذا مأخوذ من قصة سليمان عليه السلام فى سورة ص
وهى قوله تعالى ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب اذ عرض عليه بالعشى
الصافنات الجياد فقال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب
ردوها علىّ فطفق مسحا بالسوق والاعناق فانظر كيف أخذت هذه القصة
وقابلت بينها وبين الكتاب ثم انى تصرفت فيها بالموافقة بينهما تارة والمخالفة
بينهما أخرى وهكذا ينبغى أن يفعل فيما هذا سبيله (ومن ذلك) ما كتبته
عن الملك الافضل على بن يوسف الى الديوان العزيز النبوى ببغداد فى فصل من
كتاب وهو وقد علم أن المال الذى يختزن كالماء الذى يحتقن فكما أن هذا يأجن
بتعطيل الايدى عن امتياح مشاربه فكذلك يأجن هذا بتعطيل الايدى عن
امتياح مواهبه وأى فرق بين وجوده وعدمه لولا أن تملك به القلوب وتقلّ به
الخطوب ويركب به ظهر العزم الذى ليس بمركوب ومن بسط الله يده فيه
ثم قبضها بخلا فانه يقف دون الرجال مغمورا ويقعد عن نيل المعالى ملوما
محسورا واذا أدركته منية مضى وكأنه لم يكن شيأ مذكورا ومذ ناط الله بيد
الخادم ما ناطه من أمر بلاده لم يدخر منها الا مربط أشقره ومركز أسمره
وما عداهما فانه مصروف الى قوة الاسلام فى سد ثغوره وتكثير جنوده وايقاد
حرب عدوه بعد خمودها واستباحة جمرها عند وقوده وما يفضل عن ذلك فانه
للناس يشتركون فى وشله وغمره والمسلم أخو المسلم يساويه فى حقه من بيت المال
وان خالفه فى مزية قدره ولا سبيل على الخادم وهو يفعل ما يفعله أن يدلس من
هذا المال بتبعة المطلوب أو يلحق بالقوم الذين يكنزونه فيجزى عليه بكىّ
الجباه والظهور والجنوب ولم يأت به الله على فترة من مثله الا ليمحو به سيآت
الدين ويعيد به الاسلام الى وطنه بعد أن طال عهده بمفارقة الوطن ولا يكون
حسنة من حسنات أمير المؤمنين ترقمها الدنيا فى ديوانه وتنقل بها فى الآخرة
كفة ميزانه فى هذا الفصل معنى آيتين احداهما فى سورة هل أتى والاخرى

(ومن ذلك) ما كتبته عن الملك العادل أبي بكر بن أيوب
من كتاب يتضمن استعطافه والتنصل اليه وهو من شيمة الاقدار أن تذهب
بما ثر ذوي الالباب ويمثل امام الخطأ في مثال الصواب ولولا ذلك لما زل الحكيم
واعوج المستقيم والمملوك يقبل اليد الكريمة المولوية الملكية العادلية
لازال عرفها مأمولا واحسانها عند الله مقبولا وفضلها في المكرمات مبتدءا
اذا كان فضل الايادي مفعولا ويستغيث الى عفوها الذي يكفي فيه لفظة
الاعتذار ولا يتقيد بمواظبة الاصرار ولو عرف ذنبه لبادر بالقرع له سن الندامة
وعاد على نفسه بالملامة ولما كان حبيبا أن يكون مليما وأن يكون مولانا
كريما لكنه حمل اصرة الذنب وهو يرى من حملها وخاف أن تكون هذه
كأخواتها التي سلفت من قبلها والامور المتشابهة يقاس البعض منها على
البعض والملسوع لا يستطيع أن يرى حبل على الارض ولم يعتزم المملوك
الاتدبير عسوري ان قرائن الاعتصام والتي يده الى أقوام لم يكونوا له بأقوام
واذا ضاق على المرء أقربه كان الابعد من ذوي الارحام وليس بأول من ذهب
هذا المذهب ولا بأول من حمل نفسه على ركوب هذا المركب وان قال بعض
الناس انه عجل في اعتصامه وفراره وانه لو صبر لحمد مغبة اصطباره فهذا قول
من لم يعرف حال المملوك فيقيم له عذرا ولا ابتلي بما ابتلي به من عوارض مولانا
مرة بعد أخرى ولقد تكاثرت عليه هذه الاقوال المؤنبة حتى ملأت طرفه كحل
السهاد وجنبه شوك القتاد وأصبح وهو يرى أنه زلق في خطيئته زلقا وغص
بندمه من أجلها شرقا وبدت له سوآته حتى طفق يخصف عليها ورقا ومع هذا
فانه واثق أن حلم مولانا لا يوفي من الزلل وأن حصاة الذنوب لا تخف بوزن ذلك
الجبل وها هو قد جاء نازعا وللنازع العتبى وعاد مستشفعا ولا شفيع أكرم من
القربى ثم مضيت على هذا النهج الى آخر الكتاب وفي الذي أوردته من هذا
الفصل معنى آية من القرآن في سورة الاعراف وهي قوله تعالى فبدت لهما
سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة (ومن ذلك) ما كتبته عن الملك
القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان بن مسعود صاحب الموصل الى الديوان
العزيز ببغداد بعد وفاة والده يسأل في التقليد وكان عمره اذ ذاك ست عشرة سنة
فمما جاء في صدر الكتاب بعد الدعاء قولي وهو اذا توفي ولي من أولياء الدولة فان

السنة أن يعزى بفقده ويستخرج اذنها فى سليله القائم من بعده حتى لا تخلو أرضها من رواسى الجبال ولا سماؤها من مطالع الكواكب التى تجلو ظلمة الليال وقد مضى والد العبد الى رحمة الله وهو متزود من الطاعة خير زاد غير خائف من إحصاء الرقيب العتيد اذ جعلها له من العتاد وما عليه وقد ثقلت كفة ميزانه ما كان فى الكفة الاخرى من السجلات الكثيرة الاعداد ومضمون وصيته التى عهد بها أن نمشى فى الطاعة على اثره ونهتدى بالاوامر الشريفة فى مورد الامر ومصدره وقد جعلها العبد نصب فكره اذا قام واذا قعد وسجعة صلاته اذا ركع واذا سجد وهو يرى أنه لم يمض والده حتى أبقى للدولة من يثبت قدمه موضع قدمه وعند ذلك يقال ان غصن الشجرة كالشجرة فى ثبات أصله وقوة معجمه وهذا مقام لا تمتاز فيه الآباء عن الابناء وليست المزية لاكتهال السن انما هى لشبيبة الغناء وقد أوتى يحيى الحكم قبل أن يجرى القلم فى كتابه وشهد له بالتزكية قبل أن ينتصب فى محرابه وكذلك قد أمّر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة على قتاة عمره وشهد أنه خليق بما أسند اليه من أمره والعبد وان بسط الاستحقاق لسانه فان الادب يحكم بانقباضه ويرى أن التفويض الى انعام الديوان العزيز أسرع فى نجح أغراضه ولا شك أن منتهى الآمال لا يبلغ أدنى تلك المواهب ولو جمعت فى صعيد واحد ثم سألت مطالبها لما نقصت خزائن العطايا من تلك المطالب وهذا الفصل من أول الكتاب وفيه معنى آيتين من سورة مريم عليها السلام أما الاولى فقوله تعالى عند ذكر يحيى عليه السلام وآتيناه الحكم صبيا وأما الثانية فقوله تعالى وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا وفى هذا الفصل أيضا معان ثلاثة من الاخبار النبوية وليس هذا موضعها وانما جاءت ضمنا وتبعا (ومن ذلك) ما ذكرته فى وصف الغبار فى الحرب وهو وعقد العجاج سقفا فانعقد وأرانا كيف رفع السماء بغير عمد غير أنها سماء بنيت بسنابك الجياد وزينت بنجوم الصعاد ففيها ما يوعد من المنايا لا ما يوعد من الارزاق ومنها تقذف شياطين الحرب لا شياطين الاستراق وهذه المعانى مأخوذة من سورة الرعد وسورة الصافات وسورة الذاريات (ومن ذلك) ما ذكرته فى وصف طعام وهو فصل من كتاب فقلت طعام لا يعل اذا شينت الاطعمة بعللها وكأنما تولته يد الخلقة ولم تباشره الايدى بعملها فهو من بقايا المائدة التى نزلت من السماء وقد طاب

حتى لا يحتاج معه الى استعمال الفكر وكان أنا ذو شبع الا رأى تركه غبنا
بعد ولو تبدل بقسطه بطنا وبعض هذا مأخوذ من سورة المائدة (ومن ذلك)
ما ذكرته فى فصل من كتاب الى ديوان الخلافة وهو قد تكاثرت وسائل الخادم
حتى لا يدرى ما يجعله للطلب سفيرا وما منها الا ما يقال انه أثقل وليس فيها ما يجعل
أخيرا غير أنه لا يذكر منها الا ما هو توأم ايمانه والذى لا يتقبل الله من ابن آدم
الا الى مكانه وفى ذلك كاف من الوسائل التليدة والطريفة وقول لا اله الا الله
لا يعدله شىء من الحسنات المودعة فى الصحيفة وقد تجدد الآن للخادم مطلب
هو بالنسبة الى مواهب الديوان العزيز يسير ولو قامت مطالب الناس فى صعيد
واحد لأعطى كلا منهم امرأه ولم يقل ذلك كثير وكتابه هذا سائر الى تلك
المواهب التى ينبثق عنها صدر الارض باتساعه وليس الذى يسأله عنها فيحال
على النظر الى الجبل فى امتناعه وكما أن عبيد الديوان العزيز أطوار فكذلك
مطالبهم أطوار وقد جعل الله الاشياء متفاوتة فى مراتبها وكل شىء عنده بمقدار
وهذا الفصل من أحسن ما يكتب فى استنجاز مطلب وفيه معان ثلاثة أخبار
نبوية ومعنى آيتين من القرآن الكريم وليس هذا موضع الاخبار وانما جاء ضمنا
وتبعا فالآية الاولى فى سورة الاعراف والآية الثانية فى سورة الرعد (ومن ذلك)
ما ذكرته فى وصف كاتب وهو اذا دجا ليل قلمه وطلعت فيه نجوم كلمه لم يقعد
لها شيطان بلاغة مقعدا الا وجد له شهابا رصدا فأسرارها مصونة عن كل
ناطق مطوية عن كل قائف وهذا المعنى مأخوذ من سورة الجن (ومن ذلك)
ما ذكرته فى وصف كاتب أيضا فقلت له بنت فكر ما مخضت بعد الا انتجته
من غير ما تم حمله وأتت به قومها تحمله ولم يعرض على ملأ من البلغاء الا ألقوا
أقلامهم أيهم يستحبه لا أيهم يكفله فى هذين السطرين آيتان من القرآن
الكريم الاولى فى سورة مريم وقصتها وقصة ولدها عليهما السلام وهى قوله
تعالى فأتت به قومها تحمله والثانية فى سورة آل عمران وهى قوله اذ يلقون
أقلامهم أيهم يكفل مريم (ومن ذلك) ما ذكرته فى فصل من كتاب يتضمن وصف
القلم فقلت وقد أوحى الله تعالى الى قلمه ما أوحاه الى النحل غير أنها تأوى الى
المكان الوعر وهو يأوى الى البيان السهل ومن شأنه أن يجتنى من ثمرات ذات
أرواح لا ذات أكمام ويخرج من نفثاته شراب مختلف طعمه فيه شفاء للافهام

واين ما تنبته كثافة الخشب مما تنبته لطافة المعنى ولا تستوى نضارة هذا الثمر
وهذا الثمر ولا طيب هذا الجنى وهذا الجنى وقد أرخص الله ما يكثر وجوده
فيذهب فى لهوات الافواه وأغلى ما يعز وجوده فيبقى شاهدا على ألسنة الرواة
وكل هذه الاوصاف لا تصح الا فى قلم سيدنا الذى اذا خلا بخاطره امتلأت
بهديته المحافل واذا علا كتابه وجدت الكتب الحالية من قبله وهى عواطل
فله حينئذ أن ينظر الى غيره بعين الاحتقار ولواصفه أن يسهب وهو قائم مقام
الاختصار هذا الفصل غريب عجيب وقد جمع بين الاضداد فناله بعيد وفهمه
قريب وهو مأخوذ من سورة النمل (ومن ذلك) ما ذكرته فى ذم بخيل وهو
له شيمة فى البخل لا يكلم قائلها واذا هزها سائلها قال انها كلمة هو قائلها
وهذا مأخوذ من سورة المؤمنين (ومن ذلك) ما ذكرته فى صدر كتاب وهو
وصل كتابه فوقفت منه على اللفظ الرخيم والمعنى الذى هو فى كل واد يهيم وقال
يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم ثم أخذ فى اعلاء قدره وتنويه ذكره ولم
يستفت الملأ فى الاذعان لامره ولا أهدى فى قبالته سوى هدية لسانه وصدره
لاجرم أنها تقبل ولا ترد ويعتقد بها ولا تعد فلنها مال لا ينفده الانفاق وجوهر
تحلى به الاخلاق لا الاعناق وهذا مأخوذ من قصة سليمان عليه السلام
فى كتابه الى بلقيس وهى مذكورة فى سورة النمل وفى هذا من شرف الصنعة أنه
خولف بين معانيه ومعانى ما أتى به القرآن الكريم (ومن ذلك) ما ذكرته فى صدر
كتاب يتضمن ذكر معركة حرب بين المسلمين والكفار وهو اذا خطب القلم عن الرمح
الذى هو نديده قام محتفلا وأسهب مترويا ومرتجلا حتى يأتى فى خطابته
بالمعانى الابكار وأصدق القول ما صدر عن شهادة الضرائر للضرائر وكتابنا
هذا يصف معركة احمرت ضبابتها وضاقت بالاسود غاباتها فالطعن بها محتضر
والموت محتقر والنصر من كلا الفريقين مقتسر وكان الاسلام هنالك زجر
السنيح وفوز القدح المنيح وليس الذى يرقب المعونة من الله الذى هو رب المسيح
كمن يرقبها من المسيح ولقد نفذت الرماح فى اعداء الله تعالى حتى اعتدلت من
جانبى الصدور والظهور وتركت الناجى منهم وهو لا ينظر الى الصليب الا نظر
الخائف المذعور فليس لهم من بعدها جيش يجمع ولا لواء يرفع وقد كانت
بلادهم من قبل مانعة وهى الآن لا تذب عنها ولا تمنع وهذه معركة قلت بها

الرقاب المأسورة وكثرت النفوس المقتولة وقربت بها القرابين التي تأكلها النار
لا لأنها مقبولة ومعنى الآية في هذا الفصل مأخوذ من سورة آل عمران إلا أنها
تخالفه وذلك أن القربان كان يتقبل فتنزل النار تأكله وأجساد هؤلاء الكفار
قربان تأكله النار لكنها لا تأكله لأنه مقبول وباقي الفصل يتضمن معنى حسنا
رقيقا (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن الشكوى من خلق
بعض الإخوان وهو ولقد صبرت على أخلاقه العائثة وعاملته بالخلائق الرائقة
وعالجته بضروب المعالجات فلم تنجع فيه رقى الراقية ولا نفث النافثة ولما أعيا
على إصلاحه أخذت بمقالة الخضر لموسى في المرة الثالثة وهذا مأخوذ من
قصة موسى عليه السلام وقصة الخضر في سورة الكهف (ومن ذلك) ما ذكرته
في فصل من كتاب وهو فيصبحوا في نار الندم يعرضون عليها غدوا وعشيا وصار
الأمر الذي كانوا يرجونه مخشيا وأصبحوا كأهل النار الذين صاروا أعداء وكانوا
شيعا وقال ضعفاؤهم للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا وهذا مأخوذ من سورة
حم المؤمن ومن سورة سبا (ومن ذلك) ما ذكرته في ذم غلام أبله كنت أتأسى
من بلهه نكدا فكتبت يوما من الأيام إلى بعض إخواني كتابا وعرضت فيه
بذكره فقلت ولقد ملكه النسيان حتى كأنه يقظ في صورة نائم وحتى حقق قول
التناسخ في نقل أرواح الأناسي إلى البهائم فما أرسل في حاجة إلا ذهبت من قلبه
بينة ويسرة ولا طلب منه ما استحفظه إلا قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة وهذا
فصل يشتمل على عدة معان منها ما هو مأخوذ من القرآن الكريم من سورة
الكهف (ومن ذلك) ما ذكرته في تقليد قاض وهو فصل منه فقلت والفضائل
ما برحت موجودة ولم تفتقد وهي حية وإن أودى أربابها ولا يموت من لم يولد
ومن أكرم ما أوتيه منها فضيلة التقوى التي الكرم من شعارها والعاقبة
والحسنى كلاهما من آثارها وما أقول إلا أنه اتخذها حارسا يمنع الخصم من
تسور محرابه ويؤمن قلبه من الفتنة الداعية إلى استغفاره ومتابه وقد قرن الله
هذه الفضيلة بالعلم الذي أعلمه بملاءته ووسمه بوساعته وقذف في روعه
ما لا يسأل معه عن السفينة وخرقها والغلام وقتله والجدار وإقامته وعلى ما
بلغه منه فإنه فيه أحد المنهومين الذين لا يشبعان وإذا كان لغيره فيه نظر واحد
وسمع فله فيه نظرات وسمعات في هذا الفصل المختصر معاني عدة آيات ونبه

من

من الاخبار النبوية أمّا الآية الاولى فقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم وأمّا الآية الثانية فقوله تعالى والعاقبة للتقوى وأمّا الثالثة فقوله تعالى وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب وأمّا الآية الرابعة فقوله تعالى فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة خرقها وكذلك الى آخر القصة وهذا من أحسن ما يأتي في هذا الباب (ومن ذلك) ماذكرته في جملة كتاب يتضمن عناية ببعض الفقراء فقلت بعد الابتداء بصدر الكتاب وقد علم منه أنه يعد الطالب فضله فضلا ويرى التبرع بمعروفه فرضا اذا رآه غيره مع المسألة ثقلا وما ذلك الا لمزية خلق توحد بطيب التربة وشرف الرتبة وأوتي من كنوز الكرم ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة والهذا خرج على قومه من الاخلاق في زينته وفضل الخلق بطينة غير طينته ومن فضله أنه يسأل عن السائلين ويقال في استنباط أمل الآملين ثم مضيت على هذا النهج حتى انهيت الكتاب والغرض أن تعلم أيها المتعلم كيف تضع يدك في اخذ ما تأخذه من بعض الآية ثم تضيف اليه كلاما من عندك وتجعله مسجوعا كما قد فعلت أنا في هذا الموضع ألا ترى أني أخذت بعض هذه الآية في قصة من سورة القصص وهي قوله تعالى ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين فهذه الآية أخذت بعضها وأضفت اليه كلاما من عندي حتى جاء كما تراه مسجوعا وكذلك فعلت بالآية الاخرى من هذه السورة أيضا وهي قوله فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم وهذا ينبغي لك اذا أردت أن تسلك هذه الطريق وقدرت على سلوكها وهي من محاسن الصناعة البلاغية وليس فوقها من الكلام ما هو أعلى درجة منها لانها ممزوجة بالقرآن لا على وجه التضمين بل على وجه الانتظام به والله يختص بها من يشاء من عباده وفيما ذكرته من نثر هذه الآيات كفاية للمتعلم (وأمّا) الاخبار النبوية فكالقرآن العزيز في حل معانيها (فان قلت) ان الاخبار النبوية لا يجري فيها الامر مجرى القرآن اذ القرآن له حاصر وضابط وكل آياته تدخل في الاستعمال كما قال بعضهم لو ضاع مني عقال لوجدته في القرآن الكريم وأمّا الاخبار فليست كذلك لانها كثيرة لا تنحصر ولو انحصرت لكان منها ما يدخل في الاستعمال ومنها ما لا يدخل ولا بد من بيان يكن

الاحاطة به والوقوف عنده (قلت) في الجواب عن هذا ان أول ما تحفظه من
الاخبار هو كتاب الشهاب فانه كتاب مختصر وجميع ما فيه يستعمل لانه يتضمن
حكما وآدابا فاذا حفظته وتدربت باستعماله كما أريتك ههنا حصل عندك قوة على
التصرف والمعرفة بما يدخل في الاستعمال وما لا يدخل وعند ذلك تتصفح كتاب
صحيح البخاري ومسلم والموطأ والترمذي وسنن أبي داود وسنن النسائي وغيرها
من كتب الحديث وتأخذ ما تحتاج اليه وأول مكة أخبرتك بها والذي تأخذه
ان أمكنك حفظه والدرس عليه فهو المراد لان ما لا تحفظه فلست منه على ثقة
وان كانت لك محفوظات كثيرة كالقرآن الكريم ودواوين كثيرة من الشعر
وما ورد من الامثال السائرة وغير ذلك مما أشرنا اليه فعليك بمداومة المطالعة
للاخبار والاكثار من استعمالها في كلامك حتى ترقم على خاطرك فتكون اذا
احتجت منها الى شيء وجدته وسهل عليك أن تأتي به ارتجالا فتأمل ما أوردته
عليك واعمل به وكنت جردت من الاخبار النبوية كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف
خبر كلها تدخل في الاستعمال وما زلت أواظب مطالعته مدة تزيد على عشر سنين
فكنت انتهي من مطالعته في كل أسبوع مرة حتى دار على ناظري وخاطري ما يزيد
على خمسمائة مرة وصار محفوظا لا يشذ عني منه شيء وهذا الذي أوردته ههنا
في حل معاني الاخبار هو من هنالك وسأذكر ما دار بيني وبين بعض علماء الادب
في هذا الاسلوب الذي أنا بصدده ههنا وذاك أنه استوعره وأنكره وقال هذا
لا يتأتى الا في الشيء اليسير من الاخبار النبوية فقلت لا بل يتهيأ في الاكثر منها
فقال قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اختصم اليه في جنين فقضى على
من أسقطه بغرة عبد أو أمة فأين يستعمل هذا فأفكرت فيما ذكره ثم أنشأت هذا
الفصل من الكلام وأودعته فيه قد كثر الجهل حتى لا يقال فلان عالم وفلان
جاهل وضرب المثل بباقل وكم في هذه الصور الممثلة من باقل ولو عرف كل انسان
قدره لما مشى بدن الا تحت رأسه ولا انتصب رأس الا على بدنه ولكان صاحب
العمامة بعمامته وصاحب الرسن أحق برسنه وكنت سمعت بكاتب من الكتاب
كلمه الى فتاته وقلمه بغثاثه لا يستتر وأي بطش لبغاثه واذا وجب الوضوء
على غيره بالخارج من السبيلين وجب عليه من سبل ثلاثة هذا وهو يدعي أنه
في الفصاحة أمة وحده ومن قس اياد وسحبان وائل عنده واذا كشف عن

خاطره

خاطره وجد بابه لا يخرج عن العمه والكمه وان رام أن يستنجه فى ضمن الانسان قضى عليه بغرة عبدأو أمه وكثيرا ما يتقدم ونقيصته هذه على الافاضل من العلماء وقد صار الناس الى زمان يعلو فيه حضيض الارض على هام السماء فلما أورد ته عليه ظهرت امارة الحمد على صفحات وجهه وفلتات لسانه مع اعجابه به واستغرابه اياه ثم قال وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم هذا الحديث وهو لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا تمثال فهذا أين يستعمل من المكاتبات فتروبت فى قوله تروبا يسيرا ثم قلت هذا يستعمل فى كتاب الى ديوان الخلافة وأمليت عليه الكتاب بجملته هذا الحديث فى فصل منه وهو اذا أفاض الخادم فى وصف ولائه نكست هام الاولياء عن مقامه وعلوا أنه أخذ الامر بزمامه فقد أصبح وليس بقلبه سوى الولاء والايمان فهذا يظهر أثره فى طاعة السر وهذا فى طاعة الاعلان وما عداهما فان دخوله الى قلبه من الاشياء المحظورة والملائكة لا تدخل بيتا فيه تمثال ولا صورة فليخوّل الديوان العزيز على سيف من سيوف الله يفرى بلا ضارب ويسرى بلا حامل ولا يسل الا بيد حق ولا يغمد الا فى ظهر باطل وليعلم أنه كرشه وعيبته فى تضمن الاسرار وأنه أحد سعديه اذا عدت مواقف الانصار فلما رأى هذا الفصل بهت له وأعجب منه ثم انى لم أقنع بايراد ذلك الحديث حتى قرنت به حديثا آخر وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم الانصار كرشى وعيبتى * وحيث عرفتك أيها المتعلم ما تقتدى به فى هذا الموضع فقد ذكرت لك أمثلة كثيرة تتدرب بها (فمن ذلك) ماذكرته فى دعاء كتاب من الكتب وهو اعاذ الله أيامه من الغير وبين بخطر مجده نقص كل خطر وجعل ذكره زاد الكل ركب وأنسا لكل سمر ومنحه من فضله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا المعنى مأخوذ من الحديث فى وصف نعيم الجنة فنقلته الى الدعاء (ومن ذلك) ماذكرته فى وصف الحلم وهو تركته حتى جال فى الميدان وامتد فى الاشطان ولم انتصر خوفا من قيام الملك وقعود الشيطان والحليم لا يظهر أثر حلمه الا عند تلدده والكظيم هو أشد ما يخاف من تبدده وهذا المعنى أخذته من قصة أبى بكر رضى الله عنه فى خصامه فانه بغى عليه ثلاث مرات وهو ساكت ففى الثالثة انتصر فقال النبى صلى الله عليه وسلم كان الملك جالسا الى جانب أبى بكر

بكذب خصمها بقول فلما تنمر كان الكفر لعبد الشيطان (ومن ذلك) ما ذكرته في النصر على العدو في موطن القتال وهو أخذنا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في النصر الذي نرجوه ونبذنا في وجه العدو كفا من التراب وقلنا شاهت الوجوه فثبت الله ما تزلزل من أقدامنا وأقدم حيزوم فأغنى عن إقدامنا وهذان المعنيان أحدهما مأخوذ من حديث غزوة حنين وما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في أخذه قبضة من التراب وإلقائها في وجوه الكفار وقوله شاهت الوجوه والمعنى الآخر مأخوذ من حديث غزوة بدر وذلك أن رجلا من المسلمين لاقى رجلا من الكفار وأراد أن يضربه فخر على الأرض ميتا قبل أن يصل إليه وسمع الرجل المسلم صوتا من فوقه وهو يقول أقدم حيزوم فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره فقال ذلك من مدد السماء الثالثة (ومن ذلك) ما ذكرته في ضيق مجال الحرب وهو وضاق الضرب بين الفريقين حتى اتصلت سوالف البيض الذكور وتصافحت الصدور بالصدور واستظل حينئذ بالسيوف لاشتباك نصالها وتبوئت مقاعد الجنة التي هي تحت ظلالها وهو مأخوذ من الحديث النبوي وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم الجنة تحت ظلال السيوف (ومن ذلك) ما ذكرته في جملة كتاب أذم فيه الزمان فقلت ولكنها الأيام تبدي لنا من جوهرها كل غريبة وتنسينا سياسة العبد المجدع الذي كأن رأسه زبيبة وليس للمرء فيما يلقاه من أحداثها نعمى كانت أو بؤسى إلا أن يكل الأمور إلى واليها ويقول حاج آدم موسى وهذا مأخوذ من الخبر النبوي في قوله صلى الله عليه وسلم حاج آدم موسى فقال له موسى أنت أخرجت الناس بخطيئتك من الجنة وأشقيتهم فقال له آدم أنت الذي اصطفاك الله تعالى برسالته وكلامه أتلومني على أمر كتبه الله تعالى علي قبل أن يخلقني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف بعض الكتاب وهو فصل من كتاب كتبته إليه فقلت ولقد سردت عليه أحاديث البلاغة فاستغنى من بسط رداته وهدي إلى جوامع كلمها فاقتدى الناس باهتدائه فإذا استبهمت عنده معانيها الشاردة لم يملكه سلطان الحيرة وإن أغرب في أساليبها لم يقل فيه ما قيل في رواية أبي هريرة وهذا الفصل من أحسن ما يؤتى به في صناعة نثر المعاني وهو مأخوذ من حديث أبي هريرة قال قلت يا رسول الله أسمع منك أشياء

ولا أحفظها فقال ابسط رداءك فبسطته فحدث حديثا كثيرا فما نسيت شيأ
حدثني به (وأما) رواية أبي هريرة فشك فيها قوم لكثرتها وقد اجتمع في هذا الفصل
معنى الحديث النبوى وغيره ومثل هذا الاية فمن له عند الوقوف عليه الامن تبحر
في الوقوف على الاخبار النبوية ومن أجل ذلك جعلته ركنا من أركان الكتابة
في الفصل التاسع (ومن ذلك) ماذكرته في ذم بعض البلاد الوخمة فقلت
ومن صفاتها أنها مدرة مستوبلة الطينة مجموع لها بين حر مكة ولأواء المدينة
الا أنها لم يأمن حرمها في الخطفة ولا نقلت حماها الى الجحفة في هذه الكلمات
انتصار آية من القرآن الكريم وخبران من الاخبار النبوية فالآية من سورة
العنكبوت وهي قوله تعالى أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من
حولهم وهذا موضع يختص بالاخبار لا بالآيات غير أن الآية جاءت ضمنا وتبعا
وأما الخبران فالاول منهما قول النبى صلى الله عليه وسلم من صبر على حر مكة
ولأواء المدينة ضمنت له على الله الجنة وأما الثانى فقوله صلى الله عليه وسلم
في دعائه للمدينة اللهم حببها الينا كما حببت الينا مكة وانقل حماها الى الجحفة
فانظر أيها المتأمل الى هذه الكلمات حتى تعلم أن عدتها مصوغة من الآية
والخبرين سواء بسواء وهذا طريق لو ادعيت الانفراد بسلوكه لما اختلف على
في الاعتراف به اثنان (ومن ذلك) ما كتبته في كتاب الى بعض الاخوان
جوابا عن كتاب ورد منه وكان كتابه تأخر عنى زمانا طويلا فقلت ولما تأملته
ضممته الى والتزمته ثم استلمته والتثمته وعلمت أن المعارف وان قدمت أيامها
انساب وشيجة وتأسيت بالخلق النبوى في العجوز التى كانت تأتى في زمن خديجة
وهذا مأخوذ من الخبر المنقول عن عائشة رضى الله عنها وهو أنها قالت كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يذبح الشاة فيعضيها اعضاء ويقسمها فى أصدقاء
خديجة وكانت تأتيه عجوز فيكرمها ويبسط لها رداءه فسألته عن ذلك فقال
هذه كانت تأتينا في زمن خديجة وحسن العهد من الايمان (ومن ذلك) ماذكرته
في وصف كتاب وهو كل سطر منه روضة غير أنها ليل في صباح وكل معنى منه
دمية غير أن ليس على مصورها من جناح وهذا مأخوذ من الحديث في تحريم
الصور (ومن ذلك) ماذكرته في وصف كريم وهو فأغنى بجوده اغناء المطر
وسما الى المعالى سمو الشمس وسار في منازلها مسير القمر ونجح من ابكار

فشأنه ما لذ الدعاء فيه قيل للعاهر الحجر وهذا المعنى من قول النبي صلى الله عليه وسلم الولد للفراش وللعاهر الحجر (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف الفصاحة فقلت افكار الخواطر لا تتولد على انفرادها وغايتها أن يتناكح في استنتاج أولادها وأنا أنكح فكري لفكري نكاح الانساب ولا آنف أن أضوى فأميل الى الاغتراب وهذا مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم في الامر بنكاح البعيدة النسب فقال غربوا لا تضووا يريد بذلك أن الانسان اذا نكح المرأة القريبة اليه حصل بينهما حياء يمنع من قضاء الشهوة كما ينبغي فيجيء الولد ضاويا أي هزيلا وهذا معنى غريب لم استخرجه من الحديث النبوي (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب الى بعض الاخوان جوابا عن كتاب ورد منه يتضمن الشكوى من خصم جرت بينه وبينه مخاصمة فقلت وصل كتابه وهو كتاب من أكثر الشكوى وطلب العدوى ونزل من التظلم بالعدوة الدنيا وأنزل خصمه بالعدوة القصوى والقاضي لا يحكم لاحد الخصمين حتى يحضر صاحبه وان فقئت عين أحدهما فربما فقئت عينا الآخر وهذا صاحبه على أنه قد اعترف أن كليهما قصد أن للحم أخيه آكلا وعليه في سال عرضه سائلا وسباب المؤمن معدود من فسوقه واطرقته عن تورد هذا المقام أولى من طرقه ولولا تغليظ النكير لما جعل اللسان واليد سواء فيما جرحا ولما أخر الله المغفرة عن المتشاحنين حتى يصطلحا فكن أنت من أطاع تقواه لا هواه واتبع من علم الحق فرآه أو سمعه فرواه واعلم أن تهاجر الاخوين فوق الثلاث من منهيات الحرام وان الفائز بالاجر منهما هو البادئ بالسلام ودفع السيئة بالحسنة يجعل العدو وليا حميما وقد جعل الله المتخلق بهذا الخلق صابرا وجعل له حظا عظيما والشيطان انما يحوم على آثاره مواقع الشنآن ولا يعد من اعمال بنيه شيأ الا ما زيل بين الاخوان في هذا الفصل معان آيات وأخبار وهذا الموضع مختص بذكر الاخبار دون الآيات فأول المعاني المأخوذة من الاخبار قول النبي صلى الله عليه وسلم اذا أتاك أحد الخصمين وقد فقئت عينه فلا تحكم له فربما أتى خصمه وقد فقئت عيناه وأما المعنى الثاني فقوله صلى الله عليه وسلم سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر وأما المعنى الثالث فقوله صلى الله عليه وسلم ان الاعمال تعرض على الله يوم الاثنين

ويوم الخميس فيغفر لكل امرئ لا يشرك بالله شيأ الا امرأ كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقول اتركوا هذين حتى يصطلحا وأما المعنى الرابع فقوله صلى الله عليه وسلم لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث وأما المعنى الخامس فقول النبي صلى الله عليه وسلم اذا التقى المتهاجران فأعرض هذا وأعرض هذا فخيرهما الذى يبدأ بالسلام وأما المعنى السادس فقوله صلى الله عليه وسلم ان ابليس له عرش على البحر فيبث بنيه فى آفاق الارض فيأتى أحدهم فيقول فعلت كذا وفعلت كذا فيقول ما فعلت شيأ ويأتى أحدهم فيقول زيلت بينه وبين أخيه أو بينه وبين زوجته فيقول نعم الولد أنت فانظركم فى هذه الاسطر اليسيرة من معنى خبر نبوى هذا سوى ما فيها من معانى الآيات واذا عددت هذه الكلمات المذكورة فى هذه الاسطر وجدتها جميعها منتظمة من الآية والخبر وهذا مما يدلك على الاكثار من المحفوظ واستحضاره عند الحاجة اليه على الفور (ومن ذلك) ما ذكرته فى صدر كتاب وهو جواب عن كتاب يتضمن تهديدا وتخويفا فقلت ورد الكتاب مضمنا من الوعد والوعيد ما آنس نفس المملوك وأوحشها ونقع غلوءه وأعطشها وأقام له من الظنون السيئة جنودا تقاتله وتأخذ عليه شعب الافكار ولا تزاوله وكانت كلماته طوالا وأوراقه ثقالا وما أفلت سطر من سطوره الا كان الآخر له عقالا ولما استكمل الوقوف عليه ثقلت أطوار الخوف والرجاء من أطواره وعرضت عليه الجنة والنار فى قرطاسه كما عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عرض جداره ولولا وثوقه بأناة مولانا لذهبت نفسه فرقا وابتغى فى السماء سلما وفى الارض نفقا لكنه قد توسم فى كرمه مخايل الصنع الوسيم وغره منه ما غره من ربه الكريم وعلم أن خلق حلمه يغلب خلق غضبه اذ هذا حادث وذا القديم فى هذا الفصل معنى خبر من الاخبار النبوية وهو أنه كان صلوات الله عليه يخطب فمال بيده الى الجدار وقال عرضت على الجنة والنار فى عرض هذا الجدار فلم أر كاليوم فى الخير والشر (ومن ذلك) ما ذكرته فى صدر كتاب الى بعض الاخوان وهو الخادم يواصل بالدعاء الذى لا يزال للقلب زميلا وللسانه رسيلا واذا رفع أدنته الملائكة قربا اذا تباعدت عن غيره ميلا ولا اعتداد بالدعاء الا اذا صدر عن أكرم مصدر ووجد له فوق السماء مظهرا وان لم يكن هنالك من مظهر ووصف باطنه بأنه

الابيض الناصع الذى هو خير من ظاهر الاشعث الاغبر ولا يعامل الخادم أهل ودّه الا بهذه المعاملة ومن خلقه المجازفة فى بذل المودة اذا أخذ الناس نسبة المكايلة فى هذا معنى خبرين أحدهما قول النبى صلى الله عليه وسلم انه اذا كذب الكاذب تباعد الملك عنه ميلا لنتن كذبه والآخر قوله صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر مدفوع بالابواب لو أقسم على الله لابرّه (ومن هذا الباب) ما ذكرته فى كتاب يتضمن خطبة مودة فابتدأت الكلام فيه بعد تصديره بالدعاء فقلت لولا العادة لردع الخادم كتابه هذا أن يطرق ورقة وليس ذلك الا لارساله فى خطبة مودة رأى صورتها فى سرقة ولما تأملها قال ان يكن ذلك من عند الله يمضه وأبدى لها صفحة الرضا وان كانت كل مودة لم ترضه وخير المودات ما ليس لها ضرة تشاركها فى وسامتها ولا تضاهيها فى درجة كرامتها فتلك التى تزدهى ذا الهمة أبوة وجمالا ولم يغله مهرها ولو بذل فيه نفسا لا مالا وما يظنها الخادم الا هذه المودة التى خطبها وقد علت أن تكون راغبة ولكن هو الذى أرغبها على أنه لم يترشح لها الا من هو من أكفائها وليست الكفاءة ههنا الا مناسبة ذلك الفضل من صفاتها وقد أتاح الله لها كفؤا يكثر من ايناسها ويضمها من البر محلة ناسبها ويجعل كل يوم من ايامها عرسا حتى تتصل مواسم أعراسها ثم مضيت على هذا النهج الى آخر الكتاب والمعنى المأخوذ فيه من الخبر النبوى فى موضعين الاول أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضى الله عنها ان جبريل عليه السلام عرض على صورتك فى سرقة والسرقة حريرة بيضاء وقال هذه زوجتك فى الدنيا والآخرة فقلت ان يكن ذلك من عند الله يمضه فأخذت انا هذا المعنى ونقلته الى خطبة مودة ولا يأتى فى خطبة المودات شئ أحسن منه ولا ألطف ولا أشد مقصدا للخبر النبوى الثانى قول النبى صلى الله عليه وسلم انما تنكح المرأة لاربع لحسبها أو لدينها أو لمالها أو لجمالها فقلت أنا فتلك التى تزدهى الهمة أبوة وجمالا أى قد جمعت الحسب والجمال (ومن ذلك) ما ذكرته فى سبب حب المال وهو بين المال علاقة وكيدة وبين القلوب وهى له بمنزلة المحب وهو لها بمنزلة المحبوب وليس ذلك الا لان الله قبض قبضة من جميع الارض فخلق آدم من تلك القبضة ويوشك حينئذ أن صورة قلبه تكونت من معدن الذهب والفضة ولولا أن يكون منهما عنصر ابدانه

الماجعلهما الاطباء دواء من دائه فلا تستغرب اذن أن تكون على حبهما مطبوعا اذ كان منهما مصنوعا وهذا المعنى من قول النبي صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض منهم الاحمر والابيض والاسود وبين ذلك والحزن والسهل والخبيث والطيب غير أني استنبطت أنا صاحب المثال من هذا الحديث وهو معنى غريب لم أسبق اليه (ومن ذلك) ماذكرته في وصف كلام وهو ليس السحر ما أودع في جف طلعة بل ما أودع في صوغ معنى أو نظم سجعة ولذلك لبيد في شعره أسحر من لبيد في سحره وكلا صنعيهما من الغريب العجيب غير أن ما يستنبط من القلب أعجب مما يدفن في القليب وهذا المعنى مأخوذ من قصة لبيد بن الاعصم في سحره النبي صلى الله عليه وسلم ومن عرف القصة وصورتها علم ما قد ذكرته في شرح هذه الكلمات البديعة (ومن ذلك) ماذكرته في وصف المنجنيق من جملة كتاب فقلت ونصب المنجنيق فجثم بين يدي السور مناصبا وبسط كفه اليه مؤاتيا ثم تولى عقوبته بعصاه التي تفتك بأحجاره واذا عصى عليها بلد أخذت في تأديب أسواره فما كان الأن استمرت عقوبتها عليه حتى صار قائمه حصيدا وعاصيه مستقيدا وقال ألم يكن نهى عن المد والتجريد فمالي لا أرى الا مدا وتجريدا وعند ذلك أذعن لفتح الابواب وتلا قوله تعالى لكل أجل كتاب وكذلك لم نأت صعبا الا استسهل ولا استبطأنا مطلبا الا استعجل واطالما وقف غيرنا على هذا البلد فشفه طول الانتظار ولم يحظ منه الا بمساءلة المنصب احجار الديار في هذا الفصل معنى خبر من الاخبار النبوية وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم في النهي عن ضرب المحدود لامد ولا تجريد أي لا يمد على الارض ولا يجرد عنه ثوبه (ومن ذلك) ماذكرته في صدر كتاب الى الديوان العزيز النبوي وهو خلد الله دولة الديوان العزيز النبوي ولا زالت اكنافها وادعة وعلياؤها جامعة وحدودها كالنجوم التي ترى في كل حين طالعة وأيامها كالليالي ساكنة ولياليها كالايام ناصعة وأبوابها كابواب الجنة التي يقال فيها ثامن وثامنة اذا قيل في أبواب غيرها سابع وسابعه وهذا الدعاء قد استجابه الله قبل أن ترفع اليه يد أو ينطق به ضمير فاذا دعا به الخادم وجد صنع الله قد سبقه أولا وجاء هو في الزمن الاخير فليس له حينئذ الا أن يدعو لما خوله الديوان العزيز بالدوام وأن يعيذه

من النقص بعد الفضل ثم يستهدى ما يؤهله من التقدم الى بعد مابين لطائف الاحسان واذا ندب لتكاليف أوامرها قال والحمد والشكر يصعدان ولاشك أن درجات الاولياء تتفاوت في الصفات والاسماء فمنها مايكون بين الارض ومنها مايرى كالكوكب في أفق السماء ولولا النهي عن تزكية المرء نفسه لادعى انفادم أنه اعلاها وجاء بالاولياء من بعده فقال وادعى وضعناها والقمر اذا تلاها لكنه لايزين بما يعتقده عند الله من ذخره وسر الولاية هذا المقام أكرم من جهره وليس الذى يزين بصلاته وصيامه كالذى يزين بسر وقر في صدره والله لاينظر الى الاعمال وانما ينظر الى القلوب وفرق بين المطيع بحضور الشهادة وبين المطيع بظهر الغيوب ولو اطلع الديوان العزيز على ضمير الخادم في الطاعة لسره ولم ير آت الاشعث الاغبر الذى لو أقسم على الله لابره في هذا الفصل من الآيات والاخبار عدة مواضع وهذا الموضع مختص بالاخبار فلنذكرها دون الآيات أما الاول منها فقول النبي صلى الله عليه وسلم انكم ترون أهل الدرجات العلى في الجنة كما ترون الكواكب في أفق السماء وأما الخبر الثاني فقوله صلى الله عليه وسلم مافضلكم أبو بكر بصلاة ولاصيام ولكن فضلكم بسر وقر في صدره وأما الخبر الثالث فقوله صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لابره وفيما أوردته من حل المعاني الشعرية وحل آيات القرآن والاخبار النبوية طريق واضح لمن يقوى على سلوكه والله الموفق للصواب

(المقالة الاولى في الصناعة اللفظية)

وهي تنقسم قسمين (القسم الاول في اللفظة المفردة) اعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه الى ثلاثة أشياء الاول منها اختيار الالفاظ المفردة وحكم ذلك حكم اللآلئ المبددة فانها تتخير وتنتقى قبل النظم الثاني نظم كل كلمة مع أختها في المشاكلة لها لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها الثالث الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه وحكم ذلك حكم الموضع الذى يوضع فيه العقد المنظوم فتارة يجعل اكليلا على الرأس وتارة يجعل قلادة في العنق وتارة يجعل شنفا في الاذن ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من

الحسن تخصه فهذه ثلاثة أشياء لابد للخطيب والشاعر من العناية بها وهي الاصل المعتمد عليه في تأليف الكلام من النظم والنثر فالاول والثاني من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة والثلاثة بجملتها هي المراد بالبلاغة وهذا الموضع يضل في سلوك طريقه العلماء بصناعة صوغ الكلام من النظم والنثر فكيف الجهال الذين لم تنفعهم رائحة ومن الذي يؤتيه الله فطرة ناصعة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار حتى ينظر الى أسرار ما يستعمله من الالفاظ فيضعها في مواضعها ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين يدلان على معنى واحد وكلاهما حسن في الاستعمال وهما على وزن واحد وعدة واحدة الا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه بل يفرق بينهما في مواضع السبك وهذا لا يدركه الا من دق فهمه وجل نظره فمن ذلك قوله تعالى ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وقوله تعالى رب اني نذرت لك ما في بطني محررا فاستعمل الجوف في الاولى والبطن في الثانية ولم يستعمل الجوف موضع البطن ولا البطن موضع الجوف واللفظتان سواء في الدلالة وهما ثلاثيتان في عدد واحد ووزنهما واحد أيضا فانظر الى سبك الالفاظ كيف تفعل ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى وقوله ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فالقلب والفؤاد سواء في الدلالة وان كانا مختلفين في الوزن ولم يستعمل في القرآن أحدهما في موضع الآخر وعلى هذا ورد قول الاعرج من أبيات الحماسة

نحن بنو الموت اذا الموت نزل * لا عار بالموت اذا حم الاجل

* الموت أحلى عندنا من العسل *

وقال أبو الطيب المتنبي

اذا شئت حفت بي على كل سابح * رجال كأن الموت في فمها شهد

فهاتان لفظتان هما العسل والشهد وكلاهما حسن مستعمل لا يشك في حسنه واستعماله وقد وردت لفظة العسل في القرآن دون لفظة الشهد لانها أحسن منها ومع هذا فان لفظة الشهد وردت في بيت أبي الطيب فجاءت أحسن من لفظة العسل في بيت الاعرج وكثيرا ما نجد أمثال ذلك في أقوال الشعراء المفلقين وغيرهم ومن بلغاء الكتاب ومصقعي الخطباء وتحته دقائق ورموز اذا

عليك وقيس عليها اشباهها ونظائرها كان صاحب الكلام فى النظم والنثر قد
انتهى الى الغاية القصوى فى اختيار الالفاظ ووضعها فى مواضعها اللائقة بها
واعلم أن تفاوت التفاضل يقع فى تركيب الالفاظ أكثر مما يقع فى مفرداتها
لان التركيب أعسر وأشق ألا ترى ألفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها
قد استعملتها العرب ومن بعدهم ومع ذلك فانه يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه
وليس ذلك الا لفضيلة التركيب وهل تشك أيها المتأمل لكتابنا هذا اذا فكرت
فى قوله تعالى وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الامر
واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين أنك لم تجد ما وجدته لهذه
الالفاظ من المزية الظاهرة الا لامر يرجع الى تركيبها وأنه لم يعرض لها هذا
الحسن الا من حيث لاقت الاولى بالثانية والثالثة بالرابعة وكذلك الى آخرها
فان ارتبت فى ذلك فتأمل هل ترى لفظة منها لو أخذت من مكانها أو أفردت من بين
أخواتها كانت لابسة من الحسن ما لبسته فى موضعها من الآية ومما يشهد
لذلك ويؤيده أنك ترى اللفظة تروقك فى كلام ثم تراها فى كلام آخر فتكرهها فهذا
ينكره من لم يذق طعم الفصاحة ولا عرف أسرار الالفاظ فى تركيبها وانفرادها
وسأضرب لك مثالا يشهد بصحة ما ذكرته وهو أنه قد جاءت لفظة واحدة فى آية
من القرآن وبيت من الشعر فجاءت فى القرآن جزلة متينة وفى الشعر ركيكة
ضعيفة فأثر التركيب فيها هذين الوصفين الضدين أما الآية فهى قوله تعالى
فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى
منكم والله لا يستحيى من الحق وأما بيت الشعر فهو قول أبى الطيب المتنبى

تلذ له المروأة وهى تؤذى * ومن يعشق يلذ له الغرام

وهذا البيت من أبيات المعانى الشريفة الا أن لفظة تؤذى قد جاءت فيه
وفى الآية من القرآن فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها وحسن موقعها فى
تركيب الآية فأنصف أيها المتأمل لما ذكرناه واعرضه على طبعك السليم حتى
تعرف صحته وهذا موضع غامض يحتاج الى فضل فكرة وامعان نظر وما تعرض
للتنبيه عليه أحد قبلى وهذه اللفظة التى هى تؤذى اذا جاءت فى الكلام فينبغى
أن تكون مندرجة مع ما يأتى بعدها متعلقة به كقوله تعالى ان ذلكم كان
يؤذى النبى وقد جاءت فى قول المتنبى منقطعة ألا ترى أنه قال تلذ له المروأة

وهي تؤذى ثم قال ومن يعشق يلذ له الغرام فجاء بكلام مستأنف وقد جاءت هذه اللفظة بعينها في الحديث النبوي وأضيف اليها كاف الخطاب فأزال ما بها من الضعف والركة وذاك انه اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فجاءه جبريل عليه السلام ورقاه فقال بسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك فانظر الى السر في استعمال اللفظة الواحدة فانه لما زيد على هذه اللفظة حرف واحد أصلحها وحسنها ومن ههنا تزاد الهاء في بعض المواضع كقوله تعالى فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه اني ظننت أني ملاق حسابيه ثم قال ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه فان الاصل في هذه الألفاظ كتابي وحسابي ومالي وسلطاني فلما أضيفت الهاء اليها وتسمى هاء السكت أضافت اليها حسنا زائدا على حسنها وكستها لطافة ولباقة وكذلك ورد في القرآن الكريم ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فلفظة لي أيضا مثل لفظة تؤذى وقد جاءت في الآية مندرجة متعلقة بما بعدها واذا جاءت منقطعة لا تجيء لائقة كقول أبي الطيب أيضا

تمسي الاماني صرعى دون مبلغه * فما يقول لشيء ليت ذلك لي

وربما وقع بعض الجهال في هذا الموضع فأدخل فيه ما ليس منه كقول أبي الطيب

ما أجدر الايام والليالي * بان تقول ماله ومالي

فان لفظة لي ههنا قد وردت بعد ما وقبلها ماله ثم قال ومالي فجاء الكلام على نسق واحد ولو جاءت لفظة لي ههنا كما جاءت في البيت الاول لكانت منقطعة عن النظر والشبيه فكان يعلوها الضعف والركة وبين ورودها ههنا وورودها في البيت الاول فرق يحكم فيه الذوق السليم وههنا من هذا النوع لفظة أخرى قد وردت في آية من القرآن الكريم وفي بيت من شعر الفرزدق فجاءت في القرآن حسنة وفي البيت الشعر غير حسنة وتلك اللفظة هي لفظة القمل أما الآية فقوله تعالى فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات وأما البيت الشعر فقول الفرزدق

من عزه احتجرت كليب عنده * زربا كأنهم لديه القمل

وانما حسنت هذه اللفظة في الآية دون هذا البيت من الشعر لأنها جاءت في الآية

مندرجة في ضمن كلام ولم ينقطع الكلام عندها وجاءت في الشعر قافية أي آخرا انقطع الكلام عندها وإذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة في القرآن الكريم غصنا منه في بحر عميق لا قرار له فمن ذلك هذه الآية المشار إليها فإنها قد تضمنت خمسة ألفاظ هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وأحسن هذه الألفاظ الخمسة هي الطوفان والجراد والدم فلما وردت هذه الألفاظ الخمسة بجملتها قدم منها لفظتا الطوفان والجراد وأخرت لفظة الدم آخرا وجعلت لفظة القمل والضفادع في الوسط ليطرق السمع أولا الحسن من الألفاظ الخمسة وينتهي إليه آخرا ثم إن لفظة الدم أحسن من لفظتي الطوفان والجراد وأخف في الاستعمال ومن أجل ذلك جيء بها آخرا ومراعاة مثل هذه الأسرار والدقائق في استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية (وقد ذكر) من تقدمني من علماء البيان للألفاظ المفردة خصائص وهيآت تتصف بها واختلفوا في ذلك واستحسن أحدهم شيئا فخولف فيه وكذلك استقبح الآخر شيئا فخولف فيه ولو حققوا النظر ووقفوا على السر في اتصاف بعض الألفاظ بالحسن وبعضها بالقبح لما كان بينهم خلاف في شيء منها وقد أشرت إلى ذلك في الفصل الثامن من مقدمة كتابي هذا الذي يشتمل على ذكر الفصاحة وفي الوقوف عليه والمحافظة غنى عن غيره لكن لا بد أن نذكر ههنا تفصيل ما أجملناه هنالك لأنا ذكرنا في ذلك الفصل أن الألفاظ داخلة في حيز الأصوات لأنها مركبة من مخارج الحروف فما استلذه السمع منها فهو الحسن وما كرهه ونبا عنه فهو القبيح وإذا ثبت ذلك فلا حاجة إلى ما ذكر من تلك الخصائص والهيآت التي أوردها علماء البيان في كتبهم لأنه إذا كان اللفظ لذيذا في السمع كان حسنا وإذا كان حسنا دخلت تلك الخصائص والهيآت في ضمن حسنه (وقد رأيت) جماعة من الجهال إذا قيل لأحدهم إن هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة أنكر ذلك وقال كل الألفاظ حسن والواضع لم يضع إلا حسنا ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة الغصن ولفظة العسلوج وبين لفظة المدامة ولفظة الإسفنط وبين لفظة السيف ولفظة الخنشليل وبين لفظة الأسد ولفظة الفدوكس فلا ينبغي أن يخاطب بخطاب ولا يجاوب بجواب بل يترك وشأنه كما قيل اتركوا الجاهل بجهله ولو ألقى الجعر في رحله وما مثاله في هذا المقام إلا كمن يسوي بين صورة زنجية سوداء مشوهة

(رد على من قال إن كل الألفاظ حسن والواضع لم يضع إلا حسنا)

السواد شوهاء الخلق ذات عين محمرة وشفة غليظة كأنها كلوة وشعر قطط كأنه زبيبة وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ذات خد أسيل وطرف كحيل ومبسم كأنما نظم من أقاح وطرة كأنها الليل على صباح فاذا كان بانسان من سقم النظر أن يسوى بين هذه الصورة وهذه فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوى بين هذه الالفاظ وهذه ولا فرق بين النظر والسمع فى هذا المقام فان هذا حاسة وهذا حاسة وقياس حاسة على حاسة مناسب فان عاند معاند فى هذا وقال أغراض الناس مختلفة فيما يختارونه من هذه الاشياء وقد يعشق الانسان صورة الزنجية التى ذممتها ويفضلها على صورة الرومية التى وصفتها قلت فى الجواب نحن لا نحكم على الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال بل نحكم على الكثير الغالب وكذلك اذا رأينا شخصا يحب أكل الفحم مثلا أو أكل الجص والتراب ويختار ذلك على ملاذ الاطعمة فهل نستجيد هذه الشهوة أو نحكم عليه بأنه مريض قد فسدت معدته وهو محتاج الى علاج ومداواة ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للالفاظ فى الاذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار وصوتا منكرا كصوت حمار وأن لها فى الفم أيضا حلاوة كحلاوة العسل ومرارة كمرارة الحنظل وهى على ذلك تجرى مجرى النغمات والطعوم ولا يسبق وهمك أيها المتأمل الى قول القائل الذى غلب عليه غلظ الطبع وفجاجة الذهن بأن العرب كانت تستعمل من الالفاظ كذا وكذا فهذا دليل على أنه حسن بل ينبغى أن تعلم أن الذى نستحسنه نحن فى زماننا هذا هو الذى كان عند العرب مستحسنا والذى نستقبحه هو الذى كان عندهم مستقبحا والاستعمال ليس بدليل على الحسن فانا نحن نستعمل الآن من الكلام ما ليس بحسن وانما نستعمله لضرورة فليس استعمال الحسن بممكن فى كل الاحوال وهذا طريق يضل بغير العارف بمسالكه ومن لم يعرف صناعة النظم والنثر وما يجده صاحبها من الكلفة فى صوغ الالفاظ واختيارها فانه معذور فى أن يقول ما قال

لا يعرف الشوق الا من يكابده * ولا الصبابة الا من يعانيها

ومع هذا فان قول القائل بأن العرب كانت تستعمل من الالفاظ كذا وكذا وهذا دليل على أنه حسن قول فاسد لا يصدر الا عن جاهل فان استحسان الالفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب لانه شئ ليس للتقليد فيه مجال وانما هو

سببا للحسن لما كان سببا للقبح اذ هما ضدان لا يجتمعان (فمن ذلك) أنه يقال ملع اذا عدا فالميم من الشفة والعين من حروف الحلق واللام من وسط اللسان وكل ذلك متباعد ومع هذا فان هذه اللفظة مكروهة الاستعمال ينبو عنها الذوق السليم ولا يستعملها من عنده معرفة بفن الفصاحة (وههنا نكتة غريبة) وهو أنا اذا عكسنا حروف هذه اللفظة صارت علم وعند ذلك تكون حسنة لا مزيد على حسنها وما ندري كيف صار القبح حسنا لانه لم تتغير مخارجها انما وذلك أن اللام لم تزل وسطا والميم والعين يكتنفانها من جانبيها ولو كان مخارج الحروف معتبرا في الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة في ملع وعلم (فان قيل) ان اخراج الحروف من الحلق الى الشفة أيسر من ادخالها من الشفة الى الحلق فان ذلك انحدار وهذا صعود والانحدار أسهل (فالجواب) عن ذلك أني أقول لو استمر لك هذا لصح ما ذهبت اليه لكانا نرى من الالفاظ ما اذا عكسنا حروفه من الشفة الى الحلق أو من وسط اللسان أو من آخره الى الحلق لا يتغير كقولنا غلب فان الغين من حروف الحلق واللام من وسط اللسان والباء من الشفة واذا عكسنا ذلك صار بلغ وكلاهما حسن مليح وكذلك تقول حلم من الحلم وهو الأناة واذا عكسنا هذه الكلمة صارت ملح على وزن فعل بفتح الفاء وضم العين وكلاهما أيضا حسن مليح وكذلك تقول عقر وورقع وعرف وفرع وحلف وفلح وقلم وملق وكلم وملك ولو شئت لأوردت من ذلك شيأ كثيرا تضيق عنه هذه الاوراق ولو كان ما ذكرته مطردا لكان اذا عكسنا هذه الالفاظ صار حسنها قبحا وليس الامر كذلك وأما ما ذكره ابن سنان من جريان اللفظة على العرف العربي فليس ذلك مما يوجب لها حسنا ولا قبحا وانما يقدح في معرفة مستعملها بما ينقله من الالفاظ فكيف يعد ذلك من جملة الاوصاف الحسنة وأما تصغير اللفظة فيما يعبر به عن شئ لطيف أو خفي أو ما جرى مجراه فهذا مما لا حاجة الى ذكره فان المعنى يسوق اليه وليست معاني التصغير من الاشياء الغامضة التي يفتقر الى التنبيه عليها فانها مدونة في كتب النحو وما من كتاب نحو الا والتصغير باب من أبوابه ومع هذا فان صاحب هذه الصناعة مخير في ذلك ان شاء أن يورده بلفظ التصغير وان شاء بمعناه كقول بعضهم

لو كان يخفى على الرحمن خافية * من خلقه خفيت عنه بنو أسد

فهل كان يمكن هذا الشاعر أن يصغر من هؤلاء القوم ويحقر من شأنهم بألفاظ التصغير ويجيء هكذا كما جاء بيته هذا فالوصية بها اذن ملغاة لا حاجة اليها (وأما الاوصاف الباقية التي ذكرت فهي التي ينبغي أن ينبه عليها) فمنها أن لا تكون الكلمة وحشية وقد خفي الوحشي على جماعة من المنتمين الى صناعة النظم والنثر وظنوه المستقبح من الالفاظ وليس كذلك بل الوحشي ينقسم قسمين أحدهما غريب حسن والآخر غريب قبيح وذلك أنه منسوب الى اسم الوحش الذي يسكن القفار وليس بأنيس وكذلك الالفاظ التي لم تكن مأنوسة الاستعمال وليس من شرط الوحش أن يكون مستقبحا بل أن يكون نافرا لا يألف الانس فتارة يكون حسنا وتارة يكون قبيحا وعلى هذا فان أحد قسمي الوحشي وهو الغريب الحسن يختلف باختلاف النسب والاضافات وأما القسم الآخر من الوحشي الذي هو قبيح فان الناس في استقباحه سواء ولا يختلف فيه عربي باد ولا قروي متحضر وأحسن الالفاظ ما كان مألوفا متداولا لانه لم يكن مألوفا متداولا الا لمكان حسنه وقد تقدم الكلام على ذلك في باب الفصاحة فان أرباب الخطابة والشعر نظروا الى الالفاظ ونقبوا عنها ثم عدلوا الى الاحسن منها فاستعملوه وتركوا ما سواه وهو أيضا يتفاوت في درجات حسنه فالالفاظ اذن تنقسم ثلاثة أقسام قسمان حسنان وقسم قبيح فالقسمان الحسنان أحدهما ما تداول استعماله الاول والآخر من الزمن القديم الى زماننا هذا ولا يطلق عليه أنه وحشي والآخر ما تداول استعماله الاول دون الآخر ويختلف في استعماله بالنسبة الى الزمن وأهله وهذا هو الذي لا يعاب استعماله عند العرب لانه لم يكن عندهم وحشيا وهو عندنا وحشي وقد تضمن القرآن الكريم منه كلمات معدودة وهي التي يطلق عليها غريب القرآن وكذلك تضمن الحديث النبوي منه شيأ وهو الذي يطلق عليه غريب الحديث (وحضر عندي في بعض الايام رجل متفلسف) فجرى ذكر القرآن الكريم فأخذت في وصفه وذكر ما اشتملت عليه ألفاظه ومعانيه من الفصاحة والبلاغة فقال ذلك الرجل وأي فصاحة هنالك وهو يقول تلك اذا قسمة ضيزى فهل في لفظة ضيزى من الحسن ما يوصف فقلت له اعلم أن لاستعمال الالفاظ أسرارا لم تقف عليها أنت ولا أمثالك مثل ابن سينا

(رد على متفلسف اعترض على قوله تعالى قسمة ضيزى)

والفارابي ولا من أضلهم مثل ارسطاليس وافلاطون وهذه اللفظة التي أنكرتها
في القرآن وهي لفظة ضيزى فانها في موضعها لا يسد غيرها مسدها ألا ترى أن
السورة كلها التي هي سورة النجم مسجوعة على حرف الياء فقال تعالى والنجم
اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وكذلك الى آخر السورة فلما ذكر الاصنام
وقسمة الاولاد وما كان يزعمه الكفار قال ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة
ضيزى فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه
وغيرها لا يسد مسدها في مكانها واذا نزلنا معك أيها المعاند على ما تريد قلنا ان
غير هذه اللفظة أحسن منها ولكنها في هذا الموضع لا ترد ملائمة لاخواتها
ولا مناسبة لانها تكون خارجة عن حرف السورة وسأبين ذلك فأقول اذا جئنا
بلفظة في معنى هذه اللفظة قلنا قسمة جائرة أو ظالمة ولا شك أن جائرة أو ظالمة
أحسن من ضيزى الا انا اذا نظمنا الكلام فقلنا ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا
قسمة ظالمة لم يكن النظم كالنظم الاول وصار الكلام كالشيء المعوز الذي يحتاج
الى تمام وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام فلما سمع ذلك الرجل
ما أوردته عليه ربا لسانه في فمه افحاما ولم يكن عنده في ذلك شيء سوى العناد
الذي مستنده تقليد بعض الزنادقة الذين يكفرون تشهيا ويقولون ما يقولونه
جهلا واذا حوققوا عليه ظهر عجزهم وقصورهم * وحيث انتهى القول
الى ههنا فاني أرجع الى ما كنت بصدد ذكره فأقول وأما القبيح من الالفاظ
الذي يعاب استعماله فلا يسمى وحشيا فقط بل يسمى الوحشي الغليظ وسيأتي
ذكره واذا نظرنا الى كتاب الله تعالى الذي هو أفصح الكلام وجدناه سهلا
سلسا وما تضمنه من الكلمات الغريبة يسير جدا هذا وقد أنزل في زمن العرب
العرباء وألفاظه كلها من أسهل الالفاظ وأقربها استعمالا وكفى به قدوة في هذا
الباب قال النبي صلى الله عليه وسلم ما أنزل الله في التوراة ولا في الانجيل مثل
أم القرآن وهي السبع المثاني يريد بذلك فاتحة الكتاب واذا نظرنا الى ما اشتملت
عليه من الالفاظ وجدناها سهلة قريبة المأخذ يفهمها كل أحد حتى صبيان
المكاتب وعوام السوقة وان لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة
فان أحسن الكلام ما عرف الخاصة فضله وفهم العامة معناه وهكذا فلتكن
الالفاظ المستعملة في سهولة فهمها وقرب متناولها والمقتدى بألفاظ القرآن

يكتفي

يكتفى بها عن غيرها من جميع الالفاظ المنثورة والمنظومة * وأمّا ما ورد من اللفظ الوحشيّ في الاخبار النبوية فمن جملة ذلك حديث طهفة بن أبي زهير النهديّ وذلك أنه لما قدمت وفود العرب على النبيّ صلى الله عليه وسلم قام طهفة بن أبي زهير فقال أتيناك يا رسول الله من غوري تهامة على أكوار الميس ترتمي بنا العيس نستحلب الصبير ونستخلب الخبير ونستعضد البرير ونستخيل الرهام ونستحيل الجهام في أرض غائلة النطاء غليظة الوطاء قد نشف المدهن ويبس الجعثن وسقط الاملوج ومات العسلوج وهلك الهديّ وفاد الوديّ برئنا اليك يا رسول الله من الوثن والفتن وما يحدث الزمن لنا دعوة السلام وشريعة الاسلام ماطمى البحر وقام تعار ولنا نعم همل اغفال ما تبضّ ببلال ووقير كثير الرسل قليل الرسل أصابتنا سنية حمراء مؤزلة ليس لها علل ولا نهل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم بارك لهم في محضها ومخضها ومذقها وفرقها وابعث راعيها في الدثر بيانع الثمر وافجر له الثمد وبارك له في المال والولد من أقام الصلاة كان مسلما ومن آتى الزكاة كان محسنا ومن شهد أن لا اله الا الله كان مخلصا لكم يا بني نهد ودائع الشرك ووضائع الملك لا تلطط في الزكاة ولا تلحد في الحياة ولا تتثاقل عن الصلاة (وكتب) معه كتابا الى بني نهد من محمد رسول الله الى بني نهد السلام على من آمن بالله ورسوله لكم يا بني نهد في الوظيفة الفريضة ولكم الفارض والفريش وذو العنان الركوب والفلو الضبيس لا يمنع سرحكم ولا يعضد طلحكم ولا يحبس دركم ولا يؤكل أكلكم ما لم تضمروا الاماق وتأكلوا الرباق من أقرّ بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمّة ومن أبى فعليه الربوة * وفصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقتضي استعمال هذه الالفاظ ولا تكاد توجد في كلامه الا جوابا لمن يخاطبه بمثلها كهذا الحديث وما جرى مجراه على أنه قد كان في زمنه متداولا بين العرب ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يستعمله الا يسيرا لانه أعلم بالفصيح والافصح وهذا الكلام هو الذي نعده نحن في زماننا وحشيا لعدم الاستعمال فلا تظن أنّ الوحشيّ من الالفاظ ما يكرهه سمعك ويثقل عليك النطق به وانما هو الغريب الذي يقلّ استعماله فتارة يخف على سمعك ولا تجد به كراهة وتارة يثقل على سمعك وتجد منه الكراهة وذلك في اللفظ

عيبان أحدهما أنه غريب الاستعمال والآخر أنه ثقيل على السمع كريه على الذوق وإذا كان اللفظ بهذه الصفة فلا مزيد على فظاظته وغلاظته وهو الذي يسمى الوحشي الغليظ ويسمى أيضا المتوعر وليس وراءه في القبح درجة أخرى ولا يستعمله الا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله شيء من معرفة هذا الفن أصلا (فان قيل) فما هذا النوع من الالفاظ (قلت) قد ثبت لك أنه ما كرهه سمعك وثقل على لسانك النطق به وسأضرب لك في ذلك مثالا فمنه ما ورد لتأبط شرا في كتاب الحماسة

يظل بموماة ويمسى بغيرها * جحيشا ويعرورى ظهور المسالك

فان لفظة جحيش من الالفاظ المنكرة القبيحة وياالله العجب أليس أنها بمعنى فريد وفريد لفظة حسنة رائقة ولو وضعت في هذا البيت موضع جحيش لما اختل شيء من وزنه فتأبط شرا ملوم من وجهين في هذا الموضع أحدهما أنه استعمل القبيح والآخر أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنها ومما هو أقبح منها ما ورد لابي تمام قوله

قد قلت لما اطلخم الامر وانبعثت * عشواء تالية غبسا دهاريسا

فلفظة اطلخم من الالفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين في أنها غريبة وأنها غليظة في السمع كريهة على الذوق وكذلك لفظة دهاريس أيضا وعلى هذا ورد قوله من أبيات يصف فرسا من جملتها

نعم متاع الدنيا حباك به * أروع لا جيدر ولا جبس

فلفظة جيدر غليظة وأغلظ منها قول أبي الطيب المتنبي

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم * شيم على الحسب الاغر دلائل

فان لفظة جفخ مرة الطعم وإذا مرت على السمع اقشعر منها وأبو الطيب في استعمالها كاستعمال تأبط شرا لفظة جحيش فان تأبط شرا كانت له مندوحة عن استعمال تلك اللفظة كما أشرنا اليه فيما تقدم وكذلك أبو الطيب في استعمال هذه اللفظة التي هي جفخت فان معناها فخرت والجفخ الفخر يقال جفخ فلان اذا فخر ولو استعمل عوضا عن جفخت فخرت لاستقام وزن البيت وحظي في استعماله بالاحسن وما أعلم كيف يذهب هذا وأمثاله على مثل هؤلاء الفحول من الشعراء وهذا الذي ذكرته وما يجري مجراه من الالفاظ هو الوحشي اللفظ الغليظ الذي

ليس له ما يدانيه فى قبحه وكراهته وهذه الامثلة دليل على ما أردناه والعرب اذن لا تلام على استعمال الغريب الحسن من الالفاظ وانما تلام على الغريب القبيح وأما الحضرى فانه يلام على استعمال القسمين معا وهو فى أحدهما أشد ملامة من الآخر على أن هذا الموضع يحتاج الى قيد آخر وذلك شئ استخرجته أنا دون غيرى فانى وجدت الغريب الحسن يسوغ استعماله فى الشعر ولا يسوغ فى الخطب والمكاتبات وهذا ينكره من يسمعه حتى ينتهى الى ما أوردته من الامثلة وربما أنكره بعد ذلك اما عنادا واما جهلا لعدم الذوق السليم عنده (فمن ذلك) قول الفرزدق

ولولا حياء زدت رأسك شجة * اذا سبرت ظلت جوانبها تغلى
شرنبثة شمطاء من يرمى بها * يشبه ولو بين الخماسى والطفل

فقوله شرنبثة من الالفاظ الغريبة التى يسوغ استعمالها فى الشعر وهى ههنا غير مستكرهة الا أنها لو وردت فى كلام منثور من كتاب أو خطبة لعيبت على مستعملها وكذلك وردت لفظة مشمخر فان بشرا قد استعملها فى أبياته التى يصف فيها القاءه الاسد فقال

وأطلقت المهند عن يمينى * فقدله من الاضلاع عشرا
فخر مضرجا بدم كأنى * هدمت به بناء مشمخرا

وعلى هذا ورد قول البحترى فى قصيدته التى يصف فيها ايوان كسرى فقال

مشمخر تعلو له شرفات * رفعت فى رؤس رضوى وقدس

فان لفظة مشمخر لا يحسن استعمالها فى الخطب والمكاتبات ولا باس بها ههنا فى الشعر وقد وردت فى خطب الشيخ الخطيب بن نباتة كقوله فى خطبة يذكر فيها أهوال يوم القيامة فقال اقطر وبها الها واشمخر نكالها فما طابت ولا ساغت ومن هذا الاسلوب لفظة الكنهور فى وصف السحاب كقول أبى الطيب

ياليت باكية شجانى دمعها * نظرت اليك كما نظرت فتعذرا
وترى الفضيلة لا ترد فضيلة * الشمس تشرق والسحاب كنهورا

فلفظة الكنهور لا تعاب نظما وتعاب نثرا وكذلك يجرى الامر فى لفظة العرمس وهى اسم الناقة الشديدة فان هذه اللفظة يسوغ استعمالها فى الشعر ولا يعاب مستعملها كقول أبى الطيب أيضا

ومهمه جبته على قدمى * تعجز عنه العرامس الذلل

فانه جمع هذه اللفظة ولا بأس بها ولو استعملت فى الكلام المنثور لما طابت ولا ساغت وقد جاءت موحدة فى شعر أبى تمام كقوله

هى العرمس الوجناء وابن ملمة * وجاش على ما يحدث الدهر خافض

وكذلك ورد قوله أيضا * يا موضع الشدنية الوجناء * فان الشدنية لا تعاب شعرا وتعاب لو وردت فى كتاب أو خطبة وهكذا يجرى الحكم فى أمثال هذه الالفاظ المشار اليها وعلى هذا فاعلم أن كل ما يسوغ استعماله فى الكلام المنثور من الالفاظ يسوغ استعماله فى الكلام المنظوم وليس كل ما يسوغ استعماله فى الكلام المنظوم يسوغ استعماله فى الكلام المنثور وذلك شئ استنبطته واطلعت عليه لكثرة ممارستى لهذا الفن ولان الذوق الذى عندى دلنى عليه فمن شاء أن يقلدنى فيه والا فليدمن النظر حتى يطلع على ما اطلعت عليه والاذهان فى مثل هذا المقام تتفاوت (وقد رأيت) جماعة من مدعى هذه الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذى يعز فهمه ويبعد متناوله واذا رأوا كلاما وحشيا غامض الالفاظ يعجبون به ويصفونه بالفصاحة وهو بالضد من ذلك لان الفصاحة هى الظهور والبيان لا الغموض والخفاء * وسأبين لك ما تعتمد عليه فى هذا الموضع (فأقول) الالفاظ تنقسم فى الاستعمال الى جزلة ورقيقة ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه فالجزل منها يستعمل فى وصف مواقف الحروب وفى قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك وأما الرقيق منها فانه يستعمل فى وصف الاشواق وذكر أيام البعاد وفى استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك ولست أعنى بالجزل من الالفاظ أن يكون وحشيا متوعرا عليه عنجهية البداوة بل أعنى بالجزل أن يكون متينا على عذوبته فى الفم ولذاذته فى السمع وكذلك لست أعنى بالرقيق أن يكون ركيكا سفسفا وانما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس كقول أبى تمام

ناعمات الاطراف لو أنها تلبس أغنت عن الملاء الرقاق

وسأضرب لك مثالا للجزل من الالفاظ والرقيق فأقول انظر الى قوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا وما جرى هذا المجرى فانك لا ترى شيأ من ذلك وحشى الالفاظ ولا متوعرا ثم انظر

الى ذكر الرحمة والرأفة والمغفرة والملاطفات فى خطاب الانبياء وخطاب المنيبين
والتائبين من العباد وما جرى هذا المجرى فانك لاترى شيأ من ذلك ضعيف
الالفاظ ولاسفسافا (فمثال الاول) وهو الجزل من الالفاظ قوله تعالى ونفخ فى
الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى
فاذا هم قيام ينظرون وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين
والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لايظلمون ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم
بما يفعلون وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها وقال
لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم
هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا أبواب جهنم
خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى
اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين
وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم
أجر العاملين فتأمل هذه الآيات المضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله وذكر
النار والجنة وانظر هل فيها لفظة الا وهى سهلة مستعذبة على مابها من الجزالة
وكذلك ورد قوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم
ما خولناكم وراء ظهوركم ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد
تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون (وأما مثال الثانى) وهو الرقيق من
الالفاظ فقوله تعالى فى مخاطبة النبى صلى الله عليه وسلم والضحى والليل اذا سجى
ماودعك ربك وماقلى الى آخر السورة وكذلك قوله تعالى فى ترغيب المسئلة
واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان وهكذا ترى سبيل
القرآن الكريم فى كلا هذين الحالين من الجزالة والرقة وكذلك كلام العرب
الاول فى الزمن القديم مما ورد عنها اثرا ويكفى من ذلك كلام قبيصة بن نعيم لما قدم
على امرئ القيس فى أشياخ بنى أسد يسألونه العفو عن دم أبيه فقال له انك فى
المحل والقدر من المعرفة بتصرف الدهر ماتحدثه أيامه وتنتقل به أحواله
بحيث لاتحتاج الى تذكير من واعظ ولاتبصير من مجرب ولك من سودد منصبك
وشرف اعراقك وكرم أصلك فى العرب محتد يحتمل ماحمل عليه من اقالة العثرة
ورجوع عن الهفوة ولاتتجاوز الهمم الى غاية الا رجعت اليك فوجدت عندك

كلام قبيصة لامرئ القيس لما سأله العفو عن دم أبيه

من فضيلة الرأى وبصيرة الفهم وكرم الصفح ما يطاول رغباتها ويستغرق طلباتها وقد كان الذى كان من الخطب الجليل الذى عمت رزيته نزارا واليمن ولم تخصص بذلك كندة دوننا للشرف البارع كان لحجر ولو كان يفدى هالك بالانفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا بها على مثله ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه ولا يلحق أقصاه أدناه فأحمد الحالات فى ذلك أن تعرف الواجب عليك فى احدى خلال ثلاث اما أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتا وأعلاها فى بناء المكرمات صوتا فقدناه اليك بنسعه تذهب مع شفرات حسامك بباقى قصرته فنقول رجل امتحن بهالك عزيز فلم يستل سخيمته الا بمكنته من الانتقام أو فداء بما يروح على بنى أسد من نعمها فهى ألوف تجاوز الحسبة فكان ذلك فداء رجعت به القضب الى أجفانها لم تردده بتسليط الاحن على البرآء واما أن وادعتنا الى أن تضع الحوامل فتسدل الازر وتعقد الخمر فوق الرايات قال فبكى ساعة ثم رفع رأسه فقال لقد علمت العرب أنه لا كفو لحجر فى دم وانى لن أعتاض به جملا ولا ناقة فأكتسب به سبة الابد وفت العضد وأما النظرة فقد أوجبتها الاجنة فى بطون أمهاتها ولن أكون لعطبها سببا وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل فى القلوب حنقا وفوق الاسنة علقا

اذ جالت الحرب فى مأزق * تصافح فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون قالوا بل ننصرف بأسوإ الاختيار وأبلى الاجترار بمكروه وأذية وحرب وبلية ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل

لعلك أن تستوخم الورد إن غدت * كتائبنا فى مأزق الحرب تمطر

فقال امرؤ القيس لا والله ولكن أستعذبه فرويدا ينفرج لك دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير ولقد كان ذكر غير هذا بى أولى اذ كنت نازلا بربعى ولكنك قلت فأوجبت فقال امرؤ القيس هو ذلك * فلننظر الى هذا الكلام من الرجلين قبيصة وامرئ القيس حتى يدع المتعمقون تعمقهم فى استعمال الوحشى من الالفاظ فان هذا الكلام قد كان فى الزمن القديم قبل الاسلام بما شاء الله وكذلك كلام كل فصيح من العرب مشهور وما عداه فليس بشئ وهذا المشار اليه ههنا هو من جزل كلامهم وعلى ما تراه من السلاسة والعذوبة واذا تتبعت أشعارهم أيضا وجدت الوحشى من الالفاظ قليلا بالنسبة الى المسلسل

قوله ولكنك الخ كذا فى النسخ والظاهر ان يقول فقال قبيصة ولكنك الخ اهـ

في الفهم والسمع ألا ترى الى هذه الابيات الواردة للسموأل بن عاديا وهي

اذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه * فكل رداء يرتديه جميل
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها * فليس الى حسن الثناء سبيل
تعيرنا أنا قليل عديدنا * فقلت لها ان الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا * عزيز وجار الاكثرين ذليل
يقرب حب الموت آجالنا لنا * وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفه * ولا طل منا حيث كان قتيل
علونا الى خير الظهور وحطنا * لوقت الى خير البطون نزول
فنحن كماء المزن ما في نصابنا * كهام ولا فينا يعد بخيل
اذا سيد منا خلا قام سيد * قؤول لما قال الكرام فعول
وأيامنا مشهورة في عدونا * لها غرر مشهورة وحجول
وأسيافنا في كل غرب ومشرق * بها من قراع الدارعين فلول
معودة الا تسل نصالها * فتغمد حتى يستباح قتيل

فاذا نظرنا الى ما تضمنه من الجزالة خلناها زبرا من الحديد وهي مع ذلك سهلة مستعذبة غير فظة ولا غليظة وكذلك قد ورد للعرب في جانب الرقة من الاشعار ما يكاد يذوب لرقته كقول عروة بن أذينة

ان التي زعمت فؤادك ملها * خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها * بلباقة فأدقها وأجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبي * ما كان أكثرها لنا وأقلها
واذا وجدت لها وساوس سلوة * شفع الضمير الى الفؤاد فسلها

(وكذلك ورد قول الآخر)

أقول لصاحبي والعيس تهوى * بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد * فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد * وريا روضة غب القطار
وأهلك اذ يحل الحي نجدا * وأنت على زمانك غير زار
شهور ينقضين وما شعرنا * بأنصاف لهن ولا سرار
فأما ليلهن فخير ليل * وأطيب ما يكون من النهار

ومما ترقص الاسماع له ويرق على صفحات القلوب قول يزيد بن الطثرية في محبوبته من جرم

بنفسي من لو مر برد بنانه * على كبدي كانت شفاء أنامله
ومن هابني في كل شيء وهبته * فلا هو يعطيني ولا أنا سائله

واذا كان هذا قول ساكن في الفلاة لا يرى الا شيحة أو قيصومة ولا يأكل الا ضبا أو يربوعا فما بال قوم سكنوا الحضر ووجدوا رقة العيش يتعاطون وحشي الالفاظ وشظف العبارات ولا يخلد الى ذلك الا اما جاهل بأسرار الفصاحة واما عاجز عن سلوك طريقها فان كل أحد ممن شدا شيأ من علم الادب يمكنه أن يأتي بالوحشي من الكلام وذلك أنه يلتقطه من كتب اللغة أو يتلقفه من أربابها وأما الفصيح المتصف بصفة الملاحة فانه لا يقدر عليه ولو قدر عليه لما علم أين يضع يده في تأليفه وسبكه فان مارى في ذلك ممار فلينظر الى أشعار علماء الادب ممن كان مشارا اليه حتى يعلم صحة ماذكرته هذا ابن دريد قد قيل انه أشعر علماء الادب واذا نظرت الى شعره وجدته بالنسبة الى شعر الشعراء المجيدين منحطا مع أن أولئك الشعراء لم يعرفوا من علم الادب عشر معشار ما علمه هذا العباس ابن الاحنف قد كان من أوائل الشعراء المجيدين وشعره كمر نسيم على عذبات أغصان وكلؤلؤات طل على طرر ريحان وليس فيه لفظة واحدة غريبة يحتاج الى استخراجها من كتب اللغة فمن ذلك قوله

واني ليرضيني قليل نوالكم * وان كان لا أرضى لكم بقليل
بحرمة ما قد كان بيني وبينكم * من الود الا عدتم بجميل

وهكذا ورد قوله في فوز التي كان يشبب بها في شعره

يا فوز يا منية عباس * قلبي يفدي قلبك القاسي
أسأت اذ أحسنت ظني بكم * والحزم سوء الظن بالناس
يقلقني شوقي فآتيكمو * والقلب مملوء من الياس

وهل أعذب من هذه الابيات وأعلق بالخاطر وأسرى في السمع ولمثلها تخف رواجح الاوزان وعلى مثلها تسهر الاجفان وعن مثلها تتأخر السوابق عند الرهان ولم أجرها بلساني يوما من الايام الا ذكرت قول أبي الطيب المتنبي

اذا شاء أن يلهو بلحية أحمق * أراه غباري ثم قال له الحق

ومن الذى يستطيع أن يسلك هذه الطريق التى هى سهلة وعرة قريبة بعيدة وهذا أبو العتاهية كان فى عزة الدولة العباسية وشعراء العرب اذ ذاك موجودون كثيرا وكانت مدائحه فى المهدى بن المنصور واذا تأملت شعره وجدته كالماء الجارى رقة ألفاظ ولطافة سبك وليس بركيك ولا واه وكذلك أبو نواس وبهذا تقدم على شعراء عصره وناهيك بعصره وما جمعه من فحول الشعراء ويكفى منهم مسلم بن الوليد الذى كان فارس الشعر وله الاسلوب الغريب العجيب غير أنه كان يتعجب فى أكثر ألفاظه ويحكى أن أبا نواس جلس يوما الى بعض التجار ببغداد هو وجماعة من الشعراء فاستسقى ماء فلما شرب قال * عذب الماء وطابا * ثم قال أجيزوه فأخذ أولئك الشعراء يترددون فى اجازته واذا هم بأبى العتاهية فقال ماشأنكم مجتمعين فقالوا هو كيت وكيت وقد قال أبو نواس * عذب الماء وطابا فقال أبو العتاهية * حبذا الماء شرابا * فعجبوا لقوله على الفور من غير تلبث وكل شعر أبى العتاهية كذلك سهل الالفاظ وسأورد منه ههنا شيأ يستدل به على سلاسة طبعه وترويق خاطره (فمن ذلك) قصيدته التى يمدح فيها المهدى ويشبب فيها بجارية عتب

ألا ما لسيدتى ما لها * تدل فأحمل ادلالها
ألا ان جارية للاما * م قد سكن الحسن سربالها
لقد أتعب الله قلبى بها * وأتعب فى اللوم عذالها
كأن بعينى فى حيثما * سلكت من الارض تمثالها

فلما وصل الى المديح قال من جملته

أتته الخلافة منقادة * اليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح الا له * ولم يك يصلح الا لها
ولو رامها أحد غيره * لزلزلت الارض زلزالها
ولو لم تطعه نيات القلوب * لما قبل الله أعمالها

ويحكى أن بشارا كان شاهدا عند انشاد أبى العتاهية هذه الابيات فلما سمع المديح قال انظروا الى أمير المؤمنين هل طار عن أعواده يريد هل زال عن سريره طربا بهذا المديح ولعمرى ان الامر كما قال بشار وخير القول ما أسكر السامع حتى ينقله عن حالته سواء كان فى مديح أو غيره وقد أشرت الى ذلك فيما يأتى

من هذا الكتاب عند ذكر الاستعارة فليؤخذ من هنالك (واعلم) أن هذه الابيات المشار اليها ههنا من رقيق الشعر غزلا ومديحا وقد أذعن لمديحها الشعراء من أهل ذلك العصر ومع هذا فانك تراها من السلاسة واللطافة على أقصى الغايات وهذا هو الكلام الذى يسمى السهل الممتنع فتراه يطمعك ثم اذا حاولت مماثلته راغ عنك كما يروغ الثعلب وهكذا ينبغى أن يكون من خاض فى كتابة أو شعر فان خير الكلام ما دخل الاذن بغير اذن (وأما) البداوة والعنجهية فى الالفاظ فتلك أمة قد خلت ومع أنها قد خلت وكانت فى زمن العرب العاربة فانما قد عيبت على مستعملها فى ذلك الوقت فكيف الآن وقد غلب على الناس رقة الحضر (وبعد هذا) فاعلم أن الالفاظ تجرى من السمع مجرى الاشخاص من البصر فالالفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار والالفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذى دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج ولهذا ترى ألفاظ أبى تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد وترى ألفاظ البحترى كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى واذا أنعمت نظرك فيما ذكرته ههنا وجدتنى قد دللتك على الطريق وضربت لك أمثالا مناسبة (واعلم) أنه يجب على الناظم والناثر أن يجتنبا ما يضيق به مجال الكلام فى بعض الحروف كالثاء والذال والخاء والشين والصاد والطاء والظاء والغين فان فى الحروف الباقية مندوحة عن استعمال ما لا يحسن من هذه الاحرف المشار اليها والناظم فى ذلك أشد ملامة لانه يتعرض لان ينظم قصيدة ذات أبيات متعددة فيأتى فى أكثرها بالبشع الكريه الذى يمجه السمع لعدم استعماله كما فعل أبو تمام فى قصيدته الثائية التى مطلعها قف بالطلول الدارسات علاثا * وكما فعل أبو الطيب المتنبى فى قصيدته الشينية التى مطلعها * مبيتى من دمشق على فراش * وكما فعل ابن هانئ المغربى فى قصيدته الخائية التى مطلعها * سرى وجناح الليل أقتم أفتخ * والناظم لا يعاب اذا لم ينظم هذه الاحرف فى شعره بل يعاب اذا نظمها وجاءت كريهة مستبشعة وأما الناثر فانه أقرب حالا من الناظم لان غاية ما يأتى به سجعتان أو ثلاثة أو أربع على حرف من هذه الاحرف وما يعدم فى ذلك ما يروق اذا كان بهذه العدة اليسيرة فان كلفت أيها الشاعر أن تنظم شيأ على هذه الحروف فقل هذه الحروف هى مقاتل الفصحاء

وعذرى واضح فى تركها فان واضع اللغة لم يضع عليها ألفاظا تعذب فى الفم ولا تلذ فى السمع والذى هو بهذه الصفة منها فانما هو قليل جدا ولا يصاغ منه الا مقاطيع أبيات من الشعر وأما القصائد المقصدة فلا تصاغ منه وان صيغت جاء أكثرها بشعا كريها على أن هذه الحروف متفاوتة فى كراهة الاستعمال وأشدها كراهية أربعة أحرف وهى الخاء والصاد والظاء والغين وأما الثاء والذال والشين والثاء فان الامر فيهن أقرب حالا وهذا موضع ينبغى لصاحب الصناعة أن ينعم نظره فيه وفيما أشرنا اليه كفاية للمتعلم فليعرفه وليقف عنده (ومن أوصاف الكلمة) أن لا تكون مبتذلة بين العامة وذلك ينقسم قسمين (الاول) ما كان من الالفاظ دالا على معنى وضع له فى أصل اللغة فغيرته العامة وجعلته دالا على معنى آخر وهو ضربان الاول ما يكره ذكره كقول أبى الطيب

أذاق الغوانى حسنه ما أذقننى * وعف فجازاهن عنى بالصرم

فان لفظة الصرم فى وضع اللغة هو القطع يقال صرمه اذا قطعه فغيرتها العامة وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره فأبدلوا السين صادا ومن أجل ذلك استكره استعمال هذه اللفظة وما يجرى مجراها لكن المكروه منها ما يستعمل على صيغة الاسمية كما جاءت فى هذا البيت وأما اذا استعملت على صيغة الفعل كقولنا صرمه وصرمته وتصرم فانها لا تكون كريهة لان استعمال العامة لا يدخل فى ذلك وهذا الضرب المشار اليه لا يعاب البدوى على استعماله كما يعاب المحتضر لان البدوى لم تتغير الالفاظ فى زمنه ولا تصرفت العامة فيها كما تصرفت فى زمن المحتضرة من الشعراء فمن أجل ذلك عيب استعمال لفظة الصرم وما يجرى مجراها على الشاعر المحتضر ولم يعب على الشاعر المتبدى ألا ترى الى قول أبى صخر الهذلى

قد كان صرم فى الممات لنا * فعجلت قبل الموت بالصرم

فان هذا لا يعاب على صخر كما عيب على المتنبى قوله فى البيت المقدم ذكره وقد صنف الشيخ أبو منصور بن أحمد البغدادى المعروف بابن الجواليقى كتابا فى هذا الفن وسمه باصلاح ما تغلط فيه العامة غنسه ماهذا سبيله وهو الذى أنكر استعماله لكراهته ولانه مما لم ينقل عن العرب فهذان عيبان وأما الضرب الثانى وهو أنه وضع فى أصل اللغة لمعنى فجعلته العامة دالا على غيره

وصفات بعض أعضاء الانسان

الا أنه ليس بمستقبح ولا مستنكره وذلك كتسميتهم الانسان ظريفا اذا كان دمث الاخلاق حسن الصورة أو اللباس أو ما هذا سبيله والظرف فى أصل اللغة مختص بالنطق فقط (وقد تمثل فى صفات خلق الانسان ما أذكره ههنا) وهو الصباحة فى الوجه الوضاءة فى البشرة الجمال فى الانف الحلاوة فى العينين الملاحة فى الفم الظرف فى اللسان الرشاقة فى القد اللباقة فى الشمائل كمال الحسن فى الشعر فالظرف انما يتعلق بالنطق خاصة فغيرته العامة عن بابه وممن غلط فى هذا الموضع أبو نواس حيث قال

اختصم الجود والجمال * فيك فصارا الى جدال

فقال هذا يمينه لى * للعرف والبذل والنوال

وقال هذا الوجه لى * للظرف والحسن والكمال

فافترقا فيك عن تراض * كلاهما صادق المقال

وكذلك غلط أبو تمام فقال

لك هضبة الحلم التى لو وازنت * أجأ اذن ثقلت وكان خفيفا

وحلاوة الشيم التى لو مازجت * خلق الزمان الفدم عاد ظريفا

فأبو نواس غلط ههنا فى أنه وصف الوجه بالظرف وهو من صفات النطق وأبو تمام غلط فى أنه وصف الخلق بالظرف وهو من صفات النطق أيضا الا أن هذا غلط لا يوجب فى هذه اللفظة قبحا لكنه جهل بمعرفة أصلها فى وضع اللغة (القسم الثانى) مما ابتذلته العامة وهو الذى لم تغيره عن وضعه وانما أنكر استعماله لانه مبتذل بينهم لا لانه مستقبح ولا لانه مخالف لما وضع له وفى هذا القسم نظر عندى لانه ان كان عبارة عما يكثر تداوله بين العامة فان من الكثير المتداول بينهم الفاظا فصيحة كالسماء والارض والنار والماء والحجر والطين وأشباه ذلك وقد نطق بها القرآن الكريم فى مواضع كثيرة منه وجاءت فى كلام الفصحاء نظما ونثرا والذى ترجح فى نظرى أن المراد بالمبتذل من هذا القسم انما هو الالفاظ السخيفة الضعيفة سواء تداولتها العامة أو الخاصة (فمما) جاء منه قول أبى الطيب المتنبى

وملومة سفية ردينة * يصبح الحصا فيها صياح اللقالق

فان لفظة اللقالق مبتذلة بين العامة جدا وكذلك قوله

ومن الناس من تجوز إليهم * شعراء كأنها الخاز باز

وهذا البيت من مضحكات الاشعار وهو من جملة البرسام الذى ذكره فى شعره حيث قال

ان بعضا من القريض هزاء * ليس شيأ وبعضه احكام

فيه مايجلب البراعة والفهم * وفيه مايجلب البرسام

ومثل هذه الالفاظ اذا وردت فى الكلام وضعت من قدره ولو كان معنى شريفا وهذا القسم من الالفاظ المبتذلة لايكاد يخلو منه شعر شاعر لكن منهم المقل ومنهم المكثر حتى ان العاربة قد استعملت هذا الا أنه فى أشعارها أقل فمن ذلك قول النابغة الذبيانى فى قصيدته التى أولها من آل مية رائح أو مغتدى

أو دمية فى مرمر مرفوعة * بنيت بآجر يشاد بقرمد

فلفظة آجر مبتذلة جدا وان شئت أن تعلم شيأ من سر الفصاحة التى تضمنها القرآن فانظر الى هذا الموضع فانه لما جىء فيه بذكر الآجر لم يذكر بلفظه ولا بلفظ القرمد أيضا ولا بلفظ الطوب الذى هو لغة أهل مصر فان هذه الاسماء مبتذلة لكن ذكر فى القرآن على وجه آخر وهو قوله تعالى وقال فرعون يا أيها الملأ ماعلمت لكم من اله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا فعبر عن الآجر بالوقود على الطين (ومن هذا القسم المبتذل) قول الفرزدق فى قصيدته التى أولها عرفت باعشاش وما كدت تعرف

وأصبح مبيض الضريب كأنه * على سروات البيت قطن مندف

فقوله مندف من الالفاظ العامية (ومن هذا القسم) قول البحترى

وجوه حسادك مسودة * أم صبغت بعدى بالزاج

فلفظة الزاج من أشد ألفاظ العامة ابتذالا وقد استعمل أبو نواس هذا النوع فى شعره كثيرا كقوله

يامن جفانى وملا * نسيت أهلا وسهلا

ومات مرحب لما * رأيت مالى قلا

انى أظنك فيما * فعلت تحكي القرلا

(وكقوله)

وأغبر الجلدة صيرته * في الناس زاغا وشقراقا
ما زلت أجري كلكي فوقه * حتى دعا من تحته قاقا

(وكقوله)

ومطة بالعذل تحسب أنني * بالجهل أترك صحبة الشطار

وقد استعمل لفظة الشاطر والشاطرة والشطار والشطارة كثيرا وهي من الالفاظ التي ابتذلها العامة حتى سمجت من ابتذالها وهذه الامثلة تمنع الواقف عليها من استعمال أشباهها وأمثالها (ومن أوصاف الكلمة) أن لا تكون مشتركة بين معنيين أحدهما يكره ذكره واذا وردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت وذلك اذا كانت مهملة بغير قرينة تميز معناها عن القبيح فأما اذا جاءت ومعها قرينة فانها لا تكون معيبة كقوله تعالى فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ألا ترى أن لفظة التعزير مشتركة تطلق على التعظيم والاكرام وعلى الضرب الذي هو دون الحد وذلك نوع من الهوان وهما معنيان ضدان فحيث وردت في هذه الآية جاء معها قرائن من قبلها ومن بعدها خصصت معناها بالحسن وميزته عن القبيح ولو وردت مهملة بغير قرينة وأريد بها المعنى الحسن لسبق الى الوهم ما اشتملت عليه من المعنى القبيح مثال ذلك لو قال قائل لقيت فلانا فعزرته لسبق الى الفهم أنه ضربه وأهانه ولو قال لقيت فلانا فأكرمته وعزرته لزال ذلك اللبس (واعلم) أنه قد جاء من الكلام ما معه قرينة فأوجبت قبحه ولو لم تجيء معه لما استقبح كقول الشريف الرضي

أعزز علي بان أراك وقد خلا * عن جانبيك مقاعد العوّاد

وقد ذكر ابن سنان الخفاجي هذا البيت في كتابه فقال ان ايراد هذه اللفظة في هذا الموضع صحيح الا أنه موافق لما يكره ذكره في مثل هذا الشعر لا سيما وقد أضافه الى من يحتمل اضافته اليه وهم العوّاد ولو انفرد لكان الامر فيه سهلا فأما الاضافة الى من ذكره فقبيح لا خفاء به هذا حكاية كلامه وهو مرضي واقع في موقعه ولنذكر نحن ما عندنا في ذلك فنقول قد جاءت هذه اللفظة المعيبة في الشعر في القرآن الكريم فجاءت حسنة مرضية وهي قوله تعالى واذ غدوت من أهلك تبوّئ المؤمنين مقاعد للقتال وكذلك قوله تعالى

وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ألا ترى أنها في هاتين الآيتين غير مضافة الى من تقبح اضافته اليه كما جاءت في الشعر ولو قال الشاعر بدلا من مقاعد العوّاد مقاعد الزيارة أو ماجرى مجراه لذهب ذلك القبح وزالت تلك الهجنة ولهذا جاءت هذه اللفظة في الآيتين على ماتراه من الحسن وجاءت على ماتراه من القبح في قول الشريف الرضي وعلى هذا ورد قول تأبط شرّا

أقول للحيان وقد صفرت لهم * وطابي ويومي ضيق الجحر معور

فانه أضاف الجحر الى اليوم فأزال عنه هجنة الاشتباه لانّ الجحر يطلق على كل ثقب كثقب الحية واليربوع وعلى المحل المخصوص من الحيوان فاذا ورد مهملا بغير قرينة تخصصه سبق الى الوهم مايقبح ذكره لاشتهاره به دون غيره ومن ههنا ورد قول النبيّ صلى الله عليه وسلم المؤمن لا يلسع من جحر مرتين وحيث قال يلسع زال اللبس لانّ اللسع لا يكون الا للحية وغيرها من ذوات السموم وأمّا ماورد مهملا بغير قرينة فقول أبي تمام

أعطيت لي دية القتيل وليس لي * عقل ولا حق عليك قديم

فقوله ليس لي عقل يظن أنه من عقل الشيء اذا علمه ولو قال ليس لي عليك عقل لزال اللبس فيجب اذا على صاحب هذه الصناعة أن يراعي في كلامه مثل هذا الموضع وهو من جملة الالفاظ المشتركة التي يحتاج في ايرادها الى قرينة تخصصها ضرورة (ومن أوصاف الكلمة) أن تكون مؤلفة من أقلّ الاوزان تركيبا وهذا مما ذكره ابن سنان في كتابه ثم مثله بقول أبي الطيب المتنبي

ردّ على ابن سنان

إنّ الكرام بلا كرام منهم * مثل القلوب بلا سويداواتها

وقال انّ لفظة سويداواتها طويلة فلهذا قبحت وليس الامر كما ذكره فانّ قبح هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها وانما هو لانها في نفسها قبيحة وقد كانت وهي مفردة حسنة فلما جمعت قبحت لا بسبب الطول والدليل على ذلك أنه قد ورد في القرآن الكريم ألفاظ طوال وهي مع ذلك حسنة كقوله تعالى فسيكفيكهم الله فانّ هذه اللفظة تسعة أحرف وكقوله تعالى ليستخلفنهم في الارض فانّ هذه اللفظة عشرة أحرف وكلتاهما حسنة رائقة ولو كان الطول مما يوجب قبحا لقبحت هاتان اللفظتان وليس كذلك ألا ترى أنه لو أسقط من

لفظة سويداواتها الهاء والالف اللتين هما عوض عن الاضافة لبقي منها ثمانية أحرف ومع هذا فانها قبيحة ولفظة ايستخلفنهم عشرة أحرف وهي أطول منها بحرفين ومع هذا فانها حسنة رائقة والاصل في هذا الباب ما أذكره وهو أن الاصول من الالفاظ لا تحسن الا في الثلاثي وفي بعض الرباعي كقولنا عذب وعسجد فان هاتين اللفظتين احداهما ثلاثية والاخرى رباعية وأما الخماسي من الاصول فانه قبيح ولا يكاد يوجد منه شئ حسن كقولنا جحمرش وصهصلق وما يجري مجراهما وكان ينبغي على ماذكره ابن سنان أن تكون هاتان اللفظتان حسنتين واللفظتان الواردتان في القرآن قبيحتين لان تلك تسعة أحرف وعشرة وهاتان خمسة وخمسة ونرى الامر بالضد مما ذكره وهذا لا يعتبر فيه طول ولا قصر وانما يعتبر نظم تأليف الحروف بعضها مع بعض وقد تقدم الكلام على ذلك ولهذا لا يوجد في القرآن من الخماسي الاصول شئ الا ما كان من اسم نبي عرب اسمه ولم يكن في الاصل عربيا نحو ابراهيم واسمعيل (ومما يدخل في هذا الباب) أن تجتنب الالفاظ المؤلفة من حروف يثقل النطق بها سواء كانت طويلة أو قصيرة ومثال ذلك قول امرئ القيس في قصيدته اللامية التي هي من جملة القصائد السبع الطوال

غدائره مستشزرات الى العلا * تضل المدارى في مثنى ومرسل

فلفظة مستشزرات مما يقبح استعمالها لانها تثقل على اللسان ويشق النطق بها وان لم تكن طويلة لانا لو قلنا مستنكرات أو مستنفرات على وزن مستشزرات لما كان في هاتين اللفظتين من ثقل ولا كراهة ولربما اعترض بعض الجهال في هذا الموضع وقال ان كراهة هذه اللفظة انما هو لطولها وليس الامر كذلك فانا لو حذفنا منها الالف والتاء وقلنا مستشزر لكان ذلك ثقيلا أيضا وسببه أن الشين قبلها تاء وبعدها زاى فثقل النطق بها والا فلو جعلنا عوضا من الزاى راء ومن الراء فاء فقلنا مستشرف لزال ذلك الثقل ولقد رآني بعض الناس وأنا أعيب على امرئ القيس هذه اللفظة المشار اليها فأكبر ذلك لوقوفه مع شهرة التقليد في أن امرأ القيس أشعر الشعراء فعجبت من ارتباطه بمثل هذه الشبهة الضعيفة وقلت له لا يمنع احسان امرئ القيس من استقباح ماله من القبح ومثال هذا كمثال غزال المسك فانه يخرج منه المسك والبعر ولا يمنع طيب

ما يخرج

ما يخرج من مسكه من خبث ما يخرج من بعره ولا تكون لذاذة ذلك الطيب حامية للغبث من الاستكراه فأسكت الرجل عند ذلك (وحضر) عندي في بعض الايام رجل من اليهود وكنت اذ ذاك بالديار المصرية وكان لليهود في هذا الرجل اعتقاد لمكان علمه في دينهم وغيره وكان لعمري كذلك فجرى ذكر اللغات وأن اللغة العربية هي سيدة اللغات وأنها أشرفهن مكانا وأحسنهن وضعا فقال ذلك الرجل كيف لا تكون كذلك وقد جاءت آخرا فنفت القبيح من اللغات قبلها وأخذت الحسن ثم ان واضعها تصرف في جميع اللغات السالفة فاختصر ما اختصر وخفف ما خفف فمن ذلك اسم الجمل فانه عندنا في اللسان العبراني كوميل ممالا على وزن فوعيل فجاء واضع اللغة العربية وحذف منها الثقيل المستبشع وقال جمل فصار خفيفا حسنا وكذلك فعل في كذا وكذا وذكر أشياء كثيرة ولقد صدق في الذي ذكره وهو كلام عالم به (ومن أوصاف الكلمة) أن تكون مبنية من حركات خفيفة ليخف النطق بها وهذا الوصف يترتب على ما قبله من تأليف الكلمة ولهذا اذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم تستثقل وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة فانه اذا توالى منها حركتان في كلمة واحدة استثقلت ومن أجل ذلك استثقلت الضمة على الواو والكسرة على الياء لان الضمة من جنس الواو والكسرة من جنس الياء فتكون عند ذلك كأنها حركتان ثقيلتان ولنمثل لذلك مثالا لتهتدي به في هذا الموضع وهو أنا نقول اذا أتينا بلفظة مؤلفة من ثلاثة أحرف وهي ج ز ع فاذا جعلنا الجيم مفتوحة فقلنا الجزع أو مكسورة فقلنا الجزع كان ذلك أحسن من أن لو جعلنا الجيم مضمومة فقلنا الجزع وكذلك اذا والينا حركة الفتح فقلنا الجزع كان ذلك أحسن من موالاة حركة الضم عند قولنا الجزع ومن المعلوم أن هذه اللفظة لم يكن اختلاف حركاتها مغيرا لمخارج حروفها حتى ينسب ذلك الى اختلاف تأليف المخارج بل وجدناها تارة تكتسى حسنا وتارة يسلب ذلك الحسن عنها فعلمنا أن ذلك حادث من اختلاف تأليف حركاتها (واعلم) أنه قد توالت حركة الضم في بعض الالفاظ ولم يحدث فيها كراهة ولا ثقلا كقوله تعالى ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر وكقوله تعالى ان المجرمين في ضلال وسعر وكقوله تعالى وكل شيء فعلوه في الزبر فحركة الضم في هذه الالفاظ متوالية وليس بها من ثقل

ولا كراهة وكذلك ورد قول أبي تمام

تقـس يحتثه نفـس * ودموع ليس تحتبس
ومغان للكرى دثر * عطل من عهده درس
شهرت ما كنت اكتمه * ناطقات بالهوى خرس

فانظـر كيف جاءت هـذه الالفاظ الاربعـة مضمومات كلها وهي مع ذلك حسـنة لاثقل بها ولا ينبو السمع عنها وهـذا لا ينقض ما أشرنا اليه لان الغالب أن يكون توالى حركة الضم مستثقلا فاذا اشذ عن ذلك شئ يسير لا ينقض الاصـل المقيس عليه (القسم الثاني في الالفاظ المركبة) قد قدمنا القول في شرح أحوال اللفظة المفـردة وما يختص بها وأما اذا صارت مركبة فان لتركيبها حكما آخر وذلك أنه يحـدث عنه من فوائد التاليفات والامتزاجات ما يخيـل للسامع أن هذه الالفاظ ليست تلك التي كانت مفردة ومثال ذلك كمن اخذ لآلئ ليست من ذوات القيم الغالية فالفها وأحسن الوضع في تأليفها فخيل للناظر بحسن تأليفه واتقان صنعته أنها ليست تلك التي كانت منثورة مبددة وفي عكس ذلك من يأخـذ لآلئ من ذوات القيم الغالية فيفسد تأليفها فانه يضع من حسنها وكذلك يجـري حكم الالفاظ الغالية مع فساد التأليف وهـذا موضع شريف ينبـغي الالتفات اليه والعناية به (واعـلم) أن صناعة تأليف الالفاظ تنقسم الى ثمانية أنواع هي السجع ويختص بالكلام المنثور والتصريع ويختص بالكلام المنظوم وهو داخل في باب السجع لانه في الكلام المنظوم كالسجع في الكلام المنثور والتجنيس وهو يعم القسمين جميعا والترصيع وهو يعم القسمين أيضا جميعا ولزوم ما لا يلزم وهو يعم القسمين أيضا والموازنة وتختص بالكلام المنثور واختلاف صيغ الالفاظ وهو يعم القسمين جميعا وتكرير الحروف وهو يعم القسمين جميعا (النوع الاول السجع) وحده أن يقال تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحـد وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ولا أرى لذلك وجها سوى عجزهم أن يأتوا به والا فلو كان مذموما لما ورد في القرآن الكريم فانه قد أتى منه بالكثير حتى انه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرهما وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور فمن ذلك قوله تعالى ان الله لعن الكافرين وأعد لهم

سعيرا خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا وكقوله تعالى في سورة طه طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى وكذلك قوله تعالى في سورة ق بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج وكقوله تعالى والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا وأمثال ذلك كثيرة * وقد ورد على هذا الاسلوب من كلام النبي صلى الله عليه وسلم شئ كثير أيضا (فمن ذلك) ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استحيوا من الله حق الحياء قلنا انا لنستحيي من الله يا رسول الله قال ليس ذلك ولكن الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وتذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا (ومن ذلك) ما رواه عبد الله بن سلام فقال لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت في الناس لانظر اليه فلما تبينت وجهه علمت انه ليس بوجه كذاب فكان أول شئ تكلم به أن قال أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام (فان قيل) ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لبعضهم منكرا عليه وقد كلمه بكلام مسجوع أسجعا كسجع الكهان ولولا أن السجع مكروه لما أنكره النبي صلى الله عليه وسلم (فالجواب) عن ذلك أنا نقول لو كره النبي صلى الله عليه وسلم السجع مطلقا لقال أسجعا ثم سكت وكان المعنى يدل على انكار هذا الفعل لم كان فلما قال أسجعا كسجع الكهان صار المعنى معلقا على أمر وهو انكار الفعل لم كان على هذا الوجه فعلم أنه انما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير وانه لم يذم السجع على الاطلاق * وقد ورد في القرآن الكريم وهو صلى الله عليه وسلم قد نطق به في كثير من كلامه حتى انه غير الكلمة عن وجهها اتباعا لها بأخواتها من أجل السجع فقال لابن ابنته عليهما السلام اعيذه من الهامة والسامة وكل عين لامة وانما أراد ملمة لان الاصل فيها من ألم فهو ملم وكذلك قوله صلى

الله عليه وسلم ارجعن مأزورات غير مأجورات وانما أراد موزورات من الوزر فقال مأزورات لمكان مأجورات طلبا للتوازن والسجع وهذا مما يدلك على فضيلة السجع على أن هذا الحديث النبوي الذي يتضمن انكار سجع الكهان عندى فيه نظر فان الوهم يسبق الى انكاره يقال فما سجع الكهان الذى يتعلق الانكار به ونهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم والجواب عن ذلك أن النهى لم يكن عن السجع نفسه وانما النهى عن حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع ألا ترى أنه لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنين بغرة عبد أو أمة قال الرجل أأدى من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك بطل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسجعا كسجع الكهان أى أتتبع سجعا كسجع الكهان وكذلك كان الكهنة كلهم فانهم كانوا اذا سئلوا عن أمر جاؤا بالكلام مسجوعا كما فعل الكاهن فى قصة هند بنت عتبة فانه قال لما امتحن قبل السؤال عن قصتها ثمرة فى كرة فقيل له نريد أبين من هذا فقال حبة بر فى احليل مهر والحكاية مشهورة فلهذا اختصرناها هنا وكذلك قال سطيح فانه قال عبد المسيح جاء الى سطيح وهو موف على الضريح لرؤيا الموبذان وارتجاس الايوان وأتم الكلام الى آخره مسجوعا والحكاية مشهورة أيضا فلهذا اختصرناها فالسجع اذا ليس بمنهى عنه وانما المنهى عنه هو الحكم المتبوع فى قول الكاهن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسجعا كسجع الكهان أى احكما كحكم الكهان والا فالسجع الذى أتى به ذلك الرجل لا بأس به لانه قال أأدى من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك بطل وهذا كلام حسن من حيث السجع وليس بمنكر لنفسه وانما المنكر هو الحكم الذى تضمنه فى امتناع الكاهن أن يدى الجنين بغرة عبد أو أمة (واعلم) أن الاصل فى السجع انما هو الاعتدال فى مقاطع الكلام والاعتدال مطلوب فى جميع الاشياء والنفس تميل اليه بالطبع ومع هذا فليس الوقوف فى السجع عند الاعتدال فقط ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد اذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب من الادباء سجاعا وما من أحد منهم ولو شدا شيأ يسيرا من الادب الا ويمكنه أن يؤلف ألفاظا مسجوعة ويأتى بها فى كلامه بل ينبغى أن تكون الالفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة لا غثة ولا باردة وأعنى بقولى غثة باردة

أن صاحبها يصرف نظره الى السجع نفسه من غير نظر الى مفردات الالفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن ولا الى تركيبها وما يشترط له من الحسن وهو في الذي يأتي به من الالفاظ المسجوعة كمن ينقش أثوابا من الكرسف أو ينظم عقدا من الخزف الملون وهذا مقام تزل عنه الاقدام ولا يستطيعه الا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا فاذا صفي الكلام المسجوع من الغثاثة والبرد فان وراء ذلك مطلوبا آخر وهو أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى لا أن يكون المعنى فيه تابعا للفظ فانه يجيء عند ذلك كظاهر مموه على باطن مشوه ويكون مثله كغمد من ذهب على نصل من خشب وكذلك يجري الحكم في الانواع الباقية الآتي ذكرها من التجنيس والترصيع وغيرهما * وسأبين لك في هذا مثالا تتبعه فأقول اذا صورت في نفسك معنى من المعاني ثم أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع ولم يواتك ذلك الا بزيادة في ذلك اللفظ أو نقصان منه ولا يكون محتاجا الى الزيادة ولا الى النقصان وانما تفعل ذلك لان المعنى الذي قصدته يحتاج الى لفظ يدل عليه واذا دلت عليه بذلك اللفظ لا يكون مسجوعا الا أن تضيف اليه شيئا آخر أو تنقص منه فاذا فعلت ذلك فانه هو الذي يذم من السجع ويستقبح لما فيه من التكلف والتعسف وأما اذا كان محمولا على الطبع غير متكلف فانه يجيء في غاية الحسن وهو أعلى درجات الكلام واذا تهيأ للكاتب أن يأتي به في كتابته كلها على هذه الشريطة فانه يكون قد ملك رقاب الكلام يستعبد كرائمها ويستولد عقائمها وفي مثل ذلك فليتنافس وعن مقامه فليتقاعس واصاحبه أولى بقول أبي الطيب المتنبي.

أنت الوحيد اذا ركبت طريقة * ومن الرديف وقد ركبت غضنفرا

(فان قيل) فاذا كان السجع أعلى درجات الكلام على ما ذهبت اليه فكان ينبغي أن يأتي القرآن كله مسجوعا وليس الامر كذلك بل منه المسجوع ومنه غير المسجوع (قلت في الجواب) ان أكثر القرآن مسجوع حتى ان السورة لتأتي جميعها مسجوعة وما منع أن يأتي القرآن كله مسجوعا الا أنه سلك به مسلك الايجاز والاختصار والسجع لا يواتي في كل موضع من الكلام على حد الايجاز والاختصار فترك استعماله في جميع القرآن لهذا السبب وههنا وجه آخر هو

نقد على المقامات الحريرية والخطب النباتية في السجع

أقوى من الاول ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع وانما تضمن القرآن غير المسجوع لان ورود غير المسجوع معجزا أبلغ في باب الاعجاز من ورود المسجوع ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين جميعا (واعلم) أن للسجع سرا هو خلاصته المطلوبة فان عرى الكلام المسجوع منه فلا يعتد به أصلا وهذا شئ لم ينبه عليه أحد غيرى وسأبينه ههنا وأقول فيه قولا هو أبين مما تقدم وأمثل لك مثالا اذا احتذيته أمنت الطاعن والعائب وقيل في كلامك ليبلغ الشاهد الغائب والذى أقوله في ذلك هو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذى اشتملت عليه أختها فان كان المعنى فيهما سواء فذلك هو التطويل بعينه لان التطويل انما هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها واذا وردت سجعتان يدلان على معنى واحد كانت احداهما كافية في الدلالة عليه وجل كلام الناس المسجوع جار عليه واذا تأملت كتابة المفلقين ممن تقدم كالصابى وابن العميد وابن عباد وفلان وفلان فانك ترى أكثر المسجوع منه كذلك والاقل منه على ما أشرت اليه ولقد تصفحت المقامات الحريرية والخطب النباتية على غرام الناس بهما واكبابهم عليهما فوجدت الاكثر من السجع فيهما على الاسلوب الذى أنكرته فالكلام المسجوع اذا يحتاج الى أربع شرائط الاولى اختيار مفردات الالفاظ على الوجه الذى أشرت اليه فيما تقدم الثانية اختيار التركيب على الوجه الذى أشرت اليه أيضا فيما تقدم الثالثة أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعا للمعنى لا المعنى تابعا للفظ الرابعة أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها فهذه أربع شرائط لا بد منها * وسأورد ههنا من كلامى أمثلة تحذى حذوها فانى لما سلكت هذه الطريق وأتيت بكلامى مسجوعا توخيت أن تكون كل سجعة منه مختصة بمعنى غير المعنى الذى تضمنته أختها ولم أخل بذلك في مكاتباتى كلها واذا تأملتها علمت صحة ما قد ذكرته (فمن ذلك) ما كتبته في صدر كتاب عن بعض الملوك الى دار الخلافة وهو الخادم واقف موقف راج هائب لازم بكتابه هذا وقار حاضر عن شخص غائب موجه وجهه الى ذلك الجناب الذى تقسم فيه أرزاق العباد ويتأدب به الزمان تأدب ذوى الاستعباد وتستمد الملوك من خدمته شرف

الجدود كما تستغنى بنسبها اليه عن شرف الاجداد ولو ملك الخادم نفسه
لقصرها على خدمة قصره وأخطاها من النظر اليه ببرد العيش الذى عمرها
محسوب من عمره وهذا القول يقوله وكل ما جد فيه ساجد وبنا مله راكع
ساجد والديوان العزيز محسود الاقتراب وهو موطن الرغبات الذى
الاغتراب اليه ليس بالاغتراب وما ينافس فى القرب من أبوابه الكريمة الا
ذووا الهمم الكريمة وقد ودت الكواكب بأسرها أن تكون له منادمة
فضلا عن ندمانى جذيمة (ومن ذلك) ما كتبته من كتاب يتضمن العناية ببعض
الناس وهو الكريم من أوجب لسائله حقا وجعل كواذب آماله صدقا
وكان خرق العطايا منه خلقا ولم ير بين ذمه وبين رحمه فرقا وكل ذلك موجود
فى كرم مولانا أجراه الله من فضله على وتيرة وجعل همه على تمام كل نقص قديرة
وأوطأه من كل مجد سريرا كما بوأه من كل قلب سريرة ولا زالت يده بالمكارم
جديرة ومن الايام مجيرة واضرابرها من البحار والسحاب معبرة ولا برحت
تستولد عقائم المعانى وتستجد أبنيتها حتى تشهد الناس منها فى كل يوم
عقيقة أو وكيرة ومن صفات كرمه أنه يسبك الاموال مآثر ويتخذها عند
السؤال ذخائر فهى تفنى لديهم بالانفاق وذكرها على مرور الايام باق ومن
أربح منه صفقة وقد باع صامتا بناطق وما هو معترض لحوادث السرقات
بالا تصل اليه يد سارق ومثله من عرف الدنيا فرغب عن اقتنائها وجد فى ابتداء
المحامد بهدم بنائها وعلم أن مالها ليس عند الضنين به الا أحجارا وأن غناء منها
لا يزيده الا افتقارا فهو لماله عبد يخدمه ولا يستخدمه وأم ترضعه بسعيها
ولا تفطمه (ومنه) ما كتبته فى جواب كتاب يتضمن اباق غلام وهو أول كتاب
ورد من المكتوب عنه الى المكتوب اليه فقلت وأما الاشارة الكريمة فى أمر
الغلام الآبق عن الخدمة فقد يفتر المهر من عليقه ويطير الفراش الى حريقه
وغير بعيد أن ينبو به مضجعه أو يكبو به مطمعه فيرجع وقد ندم من رجوعه
ما ذمه من ذهابه وعلم أن الغنيمة كل الغنيمة فى ايابه فما كل شجرة تحلو لذائقها
ولا كل دار ترحب بطارقها ومن أبق عن مولاه مغاضبا وجانب محل احسانه
الذى لم يكن له مجانبا فانه يجد من مفارقة الاحسان ما يجده من مفارقة معاهد
الاوطان ومن أضل سعيا ممن دفع فى صدر العافية وغدا يسأل عن الاسقام

وألق الثروة من يده ومضى فى طلب الاعدام ومع هذا فان الخادم يشكره على ذنب الاباق الذى أقدم على اجترامه وليس ذلك الا لانه صار سببا لافتتاح باب المكاتبة الذى لم يطمع فى افتتاحه ولا جزاءله عنده الا السعى فى اعادته الى الخدمة التى تقلب فى انشائها وهى أبر به من أمه التى تقلب فى أحشائها ومن فضلها أنها تلقاه من حلمها بوسيلة الشافع ومن كرمها بالوجه الضاحك والفضل الواسع (فانظر) أيها المتأمل الى هذه الاسجاع جميعها وأعطها حق النظر حتى تعلم أن كل واحدة منها تختص بمعنى ليس فى أختها التى تليها وكذلك فليكن السجع والا فلا وسأورد ههنا من كلام الصابى ماستراه (فمن ذلك) تحميد فى كتاب فقال الحمد لله الذى لا تدركه الاعين بألحاظها ولا تحده الالسن بألفاظها ولا تخلقه العصور بمرورها ولا تهرمه الدهور بكرورها ثم انتهى الى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فقال لم ير للكفر أثرا الا طمسه ومحاه ولا رسما الا أزاله وعفاه ولا فرق بين مرور العصور وكرور الدهور وكذلك لا فرق بين محو الاثر وعفاء الرسم (ومن كلامه) أيضا فى كتاب وهو وقد علمت أن الدولة العباسية لم تزل على سالف الايام ومتعاقب الاعوام تعتل طورا وتصح أطوارا وتلتاث مرة وتستقل مرارا من حيث أصلها راسخ لا يتزعزع وبنيانها ثابت لا يتضعضع وهذه الاسجاع كلها متساوية المعانى فان الاعتلال والالتياث والطور والمرة والرسوخ والثبات كل ذلك سواء وكذلك ورد له فى جواب كتاب كتبه عن عز الدولة بن بويه جوابا عن كتاب وصله من الامير عبد الكريم ابن المطيع لله فقال وصلنى كتابه مفتتحا من الاعتزاء الى امارة المؤمنين والتقلد لامور المسلمين بما أعراقه الزكية مجوزة لاستقراره وأرومته العلية مسوغة لاستقراره له ولكل نجيب اخذ بحظه من نسبه وضارب بسهم فى منصبه اذ كان ذلك جاريا على الاصول المعهودة فيه والاسباب العاقدة له من اجماع المؤمنين كافة فان تعذر اجتماعهم مع انبساطهم فى الارض وانتشارهم فى الطول والعرض فلا بد من اتفاق أشراف كل قطر وأفاضله وأعيان كل صقع وأماثله وهذا الكلام كله متماثل المعانى فى أسجاعه فان امارة المؤمنين والتقلد لامور المسلمين سواء فى المعنى وكذلك الاعراق والارومة والتجويز والتسويغ والاشراف والافاضل والاعيان والاماثل

والقطر والمقع كل ذلك سواء (وعلى هذا) جاء كلامه فى كتاب آخر فقال يسافر رأيه وهودان لم ينزح ويسير تدبيره وهو ثاو لم يبرح وكلا هذين سواء أيضا وما أحسن هذا المعنى لو قال يسافر رأيه وهودان لم يبرح ويثخن الجراح فى عدوه وسيفه فى الغمد لم يجرح فانه لو قال مثل هذا سلم من هجنة التكرار وأمثال ذلك فى كلام الصابى كثير * وعلى منواله نسج الصاحب بن عباد (فن ذلك) ماذكره فى وصف مهزومين فقال طاروا واقين بظهورهم صدورهم وبأصلابهم نحورهم وكلا المعنيين سواء (وكذلك) قوله فى هذا الكتاب يصف ضيق مجال الحرب مكان ضنك على الفارس والراجل ضيق على الرامح والنابل (ومن كلامه) فى كتاب وهو لاتتوجه همته الى أعظم مرقوب الاطماع ودان ولا تمتد عزيمته الى أفخم مطلوب الاكان واستكان وكل هذا الذى ذكره شئ واحد (وله من كتاب) وهو وصل كتابه جامعا من الفوائد أشدها للشكر استحقاقا واعمها للحمد استغراقا وتعرفت من احسان الله فيما وفره من سلامته وهناه من كرامته أنفس موهوب ومطلوب وأجد مرقوب ومخطوب وهذا كله متماثل المعانى متشابه الالفاظ وفيما أوردته ههنا مقنع فأنعم نظرك أيها الواقف على هذا الكتاب فيما بينته لك ووضعت يدك عليه حتى تعلم كيف تأتى بالمعانى فى الالفاظ المسجوعة والله الموفق للصواب (فان قيل) انك اشترطت أن تكون كل واحدة من الفقرتين فى الكلام المسجوع دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها وانما اشترطت هذه الشريطة فرارا من أن يكون المعنيان شيأ واحدا ونرى قد ورد فى القرآن الكريم لفظتان بمعنى واحد فى آخر احدى الفقرتين المسجوعتين كقوله تعالى واذكر فى الكتاب اسمعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكل رسول نبى (قلت فى الجواب) ليس هذا كالذى اشترطته أنا فى اختصاص كل فقرة بمعنى غير المعنى الذى اختصت به اختها وانما هذا هو ايراد لفظتين فى آخر احدى الفقرتين بمعنى واحد وهذا لا بأس به لمكان طلب السجع ألا ترى أن أكثر هذه السورة التى هى سورة مريم عليها السلام مسجوعة على حرف الياء وهذا يجوز لصاحب السجع أن يأتى به وهو بخلاف ماذكرته أنا ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد غير اللفظة عن وضعها طلبا للسجع فقال

مأزورات وانما هى موزورات وقال الحسين اللاتمة وانما هى الملسة الا أنه ليس فى ذلك زيادة معنى بل يفهم من لفظة مأزورات أنها قائمة مقام موزورات وكذلك يفهم من لفظة لامة أنها بمعنى ملة فالسجع قد أجيز معه تغيير وضع اللفظة وأجيز معه أن يورد لفظتان بمعنى واحد فى آخر احدى الفقرتين ومع هذا فلم يجز فى استعماله ان يورد فقرتان بمعنى واحد لانه تطويل بل محض لا فائدة فيه وبين الذى ذكرته أنت وبين الذى ذكرته أنا فرق ظاهر (والذى قدمته) من الامثلة المصوغة للصابى والصاحب بن عباد ربما كانت يسيرة أتهم فيها بالتعصب ويقال انى التقطتها التقاطا من جملة رسائلهما وقد خرجت من عهدة هذه التهمة وذلك أنى وجدت للصابى تقليدا بنقابة الاشراف العلويين ببغداد وكنت أنشأت تقليدا بنقابة الاشراف العلويين بالموصل وقد أوردت التقليدين ههنا ليتأملهما الناظر فى كتابى هذا ويحكم بينهما ان كان عارفا أو يسأل عنهما العارف ان كان مقلدا وقد أوردت تقليد الصابى أولا لانه المقدم زمانا وفضلا وهو هذا ما عهد أمير المؤمنين الى محمد بن الحسين بن موسى العلوى الموسوى حين وصلته به الانساب وتأكدت له الاسباب وظهرت دلائل عقله ولبابته ووضحت مخايل فضله ونجابته ومهد له بهاء الدولة وضياء الملة أبو نصر بن عضد الدولة وتاج الملة مولى أمير المؤمنين ما مكن له عند أمير المؤمنين من المحل المكين ووصفه به من الحلم الرزين وأشاد به فيه من رفع المنزلة وتقديم المرتبة والتأهيل لولاية الاعمال والحمل للاعباء الثقال وحيث رغبه فيه سابقة الحسين أبيه فى الخدمة والنصيحة والمواقف المحمودة والمقامات المشهودة التى طابت بها أخباره وحسنت فيها آثاره وكان محمد متخلقا بخلائقه وذاهبا فى طرائقه علما وديانة وورعا وصيانة وعفة وأمانة وشهامة وصرامة بالحظ الجزيل من الفضل الجليل والادب الجزل والتوجه فى الاهل والايفاء بالمناقب على لداته وأترابه والابرار على قرائبه وأضرابه فقلده ما كان داخلا فى أعمال أبيه من نقابة نقباء الطالبيين أجمعين بمدينة السلام وسائر الاعمال والامصار شرقا وغربا وبعدا وقربا واختصه بذلك جذبا بضبعه وانافة بقدره وقضاء لحق رحمه وترفيها لأبيه واسعافا له بايثاره فيه أمر أمير المؤمنين واستخلافه عليه من النظر فى المظالم وتسييرا لحجيج فى المواسم والله يعقب أمير المؤمنين فيما

أمر ودبر حسن العاقبة فيما قضى وأمضى وما توفيق أمير المؤمنين الا بالله عليه يتوكل واليه ينيب وأمره بتقوى الله التي هي شعار المؤمنين وسناء الصالحين وعصمة عباد الله أجمعين وأن يعتقدها سرا وجهرا ويعتمدها قولا وفعلا ويأخذ بها ويعطي ويسر بها وينوى . ويأتي ويذر ويورد ويصدر فانها السبب المتين والمعقل الحصين والزاد النافع يوم الحساب والمسلك المفضي الى دار الثواب وقد حض الله أولياءه عليها وهداهم في محكم كتابه اليها فقال عز من قائل يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين وأمره بتلاوة كتاب الله مواظبا وتصفحه مداوما ملازما والرجوع الى أحكامه فيما أحل وحرم ونقض وأبرم وأثاب وعاقب وباعد وقارب فقد صحح الله برهانه وحجته وأوضح منهاجه ومحجته وجعله نجما في الظلمات طالعا ونورا في المشكلات ساطعا فمن أخذ به نجا وسلم ومن عدل عنه هوى وندم قال الله تعالى وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وأمره بتنزيه نفسه عما تدعو اليه الشبهات وتطلع اليه التبعات وأن يضبطها ضبط الحليم ويكفها كف الحكيم ويجعل عقله سلطانا عليها وتمييزه آمرا ناهيا لها ولا يجعل لها عذرا الى صبوة ولا هفوة ولا يطلق منها عنانا عند ثوره ولا فوره فانها أمارة بالسوء ومنصبة الى الغي فمن رفضها نجا ومن اتبعها هوى فالحازم متهم عند تحرك وطره وأربه واهتياج غيظه ولا يدع أن يغضها بالشكيم ويعركها عرك الاديم ويقودها الى مصالحها بالخزائم ويفتقدها من مقارفة المآثم والمحارم كيما يعز بتذليلها وتأديبها ويجل برياضها وتقويمها والمفرط تطمح به اذا طمحت ويجمح معها اذا جمحت ولا يلبث أن توردها حيث لا يصدر وتلجئه الى أن يعتذر وتقيمه مقام النادم الواجم وتنكب به سبيل الراشد السالم وأحق من تحلى بالمحاسن وتصدى لاكتساب المحامد من ضرب بمثل سهمه في نسب أمير المؤمنين الشريف ومنصبه المنيف واجتمع معه في ذؤابة العترة الطاهرة واستظل بأوراق الدوحة الفاخرة فذلك الذي تتضاعف به المآثر آثرها والمثالب ان أسف اليها ولاسيما من كان منتدبا بالسياسة ومرشحا للتقليد على أهله اذ ليس يفي بالاصلاح ان ولي عليه ولا يفي باصلاح ما بين جنبيه ومن أعظم الهجنة

عليه أن يأمر ولا يأمر ويزجر ولا يزدجر قال الله تعالى ذكره أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون وأمره أن يتصفح أحوال من ولى عليهم من استقراء مذاهبهم والبحث عن بواطنهم ودخائلهم وأن يعرف لمن تقدمت قدمه منهم وتظاهر فضله فيهم منزلته ويوفيه حقه وزينته وينتهى فى اكرام جماعتهم الى الحدود التى توجبها أنسابهم وأقدارهم وتقتضيها مواقعهم وأخطارهم فان ذلك يلزمه لشيئين أحدهما يخصه وهو النسب الذى بينه وبينهم والآخر يعمه والمسلمين جميعا وهو قول الله جل ذكره قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى فالمودة لهم الاعظام لأكابرهم والاشتمال على أصاغرهم واجب متضاعف الوجوب عليه متأكد اللزوم له ومن كان منهم فى دون تلك الطبقة من أحداث لم يحتنكوا عليه وجذعان لم يقرحوا ومجرين الى ما يزرى بأنسابهم ويغض من احسابهم عذلهم وأنبهم ونهاهم ووعظهم فان نزعوا وأقلعوا فذلك المراد بهم والمقصد فيهم وان أصروا وتتابعوا أنالهم من العقوبة بقدر ما يكف ويردع فان نفع والا تجاوزه الى ما يلذع ويوجع من غير تطرق لاعراضهم ولا امتهان لاحسابهم فان الغرض منهم الصيانة لا الاهانة والادالة لا الاذالة واذا وجبت عليهم الحقوق أوتعلقت بهم دواعى الخصوم قادهم الى الاغفاء بما يصح منها ويجب والخروج الى سنن الحق فيما يشتبه ويلتبس ومتى لزمتهم الحدود أقامها عليهم بحسب ما أمره الله تعالى فيها بعد أن تثبت الجرائم وتصح وتبين وتتضح وتتجرد عن الشك وتنجلى من الظن والتهمة فان الذى يستحب فى حدود الله عز وجل أن تدرأ مع نقصان اليقين والصحة وأن تمضى عليهم مع قيام الدليل والبينة قال الله عز وجل ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون وأمره بحياطة أهل النسب الاطهر والشرف الافخر عن أن يدعيه الادعياء أويدخل فيه الدخلاء ومن انتمى اليه كاذبا أوانتحله باطلا ولم يوجد له بيت فى الشجرة ولا مصداق عند النسابين المهرة أوقع به كذبه وفسقه وشهره شهرة ينكشف بها غشه ولبسه وينزع بها غيره ممن تسول له ذلك نفسه وأن يحصن الفروج عن مناكحة من ليس كفؤا لها فى شرفها وفخرها حتى لا يطمع فى المرأة الحسيبة النسيبة الا من كان مثلا لها مساويا ونظيرا موازيا فقد قال الله

تعالى انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا وأمره
بمراعاة المنتمين الى أهله ومتهجديهم وصلحائهم ومجاوريهم وأراملهم وأصاغرهم
حتى تستد الخلة من أحوالهم وتدر المواد عليهم وتتعادل أقساطهم فيما يصل
اليهم من وجوه أموالهم وأن يزوج الايامى ويربي اليتامى ويلزمهم المكاتب
فيتلقنوا القرآن ويعرفوا فرائض الاسلام والايمان ويتأدبوا بالآداب
اللائقة بذوى الاحساب فان شرف الاعراق محتاج الى شرف الاخلاق
ولا حمد لمن شرف حسبه وضعف أدبه اذ كان لم يكتسب الفخر الحاصل
بفضل سعى ولا طلب ولا اجتهاد بل بصنع الله تعالى له ومزيد المنة عليه
وبحسب ذلك لزوم ما يلزمه من شكره سبحانه على هذه العطية والاعتداد بما
فيها من المزية واعمال النفس فى حيازة الفضائل والمناقب والترفع عن
الرذائل والمثالب وأمره باجمال النيابة عن شيخه الحسين بن موسى فيما أمره
أمير المؤمنين باستخلافه عليه من النظر والاخذ للمظلوم من الظالم وأن يجلس
للمترافعين اليه جلوسا عاما ويتأمل كلامهم تأملا تاما فما كان منها متعلقا
بالحاكم رده اليه ليعمل الخصوم عليه وما كان من طريقة الغشم والظلم
والتغلب والغصب قبض عنه اليد المبطلة وثبت فيه اليد المستحقة وتحرى
فى قضاياه أن تكون موافقة للعدل ومجانبة للخذل فان عادة الحكام وصاحب
المظالم واحدة وهى اقامة الحق ونصرته وابانته واثارته وانما يختلف سبيلاهما
فى النظر اذ كان الحاكم يعمل بما ثبت عنده وظهر وصاحب المظالم يفحص
عما غمض واستتر وليس له مع ذلك أن يرد للحاكم حكومة ولا يحل له قضية
ولا يتعقب ما ينفذه ويمضيه ولا يتتبع ما يحكم به ويقضيه والله يهديه ويوفقه
ويسدده ويرشده وأمره أن يسير حجيج بيت الله عز وجل الى مقصدهم
ويحميهم فى بدأتهم وعودتهم ويرتبهم فى مسيرهم ومسالكهم ويرعاهم
فى ليلهم ونهارهم حتى لا تنالهم شقة ولا تصل اليهم مضرة وأن يحلهم
فى المنازل ويوردهم المناهل ويناوب بينهم فى النهل والعلل ويمكنهم من
الارتواء والاكتفاء مجتهدا فى الصيانة لهم ومعذرا فى الذب عنهم ومتلوما على
متأخرهم ومتخلفهم ومنهضا لضعيفهم ومهيضهم فانهم حجاج بيت الله
الحرام وزوار قبر رسوله عليه الصلاة والسلام قد هجروا الاهل والاوطان

وفارقوا الحيرة والاخوان وتجشموا المغارم الثقال وتعسفوا السهولة والجبال يلبون دعاء الله ويطيعون أمره ويؤدون فرضه ويرجون ثوابه وحقيق على المسلم أن يحرسهم متبرعا ويحوطهم متطوعا فكيف من تولى ذلك وضمنه وتقلده واعتقبه قال الله تعالى ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا وأمره أن يراعى أمور المساجد بمدينة السلام واطرافها واقطارها واكنافها وأن يجبى أموال وقفها ويستقصى جميع حقوقها وأن يلم شعثها ويسد خللها بما يتحصل من هذه الوجوه قبله لا يزيل رسما جرى ولا ينقض عادة كانت لها وأن يكتب اسم أمير المؤمنين على ما يعمره منها ويذكر اسمه بعده بأن عمارتها جرت على يده وصلاح أداة قول أمير المؤمنين فى ذلك تنويها باسمه واشادة لذكره وأن يولى ذلك من قبله من حسنت أمانته وظهرت عفته وصيانته فقد قال الله جل من قائل انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين وأمره أن يستخلف على ما يرى استخلافه عليه من هذه الاعمال فى الامصار الدانية والنائية والبلاد القريبة والبعيدة من يثق به من صلحاء الرجال ذوى الوفاء والاستقلال وأن يعهد اليهم مثل ما عهد اليه ويعتمد عليهم مثل ما اعتمد عليه ويستقصى فى ذلك آثارهم ويتعرف أخبارهم فمن وجده محمودا اقره ومن وجده مذموما صرفه ولم يمهله واعتاض منه من ترجى الامانة عنده وتكون الثقة معهودة منه وأن يختار لكتابته وحجابته والتصرف فيما قرب منه وبعد عنه من يزينه ولا يشينه وينصح له ولا يغشه ويجمله ولا يهجنه من الطبقة المعروفة بالعفاف المتصونة عن الطمع ويجعل لهم من الارزاق الكافية والاجرة الوافية ما يصدهم عن المكاسب الذميمة والمآكل الوخيمة فليس تجب عليهم الحجة الا مع اعطاء الحاجة قال الله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى وأمره أن يكتب لمن تقوم بينته عنده وتنكشف له حجته الى أصحاب المعارف بالشد على يده واتصال حقه اليه وحسم الطمع الكاذب فيه وقبض اليد الظالمة عنه اذ هم مندوبون للتصرف بين أمره ونهيه والوقوف عند رسمه وحده هذا عهد أمير المؤمنين اليك وحجته لك وعليك قد أبان منه سبيلك وأوضح دليلك

وهداك

وهذا الى رشدك وجعلك على بينة من أمرك فاعمل به ولا تخالفه وانته اليه ولا تجاوزه وان عرض لك عارض يعجزك الوفاء به ويشتبه عليك الخروج منه أنهيته الى أمير المؤمنين مبادرا وكنت الى ما يأمرك به صائرا ان شاء الله تعالى

(وأما التقليد الذى أنشأته أنا) فقد أوردته بعد هذا التقليد وهو أما بعد فان كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم وكل كتاب لا يرقم باسمه فليس بمعلم وعلى هذا فان حمده يتنزل من الكلام منزلة الاعضاء من الاجسام واسمه يتنزل من الكتاب منزلة الرقوم من الثياب وقد جمعنا فى كتابنا هذا بين التسمية والتحميد وجعلنا احداهما مفتاح التيمن والاخرى سبب المزيد ثم ردفناهما بالصلاة على سيدنا محمد الذى أيده الله بالقرآن المجيد وجعل شهادته قبل كل شهيد وعلى آله وصحبه الذين هدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد ومما يقترن بهذه الصلاة فى ثوابها ويجىء على أعقابها النظر فى أمر الأسرة النبوية التى وصل ودها بوده وجعلها احدى الثقلين المخلفين من بعده وقد تقادم الآن زمانها وتشعبت أغصانها ونسى ما لها فى الرقاب من عهدة الامانة ولم توضع فيما وضع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من المكانة وأولى الناس بها من أضحى ولاؤها حقا وأوجب أن يرد معها الحوض حين يقال لوارده سحقا وكان بمن تحت يده منها بارا رفيقا حتى لا يسأله برا ولا رفقا ونحن نرجو أن يفوز بفضيلة هذه الحسنة وأن يسبق اليها سبق المتقرب فى الجمعة ببدنة ومن أهم أمورها أن يختار لها زعيم يرأف بها رأفة الوالد بولده ويقوم بأمرها قيام الرأس بجسده حتى تأتلف أصولها كما هى فى مغرسها ولا يحكم عليها من ليس من أنفسها وقد اخترنا لها من وفقنا فى اختياره وأخذنا فيه ببيان الرأى وحزمه لا بشبهة الهوى واغتراره ولو لم يكن من القوم الذين ولوها لكان استحقاقه لها بينا والتعويل عليه متعينا فكيف وقدمه فيها قديمة الميلاد ووراثته اياها عن سيادة الجد وسودد الاجداد وهو أنت أيها السيد الاجل الشريف الحسيب النسيب فلان بن فلان الحسينى ولو شئنا لاسندنا هذه النسبة كابرا عن كابر ونضدناها آخرا بعد أول من أول قبل آخر حتى وصلنا هذا الفرع بشجرته الطيبة وهذا القطر بسحابته الصيبة وشرف الانساب أصدقه ما كان الدهر به شهيدا وأجده ما كان قديما وأخلقه

ما كان جديدا وما تولى الروح الامين مدحه قرآنا أكرم مما تولى الشعراء مدحه قصيدا ولا فضل للمعتزى الى هذا النسب حتى تلحق البنوة بالابوة ويضيف درجة الفضيلة الى مجتد النبوة وحينئذ يقال ما أقرب الشبه على قدم عهده وهذا ماء الورد بعد ذهاب ورده وأنت ذلك الرجل الذى تردد الشرف فى مناسبه تردد القمر فى منازله وزها المجد بمناقبه زهو الروض فى خمائله فلا جرم حسبك تغنيك عن سؤال من وما وتلألؤ ودك وجدك قلبا وفيا والحسب ما حفظت أواخره أوائله وأوضحت الليالى والايام دلائله وأقرت به الاعداء فاردت فضائله وهذه هى المآثر التى اذا نظمت غارت الشعراء عليها من الشعر واذا نثرت وجدت فى محكم الذكر وأنت صاحبها وابن صاحبها ومن لم يرثها عن أباعد بل عن أقاربها ولو جانبت رياستها مصانعا ومشيت بها الضراء متواضعا لدل عليك وصفها وعرف منك عرفها وقد قلدناك أمر هذه الاسرة الطاهرة التى هى أسرتك وأمرناك عليها وامرتها امرتك فتولها تولى من خفض لها جناحه وأفاض عليها سماحه وأنضى فيها غدوه ورواحه حتى يقال انك الراعى الذى تناول ثلته فاراح حسيرها وجبر كسيرها وارتاد لها خصبا وأوردها رفها الاغبا وأذكى فى كلاءتها عينا وقلبا ومن حقها عليك أن تنظر الى ذات شمالها وذات يمينها وتتصفح أحوالها فى أمر دنياها ودينها فأول ذلك أن تعلمها كتاب الله تعالى الذى فى تعليمه نهج الصواب وفى تلاوته مضاعفة حسنات الثواب وقد مثل قارئه بالبيت العامر وتاركه بالبيت الخراب وهو كتاب امتاز عن الكتب بنجوم التنزيل وتولى الله حفظه من التحريف والتبديل وافتتحه بالسبع المثانى التى لم ينزل مثلها فى التوراة ولا فى الانجيل وهو الموصوف بأنه النور المستضاء به فى غيابة الظلماء والحبل الممدود من الارض الى السماء والبحر الذى لا يستخرج لؤلؤه ومرجانه الا الراسخون من العلماء وكذلك فخذ هذه الاسرة بتعليم الفضائل التى تتفاوت بها القيم وسمها برياضة الآداب وتهذيب الشيم ولا تتركها فوضى لا يتسم أحدها بسمة القدر المنيف ولا يرجع الى حسب تليد ولا الى سعى طريف وتكون غاية ما عنده من الفضيلة أن يقال فلان الشريف ومن حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها أن توفى فضل مكانها وتجالف

بين

بين شأن غيرها من المسلمين و بين شأنها فلا تبتذل بمجالس الولاة فى انتزاع ظلامة
ولا فى اقامة حد يسلب معه رداء الكرامة وأنت تتولى ذلك منها فما وجب عليها
من حق تخذها باقتضائه وأمض فيها حكم الله الذى أمر بامضائه وليكن ذلك
على وجه الرفق الذى يسلس له القياد ويتوطأ له المهاد وان أمكنك افتداء شئ
من هذه الظلامات التى تتوجه عليها فافعل وقد أتم الله فضلها بمنع كرائمها الامن
كفؤ لادناءة فى عنصره ولاغضاضة فى مخبره وهو الذى ان فاته شرف النبوة
فى مغرسه فلم يفته شرف النباهة فى معشره واذا تباينت الاقدار فلا فرق
بين المناكح المخطوبة وبين الاسلاب المسلوبة فاحفظ لاسرتك حرمة هذه
المنزلة واجعلها فى كتاب الوصايا التى وصيت بها مكان البسملة وكما أمرناك بالنظر
فى صون أقدارها فكذلك نأمرك بالنظر فى حفظ مادة درهمها ودينارها وقد
علمت أن لها أوقافا وقفها قوم خطوا بأجرها واسمها وستعطى أنت بالعدل
فى قسمها فأجر على كل منها رزقه وأعط كل ذى حق حقه وفى الناس طائفة
أدعياء يرومون الحاق الرأس بالذنب والنبع بالغرب ويلحقون أبا الغيراب وابنا
لغير أب كل ذلك رغبة فى سحت يأكلونه لا فى نسب يوصلونه فنقب عن حال
هؤلاء تنقيبا واجعل النسيب نسيبا والغريب غريبا حتى تخلص السلالة من
طرائقها وتبقى الشجرة قائمة على أعراقها ومن علمت كذبه فازجره بأليم
الازدجار وأعلمه بأنه قد تبوأ مقعده من النار وأشهره فى الناس حتى ينتهى
و ينتهى غيره بذلك الاشتهار وههنا وصية هى أهم من هذه الوصية أمرا
وأعظم أجرا وأجدر بأن تكون هى الاولى وتكون هذه الاخرى وهى
الاخذ على ألسنة السفهاء من الخوض فيما شجر بين آل النبى صلى الله عليه وسلم
وأصحابه واظهار العصبية التى تزحزح الحق عن نصابه وترجعه على أعقابه وليس
مستندها الا مقالات ذوى الجهل وربما نشأ منها فتنة والفتنة أشد من القتل
فوكل بهؤلاء غربا قاطعا ونهيا قامعا وكن فى ذلك شارعا لما كان الله شارعا
فأولئك السادات هم النجوم الذين بأيهم كان الاقتداء كان به الاهتداء وقصارى
المحسن فى هذا الزمان أن يتعلق منها سببا ويأخذ عنهم دينا وأدبا ولا يبلغ
مد أحدهم ولا نصيفه ولو أنفق مثل أحد ذهبا ونحن نعلم انك واقف على
سنن اقتصادك وأن هذه الوصية هى محض اعتقادك والمنصف فى هذا المقام

من رعيته بتطرحلى ووفى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما حقهما وان كان من قبل
علي فكل قد ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضله وهؤلاء من صحابته
وهذا من أهله ونعوذ بالله من الاهواء الزائغة والاقوال التي ليست بسائغة
ولا حجة الا بالحق ولله الحجة البالغة وقد جعلنا لك في مالنا عطاء دارّا تستعين به
على لوازم النفقات وتخرج نافلته في وقاية عرضك التي هي محسوبة من
الصدقات فان من سادة وما يفتقر الى تحمل أثقالهم والافاضة من ماله
على أحوالهم وهذا برّ يكون منا أصله ومنك فرعه وثواب يكون لك قصده
ولنا شرعه وصاحب الاحسان من سن سبيل الاحسان ولم نرض أن أرثناك
مكانه حتى أمددناك فيه بالامكان فأعط مالنا وتعلم من سنة افضالنا ولدولتنا
بذلك ثوب جمال كلما لبس زاد جدّة وعمر ذكر كلما مضت عليه مدد الايام طال
مدة ولا ملك في الدنيا لمن لم يجعل بملكه حديثا حسنا ويشتر المحامد فيجعل لها
ثمنا ومن عرف قدر الثناء جدّ في تحصيله ولو أنفق الكثير في قليله فكم من
دولة أعدمت منه فدرست آثار معالمها ولو كانت منه مثرية لما ذهبت مع بقاء
مكارمها واذ ذكرنا هذا فلنختمه بما يكون قلادة لصاحب هذا التقليد وهو أن
نجرّد العناية بوجاهته حتى يلبس تقدّما بذلك التجريد وفحوى ذلك أن يعلم الناس
ماله في الدولة من منزلة الكرامة ويعرفوا أنه فيها ابن جلا غير محتاج الى وضع
العمامة ونحن نأمر نوابنا وولاتنا وأصحابنا أن يوفوه حق أبوته الشريفة
وفضيلته التي ردفتها فأضحت وهي لها رديفة وأن يعطوه ما شاء من اعلاء شانه
ويمضوا فعل يده وقول لسانه ان شاء الله تعالى (وقد وجدت للصابي) أيضا تقليدا
أنشأه لفخر الدولة أبي الحسن بن ركن الدولة أبي علي بن بويه عن الخليفة الطائع
رحمه الله وهو مثبت ههنا على صورته وكان عرض على تقليد كتب للملك الناصر
صلاح الدين يوسف بن أيوب من الخليفة المستضيء بالله رحمه الله في سنة احدى
وسبعين وخمسمائة فوجدت فيه كلاما نازلا بالمرة وسألني بعض الاخوان بمدينة
دمشق أن أعارضه فعارضته بتقليد في معناه وهو مثبت ههنا أيضا وكلا
التقليدين باسم الملك الكبير وفيهما ما يظهر من فصاحة وبلاغة

(فأمّا التقليد) الذي أنشأه الصابي فهو هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم الطائع
لله أمير المؤمنين الى فخر الدولة أبي الحسن بن ركن الدولة أبي علي مولى أمير المؤمنين

حين

حين عرف غناه وبلاه واستصح دينه ويقينه ورعى قديمه وحديثه واستنجب عوده ونجاره وأثنى عز الدولة أبو منصور بن معز الدولة أبي الحسين مولى أمير المؤمنين عليه وأشار بالمزيد في الصنيعة اليه وأعلم أمير المؤمنين اقتداءه به في كل مذهب ذهب فيه من الخدمة وغرض رمى اليه من النصيحة دخولا في زمرة الاولياء المنصورة وخروجا عن جماعة الاعداء المدحورة وتصرفا على موجبات البيعة التي هي بعز الدولة أبي منصور منوطة وعلى سائر ما يتلوه ويتبعه مأخوذة مشروطة فقلده الصلات وأعمال الحرب والمعاون والاحداث والخراج والاعشار والضياع والجهبذة والصدقات والجوالي وسائر وجوه الجبايات والعرض والعطاء والنفقة في الاولياء والمظالم وأسواق الرقيق والعيار في دور الضرب والطرز والحسبة بكور همذان واستراباذ والدينور وقزوين والامصارين واعمال اذربيجان وأرّان والسهانين وموقان واقتضاه باستقبال استدامتها والاستزادة بالشكر منها والتجنب لغمطها وجحودها والتنكب لايحاشها وتنفيرها والتعمد لما يمكن له الحظوة والزلفى وحرس عليه الاثرة والقربى بما يظهره ويضمره من الوفاء الصحيح والولاء الصريح والغيب الامين والصدر السليم والمقاطعة لكل من قطع العصمة وفارق الجماعة والمواصلة لكل من حمى البيضة وأخلص النية والكون تحت ظل أمير المؤمنين وذمته ومع عز الدولة أبي منصور وفي حوزته والله جل اسمه يعرف لامير المؤمنين حسن العقبى فيما أبرم ونقض وسداد الرأي فيمن رفع وخفض ويجعل عزائمه مقرونة بالسلامة محجوبة عن موارد الندامة وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل أمره بتقوى الله التي هي العصمة المتينة والجنة الحصينة والطود الارفع والمعاذ الامنع والجانب الاعز والملجأ الاحرز وأن يستشعرها سرا وجهرا ويستعملها قولا وفعلا ويتخذها ذخرا دافعا النوائب القدر وكهفا حاميا من حوادث الغير فانها أوجب الوسائل وأقرب الذرائع وأعودها على العبد بمصالحه وأدعاها الى كل مناجحه وأولاها بالاستمرار على هدايته والنجاة من غوايته والسلامة في دنياه حين توبق موبقاتها وتردي مردياتها وفي آخرته حين تروع رائعاتها وتخيف مخيفاتها وأن يتأدب بأدب الله في التواضع والاخبات والسكينة وصدق اللهجة اذا نطق وغض الطرف اذا

رمق وكظم الغيظ اذا أحفظ وضبط اللسان اذا أغضب وكف اليد عن المآثم
وصون النفس عن المحارم . وأن يذكر الموت الذي هو نازل به والموقف الذي هو
صائر اليه ويعلم أنه مسؤل عما اكتسب مجزي عما قدم واحتقب ويتزود
من هذا الممر لذلك المقر ويستكثر من أعمال البر لتنفعه ومن مساعي الخير
لتنقذه ويأتمر بالصالحات قبل أن يأمر بها ويزدجر عن السيآت قبل أن يزجر
عنها ويبتدئ باصلاح نفسه قبل اصلاح رعيته فلا يبعثهم على ما يأتي ضده
ولا ينهاهم عما يقترف مثله ويجعل ربه رقيبا عليه في خلواته ومروآته مانعة له من
شهواته فان أحق من غلب سلطان الشهوة وأولى من ضرع الغذاء الجيد من
ملك أزمة الامور واقتدر على سياسة الجمهور وكان مطاعا فيما يرى متبعا فيما
يشا يلي على الناس ولا يلوون عليه ويقتص منهم ولا يقتصون منه فاذا اطلع
الله منه على نقاء جيبه وطهارة ذيله وصحة سريرته واستقامة سيرته أعانه على
حفظ ما استحفظه وأنهضه بثقل ما حمله وجعل له مخلصا من الشبهة ومخرجا من
الحيرة فقد قال الله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب
وقال عز من قائل يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم
مسلمون وقال واتقوا الله وكونوا مع الصادقين الى آي كثيرة حضنا بها على
أكرم الخلق وأسلم الطرق فالسعيد من نصبها ازاء ناظره والشقي من نبذها
وراء ظهره وأشقى منهما من بعث عليها وهو صادف عنها واهاب اليها وهو
بعيد منها وله ولامثاله يقول الله تعالى ذكره أتأمرون الناس بالبر وتنسون
أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون وأمره أن يتخذ كتاب الله اماما
متبعا وطريقا متوقعا ويكثر من تلاوته اذا خلا بذكره ويملأ بتأمله أرجاء
صدره فيذهب معه فيما أباح وحظر ويقتدي به اذا نهى وأمر ويستبين
ببيانه اذا استغلقت دونه المعضلات ويستضيء بمصابيحه اذا اظلمت عليه
المشكلات فانه عروة الاسلام الوثقى ومحجته الوسطى ودليله المقنع وبرهانه
المرشد والكاشف لظلم الخطوب والشافي من مرض القلوب والهادي لمن ضل
والمتلافي لمن زل فمن نجابه فقد فاز وسلم ومن لها عنه فقد خاب وندم قال الله
تعالى وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم
حميد وأمره أن يحافظ على الصلوات ويدخل فيها في حقائق الاوقات قائما

على حدودها متبعا الرسومها جامعا فيها بين نيته ولفظه متوقعا المطامح بهوه ولحظه منقطعا اليها عن كل قاطع لها مشغولا بها عن كل شاغل عنها متثبتا فى ركوعها وسجودها مستوفيا عدد مفروضها ومسنونها موفرا عليها ذهنه صارفا اليها همه عالما بأنه واقف بين يدى خالقه ورازقه ومحييه ومميته ومعاقبه ومثيبه لاتستتر دونه خائنة الاعين وما تخفى الصدور فاذا قضاها على هذه السبيل منذ تكبيرة الاحرام الى خاتمة التسليم أتبعها بدعاء يرتفع بارتفاعها ويستمع باستماعها لايتعدى فيه مسائل الابرار ورغائب الاخيار من استصفاح واستغفار واستقالة واسترحام واستدعاء لمصالح الدين والدنيا وعوائد الآخرة والاولى فقد قال الله تعالى ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا وقال تعالى وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وأمره بالسعى فى أيام الجمع الى المساجد الجامعة وفى الاعياد الى المصليات الضاحية بعد التقدم فى فرشها وكسوتها وجمع القوام والمؤذنين والمكبرين فيها واستسعاء الناس اليها وحضهم عليها آخذين الاهبة متنظفين فى البزة مؤدين لفريضة الطهارة وبالغين فى ذلك أقصى الاستقصاء معتقدين خشية الله وخيفته مدرعين تقواه ومراقبته مكثرين من دعائه عز وجل وسؤاله مصلين على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله بقلوب على اليقين موقوفة وهمم الى الدين مصروفة وألسن بالتقديس والتسبيح فصيحة وآمال فى المغفرة والرحمة فسيحة فان هذه المصليات والمتعبدات بيوت الله الذى فضلها ومناسكه التى شرفها وفيها يتلى القرآن الكريم وتعوذ العائذون وتعبد المتعبدون وتهجد المتهجدون وحقيق على المسلمين أجمعين من وال ومولى عليه أن يصونها ويعمرها ويواصلها ولايهجرها وأن يقيم الدعوة على منابرها لامير المؤمنين ثم لنفسه على الرسم الجارى فيها قال الله تعالى فى هذه الصلاة يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع وقال فى عمارة المساجد انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين وأمره أن يراعى أحوال من يليه من طبقات جند أمير المؤمنين ومواليه ويطلق لهم الارزاق فى أوقات الوجوب والاستحقاق وأن يحسن فى معاملتهم ويجمل فى

استخدامهم ويتصرف في سياستهم بين رفق من غير ضعف وخشونة في غير عنف مثيبا لمحسنهم ما زاد بالاثابة في حسن الاثر وسلم معهما من دواعي الاشر ومتغمدا لمسيئهم ما كان التغمد له نافعا وفيه ناجعا فان تكررت زلاته وتتابعت عثراته تناولته من عقوبته ما يكون له مصلحا ولغيره واعظا وأن يختص أكابرهم وأماثلهم وأهل الرأى والخطر منهم بالمشاورة في الملم والاطلاع على بعض المهم مستخلصا لمخايل صدورهم بالبسط والادناء ومستشحذا بصائرهم بالاكرام والاجتباء فان في مشاورة هذه الطبقة استدلالا على مواقع الصواب وتنزاعا عن غلط الاستبداد وأخذا بمجامع الحزامة وأمنا من مفارقة الاستقامة وقد حض الله عز وجل على الشورى حيث قال لرسوله عليه الصلاة والسلام وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين وأمره بأن يتعهد ما يتصل بنواحيه من ثغور المسلمين ورباط المرابطين ويقسم لها قسما وافرا من عنايته ويصرف اليها طرفا بل شطرا من رعايته ويختار لها أهل الجلد والشدة وذوى البأس والنجدة ممن حمته الخطوب وعركته الحروب واكتسب دربة بخدع المتنازلين وتجربة بمكايد المتقارعين وأن يستظهر بكشف عددهم واعتبار عددهم وانتخاب خيلهم واستجادة أسلحتهم غير مجمر بعثا اذا بعثه ولا مستكرهه اذا وجهه بل يناوب بين رجاله مناوبة تريحهم ولا تعنتهم وترفههم ولا تؤدهم فان في ذلك من فائدة الاجمام والعدل في الاستخدام ونشاط ذوى النوب فيما عاد عليهم بعز الظفر والنصر وبعد الصيت والذكر واحراز النفع والاجر ما يحق أن يكون الولاة به عاملين وللناس عليه حاملين وأن يكرر في أسماعهم ويثبت في قلوبهم مواعيد الله تعالى لمن صبر ورابط وسامح بالنفس من حيث لا يقدمون على تورط عزة ولا يحجمون عن انتهاز فرصة ولا ينكصون عن تورد معركة ولا يلقون بأيديهم الى التهلكة فقد أخذ الله ذلك على خلقه والمرء أمين على دينه وأن يريح العملة فيما يحتاج اليه من راتب نفقات هذه الثغور وحادثها وبناء حصونها ومعاقلها واستطراق طرقها ومسالكها وافاضة الاقوات والعلوفة فيها للمترتبين بها والمترددين اليها والحاملين لها وأن يبذل أمانه لمن طلبه ويعرضه على من لم يطلبه ويفي بالعهد اذا عاهد وبالعقد اذا

عاقد غير مخفر ذمة ولا جارح أمانة فقد أمر الله تعالى بالوفاء فقال عز وجل يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ونهى عن النكث فقال عز من قائل فمن نكث فإنما ينكث على نفسه وأمره أن يعرض من في حبوس عمله على جرائمهم فمن كان اقراره واجبا أقره ومن كان اطلاقه سائغا أطلقه وأن ينظر في الشرطة والاحداث نظر عدل وانصاف ويختار لها من يخاف الله ويتقيه ولا يحابي ولا يراقب فيه ويتقدم اليهم بقمع الجهال وردع الضلال وتتبع الاشرار وطلب الزعار مستدلين عليهم أماكنهم متوغلين الى مكامنهم متوجلين عليهم في مظانهم متوثقين ممن يجدونه منهم منفذين أحكام الله تعالى فيهم بحسب الذي يتبين من أمرهم ويصح من فعلهم في كبيرة ارتكبوها وعظيمة احتقبوها ومهجة ان أفاظوها واستهلكوها وحرمة ان استباحوها وانتهكوها فمن استحق حدا من حدود الله المعلومة أقاموه عليه غير مخففين منه وأحلوه به غير مقصرين عنه بعد أن لا يكون عليهم في الذي يأتونه حجة ولا يعترضهم في وجوبه شبهة فان الواجب في الحدود أن تقام بالبينات وأن تدرأ بالشبهات فأولى ما توخاه رعاة الرعايا فيها أن لا يقدموا عليها مع نقصان ولا يتوقفوا عنها مع قيام الدليل ومن وجب عليه القتل احتاط بما يحتاط به على مثله من الحبس الحصين والتوثق الشديد وكتب الى أمير المؤمنين بخبره وشرح جنايته وثبوتها باقرار يكون منه أو بشهادة تقع عليه ولينتظر من جوابه ما يكون عمله بحسبه فان أمير المؤمنين لا يطلق سفك دم مسلم أو معاهد الا ما أحاط به علما وأتقنه فهما وكان ما يمضيه فيه عن بصيرة لا يخالجها اشك ولا يشوبها ريب ومن ألم بصغيرة من الصغائر ويسيرة من الجرائر من حيث لم يعرف له مثلها ولم يتقدم له أختها وعظه وزجره ونهاه وحذره واستتابه وأقاله ما لم يكن عليه خصم في ذلك يطالب بقصاص منه وجزاء له فان عاد تناوله من التقويم والتهذيب والتعزير والتاديب بما يرى أن قد كفى فيما اجترم ووفى بما قدم فقد قال الله تعالى ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون وأمره أن يعطل ما في أعماله من الحانات والمواخير ويطهرها من القبائح والمناكير ويمنع من يجمع أهل الخنا فيها ويؤلف شملهم بها فانه شمل يصلحه التشتيت وجمع يحفظه التفريق ومازالت هذه المواطن الذميمة والمطارح الدنية داعية من يأوى

اليها ويعكف عليها الى ترك الصلوات واهمال المفترضات وركوب المنكرات واقتراف المحظورات وهى بيوت الشيطان التى فى عمارتها لله معصية وفى اخرابها الخير مجلبة والله تعالى يقول لنا معشر المؤمنين كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ويقول عزمن قائل لغيرنا من المذمومين فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا وأمره أن يولى الحماية فى هذه الاعمال أهل الكفاية والعناية من الرجال وأن يضم اليهم كل من خفت ركابه وأسرع عند الصريخ مرتبا لهم فى المسالح وسادا بهم ثغر المسالك وأن يوصيهم بالتيقظ ويأخذهم بالتحفظ ويزيح عللهم فى علوفة خيلهم والمقرر من أزوادهم وميرهم حتى لا تنقل لهم عن البلاد وطأة ولا يدعوهم الى تحيفهم وثلمهم حاجة وأن يحوطوا السابلة بادئة وعائدة ويبذرقوا القوافل صادرة وواردة ويحرسوا الطريق ليلا ونهارا ويتفقدوها رواحا وغدوا وينصبوا لاهل العيث الارصاد ويكمنوا لهم بكل واد ويتفرقوا عليهم حيث يكون التفرق مضيقا لفضائهم ومؤديا الى انفضاضهم ويجتمعوا حيث يكون الاجتماع مطفئا لجمرتهم وصادعا لروقتهم ولا يخلوا هذه السبل من حماة لها وسيارة فيها يترددون فى جوادها ويتعسفون فى عواديها حتى تكون الدماء محقونة والاموال مصونة والفتن محسومة والغارات مأمونة ومن حصل فى أيديهم من لص خاتل وصعلوك خارب ومخيف لسبيل ومنتهك لحريم امتثل فى أمره أمر أمير المؤمنين الموافق لقول الله عز وجل انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم وأمره بوضع الرصد على من يجتاز فى أعماله من اباق العبيد والاحتياط عليهم وعلى ما يكون معهم والبحث عن الاماكن التى فارقوها والطرق التى استطرقوها ومواليهم الذين أنفوا منهم ونشزوا عنهم وأن يردوهم عليهم قهرا ويعيدوهم اليهم صغرا وان ينشدوا الضالة ما أمكن أن تنشد ويحفظوها على ربها ما جاز أن تحفظ ويجتنبوا الامتطاء لظهورها والانتفاع بأوبارها والبان ما يجز ويحلب وأن يعرفوا اللقطة ويتبعوا أثرها

ويشيعوا

ويشيعوا خبرها فاذا احضر صاحبها وعلم أنه مستوجبها سلمت اليه ولم يعترض فيها عليه والله عز وجل يقول ان الله يأمركم أن تؤدّوا الامانات الى أهلها ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم ضالة المؤمن حرق النار وأمره أن يوصي عماله بالشدّ على يد الحكام وتنفيذ مايصدر عنهم من الاحكام وأن يحضروا مجالسهم حضور الموقرين لها الذابين عنها المقيمين لرسوم الهيبة وحدود الطاعة فيها ومن خرج عن ذلك من ذي عقل ضعيف وحلم سخيف نالوه بما يردعه وأحلوا به ماينزعه ومتى تقاعس متقاعس عن حضور مع خصم يستدعيه بأمر يوجبه الحكم اليه أوالتوى ملتو بحق يحصل عليه ودين يستقر في ذمته قادوه الى ذلك بأزمة الصغار وخزائم الاضطرار وأن يحبسوا او يطلقوا بأقوالهم ويثبتوا الايدي في الاملاك والفروج وينزعوا بقضاياهم فانهم أمناء الله في فصل مايقضون وبث مايبثون وعن كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم يوردون ويصدرون وقد قال الله عز وجل يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب وأن يتوخى بمثل هذه المعاملة عمال الخراج في استيفاء حقوق مااستعملوا عليه واستنظاف بقاياهم فيه والرياضة لمن تسوء طاعته من معامليهم واحضارهم طائعين أو كارهين بين أيديهم فمن آداب الله تعالى للعبد الذي يحق عليه أن يتخذها ويجعلها للرضا عنه سبباً قوله تعالى وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب وأمره أن يجلس للرعية جلوساً عاماً وينظر في مظالمها نظراً تاماً يساوي في الحق بين خاصها وعامها ويوازي في المجالس بين عزيزها وذليلها وينصف المظلوم من ظالمه والمغصوب من غاصبه بعد الفحص والتأمل والبحث والتبيين حتى لا يحكم الا بعدل ولا ينطق الا بفصل ولا يثبت يداً الا فيما وجب تثبيتها فيه ولا يقبضها الا عما وجب قبضها عنه وأن يسهل الاذن لجماعتهم ويرفع الحجاب بينه وبينهم ويوليهم من حصانة الكنف ولين المنعطف والاشتمال والعناية والصون والرعاية ماتتعادل به أقسامهم وتتوازى منه أقساطهم ولا يصل الركين منهم الى استضامة ماتأخر عنه ولا ذو السلطان الى هضيمة من حلّ

دونه وأن يدعوهم الى أحسن العادات والخلائق ويحضهم على أحمد المذاهب والطرائق ويحمل عنهم كله ويمد عليهم ظله ولا يسومهم عسفا ولا يلحق بهم حيفا ولا يكلفهم شططا ولا يجشمهم مضلعا ولا يثلمهم معيشة ولا يداخلهم في جريرة ولا يأخذ بريا بسقيم ولا حاضرا بعديم فان الله عز وجل ينهى أن تزر وازرة وزر أخرى ويرفع عن هذه الرعية ما عسى أن يكون سن عليها من سنة ظالمة وسلك بها من محجة جائرة ويستقرى آثار الولاة قبله عليها فيما أجروه من خير أو شر اليها فيقر من ذلك ما طاب وحسن ويزيل ما خبث وقبح فان من غرس الخير يحظى بحلول ثمره ومن زرع الشر يصلى بمرور زيغه والله تعالى يقول والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون وأمره بأن يصون مال الخراج وأثمان الغلات ووجوه الجبايات موفرا ويزيد ذلك مثمرا بما يستعمله من الانصاف لاهلها واجرائهم على صحيح الرسوم فيها فانه مال الله الذى به قوة عباده وحماية بلاده ودرور حلبه واتصال مدده وبه يحاط الحريم ويدفع العظيم ويحمى الذمار ويذاد الاشرار وأن يجعل افتتاحه اياه بحسب ادراك اصنافه وعند حضور مواقيته وأحيانه غير متسلف شيأ قبلها ولا مؤخر الها عنها وأن يخص أهل الطاعة والسلامة بالترفيه لهم وأهل الاستصعاب والامتناع بالتشديد عليهم لئلا يقع ارهاق لمذعن أو اهمال لطامع وعلى المتولى لذلك أن يضع كلا من الامرين موضعه ويوقعه موقعه متجنبا احلال الغلظة من لا يستحقها واعطاء الفسحة من ليس أهلها والله تعالى يقول وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى وأمره أن يتخير عماله على الخراج والاعشار والضياع والجهبذة والصدقات والجوالى من أهل الظلف والنزاهة والضبط والصيانة والجزالة والشهامة وأن يستظهر مع ذلك عليهم بوصية تعيها أسماعهم وعهود يقلدها أعناقهم بأن لا يضيعوا حقا ولا يأكلوا سحتا ولا يستعملوا ظلما ولا يقارفوا غشما وأن يقيموا العمارات ويحتاطوا ويحترزوا من اتواء حق لازم أو تعطيل رسم عادل مؤدين في جميع ذلك الامانة مجتنبين للخيانة وأن يأخذوا جهابذتهم باستيفاء وزن المال على تمامه واستجادة نقده على عياره واستعمال الصحة في قبض

بما يقبضون

ما يقبضون واطلاق ما يطلقون وأن يوعزوا الى سعاة الصدقات فى أخذ الفرائض من سائمة مواشى المسلمين دون عاملتها وكذلك الواجب فيها وأن لا يجمعوا فيها متفرقا ولا يفرقوا مجتمعا ولا يدخلوا فيها خارجا عنها ولا يضيفوا اليها ما ليس منها من فحل ابل أو أكولة راع أو عقيلة مال فاذا اجتبوها على حقها واستوفوها على رسمها أخرجوها فى سبيلها وقسموها على أهلها الذين ذكرهم الله عز وجل فى كتابه العزيز الا المؤلفة قلوبهم الذين ذكرهم الله عز وجل فى كتابه الكريم وسقط سهمهم فان الله تعالى يقول انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم والى جباة أهل الذمة أن يأخذوا منهم الجزية فى المحرم من كل سنة بحسب منازلهم فى الاحوال وذات أيديهم فى الاموال وعلى الطبقات المطبقة فيها والحدود المعهودة لها وأن لا يأخذوها من النساء ولا ممن لم يبلغ الحلم من الرجال ولا من ذى سن عالية ولا ذى علة بادية ولا فقير معدم ولا مترهب متبتل وأن يراعى جماعة هؤلاء العمال مراعاة يسرها ويظهرها ويلاحظهم ملاحظة يخفيها ويبديها لئلا يزولوا عن الحق الواجب أو يعدلوا عن السنن اللاحب فقد قال الله تعالى وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤلا وأمره بأن يندب لعرض الرجال واعطائهم وحفظ جراياتهم وأوقات اطعامهم من يعرفه بالثقة فى متصرفه والامانة فيما يجرى على يده والبعد عن الاسفاف الى الدنية والاتباع للدناءة وأن يبعثه على ضبط الرجال وشيات الخيل وتجديد العرض بعد الاستحقاق وايقاع الاحتياط فى الانفاق فمن صح عرضه ولم يبق فى نفسه شئ منهم من شك يعرض له أو ريبة يتوهمها أطلق أموالهم موفورة وحصلها فى أيديهم غير مثلومة وأن يرد على بيت المال أرزاق من سقط بالوفاة والاخلال ناسبا ذلك الى جهته موردا له على حقيقته وأن يطالب الرجال باحضار الخيل المختارة والآلات المستكملة على ما توجبه مبالغ أرزاقهم وحسب منازلهم ومراتبهم فان أخر أحدهم شيئا من ذلك قاصصه به من رزقه وأغرمه مثل قيمته فان المقصر فيه خائن لأمير المؤمنين ومخالف لرب العالمين اذ يقول سبحانه وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وأمره أن

يعتمد فى أسواق الرقيق ودور الضرب والطرز والحسبة على من تجتمع فيه آلات هذه الولايات من ثقة ودراية وعلم وكتابة ومعرفة ورواية وتجربة وحنكة وحصانة وحكة فانها أحوال تضاوع الحكم وتناسبه وتدانيه وتقاربه وأن يتقدم الى ولاة أسواق الرقيق بالتحفظ فيمن يطلقون بيعه ويمضون أمره والتحرز من وقوع غلط فيه أواهمال له اذ كان ذلك عائدا بتحصين الفروج وتطهير الانساب وأن يبعدوا عنه أهل الريبة ويقربوا أهل العفة ولا يمضوا بيعا على شبهة ولا عقدا على تهمة والى ولاة العيار بتخليص عين الدرهم والدينار ليكونا مضروبين على البراءة من الغش والنزاهة من المس وبحسب الامام المقتدر بمدينة السلام وحراسة السكك من أن تتداولها الايدى المزغلة وتتناقلها الجهات المنبية واثبات اسم أمير المؤمنين على ما يضرب ذهبا وفضة واجراء ذلك على الرسم والسنة والى ولاة الطرز أن يجروا الاستعمال فى جميع المناسج على أتم النيقة وأسلم الطريقة وأحكم الصنعة وأفضل الصحة وأن يكتبوا اسم أمير المؤمنين على طرز الكسا والفرش والاعلام والبنود والى ولاة الحسبة بتصفح أحوال العوام فى حرفهم ومتاجرهم ومجتمع أسواقهم ومعاملاتهم وأن يعايروا الموازين والمكاييل ويفرزوها على التعديل والتكميل ومن اطلعوا منه على حيلة أو تلبيس أوغيلة أو تدليس أو بخس ما يوفيه واستفضال فيما يستوفيه نالوه بغليظ العقوبة وعظمها وخصوه بوجيعها وأليمها واقفين فى ذلك عند الحد الذى يرونه لذنبه مجازيا وفى تأديبه كافيا فقد قال الله تعالى ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أووزنوهم يخسرون هذا عهد أمير المؤمنين اليك وحجته عليك وقد وقفك على سواء السبيل وأرشدك الى واضح الدليل وأوسعك تعليما وتحكيما وأقنعك تفهيما وتفهيما ولم يألك جهدا فيما عصمك وعصم على يديك ولم يدخرك ممكنا فيما أصلح بك وأصلحك ولا ترك لك عذرا فى غلط تغلطه ولا طريقا الى تورط تتورطه بالقائك فى الاوامر والزواجر الى حيث يلزم الائمة أن يندبوا الناس اليه ويحثوهم عليه مقيما لك على منجيات المسالك صارفا لك عن مرديات المهالك مريدا فيك ما يسلمك فى دينك ودنياك ويعود بالحظ عليك فى آخرتك وأولاك فان اعتدلت وعدلت فقد فزت وغنمت وان تجانفت

واعوججت

وأعوججت فقد فسدت وندمت والأولى بك عند أمير المؤمنين من مغرسك الزاكى ومنبتك النامى وعودك الانجب وعنصرك الاطيب أن تكون لظنه محققا ولمخيلته فيك مصدقا وأن تستزيده بالاثر الجميل قربا وثوابا يوم الدين وزلفى عند أمير المؤمنين وثناء حسنا من المسلمين فخذ ما نبذ اليك أمير المؤمنين من معاذيره وأمسك بيدك على ما أعطى من مواثيقه واجعل عهده مثالا تحتذيه واماما تقتفيه واستعن بالله يمنك واستهده يهدك وأخلص اليه فى طاعته يخلص لك الحظ فى معونتك ومهما أشكل عليك من خطب أو أعضل عليك من صعب أو بهرك من باهر أو بهظك من باهظ فاكتب الى أمير المؤمنين منهيا وكن الى ما يرد عليك ان شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

(وأما التقليد) الذى أنشأته أنا فهو هذا أما بعد فان أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذى يكون لكل خطبة قيادا ولكل أمر مهادا ويستزيده من نعمه التى جعلت التقوى له زادا وحملته عبء الخلافة فلم يضعف عنه طوقا ولم يأل فيه اجتهادا وصغرت لديه أمر الدنيا فانسورت له محرابا ولا عرضت عليه جيادا وحققت فيه قول الله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا ثم يصلى على من أنزلت الملائكة لنصره امدادا وأسرى به الى السماء حتى ارتقى سبعا شدادا وتجلى له ربه فلم يزغ منه بصرا ولا أكذب فؤادا ثم من بعده على أسرته الطاهرة التى زكت أوراقا وأعوادا وورثت النور المتين تلادا ووصفت بأنها أحد الثقلين هداية وارشادا وخصوصا عمه العباس المدعو له بأن يحفظ نفسا وأولادا وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف دركا ولا تخشى نفادا واذا استوفى القلم مداده من هذه الجملة وأسند القول فيها عن فصاحته المرسلة فانه يأخذ فى انشاء هذا التقليد الذى جعله حليفا لقرطاسه واستدام سجوده على صفحته حتى لم يكد يرفع من راسه وليس ذلك الا لافاضته فى وصف المناقب التى كثرت فحسن لها مقام الاكثار واشتبه التطويل فيها بالاختصار وهى التى لا يفتقر واصفها الى القول المعاد ولا يستوعر سلوك أطوادها ومن العجب وجود السهل فى سلوك الاطواد وتلك مناقبك أيها الملك الناصر الاجل السيد الكبير العالم العادل المجاهد المرابط صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب والديوان العزيز يتلوها عليك

تحدثا بشكرك ويباهى بك أولياءه تنويها بذكرك ويقول أنت الذى تستكفى فتكون للدولة سهمها الصائب وشهابها الثاقب وكنزها الذى تذهب الكنوز وليس بذاهب وماضرّها وقد حضرت فى نصرتها اذا كان غيرك هو الغائب فاشكر اذا مساعيك التى أحلتك لما أحلتك وفضلتك على الاولياء بما فضلتك ولئن شوركت فى الولاء بعقيدة الاضمار فلم تشارك فى عزمك الذى انتصر للدولة فكان له بسطة الانتصار وفرق بين من أمدّ بقلبه وبين من أمدّ بيده فى درجات الامداد وما جعل الله القاعدين كالذين قالوا وأمر بنا الضر بنا أكبادها الى برك الغماد وقد كفاك من المساعى أنك كفيت الخلافة أمر منازعيها وطمست على الدعوة الكاذبة التى كانت تدّعيها ولقد مضى عليها زمن ومحراب حقها محفوف من الباطل بمحرابين ورأت ما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم من السوارين اللذين أولهما كذابين فبصر منهما واحد تاه بجرى أنهارها من تحته ودعا الناس الى عبادة طاغوته وجبته ولعب بالدين حتى لم يدر يوم جمعته من يوم أحده ولا يوم سبته وأعانه على ذلك قوم رمى الله بصائرهم بالعمى والصمم واتخذوه صنما بينهم ولم تكن الضلالة هنالك الا بعجل أو صنم فقمت أنت فى وجه باطله حتى قعد وجعلت فى جيده حبلا من مسد وقلت ليده تبت فأصبح وهو لا يسعى بقدم ولا يبطش بيد وكذلك فعلت بالآخر الذى نجمت باليمن ناجمته وسامت قيه سائمته فوضع بنية موضع الكعبة اليمانية وقال هذا ذو الخلصة الثانية فأى مقاميك يعترف الاسلام بسبقه أم أيهما يقوم بأداء حقه وههنا فليصبح القلم للسيف من الحساد وليقصر مكانته عن مكانته وقد كان له من الانداد ولم يحظ بهذه المزية الا لانه أصبح لك صاحبا وبك حتى طال فخرا على عزبانيا وقضى بولايتك فكان بها قاضيا لما كان حدّه قاضبا وقد قلدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غورا ونجدا وما اشتملت عليه رعية وجندا وما انتهت اليه أطرافها برا وبحرا وما يستنقذ من مجاوريها مسالمة وقهرا وأضاف اليها بلاد الشام وما تحتوى عليه من المدن الممدنة والمراكز المحصنة مستثنيا منها ما هو بيد نور الدين اسمعيل بن نور الدين محمود رحمه الله وهو حلب وأعمالها فقد مضى أبوه عن آثار فى الاسلام ترفع ذكره فى الذاكرين وتخلفه فى عقبه فى الغابرين وولده هذا قد هذبته الفطرة

فى القول والعمل وليست هذه الربوة الا من ذلك الجبل فليكن له منك جار يدنو منه ودادا كما دنا أرضا ويصبح وهوله كالبنيان يشد بعضه بعضا والذى قدمناه من الثناء عليك ربما تجاوز بك درجة الاقتصاد والفلك عن فضيلة الازدياد فاياك أن تنظر سعيك بالاعجاب وتقول هذه بلاد أنا افتتحتها بعد أن أضرب عنها كثير من الاضراب ولكن اعلم أن الارض لله ولرسوله ثم لخليفته من بعده ولا منة للعبد باسلامه بل المنة لله بهداية عبده وكم سلف من قبلك من لورام مارمته لدنا شاسعه وأجاب مانعه لكن ذخره الله لك لتحظى فى الآخرة بجزائه وفى الدنيا برقم طرازه فالق يدك عند هذا القول القاء التسليم وقل لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم وقد قرن تقليدك هذا بخلع تكون لك فى الاسم شعارا وفى الوسم نفارا وتناسب محل قلبك وبصرك وخير ملابس الاولياء ما ناسب قلوبا وأبصارا ومن جملتها طوق يوضع فى عنقك موضع العهد والميثاق ويشير اليك بأن الانعام قد أطاف بك اطافة الاطواق بالاعناق ثم انك خوطبت بالملك وذلك خطاب يقضى لصدرك بالانشراح ولأملك بالانفساح وتؤمر معه بعد يدك الى العليا لا بضمها الى الجناح وهذه الثلاثة المشار اليها هى التى تكمل بها أقسام السيادة وهى التى لا مزيد عليها فى الاحسان فيقال انها الحسنى وزيادة فاذا صارت اليك فانسب لها يوما يكون فى الايام كريم الانساب واجعله لها عيدا وقل هذا عيد الخلعة والتقليد والخطاب هذا ولك عند أمير المؤمنين مكانة تجعلك لديه حاضرا وأنت ناء عن الحضور وتضمن أن تكون مشتركة بينك وبين غيرك والضنة من شيم الغيور وهذه المكانة قد عرفتك نفسها وما كنت تعرفها وما نقول الا انها لك صاحبة وأنت يوسفها فاحرسها عليك حراسة تقضى بتقديمها واعمل لها فان الاعمال بخواتيمها واعلم أنك قد تقلدت أمرا تعين به نفى الملوم ولا ينفك صاحبه عن عهدة الملوم وكثيرا ما يرى حسناته يوم القيامة وهى مقتسمة بأيدى الخصوم ولا ينجو من ذلك الا من أخذ أهبة الحذار وأشفق من شهادة الاسماع والابصار وعلم أن الولاية ميزان احدى كفتيه فى الجنة والاخرى فى النار قال النبى صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر انى أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم فانظر الى هذا القول النبوى نظر من لم يخدع بحديث الحرص والآمال

ومثل الدنيا وقد سبقت اليك بهذا غيرها أليس مصيرها الى زوال والسعيد
اذا جاءته قضى بها أرب الارواح لا أرب الجسوم واتخذ منها وهى السم دواء
وقد تتخذ الادوية من السموم وما الاغتباط بما يختلف على تلاشيه المساء والصباح
وهو كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه
الرياح والله يعصم أمير المؤمنين وولاة أمره من تباعتها التى لا يستهم ولا يسوءها
وأحصاها الله عليهم ونسوها ولك أنت من هذا الدعاء حظ على قدر محلك
من العناية التى جذبت بضبعك ومحلك من الولاية التى بسطت من درعك فخذ
هذا الامر الذى تقلدته أخذ من لم يتعقبه بالنسيان وكن فى رعايته ممن اذا نامت
عيناه كان قلبه يقظان وملاك ذلك كله فى اسباغ العدل الذى جعله الله ثالث
الحديث والكتاب وأغنى بثوابه وحده عن أعمال الثواب وقد ربوا منه
بعبادة ستين عاما فى الحساب ولم يأمر به آمر الا زيد قوة فى أمره وتحصن به من
عدوه ومن دهره ثم يجاء به يوم القيامة وفى يديه كتابا أمان ويجلس على منبر
من نور عن يمين الرحمن ومع هذا فان مركبه صعب لا يستوى على ظهره الا من
أمسك عنان نفسه قبل امساك عنانه وغلبت لمة ملكه على لمة شيطانه ومن
أوكد فروضه أن يمحى السنن السيئة التى طالت مدد أيامها وينس الرعايا من
رفع ظلاماتها فلم يجعلوا أمد الاقصار ظلامها وتلك السنن هى المكوس التى
أنشأتها الهمم الحقيرة ولا غنى للايدى الغنية اذا كانت ذات نفوس فقيرة وكلما
زيدت الاموال الحاصلة منها قدرا زادها الله محقا وقد استمرت عليها العوائد
حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الواجبة فسموها حقا ولولا أن صاحبها أعظم
الناس جرما لما أغلظ فى عقابه ومثلت توبة المرأة الغامدية بمتابه وهل أشقى
من يكون السواد الاعظم له خصما ويصبح وهو مطالب بهم بما يعلم وعالم يحط به
علما وأنت مأمور بأن تأتى هذه الظلامات فتقضى على ابطالها وتطلق اسماءها فى
المحو بأفعالها حتى لا يبقى لها فى العيان صور منظورة ولا فى الالسنة أحاديث
مذكورة فاذا فعلت ذلك كنت قد أزلت عن الماضى سنة سوء سنها بداء وعن
الآتى متابعة ظلم وجده مستمرا فلو كان يجرى على مداه فبادر الى ما أمرت به
مبادرة من لم يضق به ذرعا ونظر الى الحياة الدنيا بعينه فرآها فى الآخرة متاعا
واحمد الله تعالى على أن قيض للامام هدى يقف بك على هداك ويأخذ بحجزتك

عن خطوات الشيطان الذى هو أعدى عدو له وهذه البلاد المنوطة بطاعتك تشتمل على أطراف متباعدة وتفترق فى سياستها الى أيد متساعدة ولهذا يكثر بها قضاة الاحكام وأولو تدبيرات السيوف والاقلام وكل من هؤلاء ينبغى أن يقف على باب الاختيار ويسلط عليه شاهد اعدل من أمانة الدرهم والدينار فما أضل الناس شئ كحب المال الذى فورقت من أجله الاديان وهجرت بسببه الاولاد والاخوان وكثيرا ما ترى الرجل الصائم القائم وهو عابد له عبادة الاوثان فاذا استعنت بأحد منهم على شئ من أمرك فاضرب عليه بالارصاد ولا ترض بما عرفته من مبدإ حاله فان الاحوال تنتقل بتنقل الاجساد واياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالربيع بن زياد وكذلك أومر هؤلاء على اختلاف طبقاتهم بأن يأمروا بالمعروف مواظبين وينهوا عن المنكر محاسبين ويعلموا أن ذلك من دأب حزب الله الذين جعلهم الله الغالبين وابدؤا أولا بأنفسهم فيعدلوا بها عن هواها ويأمروها بما يأمرون به سواها ولا يكونوا ممن هدى الى طريق البر وهو عنه حائد وانتصب لطلب المرضى وهو محتاج الى طبيب وعائد فما تنزل بركات السماء الاعلى من خاف مقام ربه وألزم التقوى اعمال يده ولسانه وقلبه واذا صلحت الولاة صلحت الرعية بصلاحهم وهم لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضئ كل قوم الا بمصباحهم ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم اخوانا فى الاصطحاب وجيرانا فى الاقتراب وأعوانا فى نوزع الحمل الذى يثقل على الرقاب فالمسلم أخو المسلم وان كان عليه أميرا وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كثيرا وليست الولاية لمن يستجدّ بها كثرة الضيف ويتولاها بالوطء العنيف ولكنها لمن يمال على جوانبه ويؤكل من أطايبه ولمن اذا غضب لم ير للغضب عنده أثر واذا ألحف فى سؤاله لم يلق الالحاف بخلق الضجر واذا حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم فى قسمة القول والنظر فذلك الذى يكون فى أصحاب اليمين والذى يدعى بالحفيظ العليم والقوى الامين ومن سعادة المرء أن تكون ولاته متأدبين بآدابه وجارين على نهج صوابه واذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسنات مثبتة فى كتابه وبعد هذه الوصية فان ههنا حسنة هى للحسنات كالام الولود ولطالما أغنت عن صاحبها اغناء الجنود وتيقظت

لتعمر والصدقة وقود وهي التي تسبغ لها الآلاء ولا يتخطاها البلاء
ولأمير المؤمنين بها عناية تبعثها الرحمة الموضوعة في قلبه والرغبة في المغفرة
لما تقدم وتأخر من ذنبه وتلك هي الصدقة التي فضل الله بها بعض عباده لازبة
أفضالها وجعلها سببا الى التنمية ويعوض عنها بعشر أمثالها وهو يأمرك أن
تتفقد أحوال الفقراء الذين قدرت عليهم مادة الارزاق وألبسهم التعفف
ثوب الغنى وهم في ضيق من الاملاق فأولئك أولياء الله الذين مستهم الضراء
فصبروا وكثرت الدنيا في يد غيرهم فما نظروا اليها اذ نظروا وينبغي أن يهيأ لهم
من أمرهم مرفقا ويضرب بينهم وبين الفقر موبقا وما أطلنا لك القول
في هذه الوصية الا اعلاما بأنها من المهم الذي يستقبل ولا يستدبر ويستكثر
منه ولا يستكثر وهذا يعد من جهاد النفس في بذل المال ويتلوه جهاد العدو
الكافر في مواقف القتال وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه ما تجعل السيف
في ملازمته أخا وتصول به بنفسك ان كان أحد بنفسه ضنا ومن صفاته أنه
العمل المتيقن بفضل الكرامة الذي يجري أجره بعد صاحبه الى يوم القيامة
وبه تحصن طاعة الخالق على المخلوق وكل الاعمال عاطلة اذ لا خلوق لها وهو
المختص دونها برتبة المخلوق ولولا فضله لما كان محسوبا بشطر الايمان ولما
جعل الله الجنة له ثمنا وليست لغيره من الاثمان وقد علمت أن العدو هو جارك
الأدنى والذي يلفك وتبلغه عينا وأذنا ولا تكون للاسلام نعم الجار حتى
تكون له بئس الجار ولا عذر لك في ترك جهاده بنفسك ومالك اذا قامت لغيرك
الاعذار وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مكافحا أو تطرق أرضه مناهبا
أو مصاحبا بل يريد أن تقصد البلاد التي في يده قصد المستنقذ لا قصد المغير
وأن تحكم فيها بحكم الله الذي قضاه على لسان سعد في بني قريظة والنضير
وعلى الخصوص البيت المقدس فانه تلاد الاسلام القديم وأخو البيت الحرام
في شرف التعظيم والذي توجهت اليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم
وقد أصبح وهو يشكو طول المدة في أسر رقبته وأصبحت كلمة التوحيد وهي
تشكو طول الوحشة في غربتها عنه وغربته فانهض اليه نهضة توغل
في قرحه وتبذل صعب قياده بسمحه وان كان له عام حديبية فاتبعه بعام
فتحه وهذه الاستزادة انما تكون بعد سداد ما في اليد من ثغر كان مهملا

خبثت موارده أو صنهد ما فرغت قواعده ومن أهمها ما كان حاضر البحر فانه عورة مكشوفة وخطة مخوفة والعدو قريب منه على بعده وكثيرا ما يأتيه بغتة حتى يسبق برقه رعده فينبغي أن يرتب بهذه الثغور رابطة تكثر شجعانها وتفضل أقرانها ويكون قتالها لأن تكون كلمة الله هي العليا لا لأن يرى مكانها وحينئذ يصبح كل منها له من الرجال أسوار ويعلم أهله أن بناء السيف أمنع من بناء الأحجار ومع هذا لابد لها من أسطول يكثر عدده ويقوى مدده فانه العدة التي تستعين بها على كشف الغماء والاستكثار من سبايا العبيد والاماء وجيشه أخو الجيش السليماني فذاك يسير على متن الريح وهذا على متن الماء ومن صفات خيله أنها جمعت بين العوم والمطار وتساوت أقدار خلقها على اختلاف مدة الأعمار فاذا أشرعت قيل جبال متلفعة بقطع من الغيوم واذا نظر الى أشكالها قيل انها أهلة غير أنها تهتدي في مسيرها بالنجوم ومثل هذه الخيل ينبغي أن يغالى في جيادها ويستكثر من قيادها وليؤمر عليها أمير يلقى البحر بمثله من سعة صدره ويسلك طرقه سلوك من لم تقتله بجهلها ولكن قتلها بخبره وكذلك فليكن من أفنت الأيام تجاربه وزحمتها مناكبه وممن يذل الصعب اذا هو ساسه وان لان جانبه وهذا هو الرجل يرأس على القوم فلا يعبد هزة بالرياسة وان كان في الساقة ففي الساقة أو كان في الحراسة ففي الحراسة ولقد أفلحت عصابة اعتصبت من ورائه وأيقنت بالنصر من رايته كما أيقنت بالصرم من رأيه واعلم أنه قد أخل من الجهاد بركن يقدح في عمله وهو تمامه الذي يأتي في آخره كما أن صدق النية تأتي في أوله وذلك هو قسم الغنائم فان الأيدي قد تداولته بالاجحاف وخالطت جوادها فيه بغلوها فلم ترجع بالكفاف وانه قد جعل الظلم في تعدي حدوده المحدودة وجعل الاستئثار بالمغنم من أشراط الساعة الموعودة ونحن نعوذ به أن يكون زماننا هذا زمانه وباسه شر باس ولم يستخلفنا على حفظ أركان دينه ثم نهمله اهمال مضيع ولا اهمال ناس والذي نأمرك به أن تجري هذا الأمر على المنصوص من حكمه وتبرئ ذمتك مما يكون غيرك الفائز بفوائده وأنت المطالب باثمه وفي أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية ما يغنيهم عن هذه الأكلة التي تكون غدا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما فتصفح ما سطرناه لك

تضمنه الابتداء التي هي عزائم مبرمات . بل آيات محكمات وقصب الى امير المؤمنين باقتسام كلماتها وان فات منها مجدا يبقى في عقبك اذا انسيت البيوت الى ابعقابها وهذا التقليد ينطق عليك بأنه لم يأل في الوصايا التى أوصاها وأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ثم انه قد ختم بدعوات دعا بها أمير المؤمنين عند ختامه وسأل فيها خيرة لله التى تنزل من كل أمر بمنزلة نظامه ثم قال اللهم انى أشهدك على من قلدته شهادة تكون عليه رقيبة وله حسيبة فانى لم آمره الا بأوامر الحق التى فيها موعظة وذكرى وهى لمن تبعها هدى ورحمة وبشرى واذا أخذ بها بلغ بحجته يوم يسأل عن الحجج ولم يختلج دون رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحوض فى جملة من يختلج وقيل لا حرج عليك ولا اثم اذ نجوت من ورطات الاثم والحرج والسلام (وهذا الذى ذكرته) من كلامى وكلام الصابى فى هذه التقاليد الاربعة لم أقصد به الوضع من الرجل وانما ذكرت ما ذكرته لبيان موضع الصحيح الذى يثبت على المحك ولا شك أن هذا الوصف المشار اليه فى فقر الاسجاع لم يكن مقصودا فى الزمن القديم اما لمكان عسره أولانه لم يتنبه له وكيف أضع من الصابى وعلم الكتابة قد رفعه وهو امام هذا الفن والواحد فيه وانى قد اعتبرت مكاتباته فوجدته قد أجاد فى السلطانيات كل الاجادة وأحسن كل الاحسان ولو لم يكن له سوى كتابه الذى كتبه عن عز الدولة بختيار بن بويه الى سبكتكين عند خروجه عليه ومجاهرته اياه بالعصيان لاستحق به فضيلة التقدم كيف وله من السلطانيات ما أتى فيه بكل عجيبة لكنه فى الاخوانيات مقصر وكذلك فى كتب التعازى (وعندى فيه رأى) لم يره أحد غيرى ولى فيه قول لم يقله أحد سواى وذاك أن عقل الرجل فى كتابته زائد على فصاحته وبلاغته وسأبين ذلك فأقول لينظر الناظر فى هذين التقليدين اللذين أوردتهما له فانه يرى وصايا وشروطا واستدراكات وأوامر ما بين أصل وفرع وكل وجزء وقليل وكثير ولا ترى ذلك فى كلام غيره من الكتاب الا أنه عبر عن تلك الوصايا والاوامر والشروط والاستدراكات بعبارة فى بعضها ما فيه من الضعف والركة وقد قيل ان زيادة العلم على المنطق هجنة وزيادة المنطق على العلم خدعة ومع هذا فانى أقر للرجل بالتقدم وأشهد له بالفضل (واذا فرغت) مما أردت تحقيقه فى هذا الموضع فانى أرجع الى ما كنت بصدد ذكره من الكلام

تفاخره على الصابي وتفضيله في الكتابة عليهم

على

على السجع وقد تقدم من ذلك ما تقدم وبقي ما أنا ذاكره ههنا وهو أن السجع
قد ينقسم الى ثلاثة أقسام (الاول) أن يكون الفصلان متساويين لا يزيد
أحدهما على الآخر كقوله تعالى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر
وقوله تعالى والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا
فوسطن به جمعا ألا ترى كيف جاءت هذه الفصول متساوية الاجزاء حتى كأنها
أفرغت في قالب واحد وأمثال ذلك في القرآن الكريم كثيرة وهو أشرف
السجع منزلة للاعتدال الذي فيه (القسم الثاني) أن يكون الفصل الثاني
أطول من الاول لا طولا يخرج به عن الاعتدال خروجا كثيرا فانه يقبح عند
ذلك ويستكره ويعد عيبا فمما جاء من ذلك قوله تعالى بل كذبوا بالساعة
وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا
وزفيرا واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا ألا ترى أن
الفصل الاول ثماني لفظات والفصل الثاني والثالث تسع تسع (ومن ذلك) قوله
تعالى في سورة مريم وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات
يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا وأمثال هذا في القرآن كثيرة
ويستثنى من هذا القسم ما كان من السجع على ثلاث فقرات فان الفقرتين الاوليين
يحسبان في عدة واحدة ثم تأتي الثالثة فينبغي أن تكون طويلة طولا يزيد
عليهما فاذا كانت الاولى والثانية أربع لفظات أربع لفظات تكون
الثالثة عشر لفظات أو احدى عشر مثال ذلك ما ذكرته في وصف صديق
فقلت الصديق من لم يعتض عنك بخالف ولم يعاملك معاملة حالف واذا بلغته
أذنه وشاية أقام عليها عذر سارق أو قاذف فالاولى والثانية ههنا أربع لفظات
أربع لفظات لان الاولى لم يعتض عنك بخالف والثانية ولم يعاملك معاملة حالف
وجاءت الثالثة عشر لفظات وهكذا ينبغي أن يستعمل ما كان من هذا
القبيل وان زادت الاولى والثانية عن هذه العدة فتزاد الثالثة بالحساب وكذلك
اذا نقصت الاولى والثانية عن هذه العدة فافهم ذلك وقس عليه الا أنه لا ينبغي
أن تجعله قياسا مطردا في السجعات الثلاث أين وقعت من الكلام بل نعلم
أن الجواز يعم الجانبين من التساوي في السجعات الثلاث ومن زيادة السجعة
الثالثة ألا ترى أنه قد ورد ثلاث سجعات متساويات في القرآن الكريم كقوله

تعالى وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر مخضود وطلح منضود وظل
ممدود فهذه السجعات كلها من لفظتين لفظتين ولو جعلت الثالثة منها
خمس لفظات أو ستا لما كان ذلك معيبا (القسم الثالث) أن يكون الفصل
الآخر أقصر من الاول وهو عندى عيب فاحش وسبب ذلك أن السجع يكون
قد استوفى أمده من الفصل الاول بحكم طوله ثم يجىء الفصل الثانى قصيرا
عن الاول فيكون كالشئ المبتور فيبقى الانسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء
الى غاية فيعثر دونها (واذا انتهينا الى ههنا) وبينا أقسام السجع ولبه وقشوره
فسنقول فيه قولا كليا وهو أن السجع على اختلاف أقسامه ضربان
(أحدهما) يسمى السجع القصير وهو أن تكون كل واحدة من السجعتين
مؤلفة من ألفاظ قليلة وكلما قلت الالفاظ كان أحسن لقرب الفواصل
المسجوعة من سمع السامع وهذا الضرب أوعر السجع مذهبا وأبعده
متناولا ولا يكاد استعماله يقع الا نادرا (والضرب الآخر) يسمى السجع
الطويل وهو ضد الاول لانه أسهل متناولا وانما كان القصير من السجع أوعر
مسلكا من الطويل لان المعنى اذا صيغ بألفاظ قصيرة عز مواتاة السجع فيه
لقصر تلك الالفاظ وضيق المجال فى استجلابه وأما الطويل فان الالفاظ تطول
فيه ويستجلب له السجع من حيث وليس كما يقال وكان ذلك سهلا وكل واحد
من هذين الضربين تتفاوت درجاته فى عدة ألفاظ (أما السجع القصير) فأحسنه
ما كان مؤلفا من لفظتين لفظتين كقوله تعالى والمرسلات عرفا فالعاصفات
عصفا وقوله تعالى يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز
فاهجر ومنه ما يكون مؤلفا من ثلاثة ألفاظ وأربعة وخمسة وكذلك الى
العشرة وما زاد على ذلك فهو من السجع الطويل فما جاء منه قوله تعالى والنجم
اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى وقوله تعالى
اقتربت الساعة وانشق القمر وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا
واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر (وأما السجع الطويل) فان درجاته
تتفاوت أيضا فى الطول فمنه ما يقرب من السجع القصير وهو أن يكون تأليفه
من احدى عشرة الى اثنتى عشرة لفظة وأكثره خمس عشرة لفظة كقوله تعالى
ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤس كفور ولئن أذقناه نعماء

بعد ضرّاء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى انه لفرح فخور فالاولى احدى عشرة لفظة والثانية ثلاث عشرة لفظة وكذلك قوله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم (ومن السجع الطويل) ما يكون تأليفه من العشرين لفظة فما حولها كقوله تعالى اذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الامر ولكن الله سلم انه عليم بذات الصدور واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا والى الله ترجع الامور ومن السجع الطويل أيضا ما يزيد على هذه العدة المذكورة وهو غير مضبوط (واعلم) أن التصريع فى الشعر بمنزلة السجع فى الفصلين من الكلام المنثور وفائدته فى الشعر أنه قبل كمال البيت الاول من القصيدة تعلم قافيتها وشبه البيت المصرّع بباب له مصراعان متشاكلان وقد فعل ذلك القدماء والمحدثون وفيه دلالة على سعة القدرة فى أفانين الكلام فأما اذا كثر التصريع فى القصيدة فلست أراه مختارا الا أن هذه الاصناف من التصريع والترصيع والتجنيس وغيرها انما يحسن منها فى الكلام ما قل وجرى مجرى الغرة من الوجه أو كان كالطراز من الثوب فأما اذا تواترت وكثرت فانها لا تكون مرضية لما فيها من أمارات الكلفة (وهو عندى ينقسم الى سبع مراتب) وذلك شئ لم يذكره على هذا الوجه أحد غيرى (فالمرتبة الاولى) وهى أعلى التصريع درجة أن يكون كل مصراع من البيت مستقلا بنفسه فى فهم معناه غير محتاج الى صاحبه الذى يليه ويسمى التصريع الكامل وذلك كقول امرئ القيس

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل * وان كنت قد أزمعت هجرا فأجملى

فان كل مصراع من هذا البيت مفهوم المعنى بنفسه غير محتاج الى ما يليه وعليه ورد قول المتنبي

اذا كان مدح فالنسيب المقدّم * أكل فصيح قال شعرا متيم

(المرتبة الثانية) أن يكون المصراع الاول مستقلا بنفسه غير محتاج الى الذى يليه فاذا جاء الذى يليه كان مرتبطا به كقول امرئ القيس

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل

المصراع الاول غير محتاج الى الثانى فى فهم معناه لكن لما جاء الثانى صار مرتبطا به وكذلك ورد قول أبى تمام

ألم يأن أن تروى الظماء الحوائم * وأن ينتظم الشمل المبدد ناظم

وعليه ورد قول المتنبى

الرأى قبل شجاعة الشجعان * هو أول وهى المحل الثانى

(المرتبة الثالثة) أن يكون الشاعر مخيرا فى وضع كل مصراع موضع صاحبه ويسمى التصريع الموجه وذلك كقول ابن الحجاج البغدادى

من شروط الصبوح فى المهرجان * خفة الشرب مع خلو المكان

فان هذا البيت يجعل مصراعه الاول ثانيا ومصراعه الثانى أولا وهذه المرتبة كالثانية فى الجودة (المرتبة الرابعة) أن يكون المصراع الاول غير مستقل بنفسه ولا يفهم معناه الا بالثانى ويسمى التصريع الناقص وليس بمرضى ولا حسن فمما ورد منه قول المتنبى

مغانى الشعب طيبا فى المغانى * بمنزلة الربيع من الزمان

فان المصراع الاول لا يستقل بنفسه فى فهم معناه دون أن يذكر المصراع الثانى (المرتبة الخامسة) أن يكون التصريع فى البيت بلفظة واحدة وسطا وقافية ويسمى التصريع المكرر وهو ينقسم قسمين أحدهما أقرب حالا من الآخر فالاول أن يكون بلفظة حقيقية لا مجاز فيها وهو أنزل الدرجتين كقول عبيد ابن الابرص فكل ذى غيبة يؤب * وغائب الموت لا يؤب

القسم الآخر أن يكون التصريع بلفظة مجازية يختلف المعنى فيها كقول أبى تمام فتى كان شربا للعفاة ومرتعا * فأصبح للهندية البيض مرتعا

(المرتبة السادسة) أن يذكر المصراع الاول ويكون معلقا على صفة يأتى ذكرها فى أول المصراع الثانى ويسمى التصريع المعلق فمما ورد منه قول امرئ القيس ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى * بصبح وما الاصباح منك بأمثل

فان المصراع الاول معلق على قوله بصبح وهذا معيب جدا وعليه ورد قول المتنبى

قد علم البين منا البين أجفانا * تدمى وألف فى ذا القلب أحزانا

فان المصراع الاول معلق على قوله تدمى (المرتبة السابعة) أن يكون التصريع فى البيت مخالفا لقافيته ويسمى التصريع المشطور وهو أنزل درجات

التصريع وأقبحها فمن ذلك قول أبي نواس

أقلني قد ندمت على الذنوب * وبالاقرار عدت عن الجحود

فصرّع بحرف الباء فى وسط البيت ثم قفاه بحرف الدال وهذا لا يكاد يستعمل الا قليلا نادرا (النوع الثانى فى التجنيس) اعلم أن التجنيس غرّة شادخة فى وجه الكلام وقد تصرّف العلماء من أرباب هذه الصناعة فيه فغرّبوا وشرّقوا لا سيما المحدثين منهم وصنف الناس فيه كتبا كثيرة وجعلوه أبوابا متعدّدة واختلفوا فى ذلك وأدخلوا بعض تلك الابواب فى بعض فمنهم عبد الله بن المعتز وأبو على الحاتمى والقاضى أبو الحسين الجرجانى وقدامة بن جعفر الكاتب وغيرهم وانما سمى هذا النوع من الكلام مجانسا لان حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد (وحقيقته) أن يكون اللفظ واحدا والمعنى مختلفا وعلى هذا فانه هو اللفظ المشترك وما عداه فليس من التجنيس الحقيقى فى شئ الا أنه قد خرج من ذلك ما يسمى تجنيسا وتلك تسمية بالمشابهة لا لانها دالة على حقيقة المسمى بعينه (وعلى هذا) فانى نظرت فى التجنيس وما شبه به فأجرى مجراه فوجدته ينقسم الى سبعة أقسام واحد منها يدل على حقيقة التجنيس لان لفظه واحد لا يختلف وستة أقسام مشبهة (فأمّا القسم الاوّل) فهو أن تتساوى حروف ألفاظه فى تركيبها ووزنها كقوله تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة وليس فى القرآن الكريم سوى هذه الآية فاعرفها ويروى فى الاخبار النبوية أن الصحابة نازعوا جرير بن عبد الله البجلى زمامه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلوا بين جرير والجرير أى دعوا زمامه ومما جاء منه فى الشعر قول أبى تمام

فأصبحت غرر الايام مشرقة * بالنصر تضحك عن أيامك الغرر

فالغرر الاولى استعارة من غرر الوجه والغرر الثانية مأخوذة من غرّة الشئ أكرمه فاللفظ اذا واحد والمعنى مختلف وكذلك قوله

من القوم جعد أبيض الوجه والندى * وليس بنان يجتدى منه بالجعد

فالجعد السيد والبنان الجعد ضدّ البسيط فأحدهما يوصف به السخى والآخر يوصف به البخيل وكذلك قوله

بكل فتى ضرب يعرّض للقنا * محيّى محلى حليه الطعن والضرب

فالضرب الرجل الخفيف والضرب بالسيف فى الحرب وكذلك قوله

عدا الشعر الثغور المستضامة عن * برد الثغور وعن سلسالها الحصب

فالثغور جمع ثغر وهو واحد الاسنان وهو أيضا البلد الذى على تخوم العدو ثم قال فى هذه القصيدة

كم أحرزت قضب الهندى مصلتة * تهتز من قضب تهتز فى كثب

بيض اذا انتضيت من حجبها رجعت * أحق بالبيض أبدانا من الحجب

فالقضب السيوف والقضب القدود على حكم الاستعارة وكذلك البيض السيوف والبيض النساء وهذا من النادر الذى لا يتعلق به أحد وكذلك قوله

اذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا * صدور العوالى فى صدور الكتائب

فلفظ الصدور فى هذا البيت واحد والمعنى مختلف وكذلك قوله

عامى وعام العيس بين وديقة * مسجورة وتنوفة صيهود

حتى أغادر كل يوم بالفلا * للطير عيدا من بنات العيد

فالعيد فحل من فحول الابل والعيد اليوم المعروف من الايام وقد أكثر أبو تمام من التجنيس فى شعره فمنه ما أغرب فيه فأحسن كالذى ذكرته ومنه ما أتى به كريها مستثقلا كقوله

ويوم أرشق والهيجاء قد رشقت * من المنية رشقا وابلا قصفا

وكقوله يا مضغنا خالداللك الشكل ان * خلد خلدا عليك فى خلده

وكقوله وأهل موقان اذ ماقوا فلا وزر * أنجاهم منك فى الهيجا ولا سند

وكقوله بهلا بنى مالك لا تحلتن الى * حى الاراقم دؤلول الله الرقم

(ثم قال فيها)

من الردينية اللائى اذا عسلت * تشم بؤ الصغار الانف ذا الشمم

(وكقوله)

قرت بقران عين الدين واشترت * بالاشترين عيون الشرك فاصطلما

وله من هذا الغث البارد المتكلف شئ كثير لا حاجة الى استقصائه بل قد أوردنا منه قليلا يستدل به على أمثاله (ومن الحسن) فى هذا الباب قول أبي نواس

عباس عباس اذا احتدم الوغى * والفضل فضل والربيع ربيع

(وكذلك قوله)

فقل

فقل لابي العباس ان كنت مذنبا * فأنت أحق الناس بالاخذ بالفضل
فلا تجحدوني ودّ عشرين حجة * ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل

(وعلى هذا النهج ورد قول البحترى)

اذا العين راحت وهي عين على الهوى * فليس بسرّ ما تسرّ الاضالع

فالعين الجاسوس والعين معروفة وكذلك ورد قول بعضهم

وترى سوابق دمعها فترا كفت * ساق تجاوب فوق ساق ساقا

فالساق ساق الشجرة والساق القمرى من الطيور وعلى هذا الاسلوب جاء قول بعض المتأخرين وهو الشاعر المعروف بالمعرى فى قصيدة قصد بها التجنيس فى كثير من أبياتها فمن ذلك ما أورده فى مطلعها

لو زارنا طيف ذات الخال أحيانا * ونحن فى حفر الاجداث أحيانا

(ثم قال فى ابياتها)

تقول أنت امرؤ جاف مغالطة * فقلت لا هوّنت أجفان أجفانا

(وكذا قال فى آخرها)

لم يبق غيرك انسانا يلاذ به * فلا برحت لعين الدهر انسانا

(ورأيت) الغانمى قد ذكر فى كتابه بابا وسماه ردّ الاعجاز على الصدور خارجا عن باب التجنيس وهو ضرب منه وقسم من جملة أقسامه كالذى نحن بصدد ذكره ههنا فما أورده الغانمى من الامثلة فى ذلك قول بعضهم

ونشرى بجميل الصنـ * ـع ذكرا طيب النشر
ونفرى بسيوف الهنـ * ـد من أسرف فى النفر
ويجرى فى ثرى الجد * على شاكلة البحر

(وكذلك قول بعضهم فى الشيب)

يا بياضا اذرى دموعى حتى * عاد منها سواد عينى بياضا

(وكذلك قول البحترى)

وأغر فى الزمن البهيم محجل * قد رحت منه على أغر محجل
كالهيكل المبنى الاأنه * فى الحسن جاء كصورة فى هيكل

وليس الاخذ على المعانى فى ذلك مناقشة على الاسماء وانما المناقشة على أن ينصب نفسه لايراد علم البيان وتفصيل أبوابه ويكون أحد الابواب الذى

ذكرناها داخلا فى الآخر فيذهب عليه ذلك ويخفى عنه وهو أشهر من فلق الصباح وربما جهل بعض الناس فأدخل فى التجنيس ما ليس منه نظرا الى مساواة اللفظ دون اختلاف المعنى فمن ذلك قول أبي تمام

أظن الدمع فى خدى سيبقى * رسوما من بكائى فى الرسوم

وهذا ليس من التجنيس فى شئ اذ حد التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى وهذا البيت المشار اليه هو اتفاق اللفظ والمعنى معا وهذا مما ينبغى أن ينبه عليه ليعرف ومن علماء البيان من جعل له اسما سماه به وهو الترديد أى أن اللفظة الواحدة رددت فيه وحيث نبهت عليه ههنا فلا احتاج أن أعقد له بابا أفرده بالذكر فيه (وأما الاقسام الستة) المشبهة بالتجنيس (فالقسم الاول) منها أن تكون الحروف متساوية فى تركيبها مختلفة فى وزنها فمما جاء من ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم اللهم كما حسنت خلقى حسن خلقى ألا ترى أن هاتين اللفظتين متساويتان فى التركيب مختلفتان فى الوزن لان تركيب الخلق والخلق من ثلاثة أحرف وهى الخاء واللام والقاف الا أنهما قد اختلفا فى الوزن اذ وزن الخلق فعل بفتح الفاء ووزن الخلق فعل بضم الفاء ومن هذا القسم قول بعضهم لاتنال غرر المعالى الا بركوب الغرر واهتبال الغرر وقال البحترى

وفر الحائن المغرور يرجو * أمانا أى ساعة ما أمان

يهاب الالتفات وقد تهيا * لمحظة طرفه طرف السنان

(وكذلك ورد قول الآخر)

قد ذبت بين حشاشة وذماء * ما بين حر هوى وحر هواء

(القسم الثانى) من المشبه بالتجنيس وهو أن تكون الالفاظ متساوية فى الوزن مختلفة فى التركيب بحرف واحد لاغير وان زاد على ذلك خرج من باب التجنيس (فمما) جاء منه قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فان هاتين اللفظتين على وزن واحد الا أن تركيبهما مختلف فى حرف واحد وكذلك قوله تعالى وهم ينهون عنه وينأون عنه وكذلك قوله تعالى ذلكم بما كنتم تفرحون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون وعلى نحو من هذا ورد قول النبى صلى الله عليه وسلم الخيل معقود بنواصيها الخير وقال بعضهم لاتنال المكارم الا بالمكاره وقال أبو تمام

يمدون من أيد عواص عواصم * تصول بأسياف قواض قواضب

(وقال البحترى)

من كل ساجى الطرف أغيد أجيد * ومهفهف الكشحين أحوى أحور

وكذلك قوله شواجر أرماح تقطع بينهم * شواجن أرحام ملوم قطوعها

(القسم الثالث) من المشبه بالتجنيس وهو أن تكون الالفاظ مختلفة فى الوزن والتركيب بحرف واحد كقوله تعالى والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق وقوله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وكذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم الناس من لسانه ويده (ودخل ثعلب) صاحب كتاب الفصيح على أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ومجلسه غاص فجلس الى جانبه ثم أقبل عليه وقال أخاف أن أكون ضيقت عليك على أنه لا يضيق مجلس بمتحابين ولا تسع الدنيا باسرها متباغضين فقال له أحمد الصديق لا يحاسب والعدو لا يحتسب له وهذا كلام حسن من كلا الرجلين والتجنيس فى كلام أحمد رحمه الله فى قوله يحاسب ويحتسب له (وقد جاءنى شئ من ذلك) عليه خفة الطبع لا ثقل التطبع (فنه ماذكرته) فى فصل من كتاب الى ديوان الخلافة يتضمن ذكر الجهاد فقلت وخيل الله قد اشتاقت أن يقال لها اركبى وسيوفه قد تطلعت أن يقال لها اضربى ومواطن الجهاد قد بعد عهدها باستسقاء شآبيب النحور وانبات ربيع الذباب والنسور وماذلك الا لان العدو اذا طلب تقمص ثوب اذلاله وتنصل من صحة نصاله واعتصم بمعاقله التى لا فرق بينها وبين عقاله (ومن ذلك) ماذكرته فى وصف كريم فقلت وقد جعل الله حرمه ملتقى الجفان وملتقى الاجفان فهو حمى لمن جنى عليه زمانه وجار لمن بعد عنه جيرانه (ومن ذلك) ماذكرته فى فصل من كتاب الى ديوان الخلافة وهو ولقد استبان الخادم من بركة طاعته مايعمى عنه غيره غاياراه ووجد من أثره فى صلاح دنياه مااستدل به على صلاح أخراه فهو المركب المنجى والعمل المرجو لا المرجى والمعنى المراد بهداية الصراط المستقيم وتأويل قوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم (ومن ذلك) ماذكرته فى أثناء كتاب الى بعض الاخوان وذلك وصف بعض المنعمين فقلت نحن من حسن شيمه وفواضل احسانه بين هند وهنيدة

ومن بين نقيبته وامانة غيبه بين أم معبد وأبي عبيدة (ومن ذلك) ماذكرته في مطلع كتاب الى بعض الاخوان فقلت الكتب وان عدها قوم عرضا من الاعراض وتقالوها حتى قالوا هي سواد في بياض فان لها عند الاخوان وجها وسيما ومحلا كريما وهي خاتم القلوب اذا فارق حميم حميما ومن أحسنها كتاب سيدنا ثم مضيت على هذا النهج الى آخر الكتاب (ومن هذا القسم) قول أبي تمام

أيام تدمى عينه تلك الدما * فيها وتقمر لبة الاقمار

وكذلك قوله بيض فهن اذا رمقن سوافر * صور وهن اذا رمقن صوار

وكذلك قوله بدر أطالت فيك بادرة النوى * ولعا وشمس أولعت بشماس

وكذلك قوله كادوا النبوة والهدى فتقطعت * أعناقهم في ذلك المضمار

جهلوا فلم يستكثروا من طاعة * معروفة بعمارة الاعمار

وكذلك قوله ان الرماح اذا غرسن بمشهد * فجنى العوالي في ذراه معالي

وكذلك قوله اذا أحسن الاقوام أن يتطاولوا * بلا نعمة أحسنت أن تتطولا

وكذلك قوله أي ربع يكذب الدهر عنه * وهو ملقى على طريق الليالي

بين حال جنت عليه وحول * فهو نضو الاحوال والاحوال

شد ما استنزلتك عن دمعك الأظ * عان حتى استهل صوب العزالي

أي حسن في الذاهبين تولى * وجمال على ظهور الجمال

ودلال مخيم في ذرى الخيـ * ـم وحجل معصم في الحجال

فالبيت الثاني والخامس هما المقصودان بالتمثيل ههنا والابيات الباقية جاءت تبعا ومما جاء من ذلك قول علي بن جبلة

وكم لك من يوم رفعت بناءه * بذات جفون أو بذات جفان

(وكذلك قول محمد بن وهيب الحميري)

قسمت صروف الدهر بأسا ونائلا * فمالك موتور وسيفك واتر

وهذا من المليح النادر (ومن هذا القسم) قول البحتري

جدير بأن تنشق عن ضوء وجهه * ضبابة نقع تحتها الموت ناقع

وكذلك قوله نسيم الروض في ريح شمال * وصوب المزن في راح شمول

(وذم أعرابي رجلا) فقال كان اذا سأل ألحف واذا سئل سوف يحسد على الفضل ويزهد في الافضال (القسم الرابع) من المشبه بالتجنيس

ويسمى المعكوس (وذلك ضربان) أحدهما عكس الالفاظ والآخر عكس الحروف(فالاول) كقول بعضهم عادات السادات سادات العادات وكقول الآخر شيم الاحرار أحرار الشيم ومن هذا النوع ماورد شعرا قول الاضبط ابن قريع من شعراء الجاهلية

قد يجمع المال غير آكله * ويأكل المال غير من جمعه
ويقطع الثوب غير لابسه * ويلبس الثوب غير من قطعه

(وكذلك) ورد قول أبي الطيب المتنبي

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله * ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

(وكذلك) قول الشريف الرضي من أبيات يذم فيها الزمان

اسف بمن يطير الى المعالى * وطار بمن يسف الى الدنايا

(وكذلك قول الآخر)

ان الليالى للانام مناهل * تطوى وتنشر بينها الاعمار
فقصارهن من الهموم طويلة * وطوالهن من السرور قصار

(وأحسن من هذا كله وألطفه) قول ابن الزقاق الاندلسي

غير تنايد الزمان * فقد شبت والتحى
فاستحال الضحى دجا * واستحال الدجا ضحى

وهذا الضرب من التجنيس له حلاوة وعليه رونق وقد سماه قدامة بن جعفر الكاتب التبديل وذلك اسم مناسب لمسماه لان مؤلف الكلام يأتي بما كان مقدما في جزء كلامه الاول مؤخرا في الثاني وبما كان مؤخرا في الاول مقدما في الثاني ومثله قدامة بقول بعضهم اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك (ومن هذا القسم) قوله تعالى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي (وكذلك) ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم جار الدار أحق بدار الجار (وكتب علي بن أبي طالب) رضي الله عنه الى عبد الله بن عباس رضي الله عنه كتابا فقال أما بعد فان الانسان يسره درك مالم يكن ليفوته ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه فلا تكن بما نالك من دنياك فرحا ولا بما فاتك منها ترحا ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة بطول أمل وكان قد والسلام (وروى عن أبي تمام) أنه لما قصد عبد الله بن طاهر بن الحسين بخراسان وامتدحه بقصيدته

المشهورة التي مطلعها * أهن عوادي يوسف وصواحبه * أنكر عليه أبو سعيد الضرير وأبو العميثل هذا الابتداء وقالا لم لا يقول ما يفهم فقال لم لا يفهمان ما يقال فاستحسن منه هذا الجواب على الفور وهو من التجنيس المشار اليه (وقد جاء فى شئ منه) كقولى فى فصل من كتاب يتضمن فتحا وهو فكم كان فى اقتراع عذرة الحصن من افتراع عذرة حصان وكم حيز به من سنان لحظ استرقه لحظ سنان (وكذلك) قولى فى صدر كتاب الى ديوان الخلافة وهو الخادم يبلغ خدمته الى ذلك الجناب التى تمطره الشفاه قبلا وتوسعه العفاة املا وترى الخول به ملوكا والملوك خولا وطاعته هى محك الاعمال التى أشير اليها بقوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا (وكذلك) ورد قولى أيضا وهو فصل من تقليد وزير فقلت وقد صدق الله لهجة المثنى عليك أن يقول انك الرجل الذى تضرب به الامثال والمهذب الذى لا يقال معه أى الرجال واذا وازرت مملكة فقد حظيت منك بشد أزرها وسد ثغرها وأصبحت وأنت صدر لقلبها وقلب لصدرها فهى مزدانة منك بالفضل المتين معانة بالقوى الامين (وأما الضرب الثانى) من هذا القسم وهو عكس الحروف فهو كقول بعضهم

أهديت شيأ يقل لولا * أحدوثة الفال والتبرك
كرسى تفاءلت فيه لما * رأيت مقلوبه يسرك

(وكذلك قول الآخر)

كيف السرور باقبال وآخره * اذا تأملته مقلوب اقبال

(وأجود من هذا كله) قول الآخر

جاذبتها والريح تجذب عقربا * من فوق خد مثل قلب العقرب
وطفقت ألثم ثغرها فتمنعت * وتحجبت عنى بقلب العقرب

واذا قلب لفظ عقرب صار برقعا وهذا الضرب نادر الاستعمال لانه قل ما يقع كلمة تقلب حروفها فيجىء معناها صوابا (القسم الخامس) من المشبه بالتجنيس ويسمى المجنب وذلك أن يجمع مؤلف الكلام بين كلمتين احداهما كالتبع للاخرى والجنيبة لها كقول بعضهم

أبا العباس لا تحسب بأنى * لشئ من حلى الاشعار عارى
فلى طبع كسلسال معين * زلال من ذرا الاحجار جارى

وهذا

وهذا القسم عندى فيه نظر لانه بلزوم ما لا يلزم أولى منه بالتجنيس ألا ترى أن التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى وههنا لم يتفق الاجزاء من اللفظ وهو أقله وأما اللزوم فى الكلام المنثور فهو تساوى الحروف التى قبل الفواصل المسجوعة وهذا هو كذلك لان العين والراء تساويا فى البيت الاول فى قوله الاشعار وعار والجيم والراء فى البيت الثانى فى قوله الاحجار وجار (القسم السادس) من المشبه بالتجنيس وهو ما يساوى وزنه تركيبه غير أن حروفه تتقدم وتتأخر وذلك كقول أبى تمام

بيض الصفائح لا سود الصحائف فى * متونهن جلاء الشك والريب

فالصفائح والصحائف مما تقدمت حروفه وتأخرت وقد ورد فى الكلام المنثور كقوله صلى الله عليه وسلم فى فضيلة تلاوة القرآن الكريم يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرأ فقوله صلى الله عليه وسلم اقرأ وارق من التجنيس المشار اليه فى هذا القسم

الترصيع

(النوع الثالث فى الترصيع) وهو مأخوذ من ترصيع العقد وذلك أن يكون فى أحد جانبى العقد من اللآلئ مثل ما فى الجانب الآخر وكذلك نجعل هذا فى الالفاظ المنثورة من الاسجاع وهو أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الاول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثانى فى الوزن والقافية وهذا لا يوجد فى كتاب الله تعالى لما هو عليه من زيادة التكلف فأما قول من ذهب الى أن فى كتاب الله منه شيأ ومثله بقوله تعالى ان الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم فليس الامر كما وقع له فان لفظة لفى قد وردت فى الفقرتين معا وهذا يخالف شرط الترصيع الذى شرطناه لكنه قريب منه وأما الشعر فانى كنت أقول انه لا يتزن على هذه الشريطة ولم أجده فى اشعار العرب لما فيه من تعمق الصنعة وتعسف الكلفة واذا جىء به فى الشعر لم يكن عليه محض الطلاوة التى تكون اذا جىء به فى الكلام المنثور ثم انى عثرت عليه فى شعر المحدثين ولكنه قليل جدا فمن ذلك قول بعضهم

فمكارم أوليتها متبرعا * وجرائم ألغيتها متورعا

فمكارم بازاء جرائم وأوليتها بازاء ألغيتها ومتبرعا بازاء متورعا وقد أجاز بعضهم أن يكون أحد ألفاظ الفصل الاول مخالفا لما يقابله من الفصل الثانى وهذا

الذي يكون لمخالفته حقيقة الترصيع (فمما جاء من هذا النوع) منثورا قول الحريري في مقاماته. فهو يطبع الاسجاع بجواهر لفظه ويقرع الاسماع بزواجر وعظه فانه جعل ألفاظ الفصل الاول مساوية لالفاظ الفصل الثاني وزنا وقافية فجعل يطبع بازاء يقرع والاسجاع بازاء الاسماع وجواهر بازاء زواجر ولفظه بازاء وعظه (ومما جاء لي في هذا النوع) ما ذكرته في جواب كتاب الى بعض الاخوان وهو قد أعدت الجواب ولم أستعر له ألفاظا ملهوقا ولا جلبت اليه حسنا منمقا بل أخرجته على رسله وغنيت به قال حسنه عن صقله فجاء كما تراه غير مشوط ولا مخطوط فهو يرفل في أثواب بذلته وقد حوى الجمال بجملته والحسن ما وشته فطرة التصوير لا ما حشته فكرة التزوير والترصيع في قولي وشته فطرة التصوير وحشته فكرة التزوير وكذلك ورد قولي في فصل من الكلام يتضمن تثقيف الاولاد فقلت من قوم أود أولاده ضرم كمد حساده. فهذه الالفاظ متكافئة في ترصيعها فقوم بازاء ضرم وأود بازاء كمد وأولاده بازاء حساده وكذلك قول بعضهم في الامثال المولدة التي لم ترد عن العرب وهو من أطاع غضبه أضاع ادبه فأطاع بازاء أضاع وغضبه بازاء أدبه * وقد ورد هذا الضرب كثيرا في الخطب التي أنشأها الشيخ الخطيب عبد الرحيم بن نباتة رحمه الله (فمن ذلك) قوله في أول خطبة الحمد لله عاقد أزمة الامور بعزائم أمره وحاصد أئمة الغرور بقواصم مكره وموفق عبيده لمغانم ذكره ومحقق مواعيده بلوازم شكره فالالفاظ التي جاءت في الفصلين الاولين متساوية وزنا وقافية والتي جاءت في الفصلين الآخرين فيها تخالف في الوزن فان مواعيده تخالف وزن عبيده ولا تخالف قافيتها التي هي الدال (ومن ذلك) قوله أيضا في جملة خطبة أولئك الذين أقلوا فتجمتم ورحلوا فأقمتم وأبادهم الموت كما علمتم وأنتم الطامعون في البقاء بعدهم كما زعمتم كلا والله ما أشخصوا لتقروا ولا نغصوا لتسروا ولا بد أن تمروا حيث مروا فلا تثقوا بخدع الدنيا ولا تغتروا وهذا الكلام فيه أيضا ما في الذي قبله من صحة الوزن والقافية وصحة القافية دون الوزن (وكذلك) قوله أيضا في خطبة أخرى أيها الناس أسيموا القلوب في رياض الحكم وأديموا النحيب على ابيضاض اللمم وأطيلوا الاعتبار بانتقاص النعم وأجيلوا الافكار في انقراض

الامم (وأماماورد فى الشعر) على مخالفة بعض الالفاظ بعضا فكقول ذى الرمة

كحلاء فى برج صفراء فى عج * كأنها فضة قد مسها ذهب

وصدر هذا البيت مرصع وعجزه خال من الترصيع وعذر الشاعر فى ذلك واضح لانه مقيد بالوقوف مع الوزن والقافية ألا ترى أن ذا الرمة بنى قصيدته على حرف الباء ولو رصع هذا البيت الترصيع الحقيقى لكان يلزمه أن يأتى بألفاظه على حرفين أحدهما الباء أو كان يقسم البيت نصفين و يماثل بين ألفاظ هذا النصف وهذا النصف وذلك مما يعسر وقوعه فى الشعر وأرباب هذه الصناعة قد قسموا الترصيع الى هذين القسمين المذكورين وهذه القسمة لا أراها صوابا لان حقيقة الترصيع موجودة فى القسم الاول دون الثانى (ومما جاء) من هذا القسم الثانى قول الخنساء

حامى الحقيقة محمود الخليقة * مهدى الطريقة نفاع وضرار

(وكذلك قول الآخر)

سود ذوائبها بيض ترائبها * محض ضرائبها صيغت من الكرم

(النوع الرابع فى لزوم مالا يلزم) وهو من أشق هذه الصناعة مذهبا وأبعدها مسلكا وذلك لان مؤلفه يلتزم مالا يلزمه فان اللازم فى هذا الموضع وما جرى مجراه انما هو السجع الذى هو تساوى أجزاء الفواصل من الكلام المنثور فى قوافيها وهذا فيه زيادة على ذلك وهو أن تكون الحروف التى قبل الفاصلة حرفا واحدا وهو فى الشعر أن تتساوى الحروف التى قبل روى الابيات الشعرية وقد جمع أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان فى ذلك كتابا وسماه كتاب اللزوم فأتى فيه بالجيد الذى يحمد والردىء الذى يذم وسأذكر فى كتابى هذا فى هذا الموضع أمثلة من المنثور والمنظوم يهتدى بها (فمن ذلك) ماذكرته فى جملة كتاب فى فصل يتضمن ذم جبان فقلت اذا نزل به خطب ملكه الفرق واذا ضل فى أمر لم يؤمن الا اذا أدركه الغرق (ومن ذلك) ماذكرته فى مبدإ كتاب الى بعض الاخوان فقلت الخادم يهدى من دعائه وثنائه مايسلك أحدهما سماء والآخر أرضا ويصون أحدهما نفسا والآخر عرضا وأعجب مافيهما أنهما توأمان غير أن هذا مستنتج من ضمير القلب وهذا من نطق اللسان فاللزوم ههنا فى الراء والضاد (وكذلك) ورد قولى فى جملة كتاب الى ديوان الخلافة

لزوم مالا يلزم

بحيث يعلم من شيم الديوان العزيز أنه يسر بامتداد الايدى الى بابه واذا أغب أحدها في المسئلة نهاه عن اغبابه حتى لا يخلو حرمه الكريم من المطاف ولا يده الكريمة من الاسعاف فاللزوم ههنا في لفظتي بابه واغبابه (ومن ذلك) ما كتبته في جملة كتاب الى ديوان الخلافة أيضا وهو ومما شد به عضد الخادم من الانعام فانه قوة لليد التي خولته ولا يقوى تصعد السحب الا بكثرة غيثها الذي أنزلته وغير خاف أن عبيد الدولة لها كالعمد من طرافها ومركز الدائرة من أطرافها ولا يؤيد السيف الا بقائمه ولا ينهض الجناح الا بقوادمه فاللزوم في هذا الموضع في الراء والفاء في قولي طرافها وأطرافها (ومن ذلك) ما كتبته في صدر كتاب الى الملك الافضل على بن يوسف أهنيه بملك مصر في سنة خمس وتسعين وخمسمائة فقلت المملوك يهنى مولانا بنعمة الله المؤذنة باستخلاصه واحتبائه وتمكينه حتى بلغ أشده واستخرج كنز آبائه ولو أنصف لهنى الارض منه بوابلها والامة بكافلها وخصوصا أرض مصر التي خصت بشرف سكناه وغدت بين بحرين من فيض البحر وفيض يمناه وكل هذه الفصول المذكورة من هذه المكتوبات التي انشأتها لا كلفة على كلمات اللزوم فيها (وقرأت في كتاب الاغاني) لابي الفرج أن لقيط بن زرارة تزوج بنت قيس بن خالد بن ذي الجدين فخظيت عنده وحظي عندها ثم قتل فآمت بعده وتزوجت زوجا غيره فكانت كثيرا ما تذكر لقيطا فلامها على ذلك فقالت انه خرج في يوم دجن وقد تطيب وشرب فطرد البقر فصرع منها ثم أتاني وبه نضح دم فضمني ضمة وشمني شمة فليتني مت ثمة فلم أر منظرا كان أحسن من لقيط فقولها ضمني ضمة وشمني شمة فليتني مت ثمة من الكلام الحلو في باب اللزوم ولا كلفة عليه وهكذا فليكن فان الكلفة وحشة تذهب برونق الصنعة وما ينبغي لمؤلف الكلام أن يستعمل هذا النوع حتى يجيء به متكلفا ومثاله في هذا المقام كمن أخذ موضوعا رديئا فأجاد فيه صنعته فانه يكون عند ذلك قد راعى الفرع وأهمل الاصل فأضاع جودة الصنعة في رداءة الموضوع (وقد سلك ذلك) أبو العلاء المعرى أحمد بن عبد الله بن سليمان فمما جاء من ذلك قوله في حرف التاء مع الخاء

بنت عن الدنيا ولا بنت لى * فيها ولا عرس ولا أختٌ

وقد تحملت من الوزراء * تعجز أن تحمله الجثث
ان مدحونى ساءنى مدحهم * وخلت أنى فى الثرى سحت

(وله من ذلك الجيد كقوله)

لا تطلبن بآلة لك حاجة * قلم البليغ بغير جد مغزل
سكن السماكان السماء كلاهما * هذا له رمح وهذا أعزل

وهذا بين الاسترسال وبين الكلفة وأما ما تكلف له تكلفا ظاهرا وان أجاد فقوله

تنازع فى الدنيا سواك وما له * ولا لك شئ فى الحقيقة فيها
ولكنها ملك لرب مقدر * يصير جنوب الارض مرتدفيها
ولم تحظ من ذاك النزاع بطائل * من الامر الا أن تعد سفيها
فيانفس لا تعظم عليك خطوبها * فتغدو وها مثل مختلفيها
تداعوا الى النزر القليل فجالدوا * عليه وخلوها لمغترفيها
وما أم صل أو حليلة ضيغم * بأظلم من دنياك فاعترفيها
تلاقى الوفود القادميها بفرحة * وتبكى على آثار منصرفيها
وما هى الا شوكة ليس عندها * وجدك أرطاب لمخترفيها
كما نبذت للطير والوحش رازم * فألقت شرورا بين مختطفيها
بيان عن الانصاف من ضيم لم يجد * سبيلا الى غايات منتصفيها
فأطبق فاءنها وكفاو مقلة * وقل لغوى الناس قالك لفيها

(ومن ذلك)

أرى الدنيا وما وصفت ببر * اذا اغنت فقيرا أرهقته
اذا خشيت لشر عجلته * وان رجيت لخير عوقته
حباة كالحبالة ذات مكر * ونفس المرء صيد اأعلقته
فلا يخدع بحيلتها أريب * وان هى سورته ونطقته
أذاقته شهيا من جناها * وصدت فاه عما ذوقته

وقد ورد للعرب شئ من ذلك الا أنه قليل فما جاء منه قول بعضهم فى أبيات الحماسة

ان التى زعمت فؤادك ملها * خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها * بلباقة فأدقها وأجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبى * ما كان أكثرها لنا وأقلها

وإذا وجدت لها وساوس سلوة * شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها

وهذا من اللطافة على ما يشهد لنفسه (ومما يجرى هذا المجرى) قول جحر بن حية العبسي من شعراء الحماسة أيضا

ولا أدوم قدرى بعد ما نضجت * بخلا لتمنع ما فيها أثافيها
حتى تقسم شتى بين ما وسعت * ولا يؤنب تحت الليل عافيها

ومما ورد من ذلك أيضا قول طرفة بن العبد البكرى

ألم تر أن المال يكسب أهله * فضوحا اذا لم يعط منه نوائبه
أرى كل مال لا محالة ذاهبا * وأفضله ما ورث الحمد كاسبه

(وكذلك قول الفرزدق)

وغير لون راحلتى ولونى * تردّى الهواجر واعتمامى
أقول لها اذا ضجرت وعضت * بموركة الورالك مع الزمام
علام تلفتين وأنت تحتى * وخير الناس كلهم أمامى

(وكذلك قوله أيضا)

منع الحياة من الرجال ونفعها * حدق تقلبها النساء مراض
وكأن أفئدة الرجال اذا رأوا * حدق النساء لنبلها أغراض

واذا شئت أن تعلم مقادير الكلام وكان لك ذوق صحيح فانظر الى هذا الضرب فى كلامه السهل الذى كأنه ماء جار وانظر الى ما أوردته لابى العلاء المعرى فان أثر الكلفة عليه باد ظاهر (وممن) قصد من العرب قصيده كله على اللزوم كثير عزة وهى القصيدة التى أولها

خليلى هذا ربع عزة فاعقلا * قلوصيكما ثم احللا حيث حلت

وهذه القصيدة تزيد على عشرين بيتا وهى مع ذلك سهلة لينة تكاد تترقرق من لينها وسهولتها وليس عليها من أثر الكلفة شئ ولولا خوف الاطالة لأوردتها بجملتها وقد ذكر بعضهم من هذا النوع ما ورد فى أبيات الحماسة وهو

وعيشة ليست كهذى العيش * قد ملئت من ترف وطيش
اذا بدت قلت أمير الجيش * من ذاقها يعرف طعم العيش

(وهذا) ليس من باب اللزوم لان اللزوم هو أن يلتزم الناظم والناثر ما لا يلزمه كقولنا شرق وفرق مثلا فانه لو قيل بدلا من ذلك شرق وحنق لجاز ذلك وفى

هذه الابيات لا يقع الامر كذلك لانه لو قيل طيش وعرش لما جاز وهذا يقال له الردف فى الشعر وهو الياء والواو قبل حرف الروىّ واذا جى مبذلك فى الشعر وفى الكلام المنثور لا يقال انه التزام مالا يلزم لانّ الملتزم مالا يلزم له مندوحة فى العدول الى غيره وههنا لا مندوحة (ومن لطيف ذلك) ماروى لامرأة من البصرة مجنت بأبى نواس فقالت

ان حرى حزنبل حزابيه * اذا قعدت فوقه نبا بيه

* كالارنب الجاثم فوق الرابيه *

(وكذلك ورد قول أبى تمام وهو)

خدم العلا لخدمنه وهى التى * لا تخدم الاقوام مالم تخدم

فاذا ارتقى فى قلة من سودد * قالت له الاخرى بلغت تقدم

(وعلى هذا الاسلوب قوله أيضا)

ولو جزيتنى لو جدت خرقا * يصانى الاكرمين ولا يصادى

جديرا أن يكز الطرف شزرا * الى بعض الموارد وهو صادى

(وله من أبيات تتضمن مرثية)

لقد جمعت عنابة وزهيرة * وثعلبة أخرى الليالى ووائله

ومبتدر المعروف تسرى هباته * اليهم ولا تسرى اليهم غوائله

طواه الردى طىّ الرداء وغيبت * فضائله عن قومه وفواضله

طوى شيما كانت تروح وتغتدى * وسائل من أعيت عليه وسائله

فيا عارضا للعرف أقلع حزنه * ويا واديا للجود جفت مسايله

ألم ترنى أنزفت عينى على أبى * محمد النجم المشرّق آفله

وأخلعتها فيه كما لو أتيته * طريد الليالى اخلصتنى نوافله

وهذا من أحسن ما يجىء فى هذا الباب وليس بمتكلف كشعر أبى العلاء فانّ حسن هذا مطبوع وحسن ذاك مصنوع وكذلك أقول فى غير اللزوم من الانواع المذكورة أولا فانّ الالفاظ اذا صدرت فيها عن سهولة خاطر وسلاسة طبع وكانت غير مستجلبة ولا متكلفة جاءت غير محتاجة الى التأنق ولا شك أن صورة الخلقة غير صورة التخلق (فان قيل) ما الفرق بين المتكلف من هذه الانواع وغير المتكلف (قلت فى الجواب) أمّا المتكلف فهو الذى يأتى بالفكرة والروية وذلك

باب خفى المطابق بلطف تنبه او ينبهت على تنبيه والتماس أثره وغيرا المتكلف بالفنسترتساس ذلك كله وهو أن يكون الشاعر في نظم قصيدته أو الخطيب أو الكاتب في انشاء خطبته أو كتابته فبيناهو كذلك اذ سنح له نوع من هذه الانواع بالاتفاق لابالسعى والطلب ألا ترى الى قول أبي نواس في مثل هذا الموضع

اترك الاطلال لاتعبأ بها * انها من كل بؤس دانيه
وانعت الراح على تحريمها * انما دنياك دار فانيه
من عقار من رآها قال لى * صيدت الشمس لنا في آنيه

(وعلى هذه السهولة واللطافة ورد قوله أيضا)

كم من غلام ذى تحاسين * أفسده ناطف ياسين

وهذا ياسين كان يبيع الناطف ببغداد (وحكى ابراهيم البندنيجى) قال رأيت شيخا ضعيفا يبيع ناطفا فقلت له ياشيخ أما زلت في هذه الصناعة قال منذ كنت ولكن الحال كانت واسعة والسلعة نافقة وكنت ممن يشار اليه حتى قال أبو نواس فيّ وأنشد هذا البيت فانظر أيها المتأمل ما أحلى لفظ أبي نواس في لزومه وما أعراه عن الكلفة وكذلك فلتكن الالفاظ في اللزوم وغيره (واعلم) أنه اذا صغرت الكلمة الاخيرة من الشعر أو من فواصل الكلام المنثور فان ذلك ملحق باللزوم ويكون التصغير عوضا عن تساوى الحروف التى قبل روى الابيات الشعرية والحروف التى قبل الفاصلة من النثر (فمن ذلك) قول بعضهم

عزعلى ليلى بذى سدير * سوء مبيتى ليلة الغمير
مقبضا نفسى في طمير * تنتهز الرعدة في ظهير
يهفو الى الزور من صدير * ظمآن في ريح وفي مطير
وازرق الآيس بالغرير * من لدما ظهر الى سحير
حتى بدت لى جبهة القمير * لاربع خلون من شهير

وهذا من محاسن الصنعة في هذا الباب فاعرفه وأحسن منه ما ورد عن أبي نواس وعن عنان جارية النطاف وله معها حكايات كثيرة غير هذه فقال أبو نواس

أما ترثى لصب * بكفيه منك قطيره

فقالت عنان

اياى تعنى بهذا * عليك فاجلد عميره

فقال أبو نواس

أخاف ان رمت هذا * على يدى منك غيره

فالبيتان الاول والثانى من هذا الباب والثالث جاء تبعا وقد ورد فى القرآن الكريم شئ من اللزوم الا انه يسير جدا (فمن ذلك) قوله تعالى اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق وقوله تعالى والطور وكتاب مسطور وكذلك ورد قوله تعالى فى هذه السورة فذكر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون وربما وقع بعض الجهال فى هذا الموضع فأدخل فيه ما ليس منه كقوله تعالى ان المتقين فى جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم وهذا لا يدخل فى باب اللزوم لان الاصل فيه نعيم وجحيم والياء هى من حروف المد واللين فلا يعتد بها ههنا (ومن هذا الباب) قوله تعالى وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر مخضود وطلح منضود وكذلك ورد قوله تعالى وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما تعملون بصير وان تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير (وعلى هذا الاسلوب) جاء قوله تعالى فى قصة ابراهيم عليه السلام يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا وعلى نحو هذا جاء قوله تعالى قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد قال لا تختصموا لدى وقد قدمت اليكم بالوعيد ولا تجد أمثال ذلك فى القرآن الا قليلا (النوع الخامس فى الموازنة) وهى أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية فى الوزن وأن يكون صدر البيت الشعرى وعجزه متساوى الالفاظ وزنا وللكلام بذلك طلاوة ورونق وسببه الاعتدال لانه مطلوب فى جميع الاشياء واذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان وهذا لا مراء فيه لوضوحه وهذا النوع من الكلام هو أخو السجع فى المعادلة دون المماثلة لان فى السجع اعتدالا وزيادة على الاعتدال وهى تماثل أجزاء الفواصل لورودها على حرف واحد وأما الموازنة ففيها الاعتدال الموجود فى السجع ولا تماثل فى فواصلها فيقال اذا كل سجع موازنة وليس كل موازنة سجعا وعلى هذا فالسجع أخص من الموازنة (فمما جاء منها) قوله تعالى وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم فالمستبين والمستقيم على وزن واحد وكذلك

الموازنة

قوله تعالى فى سورة مريم عليها السلام واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا وكذلك قوله تعالى فى سورة طه من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة حم عسق والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا ان الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم وان الظالمين لهم عذاب أليم ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير وهذه الآيات جميعها على وزن واحد فان شديد وقريب وبعيد وعزيز ونصيب وأليم وكبير كل ذلك على وزن فعيل وان اختلف حروف المقاطع التى هى فواصلها وأمثال هذا فى القرآن كثير بل معظم آياته جارية على هذا النهج حتى انه لا تخلوا منه سورة من السور ولقد تصفحته فوجدته لا يكاد يخرج منه شئ عن السجع والموازنة (وأما ما جاء) من هذا النوع شعرا فقول ربيعة بن ذؤابة

ان يقتلوك فقد ثللت عروشهم * بعتيبة بن الحرث بن شهاب
بأشدهم بأسا على أصحابه * وأعزهم فقدا على الاصحاب

فالبيت الثانى هو المختص بالموازنة فان بأسا وفقدا على وزن واحد (النوع السادس فى اختلاف صيغ الالفاظ واتفاقها) وهو من هذه الصناعة بمنزلة علية ومكانة شريفة وجل الالفاظ اللفظية منوطة به ولقد لقيت جماعة من مدعى فن الفصاحة وفاوضتهم وفاوضونى وسألتهم وسألونى فما وجدت أحدا منهم يتقن معرفة هذا الموضع كما ينبغى وقد استخرجت فيه أشياء لم أسبق اليها وسيأتى

ذكرها

ذكرها ههنا (أما اختلاف صيغ الالفاظ) فانها اذا نقلت من هيئة الى هيئة كنقلها مثلا من وزن من الاوزان الى وزن آخر وان كانت اللفظة واحدة أو كنقلها من صيغة الاسم الى صيغة الفعل أو من صيغة الفعل الى صيغة الاسم أو كنقلها من الماضي الى المستقبل أو من المستقبل الى الماضي أو من الواحد الى التثنية أو الى الجمع أو الى النسب أو الى غير ذلك انتقل قبحها صار حسنا وحسنها صار قبحا (فمن ذلك) لفظة خود فانها عبارة عن المرأة الناعمة واذا نقلت الى صيغة الفعل قيل خوّد على وزن فعّل بتشديد العين ومعناها أسرع يقال خوّد البعير اذا أسرع فهي على صيغة الاسم حسنة رائقة وقد وردت في النظم والنثر كثيرا واذا جاءت على صيغة الفعل لم تكن حسنة كقول أبي تمام

وإلى بني عبد الكريم تواهقت * رتك النعام رأى الظلام فخوّدا

وهذا يقاس عليه أشباهه وأنظاره الا أن هذه اللفظة التي هي خوّد قد نقلت عن الحقيقة الى المجاز فخف عنها ذلك القبح قليلا كقول بعض شعراء الحماسة

أقول لنفسي حين خوّد رألها * رويدك لما تشفقي حين مشفق

رويدك حتى تنظري عمّ تنجلي * غيابة هذا البارق المتألق

والرأل النعام والمراد به ههنا أن نفسه فرّت وفزعت وشبه ذلك باسراع النعام في فراره وفزعه ولما أورده على حكم المجاز خف بعض القبح الذي على لفظة خوّد وهذا يدرك بالذوق الصحيح ولا خفاء بما بين هذه اللفظة في ايرادها ههنا وايرادها في بيت أبي تمام فانها وردت في بيت أبي تمام قبيحة سمجة ووردت ههنا بين بين (ومن هذا النوع) لفظة ودع وهي فعل ماض ثلاثي لا ثقل بها على اللسان ومع ذلك فلا تستعمل على صيغتها الماضية الا جاءت غير مستحسنة ولكنها تستعمل مستقبلة وعلى صيغة الامر فتجيء حسنة أما الامر فكقوله تعالى فدعهم يخوضوا ويلعبوا ولم تأت في القرآن الكريم الا على هذه الصيغة وأما كونها مستقبلة فكقول النبي صلى الله عليه وسلم وقد واصل في شهر رمضان فواصل معه قوم لو مدّ لنا الشهر لواصلنا وصالا لا يدع له المتعمقون تعمقهم وقال أبو الطيب المتنبي

يشقكم بفتاها كل سلهبة * والضرب يأخذ منكم فوق ما يدع

وأما الماضي من هذه اللفظة فلم يستعمل الا شاذا ولا حسن له كقول أبي

قوله فدعهم الخ لا وجه لقصره ولو قال ودع أذاهم لأصاب اهـ

أثروا فلم يدخلوا قبورهم * شيأ من الثروة التى جمعوا
وكان ما قدموا لأنفسهم * أعظم نفعا من الذى ودعوا

وهذا غير حسن فى الاستعمال ولا عليه من الطلاوة شئ وهذه لفظة واحدة لم يتغير من حالها شئ سوى أنها نقلت من الماضى الى المستقبل لا غير وكذلك لفظة وذر فانها لا تستعمل ماضية وتستعمل على صيغة الامر كقوله تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا وتستعمل مستقبلة أيضا كقوله تعالى سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقى ولا تذر فهى لم ترد فى القرآن الا على هاتين الصيغتين وكذلك فى فصيح الكلام غير القرآن وأما اذا جاءت على صيغة الماضى فانها لا تستعمل وهى أقبح من لفظة ودع لان لفظة ودع قد استعملت ماضية وهذه لم تستعمل وههنا فلينعم الخائضون فى هذا الفن نظرهم و يعلموا أن فى الزوايا خبايا واذا أنعموا الفكر فى أسرار الالفاظ عند الاستعمال وأغرقوا فى الاعتبار والكشف وجدوا غرائب وعجائب (ومن هذا النوع) لفظة الاخدع فانها وردت فى بيتين من الشعر وهى فى أحدهما حسنة رائقة وفى الآخر ثقيلة مستكرهة كقول ابن الصمة عبد الله من شعراء الحماسة

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى * وجعت من الاصغاء ليتا وأخدعا

(وكقول أبى تمام)

يا دهر قوم من أخدعيك فقد * أضججت هذا الانام من خرقك

ألا ترى أنه وجد لهذه اللفظة فى بيت أبى تمام من الثقل على السمع والكراهة فى النفس أضعاف ما وجد لها فى بيت ابن الصمة عبد الله من الروح والخفة والايناس والبهجة وليس سبب ذلك الا أنها جاءت موحدة فى احدهما مثناة فى الآخر وكانت حسنة فى حالة الافراد مستكرهة فى حالة التثنية والا فاللفظة واحدة وانما اختلاف صيغتها فعل بها ما ترى (ومن هذا النوع) ألفاظ يعدل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها ولا يستفتى فى ذلك الا الذوق السليم وهذا موضع عجيب لا يعلم كنه سره (فمن ذلك) لفظة اللب الذى هو العقل لا لفظة اللب الذى تحت القشر فانها لا تحسن فى الاستعمال الا مجموعة وكذلك وردت فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة وهى مجموعة ولم ترد مفردة كقوله تعالى وليتذكر أولو الالباب وان فى ذلك لذكرى لأولى الالباب وأشباه ذلك

وهذه

وهذه اللفظة ثلاثية خفيفة على النطق ومخارجها بعيدة وليست بمستثقلة ولا مكروهة وقد تستعمل مفردة بشرط أن تكون مضافة أو مضافا اليها أمّا كونها مضافا اليها فكقولنا لا يعلم ذلك الا ذولب وانّ فى ذلك لعبرة لذى لب وعليه ورد قول جرير

انّ العيون التى فى طرفها حور * قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به * وهنّ أضعف خلق الله أركانا

وأمّا كونها مضافة فكقول النبى صلى الله عليه وسلم فى ذكر النساء ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الحازم من احداكنّ يا معشر النساء فان كانت هذه اللفظة عارية عن الجمع أو الاضافة فانها لا تأتى حسنة ولا تجد دليلا على ذلك الا مجرّد الذوق الصحيح واذا تأمّلت القرآن الكريم ودققت النظر فى رموزه وأسراره وجدت مثل هذه اللفظة قد روعى فيها الجمع دون الافراد كلفظة كوب فانها وردت فى القرآن مجموعة ولم ترد مفردة وهى وان لم تكن مستقبحة فى حال افرادها فانّ الجمع فيها أحسن لكن قد ترد مفردة مع ألفاظ أخر تندرج معهنّ فيكسوها ذلك حسنا ليس لها وذلك كقولى فى جملة أبيات أصف بها الخمر وما يجرى معها من آلاتها

ثلاثة تعطى الفرح * كأس وكوب وقدح
ما ذبح الذوق بها * الا ولهم تذبح

فلما وردت لفظة الكوب مع الكأس والقدح على هذا الاسلوب حسنها وكأنه جلاها فى غير لباسها الذى كان لها اذ جاءت بمفردها (وكذلك وردت) لفظة رجا بالقصر والرجا الجانب فانها لم تستعمل موحدة وانما استعملت مجموعة كقوله تعالى والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية فلما وردت هذه اللفظة مجموعة ألبسها الجمع ثوبا من الحسن لم يكن لها فى حال كونها موحدة وقد تستعمل موحدة بشرط الاضافة كقولنا رجا البئر ولربما أخطأ بعض الناس فى هذا الموضع وقاس عليه ما ليس بمقيس وذلك أنه وقف على ما ذكرته ههنا واقتفى فقال وكذلك قد وردت لفظة الصوف فى القرآن الكريم ولم ترد الا مجموعة كقوله تعالى وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى

-ين وهذا بخلاف ما وردت عليه فى شعر أبى تمام

كانوا برود زمانهم فتصدعوا * فكأنما لبس الزمان الصوفا

وهذا ليس كالذى أشرت اليه فان لفظة الصوف لفظة حسنة مفردة ومجموعة وانما أزرى بها فى قول أبى تمام أنها جاءت مجازية فى نسبتها الى الزمان وعلى هذا النهج وردت لفظة خبر واخبار فان هذه اللفظة مجموعة أحسن منها مفردة ولم ترد فى القرآن الا مجموعة (وفى صدد ذلك) ما ورد استعماله من الالفاظ مفردا ولم يرد مجموعا كلفظة الارض فانها لم ترد فى القرآن الا مفردة فاذا ذكرت السماء مجموعة جىء بها مفردة معها فى كل موضع من القرآن ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل ومن الارض مثلهن فى قوله تعالى الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن (ومما ورد) من الالفاظ مفردا فكان أحسن مما يرد مجموعا لفظة البقعة قال الله تعالى فى قصة موسى عليه السلام فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى انى أنا الله والاحسن استعمالها مفردة لا مجموعة وان استعملت مجموعة فالاولى أن تكون مضافة كقولنا بقاع الارض أو ما جرى مجراها (وكذلك) لفظة طيف فى ذكر طيف الخيال فانها لم تستعمل الا مفردة وقد استعملها الشعراء قديما وحديثا فلم يأتوا بها الا مفردة لان جمعها جمع قبيح فاذا قيل طيوف كان من أقبح الالفاظ وأشدها كراهة على السمع ويا لله العجب من هذه اللفظة ومن أختها عدة ووزنا وهى لفظة ضيف فانها تستعمل مفردة ومجموعة وكلاهما فى الاستعمال حسن رائق وهذا مما لا يعلم السر فيه والذوق السليم هو الحاكم فى الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجرى مجراهما (وأما جمع المصادر) فانه لا يجىء حسنا والافراد فيه هو الحسن (ومما) جاء فى المصادر مجموعا قول متنبى

فان يبرأ فلم أنفث عليه * وان يفقد فحق له الفقود

قوله الفقود جمع مصدر من قولنا فقد يفقد فقدا واستعمال مثل هذه اللفظة غير سائغ ولا لذيذ وان كان جائزا ونحن فى استعمال ما نستعمله من الالفاظ واقفون مع الحسن لا مع الجواز وهذا كله يرجع الى حاكم الذوق السليم فان صاحب هذه الصناعة يصرف الالفاظ بضروب التصريف فما عذب فى فمه منها استعمله وما لفظه فمه تركه ألا ترى أنه يقال الامة بالضم عبارة عن الجمع

الكثير من الناس ويقال الامة بالكسر وهي النعمة فان الامة بالضم لفظة حسنة و بالكسر ليست بحسنة واستعمالها قبيح (ورأيت صاحب كتاب الفصيح) قد ذكرها فيما اختاره من الالفاظ الفصيحة و ياليت شعري ما الذي رآه من فصاحتها حتى اختارها وكذلك قد اختار ألفاظا أخر ليست بفصيحة ولالوم عليه لان صدور مثل ذلك الكتاب عنه كثير واسرار الفصاحة لاتؤخذ من علماء العربية وانما تؤخذ منهم مسئلة نحوية أوتصريفية أونقل كلمة لغوية وما جرى هذا المجرى وأما أسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها واذا شذ عن صاحب كتاب الفصيح ألفاظ معدودة ليست بفصيحة في جملة كثيرة ذكرها من الفصيح فان هذا منه كثير (ومما يذكر في هذا الباب) أنه يقال سهم صائب فاذا جمع الجمع الحسن الذي يعذب في الفم قيل سهام صوائب وصائبات وصيب فاذا جمع الجمع الذي يقبح قيل سهام صيب على وزن كتب قال أبونواس

ما أحل الله ما صنعت * عينه تلك العشية بي
قتلت انسانها كبدي * بسهام للردى صيب

فقوله سهام صيب من اللفظ الذي ينبو عنه السمع ويحيد عنه اللسان ومثله ورد قول عريف القوافي من أبيات الحماسة

ذهب الرقاد فما يحس رقاد * مما شجاك ونامت العواد
لما أتاني من عيينة أنه * أمست عليه تظاهر أقياد

فقوله أقياد في جمع قيد مما لا يحسن استعماله بل الحسن أن يقال في جمعه قيود وكذلك قول مرة بن محكان التميمي من أبيات الحماسة وذلك من جملة الابيات المشهورة التي أولها

يا ربة البيت قومي غير صاغرة * ضمي اليك رحال القوم والقربا

فقال فيها

ماذا ترين أتدنيهم لأرحلنا * في جانب البيت أم نبني لهم قببا ؟

فانه جمع قبة على قبب وذلك من المستبشع الكريه والاحسن المستعمل هو قباب لاقبب وكذلك يجري الامر في غير هذا (ومن المجموع) ما يختلف استعماله وان كان متفقا في لفظة واحدة كالعين الناظرة وعين الناس وهو النبيه فيهم فان العين الناظرة تجمع على عيون وعين الناس تجمع على أعيان

ويحتاج رجع فيها الى الاستحسان لا الى جائز الوضع اللغوى وقد شذ هذا الموضع عن أبي الطيب المتنبي في قوله

والقوم في أعيانهم خزر * والخيل في أعيانها قبل

فجمع العين الناظرة على أعيان وكان الذوق يأبى ذلك ولا تجد له على اللسان حلاوة وان كان جائزا ولولا خوف الاطالة لاوردت من هذا النوع وأمثاله أشياء كثيرة وكشفت عن رموز وأسرار تخفى على كثير من متعاطى هذا الفن لكن في الذى أشرت اليه منبه لأهل الفطانة والذكاء أن يحملوه على أشباهه وأنظاره (وأعجب من ذلك كله) أنك ترى وزنا واحدا من الالفاظ فتارة تجد مفرده حسنا وتارة تجد جمعه حسنا وتارة تجدهما جميعا حسنين فالاول نحو حبرور وهو فرخ الحبارى فان هذه اللفظة يحسن مفردها لا مجموعها الا أن جمعها على حبارير وكذلك طنبور وطنابير وعرقوب وعراقيب وأما الثانى فنحو بهلول وبهاليل وامهوم واهاميم وهذا ضد الاول وأما الثالث فنحو جمهور وجماهير وعرجون وعراجين فانظر الى الوزن الواحد كيف يختلف فى أحواله مفردا ومجموعا وهذا من أعجب ما يجىء فى هذا الباب (وهكذا قد جاءت ألفاظ) على وزن واحد ثلاثية مسكنة الوسط وجمعها حسن فى الاستعمال واذا أردنا أن نثقل وسطها حسن منها شىء دون شىء (فمن ذلك) لفظة الثلث والربع الى العشر فان الجميع على وزن واحد واذا ثقلنا أوساطها فقلنا ثلث وربع وخمس وكذلك الى عشر فان الحسن من ذلك جميعه ثلاثة وهى الثلث والخمس والسدس والباقى وهو الربع والسبع والثمن والتسع والعشر ليس كالاول فى حسنه هذا والجميع على وزن واحد وصيغة واحدة والجميع حسن فى الاستعمال قبل أن يثقل وسطه ولما ثقل صار بعضه حسنا وبعضه غير حسن وكذلك تجد الامر فى أسماء الفاعلين كالثلاثى منها نحو فعل بفتح الفاء والعين وفعل بفتح الفاء وكسر العين وفعل بفتح الفاء وضم العين فان هذه الاوزان الثلاثة لها أسماء فاعلين أما فعل بفتح الفاء والعين فليس له الاسم واحد أيضا وهو فاعل لا غير ولا يقع فيه اختلاف وكذلك فعل بفتح الفاء وضم العين فليس له الاسم واحد أيضا وهو فعيل ولا يقع فيه اختلاف الا ماشذ لكن فعل بفتح الفاء وكسر العين يقع فى اسم فاعله

الاختلاف استحسانا واستقباحا لان له ثلاثة أوزان نحو فاعل وفعل وفعلان تقول منه جد فهو جامد وجد وجدان وقد جاء على وزنه فرح تقول منه فرح زيد فهو فرح وهو الاحسن ولا يحسن أن يقال فارح ولا فرحان وان كان جائزا لكن فرحان أحسن من فارح وقد وردت هذه اللفظة فى القرآن الكريم فلا تستعمل الا على فرح لا غير كقوله تعالى كل حزب بما لديهم فرحون وكقوله تعالى ان الله لا يحب الفرحين وقد جاءت هذه اللفظة فى شعر بعض شعراء الحماسة فى باب المراثى

فما أنا من حزن وان جل جازع * ولا بسرور بعد موتك فارح

وهذا غير حسن وان جاز استعماله وعلى نحو منه يقال غضب وهو غضبان ولا يقال غاضب وان كان جائزا وقد تقدم القول أنا فى تأليف الكلام بصدد استعمال الحسن والاحسن لا بصدد استعمال الجائز وغير الجائز (ومما يجرى هذا المجرى) قولنا افعل وافتعل فان لفظة فعل لها موضع تستعمل فيه ألا ترى أنك تقول قعدت الى فلان أحدثه ولا تقول اقتعدت اليه وكذلك تقول اقتعدت غارب الجمل ولا تقول قعدت على غارب الجمل وان جاز ذلك لكن الاول أحسن وهذا لا يحكم فيه غير الذوق السليم فانه لا يمكن أن يقام عليه دليل (وأما افعل وافعوعل) فانا نقول أعشب المكان فاذا كثر عشبه قلنا اعشوشب فلفظة افعوعل للتكثير على أنى استقريت هذه اللفظة فى كثير من الالفاظ فوجدتها عذبة طيبة على تكرار حروفها كقولنا اخشوشن المكان واغرورقت العين واحلولى الطعم وأشباههما (وأما فعلة) نحو همزة ولمزة وجثمة ونومة ولكنة ولحنة وأشباه ذلك فالغالب على هذه اللفظة أن تكون حسنة وهذا أخذته بالاستقراء وفى اللغة مواضع كثيرة هكذا لا يمكن استقصاؤها فانظر الى ما يفعله اختلاف الصيغة بالالفاظ وعليك أن تتفقد أمثال هذه المواضع لتعلم كيف تضع يدك فى استعمالها فكثيرا ما يقع لفحول الشعراء والخطباء فى مثلها ومؤلف الكلام من كاتب وشاعر اذا مرت به ألفاظ عرضها على ذوقه الصحيح فما يجد الحسن منها موحدا وحده وما يجد الحسن منها مجموعا جمعه وكذلك يجرى الحكم فيما سوى ذلك من الالفاظ (النوع السابع فى المعاظلة اللفظية) والمعاظلة معاظلتان لفظية ومعنوية

المعاظلة اللفظية

[illegible] نأتى ذكرها فى باب التقديم والتأخير من المقالة الثانية فليتوقف عليه هناك (وأمّا المعاظلة اللفظية) وهى المخصوصة بالذكر ههنا فى باب صناعة الالفاظ وحقيقتها مأخوذة من قولهم تعاظلت الجرادتان اذا ركبت احداهما الاخرى فسمى الكلام المتراكب فى ألفاظه أو فى معانيه المعاظلة مأخوذا من ذلك وهو اسم لائق بمسماه ووصف عمر بن الخطاب رضى الله عنه زهير بن أبى سلمى فقال كان لا يعاظل بين الكلام (وقد اختلف علماء البيان فى حقيقة المعاظلة) فقال قدامة بن جعفر الكاتب التعاظل فى الكلام هو أن يدخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه ولا أعرف ذلك الا فاحش الاستعارة كقول أوس بن حجر

وذات هدم عار نواشرها * تصمت بالماء تولبا جدعا

فسمى الظبى تولبا والتولب ولد الحمار هذا ما ذكره قدامة بن جعفر وهو خطأ اذ لو كان ما ذهب اليه صوابا لكانت حقيقة المعاظلة دخول الكلام فيما ليس من جنسه وليست حقيقتها هذه بل حقيقتها ما تقدّم وهو التراكب من قولهم تعاظلت الجرادتان اذا ركبت احداهما الاخرى وهذا المثال الذى مثل به قدامة لا تركب فى ألفاظه ولا فى معانيه (وأمّا) غير قدامة فانه خالفه فيما ذهب اليه الا أنه لم يقسم المعاظلة الى لفظية ومعنوية ولكنه ضرب لها مثالا كقول الفرزدق وما مثله فى الناس الا مملكا * أبو أمّه حىّ أبوه يقاربه

وهذا من القسم المعنوى لا من القسم اللفظى ألا ترى الى تراكب معانيه بتقديم ما كان يجب تأخيره وتأخير ما كان يجب تقديمه لانّ الاصل فى معناه وما مثله فى الناس حىّ يقاربه الا مملكا أبو أمّه أبوه وسيجىء شرح ذلك مستوفى فى بابه من المقالة الثانية ان شاء الله تعالى * واذا حققت القول فى بيان المعاظلة والكشف عن حقيقتها فانى أتبع ذلك بتقسيم القسم اللفظى منها الذى أنا بصدد ذكره ههنا (فأقول) انى تأملته بالاستقراء من الاشعار قديمها ومحدثها ومن النظر فى حقيقتها نفسها فوجدتها تنقسم الى خمسة أقسام (الاوّل منها) يختص بأدوات الكلام نحو من والى وعن وعلى وأشباهها فانّ منها ما يسهل النطق به اذا ورد مع أخواته ومنها ما لا يسهل بل يرد ثقيلا على اللسان ولكل موضع يخصه من السبك (فمما جاء منه) قول أبى تمام

الى خالد راحت بنا أرحبية * مرافقها من عن كراكرها نكب

فقوله من عن كراكرها من الكلام المتعاظل الذى يثقل النطق به على أنه قد وردت هاتان اللفظتان وهما من وعن فى موضع آخر فلم يثقل النطق بهما كقول القائل من عن يمين الطريق والسبب فى ذلك أنهما وردتا فى بيت أبى تمام مضافتين الى لفظة الكراكر فثقلت منهما وجعلتهما مكروهتين كما ترى والا فقد وردتا فى شعر قطرى بن الفجاءة فكانتا خفيفتين كقوله

ولقد أرانى للرماح دريئة * من عن يمينى مرة وأمامى

والاصل فى ذلك راجع الى السبك فاذا سبكت هاتان اللفظتان أو ما يجرى مجراهما مع ألفاظ تسهل منهما لم يكن بهما من ثقل كما جاءتا فى بيت قطرى واذا سبكتا مع ألفاظ تثقل منهما جاءتا كما جاءتا فى بيت أبى تمام (ومن هذا القسم) قول أبى تمام أيضا

كأنه لاجتماع الروح فيه له * فى كل جارحة من جسمه روح

فقوله فى بعد قوله فيه له مما لا يحسن وروده وكذلك ورد قول أبى الطيب المتنبى

وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة * سبوح لها منها عليها شواهد

فقوله لها منها عليها من الثقيل الثقيل الثقيل وكذلك قوله

تبيت وفودهم تسرى اليه * وجدواه التى سألوا اغتفار

فخلفهم بردّ البيض عنهم * وهامهم له معهم معار

وقوله وهامهم له معهم مما يثقل النطق به ويتعثر اللسان فيه لكنه أقرب حالا من الاوّل ومن الحسن فى هذا الموضع قول أبى تمام

دار أجلّ الهوى عن أن ألمّ بها * فى الركب الا وعينى من منائحها

فقوله عن أن فى هذا البيت من الخفيف الحسن الذى لا بأس به (القسم الثانى من المعاظلة اللفظية) مختص بتكرير الحروف وليس ذلك مما يتعلق بتكرير الالفاظ ولا بتكرير المعانى مما يأتى ذكره فى باب التكرير فى المقالة الثانية وانما هو تكرير حرف واحد أو حرفين فى كل لفظة من ألفاظ الكلام المنثور أو المنظوم فيثقل حينئذ النطق به (فمن ذلك) قول بعضهم

وقبر حرب بمكان قفر * وليس قرب قبر حرب قبر

فهذه القافات والراآت كأنها فى تتابعها سلسلة ولا خفاء بما فى ذلك من الثقل

وكذا ورد قول الحريرى فى مقاماته

وازورّ من كان له زائرا * وعاف عافى العرف عرفانه

فقوله وعاف عافى العرف عرفانه من التكرير المشار اليه وكذلك ورد قوله أيضا فى رسالتيه اللتين صاغهما على حرفى السين والشين فانه أتى فى احداهما بالسين فى كل لفظة من ألفاظها وأتى فى الاخرى بالشين فى كل لفظة من ألفاظها فجاءتا كأنهما رقى العقارب أوخذروفة العزائم وما أعلم كيف خفى مافيهما من القبح على مثل الحريرى مع معرفته بالجيد والردىء من الكلام (ويحكى) عن بعض الوعاظ أنه قال فى جملة كلام أورده جنى جنات وجنات الحبيب فصاح رجل من الحاضرين فى المجلس وماد وتغاشى فقال له رجل كان الى جانبه ما الذى سمعت حتى حدث بك هذا فقال سمعت جيما فى جيم فى جيم فصحت وهذا من أقبح عيوب الالفاظ (ومما جاء منه) قول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته التى مطلعها * أتراها لكثرة العشاق

كيف ترثى التى ترى كل جفن * راءها غير جفنها غير راقى

وهذا وأمثاله انما يعرض لقائله فى نوبة الصرع التى تنوب فى بعض الايام (ومن هذا القسم) قول الشاعر المعروف بكشاجم فى قصيدته التى مطلعها داوخمارى بكاس خمر

والزهر والقطر فى رباها * مابين نظم و بين نثر

حدائق كف كل ريح * حلّ بها خيط كل قطر

وهذا البيت يحتاج الناطق به الى بركار يضعه فى شدقه حتى يديره له وعلى هذا الاسلوب ورد قول بعضهم وهو البيت المشهور الذى يتذاكره الناس

ملّت مطال مولود مفدى * مليح مانع منى مرادى

وهذه الميمات كأنها عقد متصلة بعضها ببعض (وكان بعض أهل الادب) من أهل مصرنا هذا يستعمل هذا القسم فى ألفاظه كثيرا فى كلامه نثرا ونظما وذلك لعدم معرفته بسلوك الطريق (وأنا أذكر نبذة من ذلك) كقوله فى وصف رجل سخى أنت المديح كبدا تريح والمليح ان يجهم المليح بالتكليح عند سائل تلوح بل يفوق اذ يروق مرأى لوح يامغبوق كاس الحمد يامصبوح ضاق عن ندى الدلوح وبيابك المفتوح نستريح وتريح ذا التبريح وترفه

المطلع فانظر الى حرف الحاء كيف قد لزمه فى كل لفظة من هذه الالفاظ فجاء كما تراه من الثقل والغثاثة (واعلم) أن العرب الذين هم الاصل فى هذه اللغة قد عدلوا عن تكرير الحروف فى كثير من كلامهم وذلك أنه اذا تكرر الحرف عندهم أدغموه استحسانا فقالوا فى جعل لك جعلك وفى تضربوننى تضربونى وكذلك قالوا استعد فلان للامر اذا تأهب له والاصل فيه استعدد واستتب الامر اذا تهيأ والاصل فيه استتبب وأشباه ذلك كثير فى كلامهم حتى انهم لشدة كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا أحد الحرفين المكررين حرفا آخر غيره فقالوا أمليت الكتاب والاصل فيه أمللت فأبدلوا اللام ياء طلبا للخفة وفرارا من الثقل واذا كان قد فعلوا ذلك فى اللفظة الواحدة فما ظنك بالالفاظ الكثيرة التى يتبع بعضها بعضا (القسم الثالث من المعاظلة) أن ترد ألفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضا فمنها ما يختلف بين ماض ومستقبل ومنها ما لا يختلف فالاول كقول القاضى الارجانى فى أبيات يصف فيها الشمعة وفيها معنى هو له مبتدع ولم يسمع من غيره وذلك أنه قال عن لسان الشمع انه ألف العسل وهو أخوه الذى ربى معه فى بيت واحد وان النار فرقت بينه وبينه وانه نذر أن يقتل نفسه بالنار أيضا من ألم الفراق الا أنه أساء العبارة فقال

بالنار فرقت الحوادث بيننا * وبها نذرت أعود أقتل روحى

فقوله نذرت أعود من المعاظلة المشار اليها وأما ما يرد على نهج واحد من الصيغة الفعلية فكقول أبى الطيب المتنبى

أقل أنل أقطع احمل عل سل أعد * زد هش بش تفضل أدن سر صل

فهذه ألفاظ جاءت على صيغة واحدة وهى صيغة الامر كأنه قال افعل افعل هكذا الى آخر البيت وهذا تكرير للصيغة وان لم يكن تكريرا للحروف الا أنه أخوه ولا أقول ابن عمه وهذه ألفاظ متراكبة متداخلة ولو عطفها بالواو لكانت أقرب حالا كما قال عبد السلام بن رغبان

فسد الناس فاطلب الرزق بالسيـ * ـف والا فمت شديد الهزال

احل وامرر وضر وانفع ولن واخـ * ـشن وأبرر ثم انتدب للمعالى

ألا ترى أنه لما عطف ههنا بالواو لم تتراكب الالفاظ كتراكبها فى بيت أبى الطيب المتقدم ذكره (فان قيل) انك جعلت ما كان واردا على صيغة واحدة على سبيل

التكرار معاظلة وقد ورد ذلك فى القرآن الكريم كقوله تعالى فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ولو كان معاظلة لما ورد فى القرآن الكريم مثله (فالجواب عن ذلك) أنى أقول هذه الآية ليست كالذى أنكرته فان هذا الموضع ينظر فيه الى الكثير والقليل فاذا كثر كان تعاظلا لتراكبه وثقله على النطق وقد عرّفتك أن مايفصل بين صيغه بواو العطف يكون أقل ثقلا مما لا يفصل والذى أنكرته من ذلك هو أن تأتى ألفاظ مكررة على صيغة واحدة كأنها عقد متصلة فحينئذ يثقل النطق بها ويكره موقعها من السمع كبيت أبى الطيب المتنبى وأما هذه الآية المشار اليها فانها خارجة عن هذا الحكم ألا ترى أنها لما وردت ألفاظها على صيغة واحدة فرّق بينها بواو العطف ثم مع التفريق بينها بواو العطف لم يرد التكرير فيها الا بين اثنتين وهما خذوهم واحصروهم وأما الصيغة الاولى فانها أضيف اليها كلام آخر فقيل اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ولم يقل اقتلوا المشركين وخذوهم ثم لما جاءت الصيغة الرابعة أضيف اليها كلام آخر أيضا فقيل واقعدوا لهم كل مرصد لاجرم أن الآية جاءت غير ثقيلة على النطق مع توارد صيغة الامر فيها أربع مرار وهذه رموز ينبغى أن يتنبه لها فى استعمال الالفاظ اذا جاءت هكذا (القسم الرابع من المعاظلة) وهو الذى يتضمن مضافات كثيرة كقولهم سرج فرس غلام زيد وان زيد على ذلك قيل لبد سرج فرس غلام زيد وهذا أشد قبحا وأثقل على اللسان وعليه ورد قول ابن بابك الشاعر فى مفتتح قصيدة له

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعى * فأنت بمرأى من سعاد ومسمعى

(القسم الخامس من المعاظلة) أن ترد صفات متعددة على نحو واحد كقول أبى تمام فى قصيدته التى مطلعها * ما الكثيب الحى الى عقده * فقال يصف جملا

سأخرق الخرق بابن خرقاء كالـ * ـهيق اذا ما استحم من نجده

مقابل فى الجديل صلب القرى * لوحك من عجبه الى كتده

تامكه نهده مداخله * ملومه محزئله أجده

فالبيت الثالث من المعاظلة التى قلع الاسنان دون ايرادها وكذلك قال من هذه القصيدة يصف رمحا

ومرتهفوذوابتاه على * أسمرمتن يوم الوغى جسده
مارنه لدنه مثقفـــه * عراصه فى الاكف مطرده

وهـذا كالاول فى قبحه وثقله فقاتله الله ما أمتن شعره وما أسخفه فى بعض الاحوال وعلى هذا جاء من هذه القصيدة أيضا يصف الممدوح

اليك عن سيل عارض خضل الشؤبوب يأتى الحمام من نضده
مســفه ثرة مسحسحه * وابله مستهله جوده

ولولم يكن لابى تمام من القبيح الشنيع الاهذه الابيات لحطت من قدره وعلى هذا ورد قول أبى الطيب المتنبى

دان بعيد محب مبغض بهج * أغر حلو ممر لين شرس
ندأبى غر واف أخى ثقة * جعد سرى نه ندب رضى ندس

وهذا كانه سلسلة بلاشك وقليلا ما يوجد فى أشعار الشعراء ولم أجده كثيرا الافى شعر الفرزدق وتلك معاظلة معنوية وسيأتى بيانها فى بابها وهذه معاظلة لفظية وهى توجد فى شعر أبى الطيب كثيرا (النوع الثامن فى المنافرة بين الالفاظ فى السبك) وهذا النوع لم يحقق أحد من علماء البيان القول فيه وغاية ما يقال انه ينبغى أن لاتكون الالفاظ نافرة عن مواضعها ثم يكتفى بهذا القول من غير بيان ولاتفصيل حتى انه قد خلط هذا النوع بالمعاظلة وكل منهما نوع مفرد برأسه له حقيقة تخصه الا أنهما قد اشتبها على علماء البيان فكيف على جاهل لايعلم (وقد بينت) هذا النوع وفصلته عن المعاظلة وضربت له أمثلة يستدل بها على أخواتها وما يجرى مجراها وجملة الامر أن مدار سبك الالفاظ على هذا النوع والذى قبله دون غيرهما من تلك الانواع المذكورة لان هذين النوعين أصل سبك الالفاظ وما عداهما فرع عليهما واذا لم يكن الناثر أو الناظم عارفا بهما فاتت مقاتله تبدو كثيرا (وحقيقة هذا النوع) الذى هو المنافرة أن يذكر لفظ أو ألفاظ يكون غيرها مما هو فى معناها أولى بالذكر وعلى هذا فان الفرق بينه وبين المعاظلة أن المعاظلة هى التراكب والتداخل اما فى الالفاظ أو فى المعانى على ما أشرت اليه وهذا النوع لاتراكب فيه وانما هو ايراد ألفاظ غير لائقة بموضعها الذى ترد فيه (وهو ينقسم قسمين) أحدهما يوجد فى اللفظة الواحدة والآخر فى الالفاظ المتعددة فأما الذى يوجد فى اللفظة الواحدة فانه اذا ورد

في الكلام أمكن تبديله بغيره مما هو في معناه سواء كان ذلك الكلام نثرا أو نظما وأما الذي يوجد في الالفاظ المتعددة فانه لا يمكن تبديله بغيره في الشعر بل يمكن ذلك في النثر خاصة لانه يعسر في الشعر من أجل الوزن فمما جاء من القسم الاول قول أبي الطيب المتنبي فلا يبرم الامر الذي هو حالل * ولا يحلل الامر الذي هو يبرم فلفظة حالل نافرة عن موضعها وكانت له مندوحة عنها لانه لو استعمل عوضا عنها لفظة ناقض فقال

فلا يبرم الامر الذي هو ناقض * ولا ينقض الامر الذي هو يبرم

لجاءت اللفظة قارة في مكانها غير قلقة ولا نافرة (و بلغني) عن أبي العلاء ابن سليمان المعري أنه كان يتعصب لابي الطيب حتى انه كان يسميه الشاعر ويسمي غيره من الشعراء باسمه وكان يقول ليس في شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ما هو في معناها فيجيء حسنا مثلها فياليت شعري أما وقف على هذا البيت المشار اليه لكن الهوى كما يقال أعمى وكان أبو العلاء أعمى العين خلقة وأعماها عصبية فاجتمع له العمى من جهتين وهذه اللفظة التي هي حالل وما يجري مجراها قبيحة الاستعمال وهي فك الادغام في الفعل الثلاثي ونقله الى اسم الفاعل وعلى هذا فلا يحسن أن يقال بل الثوب فهو بالل ولا سل السيف فهو سالل ولا أن يقال هم بالامر فهو هامم ولا خط الكتاب فهو خاطط ولا حن الى كذا فهو حانن وهذا لو عرض على من لا ذوق له لادركه وفهمه فكيف من له ذوق صحيح كابي الطيب لكن لا بد لكل جواد من كبوة وأنشد بعض الادباء بيتا لدعبل وهو

شفيعك فاشكر في الحوائج انه * يصونك عن مكروهها وهو يخلق

فقلت له عجز هذا البيت حسن وأما صدره فقبيح لانه سبكه قلقا نافرا وتلك الفاء التي في قوله شفيعك فاشكر كانها راكبة البعير وهي في زيادتها كزيادة الكرش فقال لهذه الفاء في كتاب الله أشباه كقوله تعالى يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر فقلت له بين هذه الفاء وتلك الفاء فرق ظاهر يدركه بالعلم أولا وبالذوق ثانيا اما العلم فان الفاء في وربك فكبر وثيابك فطهر فهي الفاء العاطفة فانها واردة بعد قم فأنذر وهي مثل قولك امش فاسرع وقل فأبلغ وليست الفاء التي في شفيعك فاشكر كهذه الفاء لان تلك زائدة لا موضع لها ولو جاءت

رد على أبي العلاء المعري

فى السورة كما جاءت فى قول دعبل وحاش لله من ذلك لا بتدئ الكلام فقيل ربك فكبر وثيابك فطهر لكنها لما جاءت بعد قم فأنذر حسن ذكرها فيما يأتى بعدها من وربك فكبر وثيابك فطهر وأما الذوق فانه ينبو عن الفاء الواردة فى قول دعبل ويستثقلها ولا يوجد ذلك فى الفاء الواردة فى السورة فلما سمع ماذكرته أذعن بالتسليم ومثل هذه الدقائق التى ترد فى الكلام نظما كان أو نثرا لا يتفطن لها الا الراسخ فى علم الفصاحة والبلاغة (ومن هذا القسم) وصل همزة القطع وهو محسوب من جائزات الشعر التى لا تجوز فى الكلام المنثور وكذلك قطع همزة الوصل لكن وصل همزة القطع أقبح لانه أثقل على اللسان (فما ورد من ذلك) قول أبى تمام

قرانى اللهى والود حتى كأنما * أفاد الغنى من نائلى وفوائدى

فأصبح يلقانى الزمان من اجله * باعظام مولود ورأفة والد

فقوله من اجله وصل لهمزة القطع وعليه ورد قول أبى الطيب المتنبى

توسطه المفاوز كل يوم * طلاب الطالبين لا الانتظار

فقوله لا الانتظار كلام نافر عن موضعه (ومن هذا القسم) أن يفرق بين الموصوف والصفة بضمير من تقدم ذكره كقول البحترى

حلفت لها بالله يوم التفرق * وبالوجد من قلبى بها المتعلق

تقديره من قلبى المتعلق بها فلما فصل بين الموصوف الذى هو قلبى والصفة التى هى المتعلق بالضمير الذى هو بها قبح ذلك ولو كان قال من قلب بها متعلق لزال ذلك القبح وذهبت تلك الهجنة (ومن هذا القسم أيضا) أن تزاد الالف واللام فى اسم الفاعل ويقام الضمير فيه مقام المفعول كقول أبى تمام

فلو عاينتهم والزائريهم * لما ميزت البعد من الحميم

فقوله الزائرى اسم فاعل وقوله هم الذى هو الضمير فى موضع المفعول تقديره الزائرين أرضهم أو دارهم أو الزائرين اياهم فاستعمال هذا مع الالف واللام قبيح جدا واذا حذفتا زال ذلك القبح وقد استعملها الشعراء المتقدمون كثيرا (ومما جاء من القسم الثانى) الذى يوجد فى الالفاظ المتعددة قول أبى الطيب أيضا

لا خلق أكرم منك الا عارف * بك راء نفسك لم يقل لك هاتها

قرأ ورش من اجل ذلك كذا وهذا كالبيت من باب النقل لا الوصل والبيت بعد همزه وصل لا قطع اه

فان عجز هذا البيت نافر عن مواضعه وأمثال هذا في الاشعار كثير

(المقالة الثانية في الصناعة المعنوية)

وهي تنقسم قسمين الاول منها في الكلام على المعاني مجملا والثاني في الكلام عليها مفصلا وقبل الكلام على ذلك لا بد من توطئة تكون شاملة لما نحن بصدد ذكره ههنا فأقول اعلم أن المعاني الخطابية قد حصرت أصولها وأول من تكلم في ذلك حكماء اليونان غير أن ذلك الحصر كلي لا جزئي ومحال أن تحصر جزئيات المعاني وما يتفرع عليها من التفريعات التي لا نهاية لها لا جرم أن ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم ولا يفتقر اليه فان البدوي البادي راعي الابل ما كان يمر شيء من ذلك بفهمه ولا يخطر بباله ومع هذا فانه كان يأتي بالسحر الحلال ان قال شعرا أو تكلم نثرا (فان قيل) ان ذلك البدوي كان له ذلك طبعا وخلقة والله فطره عليه كما فطر ضروب نوع الآدمي على فطر مختلفة هي لهم في أصل الخلقة فانه فطر الترك على الاحسان في الرمي والاصابة فيه من غير تعليم وكذلك فطر أهل الصين على الاحسان في صنعة اليد فيما يباشرونه من مصوغ أو خشب أو فخار أو غير ذلك وكذلك فطر أهل المغرب على الشجاعة وهذا لا نزاع فيه فانه مشاهد (فالجواب عن ذلك) أني أقول ان سلمت اليك أن الشعر والخطابة كانا للعرب بالطبع والفطرة فماذا تقول فيمن جاء بعدهم من شاعر وخطيب تحضروا وسكنوا البلاد ولم يروا البادية ولا خلقوا بها وقد أجادوا في تأليف النظم والنثر وجاؤا بمعان كثيرة ما جاءت في شعر العرب ولا نطقوا بها (فان قلت) ان هؤلاء وقفوا على ماذكره علماء اليونان وتعلموا منه (قلت لك في الجواب) هذا شيء لم يكن ولا علم أبو نواس شيأ منه ولا مسلم بن الوليد ولا أبو تمام ولا البحتري ولا أبو الطيب المتنبي ولا غيرهم وكذلك جرى الحكم في أهل الكتابة كعبد الحميد وابن العميد والصابي وغيرهم فان ادعيت أن هؤلاء تعلموا ذلك من كتب علماء اليونان قلت لك في الجواب هذا باطل بي أنا فاني لم أعلم شيأ مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته ومع هذا فانظر الى كلامي فقد أوردت لك نبذة منه في هذا الكتاب واذا وقفت على رسائلي ومكاتباتي وهي عدة مجلدات وعرفت أني لم أتعرض لشيء مما ذكره حكماء اليونان في حصر المعاني علمت حينئذ أن صاحب هذا العلم من النظم والنثر بنجوة من ذلك كله وأنه لا يحتاج اليه أبدا وفي كتابي

هذا ما يغنيك وهو كاف (ولقد فاوضنى بعض المتفلسفين فى هذا) وانساق الكلام الى شىء ذكره لابى على بن سينا فى الخطابة والشعر وذكر ضربا من ضروب الشعر اليونانى يسمى اللاغوذيا وقام فأحضر كتاب الشفاء لابى على ووقفنى على ماذكره فلما وقفت عليه استجهلته فانه طول فيه وعرض كانه يخاطب بعض اليونان وكل الذى ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربى شيأ ثم مع هذا جميعه فان معوّل القوم فيما يذكر من الكلام الخطابى أنه يورد على مقدّمتين ونتيجة وهذا مما لم يخطر لابى على بن سينا ببال فيما صاغه من شعر أو كلام مسجوع فانّ له شيأ من ذلك فى كلامه وعند افاضته فى صوغ ما صاغه لم تخطر المقدّمتان والنتيجة له ببال ولو أنه أفكر أوّلا فى المقدّمتين والنتيجة ثم أتى بنظم أو نثر بعد ذلك لما أتى بشىء ينتفع به ولطال الخطب عليه بل أقول شيأ آخر وهو أنّ اليونان أنفسهم لما نظموا ما نظموه من أشعارهم لم ينظموه فى وقت نظمه وعندهم فكرة فى مقدّمتين ولا نتيجة وانما هذه أوضاع توضع ويطول بها مصنفات كتبهم فى الخطابة والشعر وهى كما يقال تعاقع ليس لها طائل كانها شعر الابيوردى * وحيث أوردت هذه المقدّمة قبل الخوض فى تقسيم المعانى فانى راجع الى شرح ما أجملته فأقول (أمّا القسم الاوّل) فانّ المعانى فيه على ضربين أحدهما ما يبتدعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدى فيه بمن سبقه وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجدّدة ويتنبه له عند الامور الطارئة ولنشر فى هذا الموضع الى نبذة لتكون مثالا للمتوشح لهذه الصناعة (فمن ذلك) ما ورد فى شعر أبى تمام فى وصف مصلبين

بكروا وأسروا فى متون ضوامر * قيدت لهم من مربط النجار

لا يبرحون ومن رآهم خالهم * أبدا على سفر من الاسفار

وهذا المعنى مما يعثر عليه عند الحوادث المتجدّدة والخاطر فى مثل هذا المقام ينساق الى المعنى المخترع من غير كبير كلفة لشاهد الحال الحاضرة (وكذلك) قال فى هذه القصيدة فى صفة من أحرق بالنار

مازال سرّ الكفر بين ضلوعه * حتى اصطلى سرّ الزناد الوارى

نارا يساور جسمه من حرّها * لهب كما عصفرت شق ازار

طارت لها شعل يهدّم لفحها * أركانه هدما بغير غبار

المعانى المتلقاة من غير أن تقدمها كلفة فيها لابن سنى

فصلى منه بكل مجمع مفصل * وفعلن فاقرة بكل فقار

مشبوبة رفعت لاعظم مشرك * ما كان يرفع ضوأها للسارى

صلى لها حيا وكان وقودها * ميتا ويدخلها مع الفجار

وهذا مما يعين على استخراج المعانى فيه شاهد الحال (وقد ذيل البحترى) على ماذكره أبو تمام فى وصف المصلبين فقال

كم عزيز أباده فغدا يركب عودا مركبا فى عود

أسلمته الى الرقاد رجال * لم يكونوا عن وترهم برقود

تحسد الطير فيه صنع البوادى * وهو فى غير حالة المحسود

غاب عن صحبه فلاهو موجود لديهم وليس بالمفقود

وكان امتداد كفيه فوق الجذع فى محفل الردى المشهود

طائر مد مستريحا جناحيه * استراحات متعب مكدود

أخطب الناس راكبا فاذا أرجل خاطبت منه عين البليد

وهذه أبيات حسنة قد استوعبت أقسام هذا المعنى المقصود الا أن فيها معنى مأخوذا من شعر مسلم بن الوليد الانصارى وهو قوله

نصبته حيث ترتاب الرياح به * وتحسد الطير فيه أضبع البلد

لكن البحترى زاد فى ذلك زيادة حسنة وهى قوله وهو فى غير حالة المحسود

(ومن هذا الضرب) ماجاء فى شعر أبى الطيب المتنبى فى وصفه الحمى وهو قوله

وزائرتى كأن بها حياء * فليس تزور الا فى الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا * فعافتها وباتت فى عظامى

كأن الصبح يطردها فتجرى * مدامعها بأربعة سجام

أراقب وقتها من غير شوق * مراقبة المشوق المستهام

وقد شرح أبو الطيب بهذه الابيات حاله مع الحمى (ومن بديع ما أتى به فى هذا الموضع) أن سيف الدولة بن حمدان كان مخيما بأرض ديار بكر على مدينة ميافارقين فعصفت الريح بخيمته فتطير الناس لذلك وقالوا فيه أقوالا فمدحه أبو الطيب بقصيدة يعتذر فيها عن سقوط الخيمة أولها * أينفع فى الخيمة العذل * فمنه ما أحسن فيه كل الاحسان وهو قوله

تضيق بشخصك أرجاؤها * ويركض فى الواحد الجحفل

وتقصر ما كنت في جوفها * وتركز فيها القنا الذبل
وكيف تقوم على راحة * كأن البحار لها أنمل
فلبت وقارك فرقته * وحملت أرضك ما تحمل
فصار الانام به سادة * وسدتهم بالذى يفضل
رأت لون نورك في لونها * كلون الغزالة لا يغسل
وأن لها شرفا باذخا * وأن الخيام بها تخجل
فلا تنكرن لها صرعة * فمن فرح النفس ما يقتل
ولو بلغ الناس ما بلغت * لخانتهم حولك الارجل
ولما أمرت بتطنيبها * أشيع بأنك لا ترحل
فما اعتمد الله تقويضها * ولكن أشار بما تفعل
وعرف أنك من همه * وأنك في نصره ترفل
فما العاندون وما أثلوا * وما الحاسدون وما قولوا
هم يطلبون فمن أدركوا * وهم يكذبون فمن يقبل
وهم يتمنون ما يشتهون * ومن دونه جدك المقبل

وهذه الابيات قد اشتملت على معان بديعة وكفى المتنبي فضلا أن يأتي بمثلها وهذا مقام يظهر في مثله براعة الناظم والناثر (وقرأت في كتاب الروضة) لابي العباس المبرد وهو كتاب جمعه واختار فيه أشعار شعراء بدأ فيه بأبي نواس ثم بمن كان في زمانه وانسحب على ذيله فقال فيما أورده من شعره وله معنى لم يسبق اليه باجماع وهو قوله

تدار علينا الراح في عسجدية * حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها * مها تدريها بالقسي الفوارس
فللراح ما زرت عليه جيوبها * وللماء ما دارت عليه القلانس

وقد أكثر العلماء من وصف هذا المعنى وقولهم فيه انه معنى مبتدع (ويحكى عن الجاحظ) أنه قال مازال الشعراء يتناقلون المعنى قديما وحديثا الا هذا المعنى فان أبا نواس انفرد بابداعه وما أعلم أنا ما أقول لها ولابي سوى أن أقول قد تجاوز بهم حد الاكثار ومن الامثال السائرة بدون هذا يباع الحمار وفصاحة هذا الشعر عندي هي الموصوفة لا هذا المعنى فانه لا كبير كلفة فيه لان أبا نواس رأى

كأسا من الذهب ذات تصاوير فحكاها فى شعره والذى عندى فى هذا أنه من المعانى المشاهدة فان هذه الخمر لم تحمل الماء يسيرا وكانت تستغرق صور هذا الكاس الى مكان جيوبها وكان الماء فيها قليلا بقدر القلانس التى على رؤسها وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر وكذلك ورد قوله فى الخمر أيضا

يا شقيق النفس من حكم * نمت عن ليلى ولم تنم
فاسقنى الخمر التى اختمرت * بخمار الشيب فى الرحم

وهذا معنى مخترع لم يسبق اليه وهو دقيق يكاد لدقته أن يلحق بالمعانى التى تستخرج من غير شاهد حال متصور (وبلغنى) أنه اختلف فى هذا المعنى بحضرة الرشيد هرون رحمه الله فقيل انه يريد بخمار الشيب فى الرحم أن الخمر تكون فى جوانبها ذات زبد أبيض على وجهها فقال الاصمعى ان أبا نواس ألطف خاطرا من هذا وأسد غرضا فسألوه فأحضر وسئل فقال ان الكرم أول ما يجرى فيه الماء يخرج شبيها بالقطنة وهى أصل العنقود فقال الاصمعى ألم أقل لكم ان الرجل ألطف خاطرا وأسد غرضا وقد جاء لابن حمديس الصقلى فى الهلال لآخر الشهر ما لم يأت به غيره وهو من الحسن واللطافة فى الغاية القصوى وذلك قوله

كأنما أدهم الظلماء حين نجا * من أشهب الصبح ألقى نعل حافره

وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر الا أنه أبدع فى التشبيه وأمثال هذا كثيرة فى أقوال المجيدين من الشعراء (وجملة الامر فى ذلك) أن الشاعر أو الكاتب ينظر الى الحال الحاضرة ثم يستنبط لها ما يناسبها من المعانى كما فعل النابغة فى مدح النعمان وقد أتاه وفد من الوفود فمات رجل منهم قبل أن يوفدهم فلما وفدهم جعل عطاء ذلك الميت على قبره حتى جاء أهله وأخذوه فقال النابغة فى ذلك

حبا شقيق فوق أحجار قبره * وما كان يحبى قبله قبر وافد

وهذا بيت من جملة أبيات فانظر كيف فعل النابغة فى هذا المعنى (وكذلك) ورد قول أخت جساس زوجة كليب فانه لما قتل جساس كليبا اجتمع النساء اليها وندبنه فتحدث بعضهن الى بعض وقلن هذه ليست بثاكلة وانما هى شامتة فان أخاها هو القاتل فنمى ذلك اليها فقالت

يا ابنة الاقوام ان شئت فلا * تعجلى باللوم حتى تسألى
فاذا أنت تبينت الذى * يوجب اللوم فلومى واعذلى

إنّ أختا لامرئ ليث علي * شفق منها عليه فافعلي
جلّ عندي فعل جساس فوا * حسرتا عمّ انجلت أو تنجلي
فعل جساس على وجدي به * قاطع ظهري ومدن أجلي
لو بعين فقئت عين سوى * أختها فانفقأت لم أحفل
يا قتيلا قوّض الدهر به * سقف بيتيّ جميعا من عل
هدم البيت الذي استحدثته * وانثنى في هدم بيتي الأوّل
يشتفي المدرك بالثار وفي * دركي ثاري ثكل مثكلي
انني قاتلة مقتولة * ولعل الله أن يرتاح لي

وهذه الأبيات لو نطق بها الفحول المعدودون من الشعراء لاستعظمت فكيف امرأة وهي حزينة في شرح تلك الحال المشار إليها (واعلم) أنه قد يستخرج من المعنى الذي ليس بمبتدع معنى مبتدع (فمن ذلك) قول الشاعر المعروف بابن السراج في الفهد

تنافس الليل فيه والنهار معا * فقمصاه بجلباب من المقل

وليس هذا من المعاني الغريبة ولكنه تشبيه حسن واقع في موقعه وقد جاء بعده شاعر من أهل الموصل يقال له ابن مسهر فاستخرج من هذا البيت معنى غريبا فقال

ونقطته حباء كي يسالمها * على المنايا نعاج الرمل بالحدق

وهذا معنى غريب لم أسمع بمثله في مقصده الذي قصد من أجله وقليلا ما يقع في هذا الكلام المنظوم والمنثور وهو موضع ينبغي أن توضع اليد عليه ويتنبه له وكذلك فلتكن سياقة ما جرى هذا المجرى (وقد جاءني شيء من ذلك) في الكلام المنثور (فمن ذلك) ما ذكرته في وصف نساء حسان وهو أقبلت ربات الكناس في مخضرّ اللباس فقيل إنما يخترن الخضرة من الألوان ليصح تشبيههن بالأغصان وهذا معنى غريب وربما يكون قد سبقت إليه إلا أنه لم يبلغني بل ابتدعته ابتداعا (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن منازلة بلد فذكرت القتال بالمنجنيق وهو فنزلنا بمرأى منه ومسمع واستدرنا به استدارة الخاتم بالإصبع ونصبت المنجنيقات فأنشأت سحبا صعبة القياد مختصة بالربا دون الوهاد فلم تزل تقذف السور بوبل من جلودها وتفجؤه برعودها قبل بروقها وبروق السحب قبل رعودها حتى غادرت الحزن منه سهلا والعامر بلقعا

مخلى وفى هذا معنيان غريبان أحدهما أن هذه السحب تختص الرباد ون الوهاد والآخر أن رعودها قبل بروقها وكل ذلك يتفطن له بالمشاهدة (ومن ذلك) ماذكرته فى فصل من كتاب فقلت اذا تحلق المرء بخلق اليأس والندى لم يخف عرضه دنسا كما أن الماء اذا بلغ قلتين لم يحمل نجسا وهذا المعنى مبتدع لى وهو مستخرج من الحديث النبوى فى قوله صلى الله عليه وسلم اذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا (ومن ذلك) ماذكرته فى وصف مفازة فقلت مفازة لا توطأ بأجفان ساهر ولا تقتل باقتحام خابر ولولا مسير الهلال من فوقها لما عرفت تمثال حافر (ومن ذلك) ماذكرته فى كتاب أصف فيه نزول العدو على حصار بلد من بلاد المكتوب عنه وكان ذلك فى زمن الشتاء فسقط على العدو ثلج كثير صار به محصورا فقلت وقد عاجله قتال البروق قبل البوارق وأحاط به الثلج فصار خنادق تحول بينه وبين الخنادق والشتاء قد لاقى عسكره من البرد بعسكره والسماء قد قابلته باقشعرار جوّها الا بأخضره والارض كأنها قرصة النقى وعسى أن تكون أرض محشره والمعنى المخترع من هذا الكلام قولى والارض كأنها قرصة النقى وعسى أن تكون أرض محشره وهو مستخرج من الحديث النبوى فى قوله صلى الله عليه وسلم انكم تحشرون على أرض بيضاء كقرصة النقى يريد الخبزة البيضاء ولما كان الثلج على الارض مماثلا لذلك ومشابها له استنبطت أمثاله هذا المعنى المخترع فجاء كما تراه وهو من المعانى التى يدل عليها شاهد الحال (وأحسن من هذا كله) ما كتبته فى فصل من كتاب الى ديوان الخلافة ببغداد فقلت ودولته هى الضاحكة وان كان نسبها الى العباس وهى خير دولة أخرجت للزمن كما أن رعاياها خير أمة أخرجت للناس ولم يجعل شعارها من لون الشباب الا تفاؤلا بأنها لا تهرم وأنها لا تزال محبوبة من أبكار السعادة بالحب الذى لا يبلى والوصل الذى لا يصرم وهذا معنى استنبطه الخادم للدولة وشعارها وهو مما لم تخط به الاقلام فى خطها ولا أجالته الخواطر فى أفكارها وغرابة هذا المعنى ظاهرة ولم يأت بها أحد قبلى (ويلحق) من المعانى المخترعة أن عبد الملك بن مروان بنى بابا من أبواب المسجد الاقصى بالبيت المقدس وبنى الحجاج بابا الى جانبه فجاءت صاعقة فأحرقت الباب الذى بناه عبد الملك فتطير لذلك وشق عليه فبلغ ذلك الحجاج فكتب اليه كتابا بلغنى كذا وكذا فليهن أمير المؤمنين أن الله تقبل منه وما مثلى ومثله الا كابنى آدم

اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر فلما وقف عبد الملك على كتابه سرّى عنه وهذا معنى غريب استخرجه الحجاج من القرآن الكريم وهو من المعانى المناسبة لما ذكرت فيه ويكفى الحجاج من فطانة الفكرة أن يكون عنده استعداد لاستخراج مثل ذلك (وأما المعانى) التى تستخرج من غير شاهد حال متصورة فانها أصعب مثالا مما يستخرج بشاهد الحال ولا مر ما كان لابكارها سر لا يهجم على مكامنه الاجنان الشهم ولا يفوز بمحاسنه الامن دق فهمه حتى جل عن دقة الفهم وللهجوم على عذارى المغانى المحجبة بحجب البواتر أيسر من الهجوم على عذارى المعانى المحجبة بحجب الخواطر وماذاك مما يلقيه اليك الاستاذ وليس يقوم به الا الفذ ولا أقول الافذاذ وأين الذى ينشئ فيحسن فيها الانشاء ويبرز فيها صورا يركبها كيف يشاء ومن نظر الى هذا الموضع حق النظر وأخذ فيه بالعين دون الاثر علم أنه مقام يزلق بمعارف الافهام فكيف بمواقف الاقدام وليست المعانى فيه الا كالارواح ولا الالفاظ الا كالاجسام فمن شاء أن يخلق خلقا من الكلام فليأت به على صورة الاناسى لا على صورة الانعام فان من القول الغانية التى هى أحسن من الغانية ومنه البهيمة التى لا تشبه الا بالسائمة (فمما جاء فى هذا الباب) قول أبى نواس

شرابك فى السراب اذا عطشنا * وخبزك عند منقطع التراب
وما روحتنا لتذب عنا * ولكن خفت مرزئة الذباب

فالبيت الثانى من هذين البيتين هو المشار اليه بانه معنى مبتدع ويحكى عن الرشيد هرون رحمه الله أنه قال لم يهج باد ولا حاضر بمثل هذا الهجاء (ومن هذا الباب) قول مسلم بن الوليد

تنال بالرفق ما تعيا الرجال به * كالموت مستعجلا يأتى على مهل

(ومن هذا الباب) قول على بن جبلة

تكفل ساكن الدنيا حميد * فقد أضحت له الدنيا عيالا
كأن أباه آدم كان أوصى * اليه أن يعولهم فعالا

وهذا معنى دندن حوله الشعراء وفاز على بن جبلة بالافصاح عنه وقد قيل ان أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعانى وقد عدت معانيه المبتدعة فوجدت ما يزيد على عشرين معنى وأهل هذه الصناعة يكبرون ذلك وما هذا من

مثل أبي تمام بكبير فاني أنا عددت معاني المبتدعة التي وردت في مكاتبات فوجدتها أكثر من هذه المدة وهي مما لا أنازع فيه ولا أدافع عنه فاما ما ورد لابي تمام فمن ذلك قوله

يا أيها الملك النائي برؤيته * وجوده لمراعي جوده كثب
ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا * ان السماء ترجى حين تحتجب

(وكذلك قوله) رأينا الجود فيك وما عرضنا * لسجل منه بعد ولا ذنوب
ولكن دارة القمر استتمت * فدلتنا على مطر قريب

(وكذلك) قوله في الهيجاء

وأنت تدير قطب رحا عليا * ولم ير للرحا العلياء قطبا
ترى قطر بكل صراع قرن * اذا ما كنت أسفل منه جنبا

(وكذلك قوله) واذا أراد الله نشر فضيلة * طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت * ما كان يعرف طيب عرف العود

(وكذلك قوله) لاتنكروا ضربي له من دونه * مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره * مثلا من المشكاة والنبراس

(وكذلك قوله)

لاتنكري عطل الكريم من الغنى * فالسيل حرب للمكان العالي

(وكذلك قوله في الشيب)

شعلة في المفارق استودعتني * في صميم الفؤاد ثكلا صميما
يستثير الهموم ما اكتن منها * صعدا وهي تستثير الهموما

فالبيت الثاني من المعاني المخترعة وقد تفننه فيه فجعله مسئلة من مسائل الدور وهذا من اغراب أبي تمام المعروف وهذا القدر كاف من جملة معانيه فانا لم نستقصها ههنا (ومن هذا الباب) قول ابن الرومي

كل امرئ مدح امرأ لنواله * وأطال فيه فقد أساء هجاءه
لولم يقدر فيه بعد المستقى * عند الورود لما أطال رشاءه

(وكذلك قوله)

* عدوك من صديقك مستفاد * فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه * يكون من الطعام أو الشراب

(وكذلك قوله) لما تؤذن الدنيا به من صروفها * يكون بكاء الطفل ساعة يولد
والا فما يبكيه منها وانه * لأوسع مما كان فيه وأرغد
اذا أبصر الدنيا استهل كأنه * بما هو لاق من أذاها يهدد
(وكذلك قوله) رددت على مدحي بعد مطل * وقد دنست ملبسه الجديدا
وقلت امدح به من شئت غيري * ومن ذا يقبل المدح الرديدا
وهل للحي في أكفان ميت * لبوس بعد ما امتلأت صديدا
(وقد ورد لابي الطيب المتنبي) من ذلك كقوله
أجزني اذا أنشدت مدحا فانما * بشعري أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت بعد صوتي فانني * أنا الصائح المحكي والآخر الصدى
فالبيت الاول قد توارد على معناه الشعراء قديما وحديثا لكن البيت الثاني في التمثيل الذي مثله ليس لاحد الا له وكذلك قوله
بهجر سيوفك أغمادها * تمنى الطلى أن يكون الغمودا
الى الهام تصدر عن مثله * يرى صدرا عن ورود ورودا
(وكذلك قوله) في بدر بن عمار يهنيه ببرئه من مرض
قصدت من شرقها ومغربها * حتى اشتكتك الركاب والسبل
لم تبق الا قليل عافية * قد وفدت تجتديكها العلل
(وقد وقفت) على ما شاء الله من أشعار الفحول من الشعراء قديما وحديثا فلم أجد لاحد منهم في ذكر المرض ما يعد معنى مخترعا لا بل لم أجد من أقوالهم شيأ مرضيا ماعدا المتنبي فانه ذكر المرض في عدة مواضع من شعره فأجاد وهذا البيت الثاني من هذين البيتين معنى مخترع له وقد أحسن فيه كل الاحسان (ومما ابتدعه) باجماع قوله في مدح عضد الدولة في قصيدته النونية التي مطلعها
مغاني الشعب طيبا في المغاني * فقال عند ذكره
فعاشا عيشة القمرين يحيا * بضوئهما ولا يتحاسدان
ولا ملكا سوى ملك الاعادي * ولا ورثا سوى من يقتلان
وكان ابنا عدو كاثراه * له ياءى حروف أنيسيان
أي جعل الله ابني عدو كاثراه يعني ابني عضد الدولة كياءى حروف تصغير انسان فان ذلك زيادة وهو نقص في المقدار الا أن سبك هذا البيت قد شوهه وأذهب

حلاوة المعنى المتدرج تحته (ومن معانيه) المبتدعة قوله

فان تفق الانام وأنت منهم * فان المسك بعض دم الغزال

وأحسن من ذلك قوله

صدمتهم بخميس أنت غرته * وسمهريته في وجهه غمم
فكان أثبت ما فيهم جسومهم * يسقطن حولك والارواح تنهزم

وهذا من أعاجيب أبي الطيب التي برز بها على الشعراء (ومن الاحسان) في هذا الباب قول بعضهم

وقد أشق الحجاب الصعب ماذيه * دوني وآبى ولو جا فيه ان طرقا
كالطيف يأبى دخول الجفن منفتحا * وليس يدخله الا اذا انطبقا

(ورأيت ابن حمدون) البغدادي صاحب كتاب التذكرة قد أوردها تين البيتين في كتابه وقال قد أغرب هذا الشاعر ولكنه غلط وجرى على عادة الشعراء لان الطيف لا يدخل الجفن وانما يخيل الى النفس وهذا كلام من لم يعلم من شجرة الفصاحة والبلاغة وليس مثله عندي الا كما يحكى عن ملك الروم اذ أنشد عنده بيت المتنبي الذي هو

كأن العيس كانت فوق جفني * مناخات فلما ثرن سالا

فسأل عن المعنى ففسر له فقال ما سمعت بأكذب من هذا الشاعر أرأيت من أناخ الجمل على عينه لا يهلكه (ومن محاسن هذا القسم) قول بعضهم

تخيره الله من آدم * فما زال منحدرا يرتقي

(وكذلك قول الآخر)

بأبي غزال غازلته مقلتي * بين الغوير وبين شطي بارق
عاطيته والليل يسحب ذيله * صهباء كالمسك الفتيق لناشق
وضممته ضم الكمي لسيفه * وذؤابتاه حمائل في عاتقي
حتى اذا مالت به سنة الكرى * زحزحته شيأ وكان معانقي
أبعدته عن اضلع تشتاقه * كي لا ينام على وساد خافق

وهذا من الحسن والملاحة بالمكان الاقصى ولقد خفت معانيه على القلوب حتى كادت ترقص رقصا والبيت الاخير منه هو الموصوف بالابداع وبه وبأمثاله أقرت الابصار بفضل الاسماع (ومن هذا الضرب) قول بعض المصريين يهجو

انسانا يقال له ابن طليل احترقت داره

انظر الى الايام كيف تسوقنا * طوعا الى الاقرار بالاقدار
ما أوقد ابن طليل قط بداره * نارا وكان هلاكها بالنار

(وكذلك) ورد قول ابن قلاقس من شعراء مصر

زد رفعة ان قيل أنشغض واخفض ان قيل أثرى
كالغصن يدنو ما اكتسى * ثمرا وينأى ما تعرى

وهذا من المعانى الدقيقة (ومن هذا الاسلوب) قول الشاعر المعروف بالحافظ فى تشبيه البهار وهو

عيون تبر كأنما سرقت * سواد أحداقها من الغسق
فان دجا ليلها بظلمته * ضممن من خوفها على السرق

وهذا تشبيه بديع لم يسمع بمثله وهو من اللطافة على ما لا اخفاء به (ومن هذا القسم) قول بعض المتأخرين من أهل زماننا

لا تضع من عظيم قدر وان كنت مشارا اليه بالتعظيم
فالشريف العظيم ينقص قدرا * بالتعدى على الشريف العظيم
ولع الخمر بالعقول رمى الخمر بتنجيسها وبالتحريم

(ومن غريب ما سمعته فى هذا الباب) قول بعض الشعراء المغاربة يرثى قتيلا

غدرت به زرق الاسنة بعدما * قد كن طوع يمينه وشماله
فليحذر البدر المنير نجومه * اذ بان غدر مثالها بمثاله

(وكذلك) جاء قول بعض المغاربة فى الخمر وكاساتها

ثقلت زجاجات أتتنا فرغا * حتى اذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بما حوت * وكذا الجسوم تخف بالارواح

وهذا معنى مبتدع أشهد أنه يفعل بالعقول فعل الخمر سكرا ويروق كما رقت لطفا ويفوح كما فاحت نشرا (وكذلك) ورد قول ابن حمديس الصقلى

يا سالبا قمر السماء جماله * ألبستنى للحزن ثوب سمائه
أضرمت قلبى فارتمى بشرارة * وقعت بخدك فانطفت من مائه

وهذا المعنى دقيق جدا (وقد سمعت فى الخال) ما شاء الله أن أسمع فلم أجد مثل هذا وقد جاءنى فى الكلام المنثور من هذا الضرب شئ وسأذكر ههنا منه نبذة

(ومن ذلك) ما ذكرته في وصف صورة مليحة فقلت ألبس من الحسن أنضر لباس
وخلق من طينة غير طينة الناس وكلما زاد حسنا فكذلك ازداد طيبا واتفقت
فيه الاهواء حتى صار الى كل قلب حبيبا فلو صافح الورد لتعطرت أوراقه أو مر
على النيلوفر ليلا لتفتحت أحداقه (والمعنى) الغريب ههنا أن الشمس اذا طلعت
على النيلوفر تفتح أوراقه واذا غربت عنه انضم ثم اني سمعت هذا في شعر الفرس
لبعض شعرائهم فحصل عندي منه تعجب (ومن ذلك) ما ذكرته في ذم الشيب فقلت
الشيب اعدام للايسار واظلام للانوار وهو الموت الاول الذي يصلي نارا من الهم
أشد وقودا من النار ولئن قال قوم انه جلالة فانهم ذموا به وما جلوا وأقدموا في
وصفه بغير علم فضلوا وأضلوا وما أراه الاحراثا للعمر ولم تدخل آلة الحرث دار
قوم الا ذلوا ومن عجيب شأنه أنه المملول الذي يشفق من بعده والخلق الذي يكره
نزع برده ولما انفقد الشباب كان عنه عوضا ولا عوض منه في فقده (والمعنى)
المخترع ههنا في قولي وما أراه الاحراثا للعمر ولم تدخل آلة الحرث دار قوم الا ذلوا
وهو مستنبط من الحديث النبوي وذاك أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى آلة
حرث فقال ما دخلت هذه دار قوم الا ذلوا فأخذت أنا هذا ونقلته الى الشيب
فجاء كما تراه في أعلى درجات الحسن وذلك لما بينه وبين الشيب من المناسبة الشبيهة
لان الشيب يفعل في البدن ما يفعله الحراث في الارض واذا نزل بالانسان أحدث
عنده ذلا (ومن هذا الباب) ما ذكرته في فصل من كتاب الى بعض الناس أعتب به
فقلت واذا كتبت مثالبه في كتاب اجتمع عليه بنات وردان وحرم على أن أبدأ
فيه بالبسملة لانها من القرآن وهذا معنى لطيف في غاية اللطافة وهو مخترع لي
(وكذلك) كتبت الى بعض الناس كتابا من هذا الجنس أهزل معه فقلت في فصل منه
ما أذكره وهو ينبغي له أن يشكرني على وسمه بهجائي دون امتداحي فاني لم أسمه
الا لأكرم به الاضحية في يوم الاضاحي ولا شك أن سيدنا معدود في جملة الانعام
غير أنه من ذوات القرون والقرن عدوه عند الخصام وهذا معنى ابتدعته ابتداعا
ولم أسمعه لاحد من قبلي (ومن ذلك) ما ذكرته في جملة كتاب يتضمن هزيمة الكفار
وذلك فصل منه فقلت وكانت الوقعة يوم الاحد منتصف شهر كذا وكذا وهذا هو
اليوم الذي تخيره الكفار من أيام الاسبوع ونصبوه موسما لشرع كفرهم المشروع
فحصل ارتيابهم به اذ تضمن للاسلام مزيدا وقالوا هذا يوم قد أسلم فلا نجعله لنا

عيدا

عمدا وقد أفصح لهم لسانه لو كانوا يعلمون بأن الدين عند الله هو الاسلام وأن أولياءه هم المسلمون وهذا معنى انفردت بابتداعه ولم يأت به أحد ممن تقدمني (ومن ذلك) ما ذكرته فى فصل من كتاب الى ديوان الخلافة ببغداد وهو فى وصف القلم فقلت وقلم الديوان العزيز هو الذى يخفض ويرفع ويعطى ويمنع وهو المطاع بجدع أنفه وسواد لباسه وقد ورد الامر بطاعة الحبشى الاجدع ومن أحسن صفاته أن شعاره من شعار مولاه فهو يخلع على عبيده من الكرامة ما يخلع فى هذه الاوصاف معان حسنة لطيفة ومنها معنى غريب لم أسبق اليه وهو قولى انه المطاع بجدع أنفه وسواد لباسه وقد ورد الامر بطاعة الحبشى الاجدع فان هذا مما ابتكرته وهو مستخرج من الحديث النبوى فى ذكر الطاعة والجماعة فقال صلى الله عليه وسلم أطع ولو عبدا حبشيا مجدعا ما أقام عليك كتاب الله فاستخرجت أنا للقلم معنى من ذلك وهو أن القلم يجدع ويقمط لباس السواد فصار حبشيا أجدع وهذا كما فعل أبو تمام حبيب بن أوس الطائى فى قصيدته السينية فانه استخرج المعنى المخترع من القرآن الكريم وأنا استخرجت المعنى من الخبر النبوى كما أريتك وهذا المعنى المشار اليه فى وصف القلم أوردته بعبارة أخرى على وجه آخر ونبهت عليه فى كتاب الوشى المرقوم فى حل المنظوم وهذا كتاب ألفته فى صناعة حل الشعر وغيره (وبعد هذا) فأقول لك فى هذا الموضع قولا لم يقله أحد غيرى وهو أن المعانى المبتدعة شبيهة بمسائل الحساب المجهول من الجبر والمقابلة فكما أنك اذا وردت عليك مسألة من المجهولات تأخذها وتقلبها ظهرا لبطن وتنظر الى أوائلها وأواخرها وتعتبر أطرافها وأوساطها وعند ذلك تخرج بك الفكرة الى معلوم فكذلك اذا ورد عليك معنى من المعانى ينبغى لك أن تنظر فيه كنظرك فى المجهولات الحسابية الا أن هذا لا يقع فى كل معنى فان أكثر المعانى قد طرق وسبق اليه والابداع انما يقع فى معنى غريب لم يطرق ولا يكون ذلك الا فى أمر غريب لم يأت مثله وحينئذ اذا كتب فيه كتاب أو نظم فيه شعر فان الكاتب والشاعر يعثران على مظنة الابداع فيه وقد لابست ذلك فى مواضع كثيرة وسأورد ههنا ما يحتذى حذوه لمن استطاع اليه سبيلا (ومن ذلك) ما كتبته عن نفسى الى بعض ملوك الشام وأهديت اليه مرطبا وهو خلد الله دولة مولانا وعمر لها مجدا وجنانا

وبخوّلها السعادة عطاء حسابا وأنشأ الليالى لخدمتها عربا أترابا وأبقى شبيبتها
بقاء لا يستحدث معه خضابا ولا جعل لها فى محاسن الدول السابقة أشباها ولا
أضرابا وألقى البأس بين أعدائها وحسادها حتى يبعث لهم فى الارض غرابا اذ لم
أراد العبيد أن يهدوا للموالى بهم قصرت بهم يد وجدهم وعلموا أن كل ماعندهم
من عندهم لكن فى الاشياء المستطرفة مايهدى وان كان قدره خفيفا ولولا
اختلاف البلاد فيما يوجد بها لما كان شئ من الاشياء طريفا وقد أهدى المملوك
من الرطب ما يتجلى فى صفة الوارس ويزهى بحسنه حتى كأنه لم يدنس بيد لامس
وما سمى رطبا الا لاشتقاقه من الرطب الذى هو ضد اليابس وقد أثنى رسول
الله صلى الله عليه وسلم عليه ثناء جما وفضل شجرته على الشجر بأن سماها أما ولئن
عدم عرفا لذيذا فانه لم يعدم منظرا لذيذا ولا طعما وله أوصاف أخرى هى لفضله
بمنزلة الشهود فمنها أنه أول غذاء يفطر عليه الصائم وأول غذاء يدخل بطن المولود
وأحسن من ذلك أنه معدود من الحلوا وان كان من ذوات الغراس ولا فرق
بينهما سوى أنه من خلق الله وتلك من خلق الناس واذا أنصف واصفه قال مامن
ثمرة الا وهى عنه قاصرة ولو تفاخرت البلاد بمحاسن ثمارها لقامت أرض العراق به
فاخرة وها قد سار الى باب مولانا وهو مجنى المنابت سار الى مجنى الكرم وملك
الفاكهة وفد على ملك الشيم ولما استقلت به الطريق أنشأ الحسد لغيره من
الفواكه أربا ومامنها الا من قال ياليتنى كنت رطبا ولئن كان من الثمرات التى
تختلف فى الصور والاسماء ويفضل بعضها على بعض ويسقى بشرب واحد من الماء
فكذلك تلك الشيم العريقة تتحد فى عنصرها وهى مختلفة الوتيرة ومن أفضلها
سمة السماح التى تقبل القليل من عبيدها وتسمح لهم بالعطايا الكثيرة وقد ضرب
لها المملوك مثالا فقال هى كجنة بربوة بل ضرب لها ماضرب للمثل النبوى وهى
نخلة بكبوة ولا يختم كتابه بأحسن من هذا القول الذى طاب سمعا وزكا أصلا وفرعا
وتصرف فى أساليب البلاغة فجاء به وترا وشفعا والسلام (وهذا كتاب غريب) فى
معناه وقد اشتمل على معان كثيرة فمن جملتها أن الرطب مشتق من الرطب الذى
هو ضد اليابس ومن جملتها أن النبى صلى الله عليه وسلم سمى النخلة أمّا فقال أمّكم
النخلة ومن جملتها أنه كان صلى الله عليه وسلم يفطر على رطبات فان لم يجد فتمرات
ومن جملتها أنه كان يلوك التمرة ويحنك بها المولود عند ميلاده ولما ولد عبد الله بن

الزبير جاءت أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنه ووضعته في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلاك تمرة ووضعها في فيه ومن جملتها أنه والحلواء شيء واحد الا أنه من خلق الله وذلك من خلق الناس ومن جملتها أن العباس رضي الله عنه قال يارسول الله ان قريشا اذا ذكرت أحسابها فضربوا لك مثلا لا نخلة بكبوة وكل هذه المعاني حسنة واردة في موضعها ومن كتب في معنى من المعاني فليكتبه هكذا والا فليدع (ومن ذلك) رقعة كتبتها الى بعض حجاب السلطان في حاجة عرضت لي وأرسلت معها هدية من ثياب ودراهم وهي

ما من صديق وان تمت صداقته ۞ يوما بأنجح في الحاجات من طبق

اذا تلثم بالمنديل منطلقا ۞ لم يخش نبوة بواب ولا غلق

الهدية مشتقة من الهدى غير أنها ترق الى القلب لا الى الندى وصهارتها أنفع من الصهارة وكلما ترددت كانت بكرا فهي لا تنفك عن البكارة ومن خصائصها أنها تمسك بمعروف أو من من السراح واذا رامت فتح باب لا تفتقر في علاجه الى مفتاح وقد قيل انها الحسناء المتأنقة في عمارة بيتها التي توصف بأن القنديل يضيء بزينتها وقد أرسلتها الى المولى وهي تتهادى في اعجابها وتدل بكثرة دراهمها وثيابها وتقول أنا الكريمة في قومها الشريفة في أنسابها وأحسن ما فيها أنها جاءت تسرا لم تعلم بها اليد اليمنى من اليسرى فخذها يا مولاي واكشف نقابها وأمط عنها جلبابها وقد كانت منك حرة وهي الآن في حيز الملكة ومن السنة في مثلها أن تؤخذ بالناصية ويدعى بالبركة والسائر بها فلان وهو في الجهل بها سامل أسفار وناقل لها من دار الى دار ولربما نطق لسان حالها الذي هو أفصح من نطق اللسان وأذكرت بحاجة مرسلها وحاشى فطانة الكريم من النسيان وليس المطلوب الا فضلية من الجاه تسفر بين السائل والمسؤل وتنقل البعيد الى درجة القريب والممنوع الى درجة المبذول فاذا فعل المولى ذلك كان له منة السفارة ومنة الانعام وان سمع بأن سعيا واحدا فاز بشكرين اثنين ففي مثل هذا المقام ومن الناس من يقول ليس على جانب السلطان ثقل في صنعه وهل ههنا الا كلمات تقال والكلام ماعون لا رخصة في منعه ولم يدر أن ملاطفة الخطاب ضرب من الاحتيال وأن ثقل الخطوات فيه أثقل من نقل الجبال وأن صاحب الحاجة يحظى بحلاوة النجاح والحاجب يلقى

مرارة السؤال وهذا يقوله الخادم ايجابا بالاحسان المولى الذى هو احسان شامل ولا يعلمه الا عالم بفضله ولا يجهله الا جاهل والله تعالى يجعل الحاجات مغدوقة ببابه حتى لا تنفك فى الدنيا من امداد شكره وفى الآخرة من امداد ثوابه والسلام فتأمل أيها الناظر فى كتابى هذا الى ما اشتملت عليه هذه الرقعة من المعانى حتى تعلم كيف تصنع يدك فيما تكتبه (ومن ذلك) رقعة أخرى كتبتها فى هذا المعنى المتقدم ذكره وأرسلت معها هدية من المسك وهى الهدية رسول يخاطب عن مرسله بغير لسان ويدخل على القلوب من غير استئذان وقد قيل أخت السحر ملاطفة قصدها غير أنها لا تحتاج الى نفثها ولا الى عقدها ومامن قلب الا وصورتها تجلى عليه فى سرقة ولولا شرف مكانها ما حلت للنبى صلى الله عليه وسلم مع تحريم الصدقة ولها صفات غير هذه كريمة الاخطار حسنة لدى الاسماع والابصار ومن أحسنها أنها تستجد ودا وتجعل قربا مكان بعدا وتقول لنار الاحنة يا نار كونى بردا ولهذا قيل تهادوا تحابوا ولا شك أنها وصلة بين المودات فاذا تواصل الناس تقاربوا وقد أرسل الخادم منها شيأ اذا كتمه ذاع واذا خزنه ضاع وقد شبه به الجليس الصالح بعد أسباب الانتفاع ومما زاد مزية على مزيته أنه وشيم المولى توأمان غير أن شيمته تنتمى الى كرم محتدها وهو ينتمى الى سرر الغزلان فاذا ورد على مجلسه قيل هذا عطر وردعلى جونة عطار وعرف له حق المشاركة فان أدنى الشرك فى الشيم جوار وقد نطق الخبر النبوى بانه أحد الثلاثة التى لا ترد على من أهداها واذا نظر الى محصول بقائها وفائدتها وجد أطولها عمرا وأجداها وهذا يحكم على المولى بقبول ما استرسل الخادم فى ارساله واذا سأل غيره فى قبول هديته كفاه نص الخبر مؤنة سؤاله والسلام وهذه الرقعة أحسن من التى قبلها (فمما اشتملت عليه من المعانى) قولى ومامن قلب الا وصورتها تجلى عليه فى سرقة ولولا شرف مكانها ما حلت للنبى صلى الله عليه وسلم مع تحريم الصدقة وهذان المعنيان مستخرجان من خبرين نبويين أحدهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال جاءنى جبريل عليه السلام ومعه سرقة من حرير يعنى حريرة بيضاء وفيها صورة عائشه رضى الله تعالى عنها وقال هذه زوجتك فى الدنيا والآخرة والخبر الآخر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال حرمت على الصدقة وأحلت لى الهدية (ومما اشتملت عليه أيضا) قولى وقد أرسل الخادم منها

شيأ اذا كتمه ذاع واذا خزنه ضاع وهذه مغالطة حسنة لان المسك اذا كتم ذاعت رائحته واذا خزن ضاع أى فاح ويقال ضاع الشئ اذا ذهب فالمغالطة ههنا فى الجمع بين الضدين (وكذلك) قولى وقد شبه به الجليس الصالح وهذا مستخرج من الخبر النبوى أيضا وذلك أنه قال صلى الله عليه وسلم مثل الجليس الصالح مثل حامل المسك اما أن يحذيك واما أن تبتاع منه واما أن تجد منه عرفا طيبا ومثل جليس السوء مثل نافخ الكير اما أن يحرق ثوبك واما أن تجد منه رائحة كريهة (ومما اشتملت عليه) من المعانى أيضا قولى انه أحد الثلاثة التى لا ترد على من اهداها وهذا مستخرج من الخبر النبوى أيضا وهو قوله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا ترد الطيب والريحان والدهن (ومن ذلك) رقعة كلفنى بعض أصدقائى املاءها عليه وهى رقعة من عاشق الى معشوق وهى

وإذا قيل من تحب تخطا * لسانى وأنت فى القلب ذاكا

يا من لا أسميه ولا أكنيه وأذكر غيره وهو الذى أعنيه لا تكن ممن أوتى ملكا فلم ينظر فى زواله وعرف مكانه من القلوب فجار فى ادلاله ولا تغتر بقول من رأى الحسن للاساءة ماحيا واعلم أن اللاحى يقول كفى بالتذلل لاحيا وكثيرا ما يزول العشق بجنايات الصدود والزيادة فى الحد نقصان فى المحدود وقد قيل ان الحسن عليه زكاة كزكاة المال وليست زكاته عند علماء المحبة الا عبارة عن الوصال وهذه صدقة تقسم على أربابها ولا ينتظر أن يحول الحول فى ايجابها فهى مستمرة على تجدد الايام والمستحقون لها قسم واحد ولا يقال انهم ثمانية أقسام وهؤلاء هم المخصوصون بفك الرقاب ورقبة العشق أشد أسرا من رقبة تحرر بالكتاب فأخرج يا مولاى من هذا الحق الواجب والافتات لطالب منى ومطالب ولا تقل هذا غريم أكثر عدد الليالى فى مطله وأعده والمواعيد زاد لمثله فهذه سلعة قد عاملتنى بها مرة ساخرا ومرة ساحرا ومن الاقوال السائرة أن الغر تجعله التجربة ماهرا ولعمرى ان ممارسة الحب تجدد لصاحبه علما وتبصره وان كان كما يقال أعمى وقد كذب القائل

عرضن للذى تحب بحب * ثم دعه يروضه ابليس

فان كانت الرياضة كما قيل لابليس فما أراه صنعا فى الذى صنع وأراك استعصيت عليه استعصاء القارح وأنت جذع ولا شك أنك تهدم ما يشيده من

البناء أو أنك مستثنى في جملة من دخل في حكم الاستثناء وأنا الآن له عاتب وعليه عاتب فأين نفثاته التي هي أخدع من الحبائل وأين قوله لآتينهم عن الايمان والشمائل وأين جنوده المسترقة ما في السما التي تجري من بني آدم مجرى الدما وكل هذا قد بطل عندي خبره كما بطل عندي أثره فان أدركته النخوة بأني أستهزئ بتصديق أفعاله فليحل معقول حاجتي هذه حتى أعلم أنه قادر على حل عقاله والا فليخف راسه وليمح وسواسه وان كان له عرش على البحر فليقوض من عرشه وليعلم أن السحر ليس في عقده ونفثه ولكنه في الاصفر ونقشه وها أنا قد بعثت منه ما يجعل العزم محلولا والود مبذولا وما أقول الا أني بعثت معشوقا الى معشوق وكلاهما محله القلب بل القلب من حبهما مخلوق وما أكرمه وهو وسيلة الى مثله وحسنه من حسنه وان لم يكن شكله من شكله وما وصفه واصف الا كان ما رآه منه فوق ما رواه ومن أغرب أوصافه وأحسنها أنه لم يرذو وجهين وجيها سواه لا جرم أنه اذا أسفر في أمر تلطف في فتح أبوابه وتناول وعره فبدله بسهله وبعده فبدله باقترابه ولو بعثت غيره لخفت أن لا يكون في سفارته صادقا أو أنه كان يمضي سفيرا ويعود عاشقا فليس على الحسن أمانة وفي مثله تعذر الخيانة ولا لوم على العقول اذا نسيت هنالك عزيمة رشدها ورأت ما لا يحتمله كاهل جهدها ومن الذي يقوى درعه على تلك السهام أو يروم النجاة منها وقد حيل بينه وبين المرام وهذا الذي منعني أن أرسل الاكيسا وكتابا فأحدهما يكون في السفارة والآخر على السر حجابا والسلام ان شاء الله تعالى (وفي هذه الرقعة) من المعاني الغريبة ما أذكره فالاول ما ذكرته في قسم الصدقات وفك الرقاب والثاني ما ذكرته في وصف الدينار وهو أنه وجيه ذو وجهين وقال النبي صلى الله عليه وسلم ذو الوجهين لا يكون وجيها وهذا معنى لم يسبقني أحد اليه وقد وصف الحريري الدينار في مقامة من مقاماته ولم يظفر بهذا المعنى ولا جاء من الاوصاف التي ذكرها بمثله والثالث أني بعثت معشوقا الى معشوق (ومن ذلك ما كتبته) وكان توفيت زوجة بعض الملوك وتوفي معها ولد لها وهو طفل صغير وكان بينهما يومان وتلك المرأة بنت ملك من الملوك أيضا فكتب اليه من الاطراف المجاورة يعزونه وحضر عندي بعض الادباء ممن يحب أن يكون كاتبا وعرض علي نسخة ما كتب به ذلك الملك في التعزية بزوجته وولدها

فوجدتها

فوجدتها كتبا باردة غثة لا تعرب عن الحادثة بل بينها وبينها بعد المشرقين ومن شرط الكتابة أن يكون الكتاب مضمنا فض المعنى المقصود والتعازى مختلفة الانحاء فتعازى النساء غير تعازى الرجال وهى من مستصعبات فن الكتابة والشعر وتعازى الرجال أيضا تختلف فلا يعزى بالميت على فراشه كما يعزى بالميت قتيلا ولا يعزى بالقتيل كما يعزى بالغريق وهكذا يجرى الحكم فى المعانى جميعها وهذا شئ لا يتنبه له الا الراسخون فى هذا الفن من أرباب النثر والنظم وسألنى ذلك الرجل عن هذه التعزية المشار اليها فى المرأة وولدها الصغير وقال أحب أن أعلم كيف تكون فأمليت عليه ثلاثة كتب كل كتاب يتضمن معنى لا يتضمنه الكتاب الآخر (فمما جاء منها) كتاب أنا ذاكره ههنا وهو أشهى التعازى ما أتبع فيه المفقود بمفقود لاسيما اذا جمع بين سعد الاخبية وسعد السعود وكل منهما يعظم حزنا كما يعظم مكانا وهذا يحسر عن الوجوه خمرا وهذا يلقى عن الرؤس تيجانا ولم يوفهما حقهما من بكى ولا من ندب ولا من شعر ولا من كتب وليت فدى أحدهما بصاحبه فعاش درهما المفدى بالذهب

ولو كان خطبا واحدا خف كلمه * ولكنه خطب أعيد على خطب

وقد أصدر الخادم كتابه هذا ومن حقه أن يخرج فى ثوب من الحداد وان يتعثر فى أذيال كلمه والكتاب عنوان الفؤاد وغاية ما يقول أحسن الله عزاء المجلس السامى الملك الاجل السيد على أن هذا الدعاء قد شهدت الحال بمحنه وكيف يملأ قلبه عزاء وقد أوثقه الهم فى سجنه وصار له ولدا دون والده وخدنا دون خدنه لكن يدعى له بامتداد البقاء وأن تعامله الحوادث بعد هذه معاملة الابقاء ثم تتبع ذلك بطلب الجنة لمن نقلته المنايا عن أرائك الخدور وجعلته فى بطون القبور ولمن فاجأت الايام غصنه فقصفته ولم يعش حتى عرف الدنيا ولا عرفته فواها لهما وقد نزلا بمنزل عديم الايناس وان كان مأهولا بأكثر الناس فهو القريب دارا البعيد مزارا الذى حجب من اليأس بأمنع حجاب وذهب عن الوجوه المنعمة لذل التراب فمن كان مسعدا للمجلس فليأخذ بوله الجزع لا بعزيمة الاصطبار وليقل هذا حادث بان فيه تحامل الاقدار وجرت همومه مجرى الخواطر من القلوب والرقاد من الابصار فالاسوة الا فيه معدودة من الاحسان والسلوة الاعنه داخلة فى حيز الامكان والخادم أولى من لقى المجلس فيه بالاسعاد وقام

بما يجب من قضاء حق الوداد وفعل ما يفعله القريب الحاضر وان كان على شقة من البعاد وقد أرسل من ينوب عنه فى التعزية وان لم يكف فيها المناب وكما رخص العذر فى قصر الصلاة فكذلك رخص فى الاقتصار على الرسول والكتاب وقد ود لو حضر بنفسه فاستسقى لذلك الضريح سحابا وعقر عنده ركابا وسأل الله له مغفرة وثوابا والسلام (فى هذا الكتاب معنى غريب) وهو قولى سعد الاخبية كناية عن المرأة وسعد السعود كناية عن ولدها لان سعد الاخبية اسم منزلة من منازل القمر والاخبية جمع خباء ومن شأن المرأة أن تحتجب فى الاخبية فهى سعدها وهذا من المعانى الغريبة فى مثل هذا المقصد وقد اتفق سعد الاخبية وسعد السعود معا وهذا أيضا غريب (ومن ذلك) أنى كتبت كتابا عن الملك الافضل على بن يوسف الى أخيه الملك الظاهر غازى بن يوسف صاحب حلب فى أمر شخص كان أبوه صاحب مدينة تكريت وهذه تكريت كان يتولاها قديما الامير أيوب جد الملك الافضل والملك الظاهر وأولد بها ولده صلاح الدين يوسف أباهما وعلى عقب ولادته انتقل والده عن تكريت هو وعشيرته لامر طرأ لهم وجاء الى الموصل ثم الى الشام وهناك سعدوا وكانت السعادة على يد صلاح الدين يوسف فلما أردت أن أكتب هذا الكتاب علمت أنه مظنة المعانى المبتدعة لان الامر المكتوب فيه غريب لم يقع مثله فحينئذ كتبت هذا الكتاب وهو رفع الله شأن مولانا الملك الظاهر ولا زال الدهر فاخرا بآخر سلطانه ناظما مناقبه فى جيده ومحامده فى لسانه ناسخا بمساعى دولته ما تقدم من مساعى آل بويه وآل حمدانه كتاب الخادم هذا وارد من يد الامير شمس الدين ابن صاحب تكريت وهى أول أرض مس جلد الوالد ترابها وورقت بها السعادة على جبينه كتابها ومنها ظهر نور البيت الايوبى مشرقا وأشام اذ خرج معرقا وكفاه بذلك وسيلة يكتنفها الاحسان والارعاء ويكفى صاحبها أن يقول لا أسقى حتى يصدر الرعاء وقد قرنها بوسيلة قصد الخدمة التى توجب لقاصدها ذماما وتقول له سلاما اذا قال سلاما ثم ثلث هاتين الوسيلتين بكتاب الخادم أخذا بالسنة النبوية فى الدعاء وعدده وتفاؤلا بتثليث النجوم فيما يقصده المرء من سعادة مقصده ولا قدح فى كرم الكريم اذا استكثر طالبه من الاسباب فان الله على كرمه قد استكثر اليه من أعمال الثواب وكتاب الخادم على انفراده كاف لحامله ومكثر من حقوق وسائله وقد صدر مخاطبا عن

نقى ضميره فانما تحق السفارة اذا قعد بكل طالب سعى سفيره وهو مع ذلك خفيفة صفحته وجيزة لهجته واذا وجد لدى مولانا معوّلا فليس عليه أن يرقم مطوّلا اذ التعويل على نجح مصدره لا على كثرة أسطره (فانظر) أيها المتأمّل الى هذا الكتاب وأعطه حقه من التأمّل حتى ترى ما اشتمل عليه من المعانى وانظر كيف ذكرت الاول ثم الثانى ثم الثالث أما المعنى الاول فانه يختص بذكر سعادة البيت الايوبى ومنشئها وأنها ولدت بتكريت وهذا الرجل ينبغى أن يرعى بسببها اذ كان أبوه صاحبها وأما المعنى الثانى فانه قصد الخدمة الظاهرية وهذا وسيلة ثانية توجب له ذماما وأما المعنى الثالث فانه حرمة الكتاب الصادر على يده ثم انى مثلت ذلك بالدعاء النبوى وبتثليث النجوم فان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا دعا دعا ثلاثا وانما مثلت ذلك بالدعاء لامرين أحدهما أنه موضع سؤال وضراعة والآخر أن الكتاب وسيلة ثالثة والدعاء ثلاث مرار وأما تثليث النجوم فان التثليث سعد والتربيع نحس وأحسن المعانى الثلاثة التى تضمنها هذا الكتاب هو الاول والثالث وأما الثانى فانه متداول فتأمّل ما أشرت اليه واذا شئت أن تكتب كتابا فافعل كما فعلت فى هذا الكتاب ان كان الامر الذى تكتب فيه غريب الوقوع (واعلم) أنه قد يقع المعنى المبتدع فى غير أمر غريب الوقوع وذلك يكون قليلا بالنسبة الى الوقائع الغريبة التى هى مظنة المعانى المبتدعة (ومن هذا الباب) ما أوردته فى جملة رسالة طردية فى وصف قسى البندق وحامليها وهو فاذا تناولوها فى أيديهم قيل أهلة طالعة من أكف أقمار واذا مثل غناؤها وغناؤهم قيل منايا مسوقة بأيدى أقدار وتلك قسى وضعت للعب لا للنضال ولردى الاطيار لا لردى الرجال واذا نعتها ناعت قال انها جمعت بين وصفى اللين والصلابة وصنعت من نوعين غريبين فحازت معنى الغرابة فهى مركبة من حيوان ونبات مؤلفة منهما على بعد الشتات فهذا من سكان البحر وسواحله وهذا من سكان البر ومجاهله ومن صفاتها أنها لا تتمكن من البطش الا حين تشد ولا تنطلق فى شأنها الا حين تعطف وترد ولها نشار أحكم تصويرها وصحح تدويرها فهى فى لونها صندلية الاهاب وكانما صيغت لقوتها من حجر لا من تراب فاذا قذفتها الى الاطيار قيل ويصعد من الارض من جبال فيها من برد ولا يرى حينئذ الا قتيل ولكن بالمثقل الذى

لايعجب فى مثله قود فهى كافلة من تلك الاطيار بقبض نفوسها منزلة لها من جو السماء على أم روسها (هذا الفصل) يشتمل على معان غريبة منها قولى انها لا تتمكن من البطش الاحين تشد ولا تنطلق فى شأنها الاحين تعطف وترد ومنها قولى ويصعد من الارض من جبال فيها من برد وكل هذا من المعانى التى تبتدع بالنظر الى المقصد المكتوب فيه فان الكاتب اذا أفكر فيما لديه وتأمله وكان قادرا على استخراج المعنى والمناسبة بينه وبين مقصده جاء هكذا كما تراه الا أن القادر على ذلك من أقدره الله عليه فما كل ناطر بحكيم ولا كل من أوحى اليه بكليم وفى الاقلام ها شم لمن ناواه ومنها هشيم (وسأنبه فى هذا الموضع) على طريق يسلك الى شئ من المعانى المخترعة وهو مما استخرجته وانفردت باستخراجه دون غيرى فان المعانى المخترعة لم يتكلم فيها أحد بالاشارة الى طريق يسلك فيها الا ان ذلك مما لا يمكن ومن ههنا أضرب علماء البيان عنه ولم يتكلموا فيه كما تكلموا فى غيره وكيف تتقيد المعانى المخترعة بقيد أو يفتح اليها طريق تسلك وهى تأتى من فيض الهى بغير تعليم ولهذا اختص بها بعض الناثرين والناظمين دون بعض والذى يختص بها يكون فذا واحدا يوجد فى الزمن المتطاول ولما مارست أنا هذا الفن أعنى فن الكتابة وقلبته ظهرا لبطن وفتشت عن دفائنه وخباياه وأكثرت من تحصيل موادّه والاسباب الموصلة الى الغاية منه سنح لى فى شئ من المعانى المخترعة طريق سلكته وهو يستخرج من كتاب الله تعالى وأحاديث نبيه صلوات الله عليه وسلامه وقد تقدم لى منه أمثلة فى هذا الكتاب وذلك أنه ترد الآية من كتاب الله أو الحديث النبوى والمراد بهما معنى من المعانى فآخذ أنا ذلك وأنقله الى معنى آخر فيصير مخترعا لى وسأورد ههنا منه نبذة يسيرة يعلم منها كيف فعلت حتى يسلك اليها فى الطريق الذى سلكته (فمن ذلك) قصة أصحاب الكهف والرقيم فانى أخذت ذلك ونقلته الى الاحسان والشكر ألا ترى أن الاحسان يستعار له كهف وكنف وظل وأشباه ذلك والشكر كلمات تقال فى التنويه بذكر المحسن واحسانه والرقيم هو الكتاب المكتوب فهو والشكر متماثلان والذى أتيت به قد أوردته وهو فصل من كتاب الى بعض المنعمين الخادم يشكر احسان المولى الذى ظل عنده مقيما وغدا عطاؤه به زعيما وأصبح بتواليه اليه مغرما كما أصبح له غريما ولما تمثل فى الاشتمال

عليه كهفا صار شكره فيه رقيما فانظر كيف فعلت فى هذا الموضع لتعلم أنى قد فتحت لك فيه طريقا تسلكه (وأما الحديث النبوى) فانى أخذت قصة قتلى بدر كأبى جهل وعتبة وشيبة وغيرهم ونقلتها الى القلم وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف على القليب الذى ألقاهم فيه وناداهم بأسمائهم فقال يا عتبة يا شيبة يا أبا جهل يا فلان يا فلان والحديث مشهور فلا حاجة الى استقصائه والذى أتيت به فى وصف القلم هو أنى قلت ولقد مرح القلم فى يدى وحق له أن يمرح وأبدع فيما أتى به وكل اناء بالذى فيه ينضح ومن شأنه أن يستقل على أعواد المنبر فلا ينتهى من خطبتها الى فصلها ويقف على جانب القليب الا أنه لا ينادى من المعانى أبا جهلها فالدواة قليب والقلم يقف عليه والمعانى التى ينشئها من باب العلم لا من باب الجهل فتأمل هذه الكلمات التى ذكرتها فانها لطيفة جدا وهى مخترعة لى وهذا القدر كاف فى طريق التعليم فليحتذ حذوه ان أمكن والله الموفق للصواب (وأما الضرب الآخر) من المعانى وهو الذى يحتذى فيه على مثال سابق ومنهج مطروق فذلك جل ما يستعمله أرباب هذه الصناعة ولذلك قال عنترة * هل غادر الشعراء من متردم * الا أنه لا ينبغى أن يرسخ هذا القول فى الاذهان لئلا يؤيس من الترقى الى درجة الاختراع بل يعول على القول المطمع فى ذلك وهو قول أبى تمام

لا زلت من شكرى فى حلة * لابسها ذو سلب فاخر
يقول من تقرع أسماعه * كم ترك الاول للآخر

وعلى الحقيقة فان فى زوايا الافكار خبايا وفى أبكار الخواطر سبايا لكن قد تقاصرت الهمم ونكصت العزائم وصار قصارى الآخر ان يتبع الاول وليته تبعه ولم يقصر عنه تقصيرا فاحشا (ووقفت على كتاب) يقال له مقدمة ابن أفلح البغدادى قد قصرها على تفصيل أقسام علم الفصاحة والبلاغة وللعراقيين بها عناية وهم واصفون لها ومكبون عليها ولما تأملتها وجدتها قشورا لا لب تحتها الا ان غاية ما عند الرجل أن يقول وأما الفصاحة فانها كقول النابغة مثلا أو كقول الاعشى أو غيرهما ثم يذكر بيتا من الشعر أو أبياتا وما بهذا تعرف حقيقة الفصاحة حتى اذا وردت فى كلام عرفنا أنه فصيح بما عرفنا من حقيقتها الموجودة فيه وكذلك يقول فى غير الفصاحة (ومن أعجب) ما وجدته فى كتابه

قوله فى حلة فى الديوان فى نعمة اه

أنه قال أما المعاني المبتدعة فليس للعرب منها شئ وانما اختص بها المحدثون ثم ذكر للمحدثين معاني وقال هذا المعنى لفلان وهو غريب وهذا القول لفلان وهو غريب وتلك الاقوال التي خص قائليها بأنهم ابتدعوها قد سبقوا اليها فاما أن يكون غير عارف بالمعنى الغريب واما أنه لم يقف على أقوال الناظمين والناثرين ولا تبصر فيها حتى عرف ما قاله المتقدم مما قاله المتأخر وأما قوله انه ليس للعرب معنى مبتدع وانما هو للمحدثين فياليت شعري من السابق الى المعاني من تقدم زمانه أم من تأخر زمانه (وأنا أورد ههنا) ما يستدل به على بطلان ما ذكره وذلك أنه قد ورد من المعاني أن صور المنازل تمثلت في القلوب فاذا عفت آثارها لم تعف صورها من القلوب وأول من أتى بذلك العرب فقال الحرث بن خالد من أبيات الحماسة

انى وان شحروا غداة مني * عند الجمار يؤدها العقل
لو بدلت أعلى مساكنها * سفلا وأصبح سفلها يعلو
لعرفت مغناها بما ضمنت * منى الضلوع لاهلها قبل

ثم جاء المحدثون من بعده فانصبوا على ذلك وحذوا حذوه فقال أبو تمام

وقفت واحشائي منازل للاسى * به وهو قفر قد تعفت منازله

(وقال البحترى)

عفت الرسوم وما عفت أحشاؤه * من عهد شوق ما تحول فتذهب

وقال المتنبي لك يا منازل في القلوب منازل * أقفرت أنت وهن منك أواهل

وهذا المعنى قد تداوله الشعراء حتى انه ما من شاعر الا ويأتي به في شعره (وكذلك) ورد لبعضهم من شعراء الحماسة

أناخ اللوم وسط بنى رماح * مطيته وأقسم لا يريم
كذلك كل ذى سفر اذا ما * تناهى عند غايته يقيم

وهذان البيتان من أبيات المعاني المبتدعة وعلى اثرهما مشى الشعراء (وكذلك) ورد لبعضهم في شعر الحماسة

تركت ضأنى تود الذئب راعيها * وأنها لا ترانى آخر الابد
الذئب يطرقها في الدهر واحدة * وكل يوم ترانى مدية بيدى

(وكذلك) ورد قول الآخر

قوم اذا ما جناجانيهمو أمنوا * للؤم أحسابهم أن يقتلوا قودا

وكم للعرب من هذه المعانى التى سبقوا اليها (ومن أدل الدليل) على فساد ماذهب اليه من أن المحدثين هم المختصون بابتداع المعانى أن أول من بكى على الديار فى شعره رجل يقال له ابن حرام وكان هو المبتدى لهذا المعنى أولا وقد ذكره امرؤ القيس فى شعره فقال

عوجا على الطلل المحيل لعلنا * نبكى الديار كما بكى ابن حرام

وقد أجمع نقلة الاشعار أن لامرئ القيس فى صفات الفرس أشياء كثيرة لم يسبق اليها ولا قيلت من قبله ويكفى من هذا كله ماقدمت القول فيه وهو أن العرب السابقون بالشعر وزمانهم هو الاول فكيف يقال ان المتأخرين هم السابقون الى المعانى وفى هذه الامثلة التى أوردتها كفاية فى نقض ماذكره ولو قال ان المحدثين أكثر ابتداعا للمعانى وألطف مأخذا وأدق نظرا لكان قوله صوابا لان المحدثين عظم الملك الاسلامى فى زمانهم ورأوا مالم يره المتقدمون وقد قيل ان الالهام تفتح الالها وهو كذلك فان نفاق السوق جلاب (وقد رأيت جماعة) من متخلفى هذه الصناعة يجعلون همهم مقصورا على الالفاظ التى لا حاصل وراءها ولا كبير معنى تحتها واذا أتى أحدهم بلفظ مسجوع على أى وجه كان من الغثاثة والبرد يعتقد أنه قد أتى بأمر عظيم ولا يشك فى أنه صار كاتبا مفلقا واذا انظر الى كتاب زماننا وجدوا كذلك فقاتل الله القلم الذى يمشى فى أيدى الجهال الاغمار ولا يعلم أنه كجواد يمشى تحت حمار ولو أنه لا يتطاول اليه الا أهله لبان الفاضل من الناقص على أنه كالرمح الذى اذا اعتقله حامله بين الضفتين بان به المقدم من الناكص وقد أصبح اليوم فى يد قوم هم أحوج من صبيان المكاتب الى التعليم وقد قيل ان الجهل بالجهل داء لا ينتهى اليه سقم السقيم وهؤلاء لا ذنب لهم لانهم لو لم يستخدموا فى الدول ويستكتبوا والا ما ظهرت جهالتهم وفى أمثال العوام لا تعر الاحمق شيأ فيظنه له وكذلك يجرى الامر مع هؤلاء فانهم استكتبوا فى الدول فظنوا أن الكتابة قد صارت لهم بأمر حق واجب (ومن أعجب الاشياء) أنى لا أرى الاطامعا فى هذا الفن مدعياله على خلوه عن تحصيل آلاته واسبابه ولا أرى أحدا يطمع فى فن من الفنون غيره ولا يدعيه هذا وهو بحر لا ساحل له يحتاج صاحبه الى تحصيل علوم كثيرة حتى ينتهى اليه

ويحتوى عليه فسبحان الله هل يدعى بعض هؤلاء أنه فقيه أو طبيب أو حاسب أو غير ذلك من غير أن يحصل آلات ذلك ويتقن معرفتها فاذا كان العلم الواحد من هذه العلوم الذى يمكن تحصيله فى سنة أو سنتين من الزمان لا يدعيه أحد من هؤلاء فكيف يجىء الى فن الكتابة وهو ما لا تحصل معرفته الا فى سنين كثيرة فيدعيه وهو جاهل به (ومما رأيته من المدعين) لهذا الفن الذين حصلوا منه على القشور وقصروا معرفتهم على الالفاظ المسجوعة الغثة التى لا حاصل وراءها أنهم اذا أنكرت هذه الحال عليهم وقيل لهم ان الكلام المسجوع ليس عبارة عن تواطئ الفقر على حرف واحد فقط اذ لو كان عبارة عن هذا وحده لامكن أكثر الناس أن يأتوا به من غير كلفة وانما هو أمر وراء هذا وله شروط متعددة فاذا سمعوا ذلك أنكروه لخلوهم عن معرفته ثم لو عرفوه وأتوا به على الوجه الحسن من اختيار الالفاظ المسجوعة لاحتاجوا الى شرط آخر قد نبهت عليه فى باب السجع واذا أنكر عليهم الاقتصار على الالفاظ المسجوعة وهدوا الى طريق المعانى يقولون لنا أسوة بالعرب الذين هم أرباب الفصاحة فانهم انما اعتنوا بالالفاظ ولم يعتنوا بالمعانى اعتناءكم بها فلم يكفهم جهلهم فيما ارتكبوه حتى ادعوا الاسوة بالعرب فيه فصارت جهالتهم جهالتين (ولنذكر ههنا) فى الرد عليهم ما اذا تأمله الناظر فى كتابنا عرف منه ما يؤنقه ويذهب به الاستحسان كل مذهب (فنقول) اعلم أن العرب كما كانت تعتنى بالالفاظ فتصلحها وتهذبها فان المعانى أقوى عندها وأكرم عليها وأشرف قدرا فى نفوسها فأول ذلك عنايتها بألفاظها لانها لما كانت عنوان معانيها وطريقها الى اظهار أغراضها أصلحوها وزينوها وبالغوا فى تحسينها ليكون ذلك أوقع لها فى النفس وأذهب بها فى الدلالة على القصد ألا ترى أن الكلام اذا كان مسجوعا لذ لسامعه فحفظه واذا لم يكن مسجوعا لم يأنس به أنسه فى حالة السجع فاذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها ورققوا حواشيها وصقلوا أطرافها فلا تظن أن العناية اذ ذاك انما هى بألفاظ فقط بل هى خدمة منهم للمعانى ونظير ذلك ابراز صورة الحسناء فى الحلل الموشية والاثواب المحبرة فانا قد نجد من المعانى الفاخرة ما يشوهه من حسنه بذاذة لفظه وسوء العبارة عنه (فان قيل) انا نرى من ألفاظ العرب ما قد حسنوه وزخرفوه ولسنا

ترى تحته مع ذلك معنى شريفا فمما جاء منه قول بعضهم

ولما قضينا من منى كل حاجة * ومسح بالاركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا * وسالت باعناق المطى الاباطح

ألا ترى الى حسن هذا اللفظ وصقالته وتدبيج أجزائه ومعناه مع ذلك ليس مدانيا له ولا مقاربا فانه انما هو لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين وتحدثنا على ظهور الابل ولهذا نظائر كثيرة شريفة الالفاظ خسيسة المعانى (فالجواب عن ذلك) أنا نقول هذا الموضع قد سبق الى التشبث به من لم ينعم النظر فيه ولا رأى ما رآه القوم وانما ذلك لجفاء طبع الناظر وعدم معرفته وهو أن فى قول هذا الشاعر كل حاجة مما تستفيد منه أهل النسيب والرقة والاهواء والمقة ما لا يستفيده غيرهم ولا يشاركهم فيه من ليس منهم ألا ترى أن حوائج منى أشياء كثيرة فمنها التلاقى ومنها التشاكى ومنها التخلى للاجتماع الى غير ذلك مما هو تال له ومعقود الكون به فكان الشاعر صانع عن هذا الموضع الذى أومأ اليه وعقد غرضه عليه بقوله فى آخر البيت ومسح بالاركان من هو ماسح أى انما كانت حوائجنا التى قضيناها وآرابنا التى بلغناها من هذا النحو الذى هو مسح الاركان وما هو لاحق به وجار فى القربة من الله مجراه أى لم نتعد هذا القدر المذكور الى ما يحتمله أول البيت من التعريض الجارى مجرى التصريح وأما البيت الثانى فان فيه أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا وفى هذا ما نذكره لتعجب به وبمن عجب منه ووضع من معناه وذلك أنه لو قال أخذنا فى أحاديثنا أو نحو ذلك لكان فيه ما يكبره أهل النسيب فانه قد شاع عنهم واتسع فى محاوراتهم علو قدر الحديث بين الالفين والجذل بجمع شمل المتواصلين ألا ترى الى قول بعضهم وحدثتنى يا سعد عنها فزدتنى * جنونا فزدنى من حديثك يا سعد وقول الآخر وحديثها السحر الحلال لو أنه * لم يجن قتل المسلم المتحرز فاذا كان قدر الحديث عندهم على ما ترى فكيف به اذا قيده بقوله أخذنا بأطراف الاحاديث فان فى ذلك وحيا خفيا ورمزا حلوا ألا ترى أنه قد يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة من التعريض والتلويح والايماء دون التصريح وذلك أحلى وأطيب وأغزل وأنسب من أن يكون كشفا ومصارحة وجهرا وان كان الامر كذلك فمعنى هذين البيتين أعلى عندهم

وأشدّ تفقدا في نفوسهم من لفظها وان عذب ولذ مستمعه نعم في قول الشاعر
وسالت باعناق المطي الاباطح من لطافة المعنى وحسنه ما لا خفاء به ونبه
على ذلك فاقول ان هؤلاء القوم لما تحدثوا وهم سائرون على المطايا شغلتهم
لذة الحديث عن امساك الازمة فاسترخت عن أيديهم وكذلك شأن من
يشره وتغلبه الشهوة في أمر من الامور ولما كان الامر كذلك وارتخت الازمة
عن الايدي أسرعت المطايا في السير فشبهت أعناقها بمرور السيل على وجه
الارض في سرعته وهذا موضع كريم حسن لا مزيد على حسنه والذي لا ينعم
نظره فيه لا يعلم ما اشتمل عليه من المعنى فالعرب انما تحسن ألفاظها وتزخرفها
عناية منها بالمعاني التي تحتها فالالفاظ اذا خدم المعاني والمخدوم لا شك أشرف
من الخادم فاعرف ذلك وقس عليه (النوع الاول في الاستعارة) ولنقدم قبل
الكلام في هذا الموضع قولا جامعا فنقول اعلم أن للفصاحة والبلاغة أوصافا
خاصة وأوصافا عامة فالخاصة كالتجنيس فيما يرجع الى اللفظ وكالمطابقة فيما
يرجع الى المعنى وأما العامة فكالسجع فيما يرجع الى اللفظ وكالاستعارة
فيما يرجع الى المعنى وهذا الموضع الذي نحن بصدد ذكره وهو الاستعارة كثير
الاشكال غامض الخفاء * وسأورد في كتابي هذا ما استخرجته ولم أسمع فيه قولا
لغيري وكنت قدمت القول في الفصل السابع من مقدمة الكتاب فيما يختص
باثبات المجاز والرد على من ذهب الى أن الكلام كله حقيقة لا مجاز فيه وأقمت
الدليل على ذلك ولا حاجة الى اعادته ههنا بل الذي أذكره ههنا هو ما يختص
بالاستعارة التي هي جزء من المجاز ولم سميت بهذا الاسم وكشفت عن حقيقتها
وميزتها عن التشبيه المضمر الاداة والكلام في هذا يحتاج الى اعادة ذكر المجاز
وادخاله فيه ليتقرر ويتبين والذي انكشف لي بالنظر الصحيح أن المجاز ينقسم
قسمين توسع في الكلام وتشبيه والتشبيه ضربان تشبيه تام وتشبيه محذوف
فالتشبيه التام أن يذكر المشبه والمشبه به والتشبيه المحذوف أن يذكر المشبه
دون المشبه به ويسمى استعارة وهذا الاسم وضع للفرق بينه وبين التشبيه التام
والا فكلاهما يجوز أن يطلق عليه اسم التشبيه ويجوز أن يطلق عليه اسم
الاستعارة لاشتراكهما في المعنى وأما التوسع فانه يذكر للتصرف في اللغة
لا لفائدة أخرى وان شئت قلت ان المجاز ينقسم الى توسع في الكلام وتشبيه

الاستعارة

واستعارة

واستعارة ولا يخرج عن أحد هذه الاقسام الثلاثة فأيها وجد كان مجازا
(فان قيل) ان التوسع شامل لهذه الاقسام الثلاثة لان الخروج من الحقيقة الى
المجاز اتساع فى الاستعمال (قلت فى الجواب) ان التوسع فى التشبيه والاستعارة
جاء ضمنا وتبعا وان لم يكن هو السبب الموجب لاستعمالها وأما القسم الاخر
الذى هو لا تشبيه ولا استعارة فان السبب فى استعماله هو طلب التوسع لا غير
وبيان ذلك أنه قد ثبت أن المجاز فرع عن الحقيقة وأن الحقيقة هى الاصل وانما
يعدل عن الاصل الى الفرع لسبب اقتضاه وذلك السبب الذى يعدل فيه عن
الحقيقة الى المجاز اما أن يكون لمشاركة بين المنقول والمنقول اليه فى وصف من
الاوصاف واما أن يكون لغير مشاركة فان كان لمشاركة فاما أن يذكر المنقول
والمنقول اليه معا واما أن يذكر المنقول اليه دون المنقول فان ذكر المنقول
والمنقول اليه معا كان ذلك تشبيها والتشبيه تشبيهان تشبيه مظهر الاداة
كقولنا زيد كالاسد وتشبيه مضمر الاداة كقولنا زيد أسد وهذا التشبيه المضمر
الاداة قد خلطه قوم بالاستعارة ولم يفرقوا بينهما وذلك خطأ محض * وسأوضح
وجه الخطأ فيه وأحقق القول فى الفرق بينهما تحقيقا جليا (فأقول) أما
التشبيه المظهر الاداة فلا حاجة بنا الى ذكره ههنا لانه معلوم لا خلاف فيه لكن
نذكر التشبيه المضمر الاداة الذى وقع فيه الخلاف فنقول اذا ذكر المنقول
والمنقول اليه على أنه تشبيه مضمر الاداة قيل فيه زيد أسد أى كالاسد فأداة
التشبيه فيه مضمرة واذا أظهرت حسن ظهورها ولم تقدح فى الكلام الذى
أظهرت فيه ولا تزيل عنه فصاحة ولا بلاغة وهذا بخلاف ما اذا ذكر المنقول اليه
دون المنقول فانه لا يحسن فيه ظهور اداة التشبيه ومتى أظهرت أزالت عن
ذلك الكلام ما كان متصفا به من جنس فصاحة وبلاغة وهذا هو الاستعارة
ولنضرب لذلك مثالا نوضحه فنقول قد ورد هذا البيت لبعض الشعراء وهو

فرعاء ان نهضت لحاجتها * عجل القضيب وأبطأ الدعص

وهذا قد ذكر فيه المنقول اليه دون المنقول لان تقديره عجل قد كالقضيب وابطأ
ردف كالدعص وبين ايراده على هذا التقدير وبين ايراده على هيئته فى البيت
بون بعيد فى الحسن والملاحة والفرق اذا بين التشبيه المضمر الاداة يحسن اظهار
أداة التشبيه فيه والاستعارة لا يحسن ذلك فيها وعلى هذا فان الاستعارة

لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له الذى هو المنقول اليه ويكتفى بذكر المستعار الذى هو المنقول (فان قيل) لا نسلم أن الفرق بين التشبيه وبين الاستعارة ما ذهبت اليه بل الفرق بينهما أن التشبيه انما يكون بأداته كالكاف وكان وما جرى مجراهما فما لم يظهر فيه أداة التشبيه لا يكون تشبيها وانما يكون استعارة فاذا قلنا زيد اسد كان ذلك استعارة واذا قلنا زيد كالاسد كان ذلك تشبيها.(قلت فى الجواب) عن ذلك اذا لم نجعل قولنا زيد أسد تشبيها مضمر الاداة استحال المعنى لان زيدا ليس أسدا وانما هو كالاسد فى شجاعته فأداة التشبيه تقدرههنا ضرورة كى لا يستحيل المعنى (فان قيل) وكذلك أيضا اذا لم تقدر أداة التشبيه فى الاستعارة استحال المعنى لانا اذا قلنا عجل القضيب وأبطأ الدعص فما لم تقدر فيه أداة التشبيه والا استحال المعنى (قلت فى الجواب) عن ذلك تقدير أداة التشبيه لا بد منه فى الموضعين لكن يحسن اظهارها فى التشبيه دون الاستعارة وجلية الامر أنا نرى أداة التشبيه يحسن اظهارها فى موضع دون موضع فعلمنا أن الموضع الذى يحسن اظهارها فيه غير الموضع الذى لا يحسن اظهارها فيه فسمينا الموضع الذى يحسن اظهارها فيه تشبيها مضمر الاداة والذى لا يحسن اظهارها فيه استعارة وانما فعلنا ذلك لان تسمية ما يحسن اظهار أداة التشبيه فيه بالتشبيه أليق وتسمية ما لا يحسن اظهار أداة التشبيه فيه بالاستعارة أليق فاذا قلنا زيد أسد حسن اظهار أداة التشبيه فيه بأن نقول زيد كالاسد واذا قلنا كما قال الشاعر

فرعاء ان نهضت لحاجتها * عجل القضيب وابطأ الدعص

لا يحسن اظهار أداة التشبيه فيه على ما تقدم من ذكر ذلك أولا (فان قيل) اذا أجزت اضمار أداة التشبيه وقدرت اظهارها فى قولك زيد أسد أى كالاسد فنحن نضمر أيضا المستعار له ونقدر اظهاره فانه لما قال الشاعر عجل القضيب وأبطأ الدعص أضمر المستعار له وهو القد والردف واذا أظهر قيل عجل قد كالقضيب وابطأ ردف كالدعص ولا فرق بين الاضمارين فكما يسعك اضمار أداة التشبيه فى قولك زيد أسد فكذلك يسعنا نحن اضمار المستعار له فى قول الشاعر (فالجواب عن ذلك) أنى أقول نحن فى هذا المقام واقفون مع الاستحسان لا مع الجواز ولو تأملت ما أوردته فى أول كلامى بالعين الصحيحة لما أوردت على هذا

الاعتراض

الاعتراض ههنا فانى قلت التشبيه المضمر الاداة يحسن اظهار أداة التشبيه فيه والاستعارة لا يحسن اظهار أداة التشبيه فيها ولو قلت يجوز أولا يجوز لورد على هذا الاعتراض الذى ذكرته وقد علم وتحقق أن من الواجب فى حكم الفصاحة والبلاغة أن لا يظهر المستعار له واذا أظهر ذهب ما على الكلام من الحسن والرونق (ألاترى) أنا اذا أوردنا هذا البيت الذى هو

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت * وردا وعضت على العناب بالبرد

وجد عليه من الحسن والرونق ما لا خفاء به وهو من باب الاستعارة فاذا أظهرنا المستعار له صرنا الى كلام غث وذلك أنا نقول فأمطرت دمعا كاللؤلؤ من عين كالنرجس وسقت خدا كالورد وعضت على أنامل مخضوبة كالعناب بأسنان كالبرد وفرق بين هذين الكلامين للمتأمل واسع وهكذا يجرى الحكم فى البيت المتقدم ذكره الذى هو

فرعاء ان نهضت لحاجتها * عجل القضيب وأبطأ الدعص

فان هذا البيت لا خفاء بما عليه من الحسن واذا ظهر فيه المستعار له زال ذلك الحسن عنه لا بل تبدل بضده وليس كذلك التشبيه المضمر الأداة فانا اذا أظهرنا أداة التشبيه وأضمرناها كان ذلك سواء اذ لا فرق بين قولنا زيد أسد وبين قولنا زيد كالاسد وهذا لا يخفى على جاهل بعلم الفصاحة والبلاغة فضلا عن عالم والمعول عليه فى تأليف الكلام من المنثور والمنظوم انما هو حسنه وطلاوته فاذا ذهب ذلك عنه فليس بشئ ونحن فى الذى نورده فى هذا الكتاب واقفون مع الحسن لا مع الجواز ثم لو تنزلنا معك أيها المعترض عن درجة الحسن الى درجة الجواز لما استقام لك ما ذكرته وذلك أن اضمار أداة التشبيه ظاهر فى قولنا زيد أسد أى كالاسد وهو مضمر واحد وأما قول الشاعر فرعاء ان نهضت لحاجتها فانه لا يضمر فيه أداة التشبيه الا بعد أن يظهر المستعار له وحينئذ يكون فيه اضماران أحدهما المستعار له والآخر أداة التشبيه واضمار واحد أيسر من اضمارين أحدهما معلق على الآخر واذا كان الامر كذلك فالفرق بين الاستعارة والتشبيه هو ما قدمت القول فيه من أن الاستعارة لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له فتأمل ما أشرت اليه وتدبره حتى تعلم أنى ذكرت ما لم يذكره أحد غيرى على هذا الوجه (وانما سمى هذا القسم) من الكلام

استعارة لان الاصل فى الاستعارة المجازية مأخوذ من العارية الحقيقية التى هى ضرب من المعاملة وهى أن يستعير بعض الناس من بعض شيأ من الاشياء ولا يقع ذلك الا من شخصين بينهما سبب معرفة ما يقتضى استعارة أحدهما من الآخر شيأ واذا لم يكن بينهما سبب معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر شيأ اذ لا يعرفه حتى يستعير منه وهذا الحكم جار فى استعارة الالفاظ بعضها من بعض فالمشاركة بين اللفظين فى نقل المعنى من أحدهما الى الآخر كالمعرفة بين الشخصين فى نقل الشئ المستعار من أحدهما الى الآخر (واعلم) أنه قد ورد من الكلام ما يجوز حمله على الاستعارة وعلى التشبيه المضمر الاداة معا باختلاف القرينة وذلك أن يرد الكلام محمولا على ضمير من تقدم ذكره فينتقل عن ذلك الى غيره ويرتجل ارتجالا (فمما جاء منه) قول البحترى

اذا سفرت أضاءت شمس دجن * ومالت فى التعطف غصن بان

فلما قال أضاءت شمس دجن بنصب الشمس كان ذلك محمولا على الضمير فى قوله اضاءت كأنه قال أضاءت هى وهذا تشبيه لان المشبه مذكور وهو الضمير فى أضاءت الذى نابت عنه التاء ويجوز حمله على الاستعارة بأن يقال أضاءت شمس دجن برفع الشمس ولا يعود الضمير حينئذ الى من تقدم ذكره وانما يكون الكلام مرتجلا ويكون البيت

اذا سفرت أضاءت شمس دجن * ومال من التعطف غصن بان

وهذا الموضع فيه دقة غموض وحرف التشبيه يحسن فى الاول دون الثانى (وأما القسم) الذى يكون العدول فيه عن الحقيقة الى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول اليه فذلك لا يكون الا لطلب التوسع فى الكلام وهو سبب صالح اذ التوسع فى الكلام مطلوب (وهو ضربان أحدهما) يرد على وجه الاضافة واستعماله قبيح لبعد ما بين المضاف والمضاف اليه وذلك لانه يلتحق بالتشبيه المضمر الاداة واذا ورد التشبيه ولا مناسبة بين المشبه والمشبه به كان ذلك قبيحا ولا يستعمل هذا الضرب من التوسع الا جاهل بأسرار الفصاحة والبلاغة أو ساه غافل يذهب به خاطره الى استعمال ما لا يجوز ولا يحسن كقول أبى نواس

بح صوت المال مما * منك يشكو ويصيح

فقوله بح صوت المال من الكلام النازل بالمرة ومراده من ذلك أن المال يتظلم

من اهانتك اياه بالتمزيق فالمعنى حسن والتعبير عنه قبيح وما أحسن ما قال مسلم بن الوليد فى هذا المعنى

تظلم المال والاعداء من يده * لازال للمال والاعداء ظلاما

(وكذلك) ورد قول أبى نواس أيضا

ما لرجل المال أمست * تشتكى منك الكلالا

فاضافة الرجل الى المال أقبح من اضافة الصوت (ومن هذا الضرب) قول أبى تمام وكم أحرزت منكم على قبح قدها * صروف النوى من مرهف حسن القد فاضافة القد الى النوى من التشبيه البعيد البعيد وانما أوقعه فيه المماثلة بين القد والقد وهذا دأب الرجل فى تتبع المماثلة تارة والتجنيس أخرى حتى انه ليخرج الى بناء يعاب به أقبح عيب وأفحشه (وكذلك) ورد قوله

بلونا لك أمّا كعب عرضك فى العلا * فعال وأمّا خد مالك أسفل

فقوله كعب عرضك وخد مالك مما يستقبح ويستنكر ومراده من ذلك أن عرضك مصون ومالك مبتذل الا أنه عبر عنه أقبح تعبير وأبو تمام يقع فى مثل ذلك كثيرا (وأمّا الضرب الآخر من التوسع) فانه يرد على غير وجه الاضافة وهو حسن لا عيب فيه وقد ورد فى القرآن الكريم كقوله تعالى ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فنسبة القول الى السماء والارض من باب التوسع لانهما جماد والنطق انما هو للانسان لا للجماد ولا مشاركة ههنا بين المنقول والمنقول اليه وكذلك قوله تعالى فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين وعليه ورد قول النبى صلى الله عليه وسلم فانه نظر الى أحد يوما فقال هذا جبل يحبنا ونحبه فاضافة المحبة الى الجبل من باب التوسع اذ لا مشاركة بينه وبين الجبل الذى هو جماد (وعلى هذا) ورد مخاطبة الطلول ومساءلة الاحجار كقول أبى تمام

أميدان لهوى من أتاح لك البلى * فأصبحت ميدان الصبا والجنائب

وكقول أبى الطيب المتنبى اثلث فانا أيها الطلل * نبكى وترزم تحتنا الابل

فأبو تمام سائل ربوعا عافية وأحجارا دارسة ولا وجه لها ههنا الا مساءلة الاهل كالذى فى قوله تعالى واسئل القرية أى أهل القرية وكل هذا توسع فى العبارة اذ لا مشاركة بين رسوم الديار وبين فهم السؤال والجواب وكذلك قال

قوله وكم أحرزت فى الديوان وكم ملكت اه

أبو الطيب المتنبي في أمره الطلل بأن يكون ثالثهما أي الركب والابل وهذا واضح لا نزاع فيه فاذ قد تبين وتحقق ما أشرت اليه من هذا الموضع فالمجاز لا يخرج عن هذه الاقسام الثلاثة اما توسع أو تشبيه أو استعارة واذا حققنا النظر في الاستعارة والتشبيه وجدناهما أمرا قياسيا في حمل فرع على أصل لمناسبة بينهما وان كانا يفترقان بحدهما وحقيقتهما (فأما حد الاستعارة) فقيل انه نقل المعنى من لفظ الى لفظ بسبب مشاركة بينهما وهذا الحد فاسد لان التشبيه يشارك الاستعارة فيه ألا ترى أنا اذا قلنا زيد أسد أي كأنه أسد وهذا نقل المعنى من لفظ الى لفظ بسبب مشاركة بينهما لانا نقلنا حقيقة الاسد الى زيد فصار مجازا وانما نقلناه لمشاركة بين زيد وبين الاسد في وصف الشجاعة والذي عندي من ذلك أن يقال حد الاستعارة نقل المعنى من لفظ الى لفظ لمشاركة بينهما مع طي ذكر المنقول اليه لانه اذا احترز فيه هذا الاحتراز اختص بالاستعارة وكان حدا لها دون التشبيه وطريقه أنك تريد تشبيه الشيء بالشيء فظهرا ومضمرا وتجيء الى المشبه فتعيره اسم المشبه به وتجريه عليه مثال ذلك أن تقول رأيت أسدا وهذا كالبيت الشعر المقدم ذكره وهو

فرعاء ان نهضت لحاجتها * عجل القضيب وأبطأ الدعص

فان هذا الشاعر أراد تشبيه القد بالقضيب والردف بالدعص الذي هو كثيب الرمل فترك ذكر التشبيه مظهرا ومضمرا وجاء الى المشبه وهو القد فأعاره المشبه به وهو القضيب والدعص وأجراه عليه الا أن هذا الموضع لا بد له من قرينة تفهم من فحوى اللفظ لانه اذا قال القائل رأيت أسدا وهو يريد رجلا شجاعا فان هذا القول لا يفهم منه ما أراد وانما يفهم منه أنه أراد الحيوان المعروف بالاسد لكن اذا اقترن بقوله هذا قرينة تدل على أنه أراد رجلا شجاعا اختص الكلام بما أراد ألا ترى الى قول الشاعر عجل القضيب وأبطا الدعص فانه دل عليه من نفس البيت لان قوله فرعاء ان نهضت دليل على أن المراد هو القد والردف لان القضيب والدعص لا يكونان لامرأة فرعاء تنهض لحاجتها وكذلك كل ما يجيء على هذا الاسلوب لان المستعار له وهو المنقول اليه مطوي الذكر (وكنت تصفحت) كتاب الخصائص لابي الفتح عثمان بن جني فوجدته قد ذكر في المجاز شيأ يطرق اليه النظر وذلك أنه قال لا يعدل عن الحقيقة الى المجاز الا لمعان ثلاثة

وهي الاتساع والتشبيه والتوكيد فان عدمت الثلاثة كانت الحقيقة البتة (فمن ذلك) قوله تعالى فأدخلناه في رحمتنا فهذا مجاز وفيه الثلاثة المذكورة أما الاتساع فهو أنه زاد في أسماء الجهات والمحال اسما وهو الرحمة وأما التشبيه فانه شبه الرحمة وان لم يصح دخولها بما يصح دخوله وأما التوكيد فهو أنه أخبر عما لا يدرك بالحاسة بما يدرك بالحاسة تعاليا بالمخبر عنه وتفخيما له اذا صير بمنزلة ما يشاهد ويعاين هذا مجموع قول أبي الفتح رحمه الله من غير زيادة ولا نقص (والنظر يتطرق اليه من ثلاثة أوجه الاول) أنه جعل وجود هذه المعاني الثلاثة سببا لوجود المجاز بل وجود واحد منها سبب لوجوده ألا ترى أنه اذا وجد التشبيه وحده كان ذلك مجازا واذا وجد الاتساع وحده كان ذلك مجازا ثم ان كان وجود هذه المعاني الثلاثة سببا لوجود المجاز كان عدم واحد منها سببا لعدمه ألا ترى أنا اذا قلنا لا يوجد الانسان الا بأن يكون حيوانا ناطقا فالحيوانية والنطق سبب لوجود الانسان واذا عدم واحد منهما بطل أن يكون انسانا وكذلك كل صفات تكون متقدمة لوجود الشيء فان وجودها يوجب وجوده وعدم واحد منها يوجب عدمه (وأما الوجه الثاني) فانه ذكر التوكيد والتشبيه وكلاهما شيء واحد على الوجه الذي ذكره لانه لما شبهت الرحمة وهي معنى لا يدرك بالبصر بمكان يدخل وهو صورة تدرك بالبصر دخل تحته التوكيد الذي هو اخبار عما لا يدرك بالحاسة بما قد يدرك بالحاسة على أن التوكيد ههنا على وجه ما أورده في تمثيله لا أعلم ما الذي أراد به لانه لا يؤتى به في اللغة العربية الا لمعنيين أحدهما أنه يرد أبدا فيما استقرى بألفاظ محصورة نحو نفسه وعينه وكله وما أضيف اليها مما استقرى وهو مذكور في كتب النحاة وقد كفيت مؤنته الآخر أنه يرد على وجه التكرير نحو قام زيد قام زيد كرر اللفظ في ذلك تحقيقا للمعنى المقصود أي توكيدا والذي ذكره أبو الفتح رحمه الله تعالى لا يدل على أن المراد به أحد هذين المعنيين المشار اليهما ولا شك أنه أراد به المبالغة والمغالاة في ابراز المعنى الموهوم الى الصورة المشاهدة فعبر عن ذلك بالتوكيد ولا مشاحة له في تعبيره واذا أراد به ذلك فهو والتشبيه سواء على ما ذكره ولا حاجة الى ذكر التوكيد مع ذكر التشبيه (وأما الوجه الثالث) فانه قال أما الاتساع فهو أنه زاد في أسماء الجهات والمحال كذا وكذا وهذا القول مضطرب شديد الاضطراب لانه ينبغي على قياسه

أن يكون جناح الذل فى قوله تعالى واخفض لهما جناح الذل زيادة فى أسماء الطيور وذلك أنه زاد فى أسماء الطيور اسما هو الذل وهكذا يجرى الحكم فى الاقوال الشعرية كقول أبى تمام

لبست سواء أقواما فكانوا * كما أغنى التيمم بالصعيد

فزاد فى أسماء اللباس اسما هو الآدمى وهذا مما يضحك منه نعوذ بالله من الخطل والاتساع فى المجال لا يقال فيه كذا وانما يقال هو أن تجرى صفة من الصفات على موصوف ليس أهلا لان تجرى عليه لبعد ما بينه وبينها كقول أبى الطيب المتنبى

اثلث فانا أيها الطلل * نبكى وترزم تحتنا الابل

فانه أجرى الكلام على ذلك وانما يستعمل طلبا للاتساع فى أساليب الكلام لا للمناسبة بين الصفة والموصوف اذ لو كان لمناسبة لما كان ذلك اتساعا وانما كان ضربا من القياس فى حمل الشئ على ما يناسبه ويشاكله وحينئذ يكون ذلك تشبيها أو استعارة على ما أشرت اليه من قبل (وكنت اطلعت) فى كتاب من مصنفات أبى حامد الغزالى رحمه الله ألفه فى أصول الفقه ووجدته قد ذكر الحقيقة والمجاز وقسم المجاز الى أربعة عشر قسما وتلك الاربعة عشر ترجع الى الثلاثة التى أشرت اليها وهى التوسع والتشبيه والاستعارة ولا تخرج عنها والتقسيم لا يصح فى شئ من الاشياء الا اذا اختص كل قسم من الاقسام بصفة لا يختص بها غيره والا كان التقسيم لغوا لا فائدة فيه * وسأورد ما ذكره وأبين فساده (فالقسم الاول) من الاقسام التى ذكرها هو ما جعل للشئ بسبب المشاركة فى خاصة كقولهم للشجاع أسد وللبليد حمار وهذا القسم داخل فى الاستعارة ان ذكر المنقول وحده مثل أن يقول القائل رأيت أسدا ومراده رجلا شجاعا أو رأيت حمارا ومراده رجلا بليدا وداخل فى التشبيه المضمر الاداة ان ذكر المنقول والمنقول اليه معا كقول القائل زيد أسد أى كالاسد أو حمار أى كالحمار (القسم الثانى) تسمية الشئ باسم ما يؤول اليه كقوله تعالى انى أرانى أعصر خمرا وانما كان يعصر عنبا وهذا القسم داخل فى القسم الاول لصفة المشابهة بين المنقول والمنقول اليه وهو من باب الاستعارة لا بل أوغل فى المشابهة من ذلك لان الخمر من العنب وليس الاسد من الرجل ولا الرجل من الاسد (القسم الثالث) تسمية الشئ باسم فرعه كقول الشاعر

وما

وما العيش الا نومة وتشوق * وتمر على رأس النخيل وماء

فسمى الرطب تمرا وهذا القسم والقسم الذى قبله سواء لان هناك سمى العنب خمرا وههنا سمى الرطب تمرا فالعنب أصل والخمر فرع وكذلك الرطب أصل والتمر فرع وكلا هذين القسمين داخل فى القسم الاول وهب أن الغزالى لم يحقق أمر المجاز وانقسامه الى ثلاث الاقسام الثلاثة التى أشرت اليها ألم ينظر الى هذين القسمين اللذين هما العنب والخمر والرطب والتمر ويعلم أنهما شئ واحد لافرق بينهما (القسم الرابع) تسمية الشئ باسم أصله كقولهم للآدمى مضغة وهذا ضد القسم الذى قبله لان ذاك جعل الاصل فيه فرعا وهذا جعل الفرع فيه أصلا وهو داخل فى القسم الاول أيضا (القسم الخامس) تسمية الشئ بدواعيه كتسميتهم الاعتقاد قولا نحو قولهم هذا يقول بقول الشافعى رحمه الله أى يعتقد اعتقاده وهذا القسم داخل فى القسم الاول لان بين القول وبين الاعتقاد مناسبة كالمناسبة بين السبب والمسبب والباطن والظاهر (القسم السادس) تسمية الشئ باسم مكانه كقولهم للمطر سماء لانه ينزل منها وهذا القسم داخل فى الاول لصفة المناسبة بين المنقول والمنقول اليه وهو النزول من عال وكل ما علاك فأظلك فهو سماء على أن الاغلب على ظنى أن هذا القسم من الاسماء المشتركة وتسمية المطر بالسماء حقيقة فيه وليس من المجاز فى شئ (القسم السابع) تسمية الشئ باسم مجاوره كقولهم للمزادة راوية وانما الراوية الجمل الذى يحملها وهذا القسم من باب التوسع لا من باب التشبيه ولا من باب الاستعارة لان على قياسه ينبغى أن يسمى الجمل زاملة لانه يحملها (القسم الثامن) تسمية الشئ باسم جزئه كقولك لمن تبغضه أبعد الله وجهه عنى وانما تريد سائر جثته وهذا القسم داخل فى القسم الاول وهو شبيه بتسمية الشئ باسم فرعه (القسم التاسع) تسمية الشئ باسم ضده كقولهم للاسود والابيض جون وهذا القسم ليس من المجاز فى شئ البتة وانما هو حقيقة فى هذين المسميين معا لانه من الاسماء المشتركة كقولهم شمت السيف اذا سللته وشمته اذا أغمدته فدل الشيم على الضدين معا بالوضع الحقيقى وفى اللغة من هذا شئ كثير فكيف يجعل هذا القسم من المجاز ولا شك أن الغزالى نظر الى أن الضدين لا يجتمعان فى محل واحد فقاس الاسم على الذات وظن أن الذاتين لا يجتمعان فى اسم واحد

كما أنهما لا يجتمعان في محل واحد (فان قيل) لا نسلم أن اللفظ المشترك حقيقة بالوضع في المعنيين معا لان ذلك يخل بفائدة الوضع الذي هو البيان وانما هو حقيقة في أحد معنييه مجاز في الآخر (فالجواب عن ذلك) أن هذا الموضع تقدم الكلام عليه في الفصل الثاني من مقدمة الكتاب وهو الفصل الذي يشتمل على آلات علم البيان وأدواته فليؤخذ من هناك فاني قد أشبعت القول فيه اشباعا لا مزيد عليه (القسم العاشر) تسمية الشيء بفعله كتسمية الخمر مسكرا وهذا القسم داخل في القسم الاول وأي مشاركة أقرب من هذه المشاركة فان الاسكار صفة لازمة للخمر وليست الشجاعة صفة لازمة لزيد لانه يمكن أن يكون زيد ولا شجاعة ولا يمكن أن يكون خمر ولا اسكار ألا يرى أنها لم تسم خمرا الا لاسكارها فانها تخمر العقل أي تستره (القسم الحادي عشر) تسمية الشيء بكله كقولك في جواب ما فعل زيد القيام والقيام جنس يتناول جميع أنواعه وهذا القسم لا ينبغي أن يوصل باقسام المجاز لان القيام لزيد حقيقة (فان قيل) ان القيام يشمل جميع أنواع القيام من الماضي والحاضر والمستقبل (قلت) وهذا من أقرب أقسام المجاز مناسبة لانه اقامة للمصدر مقام الفعل الماضي والمصدر أصل الفعل وعلى هذا فان هذا داخل في القسم الاول (القسم الثاني عشر) الزيادة في الكلام لغير فائدة كقوله تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم فما ههنا زائدة لا معنى لها أي فبرحمة من الله لنت لهم وهذا القول لا أراه صوابا وفيه نظر من وجهين أحدهما أن هذا القسم ليس من المجاز لان المجاز هو دلالة اللفظ على غير ما وضع له في أصل اللغة وهذا غير موجود في الآية وانما هي دالة على الوضع اللغوي المنطوق به في أصل اللغة الوجه الآخر أني لو سلمت أن ذلك من المجاز لانكرت أن لفظة ما زائدة لا معنى لها ولكنها وردت تفخيما للامر النعمة التي لان بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم وهي محض الفصاحة ولو عري الكلام منها لما كانت له تلك الفخامة وقد ورد مثلها في كلام العرب كالذي يحكى عن الزباء وذاك أن الوضاح الذي هو جذيمة الابرش تزوجها والحكاية في ذلك مشهورة فلما دخل عليها كشفت له عن فرجها وقد ضفرت الشعر من فوقه ضفيرتين وقالت اذات عروس ترى أما انه ليس ذلك من عوز المواس ولا من قلة الاواس ولكنه شيمة ما أناس فمعنى الكلام ولكنه شيمة اناس

واغا

وانما جاءت لفظة ما ههنا تفخيما للشأن صاحب تلك الشيمة وتعظيما لامره ولو أسقطت لما كان للكلام ههنا هذه الفخامة والجزالة ولا يعرف ذلك الا أهله من علماء الفصاحة والبلاغة وأما الغزالى رحمه الله تعالى فانه معذور عندى فى أن لا يعرف ذلك لانه ليس فنه ومن ذهب الى أن فى القرآن لفظا زائدا لا معنى له فاما أن يكون جاهلا بهذا القول واما أن يكون متسمحا فى دينه واعتقاده وقول النحاة ان ما فى هذه الآية زائدة فانما يعنون به أنها لا تمنع ما قبلها عن العمل كما يسمونها فى موضع آخر كافة أى أنها تكف الحرف العامل عن عمله كقولك انما زيد قائم فما قد كفت ان عن العمل فى زيد وفى الآية لم تمنع عن العمل ألا ترى أنها لم تمنع الباء عن العمل فى خفض الرحمة (القسم الثالث عشر) تسمية الشئ بحكمه كقوله تعالى وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى أن يستنكحها فسمى النكاح هبة وهذا القسم داخل فى القسم الاول لان النكاح هو تمكين الزوج من الوطء على عوض على هيئة مخصوصة والهبة تمكينه من الشئ الموهوب على غير عوض فشاركت الهبة النكاح فى نفس التمكين من الوطء وان اختلفا فى الصورة (القسم الرابع عشر) النقصان الذى لا يبطل به المعنى كحذف الموصوف واقامة الصفة مقامه قال الله تعالى ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا أى شخصا بريئا وكحذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه قال الله تعالى واسئل القرية أى أهل القرية . وهذا القسم داخل فى القسم الاول أما حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه فلان الصفة لازمة للموصوف وأما حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه فلانه دل بالمسكون على الساكن وتلك مقارنة قريبة فهذه أقسام المجاز التى ذكرها الغزالى رحمه الله تعالى وقد بينت فساد التقسيم فيها وأنها ترجع الى ثلاثة أقسام هى التوسع والتشبيه والاستعارة (وحيث انتهى بى الكلام الى ههنا) وفرغت مما أردت تحقيقه وبينت ما أردت بيانه فانى أتبع ذلك بضرب الامثلة للاستعارة التى يستفيد بها المتعلم ما لا يستفيده بذكر الحد والحقيقة (فمما جاء من ذلك فى القرآن الكريم) قوله تعالى فى أول سورة ابراهيم صلوات الله عليه الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور فالظلمات والنور استعارة للكفر والايمان أو للضلال والهدى والمستعار له مطوى الذكر

كأنه قال لتخرج الناس من الكفر الذى هو كالظلمة الى الايمان الذى هو كالنور وكذلك ورد قوله تعالى فى هذه السورة أيضا وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال والقراءة برفع لتزول منه الجبال ليست من باب الاستعارة ولكنها فى نصب تزول واللام لام كى والجبال ههنا استعارة طوى فيها ذكر المستعار له وهو أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الآيات والمعجزات أى أنهم مكروا مكرهم لكى تزول منه هذه الآيات والمعجزات التى هى فى ثباتها واستقرارها كالجبال وعلى هذا ورد قوله تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون فاستعار الاودية للفنون والاغراض من المعانى الشعرية التى يقصدونها وانما خص الاودية بالاستعارة ولم يستعر الطرق والمسالك أو ما جرى مجراها لان معانى الشعر تستخرج بالفكرة والروية والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض فكان استعارة الاودية لها أشبه وأليق والاستعارة فى القرآن قليلة لكن التشبيه المضمر الاداة كثير وكذلك هى فى فصيح الكلام من الرسائل والخطب والاشعار لان طى المستعار له لا يتيسر فى كل كلام وأما التشبيه المضمر الاداة فكثير سهل لمكان اظهار المشبه والمشبه به معا (ومما ورد من الاستعارة فى الاخبار النبوية) قول النبى صلى الله عليه وسلم لا تستضيئوا بنار المشركين فاستعار النار للرأى والمشورة أى لا تهتدوا برأى المشركين ولا تأخذوا بمشورتهم وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه دخل يوما مصلاه فرأى أناسا كأنهم يكثرون فقال أما انكم لو أكثرتم من ذكر هاذم اللذات لشغلكم عما أرى وهاذم اللذات أراد به الموت وهو مطوى الذكر (وبلغنى عن العرب) أنهم يقولون عند رؤية الهلال لا مرحبا بالمجين مقرب أجل ومحل وهذا من باب الاستعارة فى طى ذكر المستعار له (وكذلك بلغنى عن الحجاج بن يوسف) أنه خطب خطبة عند قدومه العراق فى أول ولايته اياه والخطبة مشهورة من جملتها أنه قال ان أمير المؤمنين نثل كنانته وعجمها عودا عودا فرأى أصلبها نجارا وأقومها عودا وأنفذها نصلا فقوله نثل كنانته وعجمها عودا عودا يريد أنه عرض رجاله واختبرهم واحدا واحدا حالة اختباره فرأى أشدهم وأمضاهم وهذا من الاستعارة الحسنة الفائقة (وقد

جاءنى من الاستعارة فى رسائلى) ما أذكر شيأ منه ولو مثالا واحدا وذلك أنه سألنى بعض الاصدقاء أن أصف له غلامين تركيين كان يهواهما وكان أحدهما يلبس قباء أحمر والآخر قباء أسود فقلت اذا تشعبت أسباب الهوى كانت لسره أظهر وأضحت أمراضه خطرا كلها ولا يقال فى أحدها هذا أخطر وقد هويت بدرين على غصنين ولا طاقة للقلب بهوى واحد فكيف اذا حمل هوى اثنين ومما شجانى أنهما يتلونان فى أصباغ الثياب كما يتلونان فى فنون التحرم والعتاب وقد استجدّا الآن زيا لا مزيد على حسنهما فى حسنه فهذا يخرج فى ثوب من حمرة خده وهذا فى ثوب من سواد جفنه وما أدرى من دلهما على هذا العجيب غير أنه ليس على فتنة المحب أهدى من حبيب وهذا الفصل بجملته مما تواصفه الناس وأغروا بحفظه (وأما ما ورد من ذلك شعرا) فكقول مسكين الدارمى من شعراء الحماسة

لحا فى لحاف الضيف والبيت بيته * ولم يلهنى عنه غزال مقنع
أحدثه ان الحديث من القرى * وتعلم نفسى أنه سوف يهجع

فالغزال المقنع هنا استعارة للمرأة الحسناء (وكذا ورد) قول رجل من بنى يسار فى كتاب الحماسة أيضا

أقول لنفسى حين حق زوالها * رويدك لما تشتقى حين مشفق
رويدك حتى تنظرى عم تنجلى * غمامة هذا العارض المتألق

فالعارض المتألق استعارة للحرب أو الذى أطل بمكروهه كالبارق المتألق (ويحكى) أن امرأة وقفت لعبد الملك بن مروان وهو سائر الى قتال مصعب بن الزبير فقالت يا أمير المؤمنين فقال رويدك حتى تنظرى عم تنجلى وأنشد البيت (ومن هذا الباب) قول عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن

لما نظرت الى عن حدق المها * وبسمت عن متفتح النوار
وعقدت بين قضيب بان أهيف * وكثيب رمل عقدة الزنار
عفرت خدى فى الثرى لك طائعا * وعزمت فيك على دخول النار

وهذه الابيات لا تجد لها فى الحسن شريكا ولأن يسمى قائلها شحرورا أولى من أن يسمى ديكا وكذلك ورد قوله

لا ومكان الصليب فى النحر منـ * ـك ومجرى الزنار فى الخصر

والخال فى الخد اذ أشبهه * وردة مسك على ثرى تبر
وحاجب مذ خطه قلم الحسن بحبر البهاء لا الحبر
والقوان بفيك منتظم * على شبيه من رائق الخمر

فالبيت الرابع هو المخصوص بالاستعارة والمستعار له هو الثغر والريق (ومما ورد لأبى تمام) فى هذا المعنى قوله

لما غدا مظلم الاحشاء من أشر * أسكنت جانحتيه كوكبا يقد

فالكوكب استعارة للرمح (وكذلك ورد قوله) فى الاعتذار

أسرى طريدا للحياء من التى * زعموا وليس لرهبة بطريد
وغدا تبين ما براءة ساحتى * لو قد نفضت تهائمى ونجودى

والتهائم والنجود هما استعارة مما استعاره من باطن أمره وظاهره وكذلك ورد قوله كم أحرزت قضب الهندى مصلتة * تهتز من قضب تهتز فى كثب

فالقضب والكثب استعارة للقد وذو الارداف وكذلك ورد فى هذه القصيدة أيضا عند ذكر ملك الروم وانهزامه لما فتحت مدينة عمورية فقال

ان يعد من حرها عدو الظليم فقد * أوسعت جاحمها من كثرة الحطب

فالحطب استعارة للقتلى وقبل هذا البيت ما يدل عليه لانه قال

أحذى قرابينه صرف الردى ومضى * يحتث أنجى مطاياه من الهرب
موكلا بيفاع الارض يشرفها * من خفة الخوف لا من خفة الطرب

ان يعد من حرها عدو الظليم البيت وأحسن من هذا كله قوله

تطل الطلول الدمع فى كل منزل * وتمثل بالصبر الديار المواثل
دوارس لم يجف الربيع ربوعها * ولا مر فى اغفالها وهو غافل
يعفين من زاد العفاة اذا انتحى * على الحى ضرب الازمة المتحامل

فقوله زاد العفاة استعارة طوى فيها ذكر المستعار له وهو أهل الديار كأنه قال يعفين من قوم هم زاد العفاة (وله فى الغزل) من الاستعارة ما يبلغ به غاية اللطافة والرقة وذلك فى قصيدته التى مطلعها * ان عهدا لو تعلمان ذميما * فقال

قد مررنا بالدار وهى خلاء * فبكينا طلولها والرسوما
وسألنا ربوعها فانصرفنا * بسقام وما سألنا حكيما
كنت أرعى النجوم حتى اذا ما * فارقونى أمسيت أرعى النجوما

والبيت

والبيت الثالث هو المخصوص بالاستعارة وعلى هذا المنهاج ورد قول البحترى

وأغرّ فى الزمن البهيم محجل * قد رحت منه على أغرّ محجل

والاغرّ المحجل الاوّل هو الممدوح والاغرّ المحجل الثانى هو الفرس الذى أعطاه اياه (وكذلك) ورد قوله

وصاعقة فى كفه تنكفى بها * على أرؤس الاعداء خمس سحائب

وهذا من النمط العالى الذى شغلت براعة معناه وحسن سبكه عن النظر الى استعارته والمراد بالسحائب الخمس الاصابع (وكذلك) ورد فى أبيات الحماسة

دك طود الكفر دكا * صاعق من وقع سيفك

أرسلته خمس سحب * نشأت من بحر كفك

(وكذلك) ورد قوله فى أبيات يصف فيها السيف

حملت حمائله القديمة بقلة * من عهد عاد غضة لم تذبل

وهذا من الحسن على ما يشهد لنفسه كأنه قال حملت حمائله سيفا أخضر الحديد كالبقلة. (وعلى هذا الاسلوب) ورد قول أبى الطيب المتنبى

فى الخدّ ان عزم الخليط رحيلا * مطر تزيد به الخدود محولا

وكذلك ورد قوله يدّ يديه فى المفاضة ضيغم وأحسن من هذا قوله فى قصيدته التى مطلعها * عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم

وأصبحت بقرى هنزيط جائلة * ترعى الظبى فى خصيب نبته اللمم

فما تركن بها خلدا له بصر * تحت التراب ولا بازا له قدم

ولا هزبرا له من درعه لبد * ولا مهاة لها من شبهها حشم

وهذا من المليح النادر فالخلد استعارة لمن اختفى تحت التراب خائفا والباز استعارة لمن طار هاربا والهزبر والمهاة استعارتان للرجال المقاتلة والنساء من السبايا (ومن هذا الباب قوله)

كل جريح ترجى سلامته * الا جريحا دهته عيناها

تبل خدّى كلما ابتسمت * من مطر برقه ثناياها

والبيت الثانى من الابيات الحسان التى تتواصف وقد حسن الاستعارة التى فيه أنه جاء ذكر المطر مع البرق (وبلغنى عن أبى الفتح بن جنى) رحمه الله أنه شرح ذلك فى كتابه الموسوم بالفسر الذى ألفه فى شرح شعر أبى الطيب فقال انها كانت

تبرق في وجهه فظن أن أبا الطيب أراد أنها كانت تبسم فيخرج الريق من فمها ويقع على وجهه فشبهه بالمطر وما كنت أظن أن أحدا من الناس يذهب وهمه وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره واذا كان هذا قول امام من أئمة العربية تشد اليه الرحال فما يقال في غيره لكن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والاعراب (وكذلك) ورد قول الشريف الرضى

اذا أنت أفنيت العرانين والذرى * رمتك الليالى من يد الخامل الغمر

وهبك اتقيت السهم من حيث يتقى * فمن ليد ترميك من حيث لا تدرى

فالعرانين والذرى هما عظماء الناس وأشرافهم كأنه قال اذا أفنيت عظماء الناس رميت من يد الخامل (واذ قد بينت) أن الاستعارة لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له فانها لا تجىء الا ملائمة مناسبة ولا يوجد فيها مباينة ولا تباعد لانها لا تذكر مطوية الا لبيان المناسبة بين المستعار منه والمستعار له ولو طويت ولم يكن هناك مناسبة بين المستعار منه والمستعار له لعسر فهمها ولم يبن المراد منها (ورأيت أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجى) رحمه الله تعالى قد خلط الاستعارة بالتشبيه المضمر الاداة ولم يفرق بينهما وتأسى في ذلك بغيره من علماء البيان كأبى هلال العسكرى والغانمى وأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى على أن أبا القاسم بن بشر الآمدى كان أثبت القوم قدما في فن الفصاحة والبلاغة وكتابه المسمى بالموازنة بين شعر الطائيين يشهد له بذلك وما أعلم كيف خفى عليه الفرق بين الاستعارة والتشبيه المضمر الاداة (ومما أورده ابن سنان) في كتابه الموسوم بسر الفصاحة قول امرئ القيس في صفة الليل

فقلت له لما تمطى بصلبه * وأردف اعجازا وناء بكلكل

وهذا البيت من التشبيه المضمر الاداة لان المستعار له مذكور وهو الليل وعلى الخطا في خلطه بالاستعارة فان ابن سنان أخطأ في الرد على الآمدى ولم يوفق للصواب وأنا أتكلم على ما ذكره ولا أضايقه في الاستعارة والتشبيه بل أنزل معه على ما رآه من أنه استعارة ثم أبين فساد ما ذهب اليه وذلك أن الآمدى قال في كتاب الموازنة ان امرأ القيس وصف أحوال الليل الطويل فذكر امتداد وسطه وتثاقل صدره وترادف اعجازه فلما جعل له وسطا ممتدا وصدرا ثقيلا واعجازا رادفة لوسطه استعار له اسم الصلب وجعله متمطيا من أجل امتداده

واسم

واسم الكلكل وجعله نائبا التثاقله واسم العجز من أجل نهوضه فقال ابن سنان الخفاجي معترضا عليه ان هذا الذي ذكره الآمدي ليس بمرضي غاية الرضا وان بيت امرئ القيس ليس من الاستعارة الجيدة ولا الرديئة بل هو وسط فان الامدي قد أفصح بأن امرأ القيس لما جعل الليل وسطا ممتدا استعار له اسم الصلب وجعله متمطيا من أجل امتداده وحيث جعل له آخرا وأولا استعار له عجزا وكلكلا وهذا كله انما يحسن بعضه مع بعض فذكر الصلب انما يحسن من أجل العجز والوسط والتمطي من أجل الصلب والكلكل لمجموع ذلك وهذه استعارة مبنية على استعارة أخرى هذا حكاية كلامه فى الاعتراض على الآمدي (وفيه نظر من وجهين الاول) أنه قال هذا بيت من الاستعارة الوسطى التي ليست بجيدة ولا رديئة ثم جعلها استعارة مبنية على استعارة اخرى وعنده أن الاستعارة المبنية على الاستعارة من أبعد الاستعارات وذلك أنه قسم الاستعارة الى قسمين قريب مختار وبعيد مطرح فالقريب المختار ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوي وشبه واضح والبعيد المطرح اما أن يكون لبعده مما استعير له فى الاصل أولانه استعارة مبنية على استعارة أخرى فيضعف لذلك هذا ما ذكره ابن سنان الخفاجي فى تقسيم الاستعارة واذا كانت الاستعارة المبنية على استعارة أخرى عنده بعيدة مطرحة فكيف جعلها وسطا هذا تناقض فى القول (الوجه الثاني) أنه لم يأخذ على الآمدي فى موضع الاخذ لانه لم يختر الا ما حسن اختياره وذلك أن حد الاستعارة على ما رآه الآمدي وابن سنان هو نقل المعنى من لفظ الى لفظ بسبب مشاركة بينهما وان كان المذهب الصحيح فى حد الاستعارة غير ذلك على ما تقدم الكلام عليه ولكني فى هذا الموضع أنزل معهما على ما رأياه حتى يتوجه الكلام على الحكم بينهما فى بيت امرئ القيس واذا حددنا الاستعارة بهذا الحد فبه يفرق على رأى ابن سنان بين الاستعارة المرضية والاستعارة المطرحة فاذا وجدنا استعارة فى كلام تما عرضناها على هذا الحد فاوجدنا فيه مناسبة بين المنقول عنه والمنقول اليه حكمنا له بالجودة ومالم نجد فيه تلك المناسبة حكمنا عليه بالرداءة وبيت امرئ القيس من الاستعارات المرضية لانه لولم يكن لليل صدر أعنى أولا ولم يكن له وسط وآخر لما حسنت هذه الاستعارة ولما كان الامر كذلك استعار

لوسطه صلبا وجعله متمطيا واستعار لصدره المتثاقل أعنى أوّله كلكلا وجعله ناثبا واستعار لآخره عجزا وجعله رادفا لوسطه وكل ذلك من الاستعارات المناسبة وأمّا قول ابن سنان الخفاجى انّ الاستعارة المبنية على استعارة أخرى بعيدة مطرحة فانّ فى هذا القول نظرا وذلك أنه قد بيّنا انما أصل نقيس عليه فى الفرق بين الاستعارة المرضية والمطرحة كما أريناك ولا يمنع ذلك من أن تجيء استعارة مبنية على استعارة أخرى وتوجد فيها المناسبة المطلوبة فى الاستعارة المرضية فانه قد ورد فى القرآن الكريم ماهو من هذا الجنس وهو قوله تعالى وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف فهذه ثلاث استعارات ينبنى بعضها على بعض فالأولى استعارة القرية للاهل والثانية استعارة الذوق للباس والثالثة استعارة اللباس للجوع والخوف وهذه الاستعارات الثلاث من التناسب على مالا خفاء به فكيف يذم ابن سنان الخفاجى الاستعارة المبنية على استعارة أخرى وما أقول انّ ذلك شذ عنه الالانه لم ينظر الى الاصل المقيس عليه وهو التناسب بين المنقول عنه والمنقول اليه بل نظر الى التقسيم الذى هو قسمه فى القرب أو البعد ورأى أنّ الاستعارة المبنية على استعارة أخرى تكون بعيدة فحكم عليها بالاطراح واذا كان الاصل انما هو التناسب فلا فرق بين أن يوجد فى استعارة واحدة أو فى استعارة مبنية على استعارة ولهذا أشباه ونظائر فى غير الاستعارة ألا ترى أنّ المنطقى يقول فى المقدمة والنتيجة كل انسان حيوان وكل حيوان نام فكل انسان نام وكذلك يقول المهندس فى بعض الاشكال الهندسية اذا كان خط اب مثل خط بج وخط بج مثل خط جد فخط اب مثل خط جد وهكذا أقول أنا فى الاستعارة اذا كانت الاستعارة الأولى مناسبة ثم بنى عليها استعارة ثانية وكانت أيضا مناسبة فالجميع متناسب وهذا أمر برهانى لا يتصوّر انكاره وهذا الكلام الذى أوردته ههنا هو اعتراض على ماذكره ابن سنان الخفاجى فى الاستعارة فلا تظنّ أنى موافقه فى الاصل وانما وافقته قصد التبيين وجه الخطا فى كلامه وكيف يسوغ لى موافقته وقد ثبت عندى بالدليل أنّ الاستعارة لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له وفيما قدمته من الكلام كفاية (النوع الثانى فى التشبيه) وجدت علماء البيان قد فرقوا

بين التشبيه والتمثيل وجعلوا لهذا بابا مفردا ولهذا بابا مفردا وهما شيء واحد لافرق بينهما في أصل الوضع يقال شبهت هذا الشيء بهذا الشيء كما يقال مثلته به وما أعلم كيف خفي ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه وكنت قدمت القول في باب الاستعارة على الفرق بين التشبيه وبينها ولا حاجة الى اعادته ههنا مرة ثانية (والتشبيه ينقسم قسمين) مظهرا ومضمرا وفي المضمر اشكال في تقدير أداة التشبيه فيه في بعض المواضع (وهو ينقسم أقساما خمسة فالاول) يقع موقع المبتدا والخبر مفردين (والثاني) يقع موقع المبتدا المفرد وخبره جملة مركبة من مضاف ومضاف اليه (والثالث) يقع موقع المبتدا والخبر جملتين (والرابع) يرد على وجه الفعل والفاعل (والخامس) يرد على وجه المثل المضروب وهذان القسمان الاخيران هما أشكل الاقسام الخمسة في تقدير أداة التشبيه (أما الاول) فكقولنا زيد أسد فهذا مبتدأ وخبره واذا قدرت أداة التشبيه فيه كان ذلك بديهة النظر على الفور فقيل زيد كالاسد (وأما القسم الثاني والثالث) فانهما متوسطان في تقدير أداة التشبيه فيهما فالثاني كقول النبي صلى الله عليه وسلم الكمأة جدري الارض وهذا يتنوع نوعين فاذا كان المضاف اليه معرفة كهذا الخبر النبوي لا يحتاج في تقدير أداة التشبيه الى تقديم المضاف اليه بل ان شئنا قدمناه وان شئنا أخرناه فقلنا الكمأة للارض كالجدري أو الكمأة كالجدري للارض واذا كان المضاف اليه نكرة فلا بد من تقديمه عند تقدير أداة التشبيه فمن ذلك قول البحتري

غمام سماح لا يغب له حيا * ومسعر حرب لا يضيع له وتر

فاذا قدرنا أداة التشبيه ههنا قلنا سماح كالغمام ولا يقدر الا هكذا والمبتدأ في هذا البيت محذوف وهو الاشارة الى الممدوح كأنه قال هو غمام سماح (ومن هذا النوع) ما يشكل تقدير أداة التشبيه فيه على غير العارف بهذا الفن كقول أبي تمام

أي مرعى عين ووادي نسيب * لحبته الايام في ملحوب

ومراد أبي تمام أن يصف هذا المكان بأنه كان حسنا ثم زال عنه حسنه فقال بأن العين كانت تلتذ بالنظر اليه كالتذاذ السائمة بالمرعى فانه كان يشبب به في الاشعار لحسنه وطيبه واذا قدرنا أداة التشبيه ههنا قلنا كأنه كان للعين مرعى وللنسيب منزلا ومألفا واذا جاء شيء من الابيات الشعرية على هذا الاسلوب

أوما يجرى مجراه فانه يحتاج الى عارف بوضع أداة التشبيه فيه (وأما الثالث) فكقول النبى صلى الله عليه وسلم وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم الا حصائد ألسنتهم كأنه قال كلام الألسنة كحصائد المناجل وهذا القسم لا يكون المشبه به مذكورا فيه بل تذكر صفته ألا ترى أن المنجل لم يذكر ههنا وانما ذكرت صفته وهى الحصد وكل ما يجىء من هذا القسم فانه لا يرد الا كذلك (وأما القسم الرابع والخامس) اللذان هما أشكل الاقسام المذكورة فى تقدير أداة التشبيه فيهما فانهما لا يتفطن لهما أنهما تشبيه (فما جاء من القسم الرابع) قوله تعالى والذين تبوّؤا الدار والايمان من قبلهم وتقدير أداة التشبيه فى هذا الموضع أن يقال هم فى ايمانهم كالمتبوّئ دارا أى أنهم قد اتخذوا الايمان مسكنا يسكنونه يصف بذلك تمكنهم منه (وعلى هذا) ورد قول أبى تمام

نطقت مقلة الفتى الملهوف * فتشكت بفيض دمع ذروف

واذا أردنا أن نقدر أداة التشبيه ههنا قلنا دمع العين كنطق اللسان أو قلنا العين الباكية كأنما تنطق بما فى الضمير (وأما ما جاء من القسم الخامس) فكقول الفرزدق يهجو جريرا

ماضر تغلب وائل أهجوتها * أم بلت حيث تناطح البحران

فشبه هجاء جرير تغلب وائل ببوله فى مجمع البحرين فكما أن البول فى مجمع البحرين لا يؤثر شيأ فكذلك هجاؤك هؤلاء القوم لا يؤثر شيأ وهذا البيت من الابيات الذى أقرّ له الناس بالحسن وكذلك ورد قوله أيضا

قوارص تأتينى وتحتقرونها * وقد يملأ القطر الاناء فيفعم

فانه شبه القوارص التى تأتيه محتقرة بالقطر الذى يملأ الاناء على صغر مقداره يشير بذلك الى أن الكثرة تجعل الصغير من الامر كبيرا وهذا الموضع يشكل على كثير من علماء البيان ويخلطونه بالاستعارة كقول البحترى فى التعزية بولد

تعز فان السيف يمضى وان وهت * حمائله عنه وخلاه قائمه

وهذا ليس من التشبيه وانما هو استعارة لان المستعار له مطوى الذكر وهو المعزى كأنه قال تعز فانك كالسيف الذى يمضى وان وهت حمائله وخلاه قائمه (فان قيل) انك قد قدمت القول فى باب الاستعارة بأن التشبيه المضمر الاداة يحسن تقدير أداة التشبيه فيه والاستعارة لا يحسن تقدير أداة التشبيه فيها وجعلت ذلك هو الفرق

بين

بين التشبيه المضمر الاداة وبين الاستعارة وقررت ذلك تقريرا طويلا عريضا ثم نراك قد نقضته ههنا بقولك ان من التشبيه المضمر الاداة ما يشكل تقدير أداة التشبيه فيه وانه يحتاج فى تقديرها الى نظر كهذين البيتين المذكورين للفرزدق وما يجرى مجراهما (فالجواب) عن ذلك أنى أقول هذا الذى ذكرته لا ينقض على شيأ مما قدمت القول فيه فى باب الاستعارة لانى قلت ان التشبيه المضمر الاداة يحسن تقدير الاداة فيه أى لا يتغير بتقديرها فيه عن صفته التى اتصف بها من فصاحة وبلاغة وليس كذلك الاستعارة فانها اذا قدرت أداة التشبيه فيها تغيرت عن صفتها التى اتصفت بها من فصاحة وبلاغة وأما الذى ورد ههنا من بيتى الفرزدق وما يجرى مجراهما من التشبيه المضمر الاداة فان أداة التشبيه لا تتقدر فيه وهو على حالته من النظم حتى تتبين هل تغيرت صفته التى اتصف بها من فصاحة وبلاغة أم لا وانما تتقدر أداة التشبيه فيه على وجه آخر وهذا لا ينقض ما أشرت اليه فى باب الاستعارة (واذا ثبتت هذه الاقسام الاربعة فأقول) ان التشبيه المضمر أبلغ من التشبيه المظهر وأوجز أما كونه أبلغ فلجعل المشبه مشبها به من غير واسطة أداة فيكون هو اياه فانك اذا قلت زيد أسد كنت قد جعلته أسدا من غير اظهار أداة التشبيه وأما كونه أوجز فلحذف أداة التشبيه منه وعلى هذا فان القسمين من المظهر والمضمر كليهما فى فضيلة البيان سواء فان الغرض المقصود من قولنا زيد أسد أن يتبين حال زيد فى اتصافه بشهامة النفس وقوة البطش وجراءة الاقدام وغير ذلك مما يجرى مجراه الا أنا لم نجد شيأ ندل به عليه سوى أن جعلناه شبيها بالاسد حيث كانت هذه الصفات مختصة به فصار ما قصدناه من هذا القول أكشف وأبين من أن لو قلنا زيد شهم شجاع قوى البطش جرىء الجنان وأشباه ذلك لما قد عرف وعهد من اجتماع هذه الصفات فى المشبه به أعنى الاسد وأما زيد الذى هو المشبه فليس معروفا بها وان كانت موجودة فيه وكلا هذين القسمين أيضا يختص بفضيلة الايجاز وان كان المضمر أوجز من المظهر لان قولنا زيد أسد أو كالاسد يسد مسد قولنا زيد من حاله كيت وكيت وهو من الشجاعة والشدة على كذا وكذا مما يطول ذكره فالتشبيه اذا يجمع صفات ثلاثة هى المبالغة والبيان والايجاز كما أريتك الا أنه من بين أنواع علم البيان مستوعر المذهب وهو مقتل من مقاتل البلاغة وسبب ذلك أن حمل الشىء على الشىء بالمماثلة اما صورة واما معنى يعز

صوابه وتعسر الاجادة فيه وقلما أكثر منه أحد الا عثر كما فعل ابن المعتز من أدباء العراق وابن وكيع من أدباء مصر فانهما أكثرا من ذلك لاسيما في وصف الرياض والاشجار والازهار والثمار لاجرم أنهما أتيا بالغث البارد الذي لا يثبت على محك الصواب فعليك أن تتوقى ما أشرت اليه (وأما فائدة التشبيه من الكلام) فهي أنك اذا مثلت الشئ بالشئ فانما تقصد به اثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه أو التنفير عنه ألا ترى أنك اذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا حسنا يدعو الى الترغيب فيها وكذلك اذا شبهتها بصورة شئ أقبح منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا قبيحا يدعو الى التنفير عنها وهذا لا نزاع فيه ولنضرب له مثالا يوضحه فنقول قد ورد عن ابن الرومي في مدح العسل وذمه بيت من الشعر وهو

تقول هذا مجاج النحل تمدحه * وان تعب قلت ذا قئ الزنابير

ألا ترى كيف مدح وذم الشئ الواحد بتصرف في التشبيه المجازي المضمر الاداة الذي خيل به الى السامع خيالا يحسن الشئ عنده تارة ويقبحه أخرى ولولا التوصل بطريق التشبيه على هذا الوجه لما أمكنه ذلك وهذا المثال كاف فيما أردناه (واعلم أن محاسن التشبيه) أن يجئ مصدريا كقولنا اقدم اقدام الاسد وفاض فيض البحر وهو أحسن ما استعمل في باب التشبيه كقول أبي نواس في وصف الخمر.

واذا ما مزجوها * وثبت وثب الجراد * واذا ما شربوها * أخذت أخذ الرقاد

وقيل ان من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الشئ بما هو أكبر منه وأعظم ومن ههنا غلط بعض الكتاب من أهل مصر في ذكر حصن من حصون الجبال مشبها له فقال هامة عليها من الغمامة عمامة وانملة خضبها الاصيل فكان الهلال منها قلامة وهذا الكاتب حفظ شيأ وغابت عنه أشياء فانه أخطأ في قوله انملة وأي مقدار للانملة بالنسبة الى تشبيه حصن على رأس جبل وأصاب في المناسبة بين ذكر الانملة والقلامة وتشبيهها بالهلال (فان قيل) ان هذا الكاتب تأسى فيما ذكره بكلام الله تعالى حيث قال الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح فمثل نوره بطاقة فيها ذبالة وقال الله تعالى والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم فمثل الهلال بأصل عذق النخلة (فالجواب) عن ذلك أني

أقول أما تمثيل نور الله تعالى بمشكاة فيها مصباح فان هذا مثال ضربه للنبي صلى الله عليه وسلم ويدل عليه أنه قال توقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية واذا نظرت الى هذا الموضع وجدته تشبيها لطيفا عجيبا وذاك أن قلب النبي صلى الله عليه وسلم وما ألقي فيه من النور وما هو عليه من الصفة الشفافة كالزجاجة التي كأنها كوكب لصفائها واضاءتها وأما الشجرة المباركة التي لا شرقية ولا غربية فانها عبارة عن ذات النبي صلى الله عليه وسلم لانه من أرض الحجاز التي لا تميل الى الشرق ولا الى الغرب وأما زيت هذه الزجاجة فانه مضيء من غير أن تمسه نار والمراد بذلك أن فطرته فطرة صافية من الاكدار منيرة من قبل مصافحة الانوار فهذا هو المراد بالتشبيه الذي ورد في هذه الآية (وأما الآية الاخرى) فانه شبه الهلال فيها بالعرجون القديم وذلك في هيئة نحوله واستدارته لا في مقداره فان مقدار الهلال عظيم ولا نسبة للعرجون اليه لكنه في مرأى النظر كالعرجون هيئة لا مقدارا وأما هذا الكاتب فان تشبيهه ليس على هذا النسق لانه شبه صورة الحسن بأنملة في المقدار لا في الهيئة والشكل وهذا غير حسن ولا مناسب وانما ألقاه فيه أنه قصد الهلال والقلامة مع ذكر الانملة فأخطأ من جهة وأصاب من جهة لكن خطؤه غطى على صوابه (والقول السديد) في بلاغة التشبيه هو ما أذكره وهو أن اطلاق من أطلق قوله في ان من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الأصغر بالاكبر غير سديد فان هذا قول غير حاصر للغرض المقصود لان التشبيه يأتي تارة في معرض المدح وتارة في معرض الذم وتارة في غير معرض مدح ولا ذم وانما يأتي قصد اللابانة والايضاح ولا يكون تشبيه أصغر بأكبر كما ذهب اليه من ذهب بل القول الجامع في ذلك أن يقال ان التشبيه لا يعمد اليه الا لضرب من المبالغة فاما أن يكون مدحا أو ذما أو بيانا وايضاحا ولا يخرج عن هذه المعاني الثلاثة واذا كان الامر كذلك فلا بد فيه من تقدير لفظة أفعل فان لم تقدر فيه لفظة أفعل فليس بتشبيه بليغ ألا ترى أنا نقول في التشبيه المضمر الاداة زيد أسد فقد شبهنا زيدا بالاسد الذي هو أشجع منه فان لم يكن المشبه به في هذا المقام أشجع من زيد الذي هو المشبه والا كان التشبيه ناقصا اذ لا مبالغة فيه (وأما التشبيه المظهر الاداة) فكقوله تعالى وله الجوار المنشآت في البحر كالاعلام وهذا تشبيه كبير بما هو أكبر منه لان خلق السفن البحرية

كبير وخلق الجبال أكبر منه وكذلك اذا شبه شئ حسن بشئ حسن فانه اذا لم يشبه بما هو أحسن منه فليس بوارد على طريق البلاغة وان شبه قبيح بقبيح وهكذا ينبغي أن يكون المشبه به أقبح ولن قصد البيان والايضاح فينبغي أن يكون المشبه به أبين وأوضح فتقدير لفظة أفعل لابد منه فيما يقصد به بلاغة التشبيه والا كان التشبيه ناقصا فاعلم ذلك وقس عليه (واعلم) انه لا يخلو تشبيه الشيئين أحدهما بالآخر من أربعة أقسام اما تشبيه معنى بمعنى كالذى تقدم ذكره من قولنا زيد كالاسد واما تشبيه صورة بصورة كقوله تعالى وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون واما تشبيه معنى بصورة كقوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة وهذا القسم أبلغ الاقسام الاربعة لتمثيله المعاني الموهومة بالصور المشاهدة واما تشبيه صورة بمعنى كقول أبي تمام

وفتكت بالمال الجزيل وبالعدا * فتك الصبابة بالمحب المغرم

فشبه فتكه بالمال وبالعدا وذلك صورة مرئية بفتك الصبابة وهو فتك معنوى وهذا القسم ألطف الاقسام الاربعة لانه نقل صورة الى غير صورة وكل واحد من هذه الاقسام الاربعة المشار اليها لا يخلو التشبيه فيه من أربعة أقسام أيضا اما تشبيه مفرد بمفرد واما تشبيه مركب بمركب واما تشبيه مفرد بمركب واما تشبيه مركب بمفرد والمراد بقولنا مفرد ومركب أن المفرد يكون تشبيه شئ واحد بشئ واحد والمركب تشبيه شيئين اثنين بشيئين اثنين وكذلك المفرد بالمركب والمركب بالمفرد فان أحدهما يكون تشبيه شئ واحد بشيئين والآخر يكون تشبيه شيئين بشئ واحد ولست أعني بقولي تشبيه شيئين بشيئين أنه لا يكون الا كذلك بل أردت تشبيه شيئين بشيئين فما فوقهما كقول بعضهم في الخمر

وكأنها وكأن حامل كأسها * اذ قام يجلوها على الندماء
شمس الضحى رقصت فنقط وجهها * بدر الدجى بكواكب الجوزاء

فشبه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء فانه شبه الساقي بالبدر وشبه الخمر بالشمس وشبه الحبب الذى فوقها بالكواكب (واذ بينت) أن التشبيه ينقسم الى تلك الاقسام الاربعة فاني أقول ان التشبيه المضمر الاداة قد قدمت القول في أنه ينقسم الى خمسة أقسام فالقسم الاول لا يرد الا في تشبيه مفرد بمفرد والقسم الثاني لا يرد الا في تشبيه مفرد بمركب والقسم الثالث لا يرد الا في تشبيه مركب بمركب

والقسم

والقسم الرابع والخامس لا يردان الا فى تشبيه مركب بمركب ألا ترى أنا اذا قلنا فى القسم الاول زيد أسد كان ذلك تشبيه مفرد بمفرد واذا قلنا فى القسم الثانى ما مثلنا له به من الخبر النبوى وهو الكمأة جدرى الارض كان ذلك تشبيه مفرد بمركب وكذلك بيت البحترى وبيت أبى تمام المشار اليهما فيما تقدم واذا قلنا فى القسم الثالث ما أشرنا اليه من الخبر النبوى أيضا الذى هو وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم الاحصائد ألسنتهم كان ذلك تشبيه مركب بمركب واذا قلنا فى القسم الرابع والخامس ما مثلنا به من بيتى الفرزدق والبحترى كان ذلك تشبيه مركب بمركب واذا كان الامر كذلك وجاء لك شئ من التشبيه المضمر الاداة وهو من القسم الاول فاعلم أنه تشبيه مفرد بمفرد واذا جاءك شئ من القسم الثانى فاعلم أنه تشبيه مفرد بمركب واذا جاءك شئ من القسم الثالث فاعلم أنه تشبيه مركب بمركب وكذلك اذا جاءك شئ من القسم الرابع والقسم الخامس فانهما من باب تشبيه المركب بالمركب ولنرجع الى ذكر ما أشرنا اليه أولا فى تقسيم التشبيه الى الاربعة الاقسام الاخرى التى هى تشبيه مفرد بمفرد وتشبيه مركب بمركب وتشبيه مفرد بمركب وتشبيه مركب بمفرد (فالقسم الاول منها) كقوله تعالى فى المضمر الاداة وجعلنا الليل لباسا فشبه الليل باللباس وذلك أنه يستر الناس بعضهم عن بعض لمن أراد هربا من عدوّ أو بياتا لعدوّ أو اخفاء ما لا يحب الاطلاع عليه من أمره وهذا من التشبيهات التى لم يأت بها الا القرآن الكريم فان تشبيه الليل باللباس مما اختص به دون غيره من الكلام المنثور والمنظوم وكذلك قوله تعالى هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ فشبه المرأة باللباس للرجل وشبه الرجل باللباس للمرأة (ومن محاسن التشبيهات) قوله تعالى نساؤكم حرث لكم وهذا يكاد ينقله تناسبه عن درجة المجاز الى الحقيقة والحرث هو الارض التى تحرث للزرع وكذلك الرحم يزدرع فيه الولد ازدراعا كما يزدرع البذر فى الارض (ومن هذا الاسلوب) قوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فشبه تبرأ الليل من النهار بانسلاخ الجلد عن الجسم المسلوخ وذلك أنه لما كانت هوادى الصبح عند طلوعه ملتحمة بأعجاز الليل أجرى عليهما اسم السلخ وكان ذلك أولى من أن لو قيل يخرج لان السلخ أدل على الالتحام من الاخراج وهذا تشبيه فى غاية المناسبة (وكذلك) ورد قوله تعالى واشتعل الرأس شيبا فشبه انتشار

الشيب باشتعال النار ولما كان الشيب يأخذ في الرأس ويسعى فيه شيأ فشيأ حتى يحيله الى غير لونه الاول كان بمنزلة النار التى تشتعل فى الجسم وتسرى فيه حتى تحيله الى غير حاله الاولى وأحسن من هذا أن يقال انه شبه انتشار الشيب باشتعال النار فى سرعة التهابه وتعذر تلافيه وفى عظم الالم فى القلب به وأنه لم يبق بعده الا الخمود فهذه أوصاف أربعة جامعة بين المشبه والمشبه به وذلك فى الغاية القصوى من التناسب والتلاؤم (وقد ورد فى الامثال) الليل جنة الهارب وهذا تشبيه حسن وكل ذلك من التشبيه المضمر الاداة ومما ورد منه شعرا قول أبي الطيب المتنبي

وإذا اهتز للندى كان بحرا * واذا اهتز للوغى كان نصلا
واذا الارض أظلمت كان شمسا * واذا الارض أمحلت كان وبلا

فحرف التشبيه ههنا مضمر وتقديره كان كأنه بحر وكان كأنه نصل وكذلك يقال فى البيت الثانى كان كأنه شمس وكان كأنه وبل وهذا تشبيه صورة بصورة وهو حسن فى معناه وكذلك ورد قول أبى نواس وهو فى تشبيه الحبب

فاذا ما اعترضته العين من حيث استدارا
خلته فى جنبات الكاس واوات صغارا

وهذا تشبيه صورة بصورة أيضا وقد أبرز هذا المعنى فى لباس آخر فقال

واذا علاها الماء ألبسها * حببا شبيه جلاجل الحجل
حتى اذا سكنت جوانحها * كتبت بمثل أكارع النمل

(ومن هذا) قول البحترى

تبسم وقطوب فى ندى ووغى * كالرعد والبرق تحت العارض البرد

وهذا من أحسن التشبيه وأقربه الا أن فيه اخلالا من جهة الصنعة وهى ترتيب التفسير فان الاولى أن كان قدم تفسير التبسم على تفسير القطوب بأن كان قال كالبرق والرعد فانظر أيها المنتمى الى هذا الفن كيف ذهب على البحترى مثل هذا الموضع على قربه مع تقدمه فى صناعة الشعر وليس فى ذلك كبير أمر سوى ان كان قدم ما أخر لا غير وانما يعذر الشاعر فى مثل هذا المقام اذا حكم عليه الوزن والقافية واضطر الى ترك ما يجب عليه وأما اذا كانت الحال كالتى ذكرها البحترى فحينئذ لا عذر له وسيأتى لذلك باب مفرد فى موضعه من هذا الكتاب

ان شاء الله تعالى وهو باب ترتيب التفسير وكذلك ورد قول البحترى

في معترك ضنك تخال به القنا * بين الضلوع اذا انحنين ضلوعا

(ومن تشبيه المفرد بالمفرد قول أبي الطيب المتنبي)

خرجن من النقع في عارض * ومن عرق الركض في وابل

فلما نشفن لقين السياط * بمثل صفا البلد الماحل

وقد حوى هذان البيتان قرب التشبيه مع براعة النظم وجزالة اللفظ

(وأما القسم الثاني) وهو تشبيه المركب بالمركب فمما جاء منه مضمر الاداة ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث يرويه معاذ بن جبل رضي الله عنه وهو حديث طويل يشتمل على فضائل أعمال متعددة ولا حاجة الى ايراده ههنا على نصه بل نذكر الغرض منه وهو أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عليك هذا وأشار الى لسانه فقال معاذ أونحن مؤاخذون بما نتكلم به فقال ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم الا حصائد ألسنتهم فقوله حصائد ألسنتهم من تشبيه المركب بالمركب فانه شبه الالسنة وما تمضي فيه من الاحاديث التي يؤاخذ بها بالمناجل التي تحصد النبات من الارض وهذا تشبيه بليغ عجيب لم يسمع الا من النبي صلى الله عليه وسلم (ومما ورد منه) شعرا قول أبي تمام

معشر أصبحوا حصون المعالي * ودروع الاحساب والاعراض

فقوله حصون المعالي من التشبيه المركب وذلك أنه شبههم في منعهم المعالي أن ينالها أحد سواهم بالحصون في منعها من بها وحمايته وكذلك قوله دروع الاحساب (وأما المظهر الاداة) فمما جاء منه قوله تعالى انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس فشبهت حال الدنيا في سرعة زوالها وانقراض نعيمها بعد الاقبال بحال نبات الارض في جفافه وذهابه حطاما بعدما التف وتكاثف وزين الارض وذلك تشبيه صورة بصورة وهو من أبدع ما يجيء في بابه (ومن ذلك أيضا) قوله تعالى في وصف حال المنافقين مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم

فى ظلمات لا يبصرون تقديره ان مثل هؤلاء المنافقين كمثل رجل أوقد نارا فى ليلة مظلمة بمفازة فاستضاء بها ما حوله فاتقى ما يخاف وأمن فبينا هو كذلك اذ طفئت ناره فبقى مظلما خائفا وكذلك المنافق اذا أظهر كلمة الايمان استنار بها واعتز بعزها وأمن على نفسه وماله وولده فاذا مات عاد الى الخوف وبقى فى العذاب والنقمة (ومما ورد منه فى الاخبار النبوية) قول النبى صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الاترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ولا طعم لها ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر وهذا من باب تشبيه المركب بالمركب ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم شبه المؤمن القارئ وهو متصف بصفتين هما الايمان والقراءة بالاترجة وهى ذات وصفين هما الطعم والريح وكذلك يجرى الحكم فى المؤمن غير القارئ وفى المنافق القارئ والمنافق غير القارئ (وقد جاءنى شئ من ذلك) أوردته فى فصل من كتاب أصف فيه البر والسير فقلت ولم أزل أصل الرسيل بالرسيل وألف الضحى بالاصيل والارض كالبحر فى سعة صدره والمطايا كالجوارى راكدة على ظهره فكان الركب منها كمكانهم من الاكوار ومسيرهم فيها على كرة لا تستقر بها حركة الادوار (وأما ما ورد من ذلك شعرا) فكقول البحترى

خلق منهمو تردد فيهم * وليته عصابة عن عصابه
كالحسام الجراز يبقى على الدهر ويفنى فى كل حين قرابه

وكذلك ورد قول ابن الرومى

أدرك ثقاتك انهم وقعوا * فى نرجس معه ابنة العنب
فهمو بحال لو بصرت بها * سبحت من عجب ومن عجب
ريحانهم ذهب على درر * وشرابهم درر على ذهب

وهذا تشبيه صنيع الا أن تشبيه البحترى أصنع وذلك أن هذا التشبيه صدر عن صورة مشاهدة وذاك انما استنبطه استنباطا من خاطره واذا شئت أن تفرق بين صناعة التشبيه فانظر الى ما أشرت اليه ههنا فان كان أحد التشبيهين عن صورة مشاهدة والآخر عن صورة غير مشاهدة فاعلم أن الذى هو عن صورة غير

مشاهدة

مشاهدة أصنع واعمرى انّ التشبيهين كليهما لا بدّ فيهما من صورة تحكى لكن أحدهما شوهدت الصورة فيه فحكيت والآخر استنبطت له صورة لم تشاهد فى تلك الحال وانما الفكر استنبطها ألا ترى أنّ ابن الرومى نظر الى النرجس والى الخمر فشبه وأمّا البحترى فانه مدح قوما بأنّ خلق السماح باق فيهم ينتقل عن الاوّل الى الآخر ثم استنبط لذلك تشبيها فأداه فكره الى السيف وفربه التى تفنى فى كل حين وهو باق لا يفنى بفنائها ومن أجل ذلك كان البحترى أصنع فى تشبيهه (وسأورد ههنا من كلامى نبذة بيسيرة فى ذلك) ما كتبته من جملة كتاب الى ديوان الخلافة أذكر فيه نزول العدوّ الكافر على ثغر عكا فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة فقلت وأحاط بها العدوّ احاطة الشفاه بالثغور ونزل عليها نزول الظلماء على النور وهذا من التشبيهات المناسبة ثم لما جئت الى ذكر قتال المسلمين اياه وازالته عن جانب الثغر قلت وقد اصطدم من الاسلام والكفر ابناشمام والتقى من عجاجتهما ظلام وعند ذلك أخذ العدوّ فى التحيز الى جانب وكان كحاجب على عين فصار كعين فى حاجب واذ تزعزع البناء فقد هوى واذا قبض من طرف البساط فقد انطوى وهذا التشبيه فى مناسبته كالاوّل بل أحسن (ومن ذلك) ما ذكرته فى فصل من كتاب الى بعض الاخوان فقلت وما شبهت كتابه فى وروده وانقباضه الا بنظر الحبيب فى اقباله واعراضه وكلا الامرين كالسهم فى ألم وقعه وألم نزعه والمشوق من استوت صبابته فى حالتى وصله وقطعه وما أزال على وجل من ارسال كتبه واحامها واشتباه لمها بالمامها (ومما جاء من هذا القسم) فى الشعر قول بكر بن النطاح

ترا هم ينظرون الى المعالى * كما نظرت الى الشيب الملاح
يحدّون العيون الى ّ شذرا * كأنى فى عيونهم السماح

وهذا بديع فى حسنه بليغ فى تشبيهه (وعلى هذا النهج) ورد قول أبى تمام

خلط الشجاعة بالحياء فأصبحا * كالحسن شيب لمغرم بدلال

وهذا من غريب ما يأتى فى هذا الباب وقد تغالت شيعة أبى تمام فى وصف هذا البيت وهو لعمرى كذلك ومن هذا القسم أيضا قوله

كم نعمة لله كانت عنده * فكأنها فى غربة واسار
كسيت سبائب لومه فتضاءلت * كتضاؤل الحسناء فى الاطمار

(وكذلك قوله)

صدفت عنه ولم تصدف مواهبه * عنى وعاوده ظنى فلم يخب
كالغيث ان جئته وافاك ريقه * وان ترحلت عنه لج فى الطلب

(وعلى هذا الاسلوب) ورد قول على بن جبلة

اذا ماتردى لأمة الحرب أرعدت * حشا الارض واستدمى الرماح السوارع
وأسفر تحت النقع حتى كأنه * صباح مشى فى ظلمة الليل طالع

وقد أحسن على بن جبلة فى تشبيهه هذا كل الاحسان وكذلك فى الحسن قوله أيضا فى تشبيه الحبب فوق الخمر

ترى فوقها نمشا للمزاج * تباذير لا يتصلن اتصالا
كوجه العروس اذا خططت * على كل ناحية منه خالا

(ومن هذا القسم) قول مسلم بن الوليد

تلق المنية فى أمثال عدتها * كالسيل يقذف جلمودا بجلمود

(وعلى هذا الاسلوب) ورد قول العباس بن الاحنف

لا جزى الله دمع عينى خيرا * وجزى الله كل خير لسانى
نم دمعى فليس يكتم شيأ * ووجدت اللسان ذا كتمانى
كنت مثل الكتاب أخفاه طى * فاستدلوا عليه بالعنوان

وهذا من اللطيف البديع (ويروى أن أبا نواس) لما دخل مصر مادحا الخصيب جلس يوما فى رهط من الادباء وتذكروا منازه بغداد فأنشد مرتجلا

ذكر الكرخ نازح الاوطان * فصبا صبوة ولات أوان

ثم أتم ذلك قصيدا مدح به الخصيب فلما عاد الى بغداد دخل عليه العباس بن الاحنف وقال أنشدنى شيأ من شعرك بمصر فأنشده ذكر الكرخ نازح الاوطان فلما استتم الابيات قال له لقد ظلمك من ناواك وتخلف عنك من جاراك وحرام على أحد يتفوه بقول الشعر بعدك فقال له أبو نواس وأنت أيضا يا أبا الفضل تقول هذا ألست القائل لا جزى الله دمع عينى خيرا وأنشد الابيات ثم قال ومن الذى يحسن أن يقول مثل هذا (ومن تشبيه المركب بالمركب) قول البحترى

جدة يذود البخل عن أطرافها * كالبحر يمنع ملحه عن مائه

وهذا من محاسن التشبيهات وكذلك ورد قوله

قوله ولم تصدف الخ فى الديوان فلم تصدف عن مودته وان عطفت بدل وان رحلت

وتراه في ظلم الوغى فتخاله * قمرا يكر على الرجال بكوكب

وفي هذا البيت تشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء فانه شبه العجاج بالظلمة والممدوح بالقمر والسنان بالكوكب وهذا من الحسن النادر وكذلك ورد قوله

يمشون في زغف كأن متونها * في كل معركة متون نهاء

بيض تسيل على الكماة نصولها * سيل السراب بقفرة بيداء

فاذا الاسنة خالطتها خلتها * فيها خيال كواكب في ماء

فالبيتان الاخيران هما اللذان تضمنا تشبيه المركب بالمركب وانما جئنا بالبيت الاول سياقة الى معناهما وهو من التشبيه الذي أحسن فيه البحتري وأغرب (ومن هذا الباب) ما ورد لبعض الشعراء في وصف الخمر فقال

كانت سراج أناس يهتدون بها * في سالف الدهر قبل النار والنور

تهتز في الكأس من ضعف ومن هرم * كأنها قبس في كف مقرور

وقد يندر للناظم أو الناثر شيء من كلامه يبلغ الغاية التي لا أمد فوقها وهذان البيتان من هذا القبيل (ومن أغرب ما سمعته في هذا الباب) قول الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة

فتى عيش في معروفه بعد موته * كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

(القسم الثالث) في تشبيه المفرد بالمركب (فمما ورد) منه قوله تعالى الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية وكذلك قوله تعالى مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن استنجادا فقلت وهو اذا استصرخ أصرخ بعزم كالشهاب في رجمه وهم كالقوس الممتلئ بنزع سهمه ويرى أن صريخه لم يجب وأنه اذا لم يجبه بالسيف فكأنه لم يجب فهو مغرى بجواده وحسامه ومسمع العدو صرير رمحه قبل قعقعة لجامه (وكذلك) أيضا ما كتبته في كتاب الى بعض الاخوان أذم الفراق فقلت والفراق شيء لا كالاشياء وصاحبه ميت لا كالاموات وحي لا كالاحياء وما أراه الا كنار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة وما يجعل صاحبها في ضحضاح منها الا تواتر الكتب التي تقيه بعض الوقاء وتقوم له وان لم يبق مقام الاسقاء

(وأمّا ما ورد منه في الشعر) فكقول أبي نواس

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدوّ في ثياب صديق

(وكذلك) قول أبي تمام يصف قصائده

خذها مثقفة القوافي ربها * لسوابغ النعماء غير كنود

كالدرّ والمرجان ألف نظمه * بالشذر في عنق الفتاة الرود

وكذلك ورد قول البحتري وهو من جملة قصيدته المشهورة التي وصف فيها الفرس والسيف وأولها * أهلا بذلكم الخيال المقبل * فقال فيها من أبيات تضمنت وصف السيف بيتا أجاد في تشبيهه

وكأنما سود النمال وحمرها * دبت بأيد في قواه وأرجل

فشبه فرند السيف بدبيب النمل سودها وحمرها وذلك من التشبيه الحسن (وأمّا ما ورد منه في غير الاداة) فكقول النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن العزل فقال هو الوأد الخفيّ وهذا تشبيه بليغ والوأد هو ما كانت العرب تفعله في دفن البنات أحياء فجعل العزل في الجماع كالوأد الا أنه خفيّ وذلك أنهم كانوا يفعلون بالبنات ذلك هربا منهنّ وهكذا من يعزل في الجماع فانما يفعل ذلك هربا من الولد (وكذلك) قال النبيّ صلى الله عليه وسلم هو الوأدة الصغرى وهذا من الحسن الى غاية تغض لها العيون طرفها ولا ينتهي الوصف اليها فيكون ترك وصفها كوصفها (ومما جاء في من ذلك) فصل من جملة كتاب ضمنته وصف القلم فقلت جدع أنفه فصار في الكيد قصيرا وأرهف صدره فصار في المضاء عضبا شهيرا وقص لباس السواد وهو شعار الخطباء فنطق بفصل الخطاب ونكس رأسه وهي صورة الاذلال فاختال في مشيه من الاعجاب وأوحى اليه بنجوى الخواطر وهو الاصمّ فأفضى بما سمعه الى الكتاب وهذه الاوصاف غريبة جدا ومن أغربها ذكر قصير عند جدع الانف (وأمّا القسم الرابع) وهو تشبيه المركب بالمفرد فانه قليل الاستعمال بالنسبة الى الاقسام الثلاثة وليس ذلك الا لعدم النظير بين المشبه والمشبه به وعلى كثرة ما حفظته من الاشعار لم أجد ما أمثل به هذا القسم الا مثالا واحدا وهو قول أبي تمام في وصف الربيع

يا صاحبيّ تقصيا نظريكما * تريا وجوه الارض كيف تصوّر

تريا

قوله : خذها البيتين ... في الديوان مثان ١ه

تريانهاراً مشمساً قد شابه * زهر الربا فكأنما هو مقمر

فشبه النهار المشمس مع الزهر الابيض بضوء القمر وهو تشبيه حسن واقع في موقعه مع ما فيه من لطف الصنعة (ولربما اعترض في هذا الموضع معترض) وقال انك أوردت هذا القسم من التشبيه وذكرت أنه قليل وليس كذلك فان تشبيه شيئين بشيء واحد كثير كقول أبي الطيب المتنبي

تشرق أعراضهم وأوجههم * كأنها في نفوسهم شيم

فشبه اشراق الاعراض والوجوه باشراق الشيم (الجواب عن ذلك) اني أقول هذا البيت المعترض به على ما ذكرته ليس كالذي ذكرته فاني أردت أن يشبه شيآن هما كشيء واحد في الاشتراك بشيء واحد ألا ترى أن نور الشمس مع بياض الزهر وهما شيآن مشتركان قد شبها بضوء القمر وأما هذا البيت الذي لأبي الطيب المتنبي فانه تشبيه شيئين كل واحد منهما منفرد برأسه بشيء واحد لانه شبه اشراق الاعراض واشراق الوجوه باشراق الشيم وهذا غير ما أردته أنا لكن ينبغي أن تعلم أن تشبيه المركب بالمفرد ينقسم قسمين أحدهما تشبيه شيئين مشتركين بشيء واحد كالذي أوردته لأبي تمام وهو قليل الاستعمال والآخر تشبيه شيئين منفردين بشيء واحد كالذي ذكرته أنت لأبي الطيب المتنبي وهو كثير الاستعمال (واذ ذكرنا أقسام التشبيه) وبينا المحمود منها الذي ينبغي اقتفاء اثره واتباع مذهبه فلنتبعه بضده مما ينبغي اجتنابه والاضراب عنه على أنه قد قدمنا القول بأن حد التشبيه هو أن يثبت للمشبه حكم من أحكام المشبه به فاذا لم يكن بهذه الصفة أو كان بين المشبه والمشبه به بعد فذلك الذي يطرح ولا يستعمل والذي يرد منه مضمر الاداة لا يكون الا في القسم الواحد من أقسام المجاز وهو التوسع وقد قدمت القول في ذلك في أول باب الاستعارة وضربت له أمثلة منها قول أبي نواس

مالرجل المال أمست * تشتكي منك الكلالا

فجعل للمال رجلا وذلك تشبيه بعيد ولا حاجة الى اعادة ذلك الكلام ههنا بجملته لكن قد أشرت اليه اشارة خفيفة (ومن أقبح ما سمعته من ذلك) قول أبي تمام

وتقاسم الناس السخاء مجزأ * وذهبت أنت برأسه وسنامه

وتركت للناس الاهاب وما بقي * من فرثه وعروقه وعظامه

قوله وتقاسم في الديوان وتقسم اه

والقبح الفاحش فى البيت الثانى وكل هذا التعسف فى التشبيه البعيد ونذنة
نحول معنى ليس بطائل فان غرضه أن يقول ذهب بالاعلى وترك للناس الادنى
أو ذهبت بالجيد وتركت للناس الردى ٭ وقد عيب عليه قوله

لا تسقنى ماء الملام فاننى ٭ صب قد استعذبت ماء بكائى

وقيل انه جعل للملام ماء وذلك تشبيه بعيد وما بهذا التشبيه عندى من باس
بل هو من التشبيهات المتوسطة التى لا تحمد ولا تذم وهو قريب من وجه بعيد
من وجه أمّا سبب قربه فهو أنّ الملام هو القول الذى يعنف به الملوم لامر جناه
وذلك مختص بالسمع فنقله أبو تمام الى السقيا التى هى مختصة بالحلق كأنه قال
لا تذقنى الملام ولو تهيأ له ذلك مع وزن الشعر لكان تشبيها حسنا لكنه جاء
بذكر الماء فحط من درجته شيأ ولما كان السمع يتجرع الملام أولا أولا كتجرع
الحلق الماء صار كأنه شبيه به وهو تشبيه معنى بصورة وأمّا سبب بعد هذا التشبيه
فهو أنّ الماء مستلذ والملام مستكره فحصل بينهما مخالفة من هذا الوجه
فهذا التشبيه ان بعد من وجه فقد قرب من وجه فيقوم هذا الهذا ولذلك جعلته
من التشبيهات المتوسطة التى لا تحمد ولا تذمّ (وقد روى) وهو رواية ضعيفة أنّ
بعض أهل المجانة أرسل الى أبى تمام قارورة وقال ابعث فى هذه شيأ من ماء الملام
فأرسل اليه أبو تمام وقال اذا بعثت الىّ ريشة من جناح الذل بعثت اليك شيأ
من ماء الملام وما كان أبو تمام ليذهب عليه الفرق بين هذين التشبيهين فانه
ليس جعل الجناح للذل كجعل الماء للملام فانّ الجناح للذل مناسب وذلك
أنّ الطائر اذا وهن أو تعب بسط جناحه وخفضه وألقى نفسه على الارض
وللانسان أيضا جناح فانّ يديه جناحاه واذا خضع واستكان طأطأ من رأسه
وخفض من يديه فحسن عند ذلك جعل الجناح للذل وصار تشبيها مناسبا
وأمّا الماء للملام فليس كذلك فى مناسبة التشبيه (وأمّا التشبيه المضمر
الاداة) من هذا الباب فقد أوردت له أمثلة يستدل بها على أشباهه وأمثاله
فانّ لذكر المثال فائدة لا تكون لذكر الحدّ وحده (فمن ذلك) قول بعضهم

ملاحبيك الشيب حتى كأنه ٭ ظباء جرت منها سنيح وبارح

(وكذلك) قول الآخر يصف السهام

كساها رطيب الريش فاعتدلت له ٭ قداح كأعناق الظباء الفوارق

فانه شبه السهام بأعناق الظباء وذلك من أبعد التشبيهات وعلى نحو منه قول الفرزدق يمشون فى حلق الحديد كما مشت * جرب الجمال بها الكحيل المشعل فشبه الرجال فى دروع الزرد بالجمال الجرب وهذا من التشبيه البعيد لانه ان أراد السواد فلا مقاربة بينهما فى اللون لان لون الحديد أبيض ومن أجل ذلك سميت السيوف بالبيض ومع كون هذا التشبيه بعيدا فانه تشبيه سخيف (ومن التشبيهات الباردة) قول أبي الطيب المتنبى

وجرى على الورق النجيع القانى * فكأنه النارنج فى الاغصان

وهذا التشبيه ينكره أهل التمييز واذا قسمت التشبيهات بعد البعد والبرد حاز طرفى ذلك التقسيم وأبشع من هذا قول أبي نواس فى الخمر

كأن بواسار وواكد حولها * وزرق سنانير تدير عيونها

(والعجب) أنه يقول مثل هذا الغث الذى لاملاءمة بينه وبين ماشبه به ويقرنه بالبديع البارد الذى أحسن فيه وأبدع وهو

كأنا حلول بين أكناف روضة * اذا ما سلبنا هامع الليل طينها

فانظر كيف قرن بين ورده وسعدانه لابل بين بعره ومرجانه وقد أكثر فى تشبيه الخمر فأحسن فى موضع وأساء فى موضع ومن اساءته قوله أيضا فى أبيات لامية

واذا ما الماء واقعها * أظهرت شكلا من الغزل

لؤلؤات ينحدرن بها * كانحدار الذر من جبل

فشبه الحبب فى انحداره بنمل صغار ينحدر من جبل وهذا من البعد على غاية لايحتاج الى بيان وايضاح (واعلم) أن من التشبيه ضربا يسمى الطرد والعكس وهو أن يجعل المشبه به مشبها والمشبه مشبها به وبعضهم يسميه غلبة الفروع على الاصول ولا تجد شيأ من ذلك الا والغرض به المبالغة (فمما جاء من ذلك) قول ذى الرمة

ورمل كارداف العذارى قطعته * اذا ألبسته المظلمات الحنادس

ألا ترى الى ذى الرمة كيف جعل الاصل فرعا والفرع أصلا وذلك أن العادة والعرف فى هذا أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الانقاء وهو مطرد فى بابه فعكس ذو الرمة القصة فى ذلك فشبه كثبان الانقاء بأعجاز النساء وانما فعل ذلك مبالغة أى قد ثبت هذا الموضع وهذا المعنى لاعجاز النساء وصار كأنه الاصل حتى شبهت

قوله كأن بواسار كذا فى النسخ والذى فى الديوان ولجن

به كثبان الانقاء وعلى نحو من هذا جاء قول البحترى

في طلعة البدر شيء من محاسنها * وللقضيب نصيب من تثنيها

وكذلك ورد قول عبد الله بن المعتز في قصيدته المشهورة التي أولها

سقى المطيرة ذات الطل والشجر * فقال في تشبيه الهلال

ولاح ضوء قمير كاد يفضحنا * مثل القلامة قد قدت من الظفر

ولما شاع ذلك في كلام العرب واتسع صار كأنه هو الاصل وهو موضع من علم البيان حسن الموقع لطيف المأخذ وهذا قد ذكره أبو الفتح بن جني في كتاب الخصائص وأورده هكذا مهملا (ولما نظرت أنا في ذلك) وأنعمت نظري فيه تبين لي ما أذكره وهو أنه قد تقرر في أصل الفائدة المستنتجة من التشبيه أن يشبه الشيء بما يطلق عليه لفظة أفعل أي يشبه بما هو أبين وأوضح أو بما هو أحسن منه أو أقبح وكذلك يشبه الاقل بالاكثر والادنى بالاعلى وهذا الموضع لا ينقض هذه القاعدة لان الذي قدمناه ذكره مطرد في بابه وعليه مدار الاستعمال وهذا غير مطرد وانما يحسن في عكس المعنى المتعارف وذاك أن تجعل المشبه به مشبها والمشبه مشبها به ولا يحسن في غير ذلك مما ليس بمتعارف ألا ترى أن من العادة والعرف أن تشبه الاعجاز بالكثبان فلما عكس ذو الرمة هذه القضية في شعره جاء حسنا لائقا وكذلك فعل البحترى فان من العادة والعرف أن يشبه الوجه الحسن بالبدر والقد الحسن بالقضيب فلما عكس البحترى القضية في ذلك جاء أيضا حسنا لائقا ولو شبه ذو الرمة الكثبان بما هو أصغر منها غير الاعجاز لما حسن ذلك وهكذا لو شبه البحترى طلعة البدر بغير طلعة الحسناء والقضيب بغير قدها لما حسن ذلك أيضا وهكذا القول في تشبيه عبد الله بن المعتز صورة الهلال بالقلامة لان من العادة أن تشبه القلامة بالهلال فلما صار ذلك مشهورا متعارفا حسن عكس القضية فيه

(النوع الثالث في التجريد) وهذا اسم كنت سمعته فقال القائل التجريد في الكلام حسن ثم سكت فسألته عن حقيقته فقال كذا سمعت ولم يزد شيأ فأنعمت حينئذ نظري في هذا النوع من الكلام فألقى في روعي أنه ينبغي أن يكون كذا وكذا وكان الذي وقع لي صوابا ثم مضى على ذلك برهة من الزمان ووصل الى ما ذكره أبو علي الفارسي رحمه الله تعالى وقد أوردته ههنا وذكرت ما أتيت به

التجريد

من ذات خاطرى من زيادة لم يذكرها وستقف أيها المتأمل على كلامه وكلامى
(فأما حد التجريد) فانه اخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك لا المخاطب
نفسه لان أصله فى وضع اللغة من جردت السيف اذا نزعته من غمده وجردت
فلانا اذا نزعت ثيابه ومن ههنا قال صلى الله عليه وسلم لامد ولا تجريد وذلك فى
النهى عند اقامة الحد أن يمد صاحبه على الارض وأن تجرد عنه ثيابه وقد نقل هذا
المعنى الى نوع من أنواع علم البيان (وقد تأملته فوجدت له فائدتين) احداهما
أبلغ من الاخرى (فالاولى) طلب التوسع فى الكلام فانه اذا كان ظاهره خطابا
لغيرك وباطنه خطابا لنفسك فان ذلك من باب التوسع وأظن أنه شئ اختصت به
اللغة العربية دون غيرها من اللغات (والفائدة الثانية) وهى الابلغ وذلك أنه
يتمكن المخاطب من اجراء الاوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه اذ
يكون مخاطبا بها غيره ليكون أعذر وأبرأ من العهدة فيما يقوله غير محجور عليه
(وعلى هذا فان التجريد ينقسم قسمين) أحدهما تجريد محض والآخر تجريد غير
محض (فالاول) وهو المحض أن تأتى بكلام هو خطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك
وذلك كقول بعض المتأخرين وهو الشاعر المعروف بالحيص بيص فى مطلع
قصيدة له

الام يراك المجد فى زى شاعر * وقد نحلت شوقا فروع المنابر
كتمت بعيب الشعر حلما وحكمة * ببعضهما تنقاد صعب المفاخر
أما وأبيك الخير انك فارس الـ * ـمقال ومحيى الدارسات الغوابر
وانك أعييت المسامع والنهى * بقولك عما فى بطون الدفاتر

فهذا من محاسن التجريد ألا ترى أنه أجرى الخطاب على غيره وهو يريد نفسه كى
يتمكن من ذكر ما ذكره من الصفات الفائقة وعد ما عده من الفضائل التامة
وكل ما يجئ من هذا القبيل فهو التجريد المحض (وأما ما قصد به التوسع خاصة)
فكقول الصمة بن عبد الله من شعراء الحماسة

حننت الى ريا ونفسك باعدت * مزارك من ريا وشعبا كما معا
فما حسن أن تأتى الامر طائعا * وتجزع ان داعى الصبابة أسمعا

وقد ورد بعد هذين البيتين ما يدل على أن المراد بالتجريد فيهما التوسع لانه قال

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى * على كبدى من خشية أن يصدعا
بنفسى تلك الارض ما أطيب الربا * وما أحسن المصطاف والمتربعا

فانتقل من الخطاب التجريدى الى خطاب النفس ولو استمر على الحالة الاولى لما قضى عليه بالتوسع وانما كان يقضى عليه بالتجريد البليغ الذى هو الطرف الآخر ويتأول له بأن غرضه من خطاب غيره أن ينفى عن نفسه سمعة الهوى ومعرّة العشق لما فى ذلك من الشهرة والفضاضة لكن قد زال هذا التأويل بانتقاله عن التجريد أولا الى خطاب النفس (وعلى هذا الاسلوب) ورد قول أبى الطيب المتنبى

لا خيل عندك تهديها ولا مال * فليسعد النطق ان لم تسعد الحال

واجز الامير الذى نعماه فاجئة * بغير قول ونعمى القوم أقوال

وهذان البيتان من مطلع قصيدة يمدح بها فاتكا الاخشيدى بمصر وكان وصله بصلة سنية من نفقة وكسوة قبل أن يمدحه ثم مدحه بعد ذلك بهذه القصيدة وهى من غرر شعره وقد بنى مطلعها على المعنى المشار اليه من ابتداء فاتك اياه بالصلة قبل المديح وليس فى التجريد المذكور فى هذين البيتين ما يدل على وصف النفس ولا على تركيبها بالمديح كما ورد فى الابيات الرائية المتقدم ذكرها وانما هو توسع لا غير (وأما القسم الثانى) وهو غير المحض فانه خطاب لنفسك لا لغيرك ولئن كان بين النفس والبدن فرق الا أنهما كأنهما شئ واحد لعلاقة أحدهما بالآخر وبين هذا القسم والذى قبله فرق ظاهر وذاك أولى بأن يسمى تجريدا لان التجريد لائق به وهذا هو نصف تجريد لانك لم تجرد به عن نفسك شيأ وانما خاطبت نفسك بنفسك كأنك فصلتها عنك وهى منك (فمما جاء منه) قول عمرو بن الاطنابة

أقول لها وقد جشأت وجاشت * رويدك تحمدى أو تستريحى

وكذلك قول الآخر

أقول للنفس تأساء وتعزية * احدى يدى أصابتنى ولم ترد

وليس فى هذا ما يصلح أن يكون خطابا لغيرك كالاول وانما المخاطب هو المخاطب بعينه وليس ثم شئ خارج عنه (وأما الذى ذكره أبو على الفارسى رحمه الله) فانه قال ان العرب تعتقد أن فى الانسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله فتخرج ذلك المعنى الى ألفاظها مجردا من الانسان كأنه غيره وهو هو بعينه نحو قولهم لئن لقيت فلانا لتلقين به الاسد ولئن سألته لتسألن منه البحر وهو عينه الاسد والبحر لا أن هناك شيأ منفصلا عنه أو متميزا منه ثم قال وعلى

قوله ونعمى القوم أقوال أى ونعمى الناس اه

هذا الغلط كون الانسان يخاطب نفسه حتى كانه يقاول غيره كما قال الاعشى

وهل تطيق وداعا أيها الرجل * وهو الرجل نفسه لا غيره هذا خلاصة ما ذكره أبو علي رحمه الله (والذي عندي فيه) أنه أصاب في الثاني ولم يصب في الاول لان الثاني هو التجريد ألا ترى أن الاعشى جرد الخطاب عن نفسه وهو يريدها وأما الاول وهو قوله لئن لقيت فلانا لتلقين به الاسد ولئن سألته لتسألن منه البحر فان هذا التشبيه مضمر الاداة اذ يحسن تقدير أداة التشبيه فيه وبيان ذلك أنك تقول لئن لقيت فلانا لتلقين منه كالاسد ولئن سألته لتسألن منه كالبحر وليس هذا بتجريد لان حقيقة التجريد غير موجودة فيه وانما هو تشبيه مضمر الاداة ألا ترى أن المذكور هو كالاسد وهو كالبحر وليس ثم شيء مجرد عنه كما تقدم في الابيات الشعرية ويبطل على أبي علي قوله أيضا من وجه آخر وذلك أنه قال ان العرب تعتقد أن في الانسان معنى كامنا فيه كانه حقيقته ومحصوله فتخرج ذلك المعنى الى ألفاظها مجردا من الانسان كانه غيره وهو هو كالمثال الذي مثله في تشبيهه بالاسد وتشبيهه بالبحر وهذا ينتقض بقولنا لئن رأيت الاسد لترين منه هضبة ولئن لقيته لتلقين منه الموت فان الصورة التي أوردها في الانسان وزعم أن العرب تعتقد أن ذلك معنى كامن فيه قد أوردنا مثلها في الاسد فتخصيصه ذلك بالانسان باطل وكلا الصورتين ليس بتجريد وانما هو تشبيه مضمر الاداة وقد سبق القول بأن التجريد هو أن تطلق الخطاب على غيرك ولا يكون هو المراد وانما المراد نفسك وهذا لا يوجد في هذا المثال المضمر الاداة بل المخاطب هو هو لا غيره فلا يطلق عليه اذا اسم التجريد لانه خارج عن حقيقته ومناف لموضوعه فاذا قال القائل لئن لقيته لتلقين به كالاسد ولئن سألته لتسألن منه كالبحر لم يجرد عن المقول عنه شيأ وانما شبهه تارة بالاسد في شجاعته وتارة بالبحر في سخائه وما أعلم كيف ذهب هذا على مثل أبي علي رحمه الله حتى خلطه بالتجريد وأجراه مجراه وأما قوله ان العرب تعتقد أن في الانسان معنى كامنا فيه كانه حقيقته ومحصوله فأقول وغير العرب أيضا تعتقد ذلك فان عني بالمعنى الكامن معنى الانسانية الذي هو الاستعداد للعلوم والصنائع فما هذا من الشيء الغريب الخفي الذي علمته العرب خاصة وانفرد باستخراجه أبو علي رحمه الله وان عني بالمعنى الكامن ما فيه من الاخلاق كالشجاعة والسخاء في المثال الذي ذكره حتى يشبه

بالاسد تارة وبالبحر أخرى فليس الانسان مختصا بهذا المعنى الكامن دون غيره من الحيوانات بل الاسد فيه من معنى الشجاعة ماليس فى الانسان ولهذا اذا بولغ فى وصف الانسان بالشجاعة شبه بالاسد وكذلك فى بعض الحيوانات من السخاء ماليس فى الانسان ومن الامثال أكرم من ديك لانه اذا ظفر بحبة من الحنطة أخذها فى منقاره وطاف بها على الدجاج حتى يضعها فى منقار واحدة منهن فالاخلاق اذا مشتركة بين الانسان وبين غيره من الحيوانات غير أن الانسان يجتمع فيه ما تفرق فى كثير منها وما أعلم ما أراد أبو على رحمه الله بقوله ان فى الانسان معنى كامنا فيه كانه حقيقته ومحصوله الا أن يكون أحد هذين القسمين اللذين أشرت اليهما على أن القسم الواحد الذى هو خلق الشجاعة والسخاء وغيره من الاخلاق ليس عبارة عن حقيقة الانسان اذ لا يقال فى حده حيوان شجاع ولا سخى بل يقال حيوان ناطق فالنطق الذى هو الاستعداد للعلوم والصنائع هو حقيقة الانسان فبطل اذا قول أبى على رحمه الله فى تمثيله حقيقة الانسان بالشجاعة والسخاء فالخطأ توجه فى كلامه من وجهين أحدهما أنه جعل حقيقة الانسان عبارة عن خلقه والآخر أنه أدخل فى التجريد ماليس منه وهذا القدر كاف فى هذا الموضع فليتأمل

(النوع الرابع فى الالتفات) وهذا النوع وما يليه هو خلاصة علم البيان التى حولها يدندن واليها تستند البلاغة وعنها يعنعن وحقيقته مأخوذة من التفات الانسان عن يمينه وشماله فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لانه ينتقل فيه عن صيغة الى صيغة كالانتقال من خطاب حاضر الى غائب أو من خطاب غائب الى حاضر أو من فعل ماض الى مستقبل أو من مستقبل الى ماض أو غير ذلك مما يأتى ذكره مفصلا ويسمى أيضا شجاعة العربية وانما سمى بذلك لان الشجاعة هى الاقدام وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره ويتورد ما لا يتورده سواه وكذلك هذا الالتفات فى الكلام فان اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات (وهو ينقسم الى ثلاثة أقسام القسم الاول فى الرجوع من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى الغيبة) اعلم أن عامة المنتمين الى هذا الفن اذا سئلوا عن الانتقال عن الغيبة الى الخطاب

قوله على أن الذى هذا الفرق ساقط بكلمة اه

الالتفات

وعن الخطاب الى الغيبة قالوا كذلك كانت عادة العرب فى أساليب كلامها وهذا القول هو عكاز العميان كما يقال ونحن انما نسأل عن السبب الذى قصدت العرب ذلك من أجله وقال الزمخشرى رحمه الله ان الرجوع من الغيبة الى الخطاب انما يستعمل للتفنن فى الكلام والانتقال من أسلوب الى أسلوب تطرية لنشاط السامع وايقاظا للاصغاء اليه وليس الامر كما ذكره لان الانتقال فى الكلام من أسلوب الى أسلوب اذا لم يكن الا تطرية لنشاط السامع وايقاظا للاصغاء اليه فان ذلك دليل على أن السامع يمل من أسلوب واحد فينتقل الى غيره ليجد نشاطا للاستماع وهذا قدح فى الكلام لا وصف له لانه لو كان حسنا لما مل ولو سلمنا الى الزمخشرى ما ذهب اليه لكان انما يوجد ذلك فى الكلام المطول ونحن نرى الامر بخلاف ذلك لانه قد ورد الانتقال من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى الغيبة فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ويكون مجموع الجانبين معا يبلغ عشرة ألفاظ أو أقل من ذلك ومفهوم قول الزمخشرى فى الانتقال من أسلوب الى أسلوب انما يستعمل قصدا للمخالفة بين المنتقل عنه والمنتقل اليه لا قصدا لاستعمال الاحسن وعلى هذا فاذا وجدنا كلاما قد استعمل فيه جميعه الايجاز ولم ينتقل عنه أو استعمل فيه جميعه الاطناب ولم ينتقل عنه وكان كلا الطرفين واقعا فى موقعه قلنا هذا ليس بحسن اذ لم ينتقل فيه من أسلوب الى أسلوب وهذا قول فيه ما فيه وما أعلم كيف ذهب على مثل الزمخشرى مع معرفته بفن الفصاحة والبلاغة (والذى عندى فى ذلك) أن الانتقال من الخطاب الى الغيبة أو من الغيبة الى الخطاب لا يكون الا لفائدة اقتضته وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب الى أسلوب غير أنها لا تحد بحد ولا تضبط بضابط لكن يشار الى مواضع منها ليقاس عليها غيرها فانا قد رأينا الانتقال من الغيبة الى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب ثم رأينا ذلك بعينه وهو ضد الاول قد استعمل فى الانتقال من الخطاب الى الغيبة فعلمنا حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجرى على وتيرة واحدة وانما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود وذلك المعنى يتشعب شعبا كثيرة لا تنحصر وانما يؤتى بها على حسب الموضع الذى ترد فيه وسأوضح ذلك فى ضرب من الامثلة الآتى ذكرها فأما الرجوع من الغيبة الى الخطاب فكقوله تعالى فى سورة الفاتحة الحمد لله رب

العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم هذا رجوع من الغيبة الى الخطاب ومما يختص به هذا الكلام من الفوائد قوله اياك نعبد واياك نستعين بعد قوله الحمد لله رب العالمين فانه انما عدل فيه من الغيبة الى الخطاب لان الحمد دون العبادة ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة فى الخبر فقال الحمد لله ولم يقل الحمد لك ولما صار الى العبادة التى هى أقصى الطاعات قال اياك نعبد فخاطب بالعبادة اصراحا بها وتقربا منه عز اسمه بالانتهاء الى محدود منها وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال صراط الذين أنعمت عليهم فاصرح بالخطاب لما ذكر النعمة ثم قال غير المغضوب عليهم عطفا على الاول لان الاول موضع التقرب من الله بذكر نعمه فلما صار الى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفا عن ذكر الغاضب فاسند النعمة اليه لفظا وزوى عنه لفظ الغضب تحننا ولطفا فانظر الى هذا الموضع وتناسب هذه المعانى الشريفة التى الاقدام لا تكاد تطؤها والافهام مع قربها صافحة عنها وهذه السورة قد انتقل فى أولها من الغيبة الى الخطاب لتعظيم شأن المخاطب ثم انتقل فى آخرها من الخطاب الى الغيبة لتلك العلة بعينها وهى تعظيم شان المخاطب أيضا لان مخاطبة الرب تبارك وتعالى باسناد النعمة اليه تعظيم لخطابه وكذلك ترك مخاطبته باسناد الغضب اليه تعظيم لخطابه فينبغى أن يكون صاحب هذا الفن من الفصاحة والبلاغة عالما بوضع أنواعه فى مواضعها على اشتباهها (ومن هذا الضرب) قوله تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيأ ادا وانما قيل لقد جئتم وهو خطاب للحاضر بعد قوله وقالوا وهو خطاب للغائب لفائدة حسنة وهى زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى والتعرض لسخطه وتنبيه لهم على عظم ما قالوه كأنه يخاطب قوما حاضرين بين يديه منكرا عليهم وموبخا لهم (ومما جاء من الالتفات) مرارا على قصر متنه وتقارب طرفيه قوله تعالى أول سورة بنى اسرائيل سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير فقال أولا سبحان الذى أسرى بلفظ الواحد ثم قال الذى باركنا بلفظ الجمع ثم قال انه هو السميع البصير وهو خطاب غائب ولو جاء الكلام على مساق الاول لكان سبحان الذى

أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير وهذا جميعه يكون معطوفا على أسرى فلما خولف بين المعطوف والمعطوف عليه فى الانتقال من صيغة الى صيغة كان ذلك اتساعا وتفننا فى أساليب الكلام ولمقصد آخر معنوى هو أعلى وأبلغ (وسأذكر ماسنح لى فيه فأقول) لما بدأ الكلام بسبحان ردفه بقوله الذى أسرى اذ لا يجوز أن يقال الذى أسرينا فلما جاء بلفظ الواحد والله تعالى أعظم العظماء وهو أولى بخطاب العظيم فى نفسه الذى هو بلفظ الجمع استدرك الاول بالثانى فقال باركنا ثم قال لنريه من آياتنا فجاء بذلك على نسق باركنا ثم قال انه هو عطفا على أسرى وذلك موضع متوسط الصفة لان السمع والبصر صفتان يشاركه فيهما غيره وتلك حال متوسطة تخرج بهما عن خطاب العظيم فى نفسه الى خطاب غائب فانظر الى هذه الالتفاتات المترادفة فى هذه الآية الواحدة التى جاءت لمعان اختصت بها يعرفها من يعرفها ويجهلها من يجهلها (ومما ينخرط فى هذا السلك) الرجوع من خطاب الغيبة الى خطاب النفس كقوله تعالى ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم وهذا رجوع من الغيبة الى خطاب النفس فانه قال وزينا بعد قوله ثم استوى وقوله فقضاهن وأوحى والفائدة فى ذلك أن طائفة من الناس غير المتشرعين يعتقدون أن النجوم ليست فى سماء الدنيا وأنها ليست حفظا ولا رجوما فلما صار الكلام الى ههنا عدل به عن خطاب الغائب الى خطاب النفس لانه مهم من مهمات الاعتقاد وفيه تكذيب للفرقة المكذبة المعتقدة بطلانه وفى خلاف هذا الرجوع من خطاب النفس الى خطاب الغيبة (ومما ينخرط فى هذا السلك أيضا) الرجوع من خطاب النفس الى خطاب الجماعة كقوله تعالى ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون وانما صرف الكلام عن خطاب نفسه الى خطابهم لانه أبرز الكلام لهم فى معرض المناصحة وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم لان ذلك أدخل فى امحاض النصح حيث لا يريد لهم الا ما يريد لنفسه وقد وضع قوله ومالى لا أعبد الذى فطرنى مكان قوله ومالكم لا تعبدون الذى فطركم ألا ترى الى قوله واليه ترجعون ولولا أنه قصد ذلك لقال الذى فطرنى

واليه أرجع وقد ساقه ذلك المساق الى أن قال انى آمنت بربكم فاسمعون (فانظر) أيها المتأمل الى هذه النكت الدقيقة التى تمر عليها فى آيات القرآن الكريم وأنت تظن أنك فهمت فحواها واستنبطت رموزها وعلى هذا الاسلوب يجرى الحكم فى الرجوع من خطاب النفس الى خطاب الواحد كقوله تعالى حم والكتاب المبين انا أنزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم والفائدة ههنا فى الرجوع من خطاب النفس الى خطاب الواحد تخصيص النبى صلى الله عليه وسلم بالذكر والاشارة بأن انزال الكتاب انما هو اليه وان لم يكن ذلك صريحا لكن مفهوم الكلام يدل عليه واذا تأملت مطاوى القرآن الكريم وجدت فيه من هذا وأمثاله أشياء كثيرة وانما اقتصرنا على هذه الامثلة المختصرة ليقاس عليها ما يجرى على أساليبها وقد ورد فى فصيح الشعر شئ من ذلك كقول أبى تمام

وركب يساقون الركاب زجاجة * من السير لم تقصد لها كف قاطب
فقد أكلوا منها الغوارب بالسرى * وصارت لهم أشباحهم كالغوارب
يصرف مسراها جذيل مشارق * اذا آبه هم عذيق مغارب
يرى بالكعاب الرود طلعة ثائر * وبالعرمس الوجناء غرة آئب
كأن بها ضغنا على كل جانب * من الارض أو شوقا الى كل جانب
اذا العيس لاقت بى أبا دلف فقد * تقطع ما بينى وبين النوائب
هنالك تلقى الجود من حيث قطعت * تمائمه والمجد مرخى الذوائب

ألا ترى أنه قال فى الاول يصرف مسراها مخاطبة للغائب ثم قال بعد ذلك اذا العيس لاقت بى مخاطبا نفسه وفى هذا من الفائدة أنه لما صار الى مشافهة الممدوح والتصريح باسمه خاطب عند ذلك نفسه مبشرا لها بالبعد عن المكروه والقرب من المحبوب ثم جاء بالبيت الذى يليه معدولا به عن خطاب نفسه الى خطاب غيره وهو أيضا خطاب لحاضر فقال هنالك تلقى الجود والفائدة بذلك أنه يخبر غيره بما شاهده كأنه يصف له جود الممدوح وما لاقاه منه اشادة بذكره وتنويها باسمه وحملا لغيره على قصده وفى صفته جود الممدوح بتلك الصفة الغريبة البليغة وهى قوله حيث قطعت تمائمه ما يقتضى له الرجوع الى خطاب الحاضر والمراد

قوله وصارت لهم فى نسخة من الديوان وصارت لها أشباحهم وفى أخرى فصارت لهم أشباحها انتهى مصححه

بذلك أن محل الممدوح هو مألف الجود ومنشؤه ووطنه وقد يراد به معنى آخر وهو أن هذا الجود قد أمن عليه الآفات العارضة لغيره من المن والمطل والاعتذار وغير ذلك اذ التمائم لا تقطع الا عمن أمنت عليه المخاوف وعلى هذا النهج ورد قول أبي الطيب المتنبي في قصيدة يمدح بها ابن العميد في النوروز ومن عادة الفرس في ذلك اليوم حمل الهدايا الى ملوكهم فقال في آخر القصيدة

كثر الفكر كيف نهدى كما اهـ * ـدت الى ربها الملوك عباده

والذى عندنا من المال والخيـ * ـل فمنه هباته وقياده

فبعثنا بأربعين مهارا * كل مهر ميدانه انشاده

عدد عشته يرى الجسم فيه * أربا لا يراه فيما يزاده

فارتبطها فان قلبا نماها * مربط تسبق الجياد جياده

وهذا من احسان أبي الطيب المعروف وهو رجوع عن خطاب الغائب الى الحاضر واحتج أبو الطيب عن تخصيص أبياته بالاربعين دون غيرها من العدد بحجة غريبة وهي أنه جعلها كعدد السنين التي يرى الانسان فيها من القوة والشباب وقضاء الاوطار ما لا يراه في الزيادة عليها فاعتذر بألطف اعتذار في أنه لم يزد القصيد على هذه العدة وهذا حسن غريب (وأما الرجوع من الخطاب الى الغيبة) فكقوله تعالى هو الذى يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فانه انما صرف الكلام ههنا من الخطاب الى الغيبة لفائدة وهي أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها كالمخبر لهم ويستدعي منهم الانكار عليهم ولو قال حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها وساق الخطاب معهم الى آخر الآية لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة وليس ذلك بخاف عن نقدة الكلام (ومما ينخرط في هذا السلك) قوله تعالى ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم كل الينا راجعون الاصل في تقطعوا تقطعتم عطفا على الاول الا أنه صرف الكلام من الخطاب الى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه الى قوم آخرين ويقبح عندهم ما فعلوه ويقول ألا ترون الى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى فجعلوا أمر دينهم

فيما بينهم قطعا وذلك تمثيل لاختلافهم فيه وتباينهم ثم توعدهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة اليه يرجعون فهو مجازيهم على ما فعلوا (ومما يجرى هذا المجرى) قوله تعالى يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والارض لا اله الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الامى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون فانه انما قال فآمنوا بالله ورسوله ولم يقل فآمنوا بالله وبى عطفا على قوله انى رسول الله اليكم لكى تجرى عليه الصفات التى أجريت عليه وليعلم أن الذى وجب الايمان به والاتباع له هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبى الامى الذى يؤمن بالله وبكلماته كائنا من كان أنا أو غيرى اظهارا للنصفة وبعدا من التعصب لنفسه فقدر أولا فى صدر الآية انى رسول الله الى الناس ثم أخرج كلامه من الخطاب الى معرض الغيبة لغرضين الاول منهما اجراء تلك الصفات عليه والثانى الخروج من تهمة التعصب لنفسه (القسم الثانى فى الرجوع عن الفعل المستقبل الى فعل الامر وعن الفعل الماضى الى فعل الامر) وهذا القسم كالذى قبله فى أنه ليس الانتقال فيه من صيغة الى صيغة طلبا للتوسع فى أساليب الكلام فقط بل لامر وراء ذلك وانما يقصد اليه تعظيما لحال من أجرى عليه الفعل المستقبل وتفخيما لامره وبالضد من ذلك فيمن أجرى عليه فعل الامر (فمما جاء منه) قوله تعالى يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون فانه انما قال أشهد الله واشهدوا ولم يقل وأشهدكم ليكون موازناله وبمعناه لان اشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت وأما اشهادهم فما هو الا تهاون بهم ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم ولذلك عدل به عن لفظ الاول لاختلاف ما بينهما وجىء به على لفظ الامر كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه اشهد على انى أحبك تهكما به واستهانة بحاله وكذلك يرجع عن الفعل الماضى الى فعل الامر الا أنه ليس كالاول بل انما يفعل ذلك توكيدا لما أجرى عليه فعل الامر لمكان العناية بتحقيقه كقوله تعالى قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين الآية وكان تقدير الكلام أمر ربى بالقسط وباقامة وجوهكم عند كل مسجد فعدل عن ذلك الى فعل الامر للعناية بتوكيده

فى

فى نفوسهم فانّ الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ثم اتبعها بالاخلاص الذى هو عمل القلب اذ عمل الجوارح لا يصح الا باخلاص النية ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم الاعمال بالنيات (واعلم) أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أنّ العدول عن صيغة من الالفاظ الى صيغة أخرى لا يكون الا لنوع خصوصية اقتضت ذلك وهو لا يتوخاه فى كلامه الا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذى اطلع على أسرارهما وفتش عن دفائنهما ولا تجد ذلك فى كل كلام فانه من أشكل ضروب علم البيان وأدقها فهما وأغمضها طريقا (القسم الثالث فى الاخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل وعن المستقبل بالماضى) فالاول الاخبار بالفعل المستقبل عن الماضى اعلم أنّ الفعل المستقبل اذا أتى به فى حالة الاخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الاخبار بالفعل الماضى وذلك لانّ الفعل المستقبل يوضح الحال التى يقع فيها ويستحضر تلك الصورة حتى كانّ السامع يشاهدها وليس كذلك الفعل الماضى وربما أدخل فى هذا الموضع ماليس منه جهلا بمكانه فانه ليس كل فعل مستقبل يعطف على ماض بجار هذا المجرى وسأبين ذلك فأقول عطف المستقبل على الماضى ينقسم الى ضربين أحدهما بلاغى وهو اخبار عن ماض بمستقبل وهو الذى أنا بصدد ذكره فى كتابى هذا الذى هو موضوع لتفصيل ضروب الفصاحة والبلاغة والآخر غير بلاغى وليس اخبارا بمستقبل عن ماض وانما هو مستقبل دل على معنى مستقبل غير ماض ويراد به أنّ ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمض * فالضرب الاول كقوله تعالى والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور فانه انما قال فتثير مستقبلا وما قبله وما بعده ماض لذلك المعنى الذى أشرنا اليه وهو حكاية الحال التى يقع فيها اثارة الريح السحاب واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة وهكذا يفعل بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية كحال تستغرب أوتهم المخاطب أو غير ذلك وعلى هذا الاسلوب ماورد من حديث الزبير بن العوام رضى الله عنه فى غزوة بدر فانه قال لقيت عبيدة بن سعيد بن العاص وهو على فرس وعليه لأمة كاملة لا يرى منه الاعيناه وهو يقول أنا أبو ذات الكؤس وفى يدى عنزة فأطعن بها فى عينه فوقع وأطأ برجلى على خده حتى خرجت العنزة متعقفة فقوله فاطعن بها فى عينه وطأ برجلى

تعدّول به عن لفظ الماضى الى المستقبل ليمثل للسامع الصورة التى فعل فيها ما فعل من الاقدام والجراءة على قتل ذلك الفارس المستلئم ألا ترى أنه قال أوّلا لقيت عبيدة بلفظ الماضى ثم قال بعد ذلك فأطعن بها فى عينه ولو عطف كلامه على أوّله لقال فطعنت بها فى عينه وعلى هذا ورد قول تأبط شرّا

بأنى قد لقيت الغول تهوى * بشهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرّت * صريعا لليدين وللجران

فانه قصد أن يصور لقومه الحال التى تشجع فيها على ضرب الغول كأنه يبصرهم اياها مشاهدة للتعجب من جراءته على ذلك الهول ولو قال فضربتها عطفا على الاوّل لزالت هذه الفائدة المذكورة (فان قيل) انّ الفعل الماضى أيضا يتخيل منه السامع ما يتخيله من المستقبل (قلت فى الجواب) انّ التخيل يقع فى الفعلين معا لكنه فى أحدهما وهو المستقبل أوكد وأشدّ تخيلا لانه يستحضر صورة الفعل حتى كأنّ السامع ينظر الى فاعلها فى حال وجود الفعل منه ألا ترى أنه لما قال تأبط شرا فأضربها تخيل للسامع أنه مباشر للفعل وأنه قائم بازاء الغول وقد رفع سيفه ليضربها وهذا لا يوجد فى الفعل الماضى لانه لا يتخيل السامع منه الا فعلا قد مضى من غير احضار للصورة فى حالة سماع الكلام الدالّ عليه وهذا لا خلاف فيه وهكذا يجرى الحكم فى جميع الآيات المذكورة وفى الاثر عن الزبير رضى الله عنه وفى الابيات الشعرية وعليه ورد قوله تعالى أيضا وهو ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق فقال أوّلا خرّ من السماء بلفظ الماضى ثم عطف عليه المستقبل الذى هو فتخطفه وتهوى وانما عدل فى ذلك الى المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير اياه وهوىّ الريح به والفائدة فى ذلك ما أشرت اليه فيما تقدم وكثيرا ما يراعى أمثال هذا فى القرآن * وأمّا الضرب الثانى الذى هو مستقبل فكقوله تعالى انّ الذين كفروا ويصدّون عن سبيل الله فانه انما عطف المستقبل على الماضى لانّ كفرهم كان ووجد ولم يستجدّوا بعده كفرا ثانيا وصدّهم متجدد على الايام لم يمض كونه وانما هو مستمرّ يستأنف فى كل حين وكذلك ورد قوله تعالى ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرّة

ان الله لطيف خبير ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضي ههنا الى المستقبل فقال فتصبح الارض مخضرة ولم يقل فأصبحت عطفا على أنزل وذلك لافادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان فانزال الماء مضى وجوده واخضرار الارض باق لم يمض وهذا كما تقول أنعم على فلان فأروح وأغدو شاكراله ولو قلت فرحت وغدوت شاكرا له لم يقع ذلك الموقع لانه يدل على ماض قد كان وانقضى وهذا موضع حسن ينبغي أن يتأمل (وأما الاخبار بالفعل الماضي عن المستقبل) فهو عكس ما تقدم ذكره وفائدته أن الفعل الماضي اذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وايجاده لان الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد وانما يفعل ذلك اذا كان الفعل المستقبل من الاشياء العظيمة التي يستعظم وجودها والفرق بينه وبين الاخبار بالفعل المستقبل عن الماضي أن الغرض بذاك تبيين هيئة الفعل واستحضار صورته ليكون السامع كأنه يشاهدها والغرض بهذا هو الدلالة على ايجاد الفعل الذي لم يوجد بعد فمن أمثلة الاخبار بالفعل الماضي عن المستقبل قوله تعالى ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الارض فانه انما قال ففزع بلفظ الماضي بعد قوله ينفخ وهو مستقبل للاشعار بتحقيق الفزع وأنه كائن لامحالة لان الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به وكذلك جاء قوله تعالى ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا وانما قيل وحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى وهما مستقبلان للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليشاهدوا تلك الاحوال كأنه قال وحشرناهم قبل ذلك لان الحشر هو المهم لان من الناس من ينكره كالفلاسفة وغيرهم ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضي (ومما يجري هذا المجرى) الاخبار باسم المفعول عن الفعل المستقبل وانما يفعل ذلك لتضمنه معنى الفعل الماضي وقد سبق الكلام عليه (فمن ذلك) قوله تعالى ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود فانه انما آثر اسم المفعول الذي هو مجموع على الفعل المستقبل الذي هو يجمع لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه الموصوف بهذا الصفة وان شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع فانك تعثر على صحة ما قلت (النوع الخامس في توكيد الضميرين)

توكيد الضميرين

(ان قيل) فى هذا الموضع ان الضمائر مذكورة فى كتب النحو فأى حاجة الى ذكرها ههنا ولم نعلم أن النحاة لا يذكرون ما ذكرته (قلت) ان هذا يختص بفصاحة وبلاغة وأولئك لا يتعرضون اليه وانما يذكرون عدد الضمائر وأن المنفصل منها كذا والمتصل كذا ولا يتجاوزون ذلك وأما أنا فانى أوردت فى هذا النوع أمرا خارجا عن الامر النحوى وأعنى بقولى توكيد الضميرين أن يؤكد المتصل بالمنفصل كقولك انك أنت أو يؤكد المنفصل بمنفصل مثله كقولك أنت أنت أو يؤكد المتصل بمتصل مثله كقولك انك انك لعالم أو انك انك لجواد وانما يؤتى بمثل هذه الاقوال فى معرض المبالغة وهو من أسرار علم البيان (ولنقدم فى ذلك قولا يحصره ويجمع أطرافه فنقول) اذا كان المعنى المقصود معلوما ثابتا فى النفوس فأنت بالخيار فى توكيد أحد الضميرين فيه بالآخر واذا كان غير معلوم وهو مما يشك فيه فالاولى حينئذ أن يؤكد أحد الضميرين بالآخر فى الدلالة عليه لتقرره وتثبته (فمما جاء من ذلك) قوله تعالى قالوا يا موسى اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين فان ارادة السحرة الالقاء قبل موسى لم تكن معلومة عنده لانهم لم يصرحوا بما فى أنفسهم من ذلك لكنهم لما عدلوا عن مقابلة خطابهم موسى بمثله الى توكيد ما هو لهم بالضميرين اللذين هما نكون ونحن دل ذلك على أنهم يريدون التقدم عليه والالقاء قبله لان من شأن مقابلة خطابهم موسى بمثله أن كان قالوا اما أن تلقى واما أن نلقى لتكون الجملتان متقابلتين فحيث قالوا عن أنفسهم واما أن نكون نحن الملقين استدل بهذا القول على رغبتهم فى الالقاء قبله (واما توكيد المتصل بالمتصل) فكقوله تعالى فى سورة الكهف فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زاكية بغير نفس لقد جئت شيأ نكرا قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا وهذا بخلاف قصة السفينة فانه قال فيها ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا والفرق بين الصورتين أنه أكد الضمير فى الثانية دون الاولى فقال فى الاولى ألم أقل انك وقال فى الثانية ألم أقل لك انك وانما جىء بذلك للزيادة فى مكافحة العتاب على رفض الوصية مرة على مرة والوسم بعدم الصبر وهذا كما لو أتى الانسان ما نهيته عنه فلمته وعنفته ثم أتى ذلك مرة ثانية أليس انك تزيد فى لومه وتعنيفه وكذلك فعل ههنا فانه قيل فى الملامة أولا ألم أقل انك ثم قيل ثانيا ألم أقل لك انك وهذا موضع يدق عن العثور عليه ببادرة النظر

مالم

مالم يعط التأمّل فيه حقه (وأمّا توكيد المتصل بالمنفصل) فنحو قوله تعالى فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف انك أنت الاعلى فتوكيد الضمير ههنا فى قوله انك أنت الاعلى أنفى للخوف من قلب موسى وأثبت فى نفسه للغلبة والقهر ولو قال لا تخف انك الاعلى أو فأنت الاعلى لم يكن له من التقرير والاثبات لنفى الخوف ما لقوله انك أنت الاعلى (وفى هذه الكلمات الثلاث) وهى قوله انك أنت الاعلى ست فوائد (الاولى) انّ المشدّدة التى من شأنها الاثبات لما يأتى بعدها كقولك زيد قائم ثم تقول انّ زيدا قائم ففى قولك انّ زيدا قائم من الاثبات لقيام زيد ما ليس فى قولك زيد قائم (الثانية) تكرير الضمير فى قوله انك أنت ولو اقتصر على أحد الضميرين لما كان بهذه المكانة فى التقرير لغلبة موسى والاثبات لقهره (الثالثة) لام التعريف فى قوله الاعلى ولم يقل أعلى ولا عال لانه لو قال ذلك لكان قد نكره وكان صالحا لكل واحد من جنسه كقولك رجل فانه يصلح أن يقع على كل واحد من الرجال واذا قلت الرجل فقد خصصته من بين الرجال بالتعريف وجعلته علما فيهم وكذلك جاء قوله تعالى انك أنت الاعلى أى دون غيرك (الرابعة) لفظ أفعل الذى من شأنه التفضيل ولم يقل العالى (الخامسة) اثبات الغلبة له من العلو لانّ الغرض من قوله الاعلى أى الاغلب الا أنّ فى الاعلى زيادة وهى الغلبة من عال (السادسة) الاستئناف وهو قوله تعالى لا تخف انك أنت الاعلى ولم يقل لانك أنت الاعلى لانه لم يجعل علة انتفاء الخوف عنه كونه عاليا وانما نفى الخوف عنه أوّلا بقوله لا تخف ثم استأنف الكلام فقال انك أنت الاعلى فكان ذلك أبلغ فى ايقان موسى عليه السلام بالغلبة والاستعلاء وأثبت لذلك فى نفسه (وربما وقع لبعض الاغمار أن يعترض على ما ذكرناه) فى توكيد أحد الضميرين بالآخر فيقول لو كان توكيدهما أبلغ من الاقتصار على أحدهما لورد ذلك عند ذكر الله تعالى نفسه حيث هو أولى بما هو أبلغ وأوكد من القول وقد رأينا فى القرآن الكريم مواضع تختص بذكر الله تعالى وقد ورد فيها أحد الضميرين دون الآخر كقوله عزاسمه قل اللهمّ مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير ولم يقل انك أنت على كل شئ قدير فما الموجب لذلك ان كان توكيد أحد الضميرين بالآخر أبلغ من الاقتصار على

أخذ هنا (الجواب عن ذلك) أنا نقول قد قدمنا القول فى أول هذا النوع انه اذا كان المعنى المقصود معلوما ثابتا فصاحب الكلام مخير فى توكيد أحد الضميرين بالآخر فان أكد فقد أتى بفضل بيان وان لم يؤكد فلان ذلك المعنى ثابت لا يفتقر فى تقريره الى زيادة تأكيد كهذه الآية المشار اليها وهى قوله تعالى قل اللهم مالك الملك فان العلم بأن الله على كل شئ قدير لا يفتقر الى تأكيد يقرره وقد ورد ما يجرى مجرى هذه الآية مؤكدا كقوله تعالى واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك انك أنت علام الغيوب فوكد فى هذه الآية ولم يؤكد فى الآية الاخرى وقد عرفتك الطريق فى ذلك وأما اذا كان المعنى المقصود غير معلوم ولا مما يرتاب فيه فالاولى أن يؤكد بالضميرين فى الدلالة عليه كقوله تعالى قلنا لا تخف انك أنت الأعلى فان موسى لم يكن متيقنا أنه غالب للسحرة فلذلك وكد خطابه بالضميرين ليكون أبلغ فى تقرير ذلك فى نفسه (وأما توكيد المنفصل بمنفصل مثله) فكقول أبى تمام

لا أنت أنت ولا الديار ديار * خف الهوى وتولت الاوطار

فقوله لا أنت أنت ولا الديار ديار من المليح النادر فى هذا الموضع لانه هو هو والديار الديار وانما البواعث التى كانت تبعث على قضاء الاوطار زالت فبقى ذلك الرجل وليس هو هو على الحقيقة ولا الديار فى عينه من الحسن تلك الديار وعلى هذا ورد قول أبى الطيب المتنبى

قبيل أنت أنت وأنت منهم * وجدك بشر الملك الهمام

فقوله أنت أنت من توكيد الضميرين المشار اليهما وفائدته المبالغة فى مدحه ولو مدحه حاشاه الله لما استد قوله أنت أنت أى أنك المشار اليه بالفضل دون غيرك وأما قوله وأنت منهم فخارج عن هذا الباب وهو كلام مستأنف لا يتعلق بتوكيد الضميرين كأنه قال أنت الموصوف بكذا وكذا وأنت من هذا القبيل يريد بذلك مدح قبيله به وهذا البيت لم أمثل به اختيارا له واستجادة وانما مثلت به ليعلم مكان توكيد المنفصل بالمنفصل والا فالبيت ليس من المرضى لان سبكه سبك عار من الحسن وفيه تقديم وتأخير (وقرأت فى كتاب الاغانى) لابى الفرج

ان

ان عمرو بن ربيعة قال لزياد بن الهبولة يا خير الفتيان اردد على ما أخذته
من ابلى فردها عليه وفيها فحلها فنازعه الفحل الى الابل فصرعه عمرو فقال له
زياد لو صرعتم يا بنى شيبان الرجال كما تصرعون الابل لكنتم أنتم أنتم فقال عمرو له
لقد أعطيت قليلا وسمت جليلا وجررت على نفسك ويلا طويلا فقوله لكنتم
أنتم أنتم أى أنتم الاشداء أو الشجعان أو ذوو النجدة والبأس أو ما يجرى هذا
المجرى الا أن فى أنتم الثانية تخصيصا لهم بهذه الصفة دون غيرهم كأنه قال
لكنتم أنتم الشجعان دون غيركم ولو مدحهم بأى شئ مدحهم من وصف
البأس والشدة والشجاعة لما بلغ هذه الكلمة أعنى أنتم الثانية وهذا
موضع من علم البيان تتكاثر محاسنه فاعرفه (النوع السادس فى عطف المظهر
على ضميره والافصاح به بعده) وهذا انما يعمد اليه لفائدة وهى تعظيم شأن
الامر الذى أظهر عنده الاسم المضمر أولا ومثال ذلك قول القائل ولما تلاقينا
وبنو تميم أقبلوا نحونا يركضون فرأينا منهم أسودا نكلا تسابق الاسنة الى
الورود ولا ترتد على أعقابها اذا ارتدت أمثالها من الاسود وتناجد بنو تميم
علينا بجملة فلذنا بالفرار واستبقنا الى تولية الادبار فانه انما قيل وتناجد
بنو تميم مصرحا باسمهم ولم يقل وتناجدوا كما قيل أقبلوا للدلالة على التعجب من
اقدامهم عند الحملة وثباتهم عند الصدمة لاسيما وقد أردف ذلك بقوله لذنا
بالفرار واستبقنا الى تولية الادبار كأنه قال وتناجد أولئك الفرسان المشاهير
والكماة المناكير وحملوا علينا حملة واحدة فولينا مدبرين منهزمين (ومما جاء
من ذلك) قوله تعالى أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على
الله يسير قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة
الآخرة ألا ترى كيف صرح باسمه تعالى فى قوله ثم الله ينشئ النشأة الآخرة مع
ايقاعه مبتدأ فى قوله كيف يبدئ الله الخلق وقد كان القياس أن يقول كيف
يبدئ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة والفائدة فى ذلك أنه لما كانت الاعادة
عندهم من الامور العظيمة وكان صدر الكلام واقعا معهم فى الابداء وقررهم
أن ذلك من الله احتج عليهم بأن الاعادة انشاء مثل الابداء واذا كان الله الذى
لا يعجزه شئ هو الذى لا يعجزه الابداء فوجب أن لا يعجزه الاعادة فللدلالة والتنبيه
على عظم هذا الامر الذى هو الاعادة أبرز اسمه تعالى وأوقعه مبتدأ ثانيا وعلى

عطف المظهر على ضميره

سدا وزرد قوله تعالى ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم
شيأ وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته
على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء
الكافرين ألا ترى أنه قال أولا ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فذكر مضمرا
لتقدم الكلام فيه ثم عطف المظهر الذى هو له وهو قوله ثم أنزل الله سكينته على
رسوله وعلى المؤمنين وكان العطف لو أضمر كما أضمر الاول لقيل ثم أنزل الله
سكينته عليكم وأنزل جنودا لم تروها وفائدة الاظهار ههنا للمعطوف بعد
اضماره أولا التنويه بذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر المؤمنين أولان
الامر عظيم وهو الانتصار بعد الفرار فأى الامرين قدر كان لاظهار المعطوف
مناسبا وهكذا يكون عطف المظهر على ضميره فانه يستند الى فائدة بها تذكرها
فان لم يكن هناك مثل هذه الفائدة والا فلا يحسن الاظهار بعد الاضمار وكذلك
جاء قوله تعالى واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم
عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق
لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين فانه انما قال وقال الذين كفروا ولم يقل وقالوا
كالذى قبله للدلالة على صدور ذلك من انكار عظيم وغضب شديد وتعجب
من كفرهم بليغ لاسيما وقد انضاف اليه قوله وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم
وما فيه من الاشارة الى القائلين والمقول فيه وما فى ذلك من المبادهة كأنه قال
وقال أولئك الكفرة المتمردون بجراءتهم على الله ومكابرتهم لمثل ذلك الحق المبين
قبل أن يتدبروه ان هذا الا سحر مبين وعلى نحو من ذلك ورد قوله تعالى ص
والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا فى عزة وشقاق كم أهلكنا من قبلهم من قرن
فنادوا ولات حين مناص وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا
ساحر كذاب وكان القياس أن يقال وقالوا هذا ساحر كذاب عطفا على عجبوا
وانما أتى باسم الكافرين مظهرا بعد اضماره للاشعار بتعظيم ما اجترؤا عليه
من القول فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم أولان هذا القول كان أهم
عندهم وأرسخ فى نفوسهم فصرح باسم قائله دلالة على ما كان فى أنفسهم منه
(النوع السابع فى التفسير بعد الابهام) اعلم أن هذا النوع لا يعمد الى استعماله
الا لضرب من المبالغة فاذا جىء به فى كلام فانما يفعل ذلك لتفخيم أمر المبهم

التفسير بعد الابهام

واعظامه

واعظامه لانه هو الذى يطرق السمع أولا فيذهب بالسامع كل مذهب كقوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ففسر ذلك الامر بقوله أن دابر هؤلاء مقطوع وفى ابهامه أولا وتفسيره بعد ذلك تفخيم للامر وتعظيم لشأنه فانه لو قال وقضينا اليه أن دابر هؤلاء مقطوع لما كان بهذه المكانة من الفخامة فان الابهام أولا يوقع السامع فى حيرة وتفكر واستعظام لما قرع سمعه وتشوف الى معرفته والاطلاع على كنهه وعلى نحو من هذا جاء قوله تعالى قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ولقد مننا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك مايوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم ففسر مايوحى بقوله أن اقذفيه وهذا كالاول فى ابهامه أولا وتفسيره ثانيا ومثل هذا ورد قوله تعالى فى سورة أم الكتاب اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم فانه انما قال ذلك ولم يقل اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم لما فى الاول من التنبيه والاشعار بأن الصراط المستقيم هو صراط المؤمنين فدل عليه بأبلغ وجه كما تقول هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم ثم تقول فلان فيكون ذلك أبلغ فى وصفه بالكرم والفضل من قولك هل أدلك على فلان الاكرم الافضل لانك تثبت ذكره مجملا ومفصلا فجعلته علما فى الكرم والفضل كأنك قلت من أراد رجلا جامعا للخصلتين بجميعا فعليه بفلان (فان قيل) فما الفرق بين عطف المظهر على ضميره وبين التفسير بعد الابهام فان المضمر كالمبهم (فالجواب عن ذلك) أنى أقول ان كان سؤالك عن فائدتهما فانهما فى الفائدة سواء وذلك أنهما انما يراد ان لتعظيم الحال والاعلام بفخامة شأنها وان كان سؤالك عن الفرق بينهما فى العبارة فانى أقول المضمر يأتى بعد مظهر تقدم ذكره أولا ثم يعطف المظهر على ضميره أى على ضمير نفسه كالمثال الذى ضربناه فى بنى تميم وأما التفسير بعد الابهام فان المبهم يقدم أولا وهو أن يذكر شئ يقع عليه محتملات كثيرة ثم يفسر بايقاعه على واحد منها وليس كذلك عطف المظهر على ضميره (ومما جاء من التفسير بعد الابهام) قوله تعالى وقال الذى آمن ياقوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد ياقوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار من عمل سيئة فلا يجزى الامثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ألا ترى كيف قال

أهدكم سبيل الرشاد فأبهم سبيل الرشاد ولم يبين أى سبيل هو ثم فسر ذلك فافتتح كلامه بذم الدنيا وتصغير شانها ثم ثنى ذلك بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها ثم ثلث بذكر الاعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف كأنه قال سبيل الرشاد هو الاعراض عن الدنيا والرغبة فى الآخرة والامتناع من الاعمال السيئة خوف المقابلة عليها والمسارعة الى الاعمال الصالحة رجاء المجازاة عليها وكذلك ورد قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل فانه انما قال القواعد من البيت ولم يقل قواعد البيت لما فى ابهام القواعد أولا وتبيينها بعد ذلك من تفخيم حال المبين مما ليس فى الاضافة (ومما يجرى هذا المجرى) قوله تعالى وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب أسباب السموات فأطلع الى اله موسى فانه لما أراد تفخيم ما أمل فرعون من بلوغه أسباب السموات أبهمها أولا ثم فسرها ثانيا ولانه لما كان بلوغها أمرا عجيبا أراد أن يورده على نفس متشوقة اليه ليعطيه السامع حقه من التعجب فأبهمه ليشوف اليه نفس هامان ثم أوضحه بعد ذلك (وعلى هذا الاسلوب) ورد قوله تعالى قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد فانه قال أولا أعظكم بواحدة فأبهم الواحدة ثم فسرها بقوله أن تقوموا لله مثنى وفرادى وأن تتفكروا وهذا فى القرآن الكريم كثير الاستعمال (وأما الابهام من غير تفسير) فكثير شائع فى القرآن الكريم أيضا كقوله تعالى وفعلت فعلتك التى فعلت وكذلك ورد قوله تعالى ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم أى للطريقة أو الحالة أو الملة التى هى أقومها وأسدها وأى ذلك قدرت لم تجد له مع الافصاح ذوق البلاغة التى تجده مع الابهام وذلك لذهاب الوهم فيه كل مذهب وايقاعه على محتملات كثيرة وهذا كقول القائل لو رأيت عليا بين الصفين فانه لو وصفه مهما وصف من نجدة وشجاعة وثبات واقدام وأطال القول فى ذلك لم يكن بمثابة ما يترامى اليه الوهم مع الابهام وهذا للعارف برموز هذه الصناعة وأسرارها (وعلى هذا الاسلوب) ورد قوله تعالى فغشيهم من اليم ما غشيهم وأبلغ من ذلك قوله تعالى والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى فانه قال فى تلك الآية فغشيهم من اليم

ماغشيهم ١

ما غشيهم فذكر اليم وهو البحر فصار الذى غشيهم انما هو منه خاصة وقال فى هذه الآية فغشاها ما غشى فأبهم الامر الذى غشاها به وجعله عاما وذلك أبلغ لان السامع يذهب وهمه فيه كل مذهب وأما ما جاء من ذلك شعرا فكقول البحترى

بعيد مقبل الصدر لا يقبل التى * يحاولها منه الاريب المخادع

فقوله التى يحاولها من الابهام المقدم ذكره فى الآية (ومما ينتظم بذلك) قول الشاعر فى أبيات الحماسة

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه * فلما علاه قال للباطل ابعد

فقوله صبا ما صبا من الابهام الذى لو قدرت ما قدرت فى تفسيره لم تجد لحسن فضيلة البيان ما تجده لسمع الابهام (وعليه ورد) قول أبى نواس

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم * وأسمت سرح اللحظ حين أساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه * فاذا عصارة كل ذاك أثام

فقوله وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه من هذا النمط المشار اليه وهو من المليح النادر (ومما يجرى على هذا النهج) قول الآخر فى وصف الخمر

مضى بها ما مضى من عقل شاربها * وفى الزجاجة باق يطلب الباقى

والكلام على هذا البيت كالكلام على البيت الذى قبله (ومثله ورد) قول بعض المتأخرين فؤاد فيه ما فيه وعلى هذا ورد قولى فى فصل من تقليد لبعض الوزراء فقلت وأنت مؤهل لواحدة تخطق لها غرر الجياد وتتناديها العلياء بلسان الاجناد وتفخر بها أسمر الاقلام على سمر الصعاد فابسط يدك لأخذ كتابها واسمع لطيب ذكرها بعد سعيك فى طلابها واعلم أن الخطاب اليها كثير لكنها صدت بك عن خطابها ولقد مضى عليها زمن وهى تنفر حتى استقادها الآن تأنيسك ولم تسبق الاقدار باسمك الا لتكون سليمانها وهى بلقيسك وهذا الوزير كان اسمه سليمان فسيق المعنى اليه فجاء كما تراه من الحسن واللطافة وأما قولى وأنت مؤهل لواحدة فانه من الابهام من غير تفسير وذلك بخلاف ما ورد فى الآية المقدم ذكرها لان تلك من التفسير بعد الابهام (ومما ينتظم فى هذا السلك) الاستثناء العددى وهو ضرب من المبالغة لطيف المأخذ وفائدته أنه أول ما يطرق سمع المخاطب ذكر العقد من العدد فيكثر موقع ذلك عنده وهو شبيه بما ذكرناه من الابهام أولا ثم التفسير بعده ثانيا وذلك كقول القائل

أعطيته مائة الا عشرة أو أعطيته ألفا الا مائة فان ذلك أبلغ من أن لو قال أعطيته تسعين أو تسعمائة (وعليه ورد) قوله تعالى ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما ولم يقل تسعمائة وخمسين عاما لفائدة حسنة وهى ذكر ما ابتلى به نوح من أمته وما كابده من طول المصابرة ليكون ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يلقاه من أمته وتثبيتا له فان ذكر رأس العدد الذى هو منتهى العقود وأعظمها أوقع وأوصل الى الغرض من استطالة السامع مدة صبره وما لاقاه من قومه (النوع الثامن فى استعمال العام فى النفى والخاص فى الاثبات) اعلم أنه اذا كان الشيئان أحدهما خاصا والآخر عاما فان استعمال العام فى حالة النفى أبلغ من استعماله فى حالة الاثبات وكذلك استعمال الخاص فى حالة الاثبات أبلغ من استعماله فى حالة النفى (ومثال ذلك) الانسانية والحيوانية فان اثبات الانسانية يوجب اثبات الحيوانية ولا يوجب نفيها نفى الحيوانية وكذلك نفى الحيوانية يوجب نفى الانسانية ولا يوجب اثباتها اثبات الانسانية (ومما ينتظم بذلك) الاسماء المفردة الواقعة على الجنس التى يكون بينها وبين واحدها تاء التأنيث فانه متى أريد النفى كان استعمال واحدها أبلغ ومتى أريد الاثبات كان استعمالها أبلغ (وكذلك يتصل بهذا النوع) الصفتان الواردتان على شئ واحد فانه اذا لزم من وجود احداهما وجود الاخرى اكتفى بها فى الذكر ولم يحتج الى ذكر الاخرى لانه يجئ ضمنا وتبعا أو أن يبدأ بها فى الذكر أولا ثم تجئ الاخرى بعدها وأما الصفات المتعددة فانه ينبغى أن يبدأ فى الذكر بالادنى مرتبة ثم بعدها بما هو أعلى منها الى أن ينتهى الى آخرها هذا فى مقام المدح فان كان فى مقام الذم عكست القضية فالاول وهو الخاص والعام نحو قوله تعالى مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ولم يقل ذهب بضوئهم موازنا لقوله فلما أضاءت لان ذكر النور فى حالة النفى أبلغ من حيث ان الضوء فيه الدلالة على النور وزيادة فلو قال ذهب الله بضوئهم لكان المعنى يعطى ذهاب تلك الزيادة وبقاء ما يسمى نورا لان الاضاءة هى فرط الانارة قال الله تعالى هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا فكل ضوء نور وليس كل نور ضوءا فالغرض من قوله تعالى ذهب الله بنورهم انما هو ازالة النور عنهم أصلا فهو اذا ازاله فقد أزال الضوء

وكذلك

وكذلك أيضا قوله تعالى ذهب الله بنورهم ولم يقل أذهب نورهم لان كل من ذهب بشيء فقد أذهبه وليس كل من أذهب شيأ فقد ذهب به لان الذهاب بالشيء هو استصحاب له ومضي به وفي ذلك نوع احتجار بالمذهوب به وامساك له عن الرجوع الى حالته والعود الى مكانه وليس كذلك الاذهاب بالشيء لزوال معنى الاحتجار عنه (ومما يحمل على ذلك) الاوصاف الخاصة اذا وقعت على شيئين وكان يلزم من وصف أحدهما وصف الآخر ولا يلزم عكس ذلك ومثاله قوله تعالى سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض فانه انما خص العرض بالذكر دون الطول للمعنى الذي أشرنا اليه والمراد بذلك انه اذا كان هذا عرضها فكيف يكون طولها وهذا في حالة الاثبات ولو أريد النفي لكان له أسلوب غير ما ذكرناه وهو أنه كان يخص به الطول دون العرض (وأما الاسماء المفردة الواقعة على الجنس) فنحو قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام قال الملأ من قومه انا لنراك في ضلال مبين قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين فانه انما قال ليس بي ضلالة ولم يقل ليس بي ضلال كما قالوا لان نفي الضلالة أبلغ من نفي الضلال عنه كما لو قيل ألك تمر فقلت في الجواب مالي تمرة وذلك أنفى للتمر ولو قلت مالي تمر لما كان يؤدي من المعنى ما أداه القول الاول وفي هذا الموضع دقة تحتاج الى فضل تام فينبغي لصاحب هذه الصناعة مراعاته والعناية به (فان قيل) لا فرق بين الضلالة والضلال وكلاهما مصدر قولنا ضل يضل ضلالا وضل يضل ضلالة كما يقال لذ يلذ لذاذة (فالجواب) عن ذلك أن الضلالة تكون مصدرا كما قلت وتكون عبارة عن المرة الواحدة تقول ضل يضل ضلالة أي مرة واحدة كما تقول ضرب يضرب ضربة وقام يقوم قومة وأكل يأكل أكلة والمراد بالضلالة في هذه الآية انما هو عبارة عن المرة الواحدة من الضلال فقد نفي ما فوقها من المرتين والمرار الكثيرة (وأما الصفتان الواردتان على شيء واحد) فكقول الاشتر النخعي

حلقت وفدي وانحرفت على العلى * ولقيت أضيافي بوجه عبوس
ان لم أشن على ابن حرب غارة * لم تخل يوما من نهاب نفوس
خيلا كأمثال السعالي شزبا * تعدو ببيض في الكريهة شوس
حمي الحديد عليهم فكأنه * لمعان برق أو شعاع شموس

ألا ترى أنه رقى فى التشبيه من الادنى الى الاعلى فقال لمعان برق أو شعاع شموس لان لمعان البرق دون شعاع الشموس (ومما ورد من ذلك فى القرآن الكريم) قوله تعالى ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فان وجود المؤاخذة على الصغيرة يلزم منه وجود المؤاخذة على الكبيرة وعلى القياس المشار اليه أولا فينبغى أن يكون لا يغادر كبيرة ولا صغيرة لانه اذا لم يغادر صغيرة فن الاولى أن لا يغادر كبيرة وأما اذا لم يغادر كبيرة فانه يجوز أن يغادر صغيرة لانه اذا لم يعف عن الصغيرة فيقضى القياس أنه لا يعفو عن الكبيرة واذا لم يعف عن الكبيرة فيجوز أن يعفو عن الصغيرة غير أن القرآن الكريم أحق أن يتبع وأجدر بأن يقاس عليه لا على غيره والذى ورد فيه من هذه الآية ناقض لما تقدم ذكره (وكذلك ورد قوله تعالى) فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما لان التأفيف أدنى درجة وقد تقدم قولى فى أول هذا النوع انه اذا جاءت صفتان يلزم من وجود احداهما وجود الاخرى أن يكتفى بذكرها دون الاخرى لان الاخرى تجىء ضمنا وتبعا وأن يبدأ بها فى الذكر ثم تجىء الاخرى بعدها وعلى هذا فيقال أولا فلا تنهرهما ولا تقل لهما أف لكن اذا لم يقل لهما أف امتنع أن ينهرهما وقد كان هذا هو المذهب عندى حتى وجدت كتاب الله تعالى قد ورد بخلافه وحينئذ عدت عما كنت أراه وأقول به (وأما الصفات المتعددة الواردة على شئ واحد) فكقول أبى عبادة البحترى فى وصف نحول الركاب

يترقرقن كالسراب وقد خضـ * ـن غمارا من السراب الجارى

كالقسى المعطفات بل الاسـ * ـهم مبرية بل الاوتار

ألا ترى أنه رقى فى تشبيه نحولها من الادنى الى الاعلى فشبهها أولا بالقسى ثم بالاسهم المبرية وتلك أبلغ فى النحول ثم بالاوتار وهى أبلغ فى النحول من الاسهم وكذلك ينبغى أن يكون الاستعمال فى مثل هذا الباب وقد أغفل كثير من الشعراء ذلك فن جملتهم أبو الطيب المتنبى فى قوله

يا بدر يا بحر يا غمامة يا * ليث الشرى يا حمام يا رجل

وينبغى أن يبدأ فيه بالادنى فالادنى فانه اذا فعل ذلك كان كالمرتفع من محل الى محل أعلى منه واذا خالفه كان كالمنخفض من محل الى محل أدنى منه فأما قوله يا بدر فانه اسم الممدوح والابتداء به أولى ثم بعده فيجب أن يقول يا رجل يا ليث

يا غمامة

ياغمامة يابحر ياحمام لان الليث أعظم من الرجل والبحر أعظم من الغمامة والحمام أعظم من البحر وهذا مقام مدح فيجب أن يرقى فيه من منزلة الى منزلة حتى ينتهى الى المنزلة العليا آخرا ولو كان مقام ذم لعكس القضية وعلى مثله ورد قول أبى تمام يفتخر

سمابى أوس فى الفخار وحاتم * وزيد القنا والاثرمان ورافع
نجوم طوالع جبال قوارع * غيوث هوامع سيول دوافع

فان السيول دون الغيوث والجبال دون النجوم ولو قدم ما أخر لما اختل النظم بأن قال سيول دوافع غيوث هوامع * جبال قوارع نجوم طوالع

وهذا عندى أشد ملامة من المتنبى لان المتنبى لا يمكنه تقديم ألفاظ بيته وتأخيرها وأبو تمام متمكن من ذلك وما أعلم كيف ذهب عليه هذا الموضع مع معرفته بالمعانى (النوع التاسع فى التقديم والتأخير) وهذا باب طويل عريض يشتمل على أسرار دقيقة منها ما استخرجته أنا ومنها ما وجدته فى أقوال علماء البيان وسأورد ذلك مبينا (وهو ضربان) الاول يختص بدلالة الالفاظ على المعانى ولو أخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى والثانى يختص بدرجة التقدم فى الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك ولو أخر لما تغير المعنى (فأما الضرب الاول فانه ينقسم الى قسمين) أحدهما يكون التقديم فيه هو الابلغ والآخر يكون التأخير فيه هو الابلغ (فأما القسم الذى يكون التقديم فيه هو الابلغ) فكتقديم المفعول على الفعل وتقديم الخبر على المبتدا وتقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل فمن ذلك تقديم المفعول على الفعل كقولك زيدا ضربت وضربت زيدا فان فى قولك زيدا ضربت تخصيصا له بالضرب دون غيره وذلك بخلاف قولك ضربت زيدا لانك اذا قدمت الفعل كنت بالخيار فى ايقاعه على أى مفعول شئت بأن تقول ضربت خالدا أو بكرا او غيرهما واذا أخرته لزم الاختصاص للمفعول وكذلك تقديم خبر المبتدا عليه كقولك زيد قائم وقائم زيد فقولك قائم زيد قد أثبت له القيام دون غيره وقولك زيد قائم أنت بالخيار فى اثبات القيام له ونفيه عنه بأن تقول ضارب أو جالس أو غير ذلك وهكذا يجرى الحكم فى تقديم الظرف كقولك ان الى مصير هذا الامر وقولك ان مصير هذا الامر الى فان تقديم الظرف دل على أن مصير الامر ليس الا اليك وذلك

بخلاف قولك ان مصير هذا الامر الى اذ يحتمل ايقاع الكلام بعد الظرف على غيرك فيقال الى زيد أو عمرو أو غيرهما وكذلك يجرى الامر فى الحال والاستثناء وقال علماء البيان ومنهم الزمخشرى رحمه الله ان تقديم هذه الصورة المذكورة انما هو للاختصاص وليس كذلك والذى عندى فيه أنه يستعمل على وجهين أحدهما الاختصاص والآخر مراعاة نظم الكلام وذاك أن يكون نظمه لا يحسن الا بالتقديم واذا أخر المقدم ذهب ذلك الحسن وهذا الوجه أبلغ وأوكد من الاختصاص فأما الاول الذى هو الاختصاص فنحو قوله تعالى قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين فانه انما قيل بل الله فاعبد ولم يقل بل اعبد الله لانه اذا تقدم وجب اختصاص العبادة به دون غيره ولو قال بل اعبد لجاز ايقاع الفعل على أى مفعول شاء وأما الوجه الثانى الذى يختص بنظم الكلام فنحو قوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين وقد ذكر الزمخشرى فى تفسيره أن التقديم فى هذا الموضع قصد به الاختصاص وليس كذلك فانه لم يقدم المفعول فيه على الفعل للاختصاص وانما قدم لمكان نظم الكلام لانه لو قال نعبدك ونستعينك لم يكن له من الحسن ما لقوله اياك نعبد واياك نستعين ألا ترى أنه تقدم قوله تعالى الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين فجاء بعد ذلك قوله اياك نعبد واياك نستعين وذلك لمراعاة حسن النظم السجعى الذى هو على حرف النون ولو قال نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة وزال ذلك الحسن وهذا غير خاف على أحد من الناس فضلا عن أرباب علم البيان وعلى نحو منه ورد قوله تعالى فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف انك أنت الاعلى وتقدير الكلام فأوجس موسى فى نفسه خيفة وانما قدم المفعول على الفاعل وفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول وبحرف الجر قصدا لتحسين النظم وعلى هذا فليس كل تقديم لما مكانه التأخير من باب الاختصاص فبطل اذا ما ذهب اليه الزمخشرى وغيره (ومما ورد من هذا الباب) قوله تعالى خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه فان تقديم الجحيم على التصلية وان كان فيه تقديم المفعول على الفعل الا أنه لم يكن ههنا للاختصاص وانما هو للفضيلة السجعية ولا مراء فى أن هذا النظم على هذه

الصورة أحسن من أن لو قيل خذوه فغلوه ثم صلوه الجحيم (فان قيل) انما قدمت الجحيم للاختصاص لانها نار عظيمة ولو أخرت لجاز وقوع الفعل على غيرها كما يقال ضربت زيدا او زيدا ضربت وقد تقدم الكلام على ذلك (فالجواب) عن ذلك أن الدرك الاسفل أعظم من الجحيم فكان ينبغي أن يخص بالذكر دون الجحيم على ماذهب اليه لانه أعظم وهذا لا يذهب اليه الا من هو بنجوة عن رموز الفصاحة والبلاغة ولفظة الجحيم ههنا في هذه الآية أولى بالاستعمال من غيرها لانها جاءت ملائمة لنظم الكلام ألا ترى أن من أسماء النار السعير ولظى وجهنم ولو وضع بعض هذه الاسماء مكان الجحيم لما كان له من الطلاوة والحسن ما للجحيم والمقصود بذكر الجحيم انما هو النار اى صلوه النار وهكذا يقال في ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه فانه لم يقدم السلسلة على السلك للاختصاص وانما قدمت لمكان نظم الكلام ولا شك أن هذا النظم أحسن من أن لو قيل ثم اسلكوه في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا والكلام على هذا كالكلام على الذى قبله وله في القرآن نظائر كثيرة ألا ترى الى قوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم فقوله والقمر قدرناه منازل ليس تقديم المفعول فيه على الفعل من باب الاختصاص وانما هو من باب مراعاة نظم الكلام فانه قال والليل نسلخ منه النهار ثم قال والشمس تجرى فاقتضى حسن النظم أن يقول والقمر قدرناه ليكون الجميع على نسق واحد في النظم ولو قال وقدرنا القمر منازل لما كان بتلك الصورة في الحسن وعليه ورد قوله تعالى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وانما قدم المفعول لمكان حسن النظم السجعى (وأما تقديم خبر المبتدا عليه) فقد تقدمت صورته كقولك زيد قائم وقائم زيد فما ورد منه في القرآن الكريم قوله تعالى وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فانه انما قال ذلك ولم يقل وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم لان في تقديم الخبر الذى هو مانعتهم على المبتدا الذى هو حصونهم دليلا على فرط اعتقادهم في حصانتها وزيادة وثوقهم بمنعها اياهم وفي تصويب ضميرهم اسما لان واسناد الجملة اليه دليل على تقريرهم في أنفسهم أنهم في عزة وامتناع لا يبالى معها بقصد قاصد ولا تعرض متعرض

وليس شئ من ذلك في قولك وظنوا أنّ حصونهم مانعتهم من الله (ومن تقديم خبر المبتدا) قوله تعالى قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم فانه انما قدم خبر المبتدا عليه في قوله أراغب أنت ولم يقل أأنت راغب لانه كان أهم عندهم وهو به شديد العناية وفى ذلك ضرب من التعجب والانكار لرغبة ابراهيم عن آلهته وان آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها وهذا بخلاف مالو قال أأنت راغب عن آلهتى (ومن غامض هذا الموضع) قوله تعالى واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا فانه انما قال ذلك ولم يقل فاذا أبصار الذين كفروا شاخصة لامرين أحدهما تخصيص الابصار بالشخوص دون غيرها أما الاول فلو قال فاذا أبصار الذين كفروا شاخصة لجاز أن يضع موضع شاخصة غيره فيقول حائرة أو مطموسة أو غير ذلك فلما قدم الضمير اختص الشخوص بالابصار دون غيرها وأما الثانى فانه لما أراد أن الشخوص خاص بهم دون غيرهم دل عليه بتقديم الضمير أولا ثم بصاحبه ثانيا كأنه قال فاذا هم شاخصون دون غيرهم ولولا أنه أراد هذين الامرين المشار اليهما لقال فاذا أبصار الذين كفروا شاخصة لانه أخصر بحذف الضمير من الكلام (ومن هذا النوع) قول النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن ماء البحر فقال هو الطهور ماؤه الحلّ ميتته وتقدير الكلام هو الذى ماؤه طهور وميتته حلّ لانّ الالف واللام ههنا بمعنى الذى (وأمّا تقديم الظرف) فانه اذا كان الكلام مقصودا به الاثبات فانّ تقديمه أولى من تأخيره وفائدته اسناد الكلام الواقع بعده الى صاحب الظرف دون غيره فاذا أريد بالكلام النفي فيحسن فيه تقديم الظرف وتأخيره وكلا هذين الامرين له موضع يختص به فامّا تقديمه فى النفي فانه يقصد به تفضيل المنفيّ عنه على غيره وأمّا تأخيره فانه يقصد به النفي أصلا من غير تفضيل فأمّا الاول وهو تقديم الظرف فى الاثبات فكقولك فى الصورة المقدمة انّ الى مصير هذا الامر ولو أخرت الظرف فقلت انّ مصير هذا الامر الىّ لم يعط من المعنى ما أعطاه الاول وذلك أنّ الاول دلّ على أنّ مصير الامر ليس الا اليك وذلك بخلاف الثانى اذ يحتمل أن توقع الكلام بعد الظرف على غيرك فيقال الى زيد او عمرو أو غيرهما وعلى نحو منه جاء قوله تعالى انّ الينا ايابهم ثمّ انّ علينا حسابهم وكذلك جاء قوله تعالى يسبح لله ما فى السموات

وما فى الارض له الملك وله الحمد فانه انما قدم الظرفين ههنا فى قوله له الملك وله الحمد ليدل بتقديمهما على اختصاص الملك والحمد بالله لا بغيره (وقد استعمل تقديم الظرف فى القرآن كثيرا) كقوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة أى تنظر الى ربها دون غيره فتقديم الظرف ههنا ليس للاختصاص وانما هو كالذى أشرت اليه فى تقديم المفعول وأنه لم يقدم للاختصاص وانما قدم من أجل نظم الكلام لان قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة أحسن من أن لو قيل وجوه يومئذ ناضرة ناظرة الى ربها والفرق بين النظمين ظاهر وكذلك قوله تعالى والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق فان هذا روعى فيه حسن النظم لا الاختصاص فى تقديم الظرف وفى القرآن مواضع كثيرة من هذا القبيل يقيسها غير العارف بأسرار الفصاحة على مواضع أخرى وردت للاختصاص وليست كذلك فمنها قوله تعالى الى ربك يومئذ المستقر وقوله تعالى ألا الى الله تصير الامور وله الحكم واليه ترجعون وعليه توكلت واليه أنيب فان هذه جميعها لم تقدم الظروف فيها للاختصاص وانما قدمت لمراعاة الحسن فى نظم الكلام فاعرف ذلك (وأما الثانى وهو تأخير الظرف وتقديمه فى النفى) فنحو قوله تعالى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه وقوله تعالى لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون فانه انما أخر الظرف فى الاول لان القصد فى ايلاء حرف النفى الريب نفى الريب عنه واثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب كما كان المشركون يدعونه ولو أولاه الظرف لقصد أن كتابا آخر فيه الريب لا فيه كما قصد فى قوله تعالى لا فيها غول فتأخير الظرف يقتضى النفى أصلا من غير تفضيل وتقديمه يقتضى تفضيل المنفى عنه وهو خمر الجنة على غيرها من خمور الدنيا أى ليس فيها ما فى غيرها من الغول وهذا مثل قولنا لا عيب فى الدار وقولنا لا فيها عيب فالاول نفى للعيب عن الدار فقط والثانى تفضيل لها على غيرها أى ليس فيها ما فى غيرها من العيب فاعرف ذلك فانه من دقائق هذا الباب (وأما تقديم الحال) فكقولك جاء راكبا زيد وهذا بخلاف قولك جاء زيد راكبا اذ يحتمل أن يكون ضاحكا أو ماشيا أو غير ذلك (وأما الاستثناء) فجار هذا المجرى نحو قولك ما قام الا زيدا أحد أو ما قام أحد الا زيدا والكلام على ذلك كالكلام على ما سبق (وأما القسم الثانى) فهو أن يقدم ما الاولى به

قوله فتقديم الظرف الخ لا يتفرع على ما قبله الا

التأخير لان المعنى يختل بذلك ويضطرب وهذا هو المعاظلة المعنوية وقد قدمنا القول فى المقالة الاولى المختصة بالصناعة اللفظية بأن المعاظلة تنقسم قسمين أحدهما لفظى والآخر معنوى أما اللفظى فذكرناه فى بابه وأما المعنوى فهذا بابه وموضعه وهو كتقديم الصفة أوما يتعلق بها على الموصوف وتقديم الصلة على الموصول وغير ذلك مما يرد بيانه (فمن هذا القسم) قول بعضهم

فقد والشك بين لى عناء * بوشك فراقهم صرد يصيح

فانه قدم قوله بوشك فراقهم وهو معمول يصيح ويصيح صفة لصرد على صرد وذلك قبيح ألا ترى أنه لا يجوز أن يقال هذا من موضع كذا رجل ورد اليوم وانما يجوز وقوع المعمول بحيث يجوز وقوع العامل فكما لا يجوز تقديم الصفة على موصوفها فكذلك لا يجوز تقديم ما اتصل بها على موصوفها ومن هذا النحو قول الآخر

فأصبحت بعد خط بهجتها * كان قفرا رسومها قلما

فانه قدم خبر كان عليها وهو قوله خط وهذا وامثاله مما لا يجوز قياس عليه والاصل فى هذا البيت فأصبحت بعد بهجتها قفرا كان قلما خط رسومها الا أنه على تلك الحالة الأولى فى الشعر مختل مضطرب والمعاظلة فى هذا الباب تتفاوت درجاتها فى القبح وهذا البيت المشار اليه من أقبحها لان معانيه قد تداخلت وركب بعضها بعضا (ومما يجرى هذا المجرى) قول الفرزدق

الى ملك ما أمه من محارب * أبوه ولا كانت كليب تصاهره

وهو يريد الى ملك أبوه ما أمه من محارب وهذا أقبح من الاول وأكثر اختلالا (وكذلك جاء قوله أيضا)

واليست خراسان التى كان خالد * بها أسد اذ كان سيفا أميرها

وحديث هذا البيت ظريف وذاك أنه فيما ذكر يمدح خالد بن عبد الله القسرى ويهجو أسدا وكان أسد وليها بعد خالد وكأنه قال واليست خراسان بالبلدة التى كان خالد بها سيفا اذ كان أسد أميرها وعلى هذا التقدير فى كان الثانية ضمير الشأن والحديث والجملة بعدها خبر عنها وقد قدم بعض ما اذ مضافة اليه وهو أسد عليها وفى تقديم المضاف اليه أو شئ منه على المضاف من القبح ما لا خفاء به وأيضا فان أسدا أحد جزأى الجملة المفسرة للضمير والضمير لا يكون تفسيره الا من

بعده ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج الى تفسير ولما سماه الكوفيون الضمير المجهول وعلى هذا الهوورد قول الفرزدق أيضا

وما مثله فى الناس الا مملكا * أبو أمه حى أبوه يقاربه

ومعنى هذا البيت وما مثله فى الناس حى يقاربه الا مملكا أبو أمه أبوه وعلى هذا المثال المصوغ فى الشعر قد جاء مشوّها كما تراه وقد استعمل الفرزدق من التعاظل كثيرا كأنه كان يقصد ذلك ويتعمده لان مثله لا يجىء الا متكلفا مقصودا والا فاذا ترك مؤلف الكلام نفسه تجرى على سجيتها وطبعها فى الاسترسال لم يعرض له شىء من هذا التعقيد ألا ترى أن المقصود من الكلام معدوم فى هذا الضرب المشار اليه اذ المقصود من الكلام انما هو الايضاح والابانة وافهام المعنى فاذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما واعلم أن هذا الضرب من الكلام هو ضد الفصاحة لان الفصاحة هى الظهور والبيان وهذا عار عن هذا الوصف (وأما الضرب الثانى) الذى يختص بدرجة التقدم فى الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك فانه مما لا يحصره حد ولا ينتهى اليه شرح وقد أشرنا الى نبذة منه فى هذا الكتاب ليستدل بها على أشباهها ونظائرها (فمن ذلك تقديم السبب على المسبب) كقوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين فانه انما قدم العبادة على الاستعانة لان تقديم القربة والوسيلة قبل طلب الحاجة انجح لحصول الطلب وأسرع لوقوع الاجابة ولو قال اياك نستعين واياك نعبد لكان جائزا الا أنه لا يسد ذلك المسد ولا يقع ذلك الموقع وهذا لا يخفى على المنصف من أرباب هذه الصناعة وعلى نحو منه جاء قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا فقدم حياة الارض واسقاء الانعام على اسقاء الناس وان كانوا أشرف محلا لان حياة الارض هى سبب لحياة الانعام والناس فلما كانت بهذه المثابة جعلت مقدمة فى الذكر ولما كانت الانعام من أسباب التعيش والحياة للناس قدمها فى الذكر على الناس لان حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم فقدم سقى ما هو سبب نمائهم ومعاشهم على سقيهم (ومن هذا الضرب تقديم الاكثر على الاقل) كقوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق

بالخيرات وانما قدم الظالم لنفسه للايذان بكثرته وأن معظم الخلق عليه ثم أتى
بعده بالمقتصدين لانهم قليل بالاضافة اليه ثم أتى بالسابقين وهم أقل من القليل
أعنى من المقتصدين فقدم الاكثر وبعده الاوسط ثم ذكر الاقل آخرا ولو عكست
القضية لكان المعنى أيضا واقعا فى موقعه لانه يكون قد روعى فيه تقديم الافضل
فالافضل (ولنوضح لك فى هذا وأمثاله طريقا تقتفيه فنقول) اعلم أنه اذا كان
الشيا ٓن كل واحد منهما مختصا بصفة فأنت بالخيار فى تقديم أيهما شئت فى الذكر
كهذه الآية فان السابق بالخيرات مختص بصفة الفضل والظالم لنفسه مختص
بصفة الكثرة فقس على هذا ما يأتيك من أشباهه وأمثاله (ومن هذا الجنس)
قوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى
على رجلين ومنهم من يمشى على أربع فانه انما قدم الماشى على بطنه لانه أدل على
القدرة من الماشى على رجلين اذ هو ماش بغير الآلة المخلوقة للمشى ثم ذكر
الماشى على رجلين وقدمه على الماشى على أربع لانه أدل على القدرة أيضا حيث
كثرت آلات المشى فى الاربع وهذا من باب تقديم الاعجب فالاعجب (فان قيل)
قد ورد فى القرآن الكريم فى مواضع منه ما يخالف هذا الذى ذكرته كقوله
تعالى فى سورة هود وما نؤخره الا لاجل معدود يوم يأتى لا تكلم نفس الا باذنه
فمنهم شقى وسعيد فأما الذين شقوا ففى النار ثم قال وأما الذين سعدوا ففى الجنة
فقدم أهل النار فى الذكر على أهل الجنة وهذا مخالف للاصل الذى أصلته فى هذا
الموضع (فالجواب عن ذلك) أن هذا الذى أشرت اليه فى سورة هود وما أشبهه له
أسرار تحتاج الى فضل تأمل وامعان نظر حتى تفهم أما هذا الموضع فانه لما كان
الكلام مسوقا فى ذكر التخويف والتحذير وجاء على عقب قصص الاولين وما فعل
الله بهم من التعذيب والتدمير كان الاليق أن يوصل الكلام بما يناسبه فى المعنى
وهو ذكر أهل النار فمن أجل ذلك قدموا فى الذكر على أهل الجنة واذا رأيت
فى القرآن شيأ من هذا القبيل وما يجرى مجراه فتأمله وأمعن نظرك فيه حتى يتبين
لك مكان الصواب منه واعلم أنه اذا كان مطلع الكلام فى معنى من المعانى
ثم يجىء بعده ذكر شيئين أحدهما أفضل من الآخر وكان المعنى المفضول مناسبا
لمطلع الكلام فأنت بالخيار فى تقديم أيهما شئت لانك ان قدمت الافضل فهو
فى موضعه من التقديم وان قدمت المفضول فلان مطلع الكلام يناسبه وذكر

الشئ مع ما يناسبه أيضا وارد فى موضعه (فمن ذلك) قوله تعالى وانا اذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فان الانسان كفور لله ملك السموات والارض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير فانه انما قدم الاناث على الذكور مع تقدمهم عليهن لانه ذكر البلاء فى آخر الآية الاولى وكفران الانسان بنسيانه للرحمة السابقة عنده ثم عقب ذلك بذكر ملكه ومشيئته وذكر قسمة الاولاد فقدم الاناث لان سياق الكلام انه فاعل ما يشاء لا ما يشاؤه الانسان فكان ذكر الاناث اللاتى هن من جملة ما لا يشاؤه الانسان ولا يختاره أهم والاهم واجب التقديم وليلى الجنس الذى كانت العرب تعده بلاء ذكر البلاء ولما أخر ذكر الذكور وهم أحقاء بالتقديم تدارك ذلك بتعريفه اياهم لان التعريف تنويه بالذكر كأنه قال ويهب لمن يشاء الفرسان الاعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير وعرف أن تقديم الاناث لم يكن لتقدمهن ولكن لمقتض آخر فقال ذكرانا واناثا وهذه دقائق لطيفة قل من يتنبه لها أو يعثر على رموزها (ومن هذا الباب) قوله تعالى وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء فانه انما قدم الارض فى الذكر على السماء ومن حقها التأخير لانه لما ذكر شهادته على شؤن أهل الارض وأحوالهم ووصل ذلك بقوله وما يعزب لاءم بينهما ليلى المعنى المعنى (فان قيل) قد جاء تقديم الارض على السماء فى الذكر فى مواضع كثيرة من القرآن (قلنا) اذا جاءت مقدمة فى الذكر فلا بد لتقديمها من سبب اقتضاه وان خفى ذلك السبب وقد يستنبطه بعض العلماء دون بعض (النوع العاشر فى الحروف العاطفة والجارة) وهذا موضع لطيف المأخذ دقيق المعزى وما رأيت أحدا من علماء هذه الصناعة تعرض اليه ولا ذكره وما أقول انهم لم يعرفوه فان هذا النوع من الكلام أشهر من أن يخفى لانه مذكور فى كتب العربية جميعها ولست أعنى بايراده ههنا ما يذكره النحويون من أن الحروف العاطفة تتبع المعطوف عليه فى الاعراب ولا أن الحروف الجارة تجر ما تدخل عليه بل أمر اوراء ذلك وان كان

الحروف العاطفة والجارة

المرجع فيه الى الاصل النحوى (فأقول) انّ أكثر الناس يضعون هذه الحروف فى غير مواضعها فيجعلون ما ينبغى أن يجرّ بعلى بفى فى حروف الجرّ وفى هذه الاشياء دقائق أذكرها لك أمّا حروف العطف فنحو قوله تعالى والذى هو يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين فالاوّل عطفه بالواو التى هى للجمع وتقديم الاطعام على الاسقاء والاسقاء على الاطعام جائز لولا مراعاة حسن النظم ثم عطف الثانى بالفاء لانّ الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من أحدهما ثم عطف الثالث بثم لانّ الاحياء يكون بعد الموت بزمان ولهذا جىء فى عطفه بثم التى هى للتراخى ولو قال قائل فى موضع هذه الآية الذى يطعمنى ويسقين ويمرضنى ويشفين ويميتنى ويحيين لكان للكلام معنى تامّ الا أنه لا يكون كمعنى الآية اذ كل شئ منها قد عطف بما يناسبه ويقع موقع السداد منه (ومما جاء من هذا الباب) قوله تعالى قتل الانسان ما أكفره من أىّ شئ خلقه من نطفة خلقه فقدّره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره ألا ترى أنه لما قال من نطفة خلقه كيف قال فقدّره ولم يقل ثم قدّره لانّ التقدير لما كان تابعا للخلقة وملازما لها عطفه عليها بالفاء وذلك بخلاف قوله ثم السبيل يسره لانّ بين خلقته وتقديره فى بطن أمّه وبين اخراجه منه وتسهيل سبيله مهلة وزمانا فلذلك عطفه بثم وعلى هذا جاء قوله تعالى ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره لانّ بين اخراجه من بطن أمّه وبين موته تراخيا وفسحة وكذلك بين موته ونشوره أيضا ولذلك عطفهما بثم ولما لم يكن بين موت الانسان واقباره تراخ ولا مهلة عطفه بالفاء وهذا موضع من علم البيان شريف وقلما يتفطن لاستعماله كما ينبغى (ومما جاء من ذلك أيضا) قوله تعالى فى قصة مريم وعيسى عليهما السلام فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتنى متّ قبل هذا وكنت نسيا منسيا وفى هذه الآية دليل على أنّ حملها به ووضعها اياه كانا متقاربين لانه عطف الحمل والانتباذ الى المكان الذى مضت اليه والمخاض الذى هو الطلق بالفاء وهى للفور ولو كانت كغيرها من النساء لعطف بثم التى هى للتراخى والمهلة ألا ترى أنه قد جاء فى الاخرى قتل الانسان ما أكفره من أىّ شئ خلقه من نطفة خلقه فقدّره ثم السبيل يسره فلما كان بين تقديره فى البطن واخراجه منه مدّة متراخية عطف ذلك بثم وهذا بخلاف قصة مريم عليها السلام فانها

عطفت بالفاء وقد اختلف الناس فى مدة حملها فقيل انه كان كحمل غيرها من النساء وقيل لابل كان مدة ثلاثة أيام وقيل أقل وقيل أكثر وهذه الآية مزيلة للخلاف لانها دالة صريحا على أن الحمل والوضع كانا متقاربين على الفور من غير مهلة وربما كان ذلك فى يوم واحد أو أقل أخذا مما دلت عليه الآية (ومما ورد من هذا الاسلوب) قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر ففى الآية المتقدم ذكرها قال من نطفة خلقه فقدره فعطف التقدير على الخلق بالفاء لانه تابع له ولم يذكر تفاصيل حال المخلوق وفى هذه الآية ذكر تفاصيل حاله فى تنقله فبدأ بالخلق الاول وهو خلق آدم من طين ولما عطف عليه الخلق الثانى الذى هو خلق النسل عطفه بثم لما بينهما من التراخى وحيث صار الى التقدير الذى يتبع بعضه بعضا من غير تراخ عطفه بالفاء ولما انتهى الى جعله ذكرا أو أنثى وهو آخر الخلق عطفه بثم (فان قيل) انه قد عطف المضغة على العلقة فى هذه الآية بالفاء وفى أخرى بثم وهى قوله تعالى يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة (فالجواب عن ذلك)

بياض بأصله

(واعلم) أن فى حروف العطف موضعا تلتبس الفاء بالواو وهو موضع يحتاج فيه الى فضل تأمل وذلك أن فعل المطاوعة لا يعطف عليه الا بالفاء دون الواو وقد يجىء من الافعال ما يلتبس بفعل المطاوعة ويعطى ظاهره أنه كذلك الا أن معناه يكون مخالفا لمعنى فعل المطاوعة فيعطف حينئذ بالواو ولا بالفاء كقوله تعالى ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه فقوله أغفلنا قلبه ههنا بمعنى صادفناه غافلا وليس منقولا عن غفل حتى يكون معناه صددناه لانه لو كان كذلك لكان معطوفا عليه بالفاء وقيل فاتبع هواه وذلك أنه يكون مطاوعا وفعل المطاوعة لا يعطف الا بالفاء كقولك أعطيته فأخذ ودعوته فأجاب ولا تقول أعطيته وأخذ ولا دعوته وأجاب كما لا يقال كسرته وانكسر وكذلك لو كان معنى أغفلنا فى الآية صددنا ومنعنا لكان معطوفا عليه بالفاء وكان يقال ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه فلما لم يكن كذلك وكان

العطف عليه بالواو وفطريقه أنه لما قال أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه أن يكون معناه وجدناه غافلا فقد غفل لا محالة فكأنه قال ولا تطع من غفل قلبه عن ذكرنا واتبع هواه أى لا تطع من فعل كذا وكذا بعد دأفعاله التى توجب ترك طاعته فاعرف ذلك (وأمّا حروف الجرّ) فانّ الصواب يشذ عن وضعها فى مواضعها وقد علم أنّ فى للوعاء وعلى للاستعلاء كقولهم زيد فى الدار وعمرو على الفرس لكن اذا أريد استعمال ذلك فى غير هذين الموضعين مما يشكل استعماله عدل فيه عن الاولى (فمما ورد منه) قوله تعالى قل من يرزقكم من السموات والارض قل الله وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين الاترى الى بداعة هذا المعنى المقصود لمخالفة حرفى الجرّ ههنا فانه انما خولف بينهما فى الدخول على الحق والباطل لانّ صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركض به حيث شاء وصاحب الباطل كأنه منغمس فى ظلام منخفض فيه لا يدرى أين يتوجه وهذا معنى دقيق قلما يراعى مثله فى الكلام وكثيرا ما سمعت اذا كان الرجل يلوم أخاه أو يعاتب صديقه على أمر من الامور فيقول له أنت على ضلالك القديم كما أعهدك فيأتى بعلى فى موضع فى وان كان هذا جائزا الا أنّ استعمال فى ههنا أولى لما أشرنا اليه ألاترى الى قوله تعالى فى سورة يوسف قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم (ومن هذا النوع قوله تعالى) انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فانه انما عدل عن اللام الى فى فى الثلاثة الاخيرة للايذان بأنهم أرسخ فى استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره باللام لانّ فى للوعاء فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات كما يوضع الشئ فى الوعاء وأن يجعلوا مظنة لها وذلك لما فى فك الرقاب وفى الغرم من التخلص وتكرير فى فى قوله وفى سبيل الله دليل على ترجيحه على الرقاب وعلى الغارمين وسياق الكلام أن يقال وفى الرقاب والغارمين وسبيل الله وابن السبيل فلما جىء بفى مرّة ثانية وفصل بها بين الغارمين وبين سبيل الله علم أنّ سبيل الله أوكد فى استحقاق النفقة فيه وهذه لطائف ودقائق لا توجد الا فى هذا الكلام الشريف فاعرفها وقس عليها (النوع الحادى عشر فى الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما) ولم أذكر هذا الموضع لان يجرى الامر فيه

على ما يجرى مجراه فقط بل لان يقاس عليه مواضع أخرى مما تماثله وتشابهه ولو كان شبها بعيدا وانما يعدل عن أحد الخطابين الى الآخر لضرب من التاكيد والمبالغة (فمن ذلك قولنا) قام زيد وان زيدا قائم فقولنا قام زيد معناه الاخبار عن زيد بالقيام وقولنا ان زيدا قائم معناه الاخبار عن زيد بالقيام أيضا الا أن فى الثانى زيادة ليست فى الاول وهى توكيده بان المشددة التى من شأنها الاثبات لما يأتى بعدها واذا زيد فى خبرها اللام فقيل ان زيدا لقائم كان ذلك أكثر توكيدا فى الاخبار بقيامه وهذا مثال ينبنى عليه أمثلة كثيرة من غير هذا النوع (فمما جاء من ذلك) قوله تعالى واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم فانهم انما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بان المشددة لانهم فى مخاطبة اخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط فكان ذلك متقبلا منهم ورائجا عند اخوانهم وأما الذى خاطبوا به المؤمنين فانما قالوه تكلفا واظهارا للايمان خوفا ومداجاة وكانوا يعلمون أنهم لو قالوه بأوكد لفظ وأسده لما راج لهم عند المؤمنين الا رواجا ظاهرا لا باطنا ولانهم ليس لهم فى عقائدهم باعث قوى على النطق فى خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به اخوانهم من العبارة المؤكدة فلذلك قالوا فى خطاب المؤمنين آمنا وفى خطاب اخوانهم انا معكم وهذه نكت تخفى على من ليس له قدم راسخة فى علم الفصاحة والبلاغة (ومما يجرى هذا المجرى) ورود لام التوكيد فى الكلام ولا يجيء ذلك الا لضرب من المبالغة وفائدته أنه اذا عبر عن أمر يعز وجوده أو فعل يكثر وقوعه جيء باللام تحقيقا لذلك (فمما جاء منه) قوله تعالى فى أول سورة المنافقين اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون فانظر الى هذه اللامات الثلاثة الواردة فى خبر ان والاولى وردت فى قول المنافقين وانما وردت مؤكدة لانهم أظهروا من أنفسهم التصديق برسالة النبى صلى الله عليه وسلم وتعلقوا به وبالغوا فى التملق وفى باطنهم خلافه وأما ما ورد فى الثانية والثالثة فصحيح لا ريب فيه واللام فى الثانية لتصديق رسالته وفى الثالثة لتكذيب المنافقين فيما كانوا يظهرونه

من التصديق الذين هم على خلافه (وكذلك) ورد قوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون أرسله معنا غدا نرتع ونلعب وانا له لحافظون فانه انما جيء باللام ههنا لزيادة التوكيد فى اظهار المحبة ليوسف عليه السلام والاشفاق عليه ليبلغوا الغرض من أبيهم فى السماحة بارساله معهم (ومن هذا الباب) قوله تعالى أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ثم قال أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ألا ترى كيف أدخلت اللام فى آية المطعوم دون آية المشروب وانما جاءت كذلك لان جعل الماء العذب ملحا أسهل امكانا فى العرف والعادة والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب وكثيرا ما اذا جرت المياه العذبة على الاراضى المتغيرة التربة أحالتها الى الملوحة فلم يحتج فى جعل الماء العذب ملحا الى زيادة تأكيد فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق وأما المطعوم فان جعله حطاما من الاشياء الخارجة عن المعتاد واذا وقع فلا يكون الا عن سخط من الله شديد فلذلك قرن بلام التأكيد زيادة فى تحقيق أمره وتقرير ايجاده (ومما يتصل بذلك) قوله تعالى وانا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون فاللام فى لنحن هى اللام المشار اليها (وكذلك) ورد قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا فان هذه اللام فى قوله ليستخلفنهم وليمكنن وليبدلنهم انما جاءت لتحقيق الامر واثباته فى نفوس المؤمنين وأنه كائن لا محالة (ومما يجرى هذا المجرى فى التوكيد) لام الابتداء المحققة لما يأتى بعدها كقوله تعالى اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا فاللام فى ليوسف لام الابتداء وفائدتها تحقيق مضمون الجملة الواردة بعدها أى ان زيادة حبه اياهما أمر ثابت لا مراء فيه (ومن هذا النوع قول بعضهم)

والشيب ان يظهر فان وراءه * عمرا يكون خلاله متنفس
لم ينتقص منى المشيب قلامة * ولما بقى منى ألب وأكيس

فقوله ولما بقى منى تقديره وما بقى منى وانما أدخل على ما هذه اللام قصد التأكيد

المعنى لانه موضع يحتاج الى التأكيد ألا ترى أن قوة العمر فى الشباب ولما أراد هذا الشاعر أن يصف المشيب وليس مما يوصف وانما يذم أتى باللام لتؤكد ما قصده من الصفة وكذلك ورد قول الشاعر من أبيات الحماسة

انا لنصفح عن مجاهل قومنا * ونقيم سالفة العدو الاصيد
ومتى نجد يوما فساد عشيرة * نصلح وان نر صالحا لا نفسد

وهذا كثير سائغ فى الكلام الا أنه لا يأتى لمكان العناية بما يعبر به عنه ألا ترى الى قول الشاعر انا لنصفح عن مجاهل قومنا فانه لما كان الصفح مما يشق على النفس فعله لانه مقابلة الشر بالخير والاساءة بالاحسان أكده باللام تحقيقا له فان عرى الموضع الذى يؤتى فيه بهذه اللام من هذه الفائدة المشار اليها وما يجرى مجراها فان ورود اللام فيه لغير سبب اقتضاه وأكثر ما تستعمل هذه اللام فى جواب القسم لتحقيق الامر المقسم عليه وذلك فى الايجاب دون النفى لانها لا تستعمل فى النفى ألا ترى أنه لا يقال والله للاقمت وانما يقال والله لاقمت لكن فى الايجاب تستعمل ويكون استعمالها حسنا كقولك والله لاقوم فان أضيف اليها النونان الخفيفة والثقيلة كان ذلك أبلغ فى التأكيد كقولك والله لاقومن وعلى ذلك وردت الآية المقدم ذكرها وهى قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات وان لم يكن جوابا لقسم فالنون الواردة بعد اللام زيادة فى التأكيد وهما تأكيدان أحدهما مردف بالآخر وكذلك فاعلم أن النون الثقيلة متصلة بهذا الباب فاذا استعملت فى موضع فانما يقصد بها التأكيد (فمما جاء منها) قول البحترى فى معاتبة الفتح بن خاقان

هل تجلبن الى عطفك موقف * ثبت لديك أقول فيه وتسمع
مازال لى من حسن رأيك موئل * آوى اليه من الخطوب ومفزع
فعلام أنكرت الصديق وأقبلت * نحوى جناب الكاشحين تطلع
وأقام يطمع فى تهضم جانبى * من لم يكن من قبل فيه يطمع
الا يكن ذنب فعدلك واسع * أو كان لى ذنب فعفوك أوسع

وهذه أبيات حسنة مليحة فى بابها يحيى بها حر الصدود ويستمال بها صعر الخدود وانما ذكرتها بجملتها لمكان حسنها والبيت الاول هو المراد ألا ترى أنه قال هل تجلبن الى عطفك موقف فالنون جاءت قصدا للتأكيد وهو فى هذا المقام

متمنٍ فأحب أن يؤكد هذه الامنية وكل ما يجيء من هذا الباب فانه واقع هذا الموقع واذا استعمل عبثا لغير فائدة تقتضيه فانه لا يكون استعماله الا من جاهل بالاسرار المعنوية وأما ما يمثل به النحاة في قول القائل والله لاقومن فانه مثال نحوي يضرب للجواز والا فاذا قال القائل والله لاقومن وأكده كان ذلك لغوا لانه ليس في قيامه من الامر العزيز ولا من الامر العسير ما يحتاج معه الى التأكيد بل لو قال والله لأقومن اليك مهددا له لكان ذلك واقعا في موقعه فافهم هذا وقس عليه (النوع الثاني عشر في قوة اللفظ لقوة المعنى) هذا النوع قد ذكره أبو الفتح بن جني في كتاب الخصائص الا أنه لم يورده كما أوردته أنا ولا نبه على ما نبهت عليه من النكت التي تضمنته وهذا يظهر بالوقوف على كلامي وكلامه (فأقول) اعلم أن اللفظ اذا كان على وزن من الاوزان ثم نقل الى وزن آخر أكثر منه فلابد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا لان الالفاظ أدلة على المعاني وأمثلة للابانة عنها فاذا زيد في الالفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني وهذا لا نزاع فيه لبيانه وهذا النوع لا يستعمل الا في مقام المبالغة (فمن ذلك) قولهم خشن واخشوشن فمعنى خشن دون معنى اخشوشن لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو نحو فعل وافعوعل وكذلك قولهم أعشب المكان فاذا رأوا كثرة العشب قالوا اعشوشب (ومما ينتظم بهذا السلك) قدر واقتدر فمعنى اقتدر أقوى من معنى قدر قال الله تعالى فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر فمقتدر ههنا أبلغ من قادر وانما عدل اليه للدلالة على تفخيم الامر وشدة الاخذ الذي لا يصدر الا عن قوة الغضب أو للدلالة على بسطة القدرة فان المقتدر أبلغ في البسطة من القادر وذلك أن مقتدرا اسم فاعل من اقتدر وقادرا اسم فاعل من قدر ولا شك أن افتعل أبلغ من فعل وعلى هذا ورد قول أبي نواس

فعفوت عني عفو مقتدر * حلت له نقم فألغاها

أي عفوت عني عفو قادر متمكن القدرة لا يرده شيء عن امضاء قدرته وأمثال هذا كثيرة وكذلك ورد قوله تعالى في سورة نوح عليه السلام فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا فان غفارا أبلغ في المغفرة من غافر لان فعالا يدل على كثرة صدور الفعل وفاعلا لا يدل على الكثرة وعليه ورد قوله تعالى ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين فالتواب هو الذي تتكرر منه التوبة مرة على مرة وهو

فعال وذلك أبلغ من التائب الذي هو فاعل فالتائب اسم فاعل من تاب يتوب فهو تائب أي صدرت منه التوبة مرة واحدة فاذا قيل تواب كان صدور التوبة منه مرارا كثيرة وهذا وما يجري مجراه انما يعمد اليه لضرب من التوكيد ولا يوجد ذلك الا فيما فيه معنى الفعلية كاسم الفاعل والمفعول وكالفعل نفسه نحو قوله تعالى فكبكبوا فيها هم والغاوون فان معنى كبكبوا من الكب وهو القلب الا أنه مكرر المعنى وانما استعمل في الآية دلالة على شدة العقاب لانه موضع يقتضي ذلك ولربما نظر بعض الجهال في هذا فقاس عليه زيادة التصغير وقال انها زيادة ولكنها زيادة نقص لانه يزاد في اللفظ حرف كقولهم في الثلاثي في رجل رجيل وفي الرباعي في قنديل قنيديل فالزيادة وردت ههنا فنقصت من معنى هاتين اللفظتين وهذا ليس من الباب الذي نحن بصدد ذكره لانه عار عن معنى الفعلية والزيادة في الالفاظ لا توجب زيادة في المعاني الا اذا تضمنت معنى الفعلية لان الاسماء التي لا معنى للفعل فيها اذا زيدت استحال معناها ألا ترى أنا لو نقلنا لفظة عذب وهي ثلاثية الى الرباعي فقلنا عذيب على وزن جعفر لاستحال معناها ولم يكن لها معنى وكذلك لو نقلنا لفظة عسجد وهي رباعية الى الخماسي فقلنا عسجد على وزن جحمرش لاستحال معناها وهذا بخلاف ما فيه معنى الفعلية كقادر ومقتدر فان قادرا اسم فاعل قدر وهو ثلاثي ومقتدرا اسم فاعل اقتدر وهو رباعي فلذلك كان معنى القدرة في اقتدر أشد من معنى القدرة في قدر وهذا لا نزاع فيه وهذا الباب بجملته لا يقصد به الا المبالغة في ايراد المعاني وقد يستعمل في مقام المبالغة فينعكس المعنى فيه الى ضده كما جاء لابي كرام التميمي من شعراء الحماسة وهو قوله

لله تيم أي رمح طراد * لاقى الحمام وأي نصل جلاد
ومحش حرب مقدم متعرض * للموت غير معرد حياد

فلفظة حياد قد وردت ههنا وانما أوردها هذا الشاعر وقصد بها المبالغة في وصف شجاعة هذا الرجل فانعكس عليه المقصد الذي قصده لان حيادا من حيد فهو حياد أي وجد منه الحيدودة مرارا كما يقال قتل فهو قتال أي وجد منه القتل مرارا واذا كان هذا الرجل غير حياد كان حائدا أي وجدت منه الحيدودة مرة واحدة واذا وجدت منه مرة كان ذلك جبنا ولم يكن شجاعة والاولى أن كان

قال نجم كذب جاثم (وينبغي) أن يعلم أنه اذا وردت لفظة من الالفاظ ويجوز حملها على التضعيف الذى هو طريق المبالغة وحملها على غيره أن ينظر فيها فان اقتضى حملها على المبالغة فهو الوجه (فن ذلك) قول البحترى في قصيدته التي مطلعها منى النفس في أسماء لو تستطيعها * وهى قصيدة مدح بها الخليفة المتوكل رحمه الله وذكر فيها حديث الصلح بين بنى تغلب فمما جاء فيها قوله

وقعت بضبعى تغلب ابنة وائل * وقد يئست أن يستقل صريعها
فكنت أمين الله مولى حياتها * ومولاك فتح يوم ذاك شفيعها
تألفهم من بعد ما شردت بهم * حفائظ أخلاق بطىء رجوعها
فأبصر غاويها المحجة فاهتدى * وأقصر غاليها ودانى شسوعها

فقوله تألفهم من بعد ما شردت بهم يجوز أن تخفف لفظة شردت ويجوز أن تثقل والتثقيل هو الوجه لانه فى مقام الاصلاح بين قوم تنازعوا واختلفوا وتباينت قلوبهم وآراؤهم وكل ما يجىء من الالفاظ على هذا النحو فينبغي أن يجرى هذا المجرى (وههنا نكتة لابد من التنبيه عليها) وذلك أن قوة اللفظ لقوة المعنى لا تستقيم الا فى نقل صيغة الى صيغة أكثر منها كنقل الثلاثى الى الرباعى والا فاذا كانت صيغة الرباعى مثلا موضوعة لمعنى فانه لا يراد به ما أريد من نقل الثلاثى الى مثل تلك الصيغة ألا ترى أنه اذا قيل فى الثلاثى قتل ثم نقل الى الرباعى فقيل قتل بتشديد التاء فان الفائدة من هذا النقل هى التكثير أى أن القتل وجد منه كثيرا وهذه الصيغة الرباعية بعينها لو وردت من غير نقل لم تكن دالة على التكثير كقوله تعالى وكلم الله موسى تكليما فان كلم على وزن قتل ولم يرد به التكثير بل أريد به أنه خاطبه سواء كان خطابه اياه طويلا أو قصيرا قليلا أو كثيرا وهذه اللفظة رباعية وليس لها ثلاثى نقلت عنه الى الرباعى لكن قد وردت بعينها ولها ثلاثى ورباعى فكان الرباعى أكثر وأقوى فيما دل عليه من المعنى وذلك أن تكون كلم من الجرح أى جرح ولها ثلاثى وهو كلم مخففا أى جرح فاذا وردت مخففة دلت على الجراحة مرة واحدة واذا وردت مثقلة دلت على التكثير (وكذلك) ورد قوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا فان لفظة رتل على وزن لفظة قتل ومع هذا ليست دالة على كثرة القراءة وانما المراد بها أن تكون القراءة على هيئة التأنى والتدبر وسبب ذلك أن هذه اللفظة لا ثلاثى لها حتى تنقل عنه الى

رباعى

رباعي" وانما هي رباعية موضوعة لهذه الهيئة المخصوصة من القراءة وعلى هذا فلا يستقيم معنى الكثرة والقوة في اللفظ والمعنى الا بالنقل من وزن الى وزن أعلى منه فاعرف ذلك (ومن ههنا) شذ الصواب عمن شذ عنه في عالم وعليم فان جمهور علماء العربية يذهبون الى أن عليما أبلغ في معنى العلم من عالم وقد تأملت ذلك وأنعمت نظري فيه فحصل عندي شك في الذي ذهبوا اليه والذي أوجب ذلك الشك هو أن عالما وعليما على عدة واحدة اذ كل منهما أربعة أحرف وليس بينهما زيادة ينقل فيها الادنى الى الاعلى والذي يوجبه النظر أن يكون الامر على عكس ما ذكروه وذاك أن يكون عالم أبلغ من عليم وسببه أن عالما اسم فاعل من علم وهو متعد وان عليما اسم فاعل من علم الا أنه أشبه وزن الفعل القاصر نحو شرف فهو شريف وكرم فهو كريم وعظم فهو عظيم فهذا الوزن لا يكون الا في الفعل القاصر فلما أشبهه عليم انحط عن رتبة عالم الذي هو متعد ألا ترى أن فعل بفتح الفاء وكسر العين يكون متعديا نحو علم وجهد ويكون قاصرا غير متعد نحو غضب وشبع وأما فعل بفتح الفاء وضم العين فانه لا يكون الا قاصرا غير متعد ولما كان فعل بفتح الفاء وكسر العين مترددا بين المتعدي والقاصر وكان فعل بفتح الفاء وضم العين قاصرا غير متعد صار القاصر أضعف مما يدور بين المتعدي والقاصر وحيث كان الامر كذلك وأشبه وزن المتعدي وزن القاصر حط ذلك من درجته وجعله في الرتبة دون المتعدي الذي ليس بقاصر هذا هو الذي أوجب لي التشكيك فيما ذهب اليه غيري من علماء العربية ولربما كان ما ذهبوا اليه لامر خفي عني ولم أطلع عليه

(النوع الثالث عشر في عكس الظاهر) وهو نفي الشيء باثباته وهو من مستطرفات علم البيان وذاك أنك تذكر كلاما يدل ظاهره أنه نفي لصفة موصوف وهو نفي للموصوف أصلا (فمما جاء منه) قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصف مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنثى فلتاته أي لا تذاع سقطاته فظاهر هذا اللفظ أنه كان ثم فلتات غير أنها لا تذاع وليس المراد ذلك بل المراد أنه لم يكن ثم فلتات فتنثى وهذا من أغرب ما توسعت فيه اللغة العربية وقد ورد في الشعر كقول بعضهم * ولا ترى الضب بها ينجحر * فان ظاهر المعنى من هذا البيت أنه كان هناك ضب ولكنه غير منجحر وليس كذلك بل المعنى أنه لم يكن هناك ضب أصلا وهذا

عكس الظاهر

النوع من الكلام قليل الاستعمال وسبب ذلك أن الفهم يكاد يأباه ولا يقبله الا بقرينة خارجة عن دلالة لفظه على معناه وما كان عاريا عن قرينة فانه لا يفهم منه ما أراد قائله وسأوضح ذلك فأقول أما قولنا عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنثى فلتاته فان مفهوم هذا اللفظ انه كان هناك فلتات الا انها تطوى ولا تنشر وتكتم ولا تذاع ولا يفهم منه أنه لم يكن هناك فلتات الا بقرينة خارجة عن اللفظ وهي أنه قد ثبت في النفوس وتقرر عند العقول أن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم منزه عن فلتات تكون به وهو أكرم من ذلك وأوقر فلما قيل انه لا تنثى فلتاته فهمنا منه أنه لم يكن هناك فلتات أصلا وأما قول القائل * ولا ترى الضب بها ينجحر * فانه لا قرينة تخصصه حتى يفهم منه ما فهم من الاول بل المفهوم أنه كان هناك ضب ولكنه غير منجحر ولقد مكثت زمانا أطوف على أقوال الشعراء قصد الظفر بأمثلة من الشعر جارية هذا المجرى فلم أجد الا بيتا لامرئ القيس وهو

على لاحب لا يهتدى لمناره * اذا ساقه العود النباطي جرجرا

فقوله لا يهتدى لمناره أى أن له منارا الا أنه لا يهتدى به وليس المراد ذلك بل المراد أنه لا منار له يهتدى به ولي أنا في هذا بيت من الشعر وهو

أدنين جلباب الحياء فلن يرى * لذيولهن على الطريق غبار

وظاهر هذا الكلام أن هؤلاء النساء يمشين هونا لحيائهن فلا يظهر لذيولهن غبار على الطريق وليس المراد ذلك بل المراد أنهن لا يمشين على الطريق أصلا أى أنهن مخبآت لا يخرجن من بيوتهن فلا يكون اذا لذيولهن على الطريق غبار وهذا حسن رائق وهو أظهر بيانا من قوله * ولا ترى الضب بها ينجحر * فمن استعمل هذا النوع من الكلام فليستعمله هكذا والا فليدع على أن الاكثار من استعماله عسر لانه لا يظهر المعنى فيه (النوع الرابع عشر في الاستدراج) وهذا الباب أنا استخرجته من كتاب الله تعالى وهو مخادعات الاقوال التي تقوم مقام مخادعات الافعال والكلام فيه وان تضمن بلاغة فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقط بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت الدقيقة في استدراج الخصم الى الاذعان والتسليم واذا حقق النظر فيه علم أن مدار البلاغة كلها عليه لانه لا انتفاع بايراد الالفاظ المليحة الرائقة ولا

الاستدراج

المعانى اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها
والكلام فى مثل هذا ينبغى أن يكون قصيرا فى خلابه لا قصيرا فى خطابه فاذا لم
يتصرف الكاتب فى استدراج الخصم الى القاء يده والا فليس بكاتب ولا شبيه له
الا صاحب الجدل فكما أن ذاك يتصرف فى المغالطات القياسية فكذلك هذا
يتصرف فى المغالطات الخطابية وقد ذكرت فى هذا النوع ما يتعلم منه سلوك هذه
الطريق (فمن ذلك) قوله تعالى وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه
أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعليه
كذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ان الله لا يهدى من هو مسرف
كذاب ألا ترى ما أحسن مأخذ هذا الكلام وألطفه فانه أخذهم بالاحتجاج
على طريقة التقسيم فقال لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذبا فكذبه يعود
عليه ولا يتعداه أو يكون صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ان تعرضتم له
وفى هذا الكلام من حسن الادب والانصاف ما أذكره لك فأقول انما قال
يصبكم بعض الذى يعدكم وقد علم أنه نبى صادق وأن كل ما يعدهم به لا بد وأن
يصيبهم لا بعضه لانه احتاج فى مقاولة خصوم موسى عليه السلام أن يسلك معهم
طريق الانصاف والملاطفة فى القول ويأتيهم من جهة المناصحة ليكون أدعى الى
سكونهم اليه فجاء بما علم أنه أقرب الى تسليمهم لقوله وأدخل فى تصديقهم اياه
فقال وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم وهو كلام المنصف فى مقابلة غير
المشتط وذلك أنه حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادق فى جميع ما يعد به
لكنه أردف بقوله يصبكم بعض الذى يعدكم ليهضمه بعض حقه فى ظاهر الكلام
فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيا فضلا من أن يتعصب له وتقديم
الكاذب على الصادق من هذا القبيل كأنه برطلهم فى صدر الكلام بما يزعمونه لئلا
ينفروا منه وكذلك قوله فى آخر الآية ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب أى
هو على الهدى ولو كان مسرفا كذابا لما هداه الله للنبوة ولا عضده بالبينات وفى
هذا الكلام من خداع الخصم واستدراجه ما لا خفاء به وقد تضمن من اللطائف
الدقيقة ما اذا تأملته حق التأمل أعطيته حقه من الوصف (ومما يجرى على هذا
الاسلوب) قوله تعالى واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا اذ قال لابيه
يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيأ يا أبت انى قد جاءنى من

العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان
كان للرحمن عصيا يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون
للشيطان وليا هذا كلام يهز أعطاف السامعين وفيه من الفوائد ما أذكره
وهو أنه لما أراد ابراهيم عليه السلام أن ينصح أباه ويعظه وينقذه مما كان متورطا
فيه من الخطا العظيم الذى عصى به أمر العقل رتب الكلام معه فى أحسن
نظام مع استعمال المجاملة واللطف والادب الجميد والخلق الحسن مستنصحا فى
ذلك بنصيحة ربه وذلك أنه طلب منه أولا العلة فى خطيئته طلب منبه على تماديه
موقظ من غفلته لان المعبود لو كان حيا مميزا سميعا بصيرا مقتدرا على الثواب
والعقاب الا أنه بعض الخلق يستخف عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية
ولو كان أشرف الخلائق كالملائكة والنبيين فكيف بمن جعل المعبود جمادا
لا يسمع ولا يبصر يعنى به الصنم ثم ثنى ذلك بدعوته الى الحق مترفقا به فلم يسم أباه
بالجهل المطلق ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال ان معى لطائفة من العلم
وشيأ منه وذلك علم الدلالة على سلوك الطريق فلا تستنكف وهب أنى واياك
فى مسير وعندى معرفة بهداية الطريق دونك فاتبعنى أنجك من أن تضل ثم ثلث
ذلك بتثبيطه عما كان عليه ونهيه فقال ان الشيطان الذى استعصى على ربك
وهو عدوك وعدو أبيك آدم هو الذى ورطك فى هذه الورطة وألقاك فى هذه
الضلالة وانما ألغى ابراهيم عليه السلام ذكر معاداة الشيطان آدم وذريته فى
نصيحة أبيه لانه لامعانه فى الاخلاص لم يذكر من جنايتى الشيطان الا التى
تختص بالله وهى عصيانه واستكباره ولم يلتفت الى ذكر معاداته آدم وذريته ثم
ربع ذلك بتخويفه اياه سوء العاقبة فلم يصرح بأن العقاب لاحق به ولكنه قال
انى أخاف أن يمسك عذاب فنكر العذاب ملاطفة لابيه وصدر كل نصيحة من هذه
النصائح بقوله يا أبت توسلا اليه واستعطافا وهذا بخلاف ما أجابه به أبوه فانه قال
أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم فأقبل عليه بفظاظة الكفر وغلظ العناد فناداه
باسمه ولم يقابل قوله يا أبت بقوله يا بنى وقدم الخبر على المبتدا فى قوله أراغب أنت
لانه كان أهم عنده وفيه ضرب من التعجب والانكار لرغبة ابراهيم عن آلهته وفى
القرآن الكريم مواضع كثيرة من هذا الجنس لا سيما فى مخاطبات الانبياء صلوات
الله عليهم للكفار والرد عليهم وفى هذين المثالين المذكورين ههنا كفاية ومقنع

جواب معاوية للحسين حين فاوضه في أمر يزيد

(وبلغني حديث) تفاوض فيه الحسين بن علي رضي الله عنهما ومعاوية بن أبي سفيان في أمر ولده يزيد وذلك أن معاوية قال للحسين أما أمك فاطمة فانها خير من أمه وبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من امرأة من كلب وأما حبي يزيد فاني لو أعطيت به مثلك ملء الغوطة لما رضيت وأما أبوك وأبوه فانهما تحاكما الى الله فحكم لابيه على أبيك وهذا كلام من معاوية كلما أمررته بفكري عجبت من سداده فضلا عن بلاغته وفصاحته فان معاوية علم مالعلي رضي الله عنه من السبق الى الاسلام والاثر فيه وما عنده من فضيلة العلم فلم يعترض في المنافرة الى شيء من ذلك ولم يقل أيضا ان الله أعطاني الدنيا ونزعها منكم لان هذا الافضل فيه اذ الدنيا ينالها البر والفاجر وانما صانع عن ذلك كله بقوله ان أباك وأباه تحاكما الى الله فحكم لابيه على أبيك وهذا قول ايهامي يوهم شبهة من الحق واذا شاء من شاء أن ينافر خصمه ويستدرجه الى الصمت عن الجواب فليقل هكذا

الايجاز

(النوع الخامس عشر في الايجاز) وهو حذف زيادات الالفاظ وهذا نوع من الكلام شريف لا يتعلق به الا فرسان البلاغة من سبق الى غايتها وما صلى وضرب في أعلى درجاتها بالقدح المعلى وذلك لعلو مكانه وتعذر امكانه والنظر فيه انما هو الى المعاني لا الى الالفاظ ولست أعني بذلك أن تهمل الالفاظ بحيث تعرى عن أوصافها الحسنة بل أعني أن مدار النظر في هذا النوع انما يختص بالمعاني فرب لفظ قليل يدل على معنى كثير ورب لفظ كثير يدل على معنى قليل ومثال هذا كالجوهرة الواحدة بالنسبة الى الدراهم الكثيرة فمن ينظر الى طول الالفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها ومن ينظر الى شرف المعاني يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها ولهذا سمى النبي صلى الله عليه وسلم الفاتحة أم الكتاب واذا نظرنا الى مجموعها وجدناه يسيرا وليست من الكثرة الى غاية تكون بها أم البقرة وآل عمران وغيرهما من السور الطوال فعلمنا حينئذ أن ذلك لامر يرجع الى معانيها (والكلام في هذا الموضع) يخرج بنا الى غير ما نحن بصدده لانه يحتاج فيه الى ذكر المراد بالقرآن الكريم وما يشتمل عليه سوره وآياته الى حصر أقسام معانيه لكنا نشير في ذلك اشارة خفيفة (فنقول) المراد بالقرآن هو دعوة العباد الى الله تعالى ولذلك انحصرت سوره وآياته في ستة أقسام ثلاثة منها هي الاصول وثلاثة هي الفروع (أما الاصول) فالاول منها تعريف المدعو اليه وهو الله تعالى ويشتمل هذا الاصل

على ذكر ذاته وصفاته وأفعاله والاصل الثانى تعريف الصراط المستقيم الذى يجب ملازمته فى السلوك الى الله تعالى ويشتمل هذا الاصل على التبتل بعبادة الله بأفعال القلب وأفعال الجوارح والاصل الثالث تعريف الحال بعد الوصول الى الله تعالى أعنى بعد الموت ويشتمل هذا الاصل على تفصيل أحوال الدار الآخرة من الجنة والنار والصراط والميزان والحساب وأشباه ذلك فهذه الاصول الثلاثة (وأما الفروع) فالاول منها تعريف أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله بهم من النصرة والادالة وتعريف أحوال المخالفين للدعوة والمحادّين لها وكيفية صنع الله فى التدمير عليهم والتنكيل بهم والفرع الثانى ذكر مجادلة الخصوم ومحاجتهم وحملهم بالمجادلة والمحاجة على طريق الحق وهؤلاء هم اليهود والنصارى ومن يجرى مجراهم من أرباب الشرائع والفلاسفة والملحدة من غير أرباب الشرائع والفرع الثالث تعريف عمارة منازل الطريق وكيفية أخذ الزاد والاهبة للاستعداد وذلك قياس الشريعة وتبيين الحكمة فى أوامرها التى تتعلق بأفعال أهل التكليف فهذه الاقسام الستة المشار اليها هى التى يدور معانى القرآن عليها ولا يتعداها وههنا تقسيم آخر يطول الخطب فيه ولا حاجة الى ذكره واذا نظرنا الى سورة الفاتحة وتأملنا ما فيها من المعانى وجدناها مشتملة على أربعة أقسام من الستة المذكورة ولذلك سماها النبى صلى الله عليه وسلم أم الكتاب كما أنه قال ان سورة الاخلاص تعدل ثلث القرآن واذا نظرنا فى الاقسام الستة وجدنا سورة الاخلاص بمنزلة ثلث القرآن وكذلك قال صلى الله عليه وسلم آية الكرسى سيدة آى القرآن ويروى أنه سأل أبىّ ابن كعب رضى الله عنه فقال أى آية معك فى كتاب الله أعظم فقال الله لا اله الا هو الحى القيوم فضرب فى صدره وقال ليهنك العلم أبا المنذر وكل هذا يرجع الى المعانى لا الى الالفاظ فاعرف ذلك وبينه لرموزه وأسراره (واعلم) أن جماعة من مدعى علم البيان ذهبوا الى أن الكلام ينقسم قسمين فمنه ما يحسن فيه الايجاز كالاشعار والمكاتبات ومنه ما يحسن فيه التطويل كالخطب والتقليدات وكتب الفتوح التى تقرأ فى ملا من عوام الناس فان الكلام اذا طال فى مثل ذلك أثر عندهم وأفهمهم ولو اقتصر فيه على الايجاز والاشارة لم يقع لاكثرهم حتى يقال فى ذكر الحرب التقى الجمعان وتطاعن الفريقان واشتد القتال وحمى النصال

وماجرى هذا المجرى والمذهب عندى فى ذلك ما أذكره وهو أن فهم العامة ليس شرطا معتبرا فى اختيار الكلام لانه لو كان شرطا لوجب على قياسه أن يستعمل فى الكلام الالفاظ العامية المبتذلة عندهم ليكون ذلك أقرب الى فهمهم لان العلة فى اختيار تطويل الكلام اذا كانت فهم العامة اياه فكذلك تجعل تلك العلة بعينها فى اختيار المبتذل من الكلام فانه لا خلاف فى أن العامة الى فهمه أقرب من فهم ما يقل ابتذالهم اياه وهذا شئ مدفوع وأما الذى يجب توخيه واعتماده فهو أن يسلك المذهب القويم فى تركيب الالفاظ على المعانى بحيث لا تزيد هذه على هذه مع الايضاح والابانة وليس على مستعمل ذلك أن يفهم العامة كلامه فان نور الشمس اذا لم يره الاعمى لا يكون ذلك نقصا فى استنارته وانما النقص فى بصر الاعمى حيث لم يستطع النظر اليه

على نحت القوافى من معادنها * وما على بأن لا تفهم البقر

(وحيث انتهى بنا القول الى هذا الموضع) فلنرجع الى ما هو غرضنا ومهمنا من الكلام على الايجاز وحده وأقسامه ونوضح ذلك ايضاحا جليا والله الموفق للصواب فنقول حد الايجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه والتطويل هو ضد ذلك وهو أن يدل على المعنى بلفظ يكفيك بعضه فى الدلالة عليه كقول المجير السلولى من أبيات الحماسة

طلوع الثنايا بالمطايا وسابق * الى غاية من يبتدرها يقدم

فصدر هذا البيت فيه تطويل لا حاجة اليه وعجزه من محاسن الكلام المتواصفة وموضع التطويل من صدره أنه قال طلوع الثنايا بالمطايا فان لفظة المطايا فضلة لا حاجة اليها وبيان ذلك أنه لا يخلو الامر فيها من وجهين اما أن يريد انه سابق الهمة الى معالى الامور كما قال الحجاج على المنبر عند وصوله العراق أنا ابن جلا وطلاع الثنايا * أى أنا الرجل المشهور السابق الى معالى الامور فان أراد المجير بقوله طلوع الثنايا ما أشرت اليه فذكر المطايا يفسد ذلك المعنى لان معالى الامور لا يرقى اليها بالمطايا وان أراد الوجه الآخر وهو أنه كثير الاسفار فاختصاصه الثنايا بالذكر دون الارض من المفاوز وغيرها لا فائدة فيه وعلى كلا الوجهين فان ذكر المطايا فضلة لا حاجة اليه وهو تطويل بارد غث فقس على هذا المثال ما يجرى مجراه من التطويلات التى اذا أسقطت من الكلام بقى على حاله لم

بتغيير شيء وكذلك يجري الامر في ألفاظ يوصل بها الكلام فتارة تجيء لفائدة وذلك قليل وتارة تجيء لغير فائدة وذلك كثير وأكثر ما ترد في الاشعار ليوزن بها الابيات الشعرية وذلك نحو قولهم لعمري ولعمرك ونحو أصبح وأمسى وظل وأضحى وبات وأشباه ذلك ونحو يا صاحبي ويا خليلي وما يجري هذا المجرى (فمما جاء منه) قول أبي تمام أقرّ والعمري لحكم السيوف * وكانت أحق بفصل القضاء فان قوله لعمري زيادة لا حاجة للمعنى اليها وهي حشو في هذا البيت لا فائدة فيه الا اصلاح الوزن لا غير ألا ترى أنها من باب القسم وانما يرد القسم في موضع يؤكد به المعنى المراد اما لانه مما يشك فيه أو مما يعز وجوده أو ما يجري هذا المجرى وهذا البيت الشعري لا يفتقر معناه الى توكيد قسمي اذ لا شك في أن السيوف حاكمة وأن كل أحد يقر لحكمها ويذعن لطاعتها وكذلك قوله أيضا

اذا أنا لم ألم عثرات دهر * بليت به الغداة فمن ألوم

فقوله الغداة زيادة لا حاجة للمعنى اليها لانه يتم بدونها لان عثرات الدهر لم تنله الغداة ولا العشي وانما نالته ونيلها اياه لا بد وأن يقع في زمن من الازمنة كائنا ما كان ولا حاجة الى تعيينه بالذكر (وعلى هذا) ورد قول البحتري

ما أحسن الايام الا أنها * يا صاحبي اذا مضت لم ترجع

فقوله يا صاحبي زيادة لا حاجة بالمعنى اليها الا انها وردت لتصحيح الوزن لا غير وهذه الالفاظ التي ترد في الابيات الشعرية لتصحيح الوزن لا عيب فيها الا انا لو عبناها على الشعراء لتحجرنا عليهم وضيقنا والوزن يضطر في بعض الاحوال الى مثل ذلك لكن اذا وردت في الكلام المنثور فانها ان وردت حشوا ولم ترد لفائدة كانت عيبا وقد ترد في الابيات الشعرية ويكون ورودها لفائدة وذلك هو الاحسن كقول البحتري

قوم أهانوا الوفر حتى أصبحوا * أولى الانام بكل عرض وافر

فقوله أصبحوا بمعنى صاروا أي أنهم صاروا أولى الناس بالاعراض الوافرة وهذه اللفظة لم ترد في هذا البيت حشوا كما وردت في بيتي أبي تمام المقدم ذكرهما (وسأزيد هذا الموضع بيانا) بمثال أضرب به للتطويل حتى يستدل به على أمثاله وأشباهه والمثال الذي أضرب به هو حكاية أوردت بحضرمني وذلك أنه جلس الي في بعض الايام جماعة من الاخوان وأخذوا في مفاوضة الاحاديث وانساق ذلك الى ذكر

حكاية وقعت بحضرة المؤلف حكاها لنا هنا للتطويل

غرائب الوقائع التى تقع فى العالم فذكر كل من الجماعة شيأ فقال شخص منهم انى كنت بالجزيرة العمرية فى زمن الملك فلان وكنت اذ ذاك صبيا صغيرا فاجتمعت أنا ونفر من الصبيان فى الحارة الفلانية وصعدنا الى سطح طاحون لبنى فلان وأخذنا نلعب على السطح فوقع صبى منا الى أرض الطاحون فوطئه بغل من بغال الطاحون فخفنا أن يكون أذاه فأسرعنا النزول اليه فوجدناه قد وطئه البغل فختنه ختانة صحيحة حسنة لا يستطيع الصانع الحاذق أن يفعل خيرا منها فقال له شخص من الحاضرين والله ان هذا معنى فاحش وتطويل كثير لا حاجة اليه فانك بصدد أن تذكر أنك كنت صبيا تلعب مع الصبيان على سطح طاحون فوقع صبى منكم الى أرض الطاحون فوطئه بغل من بغال الطاحون فختنه ولم يؤذه ولا فرق بين أن تكون هذه الواقعة فى بلد نعرفه أو فى بلد لا نعرفه ولو كانت بأقصى المشرق أو بأقصى المغرب لم يكن ذلك قدحا فى غرابتها واما أن تذكر أنها كانت بالجزيرة العمرية فى الحارة الفلانية فى طاحون بنى فلان وكان زمن الملك فلان فان مثل هذا كله تطويل لا حاجة اليه والمعنى المقصود يفهم بدونه (فاعلم) أيها الناظر فى كتابى هذا أن التطويل هو زيادات الالفاظ فى الدلالة على المعانى ومهما أمكنك حذف شئ من اللفظ فى الدلالة على معنى من المعانى فان ذلك اللفظ هو التطويل بعينه (وأما الايجاز) فقد عرفتك أنه دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه (وهو ينقسم قسمين أحدهما) الايجاز بالحذف وهو ما يحذف منه المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام على المحذوف ولا يكون الا فيما زاد معناه على لفظه (والقسم الآخر) ما لا يحذف منه شئ وهو ضربان أحدهما ما ساوى لفظه معناه ويسمى التقدير والآخر ما زاد معناه على لفظه ويسمى القصر (واعلم أن القسم الاول) الذى هو الايجاز بالحذف يتنبه له من غير كبير كلفة فى استخراجه لمكان المحذوف منه (وأما القسم الثانى) فان التنبه له عسر لانه يحتاج الى فضل تأمل وطول فكرة لخفاء ما يستدل عليه ولا يستنبط ذلك الا من رست قدمه فى ممارسة علم البيان وصار له خليقة وملكة ولم أجد أحدا أعلم هذين القسمين بعلامة ولا قيدهما بقيد وقد أشرت الى ذلك فيما يأتى من هذا الباب عند تفصيل أمثلتهما فليؤخذ من هنالك (فان قيل) ان هذا التقسيم الذى قسمته فى المحذوف وغير المحذوف ليس بصحيح لان المعانى ليست أجساما كالالفاظ حتى يصح التقدير بينهما ثم لو سلمت

جواز التقدير في المساواة لم أسلم جواز الزيادة فليس لقائل أن يقول هذا المعنى زائد على هذا اللفظ لانه ان قال ذلك قيل فمن أين فهمت تلك الزيادة الخارجة عن اللفظ وقد علم أن الالفاظ انما وضعت للدلالة على افهام المعاني فان قال انها فهمت من شيء خارج عن اللفظ قيل له فتلك الزيادة بازاء ذلك الشيء الخارج عن اللفظ والباقي مساو للفظ وان قال انها فهمت من اللفظ قيل فكيف تفهم منه وهي زائدة عليه فان قال انها فهمت من تركيبه لان التركيب أمر زائد على اللفظ قيل الالفاظ تدل بانفرادها على معنى وبتركيبها على معنى آخر واللفظ المركب يدل على معنى مركب واللفظ المفرد يدل على معنى مفرد وتلك الزيادة ان أريد بها زيادة معنى المركب على المركب فلا يخلو اما أن تكون تلك الزيادة مفهومة من دلالة اللفظ المركب عليها أو من دلالة شيء خارج فان كانت مفهومة من دلالته عليها لم تكن زائدة عليه اذ لو كانت زائدة عليه لما دل عليها وان كانت مفهومة من دلالة الشيء الخارج عنه فهي بازاء ذلك الشيء الخارج والباقي مساو للباقي (فالجواب عن ذلك) أن نقول هذا الذي ذكره كلام شبيه بالسفسطة وهو باطل من وجهين أحدهما أن المعاني اذا كانت لا تزيد على الالفاظ فيلزم من ذلك أن الالفاظ لا تزيد أيضا على المعاني لانهما متلازمان على قياسك ونحن نرى معنى قد دل عليه بألفاظ فاذا أسقط من تلك الالفاظ شيء لا ينقص ذلك المعنى بل يبقى على حاله والوجه الآخر أن الايجاز بالحذف أقوى دليلا على زيادة المعاني على الالفاظ لانا نرى اللفظ يدل على معنى لم يتضمنه وفهم ذلك المعنى ضرورة لا بد منه فعلمنا حينئذ أن ذلك المعنى الزائد على اللفظ مفهوم من دلالته عليه (فان قيل) ان المعنى الزائد على اللفظ المحذوف لا بد له من تقدير لفظ آخر يدل عليه وتلك الزيادة بازاء ذلك اللفظ المقدر (قلت في الجواب عن ذلك) هذا لا ينقض ما ذهبت اليه من زيادة المعنى على اللفظ لان المعنى الزائد ظاهر واللفظ الدال عليه مضمر واذا كان مضمرا فلا ينطق به واذا لم ينطق به فكأنه لم يكن وحينئذ يبقى المعنى موجودا واللفظ الدال عليه غير موجود وكذلك كل ما يعلم من المعاني بمفهوم الخطاب ألا ترى أنك اذا قلت لمن دخل عليك أهلا وسهلا علم أن الاهل والسهل منصوبان بعامل محذوف تقديره وجدت أهلا ولقيت سهلا الا أن لفظتي وجدت ولقيت محذوفتان والمعنى الذي دلا عليه باق

فصار المعنى حينئذ مفهوما مع حذفهما فهو اذا زائد لا محالة وكذلك جميع المحذوفات على اختلافها وتشعب مقاصدها وهذا لا نزاع فيه لبيانه ووضوحه (وقد سنح لى فى زيادة المعنى على اللفظ فى غير المحذوفات دليل أنا ذاكره) وهو انا نجد من الكلام ما يدل على معنيين وثلاثة واللفظ واحد والمعانى التى تحته متعددة فأما الذى يدل على معنيين فالكنايات جميعها كالذى ورد فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضى الله عنهم أنهم كانوا اذا خرجوا من عنده لا يتفرقون الا عن ذواق وهذا يدل على معنيين أحدهما اطعام الطعام أى أنهم لا يخرجون من عنده حتى يطعموا الآخر أنهم لا يتفرقون الا عن استفادة علم وأدب يقوم لانفسهم مقام الطعام لاجسامهم وأما الذى يدل على ثلاثة معان فكقول أبى الطيب المتنبى

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا * لمن بات فى نعمائه يتقلب

فهذا يدل على ثلاثة معان الاول أنه يحسد من أنعم عليه الثانى ضد الاول الثالث أنه يحسد كل رب نعمة كائنا من كان أى يحسد من بات فى نعماء نفسه يتقلب وهذا وأمثاله من أدل الدليل على زيادة المعنى على اللفظ وهو شئ استخرجته ولم يكن لاحد فيه قول سابق (وحيث فرغنا من الكلام) على هذا الموضع فلنتبعه بذكر أقسام الايجاز المشار اليها أولا وما ينصرف اليه (فنقول) أما الايجاز بالحذف فانه عجيب الامر شبيه بالسحر وذاك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الافادة أزيد للافادة وتجدك أنطق ما تكون اذا لم تنطق وأتم ما تكون مبينا اذا لم تبين وهذه جملة تنكرها حتى تخبر وتدفعها حتى تنظر والاصل فى المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون فى الكلام ما يدل على المحذوف فان لم يكن هناك دليل على المحذوف فانه لغو من الحديث لا يجوز بوجه ولا سبب ومن شرط المحذوف فى حكم البلاغة أنه متى أظهر صار الكلام الى شئ غث لا يناسب ما كان عليه أولا من الطلاوة والحسن وقد يظهر المحذوف بالاعراب كقولنا أهلا وسهلا فان نصب الاهل والسهل يدل على ناصب محذوف وليس لهذا من الحسن ما للذى لا يظهر بالاعراب وانما يظهر بالنظر الى تمام المعنى كقولنا فلان يحل ويعقد فان ذلك لا يظهر المحذوف فيه بالاعراب وانما يظهر بالنظر الى تمام المعنى أى أنه

يحصل الامور ويمهدها والذي يظهر بالاعراب يقع في المفردات من المحذوفات كثيرا والذي لا يظهر بالاعراب يقع في الجمل من المحذوفات كثيرا (وسأذكر في كتابي هذا ما وصل الي علمه وهو ينقسم قسمين) أحدهما حذف الجمل والآخر حذف المفردات وقد يرد كلام في بعض المواضع ويكون مشتملا على القسمين معا (فأما القسم الاول) وهو الذي تحذف منه الجمل فانه ينقسم الى قسمين أيضا (أحدهما) حذف الجمل المفيدة التي تستقل بنفسها كلاما وهذا أحسن المحذوفات جميعها وأدلها على الاختصار ولا تكاد تجده الا في كتاب الله تعالى (والقسم الآخر) حذف الجمل غير المفيدة وقد ورد ههنا مختلطين (وجملتهما أربعة أضرب الضرب الاول) حذف السؤال المقدر ويسمى الاستئناف (ويأتي على وجهين الوجه الاول) اعادة الاسماء والصفات وهذا يجيء تارة باعادة اسم من تقدم الحديث عنه كقولك أحسنت الى زيد زيد حقيق بالاحسان وتارة يجيء باعادة صفته كقولك أحسنت الى زيد صديقك القديم أهل لذلك منك وهو أحسن من الاول وأبلغ لانطوائه على بيان الموجب للاحسان وتخصيصه (فما ورد من ذلك) قوله تعالى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون والاستئناف واقع في هذا الكلام على أولئك لانه لما قال الم ذلك الكتاب الى قوله وبالآخرة هم يوقنون اتجه لسائل أن يقول ما بال المستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى فأجيب بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا وبالفلاح آجلا (الوجه الثاني) الاستئناف بغير اعادة الاسماء والصفات وذلك كقوله تعالى ومالي لا أعبد الذي فطرني واليه ترجعون أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيأ ولا ينقذون اني اذا لفي ضلال مبين اني آمنت بربكم فاسمعون قيل ادخل الجنة قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين فخروج هذا القول مخرج الاستئناف لان ذلك من مظان المسئلة عن حاله عند لقاء ربه وكأن قائلا قال كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربه بعد ذلك التصلب في دينه والتسخي لوجهه بروحه فقيل قيل ادخل الجنة ولم يقل قيل له لانصباب الغرض الى المقول لا الى المقول له

مع كونه معلوما وكذلك قوله تعالى يا ليت قومى يعلمون مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد ومن هذا النحو قوله عز وجل "يا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا انى معكم رقيب والفرق بين اثبات الفاء فى سوف كقوله تعالى قل يا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل "عليه عذاب مقيم وبين حذف الفاء ههنا فى هذه الآية أن اثباتها وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل وحذفها وصل خفى "تقديرى "بالاستئناف الذى هو جواب السؤال مقدر كانهم قالوا فماذا يكون اذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت فقال سوف تعلمون فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن فى البلاغة وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف وهو قسم من أقسام علم البيان تتكاثر محاسنه فاعرفه ان شاء الله تعالى (الضرب الثانى) الاكتفاء بالسبب عن المسبب وبالمسبب عن السبب (فأما الاكتفاء بالسبب عن المسبب) فكقوله تعالى وما كنت بجانب الغربى "اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر كانه قال وما كنت شاهدا لموسى وما جرى له وعليه ولكنا أوحيناه اليك فذكر سبب الوحى الذى هو اطالة الفترة ودل "به على المسبب الذى هو الوحى على عادة اختصارات القرآن لان تقدير الكلام ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحى الى موسى الى عهدك قرونا كثيرة فتطاول على آخرهم وهو القرن الذى أنت فيهم العمر أى أمد انقطاع الوحى فاندرست العلوم فوجب ارسالك اليهم فأرسلناك وعرفناك العلم بقصص الانبياء وقصة موسى فالمحذوف اذا جملة مفيدة وهى جملة طويلة دل السبب فيها على المسبب وكذلك ورد قوله تعالى عقيب هذه الآية أيضا وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون فان فى هذا الكلام محذوفا ولا بد منه لانه قال وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك وهذا لا بد له من محذوف حتى يستقيم نظم الكلام وتقديره ولكن عرفناك ذلك وأوحيناه اليك رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك فذكر الرحمة التى هى سبب ارساله الى الناس ودل "بها على المسبب الذى هو الارسال وأما حذف الجملة غير المفيدة من هذا الضرب فنحو قوله تعالى حكاية عن مريم عليها السلام قالت أنى يكون لى

[illegible] بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا · فقوله ولنجعله آية للناس تعليل معلله محذوف أى وانما فعلنا ذلك لنجعله آية للناس فذكر السبب الذى صدر الفعل من أجله وهو جعله آية للناس ودل به على المسبب الذى هو الفعل (ومما ورد من ذلك) فى الاخبار النبوية قصة الزبير بن العوام رضى الله عنه والرجل الانصارى الذى خاصمه فى شراج الحرة التى يسقى منها النخل فلما حضرا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للزبير اسق ثم أرسل الماء الى جارك فغضب الانصارى وقال يارسول الله أن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع الى الجدر وفى هذا الكلام محذوف تقديره أن كان ابن عمتك حكمت له أو قضيت له أو ماجرى هذا المجرى فذكر السبب الذى هو كونه ابن عمته ودل به على المسبب الذى هو الحكم أو القضاء لدلالة الكلام عليه (وأما الاكتفاء بالمسبب عن السبب) فكقوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم أى اذا أردت قراءة القرآن فاكتفى بالمسبب الذى هو القراءة عن السبب الذى هو الارادة والدليل على ذلك أن الاستعاذة قبل القراءة والذى دل عليه أنها بعد القراءة كقول القائل اذا ضربت زيدا فاجلس فان الجلوس انما يكون بعد الضرب لا قبله وهذا أولى من تأول من ذهب الى أنه أراد فاذا تعوذت فاقرأ فان ذلك قلب لا ضرورة تدعو اليه وأيضا فليس كل مستعيذ واجبة عليه القراءة (وعلى هذا ورد) قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم والوضوء انما يكون قبل الصلاة لا عند القيام اليها لأن القيام اليها هو مباشرة لافعالها من الركوع والسجود والقراءة وغير ذلك وهذا انما يكون بعد الوضوء وتأويل الآية اذا أردت القيام الى الصلاة فاغسل فاكتفى بالمسبب عن السبب (وكذلك ورد) قول النبى صلى الله عليه وسلم اذا قام أحدكم الى الصلاة فليتوضأ أى اذا أراد القيام الى الصلاة وانما يعبر عن ارادة الفعل بلفظ الفعل لان الفعل مسبب عن الارادة وهو مع القصد اليه موجود فكان منه بسبب وملابسة ظاهرة (ومن ذلك قوله تعالى) فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا أى فضرب فانفجرت منه فاكتفى بالمسبب الذى هو الانفجار عن السبب الذى هو الضرب (الضرب الثالث) وهو الاضمار على شريطة التفسير

ذكر مخاصمة الزبير مع الانصارى فى سقى النخل

وهو

وهو أن يحذف من صدر الكلام ما يؤتى به فى آخره فيكون الآخر دليلا على الاول (وهو ينقسم الى ثلاثة أوجه الاول) أن يأتى على طريق الاستفهام فتذكر الجملة الاولى دون الثانية كقوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين تقدير الآية أفمن شرح الله صدره للاسلام كمن أقسى قلبه ويدل على المحذوف قوله فويل للقاسية قلوبهم (الوجه الثانى) يرد على حد النفى والاثبات كقوله تعالى لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا تقديره لا يستوى منكم أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل ويدل على المحذوف قوله أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا (الوجه الثالث) أن يرد على غير هذين الوجهين فلا يكون استفهاما ولا نفيا واثباتا وذلك كقول أبى تمام

يتجنب الآثام ثم يخافها * فكأنما حسناته آثام

وهذا البيت تختلف نسخ ديوانه فى اثباته فمنها ما يجىء فيه

يتجنب الايام خيفة غبها * فكأنما حسناته آثام

وليس بشئ لان المعنى لا يصح به وكنت سئلت عن معناه وقيل كيف ينطبق عجز البيت على صدره واذا تجنب الآثام وخافها فكيف تكون حسناته آثاما فأفكرت فيه وأنعمت نظرى فسنح لى فى القرآن الكريم آية مثله وهى قوله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة وفى صدر البيت اضمار مفسر فى عجزه وتقديره أنه يتجنب الآثام فيكون قد أتى بحسنة ثم يخاف تلك الحسنة فكأنما حسناته آثام وهو على طباق الآية سواء (ومن الاضمار على شريطة التفسير) قول أبى نواس

سنة العشاق واحدة * فاذا أحببت فاستكن

فحذف لفظ الاستكانة من الاول وذكره فى الثانى أى سنة العشاق واحدة وهى الاستكانة فاذا أحببت فاستكن ومن الناس من يقول فاذا أحببت فاستنن وهذا لا معنى له لانه اذا لم يبين سنة العشاق ما هى فبأى شئ يستن المستن منها لكنه ذكر السنة فى صدر البيت من غير بيان ثم بينها فى عجزه (الضرب الرابع) ما ليس بسبب ولا مسبب ولا اضمار على شريطة التفسير ولا استئناف (فأما ما حذف فيه من الجمل المفيدة) فكقوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام قال تزرعون

سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون ثم يأتى من بعد
ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون ثم يأتى من بعد ذلك
عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون وقال الملك ائتونى به قد حذف من هذا
الكلام جملة مفيدة تقديرها فرجع الرسول اليهم فأخبرهم بمقالة يوسف فعجبوا
لها أو فصدقوه عليها وقال الملك ائتونى به والمحذوف اذا كان كذلك دل عليه
الكلام دلالة ظاهرة لانه اذا ثبتت حاشيتا الكلام وحذف وسطه ظهر المحذوف
لدلالة الحاشيتين عليه (وكذلك ورد) قوله تعالى فى هذه السورة أيضا فلما أن جاء
البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم انى أعلم من الله ما لا تعلمون
قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربى انه هو
الغفور الرحيم فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله
آمنين قد حذف أيضا من هذا الكلام جملة مفيدة تقديرها ثم انهم تجهزوا وساروا
الى مصر فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه (وقد ورد هذا الضرب فى القرآن
الكريم كثيرا) كقوله تعالى فى سورة القصص وحرمنا عليه المراضع من قبل
فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه الى أمه
كى تقر عينها فى هذا محذوف وهو جواب الاستفهام لانها لما قالت هل أدلكم
على أهل بيت يكفلونه لكم احتاج الى جواب لينتظم بما بعده من رده الى أمه
والجواب فقالوا نعم فدلتهم على امرأة فجئ بها وهى أمه ولم يعلموا بكانها فأرضعته
وهذه الجملة الثانية أعنى قوله تعالى فرددناه الى أمه تدل على المحذوف لان
رده الى أمه لم يكن الا بعد ردها الجواب على أخته ودلالتها اياهم على امرأة ترضعه
ويكفى هذا الموضع وحده لمن يتبصر فى مواقع المحذوفات وكيفيتها (ومما يجرى
على هذا المنهج) قوله تعالى فى قصة سليمان عليه السلام وقصة الهدهد فى ارساله
بالكتاب الى بلقيس قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب بكتابى هذا
فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون قالت يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب
كريم وفى هذا محذوف تقديره فأخذ الكتاب وذهب به فلما ألقاه الى المرأة وقرأته
قالت يا أيها الملأ (ومن حذف الجمل المفيدة) ما يعسر تقدير المحذوف منه بخلاف
ما تقدم ألا ترى أن الآيات المذكورة كلها اذا تأملها المتأمل وجد معانيها
متصلة من غير تقدير للمحذوفات التى حذفت منها ثم اذا قدرت تلك المحذوفات سهل

تقديرها بديهة النظر والذى أذكره الآن ليس كذلك بل اذا تأمله المتأمل وجده غير متصل المعنى واذا أراد أن يقدر المحذوف عسر عليه (فمما جاء منه) قوله تعالى وما ينظر هؤلاء الاصيحة واحدة مالها من فواق وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الايد انه أواب فهذا الكلام اذا تأمله المتأمل لم يجده متصل المعنى ولم يتبين له مجىء ذكر داود عليه السلام رادفا لقوله تعالى اصبر على ما يقولون واذا أراد أن يقدر ههنا محذوفا يوصل به المعنى عسر عليه (وتقديره يحتمل وجهين أحدهما) أنه قال اصبر على ما يقولون وخوفهم أمر معصية الله وعظمها فى عيونهم بذكر قصة داود الذى كان نبيا من الانبياء وقد آتاه الله ما آتاه من النبوة والملك العظيم ثم لما زل زلة قويل بكذا وكذا فما الظن بكم أنتم مع كفركم (الوجه الآخر) أنه قال اصبر على ما يقولون واحفظ نفسك أن تزل فى شىء مما كلفته من مصابرتهم واحتمال أذاهم واذكر أخاك داود وكرامته على الله كيف زل تلك الزلة فلقى من توبيخ الله مالقى فهذا الكلام كما تراه يحتاج الى تقدير حتى يتصل بعضه ببعض وهو من أغمض ما يأتى من المحذوفات وبه يتنبه على مواضع أخرى غامضة (وأما ما ورد) من هذا الضرب فى حذف الجمل التى ليست بمفيدة فهو قوله تعالى يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيأ قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا هذا الكلام قد حذف منه جملة دل عليها صدره وهو البشرى بالغلام وتقديرها ولما جاء الغلام ونشأ وترعرع قلنا له يايحيى خذ الكتاب بقوة فالجملة المحذوفة ليست من الجمل المفيدة (وعلى هذا النهج ورد) قوله تعالى قال لهم هرون من قبل يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى قال ياهرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمرى قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى وقد حذف من هذا الكلام جملة الا أنها غير مفيدة وتقديرها فلما رجع موسى ورآهم على تلك الحال

من عبادة العجل قال لا شيء هرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني (وكذلك) ورد قوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام من سورة النمل قال أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك واني عليه لقوي أمين قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون وفي هذا محذوف تقديره فلما جاء به قال نكروا لها عرشها الا أن تنكيره لم يكن الا بعد أن جيء به اليه وقد أغنى عن المحذوف صدر الكلام وآخره وكان ذلك دليلا عليه (ومما ورد على ذلك شعرا) قول أبي الطيب المتنبي

لا أبغض العيس لكني وقيت بها * قلبي من الهم أو جسمي من السقم

وهذا البيت فيه محذوف تقديره لا أبغض العيس لانه اني اياها في الاسفار ولكني وقيت بها كذا وكذا فالثاني دليل على حذف الاول وهذا موضع يحتاج في استخراجه واستخراج أمثاله الى فكرة وتدقيق نظر (ومما يتصل بهذا الضرب) حذف ما يجيء بعد أفعل كقولنا الله أكبر فان هذا يحتاج الى تمام أي أكبر من كل كبير أو أكبر من كل شيء يتوهم كبيرا أو ما جرى هذا المجرى ومثله يرد قولهم زيد أحسن وجها وأكرم خلقا تقديره أحسن وجها من غيره وأكرم خلقا من غيره أو ما يسد هذا المسد من الكلام وعليه ورد قول البحتري

الله أعطاك المحبة في الورى * وحباك بالفضل الذي لا ينكر
ولأنت أملأ في العيون لديهم * وأجل قدرا في الصدور وأكبر

أي أنت أملأ في العيون من غيرك (وأما القسم الثاني) المشتمل على حذف المفردات فانه يتصرف على أربعة عشر ضربا (الاول) حذف الفاعل والاكتفاء في الدلالة عليه بذكر الفعل كقول العرب أرسلت وهم يريدون جاء المطر ولا يذكرون السماء ومنه قول حاتم

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى * اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

يريد النفس ولم يجر لها ذكر (وعلى هذا ورد) قوله تعالى كلا اذا بلغت التراقي وقيل من راق والضمير في بلغت للنفس ولم يجر لها ذكر وقد نص عثمان

ابن جنى رحمه الله تعالى على عدم الجواز فى حذف الفاعل وهذه الآية وهذا البيت الشعرى" وهذه الكلمة الواردة عن العرب على خلاف ماذهب اليه الا أن حذف الفاعل لايجوز على الاطلاق بل يجوز فيما هذا سبيله وذلك أنه لايكون الافيما دل الكلام عليه ألا ترى أن التى تبلغ التراقى انما هى النفس وذلك عند الموت فعلم حينئذ أن النفس هى المرادة وان كان الكلام خاليا عن ذكرها وكذلك قول حاتم حشرجت فان الحشرجة انما تكون عند الموت (وأما قول العرب) أرسلت وهم يريدون أرسلت السماء فان هذا يقولونه نظرا الى الحال وقد شاع فيما بينهم أن هذه كلمة تقال عند مجىء المطر ولم ترد فى شىء من أشعارهم ولا فى كلامهم المنثور وانما يقولها بعضهم لبعض اذا جاء المطر فالفرق بينها وبين حشرجت وبين بلغت التراقى ظاهر وذلك أن حشرجت وبلغت التراقى يفهم منها أن النفس التى حشرجت وأنها هى التى بلغت التراقى وأما أرسلت فلولا شاهد الحال والا لم يجز أن تكون دالة على مجىء المطر ولو قيل فى معرض الاستسقاء انا خرجنا نسأل الله فلم نزل حتى أرسلت لفهم من ذلك أن التى أرسلت هى السماء ولا بد فى الكلام من دليل على المحذوف والا كان لغوا لايلتفت اليه (الضرب الثانى) حذف الفعل وجوابه (اعلم أن حذف الفعل ينقسم قسمين أحدهما) يظهر بدلالة المفعول عليه كقولهم فى المثل أهلك والليل فنصب أهلك والليل يدل على محذوف ناصب تقديره الحق أهلك وبادر الليل وهذا مثل يضرب فى التحذير (وعليه ورد) قوله تعالى فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ومما ورد منه فى الاخبار النبوية أن جابرا تزوج فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتزوجت قال ثيبا فقال له فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك يريد فهلا تزوجت جارية فحذف الفعل لدلالة الكلام عليه (ومما ورد منه شعرا) قول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته الكافية التى يمدح بها عضد الدولة أبا شجاع بن بويه ومطلعها * فدى لك من يقصر عن مداكا * وسأذكر الموضع الذى حذف منه الفعل وجوابه لتعلق الابيات بعضها ببعض وهى من محاسن مايؤتى به فى معنى الوداع ولم يأت لغيره مثلها وهى

اذا التوديع أعرض قال قلبى * عليك الصمت لاصاحبت فاكا

ولولا أن أكثر ماتمنى * معاودة لقلت ولامنا كا

قد استشفيت من داء بداء * وأقتل ما أعلك ماشفا كا

فلكم منك خبوا ناوالحق * سموماقد أطالت لها العراكا
اذا عاصيتها كانت شدادا * وان طاوعتها كانت ركاكا
وكم دون الثوية من حزين * يقول له قدوى ذا بذاكا
ومن عذب الرضاب اذا أتخذا * يقبل رحل تروك والوراكا
يحرم أن يمس الطيب بعدى * وقد علق العبير به وصاكا
يحدث مقلتيه النوم عنى * فليت النوم حدث عن نداكا
وما أرضى لمقلته بحلم * اذا انتبهت توهمه ابتشاكا
ولا الا بأن يصغى وأحكى * فليتك لا يتيمه هواكا

فقوله ولا منا كافيه محذوف تقديره ولا صاحبت منا كا وكذلك قوله ولا الا بأن يصغى وأحكى فان فيه محذوفا تقديره ولا أرضى الا بأن يصغى وأحكى (وأما القسم الآخر) فانه لا يظهر فيه قسم الفعل لانه لا يكون هناك منصوب يدل عليه وانما يظهر بالنظر الى ملاءمة الكلام (فما جاء منه قوله تعالى) وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة فقوله لقد جئتمونا يحتاج الى اضمار فعل أى فقيل لهم لقد جئتمونا أو فقلنا لهم وقد استعمل هذا فى القرآن الكريم فى غير موضع كقوله تعالى ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا فقوله أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا يحتاج الى تقدير الفعل المضمر وكذلك ورد قوله تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما فقوله وان جاهداك لا بد له من اضمار القول أى وقلنا له ان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما (ومن هذا الضرب) ايقاع الفعل على شيئين وهو لاحدهما كقوله تعالى فأجمعوا أمركم وشركاءكم وهو لامركم وحده وانما المراد أجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم لان معنى أجمعوا من أجمع الامر اذا نواه وعزم عليه وقد قرأ أبى رضى الله عنه فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم وهذا دليل على ما أشرت اليه وكذلك هو مثبت فى مصحف عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (ومن حذف الفعل باب يسمى باب اقامة المصدر مقام الفعل) وانما يفعل ذلك لضرب من المبالغة والتوكيد كقوله تعالى فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب قوله فضرب الرقاب أصله فاضربوا الرقاب ضربا فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه

وفي ذلك اختصار مع اعطاء معنى التوكيد المصدري (وأمّا حذف جواب الفعل) فانه لا يكون في الامر المحتوم كقوله تعالى فذرهم يخوضوا ويلعبوا فيجزم يخوضوا ويلعبوا لانهما جواب أمر فذرهم وحذف الجواب في هذا لا يدخل في باب الايجاز لانا اذا قلنا ذرهم أي اتركهم لا يحتاج ذلك الى جواب وكذلك ما يجري مجراه وانما يكون الجواب بالفاء في ماض كقولنا قلت له اذهب فذهب وحينئذ يظهر الجواب المحذوف كقوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمّرناهم تدميرا ألا ترى كيف حذف جواب الامر في هذه الآية فان تقديره فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فذهبا اليهم فكذبوهما فدمّرناهم تدميرا فذكر حاشيتي القصة أولها وآخرها لانهما المقصود من القصة بطولها أعني الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم (ومن هذا الضرب أيضا) قوله تعالى قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون أرسله معنا غدا نرتع ونلعب وانا له لحافظون قال انى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب. فجواب الامر من هذا الكلام محذوف تقديره فأرسله معهم ويدلنا على ذلك ما جاء بعده من قوله فلما ذهبوا به كما حذف أيضا في قوله عز وجل. وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمّة انا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان الآية فجواب الامر من هذا الموضع محذوف وتقديره فأرسلوه الى يوسف فأتاه فقال له يوسف أيها الصديق وكذلك قوله تعالى وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن انّ ربي بكيدهن عليم قال ما خطبكنّ اذ راودتنّ يوسف عن نفسه الآية ففي هذا الكلام حذف واختصار استغنى عنه بدلالة الحال عليه وتقديره فرجع الرسول الى الملك برسالة يوسف فدعا الملك بالنسوة وقال لهنّ ما خطبكنّ (وهكذا ورد قوله تعالى) ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين وقد حذف جواب الامر ههنا وتقديره فأتوه به فلما كلمه وفي سورة يوسف عليه السلام محذوفات كثيرة من أولها الى آخرها فانظر أيها المتأمل الى هذه المحذوفات المذكورة ههنا

التى كأنها لم تحذف من هذا الكلام لظهور معناها و بيانه ودلالة الحال عليه وعلى نحو من ذلك ينبغى أن تكون محذوفات الكلام (الضرب الثالث) حذف المفعول به وذلك مما نحن بصدده أخص فان اللطائف فيه أكثر وأعجب كقولنا فلان يحل ويعقد ويبرم وينقض ويضر وينفع والاصل فى ذلك على اثبات المعنى المقصود فى نفسه للشئ على الاطلاق وعلى هذا جاء قوله تعالى وانه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيى ومن بديع ذلك قوله عز وجل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير فان فى هاتين الآيتين قد حذف المفعول به فى أربعة أماكن اذ المعنى وجد أمة من الناس يسقون مواشيهم وامرأتين تذودان مواشيهما وقالتا لا نسقى مواشينا فسقى لهما مواشيهما لان الغرض أن يعلم أنه كان من الناس سقى ومن الامرأتين ذود وأنهما قالتا لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء وأنه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك سقى فأما كون المسقى غنما أو ابلا أو غير ذلك فخارج عن الغرض وقد ورد فى الشعر من هذا النوع قول البعيث بن حريث من أبيات الحماسة

دعانى يزيد بعد ما ساء ظنه * وعبس وقد كانا على حد منكب
وقد علما أن العشيرة كلها * سوى محضرى من حاضرين وغيب

فالمفعول الثانى من علما محذوف لان قوله أن العشيرة فى موضع مفعول علما الاول وتقدير الكلام قد علما أن العشيرة سوى محضرى من حاضرين وغيب لا غناء عندهم أو سواء حضورهم وغيبتهم أو ما جرى هذا المجرى (ومن هذا الضرب أيضا) حذف المفعول الوارد بعد المشيئة والارادة كقوله تعالى ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم فمفعول شاء ههنا محذوف وتقديره ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى ولو شاء الله لجمعهم على الهدى (ومما جاء على مثال ذلك شعرا قول البحترى)

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم * كرما ولم تهدم مآثر خالد

الاصل فى ذلك لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها فحذف ذلك من الاول استغناء بدلالته عليه فى الثانى وقد تقدم أن من الواجب فى حكم البلاغة

ان لا

أن لا تنطق بالمحذوف ولا تظهره الى اللفظ ولو أظهرت لصرت الى كلام غث ومجىء المشيئة بعد لو وبعد حروف الجزاء هكذا موقوفة غير معداة الى شئ كثير شائع بين البلغاء ولقد تكاثر هذا الحذف فى شاء وأراد حتى انهم لا يكادون يبرزون المفعول الا فى الشئ المستغرب كقوله تعالى لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء (وعلى هذا الاسلوب) جاء قول الشاعر

ولو شئت أن أبكى دما لبكيته * عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

فلو كان على حد قوله تعالى ولو شاء الله لجمعهم على الهدى لوجب أن يقول ولو شئت لبكيت دما ولكنه ترك تلك الطريقة وعدل الى هذه لانه أليق فى هذا الموضع وسبب ذلك أنه كان بدعا عجيبا أن يشاء الانسان أن يبكى دما فلما كان مفعول المشيئة مما يستعظم ويستغرب كان الاحسن أن يذكر ولا يضمر (الضرب الرابع) وهو حذف المضاف والمضاف اليه واقامة كل واحد منهما مقام الآخر وذلك باب عريض طويل شائع فى كلام العرب وان كان أبو الحسن الاخفش رحمه الله لا يرى القياس عليه (فأما حذف المضاف) فكقوله تعالى حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فحذف المضاف الى يأجوج ومأجوج وهو سدهما كما حذف المضاف الى القرية فى قوله تعالى واسئل القرية أى أهل القرية (ومن ذلك أيضا) قوله عز وجل ولكن البرّ من اتقى أى خصلة من اتقى وان شئت كان تقديره ولكنّ ذا البرّ من اتقى والاوّل أولى لانّ حذف المضاف ضرب من الاتساع والخبر أولى بذلك من المبتدا لانّ الاتساع بحذف الاعجاز أولى منه بحذف الصدور وقد حذف المضاف مكررا فى قوله تعالى فقبضت قبضة من أثر الرسول أى من أثر حافر فرس الرسول وهذا الضرب أكثر اتساعا من غيره (ومما جاء منه شعرا) قول بعضهم من شعراء الحماسة

اذا لاقيت قومى فاسأليهم * كفى قوما بصاحبهم خبيرا

هل اعفوا عن أصول الحق فيهم * اذا عسرت واقتطع الصدورا

أراد أنه يقتطع ما فى الصدور من الضغائن والاوغام أى يزيل ذلك باحسانه من عفو وغيره فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه (وأما حذف المضاف اليه) فانه قليل الاستعمال فمما جاء منه قوله تعالى لله الامر من قبل ومن بعد

أى من قبـل ذلك ومن بعـده وربما أدخل فى هـذا الموضع ماليس منه كقوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة قيل أراد ظهر الارض فحذف المضاف اليه وليس كذلك فان الهاء والالف قائمة مقام الارض ألا ترى ان قوله ظهرها يريد به الارض لانه ضمير راجع اليها وكذلك ورد قول جرير

اذا أخذت قيس عليك وخندف * بأقطارها لم تدر من أين تسرح

وهـذا لايسمى ايجازا وانما هو تعريض بالضمير عن الضمير (الضرب الخامس) وهو حذف الموصوف والصفة واقامة كل منهما مقام الآخر ولا يكون اطراده فى كل موضع وأكثره يجىء فى الشعر وانما كانت كثرته فى الشعر دون الكلام المنثور لامتناع القياس فى اطراده (فمما جاء منه فى الشعر) قول البحترى من أبيات فى صفة ايوان كسرى فقال فى ذكر التصاوير التى فى الايوان وذلك أن الفرس كانت تحارب الروم فصوروا صورة مدينة انطاكية فى الايوان وحرب الروم والفرس عليها كما ذكره فى ذلك قوله

واذا مارأيت صورة انطا * كية ارتعت بين روم وفرس

والمنايا مواثل وأنوشر * وان يزجى الصفوف تحت الدرفس

فى اخضرار من اللباس على أصـ * ـفر يختال فى صبيغة ورس

فقوله على أصفر أى على فرس أصفر وهـذا مفهوم من قرينة الحال لانه لما قال على أصفر علم بذلك أنه أراد فرسا أصفر والصفة تأتى فى الكلام على ضربين اما للتأكيد والتخصيص واما للمدح والذم وكلاهما من مقامات الاسهاب والتطويل لا من مقامات الايجاز والاختصار واذا كان الامر كذلك لم يلق الحذف به هذا مع ما ينضاف اليه من الالتباس وضد البيان ألا ترى أنك اذا قلت مررت بطويل لم يبن من هذا اللفظ الممرور به انسان هو أم رمح أم ثوب أم غير ذلك واذا كان الامر على هذا فحذف الموصوف انما هو شئ قام الدليل عليه أو شهدت به الحال واذا استبهم كان حذفه غير لائق ومما يؤكد عندك ضعف حذفه انك تجد من الصفات مالا يمكن حذف موصوفه وذاك أن تكون الصفة جملة نحو مررت برجل قام أبوه ولقيت غلاما وجهه حسن ألا ترى أنك لو قلت مررت بقام أبوه ولقيت وجهه حسن لم يجز (وقد ورد) حذف الموصوف

قوله فيما جاء منه فى الشعر قول الخ الفائدة القاركة ١٥

واقامة الصفة مقامه فى غير موضع من القرآن الكريم كقوله تعالى وآتينا ثمود الناقة مبصرة فانه لم يرد أنّ الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء وانما يريد آية مبصرة فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه ولقد تأملت حذف الموصوف فى مواضع كثيرة فوجدت أكثر وقوعه فى النداء وفى المصدر أمّا النداء فكقولهم يا أيها الظريف تقديره يا أيها الرجل الظريف وعليه ورد قوله تعالى يا أيها الساحر تقديره يا أيها الرجل الساحر وكذلك قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا تقديره يا أيها القوم الذين آمنوا وأمّا المصدر فكقوله تعالى ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا تقديره ومن تاب وعمل عملا صالحا وقد أقيمت الصفة الشبيهة بالجملة مقام الموصوف المبتدا فى قوله تعالى وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك أى قوم دون ذلك (وأمّا حذف الصفة واقامة الموصوف مقامها) فانه أقل وجودا من حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه ولا يكاد يقع فى الكلام الا نادر الكان استبهامه (فمن ذلك ماحكاه سيبويه رحمه الله) من قولهم سير عليه ليل وهم يريدون ليل طويل وانما حذفت الصفة فى هذا الموضع لما دلّ من الحال عليه وذلك أنه يحسن فى كلام القائل لذلك من التطريح والتطويح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله طويل وأنت تحس هذا من نفسك اذا تأملته وهو أن يكون فى مدح انسان والثناء عليه فتقول كان والله رجلا أى رجلا فاضلا أو شجاعا أو كريما أو ما جرى هذا المجرى من الصفات وكذلك تقول سألناه فوجدناه انسانا أى انسانا سمحا أو جوادا أو ما أشبهه فعلى هذا ونحوه تحذف الصفة فأمّا ان عريت عن الدلالة عليها من اللفظ أو الحال فان حذفها لا يجوز وقد تأملت حذفها فوجدته لا يسوغ الا فى صفة تقدّمها ما يدل عليها أو تأخر عنها أو فهم ذلك من شئ خارج عنها أمّا الصفة التى تقدّمها ما يدل عليها فقوله تعالى أمّا السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا فحذف الصفة أى كان يأخذ كل سفينة صحيحة غصبا ويدل على المحذوف قوله فأردت أن أعيبها فانّ عيبه اياها لم يخرجها عن كونها سفينة وانما المأخوذ هو الصحيح دون المعيب فحذفت الصفة ههنا لانه تقدّمها ما يدلّ عليها وأمّا التى تأخر عنها ما يدل عليها فقول بعض شعراء الحماسة

كل امرئ ستئيم منـ * ـه العرس أو منها يئيم

فانه أراد كل امرئ متزوج اذ دل عليه ما بعده من قوله ستئيم منه أو منها يئيم اذ لا تئيم هي الا من زوج ولا يئيم هو الا من زوجة فجاء بعد الموصوف ما دل عليه ولولا ذلك لما صح معنى البيت اذ ليس كل امرئ يئيم من عرس ولا تئيم منه عرس الا اذا كان متزوجا وأما ما يفهم حذف الصفة فيه من شئ خارج عن الكلام فقول النبي صلى الله عليه وسلم لا صلاة لجار المسجد الا في المسجد فانه قد علم جواز صلاة جار المسجد في غير المسجد من غير هذا الحديث فعلم حينئذ أن المراد به الفضيلة والكمال وهذا شئ لم يعلم من نفس اللفظ وانما علم من شئ خارج عنه (الضرب السادس) وهو حذف الشرط وجوابه (فأما حذف الشرط) فنحو قوله تعالى يا عبادى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون فالفاء في قوله تعالى فاعبدون جواب شرط محذوف لان المعنى ان أرضى واسعة فان لم تخلصوا الى العبادة في أرض فاخلصوها في غيرها ثم حذف الشرط وعوض من حذفه تقديم المفعول مع افادة تقديمه معنى الاختصاص والاخلاص (ومن هذا الضرب) قوله تعالى فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية أى فحلق فعليه فدية وكذلك قولهم الناس مجزيون بأعمالهم ان خيرا فخيرا وان شرا فشرا أى ان فعل المرء خيرا جزى خيرا وان فعل شرا جزى شرا وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى ومن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر تقديره ذلك فأفطر فعدة من أيام أخر ولهذا ذهب داود الظاهرى الى الاخذ بظاهر الآية ولم ينظر الى حذف الشرط فأوجب القضاء على المريض والمسافر سواء أفطر أو لم يفطر (ومن حذف الشرط) قوله تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون اعلم أن هذه الفاء التى في قول الشاعر فقد جئنا خراسانا وحقيقتها أنها في جواب شرط محذوف يدل عليه الكلام كأنه قال ان صح ما قلتم ان خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسان وآن لنا أن نخلص وكذلك هذه الآية يقول ان كنتم منكرين للبعث فهذا يوم البعث أى قد تبين بطلان قولكم (وأما حذف جواب الشرط) فكقوله تعالى قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله

لا يهدى القوم الظالمين فان جواب الشرط ههنا محذوف تقديره ان كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين ويدل على المحذوف قوله تعالى ان الله لا يهدى القوم الظالمين (الضرب السابع) وهو حذف القسم وجوابه فأما حذف القسم فنحو قولك لأفعلن أى والله لأفعلن أوغير ذلك من الاقسام المحلوف بها وأما حذف جوابه فكقوله تعالى والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل اذا يسر هل فى ذلك قسم لذى حجر ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد فجواب القسم ههنا محذوف تقديره ليعذبن أونحوه ويدل على ذلك ما بعده من قوله ألم تر كيف فعل ربك بعاد الى قوله سوط عذاب (ومما ينتظم فى هذا السلك) قوله تعالى ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شئ عجيب فان معناه ق والقرآن المجيد لتبعثن والشاهد على ذلك ما بعده من ذكر البعث فى قوله أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد (وقد ورد هذا الضرب فى القرآن كثيرا) كقوله تعالى فى سورة النازعات والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة فجواب القسم ههنا محذوف تقديره لتبعثن أولتحشرن ويدل على ذلك ما أتى من بعده من ذكر القيامة فى قوله يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة وكذلك الى آخر السورة (الضرب الثامن) وهو حذف لو وجوابها وذلك من ألطف ضروب الايجاز وأحسنها (فأما حذف لو) فكقوله تعالى ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلى بعضهم على بعض تقدير ذلك اذ لو كان معه آلهة لذهب كل اله بما خلق (وكذلك) ورد قوله تعالى وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون تقديره اذ لو فعلت ذلك لارتاب المبطلون وهذا من أحسن المحذوفات (ومما جاء من ذلك) شعرا قول بعضهم فى صدر الحماسة

لو كنت من مازن لم تستبح ابلى * بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

اذا لقام بنصرى معشر خشن * عند الحفيظة ان ذولوثة لانا

فلو فى البيت الثانى محذوفة لانها فى البيت الاول قد استوفت جوابها بقوله لم تستبح ابلى ثم حذفها فى الثانى وتقدير حذفها اذ لو كنت منهم لقام بنصرى

معشر خشن أو اذ لو كانوا قومى اقام بنصرى معشر خشن (واما حذف جواب لو) فانه كثير شائع وذلك كقولك لو زرتنا لو ألممت بنا معناه لأحسنا اليك أو لأكرمناك أو ماجرى هذا المجرى (ومما ورد منه فى القرآن الكريم) قوله تعالى ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب فان جواب لو ههنا محذوف تقديره لرأيت أمرا عظيما وحالا هائلة أو غير ذلك مما جرى مجراه (ومما جاء على نحو من هذا) قوله عز وجل ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون تقديره لو يعلمون الوقت الذى يستعجلونه وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام ولا يقدرون على دفعها عن أنفسهم ولا يجدون ناصرا ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذى هونه عليهم (ومما يجرى على هذا النهج) قوله تعالى لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد فجواب لو فى هذا الموضع محذوف كما حذف فى قوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أى لو أن لى بكم قوة لدفعتكم أو منعتكم أو ما أشبهه وكذلك قوله ولو أن قرآنا سيرت به الجبال لكان هذا القرآن وهذا الضرب من المحذوفات أظهر الضروب المذكورة وأوضحها العلم المخاطب به لان قوله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد يتسارع الفهم الى ان الكلام يحتاج الى جواب (ومما جاء منه شعرا) قول أبى تمام فى قصيدته البائية التى يمدح بها المعتصم عند فتحه مدينة عمورية

لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت * له العواقب بين السمر والقضب

فان هذا محذوف الجواب تقديره لو يعلم الكفر ذلك لأخذ أهبة الحذار أو غير ذلك (واعلم) أن حذف هذا الجواب لا يسوغ فى أى موضع كان من الكلام وانما يحذف مادل عليه مكان المحذوف ألا ترى أنه قد ورد فى القرآن الكريم غير محذوف كقوله تعالى ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون وهذا ليس كالذى تقدم من الآيات لان تلك علم مكان المحذوف منها وهذه الآية لو حذفت الجواب فيها لم يعلم مكانه لانه يحتمل وجوها منها أن يقال لما آمنوا أو لطلبوا ما وراء ذلك

وقد

وقد تقدم القول فى أول باب الايجاز أنه لابد من دلالة الكلام على المحذوف (الضرب التاسع) وهو حذف جواب لولا (فمن ذلك قوله تعالى) والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين والخامسة أن لعنت الله عليه ان كان من الكاذبين ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم فجواب لولا ههنا محذوف تقديره لما أنزل عليكم هذا الحكم بطريق التلاعن وستر عليكم هذه الفاحشة بسببه (وكذلك ورد قوله تعالى) ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لاتعلمون ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤف رحيم تقديره ولولا فضل الله عليكم ورحمته لعجل لكم العذاب أو فعل بكم كذا وكذا (الضرب العاشر) وهو حذف جواب لما وجواب أمّا (فأمّا حذف جواب لما) فكقوله تعالى فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين فان جواب لما ههنا محذوف وتقديره فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله وما أشبه ذلك مما اكتسباه بهذه المحنة من عظائم الوصف دنيا وآخرة وقوله انا كذلك نجزى المحسنين تعليل لتخويل ما خولهما من الفرح والسرور بعد تلك الشدة العظيمة (وأمّا حذف جواب أمّا) فهو قوله تعالى فأمّا الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم (الضرب الحادى عشر) وهو حذف جواب اذا فمما جاء منه قوله تعالى واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين ألا ترى كيف حذف الجواب عن اذا فى هذا الكلام وهو مدلول عليه بقوله الا كانوا عنها معرضين كأنه قال واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم أعرضوا ثم قال ودأبهم الاعراض عن كل آية وموعظة (الضرب الثانى عشر) حذف المبتدا والخبر أما حذف المبتدا فلا يكون الا مفردا والاحسن هو حذف الخبر لان منه ما يأتى جملة

كقوله تعالى واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن وههنا قد حذف خبر المبتدا وهو جملة من مبتدا وخبر وتقديرها واللائى لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر (ومما ورد منه شعرا) قول أبي عبادة البحترى

كل عذر من كل ذنب ولكن * أعوز العذر من بياض العذار

وهذا قد حذف منه خبر المبتدا الا أنه مفرد غير جملة وتقديره كل عذر من كل ذنب مقبول أو مسموع أو ما جرى هذا المجرى (الضرب الثالث عشر) وهو حذف لا من الكلام وهى مرادة وذلك كقوله تعالى قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف يريد به لا تفتؤ أى لا تزال فحذفت لا من الكلام وهى مرادة (وعلى هذا) جاء قول امرئ القيس

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى لا أبرح قاعدا فحذفت لا فى هذا الموضع وهى مرادة (ومما جاء منه) قول أبي محجن الثقفى لما نهاه سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه عن شرب الخمر وهو اذ ذاك فى قتال الفرس بالقادسية

رأيت الخمر صالحة وفيها * مناقب تهلك الرجل الحليما

فلا والله أشربها حياتى * ولا أسقى بها أبدا نديما

يريد لا أشربها فحذف لا من الكلام وهى مفهومة منه (الضرب الرابع عشر) وهو حذف الواو من الكلام واثباتها وأحسن حذفها فى المعطوف والمعطوف عليه واذا لم يذكر الحرف المعطوف به كان ذلك بلاغة وايجازا كقول أنس بن مالك رضى الله عنه كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينامون ثم يصلون ولا يتوضؤن أو قال ثم يصلون لا يتوضؤن فقوله لا يتوضؤن بحذف الواو أبلغ فى تحقيق عدم الوضوء من قوله ولا يتوضؤن باثباتها كأنه جعل ذلك حالة لهم لازمة أى أنها داخلة فى الجملة وليست جملة خارجة عن الأولى لان واو العطف تؤذن بانفراد المعطوف عن المعطوف عليه واذا حذفت فى مثل هذا الموضع صار المعطوف والمعطوف عليه جملة واحدة وقد جاء مثل ذلك فى القرآن الكريم وذلك أنه يذكر جمل من القول كل واحدة منها مستقلة بنفسها ثم تسرد سردا بغير عاطف كقوله تعالى يا أيها الذين

آمنوا

آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر تقدير هذا الكلام لا يألونكم خبالا بودّوا ما عنتم وقد بدت البغضاء من أفواههم فلما حذفت الواو جاء الكلام أوجز وأحسن طلاوة وأبلغ تأليفا ونظما وأمثاله في القرآن الكريم كثير (واعلم) أنه قد حذفت الواو وأثبتت في مواضع فأما اثباتها فنحو قوله تعالى وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم وأما حذفها فنحو قوله تعالى وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون وعلى هذا فلا يجوز حذف الواو واثباتها في كل موضع وانما يجوز ذلك فيما هذا سبيله من هاتين الآيتين (وأتبين لك في ذلك ربما تتبعه فنقول اعلم) أن كل اسم نكرة جاء خبره بعد الا يجوز اثبات الواو في خبره وحذفها كقولك ما رأيت رجلا الا وعليه ثياب وان شئت قلت الا عليه ثياب بغير واو فان كان الذي يقع على النكرة ناقصا فلا يكون الا بحذف الواو نحو قولك ما أظن درهما الا هو كافيك ولا يجوز الا وهو كافيك بالواو لأن الظن يحتاج الى شيئين فلا يعترض فيه بالواو ولانه يصير كالمكتفي من الافعال باسم واحد وكذلك جواب ظننت وكان وانّ وأشباهها أخطأ أن تقول انّ رجلا وهو قائم ونحو ذلك ويجوز هذا في ليس خاصة تقول ليس أحد الا وهو قائم لأن الكلام يتوهم تمامه بليس وبحرف نكرة ألا ترى أنك تقول ليس أحد وما من أحد فجاز فيها اثبات الواو ولم يجز في أظن لانك لا تقول ما أظن أحدا فأما أصبح وأمسى ورأى فان الواو فيهن أسهل لانهن تؤم في حال وكان وأظن ونحوهما بنين على النقص الا اذا كانت تامة وكذلك لا في التنزيه وغيرها نحو لا رجل وما من رجل فيجوز اثبات الواو فيها وحذفها (واعلم) أن العرب قد حذفت من أصل الالفاظ شيأ لا يجوز القياس عليه كقول بعضهم

كان ابريقهم ظبي على شرف * مقدّم بسبا الكتان ملثوم

فقوله بسبا الكتان يريد بسبائب الكتان وكذلك قول الآخر

بدر بن جندل حائر لحنو بها * فكأنما تذكى سنابكها الحبا

فهذا وأمثاله مما يقبح ولا يحسن وان كانت العرب قد استعملته فانه لا يجوز لنا أن نستعمله (وأما القسم الثاني من الايجاز) فهو ما لا يحذف منه شئ (وذلك ضربان أحدهما) ما ساوى لفظه معناه ويسمى التقدير (والآخر) ما زاد معناه

في لفظه ويسمى الايجاز بالقصر (فأمّا الايجاز بالتقدير) فانه الذى يمكن التعبير عن معناه بمثل ألفاظه وفى عدّتها (وأمّا الايجاز بالقصر فانه ينقسم قسمين أحدهما) مادل لفظه على محتملات متعدّدة وهذا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفى عدّتها (والآخر) مايدلّ لفظه على محتملات متعدّدة ولا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفى عدّتها الابل يستحيل ذلك (ولنورد الآن الضرب الاوّل الذى هو الايجاز بالتقدير) فمما جاء منه قوله تعالى قتل الانسان ما أكفره من أىّ شئ خلقه من نطفة خلقه فقدّره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره كلالما يقض ما أمره فقوله قتل الانسان دعاء عليه وقوله ما أكفره تعجب من افراطه فى كفران نعمة الله عليه ولا ترى أسلوبا أغلظ من هذا الدعاء والتعجب ولا أخشن مسا ولا أدلّ على سخط مع تقارب طرفيه ولا أجمع للائمة على قصر متنه ثم انه أخذ فى صفة حاله من ابتداء حدوثه الى منتهى زمانه فقال من أىّ شئ خلقه ثم بين الشئ الذى خلق منه بقوله من نطفة خلقه فقدّره أى هيأه لما يصلح له ثم السبيل يسره أى سهل سبيله وهو مخرجه من بطن أمّه أو السبيل الذى يختار سلوكه من طريق الخير والشرّ والاوّل أولى لانه قال خلقته وتقديره ثم بعد ذلك يكون تيسير سبيله لما يختاره من طريق الخير والشرّ ثم أماته فأقبره أى جعله ذا قبر يوارى فيه ثم اذا شاء أنشره أى أحياه كلا ردع للانسان عما هو عليه لما يقض ما أمره أى لم يقض مع تطاول زمانه ما أمره الله به يعنى أنّ انسانا لم يخل من تقصير قط ألا ترى الى هذا الكلام الذى لو أردت أن تحذف منه كلمة واحدة لما قدرت على ذلك لانك كنت تذهب بجزء من معناه والايجاز هو أن لا يمكنك أن تسقط شيأ من ألفاظه (والآيات الواردة من هذا الضرب كثيرة) كقوله تعالى فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف فقوله فله ماسلف من جوامع الكلم ومعناه أنّ خطاياه الماضية قد غفرت له وتاب الله عليه فيها الا أنّ قوله فله ماسلف أبلغ أى أنّ السالف من ذنوبه لا يكون عليه انما هو له وكذلك ورد قوله تعالى من كفر فعليه كفره كلمة جامعة تغنى عن ذكر ضروب من العذاب لانّ من أحاط به كفره فقد أحاطت به كل خطيئة وعلى نحو من هذا جاء قوله تعالى انّ الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون فهذه الآية من جوامع الآيات

الواردة

الواردة في القرآن الكريم وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها على الوليد بن المغيرة فقال له يا ابن أخي أعد فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم قراءتها عليه فقال له ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وماهو بقول البشر (ومن هذا النحو) قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد وهذه الآيات من قوارع القرآن العجيبة التي دلت على تخويف وارهاب ترق له القلوب وتقشعر منه الجلود وهي مشتملة مع قصرها على حال الانسان منذ خلقه الى حين حشره وحشر غيره من الناس وتصوير ذلك الامر الفظيع في أسهل لفظ وأقربه وما مررت عليها الا جددت لي موعظة وأحدثت عندي ايقاظا (ومن هذا الضرب) ماورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه لأبي سلمة عند موته فقال اللهم ارفع درجته في المهتدين وأخلفه في عقبه في الغابرين لنا وله يارب العالمين وهذا دعاء جامع بين الايجاز وبين مناسبة الحال التي وقع فيها فأوله مفتتح بالمهم الذي يفتقر اليه المدعوله في تلك الحال وهو رفع درجته في الآخرة وثانيه مردف بالمهم الذي يؤثره المدعوله من صلاح حال عقبه من بعده في الدنيا وثالثه مختتم بالجمع بين الداعي والمدعوله وهذا من الايجاز البليغ الذي هو طباق ماقصد له وكلام النبي صلى الله عليه وسلم كله هكذا كما قال أوتيت جوامع الكلم وكذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم يوم بدر فانه قال هذا يوم له ما بعده وهو شبيه بقوله تعالى فله ماسلف (ولما جرح عمر بن الخطاب رضي الله عنه) الجراحة التي مات بها اجتمع اليه الناس فجاءه شاب من الانصار وقال أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله وقدم في الاسلام ماعلمت ووليت فعدلت ثم شهادة وهذا كلام سديد قد حوى المعنى المقصود وأتى به في أوجز لفظ وأحسنه ومع ما فيه من الايجاز فانه مستغرب وسبب استغرابه أنه جعل المساءة بشرى وأخرجها مخرج المسرة وتلطف في ذلك فأبلغ ولو أراد الكاتب البليغ والخطيب المصقع أن يأتي بذلك

على هذا الوجه لأعوزه (ومن هذا النمط) ما كتبه طاهر بن الحسين الى المأمون عند لقائه عيسى بن ماهان وهزمه اياه وقتله فكتب اليه كتابي الى أمير المؤمنين ورأس عيسى بن ماهان بين يديه وخاتمه في يدي وعسكره مصرّف تحت أمري والسلام وهذا من الكتب المختصرة التي حوت الغرض المطوّل وما يكتب في هذا المقام مثله (ولما أرسل المهلب بن أبي صفرة) أبا الحسن المدايني الى الحجاج بن يوسف يخبره أخبار الازارقة كلمه كلاما موجزا كالذي نحن بصدد ذكره ههنا وذلك أن الحجاج سأله فقال كيف تركت المهلب فقال أدرك ما أمّل وأمن مما خاف فقال كيف هو لجنده قال والد رؤف قال كيف جنده له قال أولاد بررة قال كيف رضاهم عنه قال وسعهم بفضله وأغناهم بعدله قال كيف تصنعون اذا لقيتم العدوّ قال نلقاهم بجدّنا ويلقونا بجدّهم قال كذلك الجدّ اذا لقي الجدّ قال فأخبرني عن بني المهلب قال هم أحلاس القتال بالليل حماة السرح بالنهار قال أيهم أفضل قال هم كحلقة مضروبة لا يعرف طرفاها فقال الحجاج لجلسائه هذا والله هو الكلام الفصل الذي ليس بمصنوع (وقد ورد في الاخبار النبوية من هذا الضرب شئ كثير) وسأورد منه أمثلة يسيرة فمن ذلك قول النبيّ صلى الله عليه وسلم الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات وهذا الحديث من أجمع الاحاديث للمعاني الكثيرة وذلك أنه يشتمل على جلّ الاحكام الشرعية فان الحلال والحرام اما أن يكون الحكم فيهما بينا لا خلاف فيه بين العلماء واما أن يكون خافيا يتجاذبه وجوه التأويلات فكل منهم يذهب فيه مذهبا (وكذلك) جاء قوله صلى الله عليه وسلم الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى فان هذا الحديث أيضا من جوامع الاحاديث للاحكام الشرعية (ومن ذلك) قوله صلى الله عليه وسلم المضعف أمير الركب وقد ورد آخر هذا الحديث بلفظ آخر فقال صلى الله عليه وسلم سيروا بسير أضعفكم الا أن الاول أحسن لانه أبلغ معنى فان الامير واجب الحكم فهو يتبع واذا كان المضعف أمير الركب كانوا مؤتمرين له في سيرهم ونزولهم وهذا المعنى لا يوجد في قوله سيروا بسير أضعفكم (وأحسن من هذا كله) ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في حديث مطوّل يتضمن سؤال جبريل عليه السلام فقال من جملته ما الاحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك فقوله تعبد الله

كأنك تراه من جوامع الكلم لانه ينوب مناب كلام كثير كأنه قال تعبد الله مخلصا فى نيتك واقفا عند أدب الطاعة من الخضوع والخشوع آخذا أهبة الحذر وأشباه ذلك لان العبد اذا خدم مولاه ناظرا اليه استقصى فى آداب الخدمة بكل ما يجد اليه السبيل وما ينتهى اليه الطوق (ومما أطربنى من ذلك) حديث الحديبية وهو أنه جاء بديل بن ورقاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له انى تركت كعب بن لؤى بن عامر بن لؤى معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ان قريشا قد نهكتهم الحرب فان شاؤا ماددناهم مدة ويدعوا بينى وبين الناس فان أظهر عليهم وأحبوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس والا كانوا قد جموا وان أبوا فو الذى نفسى بيده لاقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى هذه ولينفذن الله أمره وهذا الحديث من جوامع الكلم وهو من الفصاحة والبلاغة على غاية لا ينتهى اليها وصف الواصف (وأما ما ورد من ذلك شعرا) فقول النابغة

وانك كالليل الذى هو مدركى * وان خلت أن المنتأى عنك واسع

وتخصيصه الليل دون النهار مما يسئل عنه وكذلك قوله

ولست بمستبق أخا لا تلمه * على شعث أى الرجال المهذب

(وعلى هذا الاسلوب) ورد قول الاعشى فى اعتذاره الى أوس بن لام عن هجائه اياه

وانى على ما كان منى لنادم * وانى الى أوس بن لام لتائب

وانى الى أوس ليقبل عذرتى * ويصفح عنى ما حييت لراغب

فهب لى حياتى فالحياة لقائم * بشكرك فيها خير ما أنت واهب

سأمحو بمدح فيك اذ أنا صادق * كتاب هجاء سار اذ أنا كاذب

وهذا من المعانى الشريفة فى الالفاظ الخفيفة وهو من طنانات الاعشى المشهورة (وعلى نحو منه) جاء قول الفرزدق

صبحناهم الشعث الجياد كأنها * قطا هيجته يوم ريح أجادله

الى كل حى قد خطبنا بناتهم * بأرعن جرار كثير صواهله

اذا ما التقينا أنكحتنا رماحنا * من القوم ابكارا كراما عقائله

وانا لمناعون تحت لوائنا * حمانا اذا ما عاذ بالسيف حامله

وهذا من محاسن ما جىء فى هذا الباب (ومما يجرى هذا المجرى) قول جرير

تسقى رجال من تميم منيتي * وماذادعن احسابهم ذائد مثلي
فلوشاء قومي كان حلمي فيهم * وكان على جهال أعدائهم مثلي

(وكذلك) ورد قوله متغزلا وهو من محاسن أقواله

سرت الهموم فبتن غير نيام * وأخو الهموم يروم كل مرام
ذم المنازل بعد منزلة اللوى * والعيش بعد أولئك الاقوام
ولقد أراك وأنت جامعة الهوى * أثنى بعهدك خير دار مقام
طرقتك صائدة القلوب فليس ذا * حين الزيارة فارجعي بسلام
تجري السواك على أغر كأنه * برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدك كالذي حدثتنا * لوصلت ذاك فكان غير رمام
ولقد أراني والجديد الى بلى * في موكب طرف الحديث كرام
لولا مراقبة العيون أريننا * حدق المها وسوالف الآرام
واذا صرفن عيونهن بنظرة * نفذت نوافذها بغير سهام
هل تنفعنك ان قتلن مرقشا * أوما فعلن بعروة بن حزام

وحلاوة هذا الكلام أحسن من ايجازه واقدا عوز غيره أن يأتي بمثله حتى أقر باعوازه (ومن باب الايجاز الذي يسمى التقدير) قول على بن جبلة

وما لامرئ حاولته عنك مهرب * ولو حملته في السماء المطالع
بلى هارب مايهتدي لمكانه * ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع

فهذا هو الكلام الذي ألفاظه وفاق معانيه فانه قد اشتمل على مدح رجل بشمول ملكه وعموم سلطانه وأنه لا مهرب عنه لمن يحاوله وان صعد السماء ثم ذكر جميع المهارب في المشارق والمغارب وأشار الى أنه يبلغ الظلام والضياء وذلك بما لم تزد عبارته على المعنى المندرج تحته ولا قصرت عنه ومن هذا الضرب قول أبي نواس وهو من نادر ما يأتي في هذا الموضع

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا * بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى * وأضغاث ريحان جني ويابس
حبست بها صحبي فجددت عهدهم * واني على أمثال تلك لحابس
تدار علينا الراح في عسجدية * حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها * مها تدريها بالقسي الفوارس

فالرّاح ما زرّت عليه جيوبها * وللماء ما دارت عليه القلانس

(ومما انتهى الي من اخبار ابن المزوع) قال سمعت الجاحظ يقول لا أعرف شعرا يفضل هذه الابيات التي لابي نواس ولقد أنشدتها أبا شعيب القلال فقال والله يا أبا عثمان ان هذا لهو الشعر ولو نقر لطن فقلت له ويحك ما تفارق عمل الجرار والخزف ولعمري ان الجاحظ عرف فوصف وخبر فشكر والذي ذكره هو الحق

(وعلى هذا الاسلوب) جاء قول أبي تمام

ان القوافي والمساعي لم تزل * مثل النظام اذا أصاب فريدا

هي جوهر نثر فان ألفته * بالشعر صار قلائدا وعقودا

في كل معترك وكل مقامة * يأخذن منه ذمة وعهودا

فاذا القصائد لم تكن خفراءها * لم ترض منها مشهدا مشهودا

من أجل ذلك كانت العرب الاولى * يدعون هذا سوددا محدودا

وتند عندهم العلا الا علا * جعلت لها مرر القريض قيودا

(وأما الضرب الثاني) وهو الايجاز بالقصر فان القرآن الكريم ملآن منه وقد تقدم القول أنه قسمان أحدهما ما يدل على محتملات متعددة فمن ذلك قوله تعالى ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى فقوله فغشيهم من اليم ما غشيهم من جوامع الكلم التي يستدل على قلتها بالمعاني الكثيرة أي غشيهم من الامور الهائلة والخطوب الفادحة ما لا يعلم كنهه الا الله ولا يحيط به غيره (ومن هذا الضرب) قوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فجمع في الآية جميع مكارم الاخلاق لان في الامر بالمعروف صلة الرحم ومنع اللسان عن الغيبة وعن الكذب وغض الطرف عن المحرمات وغير ذلك وفي الاعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وغيرهما (وقال بعض الاعراب) في دعائه اللهم هب لي حقك وأرض عني خلقك فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذا هو البلاغة (ومن ذلك) قوله عز وجل أولئك لهم الامن فانه دخل تحت الامن جميع المحبوبات وذلك أنه نفى به أن يخافوا شيأ من الفقر والموت وزوال النعمة ونزول النقمة وغير ذلك من أصناف المكاره وأشباه هذا في القرآن الكريم كثيرة فهو يكثر في بعض

الصور ويقل في بعض قال النبي صلى الله عليه وسلم من شاء يرتع في الرياض الانائق فعليه بآل حم (ومن ذلك) قول النبي صلى الله عليه وسلم الخراج بالضمان وذلك أن رجلا اشترى عبدا فأقام عنده مدة ثم وجد به عيبا فخاصم البائع الى النبي صلى الله عليه وسلم فردّه عليه فقال يارسول الله انه استغل غلامي فقال الخراج بالضمان ومعنى قوله الخراج بالضمان أن الرجل اذا اشترى عبدا فاستغله ثم وجد به عيبا دلسه عليه البائع فله أن يردّه ويسترجع الثمن جميعه ولو مات العبد أو أبق أوسرقه سارق كان في مال المشترى وضمانه عليه واذا كان ضمانه عليه فخراجه له أى له ما تحصل من أجرة عمله (وأما ماورد شعرا) فقول السموأل بن عاديا الغساني من جملة أبياته اللامية المشهورة وذلك قوله منها

وان هو لم يحمل على النفس ضيمها * فليس الى حسن الثناء سبيل

فان هذا البيت قد اشتمل على مكارم الاخلاق جميعها من سماحة وشجاعة وعفة وتواضع وحلم وصبر وغير ذلك فان هذه الاخلاق كلها من ضيم النفس لانها تجد بحملها ضيما أى مشقة وعناء وقد تقدم القول أن الايجاز بالقصر يكون فيما تضمن لفظه محتملات كثيرة وهذا البيت من ذلك القبيل ولا أعلم أن شاعرا قديما ولا حديثا أتى بمثله وقد أخذه أبو تمام فأحسن في أخذه وهو

وظلمت نفسك طالبا انصافها * فعجبت من مظلومة لم تظلم

ففاز في بيته هذا بالمقابلة بين الضدين في الظلم والانصاف ثم قال فعجبت من مظلومة لم تظلم وهذا أحسن من الاوّل ومعنى قوله ظلمت نفسك طالبا انصافها أى أنك أكرهتها على مشاق الامور واذا فعلت ذلك فقد ظلمتها ثم انك مع ظلمك اياها قد أنصفتها لانك جلبت اليها أشياء حسنة تكسبها ذكرا جميلا ومجدا مؤثلا فأنت منصف لها في صورة ظالم وكذلك قوله فعجبت من مظلومة لم تظلم أى أنك ظلمتها وما ظلمتها لان ظلمك اياها أدّى الى ما هو جميل حسن وهذا القدر في الامثلة كاف في هذا الباب (القسم الآخر من الضرب الثاني في الايجاز بالقصر) وهو الذى لا يمكن التعبير عن ألفاظه بالفاظ أخرى مثلها وفي عدتها وهو أعلى طبقات الايجاز مكانا وأعوزها امكانا واذا وجد في كلام بعض البلغاء فانما يوجد شاذا نادرا (فمن ذلك) ما ورد في القرآن الكريم كقوله تعالى ولكم في القصاص حياة فان قوله تعالى القصاص حياة

لايمكن التعبير عنه الا بألفاظ كثيرة لان معناه أنه اذا قتل القاتل امتنع غيره عن القتل فأوجب ذلك حياة للناس ولا يلتفت الى ماورد عن العرب من قولهم القتل أنفى للقتل فان من لايعلم يظن أن هذا على وزن الآية وليس كذلك بل بينهما فرق من ثلاثة أوجه (الاول) أن القصاص حياة لفظتان والقتل أنفى للقتل ثلاثة ألفاظ (الوجه الثانى) أن فى قولهم القتل أنفى للقتل تكريرا ليس فى الآية (الثالث) أنه ليس كل قتل نافيا للقتل الا اذا كان على حكم القصاص وقد صاغ أبو تمام هذا المعنى الوارد عن العرب فى بعض بيت من شعره فقال

وأخافكم كى تغمدوا أسيافكم * ان الدم المغبر يحرسه الدم

فقوله ان الدم المغبر يحرسه الدم أحسن مما ورد عن العرب من قولهم القتل أنفى للقتل (ويروى) عن معن بن زائدة أنه سأله أبو جعفر المنصور فقال له أيما أحب اليك دولتنا أو دولة بنى أمية فقال ذاك اليك فقوله ذاك اليك من الايجاز بالقصر الذى لايمكن التعبير عنه الا بألفاظ كثيرة لان معنى قوله ذاك اليك وهو لفظتان أنه ان زاد احسانك على احسان بنى أمية فأنتم أحب الى وهذه عشرة ألفاظ (فان قيل) كيف لايمكن التعبير عن ألفاظ بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها وفى المترادف من الالفاظ ماهو دليل على خلاف ذلك فانه اذا قيل راح ثم قيل مدامة أو سلافة كان ذلك سواء وقامت هذه اللفظة مقام هذه اللفظة (قلت) فى الجواب ليس كل الالفاظ المترادفة يقوم بعضها مقام بعض ألا ترى أن لفظة القصاص لايمكن التعبير عنها بما يقوم مقامها ولما عبر عنها بالقتل فى قول العرب القتل أنفى للقتل ظهر الفرق بين ذلك وبين الآية فى قوله تعالى ولكم فى القصاص حياة فالذى أردته أنا انما هو الكلام الذى لايمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها فان كان كذلك والا فليس داخلا فى هذا القسم المشار اليه (النوع السادس عشر فى الاطناب) هذا النوع من الكلام أنعمت نظرى فيه وفى التكرير وفى التطويل فلكتنى حيرة الشبه بينها طويلا وكنت فى ذلك كعمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الكلالة حيث قال قد أعيانى أمر الكلالة وكنت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها كثيرا حتى ضرب فى صدرى وقال ألا يكفيك أنه الصنف وبعد أن أنعمت نظرى فى هذا النوع الذى هو الاطناب وجدت ضربا من ضروب التأكيد

قوله أنه الصنف كذا فى الاصل ولعله
الاطناب

التي يؤتى بها في الكلام قصد اللمبالغة ألا ترى أنه ضرب مفرد من بينها برأسه لا يشاركه فيه غيره لان من التأكيد ما يتعلق بالتقديم والتأخير كتقديم المفعول بالاعتراض كالاعتراض بين القسم وجوابه وبين المعطوف والمعطوف عليه وأشباه ذلك وسيأتي الكلام عليه في بابه وهذا الضرب الذي هو الاطناب ليس كذلك (ورأيت علماء البيان قد اختلفوا فيه) فنهم من ألحقه بالتطويل الذي هو ضد الايجاز وهو عنده قسم غيره فأخطأ من حيث لا يدري كأبي هلال العسكري والغانمي حتى انه قال ان كتب الفتوح وما جرى مجراها مما يقرأ على عوام الناس ينبغي أن تكون مطولة مطنبا فيها وهذا القول فاسد لانه ان عنى بذلك أنها تكون ذات معان متعددة قد استقصى فيها شرح تلك الحادثة من فتح أو غيره فذلك مسلم وان عنى بذلك أنها تكون مكررة المعاني مطولة الالفاظ قصد الافهام العامة فهذا غير مسلم وهو مما لا يذهب اليه من عنده أدنى معرفة بعلم الفصاحة والبلاغة ويكفي في بطلانه كتاب الله تعالى فانه لم يجعل لخواص الناس فقط وانما جعل لعوامهم وخواصهم وأكثره لا بل جميعه مفهوم الا الفاظ للعوام الا كلمات معدودة وهي التي تسمى غريب القرآن وقد تقدم الكلام على ذلك في المقالة الاولى المختصة بالالفاظ وعلى هذا فينبغي أن تكون الكتب جميعها مما يقرأ على عوام الناس وخواصهم ذات ألفاظ سهلة مفهومة وكذلك الاشعار والخطب ومن ذهب الى غير ذلك فانه بنجوة عن هذا الفن وعلى هذا فان الاطناب لا يختص به عوام الناس وانما هو للخواص كما هو للعوام وسأبين حقيقته في كتابي هذا وأحقق القول فيه بحيث تزول الشبهة التي خبط أرباب علم البيان من أجلها وقالوا أقوالا لا تعرب عن فائدة (والذي عندي فيه) أنه اذا رجعنا الى الاسماء واشتقاقها وجدنا هذا الاسم مناسبا لمسماه وهو في أصل اللغة مأخوذ من أطنب في الشيء اذا بالغ فيه ويقال أطنبت الريح اذا اشتدت في هبوبها وأطنب في السير اذا اشتد فيه وعلى هذا فان حملناه على مقتضى مسماه كان معناه المبالغة في ايراد المعاني وهذا لا يختص بنوع واحد من أنواع علم البيان وانما يوجد فيها جميعا اذ ما من نوع منها الا ويمكن المبالغة فيه واذا كان الامر كذلك فينبغي أن يفرد هذا النوع من بينها ولا يتحقق افراده الا بذكر حده الدال على حقيقته (والذي يحد به أن يقال)

هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة فهذا حده الذى يميزه عن التطويل اذ التطويل هو زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة وأما التكرير فانه دلالة اللفظ على المعنى مرددا كقولك لمن تستدعيه أسرع أسرع فان المعنى مردد واللفظ واحد وسيرد بيان ذلك مفصلا فى بابه بعد باب الاطناب لانى ذكرت الايجاز ثم الاطناب ثم التكرير وهى أبواب يتبع بعضها بعضا واذا كان التكرير هو ايراد المعنى مرددا فمنه ما يأتى لفائدة ومنه ما يأتى لغير فائدة فأما الذى يأتى لغير فائدة فانه جزء من الاطناب وهو أخص منه فيقال حينئذ ان كل تكرير يأتى لفائدة فهو اطناب وليس كل اطناب تكريرا يأتى لفائدة وأما الذى يأتى من التكرير لغير فائدة فانه جزء من التطويل وهو أخص منه فيقال حينئذ ان كل تكرير يأتى لغير فائدة تطويل وليس كل تطويل تكريرا يأتى لغير فائدة وكنت قدمت القول فى باب الايجاز بان الايجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من غير زيادة عليه واذا تقررت هذه الحدود الثلاثة المشار اليها فان مثال الايجاز والاطناب والتطويل مثال مقصد يسلك اليه فى ثلاثة طرق فالايجاز هو أقرب الطرق الثلاثة اليه والاطناب والتطويل هما الطريقان المتساويان فى البعد اليه الا أن طريق الاطناب تشتمل على منزه من المنازه لا يوجد فى طريق التطويل وسيأتى بيان ذلك بضرب الامثلة التى تسهل من معرفته (والاطناب يوجد) تارة فى الجملة الواحدة من الكلام ويوجد تارة فى الجمل المتعددة والذى يوجد فى الجمل المتعددة أبلغ لاتساع المجال فى ايراده (وعلى هذا فانه بجملته ينقسم قسمين القسم الاول) الذى يوجد فى الجملة الواحدة من الكلام (وهو يرد حقيقة ومجازا أما الحقيقة) فمثل قولهم رأيته بعينى وقبضته بيدى ووطئته بقدمى وذقته بفمى وكل هذا يظن الظان أنه زيادة لا حاجة اليها ويقول ان الرؤية لا تكون الا بالعين والقبض لا يكون الا باليد والوطء لا يكون الا بالقدم والذوق لا يكون الا بالفم وليس الامر كذلك بل هذا يقال فى كل شئ يعظم مناله ويعز الوصول اليه فيؤكد الامر فيه على هذا الوجه دلالة على نيله والحصول عليه كقول أبى عبادة البحترى

تأمل من خلال السجف وانظر ﴿ بعينك ما شربت ومن سقانى

تجد شمس الضحى تدنو بشمس ﴿ الىّ من الرحيق الخسروانى

ولما كان الحضور فى هذا المجلس مما يعز وجوده وكان الساقى فيه على هذه

المشقة من الحسن قال انظر بعينك (وعلى هذا ورد) قوله تعالى ذلكم قولكم بأفواهكم فان هذا القول لما كان فيه افتراء عظم الله تعالى على قائله ألا ترى الى قوله تعالى فى قصة الافك اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم فصرح فى هذه الآية بما أشرت اليه من تعظيم الامر المقول وفى مساق الآية المشار اليها جاء قوله تعالى ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ألا ترى أن مساق الكلام أن الانسان يقول لزوجته أنت على كظهر أمى ويقول لمملوكه يا بنى فضرب الله لذلك مثالا فقال كيف تكون الزوجة أما وكيف يكون المملوك ابنا والجمع بين الزوجية والامومة وبين العبودية والبنوة فى حالة واحدة كالجمع بين القلبين فى الجوف وهذا تعظيم لما قالوه وانكار له ولما كان الكلام فى حال الانكار والتعظيم أتى بذكر الجوف والا فقد علم أن القلب لا يكون الا فى الجوف والتمثيل يصح بقوله ما جعل الله لرجل من قلبين وهو تام لكن فى ذكر الجوف فائدة وهى ما أشرت اليها وفيها أيضا زيادة تصوير للمعنى المقصود لانه اذا سمعه المخاطب به صور لنفسه جوفا يشتمل على قلبين فكان ذلك أسرع الى انكاره (وعليه ورد) قوله تعالى فخر عليهم السقف من فوقهم فكما أن القلب لا يكون الا فى الجوف فكذلك السقف لا يكون الا من فوق وهذا مقام ترهيب وتخويف كما أن ذلك مقام انكار وتعظيم ألا ترى الى هذه الآية بكمالها وهى قوله تعالى قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ولذكر لفظة فوقهم فائدة لا توجد مع اسقاطها من هذا الكلام وأنت تحس هذا من نفسك فانك اذا تلوت هذه الآية تخيل اليك أن سقفا خر على أولئك من فوقهم وحصل فى نفسك من الرعب ما لا يحصل مع اسقاط تلك اللفظة وفى القرآن الكريم من هذا النوع كثير كقوله تعالى فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة وقوله أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى وكل هذه الآيات انما أطنب فيها بالتأكيد لمعان اقتضتها فان النفخ فى الصور الذى تقوم به الاموات من القبور مهول

عظيم دل على القدرة الباهرة وكذلك حمل الارض والجبال فلما كانا بهذه الصفة قيل فيهما نفخة واحدة ودكة واحدة أى ان هذا الامر المهول العظيم سهل يسير على الله تعالى يفعل ويمضى الامر فيه بنفخة واحدة ودكة واحدة ولا يحتاج فيه الى طول مدة ولا كلفة مشقة فجئ بذكر الواحدة للتأكيد الاعلام بأن ذلك هين سهل على عظمه وهذه المواضع وأمثالها ترد فى القرآن الكريم ويتوهم بعض الناس أنها ترد لغير فائدة اقتضتها وليس الامر كذلك فان هذه الاسرار البلاغية لا يتنبه لها الا العارفون بها وهكذا يرد ما يرد منها فى كلام العرب (وههنا نكتة لا بد من الاشارة اليها) وذاك أنى نظرت فى قوله تعالى نفخة واحدة ودكة واحدة وفى قوله تعالى ومناة الثالثة الاخرى فوجدت ذلك غير مقيس على ما تقدم وسأبينه ببيان شاف فأقول ان قوله تعالى ومناة الثالثة الاخرى انما جيء به لتوازن الفقر التى نظمت السورة كلها عليها وهى والنجم اذا هوى ولو قيل أفرأيتم اللات والعزى ومناة ولم يقل الثالثة الاخرى لكان الكلام عاريا عن الطلاوة والحسن وكذلك لو قيل ومناة الاخرى من غير أن يقال الثالثة لانه نقص فى الفقرة الثانية عن الاولى وذاك قبيح وقد تقدم الكلام عليه فى باب السجع لكن التأكيد فى هذه الآية جاء ضمنا لتوازن الفقر وتبعا وأما نفخة واحدة ودكة واحدة فانما جيء بلفظ الواحدة فيهما وقد علم أن النفخة هى واحدة والدكة هى واحدة لمكان نظم الكلام لان السورة التى هى الحاقة جارية على هذا المنهاج فى توازنها السجعى ولو قيل نفخة من غير واحدة ودكة من غير واحدة ثم قيل بعدهما فيومئذ وقعت الواقعة لكان الكلام منثورا محتاجا الى تمام لكن التأكيد جاء فيهما ضمنا وتبعا واذا تبين ذلك واتضح فاعلم أن الفرق بين هذه الآيات وبين قوله تعالى ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ظاهر وذاك ان نفخة هى واحدة ومناة هى الثالثة (وأما ما جاء منه على سبيل المجاز) فقوله تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ففائدة ذكر الصدور ههنا أنه قد تعورف وعلم أن العمى على الحقيقة مكانه البصر وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله فى القلب تشبيه ومثل فلما أريد اثبات ما هو خلاف المتعارف من نسبة العمى الى القلوب حقيقة ونفيه عن الابصار احتاج هذا الامر الى زيادة

التصوير وتعريف ليستقر أن مكان العمى انما هو القلوب لا الابصار وهذا موضع من علم البيان كثيرة محاسنه وافرة لطائفه والمجاز فيه أحسن من الحقيقة لمكان زيادة التصوير في اثبات وصف الحقيقة للمجازى ونفيه عن الحقيقى (وأمّا القسم الثانى المختص بالجمل) فانه يشتمل على ضروب أربعة (الاوّل) منها أن يذكر الشئ فيؤتى فيه بمعان متداخلة الا أنّ كل معنى يختص بخصيصة ليست للآخر وذلك كقول أبى تمام

قطعت الى الزابين هباته * التاث مأمور السحاب المسبل

من منة مشهورة وصنيعة * بكر واحسان أغرّ محجل

فقوله منة مشهورة وصنيعة بكر واحسان أغر محجل تداخلت معانيه اذ المنة والصنيعة والاحسان متقارب بعضه من بعض وليس ذلك بتكرير لانه لو اقتصر على قوله منة وصنيعة واحسان لجاز أن يكون تكريرا ولكنه وصف كل واحدة من هذه الثلاث بصفة أخرجتها عن حكم التكرير فقال منة مشهورة فوصفها بالاشتهار لعظم شأنها وصنيعة بكر فوصفها بالبكارة أى أنها لم يؤت بمثلها من قبل واحسان أغر محجل فوصفه بالغرة والتحجيل أى هو ذو محاسن متعددة فلما وصف هذه المعانى المتداخلة التى تدل على شئ واحد بأوصاف متباينة صار ذلك اطنابا ولم يكن تكريرا ولم أجد فى ضروب الاطناب أحسن من هذا الموضع ولا ألطف وقد استعمله أبو تمام فى شعره كثيرا بخلاف غيره من الشعراء كقوله

زكى سجاياه تضيف ضيوفه * ويرجى مرجيه ويسئل سائله

فانّ غرضه من هذا القول انما هو ذكر الممدوح بالكرم وكثرة العطاء الا أنه وصفه بصفات متعددة فجعل ضيوفه تضيف وراجيه يرجى وسائله يسئل وليس هذا تكريرا لانه لا يلزم من كون ضيوفه تضيف أن يكون راجيه مرجوّا ولا أن يكون سائله مسؤلا لانّ ضيفه يستصحب ضيفا طمعا فى كرم مضيفه وسائله يسئل أى يعطى السائل عطاء كثيرا يصير به معطيا وراجيه يرجى أى أنه اذا تعلق به رجاء راج فقد أيقن بالفلاح والنجاح فهو حقيق بأن يرجى لمكان رجائه اياه وهذا أبلغ الاوصاف الثلاثة (الضرب الثانى) يسمى النفى والاثبات وهو أن يذكر الشئ على سبيل النفى ثم يذكر على سبيل الاثبات أو بالعكس ولا بدّ أن يكون فى أحدهما زيادة ليست فى الآخر والا كان

تكريرا والغرض به تأكيد ذلك المعنى المقصود (فما جاء منه) قوله تعالى لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون (واعلم) ان لهذا الضرب من الاطناب فائدة كبيرة وهو من أوكد وجوهه ألا ترى أنه قال لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ثم قال انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر والمعنى فى ذلك سواء الا أنه زاد فى الثانية قوله وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون ولولا هذه الزيادة لكان حكم هاتين الآيتين حكم التكرير وهذا الموضع ينبغى أن يتأمل ويتم النظر فيه (وعليه ورد) قوله تعالى الم غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون فقوله يعلمون بعد قوله لا يعلمون من الباب الذى نحن بصدد ذكره ألا ترى أنه نفى العلم عن الناس بما خفى عنهم من تحقيق وعده ثم أثبت لهم العلم بظاهر الحياة الدنيا فكأنهم علموا وما علموا اذ العلم بظاهر الامور ليس بعلم وانما العلم هو ما كان بالباطن من الامور (الضرب الثالث) هو أن يذكر المعنى الواحد تاما لا يحتاج الى زيادة ثم يضرب له مثال من التشبيه كقول أبى عبادة البحترى

ذات حسن لو استزادت من الحسن اليه لما أصابت مزيدا
فهى كالشمس بهجة والقضيب اللدن قدا والريم طرفا وجيدا

ألا ترى أن الاول كاف فى بلوغ الغاية فى الحسن لانه لما قال لو استزادت لما أصابت مزيدا دخل تحته كل شئ من الاشياء الحسنة الا أن للتشبيه مزية أخرى تفيد السامع تصويرا وتخييلا لا يحصل له من الاول وهذا الضرب من أحسن ما يجئ فى باب الاطناب (وكذلك) ورد قوله

تردد فى خلقى سودد * سماحا مرجى وبأسا مهيبا
فكالسيف ان جئته صارخا * وكالبحر ان جئته مستثيبا

فالبيت الثانى يدل على معنى الاول لان البحر والسيف للبأس المهيب الا أن

فى الثانى زيادة التشبيه التى تفيد تخيلا وتصويرا (الضرب الرابع) أن يستوفى معانى الغرض المقصود من كتاب أو خطبة أو قصيدة وهذا أصعب الضروب الاربعة طريقا وأضيقها بابا لانه يتفرع الى أساليب كثيرة من المعانى وأرباب النظم والنثر يتفاوتون فيه وليس الخاطر الذى يقذف بالدرر فى مثله الامعدوم الوجود ومثاله ومثال الايجاز مثال مجمل ومفصل (وقد تقدم) القول بأن الايجاز والاطناب والتطويل بمنزلة مقصد يسلك اليه ثلاثة طرق وقد أوردت ههنا أمثلة لهذه الاساليب الثلاثة وجعلتها على هيئة المقصد الذى تسلك اليه الطرق الثلاثة (فمن ذلك) ماذكرته فى وصف بستان ذات فواكه متعددة فاذا أريد وصفه على حكم الايجاز قيل فيه من كل فاكهة زوجان وهذا كلام الله تعالى وقد جمع جميع أنواع الفاكهة بأحسن لفظ وأخصره واذا أريد وصف ذلك البستان على حكم الاطناب قيل فيه ماأذكره وهو فصل من كتاب أنشأته وهو جنة علت أرضها أن تمسك ماء وغنيت بينبوعها أن تستجدى سماء وهى ذات ثمار مختلفة الغرابة وتربة منجبة وما كل تربة توصف بالنجابة ففيها المشمش الذى يسبق غيره بقدومه ويقذف أيدى الجانين بنجومه فهو يسمو بطيب الفرع والنجار ولو نظم فى جيد الحسناء لاشتبه بقلادة من نضار وله زمن الربيع الذى هو أعدل الازمان وقد شبه بسن الصبا فى الاسنان وفيها التفاح الذى رق جلده وعظم قده ونور خده وطابت أنفاسه فلا بان الوادى ولا رنده واذا نظر اليه وجد منه حظ الشم والنظر ونسبته من سرر الغزلان أولى من نسبته الى منابت الشجر وفيها العنب الذى هو أكرم الثمار طينة وأكثرها ألوان زينة وأول غرس اغترسه نوح عليه السلام عند خروجه من السفينة فقطفه يميل بكف قاطفه ويغرى بالوصف لسان واصفه وفيها الرمان الذى هو طعام وشراب وبه شبهت نهود الكعاب ومن فضله أنه لانوى له فيرمى نواه ولا يخرج اللؤلؤ والمرجان من فاكهة سواه وفيها التين الذى أقسم الله به تنويها بذكره واستتر آدم عليه السلام بورقه اذ كشفت المعصية من ستره وخص بطول الاعناق فمارى بها من ميل فهو نشوة من سكره وقد وصف بأنه راق طعما ونعم جسما وقيل هذا كنيف ملئ شهدا لا كنيف ملئ علما وفيها من ثمرات النخيل مايزهى بلونه وشكله ويشغل

بلذة منظره عن لذة أكله وهو الذى فضل ذوات الافنان يعرجونه ولا تماثل بينه وبين الحلواء هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه وفيها غير ذلك من أشكال الفاكهة وأصنافها وكلها معدود من أوساطها لا من أطرافها ولقد دخلتها فاستهوتنى حسدا ولم ألم صاحبها على قوله لن تبيد هذه أبدا (فهذا الوصف) على هذه الصورة يسمى اطنابا لانه لم يعر عن فائدة وذاك الاول هو الايجاز لانه اشتمل باختصاره على جميع أصناف الفاكهة (وأما التطويل) فهو أن تعد الاصناف المذكورة تعدادا من غير وصف لطيف ولا نعت رائق فيقال مشمش وتفاح وعنب ورمان ونخل وكذا وكذا وانظر أيها المتأمل الى ما أشرت اليه من هذه الاقسام الثلاثة فى الايجاز والاطناب والتطويل وقس عليها ما يأتى منها (وسأزيد ذلك بيانا بمثال آخر فأقول) قد ورد فى باب الايجاز كتاب كتبه طاهر بن الحسين الى المأمون رحمه الله تعالى يخبره بهزيمة عيسى بن ماهان وقتله اياه وهو كتابى الى أمير المؤمنين ورأس عيسى بن ماهان بين يدى وخاتمه فى يدى وعسكره مصرف تحت أمرى والسلام وهذا كتاب جامع للمعنى شديد الاختصار واذا كتب ما هو فى معناه على وجه الاطناب قيل فيه ما أذكره وهو ما أنشأته مثالا فى هذا الموضع ليعلم به الفرق بين الايجاز والاطناب وهو أصدر كتابه هذا وقد نصر بالفئة القليلة على الفئة الكثيرة وانقلب باليد الملأى والعين القريرة وكان انتصاره بجد أمير المؤمنين لا بجد نصله والجد أغنى من الجيش وان كثرت أمداد خيله ورجله وجىء برأس عيسى ابن ماهان وهو على جسد غير جسده وليس له قدم فيقال انه يسعى بقدمه ولا يد فيقال انه يبطش بيده ولقد طال وطوله مؤذن بقصر شانه وحسدت الضباع الطير على مكانها منه وهو غير محسود على مكانه وأحضر خاتمه وهو الخاتم الذى كان الامر يجرى على نقش أسطره وكان يرجو أن يصدر كتاب الفتح بختمه فحال ورود المنية دون مصدره وكذلك البغى مرتعه وبيل ومصرعه جليل وسيفه وان مضى فانه عند الضرب كليل وقد نطق الفأل بأن الخاتم والرأس مشيران بالحصول على خاتم الملك وراسه وهذا الفتح أساس لما يستقبل بناؤه ولا يستقر البناء الاعلى أساسه والعساكر التى كانت على أمير المؤمنين حربا صارت له سلما وأعطته البيعة علما بفضله وليس من تابع

تقليداً لمن هو تابع لها وهم الآن مصرفون تحت الاوامر يمضون بكشف السرائر مطيفون باللواء الذى خصه الله باستفتاح المقالد واستبطاء المنابر وكاسرت خطوات القلم فى أثناء هذا القرطاس فكذلك سرت طلائع الرعب قبل الطلائع فى قلوب الناس وليس فى البلاد ما يغلق بمشيئة الله بابا ولا يحسر نقابا وعلى الله اتمام النعم التى افتتحها واجابة أمير المؤمنين الى مقترحاته التى اقترحها والسلام وهذا الكتاب يشتمل على ما اشتمل عليه كتاب طاهر بن الحسين من المعنى الا أنه فصل ذلك الاجمال (ولو كتبت على وجه التطويل) الذى لا فائدة فيه لقيل أصدر كتابه فى يوم كذا من شهر كذا والتقى عسكر أمير المؤمنين وعسكر عدوه الباغى وتطاعن الفريقان وتزاحف الجمعان وحمى القتال واشتد النزال وترادفت الكتائب وتلاحقت المقانب وقتل عيسى بن ماهان واحتز رأسه وقطع ونزع الخاتم من يده وخلع وترك جسده طعاما للطيور والسباع والذئاب والضباع وانجلت الوقعة عن غلب أمير المؤمنين ونصره وخذلان عدوه وقهره والسلام فهذا الكتاب يشتمل على تطويل لا فائدة فيه لانه كرر فيه معانى يتم الغرض بدونها وذكر ما لا حاجة اليه فى الاعلام بالواقعة فانظر الى هذه الكتب الثلاثة وتأملها كما تأملت الذى تقدمها (وبعد ذلك انى أورد لك كتابا وتقليدا يوضحان لك فائدة الاطناب أما الكتاب) فانه كتاب كتبته عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله الى ديوان الخلافة ببغداد يتضمن فتح البيت المقدس واستنقاذه من أيدى الكفار وذلك فى معارضة كتاب كتبه عبد الرحيم بن على البيسانى عنه وكان الفتح فى السابع والعشرين من شهر رجب من سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة خلد الله سلطان الديوان العزيز النبوى وجعل أيام دولته أترابا ومناقب مجدها هضابا وزادها على مرور الأيام شبابا وأوسعها توشية واذهابا اذا أوسع غيرها تلاشيا وذهابا ومنحها فى الدنيا والآخرة عطاء وفاقا لا عطاء حسابا ومثل جدودها فى عيون الاعداء شيأ عجابا وأراهم منها وراءهم فى اليقظة ارهابا وارعابا وفى المنام ابلا صعابا تقود خيلا عرابا لو جمعت العصور فى صعيد واحد لكان هذا العصر عليها فاخرا وفاز بسبق أوائلها وان جاء آخرا وليس ذلك الا لحظوته بالدولة الناصرية التى كسته حبرا وقلدته دررا ودونت له من المحامد سيرا وجعلت

فى كل ناحيـة من وجهه شمـا وقرا وقيض الله لها من الخادم وليا يوصل يومه فى طاعتها بأمسه ولا يرى الا ومن نفسه فى خدمتها رقيب على نفسه وطالما سعى بين يديها بمساع تنص بأخبارها محافل القوم ويقال له فيها ما ضرك ما صنعت بعد اليوم وقد سلفت منها آيات تمايل فى أشباهها وأضرابها واستؤنف لها الآن واحـدة تدعى بأم كتابها وهى فتح البيت المقدس الذى تفتحت له أبواب السماء وكثرت بأحاديث مجده كواكب الظلماء واسترد حق الاسلام وطالما سعت الهمم فى طلبه بالزاد والماء ومن أحسن ما أتى به أنه آنس قبلته الثانية بقبلته الاولى وأطال منه كل ما قصرته يد الكفر وكانت هى الطولى وبه صح لهـذا البيت معنى اسمه وانتقل الى الطهارة ونزاهتها عن الرجس ووصمه ولم يحزه الخادم حتى طوى ما حوله من البلاد المنجدة والغائرة وكان مركز الدائرتها فغادره وهو طرف من أطراف الدائرة ولما شارفه نظر منه الى ظلة من الظلل ورأى بلدا قد استقر على متن الجبل مثل الجبل ويطيف به واد تستهزئ عصمته بنوب الدهر وقد انعطف على جوانبه انعطاف الحنوة على الظهر والمسالك اليه مع ذلك ذات تعاريج ومعارج وهى ضيقة مستوعرة يطلق عليها اسم الطرق ولا يطلق عليها اسم المناهج فلما رآه قال هذا أمنية لمن يرى وعلم حينئذ أن كل الصيد فى جوف الفرا الآن لسان حاله خاطبه وهو أفصح الخطاب وقال امدد يدك فليس دونها من حجاب وكان قد برز من السلاح فى لباس رائع من المنعة وأخرج من السواد الاعظم ما تخدع العيون والحرب خدعة وما يمنع رقاب البلاد بكثرة السواد ولا يحمى بعوالى الاسوار بل بعوالى الصعاد وفى يوم كذا وكذا خيم المسلمون فى عقد داره ونزلوا منه نزول الجار الى جانب جاره ثم ارتادوا موقفا للقتال وان لم يكن هنالك موقف يقرب مناله ولا يتسع مجاله واتفق الرأى على لسان المنجنيق فى خطبة عقيلة أبلغ خطابا وأدنى من المطلوب طلابا وانه اذا ضرب بعصاه الحجر انبجست عيون أهله دماء كما انبجست عيون الجرماء هذا والعزائم تنظر الى هذا الرأى نظر المستجهل وتصد عنه صد ود المستعجل وتقول ما بارتياد السهل تملك الصعاب ومن ابتنى السيف صرحا لم ينأ عنه بلوغ الاسباب والحديد لا يفلح الا بالحديد والركن الشديد لا يصدم الا بركن شديد فعندها صمم

الخادم أن يلقى البلد مواثبا لا موار با وأن يجعل للزحف جانبا وللمنجنيق جانبا ونوى أن يبدى صفحة وجهه أمام الناس وتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى الاتقاء به اذا اشتد الباس ولاشك أن قلوب الجيوش بمنزلة قلوبها وأن النفاذ لأسنة الرماح لا لكعوبها ولايشتفى من الوغى الا من كان طرفه أمام طرفه ومن وقف خلف جنوده فقد جعل عزائمها من خلفه ولما وقع الزحف صورع البلد صراعا بعد أن قورع قراعا ثم هززة طوته بيمينها ونشرته بشمالها وأذاقته العذاب الادنى دون العذاب الاكبر من نكالها وبدون ذلك يكون عرك أديمه وعطف شكيمه ولم يكن قتاله بالسهام التى غايتها أن تصف أجنحتها المطار وتنال بكلومها من فوق الاسوار بل بالسيوف التى اذا جالدت بلدا أخذت بكظمه وتوغلت فى هجمه وأغنت بسرعة خطواتها اليه عن المنجنيق وابطاء هدمه والسيف ليس بعروّ من النفس التى تظل طائشة عند لقائها جائشة عند استيفائها فالقلب توصف بأنها تجيش اذا كانت أعدادا والنفوس لاتجيش الا اذا كانت ثمادا ومايستوى وجوه الاقران فى اقدامها واحجامها فمنها المظلم اذا رابها الروع باشراقها ومنها المشرق اذا شابها الروع باظلامها وكانت وجوه المؤمنين فى هذا المقام أحظى بالباس الاشراق وأتم ابدرا والبدور لايكون تمامها فى المحاق فامنهم الا من عرض نفسه ليوم العرض ومشى الى جنة عرضها السموات والارض حتى اتسع المكر وضاق بأعداء الله المقر وحرقت أوعار الخنادق وصار الرجاء لمنطقة السور كالمناطق ولم يستشهد منهم الا عديد يسير لاتدخله لام التعريف وكانت أجنحة الملائكة مطبقة بهم فأكرم بالمطاف به وبالمطيف وقد أسعد الله أولئك بالشهادة التى هى الفوز الاكبر وقرنها بادناء مضاجعهم من الارض المقدسة التى هى أرض المحشر فمايسرهم أن يعودوا الى الدنيا الا للاستزادة من ثواب الجهاد وأيسر ذلك أن أرواحهم فى حواصل طير خضر تعلق من ثمار الجنة الى يوم المعاد ولما رأى الكفار أن صليبهم قد صار خوارا وأن زئيرهم قد انقلب خوارا أذعنت أيديهم باستسلامها وصانعت بالمال عن الرقاب واسترقاقها وبالبلد عن النفوس وحمامها فأبى السيف أن يترك رقابا تغذى باكلها ويحل من عشقها على مداومة وصلها وأذكر الخادم أن سلف هؤلاء

انتزع هذا البلد قسرا وقتل من كان به من المسلمين غدرا وذلك ثأر ذخره الله لك حتى تحظى فى الآخرة بثوابه وتتجمل فى الدنيا بزينة أثوابه والمسلم أخو المسلم يأخذ بدمه وان تطاولت أمداد السنين على قدمه فما بعد عهد هذا الثأر من ثائره ويا طيب خبره عند سامعه وحسن أثره عند ناظره ولما تحقق العزم على ذلك أشار ذوو الرأى بقبول الفدية المبذولة والا يحمل العدو على ما ليست نفسه عليه محمولة فان النقد اذا أخرج صار ذا أنياب وأظفار واستضرى حتى يلتحق بالسباع الضوار وهؤلاء اذا رأوا عين القتل تجردوا للقتال وركبوا الاهوال للنجاة من الاهوال ومن يدع الى خطة رشد فليقبلها ومن أنشطت له عقل الامور فلا يعقلها وعلى كل حال فان الفدية للمسلمين ارغب وأموال يتقوى بها على العدو خير من دماء تذهب هذا وبالبلد من أسارى المسلمين من حياة أحدهم بحياة كل نفس ومن حرمته عند الله خير مما طلعت عليه الشمس ولا يوازى فتحه عنوة أن يتعدى اليهم اضراره ولا شك أنهم يعاجلون بالقتل قبل أن تدخل أقطاره فرأى الخادم عند ذلك أن الرأى مشترك وأن له معتركا كما أن السيف له معترك وتقرر تسليم البلد ودموع أهله قد غضبت أحداقها وأقرحت آماقها ولم تطب أنفسهم بفراق قامه حتى كادت الهام تفارق أعناقها فعلى حب ذلك التراب تقوم قيامتهم وتشيل نعامتهم ولطالما ابتهلوا عنده أيام الحصار واستنصروه فلم يحظوا منه بمعونة الانتصار وكيف يرجى النصر من معبود تقرّ شيعته بقتله أم كيف يدفع عن غيره من كان هو مبتلى بمثله وهذه عقول ضعيفة نفذ فيها كيد شيطانها وأخفى عنها محجة الحق على وضوح بيانها ولقد كان يوم التسليم عريض الفخار زائد العمر على عمر أبويه من الليل والنهار واشتق من اسمه معنى السلامة للمسلمين والهلاك للكفار وزاده فخرا الى فخره أنه وافق اليوم المسفر عن ليلة المعراج النبوى الذى كان فى تلك الارض موعده ومن حضرتها مصعده وذلك هو الاسراء الذى ركب اليه ظهر البراق واستفتح له أبواب السبع الطباق ولو رقى فيه الانبياء على اختلاف درجاتهم فظفر خير ملتق بخير لاق وبركة ذلك اليوم سرت الى هذا فطالت من شهرته وضمنته نصرة الدين الحنيف الذى لله عناية بنصره وجعلته تاريخا يؤرخ بفتحه كما أرخ للنبى صلى الله عليه

بلغ ثم يتذكر هجرته واذا أنصف واصفه قال انه ليوم البدري في اقتراب النسب
وانه العجيبة التي لم تحفل عنها الايام في صفر وانما أجفلت عنها في رجب فما
أكثر الفائز فيه والمغبون والمسرور والمحزون فمن جد راكب ومن جد راجل
ومن عز قادم وذل راحل ولطالما جد الخادم في السعي له وأبصار العدا
ترافقه وألسنتهم تسلقه ومامنهم الامن أكثر الشناعة أن ذلك السعي
للاستكثار من البلاد والله يعلم أنه لم يكن الا للاستكثار من موارد الجهاد
لاجرم أن صدق النية كان له عقبى الدار وتلك الاقوال الكاذبة كان لها عقبى
البوار ويوم هذا الفتح يفتقر قبله الى أيام تجلو بياضه عن سوادها ويلقح
لها بطون المساعي حتى يكون هو نتيجة ميلادها ولما ظفر به الخادم لم يكن
لأهل التجابة فيه قول يرد كذابه ولا يقبل صوابه والشهب الطالعة على
ذوات السروج أصدق نبأ من الشهب الطالعة من ذوات البروج على
أنهما وان اتفقا رجما فانهما يختلفان علما فعلم هذه يسأل عنه ثغر الاعناق
وعلم هذه يسأل عنه بطون الاوراق ولما دخل البلد وجد به أمما لولا أن
ضربت عليهم الذلة لدافعوا المنايا مكاثرة وغالبوا السيوف مصابرة وهم
طوائف مختلفو الالسنة والالوان وان قيل انهم أناسي فان صورهم صور الجان
ومنهم طائفة استشعرت حبس نفوسها وخصت الشعر عن أوساط رؤسها
وتوحشت بالرهبانية حتى ارتاعت العيون من أشكالها ولبوسها ولما رأوا
طلعة الاسلام داخلة عليهم أعلنوا بالجؤار واصطرخوا جميعا كما يصطرخون
غدا في النار وزادهم غيظا الى غيظهم أنهم رأوا الصلاة قائمة وقد صار
الناقوس أذانا وكلمة الكفر ايمانا وأقيمت الجمعة وهي أول جمعة حظي
الاقصى بمشهدها وحضرتها الامة الاسلامية بأحمرها وأسودها فمن باك بدمعة
سروره الباردة ومن مجيل نظره في نعمة الله الواردة ومن شاكر للزمن الذي
أبقاه الى يومه هذا الذي كل الايام له حاسدة من كان مولده تقدم قبله أو بعده
فكأنه لم يولد وكانت هذه الجمعة في رابع شعبان وهو الشهر الذي جعله الله
طليعة لشهر الصيام وليلة نصفه هي الليلة المعروفة باحياء قيامها الى حين وفاة
شخص الظلام والتي يغفر فيها لأكثر من شعر غنم كلب من ذوي الذنوب
والآثام وجيء باللواء الاسود فركز من المنبر في أعلاه ونطق لسان حاله فقال

من

من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مولاه فانا مولاه ولم يكن لسان الخطيب بأفصح بيانا من لسانه غير أن هذا يزهى ببلاغ موعظته وهذا يزهى بعزة سلطانه ولما ذكرت سمات الخلافة المعظمة أتبعها الناس بالدعاء الذى ملأ المسجد بضجيجه وسبق الكرام الكاتبون بزميله الى السماء وشجيجه وكان اليوم فصلا والموقف حفلا وذلك الدعاء فرضا لا نفلا ولا ينتهى الوصف الى ما شوهد بالبلد من الآثار العجيبة التى تستلب العجلان وتستجلب الاذهان وتستنطق الالسنة بالتسبيح لله الذى فطر الانسان ومن جملة ذلك ما تبوهى فى حسنه من البيع والصوامع ذوات الابنية الروائع التى روضت بالزخارف ترويض الازهار ورفعت معاقدها حتى كادت النجوم توحى اليها بالاسرار ومامنها الا مايقال انه ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ولقد ألان الله لهم الحجارة حتى تخيروا فى توسيعها بضروب الاختيار وجعلوها أعاجيب للاسماع والابصار وقيل فيها هذه روضات جنان لا أفنية ديار هذا الى غيره مما وجد من معبودات القوم الموصفة بانها آلهة الصلب اللاتى من ذوات النصب وأكثر ذلك وجد فى المسجد موضوعا وعلى قبته مرفوعا فأنزلت على قرونها واستنت بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طعن عيونها واستوطن المؤمن مكان الكفور وبدلت الظلمات بالنور وقالت الصخرة الآن جمع بينى وبين الحجر الاسود خاطب الاسلام والجمع بين الاختين فى هذا الامر من الحلال لا من الحرام وقال الاقصى سبحان الذى أسرى الى بجنده كما أسرى بعبده وأعاد لى عهود الفتح الاول بهذا الفتح الذى أتى من بعده وعود الذاهب ارجاء لدوام أحقابه وخلود الانسان لا يكون الا فيما به وهذا هو الخطب الذى جدد للاسلام عهود ابن خطابه رضى الله عنه الآن مستنقذا الطريدة أولى بها من صاحبها ولئن غصبتها يد غالبة فقد جاء الله باليد التى غصبتها من غاصبها هذا [illegible] يستنقذها الخادم الا بانضاء سلاح أنفقه الوقعة الاولى التى استأصلت حماة البلاد واستباحت أغيالها بقتل الآساد فكانت لهذا الفتح عنوانا ولتقرير أصوله بنيانا ولم ينج بها من طواغيت الكفر الا طاغية ترابلس فان السيوف أسارته ويد فؤاده قلق من أوجالها وفى عينه دهش من أهوالها وقد قرن الله هذا الفتح ببشرى موته وكفى المسلمين مؤنة الاهتمام لفوته ففز

من الوقعة ولم ينج بذلك الفرار واعتصم بذات جداره فقتله الخوف من وراء الجدار ولا فرق بين قتيل خوف السفار و بين قتيل الشفار وافقد فرّ من المكروه الى مثله لكنه انتقل من ميتة عزه الى ميتة ذله وكذلك آثار الخادم فى أعداء الله فهم هلكى بسيفه فى مواقف الطراد فان فرّوا فبخوفه على جنوب الوساد وبعد هذه فهل يمترون فى أن دماءهم قد استجابت لمراده وأن سواء لديه من أمكن منها فى دنوه ومن امتنع منها فى بعاده وكل ذلك مستقد من الاستنصار بعناية الديوان العزيز التى من شأنها أن تجعل الرؤيا حقا وأحاديث الآمال صدقا وتقرّب بعيدات الامور حتى تجعل الشرق غربا والغرب شرقا فهذا الفتح منسوب اليها وان كان الخادم هو الساعى فى تسهيله والمجاهد بنفسه وماله فى سبيله فعلى عطف دولتها ترقم أعلامه وفى أيامها تؤرخ أيامه ولو أبيح قلم الخلاء فى مقام المقال كما أبيح لصاحبه فى مقام القتال لاختالت مشيته فى هذا الكتاب وقال وأسهب فليس الاكثار ههنا من الاسهاب لكنه منعه من ذلك أن يكون ممن نخر بعمله فأبطله وأرسل خطابه الى الديوان العزيز فلم يقبضه بالادب حين أرسله وقد ارتاد من يبلغ عنه مشاريح هذه الوقائع التى اختصرها ويمثل صورها لمن غاب عنها كما تمثلت لمن حضرها ويكون مكانه من النباهة كريما كمكانها وهى عرائس المساعى فاحسن الناس بيانا وهل لابداع حسانها والسائر بها فلان وهو راوى أخبار نصرها التى صحبها فى تجريح الرجال وعوالى اسنادها مأخوذة من طرق العوال والايام والليالى رواة فما الظن برواية الايام والليالى وستتلو هذه الاخبار الصادقة بمشيئة الله أخبار مثلها صادقة ومادامت السيوف ناطقة فى يد الخادم فالالسنة عنها ناطقة وللآراء العالية مزيد العلوّ ان شاء الله تعالى (وأما التقليد) فانه تقليد أنشأته لمنصب الحسبة وهو (أما بعد) فقد جعل الله جزاء التمكين فى أرضه أن يقام بحدود فرضه ونحن نسأله التوفيق لهذا الامر الذى ثقل حمله وعدم أهله فقد جىء بنا فى زمن أصبح الناس فيه سدى وعاد الاسلام فيه غريبا كما بدا وهو الزمن الذى كثرت فيه أشراط اليوم الاخير وغربلت فيه الامة حتى لم يبق الاحثالة كحثالة التمر والشعير ومن أهم ما نقرّر بناءه ونقدّم عناءه ونصلح به الزمن وأبناءه أن نمضى أحكام الشريعة المطهرة على

ماقررته في تعريف ماعرفته وتنكير مانكرته ومدار ذلك على النظر في أمر الحسبة التي تتنزل منه بمنزلة السلك من العقد والكف من الزند وقد أخلصنا النية في ارتياد من يقوم فيها ويكفيها ويصطلي لها ولا يصطفيها وهو أنت أيها الشيخ الأجل فلان أحسن الله لك الاثر وصدق فيك النظر فتولها غير موكول اليها بل معانا عليها واعلم أن الناس قد أماتوا سننا وأحيوا بدعا وتفرقوا فيما أحدثوه من المحدثات شيعا وأظلمنهم من أقرهم على أمرهم ولم يأخذهم بقوارع زجرهم فان السكوت عن البدعة رضا بمكانها وترك النهي عنها كالامر باتيانها ولم يأت بنا الله تعالى الا لنسد الدين قائما على أصوله صادعا بحكم الله فيه وحكم رسوله ونحن نأمرك أن تتصفح أحوال الناس في أمر دينهم الذي هو عصمة مالهم وأمر معاشهم الذي تميز به حرامهم من حلالهم فأبدأ أولا بالنظر في العقائد واهدفيها الى سبيل الفرقة الناجية الذي هو سبيل واحد وتلك الفرقة هي السلف الصالح الذين لزموا مواطن الحق فأقاموا وقالوا ربنا الله ثم استقاموا ومن عداهم شعب دانوا أديانا وعبدوا من الاهواء أوثانا واتبعوا مالم ينزل به الله سلطانا ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم فمن انتهى من هؤلاء الى فلسفة فاقتله ولا تسمع له قولا ولا تقبل منه صرفا ولا عدلا وليكن قتله على رؤس الاشهاد مابين حاضر وباد فما تكدرت الشرائع بمثل مقالته ولا تدنست علومها بمثل أرجاسه والمنتمي اليها يعرف بنكره ويستدل عليه بظلمة كفره وتلك ظلمة تدرك بالقلوب لا بالابصار وتظهر زيادتها ونقصها بحسب ما عند رائيها من الانوار وما تجده من كتبها التي هي سموم ناقعة لا علوم نافعة وأفاعي ملففة لا أقوال مؤلفة فاستأصل شأفتها بالتمزيق وافعل بها مايفعله الله بأهلها من التحريق ولا يقنعك ذلك حتى تجتهد في تتبع آثارها والكشف عن مكامن أسرارها فمن وجدت في بيته فلؤخذ جهارا ولينكل به اشهارا وليقل هذا جزاء من استكبر استكبارا ولم يرج لله وقارا وأما من تحدث في القدر وقال فيه بمخالفة نص الخبر فليس في شيء من ربقة الاسلام وان تنسك بمداومة الصلاة والصيام قال النبي صلى الله عليه وسلم القدرية مجوس هذه الامة والمراد

ذلك أنهم ماثلوا بين الله والعبد والضياء والظلمة فعلاج هذه الطائفة أن تجزى بأن تخزى فليقابل جمعها بالتكسير واسمها بالتصغير ولتنقل الى ثقل الحدود عن خفة التعزير ومن كان منها ذا مكانة نابهة فليهبط أو شاهد ثمعادلة فليسقط وكذلك يجرى الحكم فيمن قال بالتشبيه والتجسيم أو قال بحدوث القرآن القديم ومن ملحدى القرآن فرقة فرقت بين المعنى والخط وفرقة قالت فيه بالشكل والنقط وكل هؤلاء قوم خبثت سرائرهم وعميت بصائرهم وعظمت عند الله جرائمهم نخذهم بالتوبة التى تطهر أهلها وتجب ما قبلها وليست التوبة عبارة عن ذكرى اللسان والقلب لاه فى قبضة النسيان بل هى عبارة عن الندم على ما فات واستئناف الاخلاص فيما هو آت وقد جعل الله التائب من أحبابه ووصفه فى مواضع كثيرة من كتابه ومن فضله أن الملائكة يستغفرون لذنبه ويشفعون له الى ربه فان أبت هذه الطوائف الاصرارا ولم يزدهم دعاؤك الا فرارا فاعلم أن الله قد طبع على قلوبهم طبعا وألحقهم بالذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكره وكانوا لا يستطيعون سمعا نخذهم عند ذلك بحد الجلاد فان لم ينجع فبحد ذوات الحد فان هذه أمراض عى لا ترجى لها الافاقة ولا تبرئ منها الا الدماء المراقة وأما الفرقة المدعوة بالرافضة التى هى لما رفعه الله خافضة فانهم أناس ليس لهم من الدين الا اسمه ولا من الاسلام الا رسمه واذا نقب عن مذهبهم وجد على العصبية موضوعا ولغير ما شرعه الله ورسوله مشروعا ذبوا عن على رضى الله عنه فأسلموه وأخروه اذ قدموه وهؤلاء وضعوا أحاديث فنقلوها وأولوها على ما أولوها فتبع الآخر منهم الاول على غمة وقالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وههنا غير ما ذكرناه من عقائد محلولة ومذاهب غير منقولة ولا مقبولة وبالهدى يتبين طريق الضلال وبالصحة يظهر أثر الاعتلال ولا عقيدة الا عقيدة السنة والكتاب ولا دين الا دين المجاز الماء والمحراب واذا فرغنا من الوصية بالاصول التى هى للدين ملاك فلنتبعها بالفروع التى هى له مسالك وأول ذلك الصلاة وهى فى مبانى الاسلام الخمس أوكد خمسه وآخر ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند مفارقة نفسه ومن فضلها أنها العمل الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر ولا عذر فى تركها لاحد من الناس فيقال انه يعذر فاجمع

الناس اليها واحلهم عليها وحرهم بالاجتماع لها فى المساجد ونادفيهم بفضيلة صلاة الجماعة على صلاة الواحد وراقبهم عند أوقات الاذان فى الاسواق التى هى معركة الشيطان فمن شغل بتثمير مكسبه ولهاعنها بالاقبال على لهوه ولعبه نخذه بالآلة العصرية التى تضع من قدره وتذيقه وبال أمره ولايمنعك عن ذى هيبة هيبته ولاعن ذى شيبة شيبته فانما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ومن مهمات الصلاة يوم الجمعة الذى هو فى الايام بمنزلة الاعياد فى الاعوام وفيه الساعة المخصوصة بالدعاء المجاب التى ماصادفها عبد الاظفر بالطلاب فمر الناس بابتداره فى البواكر والفوز فيه بقربان البدنات الاخاير فانه اليوم الذى لم تطلع الشمس على مثله وبه فضل هذا الدين على أهل الكتاب من قبله فهو واسطة عقد الايام السبعة ولاشتماله على مجموع فضلها سمى يوم الجمعة وفى الاعوام مواسم لصلوات مخصوصة كالتراويح فى شهر رمضان والرغائب فى أول جمعة من رجب وليلة النصف من شعبان فلتملا المساجد فى هذه المواسم التى تكثر فيها شهادات الاقلام فى كتب الطاعات ومحو الآثام ومن حضرها وليس همه الاأن يمرّ بها طروقها ويواعد اليه أخدانه رفثا أوفسوقا فهؤلاء هم الخلف الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فابعث عليهم قوما يسلبونهم سلبا ويوجعونهم ضربا ويملؤن عيونهم مهابة وقلوبهم رعبا فبيوت الله مطهرة من هذه الادناس ولم تعمر لشياطين الانس واغماءرت للناس فلايحضرها الاراكع وساجد أو ذاكر وحامد وههنا عظيمة عضيهة وفاحشة يفقه لها من ليست نفسه بفقيهة وهى الربا فانه قد كثرا كله وتظاهر به فاعله وقال فساق الفقهاء بتأويله وتوصلوا الى شبهة تحليله ولايتسارع الى ذلك الامن أعمى الله قلبه ومحق كسبه قال النبى صلى الله عليه وسلم لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها وباعوها وأكلوا أثمانها ونحن نأمرك أن تشمر فى هذا الامر تشميرا برهبة الباس ولاتدع ربا حتى تضعه وأول ربا تضعه ربا العباس فتأديب الكبير قاض بتهذيب الصغير والاسوة بالرفيع خلاف الاسوة بالنظير وجل معاملة الربا تجرى فى سوق الصرف الذى تختلف به النقود وتفترض فيه العقود

ويخاض فى نار نيره الى النار ذات الوقود وبه قوم أوسعوا عيون الموازين غمزا وألسنتها همزا ولمزا وأصبح الدرهم والدينار عندهم بمنزلة الصنمين اللات والعزى ولا يرى منهم الا من الحرص مفاض على ثيابه وقد جمع بين المعرفة بالحرام والهجوم على ارتكابه فعدل ميل هؤلاء تعديلا وتحولهم على مرور الايام تحويلا واعلم أنك قد وليت من الكيل والميزان أمرين هلكت فيهما الامم السالفة فباشرهما بيدك مباشرة الاختبار والاختيار ولا تقل أهلهما عثرة فان الاقالة لا تنهى عن العثار وكل هؤلاء من سواد الناس ممن لم يزل غرسه ولا فقهت نفسه وليس همه الا فرجه أو ضرسه فخذهم بآلة التعزير التى هى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى ومن آثارها أنها ترج أرض الرأس رجا وتفرج سماءه فرجا ويسلك بصاحبه هديا ونهجا وقد كثر فى الاسواق الخلابة والنجش وتلقى الركبان وبيع الحاضر للبادى وتنفيق السلعة باليمين الكاذبة وكل هذه من المحظورات التى وردت الاخبار النبوية ببيانها والنهى عن تورد مكانها فمن قارف شيأ منها جاهلا بصريعه فقومه بالتعليم واهده الى الصراط المستقيم ومن عرف ما اقترف فأذقه حر التأديب قبل أن يذاق غدا حر التعذيب وأعلمه أن الارزاق بيد الله تعالى لا ينقصها عجز القاعد ولا يزيدها حرص الكادح وقد ينقلب الجاهد فيها بصفقة الخاسر والوادع بصفقة الرابح ومن سنة الله تعالى أن يمحى الحلال وان كان يسيرا ويمحق الحرام وان كان كثيرا ومن الناس من آتاه الله مالا فبث فى الاسواق جنود ذهبه وورقه واحتكر ما حله الميزان من ذوات رطله ووسعه الكيل من ذوات وسقه فاصبح فقراء بلده فى ضيق من عدم الرفق ومدد الرزق فليمنع هؤلاء أن يجعلوا رزق الله محتكرا ومعاش عباده محتجرا وليؤمروا بأن يتراحموا ولا يتزاحموا وأن يأخذ الغنى منهم بقدر الكفاف ويترك للفقير ما يعينه على الاسعاف قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا حكرة فى سوقنا لا يعمد رجال بايديهم فضول من اذهاب الى رزق من أرزاق الله تعالى ينزل بساحتنا فيحتكرونه علينا ولكن أيما جالب جلب على عمود كبده فذلك ضيف عمر فليبع كيف شاء الله وليمسك كيف شاء الله وأما التسعير فانه وأن آثره القاطنون وحكم به القاسطون وقيل ان فى ذلك للفقير تيسيرا العسير فليس

لاحد أن يكون يد الله فى حفظ ما رفع وبذل ما منع فقف أنت حيث أوقفك حكم الحق ودع ما يعن لك من مصلحة الخلق ولا تكن ممن تبع الرأى والنظر وترك الآية والخبر فحكمة الله مطوية فيما يأمر به على ألسنة رسله وليست مما يستنبطه ذو العلم بعلمه ولا يستدل عليه ذو العقل بعقله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ومما أمرنا به أن نمحو الصغيرة كما نمحو الكبيرة فان لمم الذنوب كالقطر يسير مجتمعه سيلا متدفقا وكان أوله قطرا متفرقا وقد استمر فى الناس عوائدتها وتوابا استمرارها ولم ينظروا الى ثقل أوزارها فمن ذلك لبس الذهب والحرير الذى لم يلبسه الامن عدم عند الله خلاقا وان قيل انه شعار للغنى فلم يزد صاحبه من الحسنات الا املاقا وللبس عباءة مع التقوى أحسن فى العيون شعارا وأعظم فى الصدور وقارا ويلتحق بهذه المعصية صوغ الذهب والفضة آنية يمنع منها حق الصدقات وهو حق يقاتل مانعه ويعصى فى استعمالها أمر الله وهو حد من حدوده يعاقب عاصيه ويثاب طائعه وكذلك يجرى الحكم فى الصور المرقومة فى البيوت والثياب وعلى الستور المعلقة على الابواب واخراجها فى ضروب أشكال الحيوان للاعبة الصبيان وذلك مما انه لخلق الله فى التقدير ولهذا يؤمر صانعه بنفخ الروح فيما صوره من التصوير ومما يغلظ نكيره اطالة الذيول للاجترار والمباهاة لما فيها من جهة التيه والاستكبار ولن يخرق صاحبها الارض باعجابه ولا يبلغ طول الجبال باطالة ثيابه قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر يوم القيامة الى من جر ثوبه خيلاء ومما هو أشد نكيرا أمر الحمامات فان الناس قد أصروا بها على الاجهار وترك الاستتار والتهاون بأمر العورات التى لصاحبها اللعنة وله سوء الدار والنساء فى هذا المقام أشد تهالكا من الرجال وقد ابتذلن أنفسهن حتى أفرطن فى فاحشة الابتذال ولهن محدثات من المنكر أحدثها كثرة الارفاه والاتراف وأهمل انكارها حتى سرت فى الاوساط والاطراف وقد احدثن الآن من الملابس ما لم يخطر للشيطان فى حساب وتلك من لباس الشهرة الذى لا يستر منه اسبال مرط ولا ادناء جلباب ومن جملتها أنهن يعتصبن بعصائب كأمثال الاسنمة ويخرجن من جهارة أشكالها فى الصور المعلمة وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم

بها فما وزدعته من الاخبار وجعل صاحبها معدودا من زمرة أصحاب النار وثما احدث فيه عن السنن قراءة القرآن بضروب الالحان وتلك قراءة تخرج حروفها من غير مخرج وتبدو معوجة وهو قرآن عربي غير ذي عوج وقد أمر الله بترتيله وايراده على هيئة تنزيله فمن قرأه بالترجيع والترديد وزلزل حروفه بالتمطيط والتمديد فقد ألحقه بدرجات الاغانى وذهب بما فيه من طلاوة الالفاظ والمعانى قال النبى صلى الله عليه وسلم اقرؤا القرآن بلحون العرب وأصواتها واياكم ولحون أهل الفسق ولحون أهل الكتابين وسيجىء بعدى قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لايجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم ويلتحق بذلك اقتناء القينات المغنيات اللاتى يلعبن بالعقول لعبهن بالاسماع ويغنين الشيطان بغنائهن عن بث الجنود والاشياع وقبيا النفس الامارة فى ذلك أن تقول هؤلاء اماء يحل نغمة سماعهن كما يحل ماتحت قناعهن وقد علم أن لكل شئ تماما وقد ينقلب الحلال فيصير حراما ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه قال النبى صلى الله عليه وسلم لاتبيعوا القينات المغنيات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام وفى مثل هذا أنزلت ومن الناس من يشترى لهو الحديث وكذلك يجرى الحكم فى المواشط اللاتى يجعلن الحسن موفورا والقبح مستورا ويخدعن نظر الناظر حتى يجعلنه مسحورا فهن يبدين صدقا من كذب وجدا من لعب وفعلهن هذا من الغش الذى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وقال انه ليس منه وقد لعن الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والواشرة والمستوشرة ومن غش المنكرات أيضا خضاب الشيب الذى يخالف فيه الظاهر الباطن ويتخلق صاحبه بخلق الكاذب الخائن وهب أنه أخفى لون شعره وهل يخفى اخلاق لباسه واذا استسن ملائم المرء فلا يغنيه سواد عارضه ولا سواد راسه وقد جعل الله الشيب من نعمه المبشرة بطول الاعمار وسماه نورا للونه وهدايته ولا تستوى الظلمات والانوار قال النبى صلى الله عليه وسلم الشيب أن يشتغل بتغيير صبغة الكتاب ويدأب فى محو سواد العقاب ببياض الثواب فى بقية عمره مندوحة لاذخار ما يحمد ذخره وتبديل ما تقدم سطره ومما خولفت فيه السنة عقد

قوله أهل اللبس فى نسخة الغش ولعل هذا اللفظ أنسب اهـ

مجالس

مجالس التعازى لحضور الناس واظهار شعار الاسود والازرق من اللباس والتشبيه بالجاهلية فى النوح والندب ومجاوزة دمع العين وخشوع القلب الى الاعلان باسخاط الرب وقد تواطأ النساء على ضرب الخيام على القبور وجعل الاعياد مواسم لاجتماع الزائر والمزور فصارت المآتم بينهم ولائم والمنادب عندهم مآدب وربما نشأ من ذلك ما يغض طرفا ويجدع أنفا ويوجب حدا وقذفا وهكذا أهمل أمر الاسلام فى تشبيه أهل الذمة بأهله وما كانوا ليشابهوه فى زى تخزنه ويخالفوه فى سلوك سبله ولا بد من الغيار بأن يشد النصرانى عقدة زناره ويصفر اليهودى أعلى ازاره وليمنعوا من التظاهر بطغيان النعمة وعلو الهمة ويؤمروا بالوقوف عند ما حكم عليهم من الاحكام وأخذوا فيه بالاختفاء والاكتتام فمورهم تستر وشعائر دينهم لا تظهر وموتاهم تقبر بالخمول قبل أن تقبر فلا يوقد خلف ميتهم مصباح ولا يتبع بندب ولا اصباح ومما عرف الناس منكره اثارة التحريش بين الحيوانات وهى ذوات اكباد رطبة وأخلاق صعبة ومامنها الا ما يحل أكله ولا يحل قتله كالكبش والجلة والديك والسمانى وما أشبهها وقد أكثر الناس من اقتنائها والمواظبة على اضرام شحنائها وربما نشأ من ذلك فتنة تؤول الى ضراب وشق ثياب واحداث شجاج واثارة عجاج وتحزب الى أحزاب كثيرة وأفواج ويتصل بهذه المنكرات المذكورة أشياء أخرى تجرى مجراها فى التقديم وتتنزل منزلتها فى التحريم فاحكم فيها بحكمك وامض فى شبهاتها بدليل علمك ونب عنا فى التذكير والتحذير والتعريف والتنكير حتى يتقوم الاود ويتضح الرشد ويمكث فى الارض ما ينفع ويذهب الزبد وليكن عملك لله الذى يسمع ويرى وله ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى واعلم أن الامر بالمعروف عبادة يتعدى نفع صاحبها الى غيره وتستضيف خير المأمور بها الى خيره وهى الجهاد الاكبر الذى تقاتل فيه عواصى النفوس وتضرب به رؤس الشهوات التى هى أمنع من معاقد الرؤس فقتيله يحيا بقتله وجريحه يوسى بجراحة نصله وبمثل هذا الجهاد يستنزل امداد النعم مضعفة كما يستنزل امداد النصر مردفة فأقدم عليه ذا عزم باتر وطرف ساهر وقدم ثابت صابر حتى تظل لمعاقل الشيطان فاتحا وتكون فيمن دعا الى الله وعمل صالحا واعلم أنك فى صبيحة كل يوم

يبتدرك الملك والشيطان وكل منهما يقول يا أيها الانسان فان أجبت نداء الملك
كتبك فى زمرة من مهد بجنبه وخاف مقام ربه وعرج بك الى الله طيبا نشره
مضاعفا أجره وان أجبت نداء الشيطان كتبك فى زمرة من أغواه وقرنك بمن
أغفل الله قلبه واتبع هواه ثم نزل به الى الارض خبيثا مخبثا وأقبل به على
اخوانه من الشياطين محدثا وهذا آخر ما عهدناه اليك من العهد الذى طوقت
اليوم بكتابه وستناقش غدا على حسابه وكما جعلناه لك فى الدنيا ذكرا فاجعله
لك فى الآخرة ذخرا ان شاء الله تعالى والسلام (وهذا الذى ذكرته فى هذين) من
الكتاب والتقليد يتضمن اطنابا مستوفى الاقسام ولولا خوف الاطالة التى
لا حاجة اليها لأوردت قصائد من الشعر أيضا حتى لا يخلو الموضع من ضرب
أمثلة من المنظوم والمنثور لكن فى الذى ذكرته كفاية لمن يحمله على أشباهه
ونظائره (فان قيل) ان الاطناب فى الكلام قد وضعتموه اسما على غير مسمى فان
الكلام لا يخلو من حالين اما أن لا يزيد لفظه على معناه وهو الايجاز أو يزيد
لفظه على معناه وهو التطويل وليس ههنا قسم ثالث فما الاطناب اذا (قلت)
فى الجواب اعلم أن الايجاز هو ضد التطويل كما أن السواد ضد البياض غير أن
بين الضدين مراتب ومنازل ليست أضدادا فالاطناب لا ايجاز هو ولا تطويل
كما أن الحمرة أو الخضرة ليست بياضا ولا سوادا وقد قدمنا القول ان الاطناب
يأتى فى الكلام مؤكدا كالذى يأتى بزيادة التصوير للمعنى المقصود اما حقيقة
واما مجازا والتطويل ليس كذلك فانه التعبير عن المعنى بلفظ زائد عليه يفهم ذلك
المعنى بدونه فاذا حذفت تلك الزيادة بقى المعنى المعبر عنه على حاله لم يتغير منه شئ
وهذا بخلاف الاطناب فانه اذا حذف منه تلك الزيادة المؤكدة للمعنى تغير ذلك
المعنى وزال ذلك التأكيد عنه وذهبت فائدة التصوير والتخييل التى تفيد السامع
مالم يكن الابها ألا ترى الى قوله تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب
التى فى الصدور وهذا لا يسمى ايجازا لانه أتى فيه بزيادة لفظ وهو ذكر الصدور
وقد علم أن القلوب لا تكون الا فى الصدور ولا يسمى تطويلا لان التطويل
لا فائدة فيه أصلا وهذا فيه فائدة وهى ما أشرنا اليه وكذلك باقى أقسام
الاطناب التى نبهنا عليها وهذا لا نزاع فيه (النوع السابع عشر فى التكرير) قد
تقدم الكلام فى صدر كتابى هذا على تكرار الحروف وما ذلك مما يختلط بهذا

التكرار

النوع

النوع الذى هو تكرار المعانى والالفاظ (واعلم) أن هذا النوع من مقاتل علم البيان وهو دقيق المأخذ وحده هو دلالة اللفظ على المعنى مرددا وربما اشتبه على أكثر الناس بالاطناب مرة وبالتطويل أخرى وقد تقدم الكلام على الفرق بين هذه الانواع الثلاثة فى باب الاطناب فلا حاجة الى اعادته ههنا وأما التكرير فقد عرفتك (وهو ينقسم قسمين أحدهما) يوجد فى اللفظ والمعنى (والآخر) يوجد فى المعنى دون اللفظ فأما الذى يوجد فى اللفظ والمعنى فكقولك لمن تستدعيه أسرع أسرع ومنه قول أبى الطيب المتنبى

ولم أر مثل جيرانى ومثلى * لمثلى عند مثلهم مقام

وأما الذى يوجد فى المعنى دون اللفظ فكقولك أطعنى ولا تعصنى فان الامر بالطاعة نهى عن المعصية (وكل من هذين القسمين ينقسم الى مفيد وغير مفيد) ولا أعنى بالمفيد ههنا ما يعنيه النحاة فانه عندهم عبارة عن اللفظ المركب اما من الاسم مع الاسم بشرط أن يكون للاول بالثانى علاقة معنوية كاقام جهله واما من الاسم مع الفعل التام المتصرف على هذا الشرط أيضا واما من حرف النداء مع الاسم فهذا هو المفيد عند النحاة وأنا لم أقصد ذلك ههنا بل مقصودى من المفيد أن يأتى لمعنى وغير المفيد أن يأتى لغير معنى (واعلم) أن المفيد من التكرير يأتى فى الكلام تأكيدا له وتشييدا من أمره وانما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشئ الذى كررت فيه كلامك اما مبالغة فى مدحه أو فى ذمه أو غير ذلك ولا يأتى الا فى أحد طرفى الشئ المقصود بالذكر والوسط عار منه لان أحد الطرفين هو المقصود بالمبالغة اما بمدح أو ذم أو غيرهما والوسط ليس من شرط المبالغة وغير المفيد لا يأتى فى الكلام الا عيا وخطلا من غير حاجة اليه (فأما الاول) وهو الذى يوجد فى اللفظ والمعنى (فانه ينقسم الى ضربين) مفيد وغير مفيد (فالاول المفيد وهو فرعان الاول) اذا كان التكرير فى اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد والمقصود به غرضان مختلفان كقوله تعالى واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون هذا تكرير فى اللفظ والمعنى وهو قوله يحق الحق وليحق الحق وانما جىء به ههنا لاختلاف المراد وذلك أن الاول تمييز بين الارادتين والثانى بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة

على غيرها وأنه ما نصرهم وخذل أولئك الا لهذا الغرض (ومن هذا الباب) قوله تعالى قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين قل انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم قل الله أعبد مخلصا له دينى فاعبدوا ما شئتم من دونه فكرر قوله تعالى قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وقوله قل الله أعبد مخلصا له دينى والمراد به غرضان مختلفان وذلك أن الاول اخبار بأنه مأمور من جهة الله بالعبادة له والاخلاص فى دينه والثانى اخبار بأنه يخص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصا له دينه ولدلالته على ذلك قدم المعبود على فعل العبادة فى الثانى وأخره فى الاول لان الكلام أولا واقع فى الفعل نفسه وايجاده وثانيا فيمن يفعل الفعل من أجله ولذلك رتب عليه فاعبدوا ما شئتم من دونه وعليه ورد قوله تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله وظاهر الاول والثانى أنهما سواء فى المعنى وليس كذلك لان الثانى فيه تخصيص غير موجود فى الاول ألا ترى أنا اذا قلنا زيد الافضل وقلنا الافضل زيد كان فى الثانى تخصيص له بالفضل وهذا التخصيص لا يوجد فى القول الاول الذى هو زيد الافضل ويجوز أن تبدل صفة الفضل فيه بغيرها أو بضدها فيقال زيد الاجمل أو زيد الانقص واذا قلنا الافضل زيد وجب تخصيصه بالفضل ولم يمكن تغييره عنه وكذلك يجرى الحكم فى هذه الآية فان الله تعالى قال انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم قال لم يذهبوا حتى يستأذنوه فوصفهم بالامتناع عن الذهاب الا باذنه وهذه صفة يجوز أن تبدل بغيرها من الصفات كما قال تعالى فى موضع آخر انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا فجاء بصفة غير تلك الصفة ولما قال ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله وجب تخصيصهم بذلك الوصف دون غيره وهذا موضع حسن فى تكرير المعانى (ومما يعد من هذا الباب) قوله تعالى قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين وقد ظن قوم أن هذه الآية تكرير لا فائدة فيه وليس الامر كذلك فان معنى قوله لا أعبد يعنى فى المستقبل من عبادة آلهتكم ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلبه منكم

من عبادة الهى ولا أنا عابد ماعبدتم أى وما كنت عابدا قط فيما سلف ماعبدتم فيه يعنى أنه لم يعهد منى عبادة صنم فى الجاهلية فى وقت ما فكيف يرجى ذلك منى فى الاسلام ولا أنتم عابدون فى الماضى فى وقت ما ما أنا على عبادته الآن (ومما يجرى هذا المجرى) قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين فكرر الرحمن الرحيم مرتين والفائدة فى ذلك أن الاول يتعلق بأمر الدنيا والثانى يتعلق بأمر الآخرة فما يتعلق بأمر الدنيا يرجع الى خلق العالمين فى كونه خلق كلا منهم على أكمل صفة وأعطاه جميع ما يحتاج اليه حتى البقة والذباب وقد يرجع الى غير الخلق كادرار الارزاق وغيرها وأما ما يتعلق بأمر الآخرة فهو اشارة الى الرحمة الثانية فى يوم القيامة الذى هو يوم الدين وبالجملة فاعلم أنه ليس فى القرآن مكرر لا فائدة فى تكريره فان رأيت شيأ منه تكرر من حيث الظاهر فأنعم نظرك فيه فانظر الى سوابقه ولواحقه لتنكشف لك الفائدة منه (ومما ورد فى القرآن الكريم مكررا) قوله تعالى كذبت قوم نوح المرسلين اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون ليؤكده عندهم ويقرره فى نفوسهم مع تعليق كل واحد منها بعلة فجعل علة الاول كونه أمينا فيما بينهم وجعل علة الثانى حسم طمعه عنهم وخلوه من الاغراض فيما يدعوهم اليه (ومن هذا النحو) قوله تعالى كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الايكة أولئك الاحزاب ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب وانما كرر تكذيبهم ههنا لانه لم يأت به على أسلوب واحد بل تنوع فيه بضروب من الصنعة فذكره أولا فى الجملة الخبرية على وجه الابهام ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه بان كل واحد من الاحزاب كذب جميع الرسل لانهم اذا كذبوا واحدا منهم فقد كذبوا جميعهم وفى تكرير التكذيب وايضاحه بعد ابهامه والتنوع فى تكريره بالجملة الخبرية أولا وبالاستثنائية ثانيا وما فى الاستثناء من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العذاب وأبلغه وهذا باب من تكرير اللفظ والمعنى حسن غامض وبه يعرف مواقع التكرير والفرق بينه وبين غيره فافهمه ان شاء الله تعالى (الفرع الثانى من الضرب الاول) اذا كان

التكرير فى اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد والمراد به غرض واحد كقوله تعالى فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر والتكرير دلالة التعجب من تقديره واصابته الغرض وهذا كما يقال قتله الله ما أشجعه أو ما أشعره وعليه ورد قول الشاعر * ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى * وهذا مبالغة فى الدعاء لها بالسلامة وكل هذا يجاء به لتقرير المعنى المراد واثباته (وعليه ورد الحديث النبوى) وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان بنى هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم عليا فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن الا أن يطلق على ابنتى وينكح ابنتهم فقوله لا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن من التكرير الذى هو أشد موقعا من الايجاز لانصباب العناية الى تأكيد القول فى منع على رضى الله عنه من التزويج بابنة أبى جهل بن هشام وهذا مثل قوله تعالى أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ومن أجل ذلك نقول لا اله الا الله وحده لا شريك له لان قولنا لا اله الا الله مثل قولنا وحده لا شريك له وهما فى المعنى سواء وانما كررنا القول فيه لتقرير المعنى واثباته وذلك لان من الناس من يخالف فيه كالنصارى والثنوية والتكرير فى مثل هذا المقام أبلغ من الايجاز وأحسن وأسد موقعا (ومما جاء فى مثل هذا) قوله تعالى والله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فقوله من قبله بعد قوله من قبل فيه دلالة على أن عهدهم بالمطر قد بعد وتطاول فاستحكم بأسهم وتمادى ابلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك (وعلى ذلك ورد) قوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق فقوله لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر يقوم مقام قوله ولا يدينون دين الحق لان من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر لا يدين دين الحق وانما كرر ههنا للخطب على المأمور بقتالهم والتسجيل عليهم بالذم ورجمهم بالعظائم ليكون ذلك أدعى لوجوب قتالهم وحربهم وقد قلنا ان التكرير انما يأتى لما أهم من الامر الذى بصرف العناية اليه يثبت ويتقرر (وكذلك ورد) قوله تعالى وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الاغلال فى أعناقهم

و ولئك أصحاب النار هم فيها خالدون فتكرير لفظة أولئك من هذا الباب الذى أشرنا اليه لمكان شدة النكير واغلاظ العذاب بسبب انكارهم البعث (وعلى هذا ورد) قوله تعالى أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم فى الآخرة هم الاخسرون فانه انما تكررت لفظة هم للايذان بتحقيق الخسار والاصل فيها وهم فى الآخرة الاخسرون لكن لما أريد تأكيد ذلك جىء بتكرير هذه اللفظة المشار اليها وكذلك قوله تعالى فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وأمثال هذا فى القرآن كثير (وكذلك ورد) قوله تعالى فى سورة القصص فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فاذا الذى استنصره بالامس يستصرخه قال له موسى انك لغوى مبين فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالامس فقوله تعالى فلما أن أراد أن يبطش بتكرير أن مرتين دليل على أن موسى عليه السلام لم تكن مسارعته الى قتل الثانى كما كانت مسارعته الى قتل الاول بل كان عنده ابطاء فى بسط يده اليه فعبر القرآن عن ذلك فى قوله تعالى فلما أن أراد أن يبطش (وجرت بينى وبين رجل من النحويين مفاوضة) فى هذه الآية فقال ان أن الاولى زائدة ولو حذفت فقيل فلما أراد أن يبطش لكان المعنى سواء ألا ترى الى قوله تعالى فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه وقد اتفق النحاة على أن أن الواردة بعد لما وقبل الفعل زائدة فقلت له النحاة لا فتيا لهم فى مواقع الفصاحة والبلاغة ولا عندهم معرفة بأسرارهما من حيث انهم نحاة ولا شك أنهم وجدوا أن تردبعد لما وقبل الفعل فى القرآن الكريم وفى كلام فصحاء العرب فظنوا أن المعنى بوجودها كالمعنى اذا أسقطت فقالوا هذه زائدة وليس الامر كذلك بل اذا وردت لما وورد الفعل بعدها باسقاط أن دل ذلك على الفور واذا لم تسقط لم يدل على ذلك على أن الفعل كان على الفور وانما كان فيه تراخ وابطاء (وبيان ذلك من وجهين أحدهما) أنى أقول فائدة وضع الالفاظ أن تكون أدلة على المعانى فاذا أوردت لفظة من الالفاظ فى كلام مشهود له بالفصاحة والبلاغة فالاولى أن تحمل تلك اللفظة على معنى فان لم يوجد لها معنى بعد التنقيب والتنقير والبحث الطويل قيل هذه زائدة دخولها فى الكلام كخروجها منه ولما نظرت أنا فى هذه الآية وجدت لفظة أن الواردة بعد لما وقبل الفعل دالة على معنى واذا كانت دالة على معنى فكيف يسوغ أن يقال انها زائدة (فان قيل) انها اذا كانت دالة على معنى

فيجوز أن تكون دالة على غير ما أشرت أنت اليه (قلت فى الجواب) اذا ثبت أنها دالة على معنى فالذى أشرت اليه معنى مناسب واقع فى موقعه واذا كان مناسبا واقعا فى موقعه فقد حصل المراد منه ودل الدليل حينئذ أنها ليست بزائدة (الوجه الآخر) أن هذه اللفظة لو كانت زائدة لكان ذلك قدحا فى كلام الله تعالى وذلك أنه يكون قد نطق بزيادة فى كلامه لا حاجة اليها والمعنى يتم بدونها وحينئذ لا يكون كلامه معجزا اذ من شرط الاعجاز عدم التطويل الذى لا حاجة اليه وان التطويل عيب فى الكلام فكيف يكون ما هو عيب فى الكلام من باب الاعجاز هذا محال (وأما قوله تعالى) فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فانه اذا نظر فى قصة يوسف عليه السلام مع اخوته منذ ألقوه فى الجب والى أن جاء البشير الى أبيه عليه السلام وجد أنه كان ثم ابطاء بعيد وقد اختلف المفسرون فى طول تلك المدة ولو لم يكن ثم مدة بعيدة وأمد متطاول لما جىء بأن بعد لما وقبل الفعل بل كانت تكون الآية فلما جاء البشير ألقاه على وجهه وهذه دقائق ورموز لا تؤخذ من النحاة لانها ليست من شأنهم (واعلم) أن من هذا النوع قسما يكون المعنى فيه مضافا الى نفسه مع اختلاف اللفظ وذلك يأتى فى الالفاظ المترادفة وقد ورد فى القرآن الكريم واستعمل فى فصيح الكلام فمنه قوله تعالى والذين سعوا فى آياتنا معجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم والرجز هو العذاب وعليه ورد قوله أبى تمام

نهوض بثقل العبء مضطلع به * وان عظمت فيه الخطوب وجلت

والثقل هو العبء والعبء هو الثقل (وكذلك) ورد قول البحترى

ويوم تثنت للوداع وسلمت * بعينين موصول بلحظهما السحر
توهمتها ألوى بأجفانها الكرى * كرى النوم أو مالت بأعطافها الخمر

فان الكرى هو النوم وربما أشكل هذا الموضع على كثير من متعاطى هذه الصناعة وظنوه مما لا فائدة فيه وليس كذلك بل الفائدة فيه هى التأكيد للمعنى المقصود والمبالغة فيه أما الآية فالمراد بقوله تعالى عذاب من رجز أى عذاب مضاعف من عذاب وأما بيت أبى تمام فانه تضمن المبالغة فى وصف الممدوح بحمله للاثقال وأما بيت البحترى فانه أراد أن يشبه طرفها الفتور بالنائم فكرر المعنى فيه على طريق المضاف والمضاف اليه تأكيدا له وزيادة فى بيانه وهذا

الموضع لم ينبه عليه أحد سواى ولربما أدخل فى التكرير من هذا النوع ماليس منه وهو موضع لم ينبه عليه أيضا أحد سواى (فمنه قوله تعالى) ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم فلما تكررت ان ربك مرتين علم أن ذلك أدل على المغفرة وكذلك قوله تعالى ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم ومثل هذا قوله تعالى لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب وهذه الآيات يظن أنها من باب التكرير وليست كذلك وقد أنعمت نظرى فيها فرأيتها خارجة عن حكم التكرير وذاك أنه اذا طال الفصل من الكلام وكان أوله يفتقر الى تمام لا يفهم الا به فالاولى فى باب الفصاحة أن يعاد لفظ الاول مرة ثانية ليكون مقارنا لتمام الفصل كى لا يجىء الكلام منثورا لاسيما فى ان وأخواتها فاذا وردت ان وكان بين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام فاعادة ان أحسن فى حكم البلاغة والفصاحة كالذى تقدم من هذه الآيات وعليه ورد قول بعضهم من شعراء الحماسة

أصبنا وقيدا واشتياقا وغربة * ونأى حبيب ان ذا لعظيم

وان امرأ دامت مواثيق عهده * على مثل هذا انه لكريم

فانه لما طال الكلام بين اسم ان وخبرها أعيدت ان مرة ثانية لان تقدير الكلام وان امرأ دامت مواثيق عهده على مثل هذا لكريم لكن بين الاسم والخبر مدى طويل فاذا لم تعد ان مرة ثانية لم يأت على الكلام بهجة ولا رونق وهذا لا يتنبه لاستعماله الا الفصحاء اما طبعا واما علما (وكذلك يجرى الامر) اذا كان خبر ان عاملا فى معمول يطول ذكره فان اعادة الخبر ثانية هو الاحسن وعلى هذا جاء قوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام اذ قال يوسف لابيه يا أبت انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين فلما قال انى رأيت ثم طال الفصل كان الاحسن أن يعيد لفظ الرؤية فيقول رأيتهم لى ساجدين وكذلك جاءت الآية المذكورة ههنا قبل هذه وهى قوله تعالى لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا فانه لما طال الفصل أعاد قوله فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب فاعلم ذلك وضع يدك عليه وكذلك الآية التى قبلها وهى قوله تعالى ثم ان

ربك للذين عملوا السوء بجهالة وكذلك الآية الاخرى وهي ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا (ومن باب التكرير في اللفظ والمعنى) الدال على معنى واحد قوله عز وجل "وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار فانه انما كرر نداء قومه ههنا لزيادة التنبيه لهم والايقاظ عن سنة الغفلة ولانهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم من الضلال وهو يعلم وجه خلاصهم ونصيحتهم عليه واجبة فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم ويستدعي بذلك أن لا يتهموه فان سرورهم سروره وغمهم غمه وأن ينزلوا على نصيحته لهم وهذا من التكرير الذي هو أبلغ من الايجاز وأشد موقعا من الاختصار فاعرفه ان شاء الله تعالى (وعلى نحو منه) جاء قوله تعالى في سورة القمر فذوقوا عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر فانه قد تكرر ذلك في السورة كثيرا وفائدته أن يجددوا عند استماع كل نبا من أنباء الاولين ادكارا وايقاظا وان يستأنفوا تنبها واستيقاظا اذا سمعوا الحث على ذلك والبعث اليه وأن تقرع لهم العصا مرات لئلا يغلبهم السهو وتستولي عليهم الغفلة وهكذا حكم التكرير في قوله تعالى في سورة الرحمن فباي آلاء ربكما تكذبان وذلك عند كل نعمة عددها على عباده وأمثال هذا في القرآن الكريم كثير (ومما ورد) من هذا النوع شعرا قول بعض شعراء الحماسة

الى معدن العز المؤثل والندى * هناك هناك الفضل والخلق الجزل

فقوله هناك هناك من التكرير الذي هو أبلغ من الايجاز لانه في معرض مدح فهو يقرر في نفس السامع ما عند الممدوح من هذه الاوصاف المذكورة مشيرا اليها كأنه قال أدلكم على معدن كذا وكذا ومقره ومقاده (وكذلك) ورد قول المساور بن هند

جزى الله عني غالبا من عشيرة * اذا حدثان الدهر نابت نوائبه
فكم دافعوا من كربة قد تلاحمت * علي وموج قد علتني غواربه

فصدر البيت الثاني وعجزه يدلان على معنى واحد لان تلاحم الكرب عليه كتعالي الموج من فوقه وانما سوغ ذلك لانه مقام مدح واطراء ألا ترى أنه يصف احسان هؤلاء القوم عند حدثان دهره في التكرير وفي قبالته لو كان القائل

هاجيا فان الهجاء فى هذا كالمدح والتكرير انما يحسن فى كلا الطرفين لا فى الوسط (واعلم) أنه اذا وردت ان المكسورة المخففة بعد ما كانت بمعناها سواء ألا ترى الى قوله تعالى ان هم الا كالانعام فان وما بمعنى واحد واذا أوردت من بعد ما كانت من باب التكرير كقولنا ما ان يكون كذا وكذا أى ما ما يكون كذا وكذا واذا وردت فى الكلام فانما ترد فى مثل ما أشرنا اليه من التكرير فان استعملت فى غير ما يكون منها الفائدة بتجهاتكريرها كان استعمالها لغوا لا فائدة فيه وقد زعم قوم من مدعى هذه الصناعة أن أبا الطيب المتنبي أتى فى هذا البيت بتكرير لا حاجة به اليه وهو قوله

العارض الهتن ابن العارض الهتن ابـ * ـن العارض الهتن ابن العارض الهتن

وليس فى هذا البيت من تكرير فانه كقولك الموصوف بكذا وكذا ابن الموصوف بكذا وكذا أى انه عريق النسب فى هذا الوصف (وقد ورد) فى الحديث النبوى مثل ذلك كقول النبى صلى الله عليه وسلم فى وصف يوسف الصديق عليه السلام الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم (ولقد فاوضنى فى هذا البيت المشار اليه) بعض علماء الادب وأخذ يطعن فيه من جهة تكراره فوقفته على مواضع الصواب منه وعرفته أنه كالخبر النبوى من جهة المعنى سواء بسواء لكن لفظه ليس بمرضى على هذا الوجه الذى قد استعمل فيه فان الالفاظ اذا كانت حسانا فى حال انفرادها فان استعمالها فى حال التركيب يزيدها حسنا على حسنها أو يذهب ذلك الحسن عنها وقد تقدم الكلام على ذلك فى المقالة الاولى من الصناعة اللفظية ولو تهيأ لابى الطيب المتنبي أن يبدل لفظة العارض بلفظة السحاب أو ما يجرى مجراها لكان أحسن وكذلك لفظة الهتن فانها ليست بمرضية فى هذا الموضع على هذا الوجه ولفظة العارض وان كانت قد وردت فى القرآن وهى لفظة حسنة فالفرق بين ورودها فى القرآن الكريم وورودها فى هذا البيت الشعرى ظاهر وقد تقدم الكلام على مثلها من آية وبيت لابى الطيب أيضا وهو فى المقالة اللفظية عند الكلام على الالفاظ المفردة فليؤخذ من هنالك وكثيرا ما يقع الجهال فى مثل هذه المواضع وهم الذين قيل فيهم وكذا كل أخى حذلقة * ما مشى فى يابس الازلق فترى أحدهم قد جمع نفسه وظن على جهله أنه عالم فيسرع فى وصف كلام بالايجاز

قوله واعلم الخ فيه من الركاكة ما لا يخفى والمعنى واضح اهـ

الكلام بالتطويل أو بالتكرير واذا طولب بأن يبدى سببا لما ذكره لا يوجد عنده من القول شئ الا تحكما محضا صادرا عن جهل محض (الضرب الثانى من التكرير فى اللفظ والمعنى) وهو غير المفيد فمن ذلك قول مروان الاصغر

سقى الله نجدا والسلام على نجد * ويا حبذا نجد على النأى والبعد

نظرت الى نجد وبغداد دونها * لعلى أرى نجدا وهيهات من نجد

وهذا من العىّ الضعيف فانه كرّر ذكر نجد فى البيت الاول ثلاثا وفى البيت الثانى ثلاثا ومراده فى الاول الثناء على نجد وفى الثانى أنه تلفت اليها ناظرا من بغداد وذلك مرمى بعيد وهذا المعنى لا يحتاج الى مثل هذا التكرير أما البيت الاول فيحمل على الجائز من التكرير لانه مقام تشوّق وتحرق وموجدة بفراق نجد ولما كان كذلك أجيز فيه التكرير على أنه قد كان يمكنه أن يصوغ هذا المعنى الوارد فى البيتين معا من غير أن يأتى بهذا التكرير المتتابع ست مرّات (وعلى هذا الاسلوب) ورد قول أبى نواس

أقمنا بها يوما ويوما وثالثا * ويوما له يوم الترحل خامس

ومراده من ذلك أنهم أقاموا بها أربعة أيام ويا عجبا له يأتى بمثل هذا البيت السخيف الدال على العىّ الفاحش فى ضمن تلك الابيات العجيبة الحسن التى تقدم ذكرها فى باب الايجاز وهى * ودار ندامى عطلوها وأدلجوا * (ومن هذا الباب أيضا) ما أوردناه فى صدر هذا النوع وهو قول أبى الطيب المتنبى

ولم أر مثل جيرانى ومثلى * لمثلى عند مثلهم مقام

فهذا هو التكرير الفاحش الذى يؤثر فى الكلام نقصا ألا ترى أنه يقول لم أر مثل جيرانى فى سوء الجوار ولا مثلى فى مصابرتهم ومقامى عندهم الا أنه قد كرّر هذا المعنى فى البيت مرّتين وعلى نحو من ذلك جاء قوله أيضا

وقلقلت بالهمّ الذى قلقل الحشى * قلاقل عيس كلهنّ قلاقل

(وأما القسم الثانى من التكرير) وهو الذى يوجد فى المعنى دون اللفظ (فذلك ضربان) مفيد وغير مفيد (الضرب الاول المفيد وهو فرعان الاول) اذا كان التكرير فى المعنى يدل على معنيين مختلفين وهو موضع من التكرير مشكل لانه يسبق الى الوهم أنه تكرير يدلّ على معنى واحد (فما جاء منه) حديث حاطب بن أبى بلتعة فى غزوة الفتح وذلك أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم أمر علىّ بن أبى طالب

والزبير

والزبير والمقداد رضي الله عنهم فقال اذهبوا الى روضة خاخ فان بها ظعينة معها كتاب فأتوني به قال علي رضي الله عنه فخرجنا تتعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة واذا فيها الظعينة فأخذنا الكتاب من عقاصها وأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا هو من حاطب بن أبي بلتعة الى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض شان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ما هذا يا حاطب فقال يا رسول الله لا تعجل علي اني كنت امرأ ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من المهاجرين لهم قرابة يحمون بها أموالهم وأهليهم بمكة فأحببت اذ فاتني ذلك من النسب أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قد صدقكم فقوله ما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الاسلام من التكرير الحسن وبعض الجهال يظنه تكريرا لا فائدة فيه فان الكفر والارتداد عن الدين سواء وكذلك الرضا بالكفر بعد الاسلام وليس كذلك والذي يدل عليه اللفظ هو أني لم أفعل ذلك وأنا كافر أي باق على الكفر ولا مرتدا أي اني كفرت بعد اسلامي ولا رضا بالكفر بعد الاسلام أي ولا ايثارا لجانب الكفار على جانب المسلمين وهذا حسن في مكانه واقع في موقعه وقد يحمل التكرير فيه على غير هذا الفرع الذي نحن بصدد ذكره ههنا وهو الذي يكون التكرير فيه يدل على معنى واحد وسيأتي بيانه في الفرع الثاني الذي يلي هذا الفرع الاول والذي يجوزه أن هذا المقام هو مقام اعتذار وتنصل عما رمي به من تلك القارعة العظيمة التي هي نفاق وكفر فكرر المعنى في اعتذاره قصد التأكيد والتقرير لما ينفي عنه ما رمي به (ومما ينتظم بهذا السلك) أنه اذا كان التكرير في المعنى يدل على معنيين أحدهما خاص والآخر عام كقوله تعالى ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فان الامر بالمعروف داخل تحت الدعاء الى الخير لان الامر بالمعروف خاص والخير عام فكل أمر بالمعروف خير وليس كل خير أمرا بالمعروف وذلك أن الخير أنواع كثيرة من جملتها الامر بالمعروف ففائدة التكرير ههنا أنه ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضله كقوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وكقوله تعالى فيهما فاكهة ونخل ورمان وكقوله تعالى انا

عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها فان الجبال داخلة فى جملة الارض لكن لفظ الارض عام والجبال خاص وفائدته ههنا تعظيم شأن الامانة المشار اليها وتفخيم أمرها (وقد ورد) هذا فى القرآن الكريم كثيرا ومما ورد منه شعرا قول من أبيات الحماسة

وان الذى بينى وبين بنى أبى * وبين بنى عمى لمختلف جدا
اذا أكلوا لحمى وفرت لحومهم * وان هدموا مجدى بنيت لهم مجدا
وان ضيعوا غيبى حفظت غيوبهم * وان هم هووا غيى هويت لهم رشدا

فهذا من الخاص والعام فان كل لحم يؤكل للانسان فهو تضييع لغيبه وليس كل تضييع لغيبه أكلا للحمه ألا ترى أن أكل اللحم هو كناية عن الاغتياب وأما تضييع الغيب فمنه الاغتياب ومنه التخلى عن النصرة والاعانة ومنه اهمال السعى فى كل مايعود بالنفع كائنا ما كان وعلى هذا فان هذين البيتين من الخاص والعام المشار اليه فى الآية المقدم ذكرها وهو موضع يرد فى الكلام البليغ ويظن أنه لافائدة فيه (الفرع الثانى) اذا كان التكرير فى المعنى يدل على معنى واحد لاغير وقد سبق مثال ذلك فى أول هذا الباب كقولك أطعنى ولا تعصنى فان الامر بالطاعة نهى عن المعصية والفائدة فى ذلك تثبيت الطاعة فى نفس المخاطب والكلام فى هذا الموضع كالكلام فى الموضع الذى قبله من تكرير اللفظ والمعنى اذا كان الغرض به شيأ واحدا ولا تجد شيأ من ذلك يأتى فى الكلام الا لتأكيد الغرض المقصود به كقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم فانه انما كرر العفو والصفح والمغفرة والجميع بمعنى واحد للزيادة فى تحسين عفو الوالد عن ولده والزوج عن زوجته وهذا وأمثاله ينظر فى الغرض المقصود به وهو موضع يكون التكرير فيه أوجز من لمحة الايجاز وأولى بالاستعمال (وقد ورد) فى القرآن الكريم كثيرا كقوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام قال انما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله مالا تعلمون فان البث والحزن بمعنى واحد وانما كرره ههنا لشدة الخطب النازل به وتكاثر سهامه النافذة فى قلبه وهذا المعنى كالذى قبله وكذلك ورد قوله تعالى تلك عشرة كاملة بعد ثلاثة وسبعة تنوب مناب قوله ثلاثة وسبعة مرتين لان عشرة هى ثلاثة وسبعة ثم قال كاملة

وذلك توكيد ثالث والمراد به ايجاب صوم الايام السبعة عند الرجوع فى الطريق على الفور لا عند الوصول الى البلد كما ذهب اليه بعض الفقهاء وبيانه أنى أقول اذا صدر الامر من الآمر على المأمور بلفظ التكرير مجردا من قرينة تخرجه عن وضعه ولم يكن موقتا بوقت معين كان ذلك حثا له على المبادرة الى امتثال الامر على الفور فانك اذا قلت لمن تأمره بالقيام قم قم قم فانما تريد بهذا اللفظ المكرر أن يبادر الى القيام فى تلك الحال الحاضرة (فان قلت) الغرض بتكرير الامر أن يتقرر فى نفس المأمور أنه مراد منه وليس الغرض الحث على المبادرة الى امتثال الامر (قلت فى الجواب) ان المرة الواحدة كافية فى معرفة المأمور أن الذى أمر به مراد منه والزيادة على المرة الواحدة لا تخلو اما أن تكون دالة على ما دلت عليه المرة الواحدة أو دالة على زيادة معنى لم تكن فى المرة الواحدة فان كانت دالة على ما دلت عليه المرة الواحدة كان ذلك تطويلا فى الكلام لا حاجة اليه وقد ورد مثله فى القرآن الكريم كهذه الآية المشار اليها وغيرها من الآيات والتطويل فى الكلام عيب فاحش عند البلغاء والفصحاء والقرآن معجز ببلاغته وفصاحته فكيف يكون فيه تطويل لا حاجة اليه فينبغى أن تكون تلك الزيادة دالة على معنى زائد على ما دلت عليه المرة الواحدة واذا ثبت هذا فتلك الزيادة هى الحث على المبادرة الى امتثال الامر فان سلمت لى ذلك والا فبين معنى تلك الزيادة ببيان غير ما ذكرته أنا ولا أراك أن تستطيع ذلك (فان قلت) ان الواو فى قوله تعالى وسبعة اذا رجعتم لولا أن تؤكد بقوله تلك عشرة لظن أنها وردت بمعنى أو أى فثلاثة أيام فى الحج أو سبعة اذا رجعتم فلما قيل تلك عشرة زال هذا الظن وتحققت الواو وأنها عاطفة وليست بمعنى أو (قلت فى الجواب) هذا باطل من أربعة أوجه الوجه الاول أن الواو العاطفة لا تجعل بمعنى أو أين وردت من الكلام وانما تجعل بمعنى أو حال ضرورة ترجح جانبها على جانب جعلها عاطفة لان الاصل فيها أن تكون عاطفة فاذا عدل بها عن أصلها احتاج الى ترجيح ولا ترجيح ههنا الوجه الثانى بلاغى وذلك أن القرآن الكريم منتهى البلاغة والفصاحة لمكان اعجازه فلو كان معنى الواو فى هذه الآية بمعنى أو لقيل فثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم ولم يحتج الى هذا التطويل فى قوله فثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة الوجه الثالث أن هذا الصوم حكم من

أحكام العبادات والعبادات يجب فيها الاحتياط أن تؤدى على أكمل صورة لئلا يدخلها النقص واذا كان الامر على ذلك فكيف يظن أن الواو فى هذه الآية بمعنى أو الوجه الرابع أن السبعة ليست مماثلة للثلاثة حتى تجعل فى قبالتها لان معنى الآية اذا كانت الواو فيها بمعنى أو اما أن تصوموا ثلاثة أيام فى الحج أو سبعة اذا رجعتم (فان قلت) هذا تعبد لا يعقل معناه كغيره من التعبدات التى لا يعقل معناها (قلت فى الجواب) ان لنا من التعبدات ما لا يعقل معناه كعدد ركعات الصلوات وعدد الطواف والسعى وأشباه ذلك ولنا ما يعقل معناه كهذه الآية فانا نعقل التفاوت بين الصوم فى الحضر والسفر ونعقل التفاوت بين العدد الكثير والعدد القليل وعلى هذا فلا يخلو اما أن يكون صوم الايام السبعة عند الرجوع فى الطريق أو عند الوصول الى البلد فان كان فى الطريق فانه أشق من الصوم بمكة لان الصوم فى السفر أشق من الصوم فى الحضر فكيف يجعل صوم سبعة أيام فى السفر فى مقابلة صوم ثلاثة أيام بمكة وان كان الصوم عند الوصول الى البلد فلا فرق بين الصوم بمكة والصوم عند الوصول الى البلد لان كليهما صوم فى المقام ببلد من البلاد لا تفاوت بينهما حتى يجعل صوم ثلاثة أيام فى مقابلة سبعة أيام على غير مثال ولا تساو فعلى كلا التقديرين لا يجوز أن تكون الواو فى سبعة اذا رجعتم بمعنى أو فتحقق اذا أنها للعطف خاصة واذا كانت للعطف خاصة فتأكيدها بعشرة كاملة دليل على أن المراد وجوب صوم الايام السبعة فى الطريق قبل الوصول الى البلد (فان قلت) ان الصوم بمكة أشق من الصوم فى الطريق لان الواجب عليه الصوم بمكة فى نصب وتعب بتصريف زمانه فى السعى والطواف والصلاة والعمرة وغير ذلك (قلت فى الجواب) هذا لا يلزم اذ الواجب عليه سعى واحد وطواف واحد لا غير وما عدا ذلك نافلة لا يلزم ونحن فى هذا المقام ناظرون الى ما يجب لا الى النافلة والذى يجب أداؤه بمكة يفرغ منه فى ساعة واحدة فكيف تجعل الزيادة على ذلك دليلا يورد فى هذا المقام هذا غير وارد وهكذا ورد قوله تعالى فاذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير فقوله غير يسير بعد قوله عسير من هذا النوع المشار اليه والا فقد علم أن العسير لا يكون يسيرا وانما ذكر ههنا على هذا الوجه لتعظيم شأن ذلك اليوم فى عسره وشدته على الكافرين وكذلك ورد قوله تعالى قد كانت لكم اسوة

حسنة

حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده فان البغضاء والعداوة بمعنى واحد وانما حسن ايرادهما معا فى معرض واحد لتأكيد البراءة بين ابراهيم صلوات الله عليه والذين آمنوا به وبين الكفار من قومهم حيث لم يؤمنوا بالله وحده وللمبالغة فى اظهار القطيعة والمصارمة وورد مثل ذلك فى مثل هذا الموضع كالايجاز فى موضعه ولن ترى شيأ يرد فى القرآن الكريم من هذا القبيل الا وهو لامر اقتضاه وان خفى عنك موضع السر فيه فاسأل عنه أهله العارفين به (ومما ورد منه شعرا) قول بعضهم فى أبيات الحماسة

نزلت على آل المهلب شاتيا * بعيدا عن الاوطان فى زمن المحل
فما زال بى اكرامهم وافتقادهم * واحسانهم حتى حسبتهم أهلى

فان الاكرام والافتقاد داخلان تحت الاحسان وانما كرر ذلك للتنويه بذكر الصنيع والايجاب لحقه وعلى هذا ورد قول الاعشى فى قصيدته المشهورة التى يمدح بها النبى صلى الله عليه وسلم فقال منها

فآليت لا أرثى لها من كلالة * ولا من وجى حتى تلاقى محمدا

فان الوجى والكلالة معناهما سواء وانما حسن تكريره ههنا للاشعار ببعد المسافة (الضرب الثانى من القسم الثانى) فى تكرير المعنى دون اللفظ وهو غير المفيد فمن ذلك قول أبى تمام

قسم الزمان ربوعها بين الصبا * وقبولها ودبورها أثلاثا

فان الصبا هى القبول وليس ذلك مثل التكرير فى قوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى فيما يرجع الى تكرير اللفظ والمعنى ولا مثل التكرير فى قوله تعالى ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف فيما يرجع الى تكرير المعنى دون اللفظ وقول ابى تمام الصبا والقبول لا يشتمل الا على معنى واحد لا غير وهذا الضرب من التكرير قد خبط فيه علماء البيان خبطا كثيرا والاكثر منهم أجازه فقالوا اذا كانت الالفاظ متغايرة والمعنى المعبر عنه واحدا فليس استعمال ذلك بمعيب وهذا القول فيه نظر والذى عندى فيه أن الناثر يعاب على استعماله مطلقا اذا أتى لغير فائدة وأما الناظم فانه يعاب عليه فى موضع دون موضع أما الموضع الذى يعاب استعماله فيه فهو صدور الابيات الشعرية

وما والاها وأما الموضع الذى لا يعاب استعماله فيه فهو الاجماز من الابيات لمكان القافية وانما جاز ذلك ولم يكن عيبا لانه قافية والشاعر مضطر اليها والمضطر يحل له ما حرم عليه كقول امرئ القيس فى قصيدته اللامية التى مطلعها ألا انعم صباحا أيها الطلل البالى * فقال

وهل ينعمن الا سعيد مخلد * قليل الهموم لا يبيت بأوجال

واذا كان قليل الهموم فانه لا يبيت بأوجال وهذا تكرير للمعنى الا أنه ليس بعيب لانه قافية وكذلك ورد قول الحطيئة

قالت أمامة لا تجزع فقلت لها * ان العزاء وان الصبر قد غلبا

هلا التمست لنا ان كنت صادقة * مالا نعيش به فى الناس أونشبا

فالبيت الاول معيب لانه كرر العزاء والصبر اذ معناهما واحد ولم يرد اقافية لان القافية هى الباء وأما البيت الثانى فليس بمعيب لان التكرير جاء فى النشب وهو قافية (ومما يجرى هذا المجرى) قول المنخل اليشكرى

ولقد دخلت على الفتا * ة الخدر فى اليوم المطير

الكاعب الحسناء تر * فل فى الدمقس وفى الحرير

فان الدمقس والحرير سواء وقد ورد قافية فلا بأس به من أجل ذلك (فان قيل) ان الحرير هو الابريسم المنسوج بدليل قوله تعالى وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا فانه لم يرد خيوط ابريسم وانما أراد أثوابا من الابريسم وأما الدمقس فانه خيوط الابريسم محلولة بدليل قول امرئ القيس * وشحم كهداب الدمقس المفتل فانه لم يرد ابريسما منسوجا وانما أراد خيوط الابريسم (فالجواب عن ذلك) أنه لو حمل بيت المنخل على ذلك لفسد معناه لان المرأة لا ترفل فى خيوط من الابريسم وانما ترفل فى الاثواب منه وأما قول امرئ القيس كهداب الدمقس فانه لو كان الدمقس هو الخيوط المحلولة من الابريسم لما احتاج أن يقول كهداب فان الهداب جمع هدب ثم قال المفتل فدل بذلك على أن الدمقس يطلق على الابريسم سواء كان منسوجا أو غير منسوج وكذلك الحرير أيضا وعند الاستعمال يفهم المراد منه بالقرينة ألا ترى أنه لما قال المنخل ترفل فى الدمقس وفى الحرير فهم من ذلك أنه أراد أثوابا من الدمقس ومن الحرير لان الرفول لا يكون فى خيوط من الابريسم وانما يكون فى أثوابه (ومما يجرى على هذا النهج) قول الآخر

من

من شعراء الحماسة

انى وان كان ابن عمى غائبا * لمقاذف من خلفه وورائه

فان خلفا ووراء بمعنى واحد وانما جاز تكرارهما لانهما قافية (وعلى هذا) ورد قول أبى تمام

دمن كان البين أصبح طالبا * دمنا لدى آثارنا وحقودا

فان الدمنة هى الحقد (وكذلك) قول أبى الطيب المتنبى

بحرته ودّ أن يذمّ لأهله * من دهره وطوارق الحدثان

فتركته واذا أذمّ من الورى * راعاك واستثنى بنى حمدان

فان الدهر وطوارق الحدثان سواء وانما جاز استعمال ذلك لانه قافية (وأمّا ماورد فى أثناء الابيات الشعرية) فكقول عنترة

حييت من طلل تقادم عهده * أقوى وأقفر بعد أمّ الهيثم

فقوله أقوى وأقفر من المعيب لانهما لفظان وردا بمعنى واحد لغير ضرورة اذ الضرورة لا تكون الا فى القافية كما أريتك (وأمّا ماورد من صدور الابيات) فكقول البحترى فى قصيدته العينية

ألمت وهل المامها بك نافع * وزارت خيالا والعيون هواجع

فان قوله ألمت وقوله زارت خيالا سواء ولا فرق اذا بين صدر البيت وعجزه (فان قيل) انه أراد بالالمام زيارة اليقظة ثم قال وزارت خيالا (فالجواب عن ذلك) أنه لم يرد الا زيارة المنام فى الحالتين لانه قال ألمت وهل المامها بك نافع ولو كان الالمام فى اليقظة لما قال وهل المامها بك نافع فانه لانفع أنفع من زيارة المحبوب فى اليقظة وهذا غير خاف لا يحتاج الى السؤال عنه (فان قيل) لم أجزت ذلك للناظم وحظرته على الناثر (قلت فى الجواب) أمّا الناثر فانه اذا سجع كلامه فالغالب أن يأتى به مزدوجا أى فقرتين من الفقر ويمكنه ابدال تلك الفقرتين بغيرهما فيسلم منه وأمّا الشاعر فانه يصوغ قصيدا ذا أبيات متعددة على قافية من القوافى فاذا تكرر لديه شئ من الكلام فى آخر بيت من الابيات عسر ابداله من أجل القافية وهذا غير خاف والسؤال عنه غير وارد وهذا الذى ذكرته اذا ورد فى غير القافية سمى اخلاء ويقال ان البحترى كان يخلى كثيرا فى شعره وهو لعمرى كذلك الا أن حسن سبكه ورونق ديباجته يغفر له ذلك (ويروى عنه) أنه

كان اذا امتثل بين يدى الفتح بن خاقان وزير المتوكل مادحاله اختيال بين يديه معجبا بنفسه فتقدم خطوات ثم تأخر وقال أى شئ تسمعون فنقم عليه ذلك بعض حسدته وحمل الفتح بن خاقان عليه فقال له الفتح لو رمانا بالحجارة لكان ذلك مغفورا له فيما يقوله (النوع الثامن عشر فى الاعتراض) وبعضهم يسميه الحشو وحده كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب لو أسقط لبقى الاول على حاله مثال ذلك أن تقول زيد قائم فهذا كلام مفيد وهو مبتدأ وخبر فاذا أدخلنا فيه لفظا مفردا قلنا زيد والله قائم ولو أزلنا القسم منه لبقى الاول على حاله واذا أدخلنا فى هذا الكلام لفظا مركبا قلنا زيد على مابه من المرض قائم فأدخلنا بين المبتدا والخبر لفظا مركبا وهو قولنا على مابه من المرض فهذا هو الاعتراض وهذا حده (واعلم) أن الجائز منه وغير الجائز انما يؤخذ من كتب العربية فانه يكون مستقصى فيها كالاعتراض بين القسم وجوابه وبين الصفة والموصوف وبين المعطوف والمعطوف عليه وأشباه ذلك مما يحسن استعماله وكالاعتراض بين المضاف والمضاف اليه وبين ان واسمها وبين حرف الجر ومجروره وأمثال ذلك مما يقبح استعماله وليس هذا مكانه لان كتابنا هذا موضوع لمن استكمل معرفة ذلك وغيره مما أشرنا اليه فى صدر الكتاب وليس المراد ههنا من الاعتراض الا ما يفرق به بين الجيد والردى، لا ما يعلم به الجائز وغير الجائز لان كتابى هذا موضوع لذكر ما يتضمنه الكلام على اختلاف أنواعه من وصفى الفصاحة والبلاغة فالذى أذكره فى باب الاعتراض انما هو ما اشتمل على شئ من هذين الوصفين المشار اليهما (واعلم أن الاعتراض ينقسم قسمين أحدهما) لا يأتى فى الكلام الا لفائدة وهو جار مجرى التوكيد (والآخر) أن يأتى فى الكلام لغير فائدة فاما أن يكون دخوله فيه كخروجه منه واما أن يؤثر فى تأليفه نقصا وفى معناه فسادا (فالقسم الاول) وهو الذى يأتى فى الكلام لفائدة كقوله تعالى فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون ففى هذا الكلام اعتراضان أحدهما قوله وانه لقسم لو تعلمون عظيم وذلك اعتراض بين القسم الذى هو فلا أقسم بمواقع النجوم وبين جوابه الذى هو انه لقرآن كريم وفى نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الموصوف الذى هو قسم وبين صفته التى هى عظيم وهو قوله لو تعلمون فذانك اعتراضان كما ترى وفائدة هذا الاعتراض

بين

بين القسم وجوابه انما هي تعظيم لشأن المقسم به في نفس السامع ألا ترى الى قوله لو تعلمون اعتراضا بين الموصوف والصفة وذلك الامر بحيث لو علم وفي حقه من التعظيم وهذا مثل قولنا ان هذا الامر لعظيم بحيث لو تعلم يا فلان عظمه لقدرته حق قدره فان ذلك يكبر في نفس المخاطب ويظل متطلعا الى معرفة عظمه (وكذلك) ورد قوله تعالى ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون وتقديره ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون فاعترض بين المفعولين بسبحانه وهو مصدر يدل على التنزيه فكأنه قال ويجعلون لله البنات وهو منزه عن ذلك ولهم ما يشتهون وفائدة هذا الاعتراض ههنا ظاهرة (وكذلك) ورد قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين فقوله لقد علمتم اعتراض بين القسم وجوابه وفائدته تقرير اثبات البراءة من الفساد والنزاهة من تهمة السرقة أي انكم قد علمتم هذا منا ونحن مع علمكم به نقسم بالله على صدقه وقد ورد الاعتراض في القرآن كثيرا وذلك في كل موضع يتعلق بنوع من خصوصية المبالغة في المعنى المقصود (ومن هذا القسم) قوله تعالى واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون فهذا الاعتراض بين اذا وجوابها لان تقدير الكلام واذا بدلنا آية مكان آية قالوا انما أنت مفتر فاعترض بينهما بقوله تعالى والله أعلم بما ينزل وهو مبتدأ وخبر وفائدته اعلام القائلين انه مفتر أن ذلك من الله وليس منه وأنه أعلم بذلك منهم (ومن هذا الباب) قوله تعالى ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك ألا ترى الى هذا الاعتراض الذي قد طبق مفصل البلاغة وفائدته أنه لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الام من المشاق في حمل الولد وفصاله ايجابا للتوصية بها وتذكيرا بحقها وانما خصها بالذكر دون الاب لانها تتكلف من أمر الولد ما لا يتكلفه ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن قال له من أبر فقال أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك (ومما جاء على هذا الاسلوب) قوله عز وجل واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون فقوله والله مخرج ما كنتم تكتمون اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وفائدته أن يقرر في نفوس المخاطبين وقلوب السامعين

أن تدارأ بنى اسرائيل فى قتل تلك النفس لم يكن نافعا لهم فى اخفائه وكتمانه لان الله تعالى مظهره ولذلك ولو جاء الكلام غير معترض فيه لكان واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اضربوه ببعضها ولا يخفى على البليغ الفرق بين ذلك وبين كونه معترضا فيه (ومما ورد من ذلك شعرا) قول امرئ القيس

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة * كفانى ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل * وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

تقديره كفانى قليل من المال فاعترض بين الفعل والفاعل بقوله ولم أطلب وفائدته تحقير المعيشة وأنها تحصل بغير طلب ولا عناء وانما الذى يحتاج الى الطلب هو المجد المؤثل (وكذلك) قول جرير

ولقد أرانى والجديد الى بلى * فى موكب طرف الحديث كرام

تقديره ولقد أرانى فى موكب طرف الحديث فاعترض بين المفعولين وانما جاء بهذا الاعتراض تعزيا عما مضى من تلك اللذة وذلك النعيم الذى فاته من عشرة أولئك الاصحاب ولقد أعهدنى فى كذا وكذا من اللذة وذلك قد مضى وسلف وبلى جديده وكذلك كل جديد فانه الى بلى والاعتراض اذا كان هكذا كسا الكلام لطفا ان كان غزلا وكساه أبهة وجلالا ان كان مديحا أو ما يجرى مجراه من أساليب الكلام وان كان هجاء كساه تأكيدا واثباتا كقول كثير

لو أن الباخلين وأنت منهم * رأوك تعلموا منك المطالا

فقوله وأنت منهم من محمود الاعتراض ونادره وفائدته ههنا التصريح بما هو المراد وتقدير هذا الكلام قبل الاعتراض لو أن الباخلين رأوك فاعترض بين اسم ان وهو الباخلين وبين خبرها وهو رأوك بالمبتدا والخبر الذى هو وأنت منهم (ومن محاسن ما جاء فى هذا الباب) قول المضرب السعدى

فلو سألت سراة الحى سلمى * على أن قد تلون بى زمانى

لخبرها ذوو أحساب قومى * وأعدائى فكل قد بلانى

وهذا اعتراض بين لو وجوابها وهو من فائق الاعتراض ونادره وتقديره فلو سألت سراة الحى سلمى لخبرها ذوو أحساب قومى وأعدائى وفائدة قوله على أن قد تلون بى زمانى أى أنهم يخبرون عنى على تلون الزمان بى بريد تنقل حالاته من خير وشر وليس من بجمه الزمان وأبان عن جوهره كغيره ممن لم يعجمه ولا أبان عنه (ومن ذلك)

قول

قول أبي تمام

وانّ الغنى لى ان لحظت مطالبي * من الشعر الا فى مديحك أطوع

وهذا البيت فيه اعتراضان الاوّل بين اسم انّ وخبرها تقديره وانّ الغنى أطوع لى من الشعر فاعترض بين الاسم والخبر بقوله ان لحظت مطالبي وأمّا الاعتراض الثانى فقوله الا فى مديحك فجاء بالجملة الاستثنائية مقدمة وموضعها التأخير فاعترض بها بين الجملة التى هى خبر انّ وتقدير البيت بجملته وانّ الغنى أطوع لى من الشعر ان لحظت مطالبي الا فى مديحك وفائدة قوله الا فى مديحك من الاعتراض الذى اكتسب به الكلام رقة فائدة حسنة والمراد به وصف جود الممدوح بالاسراع ووصف خاطر شعره بالاسراع اذا كان فى مدحه خاصة دون غيره فهذا الاعتراض يتضمن مدح الممدوح والمادح معا وهو من محاسن ما يجىء فى هذا الموضع وكذلك ورد قوله

رددت رونق وجهى فى صحيفته * ردّ الصقال بهاء الصارم الخذم

وما أبالى وخير القول أصدقه * حقنت لى ماء وجهى أم حقنت دمى

فقوله وخير القول أصدقه اعتراض بين المفعول والفعل لانّ موضع حقنت نصب اذ هو مفعول أبالى وفائدته اثبات ما ماثل به بين ماء الوجه والدم أى انّ هذا القول صدق ليس بكذب (وأمّا القسم الثانى) وهو الذى يأتى فى الكلام لغير فائدة (فهو ضربان الضرب الاوّل) يكون دخوله فى الكلام كخروجه منه لا يكتسب به حسنا ولا قبحا فمن ذلك قول النابغة

يقول رجال يجهلون خليقتى * لعلّ زيادا لا أبالك غافل

فقوله لا أبالك من الاعتراض الذى لا فائدة فيه وليس مؤثرا فى هذا البيت حسنا ولا قبحا ومثله سواء قول زهير

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش * ثمانين حولا لا أبالك يسأم

وقد وردت هذه اللفظة وهى لا أبالك فى موضع آخر فكان للاعتراض بها فائدة حسنة كقول أبي تمام * عتابك عنى لا أبالك واقصدى * فانه لما كره عتابها اعترض بين الامر والمعطوف عليه بهذه اللفظة على طريق الذمّ (الضرب الثانى) وهو الذى يؤثر فى الكلام نقصا وفى المعنى فسادا وقد تقدم ذكر أمثاله وأنظاره فى باب التقديم والتأخير وانما جىء بذكره ههنا مكررا لاتمام التقسيم الاعتراضى فيما

أفاد وربما لا يفيد وقد ذكرت من ذلك مثالا واحدا أو مثالين فمما ورد منه قول بعضهم

فقد والشك بين لي عناء * بوشك فراقهم صرد يصيح

فان في هذا البيت من رديء الاعتراض ما أذكره لك وهو الفصل بين قد والفعل الذي هو بين وذلك قبيح لقوة اتصال قد بما تدخل عليه من الافعال ألا تراها تعد مع الفعل كالجزء منه ولذلك أدخلت عليها اللام المراد بها توكيد الفعل كقوله تعالى ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك وقوله تعالى ولقد علموا لمن اشتراه وقول الشاعر

ولقد أجمع رجلي بها * حذر الموت واني لفرور

الا ان فصل بين قد والفعل بالقسم فان ذلك لا بأس به نحو قولك قد والله كان ذلك وقد فصل في هذا البيت أيضا بين المبتدا الذي هو الشك وبين الخبر الذي هو عناء بقوله بين لي وفصل بين الفعل الذي هو بين وبين فاعله الذي هو صرد بخبر المبتدا الذي هو عناء فجاء معنى البيت كما تراه كأنه صورة مشوهة قد نقلت أعضاؤها بعضها الى مكان بعض (ومن هذا الضرب) قول الآخر

نظرت وشخصي مطلع الشمس ظله * الى الغرب حتى ظله الشمس قد عقل

أراد نظرت مطلع الشمس وشخصي ظله الى الغرب حتى عقل الشمس أي حاذاها وعلى هذا التقدير فقد فصل بمطلع الشمس بين المبتدا الذي هو شخص و بين خبره الجملة وهو قوله ظله الى الغرب وأغلظ من ذلك أنه فصل بين الفعل وفاعله بالاجنبي وهذا وأمثاله مما يفسد المعاني ويورثها اختلالا (واعلم) أن الناثر في استعمال ذلك أكثر ملامة من الناظم وذلك أن الناظم مضطر الى اقامة ميزان الشعر وربما كان مجال الكلام عليه ضيقا فيلقيه طلب الوزن في مثل هذه الورطات وأما الناثر فلا يضطر الى اقامة الميزان الشعري بل يكون مجال الكلام عليه واسعا ولهذا اذا اعترض في كلامه اعتراضا يفسده توجه عليه الانكار وحق عليه الذم (النوع التاسع عشر في الكناية والتعريض) وهذا النوع مقصور على الميل مع المعنى وترك اللفظ جانبا وقد تكلم علماء البيان فيه فوجدتهم قد خلطوا الكناية بالتعريض ولم يفرقوا بينهما ولا حدوا كلا منهما بحد يفصله عن صاحبه بل أوردوا لهما أمثلة من النظم والنثر وأدخلوا أحدهما في الآخر فذكروا للكناية أمثلة من التعريض وللتعريض أمثلة من الكناية فممن فعل ذلك الغانمي وابن سنان الخفاجي والعسكري فأما ابن سنان فانه ذكر في كتابه قول

الكناية والتعريض

امرئ القيس

فصرنا الى الحسنى ورق كلامها * ورضت فذلت صعبة أى اذلال

وهذا مثال ضربه للكناية عن المباضعة وهو مثال للتعريض ووجدت فى كتاب التذكرة لابن حمدون البغدادى وكان مشارا اليه عندهم بفضيلة ومعرفة لاسيما فى الكتابة فوجدت فى كتابه ذلك بابا مقصورا على ذكر الكناية والتعريض وماقيل فيهما نظما ونثرا وهو محشو بالخلط بين هذين القسمين من غير فصل بينهما وقد أورد أيضا فى بعضه أمثلة غثة باردة وسأذكر ما عندى فى الفرق بينهما وأميز أحدهما عن الآخر ليعرف كل منهما على انفراده فأقول أما الكناية فقد حدت بحد فقيل هى اللفظ الدال على الشئ على غير الوضع الحقيقى بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه كاللمس والجماع فان الجماع اسم موضوع حقيقى واللمس كناية عنه وبينهما الوصف الجامع اذ الجماع لمس وزيادة فكان دالا عليه بالوضع المجازى وهذا الحد فاسد لانه يجوز أن يكون حد التشبيه فان التشبيه هو اللفظ الدال على غير الوضع الحقيقى لجامع بين المشبه والمشبه به وصفة من الاوصاف ألا ترى أنا اذا قلنا زيد أسد كان ذلك لفظا دالا على غير الوضع الحقيقى بوصف جامع بين زيد والاسد وذلك الوصف هو الشجاعة ومن ههنا وقع الغلط لمن أشرت اليه فى الذى ذكره فى حد الكناية وأما علماء أصول الفقه فانهم قالوا فى حد الكناية انها اللفظ المحتمل يريدون بذلك أنها اللفظ الذى يحتمل الدلالة على المعنى وعلى خلافه وهذا فاسد أيضا فانه ليس كل لفظ يدل على المعنى وعلى خلافه بكناية دليل ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم اذا لم تستح فافعل ما شئت فان هذا اللفظ يدل على المعنى وعلى خلافه وبيان ذلك أنه يقول فى أحد معنييه انك اذا لم يكن لك وازع يزعك عن الحياء فافعل ماشئت وأما معناه الآخر فانه يقول اذا لم تفعل فعلا يستحى منه فافعل ماشئت وهذا ليس من الكناية فى شئ فبطل اذا هذا الحد ومثال الفقيه فى قوله ان الكناية هى اللفظ المحتمل مثال من أراد أن يحد الانسان فأتى بحد الحيوان فعبر بالاعم عن الاخص فانه يقال كل انسان حيوان وليس كل حيوان انسانا وكذلك يقال ههنا فان كل كناية لفظ محتمل وليس كل لفظ محتمل كناية (والذى عندى فى ذلك) أن الكناية اذا وردت تجاذبها جانبا حقيقة ومجاز وجاز حملها على الجانبين معا ألا ترى أن اللمس فى قوله تعالى أو لامستم النساء

يجوز حمله على الحقيقة والمجاز وكل منهما يصح به المعنى ولا يختل ولهذا ذهب الشافعى رحمه الله الى أن اللمس هو مصافحة الجسد للجسد فاوجب الوضوء على الرجل اذا لمس المرأة وذلك هو الحقيقة فى اللمس وذهب غيره الى أن المراد باللمس هو الجماع وذلك مجاز فيه وهو الكناية وكل موضع ترد فيه الكناية فانه يتجاذبه جانبا حقيقة ومجاز ويجوز حمله على كليهما معا وأما التشبيه فليس كذلك ولا غيره من أقسام المجاز لانه لا يجوز حمله الا على جانب المجاز خاصة ولو حمل على جانب الحقيقة لاستحال المعنى ألا ترى أنا اذا قلنا زيد أسد لا يصح الا على جانب المجاز خاصة وذلك أنا شبهنا زيدا بالاسد فى شجاعته ولو حملناه على جانب الحقيقة لاستحال المعنى لان زيدا ليس ذلك الحيوان ذا الاربع والذنب والوبر والانياب والمخالب واذا كان الامر كذلك فحد الكناية الجامع لها هو أنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز والدليل على ذلك أن الكناية فى أصل الوضع أن تتكلم بشئ وتريد غيره يقال كنيت بكذا عن كذا فهى تدل على ما تكلمت به وعلى ما أردته من غيره وعلى هذا فلا تخلو اما أن تكون فى لفظ تجاذبه جانبا حقيقة ومجاز أو فى لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز أو فى لفظ تجاذبه جانبا حقيقة وحقيقة وليس لنا قسم رابع ولا يصح أن تكون فى لفظ تجاذبه جانبا حقيقة وحقيقة لان ذلك هو اللفظ المشترك واذا أطلق من غير قرينة تخصصه كان مبهما غير مفهوم واذا أضيف اليه القرينة صار مختصا بشئ بعينه والكناية أن تتكلم بشئ وتريد غيره وذلك مخالف للفظ المشترك اذا أضيف اليه القرينة لانه يختص بشئ واحد بعينه لا يتعداه الى غيره وكذلك لا يصح أن تكون الكناية فى لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز لان المجاز لا بد له من حقيقة نقل عنها لانه فرع عليها وذلك اللفظ الدال على المجازين اما أن يكون للحقيقة شركة فى الدلالة عليه أو لا يكون لها شركة فان كان لها شركة فى الدلالة فيكون اللفظ الواحد قد دل على ثلاثة أشياء أحدها الحقيقة وهذا مخالف لاصل الوضع لان أصل الوضع أن تتكلم بشئ وأنت تريد غيره وههنا تكون قد تكلمت بشئ وأنت تريد شيئين غيره وان لم يكن للحقيقة شركة فى الدلالة كان ذلك مخالفا للوضع أيضا لان أصل الوضع أن تتكلم بشئ وأنت تريد غيره فيكون الذى تكلمت به دالا على ما تكلمت به وعلى غيره واذا أخرجت الحقيقة

عن أن يكون لها شركة في الدلالة لم يكن الذى تكلمت به دالا على ما تكلمت به وهذا محال فتحقق حينئذ أن الكناية أن تتكلم بالحقيقة وأنت تريد المجاز وهذا الكلام في حقيقة الدليل على تحقيق أمر الكناية لم يكن لأحد فيه قول سابق (واعلم) أن الكناية مشتقة من الستر يقال كنيت الشئ اذا سترته وأجرى هذا الحكم في الالفاظ التى يستتر فيها المجاز بالحقيقة فتكون دالة على الساتر وعلى المستور معا ألا ترى الى قوله تعالى أو لامستم النساء فانه ان حمل على الجماع كان كناية لانه ستر الجماع بلفظ اللمس الذى حقيقته مصافحة الجسد الجسد وان حمل على الملامسة التى هى مصافحة الجسد الجسد كان حقيقة ولم يكن كناية وكلاهما يتم به المعنى وقد تأولت الكناية بغير هذا وهى أنها مأخوذة من الكنية التى يقال فيها أبو فلان فانا اذا نادينا رجلا اسمه عبد الله وله ولد اسمه محمد فقلنا يا أبا محمد كان ذلك مثل قولنا يا عبد الله فان شئنا نادينا به بهذا وان شئنا ناديناه بهذا وكلاهما واقع عليه وكذلك يجرى الحكم في الكناية فانا اذا شئنا حملناها على جانب المجاز واذا شئنا حملناها على الحقيقة الا أنه لا بد من الوصف الجامع بينهما لئلا يلحق بالكناية ما ليس منها ألا ترى الى قوله تعالى ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فكنى بذلك عن النساء والوصف الجامع بينهما هو التأنيث ولولا ذلك لقيل في مثل هذا الموضع ان أخى له تسع وتسعون كبشا ولى كبش واحد وقيل هذه كناية عن النساء ومن أجل ذلك لم يلتفت الى تأويل من تأول قوله تعالى وثيابك فطهر أنه أراد بالثياب القلب على حكم الكناية لانه ليس بين الثياب والقلب وصف جامع ولو كان بينهما وصف جامع لكان التأويل صحيحا (فان قيل) فما الدليل على اشتقاق الكناية من كنيت الشئ اذا سترته ومن الكنية (قلت) في الجواب أما اشتقاقها من كنيت الشئ اذا سترته فان المستور فيها هو المجاز لان الحقيقة تفهم أولا ويتسارع الفهم اليها قبل المجاز لان دلالة اللفظ عليها دلالة وضعية وأما المجاز فانه يفهم منه بعد فهم الحقيقة وانما يفهم بالنظر والفكرة ولهذا يحتاج الى دليل لانه عدول عن ظاهر اللفظ فالحقيقة أظهر والمجاز أخفى وهو مستور بالحقيقة ألا ترى الى قوله تعالى أو لامستم النساء فان الفهم يتسارع فيه الى الحقيقة التى هى مصافحة الجسد الجسد وأما المجاز الذى هو الجماع فانه يفهم بالنظر والفكر ويحتاج الذاهب اليه الى دليل لانه عدول عن

ظاهر اللفظ وأمّا اشتقاقها من الكتبة فلان محمد في هذه الصورة المذكورة هو حقيقة هذا الرجل أي الاسم الموضوع بإزائه أوّلا وأمّا أبو عبد الله فانه طار عليه بعد محمد لانه لم يكن له الا بعد أن صار له ولد اسمه عبد الله وكذلك الكناية فانّ الحقيقة انما هو الاسم الموضوع بإزائها أوّلا في أصل الوضع وأمّا المجاز فانه طار عليها بعد ذلك لانه فرع والفرع انما يكون بعد الاصل وانما يعمد الى ذلك الفرع للمناسبة الجامعة بينه وبين الاصل على ما تقدّم الكلام فيه وهذا القدر كاف في الدلالة على اشتقاق الكناية من ذينك المعنيين المشار اليهما (فان قيل) انك قد ذكرت أقسام المجاز في باب الاستعارة التي قدّمت ذكرها في كتابك هذا وحصرتها في أقسام ثلاثة وهي التوسع في الكلام والاستعارة والتشبيه ونراك قد ذكرت الكناية في المجاز أيضا فهل هي قسم رابع لتلك الاقسام الثلاثة أم هي من جملتها فان كانت قسما رابعا فذلك نقض للحصر الذي حصرته وان كانت من جملتها فقد أعدت ذكرها ههنا مرّة ثانية وهذا المكرار لا حاجة اليه (فالجواب عن ذلك) أني أقول أمّا الحصر الذي حصرته في باب الاستعارة فهو ذاك ولا زيادة عليه وأمّا الكناية فانها جزء من الاستعارة ولا تأتي الا على حكم الاستعارة خاصة لانّ الاستعارة لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له وكذلك الكناية فانها لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المكنّى عنه ونسبتها الى الاستعارة نسبة خاص الى عامّ فيقال كل كناية استعارة وليس كل استعارة كناية ويفرق بينهما من وجه آخر وهو أنّ الاستعارة لفظها صريح والصريح هو مادلّ عليه ظاهر لفظه والكناية ضدّ الصريح لانها عدول عن ظاهر اللفظ وهذه ثلاثة فروق أحدها الخصوص والعموم والآخر الصريح والآخر الحمل على جانب الحقيقة والمجاز وقد تقدّم القول في باب الاستعارة أنها جزء من المجاز وعلى ذلك فتكون نسبة الكناية الى المجاز نسبة جزء الجزء وخاص الخاص وكان ينبغي أن نذكر الكناية عند ذكر الاستعارة في النوع الاوّل من هذه الانواع المذكورة في المقالة الثانية وانما أفردتها بالذكر ههنا من أجل التعريض لانّ من العادة أن يذكرا جميعا في مكان واحد وقد يأتي في الكلام ما يجوز أن يكون كناية ويجوز أن يكون استعارة وذلك يختلف باختلاف النظر اليه بمفرده والنظر الى ما بعده كقول نصر بن سيار في أبياته المشهورة التي يحرّض

بها بنى أمية عند خروج أبى مسلم

أرى خلل الرماد وميض جمر * ويوشك أن يكون له ضرام
فان النار بالزندين تورى * وان الحرب أولها كلام
أقول من التعجب ليت شعرى * أأيقاظ أمية أم نيام
فان هبوا فذلك بقاء ملك * وان رقدوا فانى لا ألام

فالبيت الاول لو ورد بمفرده كان كناية لانه يجوز حمله على جانب الحقيقة وحمله على جانب المجاز أما الحقيقة فانه أخبر أنه رأى وميض جمر فى خلل الرماد وأنه سيضطرم وأما المجاز فانه أراد أن هناك ابتداء شر كامن ومثله بوميض جمر من خلل الرماد واذا نظرنا الى الابيات جملتها اختص البيت الاول منها بالاستعارة دون الكناية وكثيرا ما يرد مثل ذلك ويشكل لتجاذبه بين الكناية والاستعارة على أنه لا يشكل الا على غير العارف (وأما التعريض) فهو اللفظ الدال على الشئ من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى فانك اذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب والله انى لمحتاج وليس فى يدى شئ وأنا عريان والبرد قد آذانى فان هذا وأشباهه تعريض بالطلب وليس هذا اللفظ موضوعا فى مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازا انما دل عليه من طريق المفهوم بخلاف دلالة اللمس على الجماع وعليه ورد التعريض فى خطبة النكاح كقولك للمرأة انك لخلية وانى لعزب فان هذا وأمثاله لا يدل على طلب النكاح حقيقة ولا مجازا والتعريض أخفى من الكناية لان دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى وانما سمى التعريض تعريضا لان المعنى فيه يفهم من عرضه أى من جانبه وعرض كل شئ جانبه (واعلم) أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معا فتأتى على هذا تارة وعلى هذا أخرى وأما التعريض فانه يختص باللفظ المركب ولا يأتى فى اللفظ المفرد البتة والدليل على ذلك أنه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز وانما يفهم من جهة التلويح والاشارة وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد ولكنه يحتاج فى الدلالة عليه الى اللفظ المركب وعلى هذا فان بيت امرئ القيس الذى ذكره ابن سنان مثالا للكناية هو مثال للتعريض فان غرض امرئ القيس من ذلك أن يذكر الجماع غير أنه لم يذكره بل ذكر كلاما آخر يفهم

ابطاع من عرضه لان المصير الى الحسناء ورقة الكلام لا يفهم منهما ما أراده امرؤ القيس من المعنى لاحقيقة ولا مجازا وهذا الاخفاء به فاعرفه وحيث فرقنا بين الكناية والتعريض وميزنا أحدهما عن الآخر فلنفصلهما ونذكر أقسامهما ونبدأ أولا بالكناية (فنقول اعلم أن الكناية تنقسم قسمين أحدهما) ما يحسن استعماله (والآخر) مالا يحسن استعماله وهو عيب في الكلام فاحش وقد ذهب قوم الى أن الكناية تنقسم أقساما ثلاثة تمثيلا وإردافا ومجاورة (فأما التمثيل) فهو أن تراد الاشارة الى معنى فيوضع لفظ لمعنى آخر ويكون ذلك مثالا للمعنى الذى أريدت الاشارة اليه كقولهم فلان نقى الثوب أى منزه من العيوب (وأما الارداف) فهو أن تراد الاشارة الى معنى فيوضع لفظ لمعنى آخر ويكون ذلك ارادفا للمعنى الذى أريدت الاشارة اليه ولازماله كقولهم فلان طويل النجاد أى طويل القامة فطول النجاد رادف لطول القامة ولازم له بخلاف نقاء الثوب فى الكناية عن النزاهة من العيوب لان نقاء الثوب لا يلزم منه النزاهة من العيوب كما يلزم من طول النجاد طول القامة (وأما المجاورة) فهى أن تريد ذكر الشئ فتتركه الى ما جاوره كقول عنترة

بزجاجة صفراء ذات أسرة * قرنت بأزهر فى الشمال مفدم

يريد بالزجاجة الخمر فذكر الزجاجة وكنى بها عن الخمر لانها مجاورة لها وهذا التقسيم غير صحيح لان من شرط التقسيم أن يكون كل قسم منه مختصا بصفة خاصة تفصله عن عموم الاصل كقولنا الحيوان ينقسم أقساما منها الانسان وحقيقته كذا وكذا ومنها الاسد وحقيقته كذا وكذا ومنها الفرس وحقيقته كذا وكذا ومنها غير ذلك وههنا لم يكن التقسيم كذلك فان التمثيل على ما ذكر عبارة عن مجموع الكناية لان الكناية انما هى أن تراد الاشارة الى معنى فيوضع لفظ لمعنى آخر ويكون ذلك اللفظ مثالا للمعنى الذى أريدت الاشارة اليه ألا ترى الى قوله تعالى ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فانه أراد الاشارة الى النساء فوضع لفظا لمعنى آخر وهو النعاج ثم مثل به النساء وهكذا يجرى الحكم فى جميع ما يأتى من الكنايات لكن منها ما يتضح التمثيل فيه وتكون المشبهة بين الكناية والمكنى عنه شديدة المناسبة ومنه ما يكون دون ذلك فى المشبهة وقد تأملت ذلك وحققت النظر فيه فوجدت الكناية اذا وردت على طريق اللفظ

المركب كانت شديدة المناسبة واضحة الشبهة واذا وردت على طريق اللفظ المفرد لم تكن بتلك الدرجة فى قوة المناسبة والمشابهة ألا ترى الى قولهم فلان نقى الثوب وقولهم اللمس كناية عن الجماع فان نقاء الثوب أشد مناسبة وأوضح شبها دنا ذا قلنا نقاء الثوب من الدنس كنزاهة العرض من العيوب اتضحت المشابهة ووجدت المناسبة بين الكناية والمكنى عنه شديدة الملاءمة واذا قلنا اللمس كالجماع لم يكن بتلك الدرجة فى قوة المشابهة وهذا الذى ذكرى أن من الكناية تمثيلا وهو كذا وكذا غير سائغ ولا وارد بل الكناية كلها هى ذاك والذى قدمته من القول فيها هو الحاصر لها ولم يأت به أحد غيرى كذلك (وأما الارداف) فانه ضرب من اللفظ المركب الا أنه اختص بصفة تخصه وهى أن تكون الكناية دليلا على المكنى عنه ولازمة له بخلاف غيرها من الكنايات ألا ترى أن طول النجاد دال على طول القامة ولازم له وكذلك يقال فلان عظيم الرماد أى كثير اطعام الطعام وعليه ورد قول الاعرابية فى حديث أم زرع فى وصف زوجها له ابل قليلات المسارح كثيرات المبارك اذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك وغرض الاعرابية من هذا القول أن تصف زوجها بالجود والكرم الا أنها لم تذكر ذلك بلفظه الصريح وانما ذكرته من طريق الكناية على وجه الارداف الذى هو لازم له (وكذلك) ورد فى الاخبار النبوية أيضا وذاك أن امرأة جاءت الى النبى صلى الله عليه وسلم فسألته عن غسلها من الحيض فأمرها أن تغتسل ثم قال خذى فرصة من مسك فتطهرى بها قالت كيف أتطهر بها فقال تطهرى بها قالت كيف أتطهر بها قال سبحان الله تطهرى بها فاجتذبتها عائشة رضى الله عنها اليها فقالت تتبعى بها أثر الدم فقولها أثر الدم كناية عن الفرج على طريق الارداف لان أثر الدم فى الحيض لا يكون الا فى الفرج فهو رادف له (ومما ورد) من ذلك شعرا قول عمر بن أبى ربيعة

بعيدة مهوى القرط اما لنوفل * أبوها واما عبد شمس وهاشم

فان بعد مهوى القرط دليل على طول العنق ومن لطف هذا الموضع وحسنه ما يأتى بلفظة مثل كقول الرجل اذا نفى عن نفسه القبيح مثلى لا يفعل هذا أى أنا لا أفعله فنفى ذلك عن مثله ويريد نفيه عن نفسه لانه اذا نفاه عمن يماثله ويشابهه فقد نفاه عن نفسه لا محالة اذ هو بنفى ذلك عنه أجدر وكذلك يقال

مثالك اذا استئل أعطى أى أنت اذا استئلت أعطيت وسبب ورود هذه اللفظة في هذا الموضع أنه يجعل من جماعة هذه أوصافهم تثبيتا للامر وتوكيدا ولو كان فيه وحده لقلق منه موضعه ولم يرس فيه قدمه وهذا مثل قول القائل اذا كان في مدح انسان أنت من القوم الكرام أى لك في هذا الفعل سابقة وأنت حقيق به ولست دخيلا فيه وقد ورد هذا في القرآن الكريم كقوله تعالى ليس كمثله شئ وهو السميع البصير والفرق بين قوله ليس كمثله شئ وبين قوله ليس كالله شئ هو ما أشرت اليه وان كان الله سبحانه وتعالى لا مثل له حتى يكون لمثله مثل وانما ذكر ذلك على طريق المجاز قصدا للمبالغة وقد يأتي هذا الموضع بغير لفظة مثل وهي مقصودة كقولك للعربي العرب لا تخفر الذمم أى أنت لا تخفر الذمم وهذا أبلغ من قولك أنت لا تخفر الذمم لما أشرت اليه وعلى نحو من هذا جاء قول أبي الطيب المتنبي

ألست من القوم الذى من رماحهم * نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل

(واذا فرغت) من ذكر الاصول التي قدمت ذكرها فاني أتبعها بضرب الامثلة نثرا ونظما حتى يزداد ما ذكرته وضوحا (فمن ذلك) ما ورد في القرآن الكريم نحو قوله تعالى أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فانه كنى عن الغيبة بأكل الانسان لحم انسان آخر مثله ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتا ثم جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة للمعنى الذى وردت من أجله فأما جعل الغيبة كأكل الانسان لحم انسان آخر مثله فشديد المناسبة جدا لان الغيبة انما هي ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم وتمزيق العرض مماثل لأكل الانسان لحم من يغتابه لان أكل اللحم تمزيق على الحقيقة وأما جعله كلحم الاخ فلما في الغيبة من الكراهة لان العقل والشرع مجتمعان على استكراهها آمران بتركها والبعد عنها ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الاخ في كراهته ومن المعلوم أن لحم الانسان مستكره عند انسان آخر الا أنه لا يكون مثل كراهته لحم أخيه فهذا القول مبالغة في استكراه الغيبة وأما جعل اللحم ميتا فمن أجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس بها وأما جعله ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة فلما جبلت عليه النفوس من الميل الى الغيبة والشهوة لها مع

العلم بقصها فانظر أيها المتأمل الى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبها لانك اذا نظرت الى كل واحدة من تلك الدلالات الاربع التى أشرنا اليها وجدتها مناسبة لما قصدت له (وكذلك) ورد قوله تعالى وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها والارض التى لم يطؤها كناية عن مناكح النساء وذلك من حسن الكناية ونادره (وكذلك) ورد قوله تعالى أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا فكنى بالماء عن العلم وبالاودية عن القلوب وبالزبد عن الضلال (وهذه الآية) قد ذكرها أبو حامد الغزالى رحمه الله فى كتابه الموسوم باحياء علوم الدين وفى كتابه الموسوم بالجواهر والاربعين وأشار بها الى أن فى القرآن الكريم اشارات وايماآت لا تنكشف الا بعد الموت وهذا يدل على أن الغزالى رحمه الله لم يعلم أن هذه الآية من باب الكنايات الذى لفظها يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز (وقد رأيت جماعة) من أئمة الفقه لا يحققون أمر الكناية واذا سئلوا عنها عبروا عنها بالمجاز وليس الامر كذلك و بينهما وصف جامع كهذه الآية وما جرى مجراها فانه يجوز حمل الماء على المطر النازل من السماء وعلى العلم وكذلك يجوز حمل الاودية على مهابط الارض وعلى القلوب وهكذا يجوز حمل الزبد على الغثاء الرابى الذى تقذفه السيول وعلى الضلال وليس فى أقسام المجاز شئ يجوز حمله على الطرفين معا سوى الكناية (و بلغنى عن الفراء النحوى) أنه ذكر فى تفسيره آية وزعم أنها كناية وهى قوله تعالى وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال فقال ان الجبال كناية عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الآيات وهذه الآية من باب الاستعارة لا من باب الكناية لان الكناية لا تكون الا فيما جاز حمله على جانبى المجاز والحقيقة والجبال ههنا لا يصح بها المعنى الا اذا حملت على جانب المجاز خاصة لان مكر أولئك لم يكن لتزول منه جبال الارض فان ذلك محال (واما ما ورد منها فى الاخبار النبوية) فقول النبى صلى الله عليه وسلم انه كانت امرأة فيمن كان من قبلنا وكان لها ابن عم يحبها فراودها على نفسها فامتنعت عليه حتى اذا أصابتها شدة فجاءت اليه تسأله فراودها فمكنته من نفسها فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة قالت له لا يحل لك أن تفض الخاتم الا بحقه فقام عنها وتركها وهذه كناية واقعة فى موقعها

(ومن ذلك) أيضا قول النبي صلى الله عليه وسلم رويدك سوقك بالقوارير يريد بذلك النساء فكنى عنهن بالقوارير وذلك أنه كان في بعض أسفاره وغلام أسود اسمه أنجشة يحدو فقال له يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير وهذه كناية لطيفة (وكذلك) ورد حديث الحديبية وذلك أنه لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الركية جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من أهل تهامة فقال له تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا اعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت وهذه كناية عن النساء والصبيان والعوذ جمع عائذ وهي الناقة التي وضعت وقوى ولدها وهذا يجوز حمله على طريق الحقيقة كما جاز حمله على طريق المجاز أي معهم الاموال من الابل وهي كانت جل أموال العرب أي أنهم قد أحضروا أموالهم ليقاتلوا دونها ولما جاز حمل العوذ المطافيل على النساء والصبيان وعلى الاموال كان من باب الكناية (ومن ذلك) ما ورد في اقامة الحد على الزاني وهو أن يشهد عليه برؤية الميل في المكحلة وذلك كناية عن رؤية الفرج في الفرج (ومن لطيف الكناية) أن امرأة جاءت الى عائشة رضي الله عنها فقالت لها أقيد جملي فقالت عائشة رضي الله عنها لا أرادت المرأة أنها تصنع لزوجها شيأ يمنعه عن غيرها أي تربطه أن يأتي غيرها فظاهر هذا اللفظ هو تقييد الجمل وباطنه ما أرادته المرأة وفهمته عائشة منها (وكذلك) يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك أنه جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله هلكت قال وما أهلكك قال حولت رحلي البارحة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة (ويروى) أن عمرو بن العاص زوج ولده عبد الله رضي الله عنه فمكثت المرأة عنده ثلاث ليال لم يدن منها وانما كان ملتفتا الى صلاته فدخل عليها عمرو بعد ثلاث فقال كيف ترين بعلك فقالت نعم البعل الا أنه لم يفتش لنا كنفا ولا قرب لنا مضجعا فقولها لم يفتش لنا كنفا ولا قرب لنا مضجعا من الكناية الغراء الظاهرة (ومن ألطف ما بلغني في هذا) قول عبد الله بن سلام فانه رأى على رجل ثوبا معصفرا فقال لو أن ثوبك في تنور أهلك أو تحت قدرهم كان خيرا فذهب الرجل فأحرقه نظرا الى حقيقة قول عبد الله وظاهر مفهومه وانما أراد المجاز منه وهو انك لو صرفت ثمنه الى دقيق تخبزه أو حطب تطبخ به كان خيرا

والمعنى متجاذب بين هذين الوجهين فالرجل فهم منه الظاهر الحقيقي فمضى فأحرق ثوبه ومراد عبد الله غيره (ومن هذا القسم ما ورد في أمثال العرب) كقولهم اياك وعقيلة الملح وذلك كناية عن المرأة الحسناء في منبت السوء فان عقيلة الملح هي اللؤلؤة تكون في البحر فهي حسنة وموضعها ملح وكذلك قولهم لبس له جلد النمر كناية عن العداوة وقد يقاس على هذا أن يقال لبس له جلد الاسد ولبس له جلد الذئب ولبس له جلد الارقم لان هذا كله مثل قولهم لبس له جلد النمر اذ العداوة محتملة في الجميع وكذلك قولهم قلب له ظهر المجن كناية عن تغيير المودة (ومما ورد في ذلك شعرا) قول أبي نواس

لا أذود الطير عن شجر * قد بلوت المر من ثمره

وهذا له حكاية وهو أنه كان لابي نواس صديقة تغشاه فقيل له انها تختلف الى آخر من أهل الريب فلم يصدق ذلك حتى تبعها يوما من الايام فرآها تدخل منزل ذلك الرجل ثم ان ذلك الرجل جاءه وكان صديقا له فكلمه فصرف وجهه عنه ثم نظم قصيدته المشهورة التي مطلعها * أيها المنتاب عن عفره * وهذا البيت من جملة أبياتها (وكذلك) ورد قوله أيضا

وناظرة الي من النقاب * تلاحظني بطرف مسترابه
كشفت قناعها فاذا عجوز * مموهة المفارق بالخضاب
فما زالت تحدثني طويلا * وتأخذ في أحاديث التصابي
تحاول أن يقوم أبو زياد * ودون قيامه شيب الغراب
أتت بجرابها تكتال فيه * فقامت وهي فارغة الجراب

فقوله أتت بجرابها تكتال فيه من باب الكناية اذ الجراب يجوز حمله على الحقيقة والمجاز وكذلك الكيل أيضا (ومما جاء من هذا الباب) قول أبي تمام في قصيدته التي يستعطف بها مالك بن طوق على قومه ومطلعها * أرض مصردة وأرض مثجم

مالي رأيت ترابكم يبس الثرى * مالي أرى أطوادكم تتهدم

فيبس الثرى كناية عن تنكر ذات البين تقول يبس الثرى بيني وبين فلان اذا تنكر الود الذي بينك وبينه وكذلك تهدم الاطواد فانه كناية عن خفة الحلوم وطيش العقول ومن الكناية الحسنة قول أبي الطيب المتنبي في قصيدته التي يعاتب فيها سيف الدولة بن حمدان التي مطلعها * واحر قلباه ممن قلبه شبم

قوله مالي رأيت الخ في الديوان مالي رأيت ترابكم مختالة * مالي رأيت حفاركم تتهدم

وشر ماقنصته راحتي قنص * شهب البزاة سواء فيه والرخم

يشير بذلك الى أن سيف الدولة يستوى فى المنال منه هو وغيره فهو البازى وغيره الرخمة وان حمل المعنى على جانب الحقيقة كان جائزا وعلى هذا ورد قول الاقيس الاسدى وكان عنينا لا يأتى النساء وكان كثيرا مايصف ذلك من نفسه فجلس اليه يوما رجل من قيس فانشده الاقيس

والقد أروح بشرف ذى ميعة * عسر المكرة ماؤه يتقصد

مرح يطير من المزاح لعابه * ويكاد جلد إهابه يتقدد

ثم قال له أتبصر الشعر قال نعم قال فا وصفت قال فرسا قال أفكنت تركبه لو رأيته قال اى والله وأثنى عطفه فكشف له عن ايره وقال هذا وصفت فقم فاركبه فوثب الرجل عن مكانه وقال قبحك الله من جليس سائر اليوم (وكذلك أيضا يحكى) أنه وفد سعيد بن عبد الرحمن على هشام بن عبد الملك وكان جميل الوجه فاختلف الى عبد الصمد بن عبد الاعلى مؤدب الوليد بن يزيد فراوده عن نفسه فوثب من عنده ودخل على هشام مغضبا وهو يقول

انه والله لولا أنت لم * ينج منى سالما عبد الصمد

فقال هشام ولم ذلك قال

انه قد رام منى خطة * لم يرمها قبله منى أحد

قال ماهى قال

راح جهلا بى وجهلا بأبى * يدخل الافعى على حبس الاسد

قال فضحك هشام وقال لو فعلت به شيأ لم أنكره عليك (ومن ألطف ماسمعته فى هذا الباب) قول أبى نواس فى الهجاء

اذا ماكنت جار أبى حسين * فنم ويداك فى طرف السلاح

فان له نساء سارقات * اذا مابتن أطراف الرماح

سرقن وقد نزلت عليه ايرى * فلم أظفر به حتى الصباح

فجاء وقد تخدش جانباه * يئن الى من ألم الجراح

فتعبيره عن العضو المشار اليه بأطراف الرماح تعبير فى غاية اللطافة والحسن (وقد أدخل فى باب الكناية) ماليس منه كقول نصيب

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله * ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

وهذا

وهذا يروى عن الجاحظ وما أعلم كيف ذهب عليه مع شهرته بالمعرفة بفن الفصاحة والبلاغة فان الكناية هي ما جاز حمله على جانب الحقيقة كما يجوز حمله على جانب المجاز وههنا لا يصح ذلك ولا يستقيم لان الثناء للحقائب لا يكون الا مجازا وهذا من باب التشبيه المضمر الاداة الخارج عن الكناية والمراد به أن في الحقائب من عطاياك ما يعرب عن الثناء لو سكت أصحابها عنه (وأما القسم المختص بما يقبح ذكره من الكناية) فانه لا يحسن استعماله لانه عيب في الكلام فاحش وذلك لعدم الفائدة المرادة من الكناية فيه (فمما جاء منه) قول الشريف الرضي يرثي امرأة * ان لم تكن نصلا فغمد نصال * وفي هذا من سوء الكناية ما لا يخفى به فان الوهم يسبق في هذا الموضع الى ما يقبح ذكره وهذا المعنى أخذه من قول الفرزدق فمسخه وشوه صورته فان الفرزدق رثى امرأته فقال

وجفن سلاح قد رزئت فلم أنح * عليه ولم أبعث اليه البواكيا
وفي جوفه في دارم ذو حفيظة * لو ان المنايا أمهلته لياليا

وهذا حسن بديع في معناه وما كنى عن امرأة ماتت بجمع أحسن من هذه الكناية ولا أفحش من كناية الشريف الرضي فأخذ معناها وفعل به ما ترى وليس كل من تصرف في المعاني أحسن في تصريفها وأبق هذه الرموز في تأليفها وقد عكس هذه القصة مع أبي الطيب المتنبي فاحسن فيما أساء فيه أبو الطيب طريق الكناية فاخطأ حيث قال

انى على شغفي بما في خمرها * لأعف عما في سراويلاتها

وهذه كناية عن النزاهة والعفة الا ان الفجور أحسن منها وقد أخذ الشريف الرضي هذا المعنى فأبرزه في أجمل صورة حيث قال

أحن الى ما تضمن الخمر والحلي * وأصدف عما في ضمان المآزر

وأمثال هذا كثير وفيما ذكرناه من هذين المثالين مقنع (وأما التعريض) فقد سبق الاعلام به وعرفنا الفرق بينه وبين الكناية (فمما جاء منه) قوله تعالى قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم ان كانوا ينطقون وغرض ابراهيم صلوات الله عليه من هذا الكلام اقامة الحجة عليهم لانه قال فاسئلوهم ان كانوا ينطقون وذلك على سبيل الاستهزاء وهذا من رموز الكلام والقول فيه أن قصد ابراهيم عليه السلام لم يرد به نسبة

الفعل الصادر عنه الى الصنم وانما قصد تقريره لنفسه واثباته على أسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه من الزام الحجة عليهم والاستهزاء بهم وقد يقال فى هذا غير ما أشرت اليه وهو أن كبير الاصنام غضب أن تعبد معه هذه الاصنام الصغار فكسرها وغرض ابراهيم عليه السلام من ذلك أنه لا يجوز أن يعبد مع الله تعالى من هو دونه فان من دونه مخلوق من مخلوقاته فجعل احالة القول الى كبير الاصنام مثالا لما أراده (ومن هذا القسم) أيضا قوله تعالى قال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين فقوله ما نراك الا بشرا مثلنا تعريض بأنهم أحق بالنبوة منه وأن الله لو أراد أن يجعلها فى أحد من البشر لجعلها فيهم فقالوا هب أنك واحد من الملا وموازلهم فى المنزلة فما جعلك أحق منهم بها ألا ترى الى قولهم وما نرى لكم علينا من فضل وكان مروان ابن الحكم واليا على المدينة من قبل معاوية فعزله فلما قدم عليه قال له عزلتك لثلاث لو لم تكن الا واحدة منهن لاوجبت عزلك احداهن أنى أمرتك على عبد الله بن عامر وبينكما ما بينكما فلم تستطع أن تشتفى منه والثانية كراهتك أمر زياد والثالثة أن ابنتى رملة استعدتك على زوجها عمر بن عثمان فلم تعدها فقال له مروان أما عبد الله بن عامر فانى لا انتصر منه فى سلطانى ولكن اذا تساوت الاقدام علم أين موضعه وأما كراهتى أمر زياد فان سائر بنى أمية كرهوه وأما استعداء رملة على عمر بن عثمان والله انه لتأتى على سنة وأكثر وعندى بنت عثمان فما أكشف لها ثوبا يريد بذلك أن رملة بنت معاوية انما استعدت لطلب الجماع فقال له معاوية يا ابن الوزغ لست هناك فقال له مروان هو ذاك وهذا من التعريضات اللطيفة (ومثله فى اللطافة) ما يروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وذاك أنه كان يخطب يوم جمعة فدخل عثمان بن عفان رضى الله عنه فقال عمر أية ساعة هذه فقال عثمان يا أمير المؤمنين انقلبت من أمر السوق فسمعت النداء فما زدت على أن توضأت فقال عمر والوضوء أيضا وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا بالغسل فقوله أية ساعة هذه تعريض بالانكار عليه لتأخره عن المجىء الى الصلاة وترك السبق اليها وهو من التعريض المعرب عن الادب (ووقفت فى كتاب العقد) على حكاية تعريضية

حسنة الموقع وهى أن امرأة وقفت على قيس بن عبادة فقالت أشكو اليك قلة الفأر فى بيتى فقال ما أحسن ما ورت عن حاجتها املؤا لها بيتها خبزا وسمنا ولحما (ومن خفى التعريض وغامضه) ما ورد فى الحديث النبوى وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج وهو محتضن أحد ابنى ابنته وهو يقول والله انكم لتجبنون وتبخلون وتجهلون وانكم لمن ريحان الله وان آخر وطأة وطئها الله بوج اعلم أن وجا واد بالطائف والمراد به غزاة حنين وحنين واد قبل وج لان غزاة حنين آخر غزاة أوقع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المشركين وأما غزوتا الطائف وتبوك اللتان كانتا بعد حنين فلم يكن فيهما وطأة أى قتال وانما كانتا مجرد خروج الى الغزو من غير ملاقاة عدو ولا قتال ووجه عطف هذا الكلام وهو قوله صلى الله عليه وسلم وان آخر وطأة وطئها الله بوج على ما قبله من الحديث هو التأسف على مفارقة أولاده لقرب وفاته لان غزوة حنين كانت فى شوال سنة ثمان ووفاته صلى الله عليه وسلم كانت فى ربيع الاول من سنة احدى عشرة وبينهما سنتان ونصف فكأنه قال وانكم لمن ريحان الله أى من رزقه وأنا مفارقكم عن قريب الا أنه صانع عن قوله وأنا مفارقكم عن قريب بقوله وان آخر وطأة وطئها الله بوج وكان ذلك تعريضا بما أراده وقصده من قرب وفاته صلى الله عليه وسلم (ومما ورد من هذا الباب شعرا) قول الشميرد الحارثى

بنى عمنا لا تذكروا الشعر بعدما * دفنتم بصحراء الغمير القوافيا

وليس قصده ههنا الشعر بل قصده ما جرى لهم فى هذا الموضع من الظهور عليهم والغلبة الا أنه لم يذكر ذلك بل ذكر الشعر وجعله تعريضا بما قصده أى لا تفخروا بعد تلك الوقعة التى جرت لكم ولنا بذلك المكان (ومن أحسن التعريضات) ما كتبه عمرو بن مسعدة الكاتب الى المأمون فى أمر بعض أصحابه وهو أما بعد فقد استشفع بى فلان الى أمير المؤمنين ليتطول فى الحاقه بنظرائه من الخاصة فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعته فوقع المأمون فى ظهر كتابه قد عرفت تصريحك له وتعريضك لنفسك وقد أجبناك اليهما (واعلم) أن هذين القسمين من الكناية والتعريض قد وردا فى غير اللغة العربية ووجدتهما كثيرا فى اللغة السريانية فان الانجيل الذى فى أيدى النصارى قد أتى منهما بالكثير (ومما وجدته من الكناية فى لغة الفرس) أنه كان

رجل من أساورة كسرى وخواصه فقيل ان الملك يختلف الى امرأتك فهجرها لذلك وترك فراشها فأخبرت كسرى فدعاه وقال له قد بلغنى أن لك عينا عذبة وأنك لا تشرب منها فما سبب ذلك قال أيها الملك بلغنى أن الاسد يردها فخفته فاستحسن كسرى منه هذا الكلام وأسنى عطاءه (النوع العشرون فى المغالطات المعنوية) وهذا النوع من أحلى ما استعمل من الكلام وألطفه لما فيه من التورية وحقيقته أن يذكر معنى من المعانى له مثل فى شئ آخر ونقيض والنقيض أحسن موقعا وألطف مأخذا فالاول الذى يكون له مثل يقع فى الالفاظ المشتركة (فمن ذلك) قول أبى الطيب المتنبى

يشلهمو بكل أقب نهد * لفارسه على الخيل الخيار
وكل أصم يعسل جانباه * على الكعبين منه دم ممار
يغادر كل ملتفت اليه * ولبته لثعلبه وجار

فالثعلب هو هذا الحيوان المعروف والوجار اسم بيته والثعلب أيضا هو طرف سنان الرمح فلما اتفق الاسمان بين الثعلبين حسن ذكر الوجار فى طرف السنان وهذا نقل المعنى من مثل الى مثله (وعليه ورد) قول المتنبى أيضا

برغم شبيب فارق السيف كفه * وكانا على العلات يصطحبان
كأن رقاب الناس قالت لسيفه * رفيقك قيسى وأنت يمانى

فان شبيبا الخارجى الذى خرج على كافور الاخشيدى وقصد دمشق وحاصرها وقتل على حصارها كان من قيس ولم تزل بين قيس واليمن عداوات وحروب وأخبار ذلك مشهورة والسيف يقال له يمانى فى نسبته الى اليمن ومراد المتنبى من هذا البيت أن شبيبا لما قتل وفارق السيف كفه فكأن الناس قالوا لسيفه أنت يمان وصاحبك قيسى واهذا جانبه السيف وفارقه وهذه مغالطة حسنة وهى كالاولى الا أنها أدق وأغمض (وكذلك ورد قول بعضهم) من أبيات يهجو بها شاعرا فيحاء من جملتها قوله

وخلطتم بعض القران ببعضه * فجعلتم الشعراء فى الانعام

ومعنى ذلك أن الشعراء اسم سورة من القرآن الكريم والانعام اسم سورة أيضا والشعراء جمع شاعر والانعام ما كان من الابل والبقر (وكذلك) ورد قول بعض العراقيين يهجو رجلا كان على مذهب أحمد بن حنبل رضى الله عنه ثم انتقل

الى

الى مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه ثم انتقل الى مذهب الشافعي رضي الله عنه

من مبلغ عني الوجيه رسالة * وان كان لا تجدى اليه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل * وفارقته اذ أعوزتك المآكل
وما اخترت رأى الشافعي تدينا * ولكنما تهوى الذى منه حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر * الى مالك فافطن لما أنا قائل

ومالك هو مالك بن أنس صاحب المذهب رضي الله عنه ومالك هو خازن النار وهذه مغالطة لطيفة (ومن أحسن ما سمعته) في هذا الباب قول أبي العلاء بن سليمان في الابل

صلب العصا بالضرب قد دمّاها * تودّ أن الله قد أفناها
اذا أرادت رشدا أغواها * مخافة من رقه اباها

فالضرب لفظ مشترك يطلق على الضرب بالعصا وعلى الضرب في الارض وهو المسير فيها وكذلك دمّاها فانه لفظ مشترك يطلق على شيئين أحدهما يقال دماه اذا أسال دمه ودماه اذا جعله كالدمية وهي الصورة وهكذا لفظ الفناء فانه يطلق على عنب الثعلب وعلى اذهاب الشئ اذا لم يبق منه بقية يقال أفناه اذا أذهبه وأفناه اذا أطعمه الفناء وهو عنب الثعلب والرشد والغوى نبتان يقال اغواه اذا أضله وأغواه اذا أطعمه الغوى و يقال طلب رشدا اذا طلب ذلك النبت وطلب رشدا اذا طلب الهداية وبعض الناس يظن هذه الابيات من باب اللغز وليس كذلك لانها تشتمل على ألفاظ مشتركة ولكل معنى ظاهر يستخرج من دلالة اللفظ عليه واللغز هو الذى يستخرج من طريق الحزر والحدس لا من دلالة اللفظ عليه وسأوضح ذلك ايضاحا جليا في النوع الحادى والعشرين وهو الذى يتلو هذا النوع فليؤخذ من هناك (ويروى) في الاخبار الواردة في غزاة بدر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان سائرا بأصحابه يقصد بدرا فلقيهم رجل من العرب فقال ممن القوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم من ماء فاخذ ذلك الرجل يفكر ويقول من ماء من ماء لينظر أى بطون العرب يقال لها ماء فسار النبي صلى الله عليه وسلم لوجهته وكان قصده أن يكتم أمره وهذا من المغالطة المثلية لانه يجوز أن يكون بعض بطون العرب يسمى ماء ويجوز أن يكون المراد أن خلقهم من ماء وقد جاء في شئ من ذلك

في الكلام المنثور (فمنه) ما كتبته في فصل من كتاب عند دخولي الى بلاد الروم أصف فيه البرد والثلج فقلت ومن صفات هذا البرد أنه يعقد الدر في خلفه والدمع في طرفه وربما تعدى الى قليب الخاطر فأجفه أن يجرى بوصفه فالشمس مأسورة والنار مقرورة والارض شهباء غير أنها حولية لم ترض وسيلات الجبال أنهار غير أنها جامدة لم تخض ومكان المغالطة من هذا الكلام في قولي والارض شهباء غير أنها حولية لم ترض فان الشهباء من الخيل يقال فيها حولية أى أتى عليها حول ويقال انها مروضة أى ذللت للركوب وهذه الارض مضى الثلج عليها حول فهي شهباء حولية وقولي لم ترض أى لم تسلك بعد (ومن ذلك ما ذكرته في وصف كريم فقلت) ولقد نزلت منه بجهلي الصنع أحنفي الاخلاق ولقيته فكأني لم أرع بمن أحب بلوعة الفراق ولا كرامة للاهل والوطن حتى أقول انى قد استبدلت به أهلا ووطنا وعهدى بالايام وهي من الاحسان فاطمة فاستولدتها بجواره حسنا وهذه تورية لطيفة فان فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسن رضى الله عنه ماولدها وفاطمة هي اسم فاعلة من الفطام يقال فطمت فهي فاطمة كما يقال فطم فهو فاطم والحسن هو الشئ الحسن (ومن هذا الاسلوب) ما كتبته في فصل من كتاب الى بعض الاخوان فقلت وعهده بقلمي وهو يتحلى من البيان بأسمائه وتبرز أنوار المعانى من ظلمائه وقد أصبحت يدى منه وهي حمالة الحطب وأصبح خاطرى أبا جهل بعد أن كان أبا لهب وهذا أحسن من الاول وأخلب عبارة فانظر أيها المتأمل الى ما فيه من التورية اللطيفة ألا ترى أن الخاطر يحمد في وصف بأنه وقاد وملتهب ويذم في وصف بأنه بليد وجاهل وأبو لهب وأبو جهل هما الرجلان المعروفان وكذلك حمالة الحطب هي المرأة المعروفة واذا ذم القلم قيل انه حطب وان صاحبه حاطب فلما قلت أنا هذا الى المعنى الذى قصدته جئت به على حكم المغالطة وورّيت فيه تورية والمسلك الى مثل هذه المعانى وتصحيح المقصد فيها عسر جدا لا جرم أن الاجادة فيها قليلة (ومما يجرى هذا المجرى) ما ذكرته في وصف شخص بمعالى الامور وهو من أبرّ مساعيه أنه حاز قفل المكرمات ومفتاحها فاذا استغلقت منقبة كان مناعها واذا استفتحت موهبة كان مناحها وأحسن أثرا من ذلك أنه أخذ بأعنة الصعاب وألا

جماحها فاذا شهد حومة حرب كان منصورها واذا لقي مهجة خطب كان سفاحها والمغالطة في هذا الكلام في ذكر المنصور والسفاح فانهما لقبا خليفتين من بني العباس والسفاح أول خلفائهم والمنصور أخوه الذي ولي الخلافة من بعده وهما أيضا من النصر في حومة الحرب والسفح الذي هو الاراقة والمهجة دم القلب فكأني قلت هو منصور في حومة الحرب ومريق لدم الخطوب وقد اجتمع في هذا الكلام المنصور والمنصور والسفاح والسفاح وهذا من المغالطة المثلية لا من النقيضية ولا خفاء بما فيها من الحسن (ومن ذلك) ما كتبته في كتاب الى بعض الاخوان فقلت وقد علمت أن ذلك الانس بقربه يعقب ايحاشا وأن تلك النهلة من لقائه تجعل الاكباد عطاشا فان من شيمة الدهر أن يبدل الصفو كدرا ويوسع أيام عقوقه طولا وأيام بره قصرا وما أقول الا أنه شعر بتلك المسرة المسروقة فأقام عليها حد القطع ورأى العيش فيها خفضا فأزاله بعامل الرفع والمغالطة في هذا الكلام هي في ذكر الخفض والرفع فان الخفض هو سعة العيش والخفض هو أحد العوامل النحوية والرفع هو من قولنا رفعت الشيء اذا أزلته والرفع هو أحد العوامل النحوية أيضا وهذا من المغالطات الخفية (ومن ذلك) ما كتبته في فصل أصف فيه الحمى وكنت اذ ذاك بحصن ميساط وهو بلد من بلاد الارمن فقلت ومما أكره في حال المرض بهذه الارض ان الحمى خيمت بها فاستقرت ولم تقنع بأهلها حتى سرت الى تربتها فترى وقد أخذتها النافض فاقشعرت ولم يشكل أمرها الا لانها حمى أرمنية مستعجمة اللسان وقد تشتبه الامراض وأهل بلادها في الابان واذا كانت الحمى كافرة لم تزل للمسلم حربا وشكاتها لا تسمى شكاة وانما تسمى طعنا وضربا ولهذا صارت الادوية في علاجها ليست بأدوية واصبحت أيام نحرها في الناس غير مبتدأة بأيام تروية وليس موسمها في فصل معلوم بل كل فصول العام من مواسمها ولو كاتبتها نصيبين أو ميافارقين بكتاب لترجمته بعبدها وخادمها والمغالطة ههنا في قولي وأصبحت أيام نحرها في الناس غير مبتدأة بأيام تروية والمراد بذلك أنها تقبل بغتة من غير تروّ أي من غير تلبث ويوم النحر هو يوم عيد الاضحى وقبله يوم يسمى يوم التروية فالمغالطة حصلت بين نحر الحمى للناس ونحر الضحايا الا أن يوم النحر مبتدأ بيوم تروية

ولا خفاء بما فى هذه المغالطة من الحسن واللطافة (وأما القسم الآخر) وهو النقيض فانه أقل استعمالا من القسم الذى قبله لانه لا يتهيأ استعماله كثيرا فمن جملته ما ورد شعر البعضهم وهو قوله

وما أشياء تشريها بمال ۞ فان نفقت فأكسد ما تكون

يقال نفقت السلعة اذا راجت وكان لها سوق ونفقت الدابة اذا ماتت وموضع المناقضة ههنا فى قوله انها اذا نفقت كسدت فجاء بالشئ ونقيضه وجعل هذا سببا لهذا وذلك من المغالطة الحسنة (ومن ذلك ما كتبته فى جملة كتاب) الى ديوان الخلافة يتضمن فتوح بلد من بلاد الكفار فقلت فى آخر الكتاب وقد ارتاد الخادم من يبلغ عنه مسار يح هذه الوقائع التى اختصرها ويمثل صورها لمن غاب عنها كما تمثلت لمن حضرها ويكون مكانه من النباهة كريما ككانها وهى عرائس المساعى فأحسن الناس بيانا مؤهل لابداع حسانها والسائر بها فلان وهو راوى اخبار نصرها التى صحتها فى تجريح الرجال وعوالى اسنادها مأخوذة من طرق العوال والليالى والايام لها رواة فما ظن براوية الايام والليال فى هذا الفصل مغالطة نقيضية ومغالطة مثلية أما المغالطة المثلية فهى فى قولى وعوالى اسنادها مأخوذة من طرق العوال وقد تقدم الكلام على هذا وما يجرى مجراه فى القسم الاول وأما المغالطة النقيضية فهى قولى وهو راوى أخبار نصرها التى صحتها فى تجريح الرجال وموضع المغالطة منه انه يقال فى رواة الاخبار فلان عدل صحيح الرواية وفلان مجروح أى سقيم الرواية غير موثوق به فأتيت بهذا المعنى على وجه النقيض فقلت صحة أخبار هذه الفتوح فى تجريح الرجال أى تجريحهم فى الحرب وفى هذا من الحسن ما لا خفاء به وقد أوردت من هذه الامثلة ما فيه كفاية ومقنع (فان قيل) ان الضرب الاول من هذا النوع هو التجنيس الذى لفظه واحد ومعناه مختلف كالمثال الذى مثلته وفى قول أبى الطيب المتنبى ثعلب وجار فان الثعلب هو الحيوان المعروف وهو أيضا طرف السنان وكذلك باقى الامثلة (قلت فى الجواب) ان الفرق بين هذين النوعين ظاهر وذلك أن التجنيس يذكر فيه اللفظ الواحد مرتين فهو يستوى فى الصورة ويختلف فى المعنى كقول أبى تمام

بكل فتى ضرب يعرض للقنا ۞ محيا محلى حليه الطعن والضرب

فالضرب

فالضرب الرجل الخفيف والضرب هو الضرب بالسيف في القتال فاللفظ لا بد من ذكره مرتين والمعنى فيه مختلف والمغالطة ليست كذلك بل يذكر فيها اللفظ مرة واحدة ويدل به على مثله وليس بمذكور (النوع الحادي والعشرون في الاحاجي) وهي الاغاليط من الكلام وتسمى الالغاز جمع لغز وهو الطريق الذي يلتوي ويشكل على سالكه وقيل جمع لغز بفتح اللام وهو ميلك بالشيء عن وجهه وقد يسمى هذا النوع أيضا المعمى وهو يشتبه بالكناية تارة وبالتعريض أخرى ويشتبه أيضا بالمغالطات المعنوية ووقع في ذلك عامة أرباب هذا الفن (في ذلك) أن أبا الفرج الاصفهاني ذكر بيتي الاقيس الاسدي في جملة الالغاز وهما

ولقد أروح بمشرف ذي ميعة * عسر المكرة ماؤه يتقصد

مرح يطير من المزاح لعابه * ويكاد جلد إهابه يتقدد

وهذان البيتان من باب الكناية لانهما يحملان على الفرس وعلى العضو المخصوص واذا حمل اللفظ على الحقيقة والمجاز فكيف يعد من جملة الالغاز وكذلك فعل الحريري في مقاماته فانه ذكر في الاحاجي التي جعلها على حكم الفتاوى كناية ومغالطة معنوية وظن أنهما من الاحاجي الملغزة كقوله أيحل للصائم أن يأكل نهارا والنهار من الاسماء المشتركة بين النهار الذي هو ضد الليل وبين فرخ الحبارى فانه يسمى نهارا واذا كان من الاسماء المشتركة صار من باب المغالطات المعنوية لا من باب الاحاجي والالغاز شيء منفصل عن ذلك كله ولو كان من جملته لما قيل لغز واحجية وانما قيل كناية وتعريض أو مغالطة ولكن وجد من الكلام ما يطلق عليه الكناية ومنه ما يطلق عليه التعريض ومنه ما يطلق عليه المغالطة ومنه شيء آخر خارج عن ذلك فجعل لغزا واحجية (وكنت قدمت القول) بأن الكناية هي اللفظ الدال على جانب الحقيقة وعلى جانب المجاز فهو يحمل عليهما معا وأن التعريض هو ما يفهم من عرض اللفظ لا من دلالته عليه حقيقة ولا مجازا وأن المغالطة هي التي تطلق ويراد بها شيئا ن أحدهما دلالة اللفظ على معنيين بالاشتراك الوضعي والآخر دلالة اللفظ على المعنى ونقيضه (وأما اللغز والاحجية) فانهما شيء واحد وهو كل معنى يستخرج بالحدس والحزر لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازا ولا يفهم من عرضه لان قول القائل في الضرس

الالغاز

وصاحب لا أملّ الدهر صحبته * يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
ما ان رأيت له شخصا فذ وقعت * عيني عليه افترقنا فرقة الابد

لا يدلّ على أنه الضرس لا من طريق الحقيقة ولا من طريق المجاز ولا من طريق المفهوم وانما هو شئ يحدس ويحزر والخواطر تختلف في الاسراع والابطاء وعند عثورها عليه (فان قيل) ان اللغز يعرف من طريق المفهوم وهذان البيتان يعلم معناهما بالمفهوم (قلت في الجواب) ان الذى يعلم بالمفهوم انما هو التعريض كقول القائل انى لفقير وانى لمحتاج فان هذا القول لا يدلّ على المسئلة والطلب لا حقيقة ولا مجازا وانما فهم منه أن صاحبه متعرّض للطلب وهذان البيتان ليسا كذلك فانهما لا يشتملان على ما يفهم منه شئ الا بالحدس والحزر لا غير وكذلك كل لغز من الالغاز (واذا ثبت هذا فاعلم) أن هذا الباب الذى هو اللغز والاحجية والمعمى يتنوع أنواعا فمنه المصحف ومنه المعكوس ومنه ما ينقل الى لغة من اللغات غير العربية كقول القائل اسمي اذا صحفته بالفارسية آخر وهذا اسمه اسم تركي وهو دنكر بالدال المهملة والنون وآخر بالفارسية ديكر بالدال المهملة والياء المعجمة بنقطتين من تحت واذا صحفت هذه الكلمة صارت دنكر بالنون فانقلبت الياء نونا بالتصحيف وهذا غير مفهوم الا لبعض الناس دون بعض وانما وضع واستعمل لانه مما يشحذ القريحة ويحد الخاطر لانه يشتمل على معان دقيقة يحتاج في استخراجها الى توقد الذهن والسلوك في معاريج خفية من الفكر وقد استعمله العرب في أشعارهم قليلا ثم جاء المحدثون فأكثروا منه وربما أتى منه بما يكون حسنا وعليه مسحة من البلاغة وذلك عندى بين بين فلا أعده من الاحاجي ولا أعده من فصيح الكلام فما جاء منه قول بعضهم

قد سقيت آبالهم بالنار * والنار قد تشفي من الاوار

ومعنى ذلك أن هؤلاء القوم الذين هم أصحاب الابل ذوو وجاهة وتقدم ولهم وسم معلوم فلما وردت ابلهم الماء عرفت بذلك الوسم فأفرج لها الناس حتى شربت وقد اتفق له أنه أتى في هذا البيت بالشئ وضده وجعل أحدهما سببا للآخر فصار غريبا عجيبا وذلك أنه قال سقيت بالنار وقال ان النار تشفي من الاوار وهو العطش وهذا من محاسن ما يأتي في هذا الباب (ومما يجرى على هذا النهج) قول أبي نواس في شجر الكرم

لنا جمة لا يدرى الدب مضلها * ولا راعيها غض الفصالة والخطر
اذا امتحنت ألوانها مال صفوها * الى الحق الا أن أوبارها اخضر

(ومن هذا القبيل) قول بعضهم

سبع رواحل ما ينخن من الونا * شيم تساق بسبعة زهر
متواصلات لا الدؤب يملها * باق تعاقبها على الدهر

هذان البيتان يتضمنان وصف أيام الزمان ولياليه وهى الاسبوع فان الزمان عبارة عنه وذلك من الالغاز الواقعة فى موقعها (وعلى هذا الاسلوب) ورد قول أبى الطيب المتنبى فى السفن من جملة قصيدته التى مدح بها سيف الدولة عند ذكر عبوره الفرات وهى * الرأى قبل شجاعة الشجعان * فقال

وحشاه عادية بغير قوائم * عقم البطون حوالك الالوان
تأتى بما سبت الخيول كأنها * تحت الحسان مرابض الغزلان

وهذا احسن فى بابه ومن ذلك قول بعضهم فى جراب الحك

ومدرع من صنعة الليل برده * يفوق طورا بالنضار ويطلس
اذا سألوه عن غويص أشكلا * أجاب بما أعيا الورى وهو أخرس

وهذا من اللطافة على ما يشهد لنفسه وكان سمعه بعض المتأخرين من أهل زماننا فأجاب عنه بيتين على وزنه وقافيته وهما

سؤالك جلود من الصخر أسود * خفيف لطيف ناعم الجسم أطلس
أقيم بسوق الصرف حكما كأنه * من الزنج قاض بالخلوق مطلس

(وقد رأيت هذا الشاعر) وهو حائك بجزيرة ابن عمر وليس عنده من أسباب الادب شئ سوى أنه قد أصلح لسانه بطرف يسير من علم النحو لا غير وهو مع ذلك يقول الشعر طبعا وكان يجيد فى الكثير منه (ومن الالغاز) ما يرد على حكم المسائل الفقهية كالذى أورده الحريرى فى مقاماته وكنت سئلت عن مسئلة منه وهى

ولى خالة وأنا خالها * ولى عمة وأنا عمها
فأما التى أنا عم لها * فان أبى أمه أمها
أبوها أخى وأخوها أبى * ولى خالة هكذا حكمها
فأين الفقيه الذى عنده * فنون الدراية أو علمها
يبين لنا نسبا خالصا * ويكشف للنفس ما همها

فلسنا مجوسا ولا مشركين * شريعة أحمد نأتمها
(وهذه المسئلة كتبت الى) فتأملتها تأمل غير ملجج فى الفكر ولم ألبث أن انكشف لى ماتحتها من اللغز وهو أن الخالة التى الرجل خالها تصور على هذه الصورة وذلك أن رجلا تزوج امرأتين اسم احداهما عائشة واسم الاخرى فاطمة فأولد عائشة بنتا وأولد فاطمة ابنا ثم زوج بنته من أبى امرأته فاطمة فجاءت ببنت فتلك البنت هى خالة ابنه وهو خالها لانه أخو أمها وأما العمة التى هو عمها فصورتها أن رجلا له ولد ولولده أخ من أمه فزوج أخاه من أمه أم أبيه فجاءت ببنت فتلك البنت هى عمته لانها أخت أبيه وهو عمها لانه أخو أبيها وأما قوله ولى خالة هكذا حكمها فهو أن تكون أمها أخته وأختها أمه كما قال أبوها أخى وأخوها أبى وصورتها أن رجلا له ولد ولولده أخت من أمه فزوجها من أبى أمه فجاءت ببنت فأختها أمه وأمها أخته (وأحسن من ذلك كله وألطف وأحلى) قول بعضهم فى الخلخال

ومضروب بلا جرم * مليح اللون معشوق
له قد الهلال على * مليح القد ممشوق
وأكثر ما يرى أبدا * على الامشاط فى السوق

وبلغنى أن بعض الناس سمع هذه الابيات فقال قد دخلت السوق فما رأيت على الامشاط شيأ وظن أنها الامشاط التى يرجل بها الشعر وأن السوق سوق البيع والشراء (واعلم) أنه قد يأتى من هذا النوع ماهو ضروب وألوان فمنه الحسن الذى أوردت شيأ منه كما تراه ومنه المتوسط الذى هو دونه فى الدرجة فلا يوصف بحسن ولا قبح كقول بعضهم

راحت ركائبهم وفى أكوارها * ألفان من عم الاثيل الواعد
ماان رأيت ولا بارك ب هكذا * حملت حدائق كالظلام الراكد

وهذا يصف قوما وفدوا على ملك من الملوك فأعطاهم نخلا وكتب لهم بها كتابا والاثيل الموضع الذى كتب لهم اليه والعم العظام الرؤس من النخل والواعد الاقناء من النخل فلما حملوا الكتب فى أكوارهم فكأنهم حملوا النخل وهذا من متوسط الالغاز وقد جاء من ذلك ماهو بشع بارد فلا يستخرج الا بمسائل الجبر والمقابلة أو بخطوط الرمل من القبض الداخل أو القبض الخارج والبياض

والحمرة

والجمرة وغيرها ولئن كان معناه دقيقا يدل على فرط الذكاء فانى لا أعده من اللغة العربية فضلا عن أن يوصف بصفات الكلام المحمودة ولا فرق بينه وبين لغة الفرس والروم وغيرهما من اللغات فى عدم الفهم (وأما ما ورد من الالغاز نثرا) فقد ألغز الحريرى فى مقاماته ألغازا ضمنها ذكر الابرة والمرود وذكر الدينار وهى أشهر كما يقال من قفا نبك فلا حاجة الى ايرادها فى كتابى هذا وقد ورد من الالغاز شئ فى كلام العرب المنثور غير انه قليل بالنسبة الى ما ورد فى أشعارها وقد تأملت القرآن الكريم فلم أجد فيه شيأ منها ولا ينبغى أن يتضمن منها شيأ لانه لا يستنبط بالحدس والحزر كما تستنبط الالغاز (وأما ما ورد للعرب) فيروى عن امرئ القيس وزوجته عدة من الالغاز وذاك أنه سألها قبل أن يتزوجها فقال ما اثنان وأربعة وثمانية فقالت أما الاثنان فثديا المرأة وأما الاربعة فاخلاف الناقة وأما الثمانية فأطباء الكلبة ثم انه تزوجها وأرسل اليها هدية على يد عبد له وهى حلة من عصب اليمن ونحى من عسل ونحى من سمن فنزل العبد ببعض المياه ولبس الحلة فعلق طرفها بسمرة فانشق وفتح النحيين وأطعم أهل الماء ثم قدم على المرأة وأهلها خلوف فسأل عن أبيها وأمها وأخيها ودفع اليها الهدية فقالت له أعلم مولاك أن أبى ذهب يقرب بعيدا ويبعد قريبا وان أمى ذهبت تشق النفس نفسين وأن أخى يرقب الشمس وأخبره أن سماءكم انشقت وأن وعاءيكم نضبا فعاد العبد الى امرئ القيس وأخبره بما قالته له وقال أما أبوها فانه ذهب يحالف قوما على قومه وأما أمها فانها ذهبت تقبل امرأة وأما أخوها فانه فى سرح يرعاه الى أن تغرب الشمس وأما قولها ان سماءكم انشقت فان الحلة انشقت وأما قولها ان وعاءيكم نضبا فان النحيين نقصا ثم قال للعبد أصدقنى فقال له انى نزلت بماء من مياه العرب وفعلت كذا وكذا فهذا وأمثاله قد ورد عنهم الا أنه يسير (وكذلك يروى عن شن بن أفصى) وكان ألزم نفسه أن لا يتزوج الا امرأة تلائمه فصاحبه رجل فى بعض أسفاره فلما أخذ منهما السير قال له شن أتحملنى أم أحملك فقال له الرجل يا جاهل هل يحمل الراكب راكبا فأمسك عنه وسارا حتى أتيا على زرع فقال شن أترى هذا الزرع قد أكل فقال له يا جاهل أما تراه فى سنبله فأمسك عنه ثم سارا فاستقبلتهما جنازة فقال شن أترى صاحبها حيا فقال له الرجل ما رأيت أجهل منك أتراهم

حملوا الى القبر حيا ثم انهما وصلا الى قرية الرجل فصار به الى بيته وكانت له بنت تأخذ بطرفهما بحديث رفيقه فقالت ما نطق الا بالصواب ولا استفهم الا عما يستفهم عن مثله اما قوله أتحملني أم أحملك فانه أراد أتحدثني أم أحدثك حتى نقطع الطريق بالحديث وأما قوله أترى هذا الزرع قد أكل فانه أراد هل استلف ربه ثمنه أم لا وأما استفهامه عن صاحب الجنازة فانه أراد هل خلف له عقبا يحيا بذكره أم لا فلما سمع كلام ابنته خرج الى الشيخ وحدثه بتأويلها فخطبها فزوجه اياها (وأدق من هذا كله وألطف) ما يحكى عن رجل من المناقذة أصحاب شيزر وهو أولهم الذى استنقذه من أيدى الروم بالمكر والخديعة ولذلك قصة طريفة وليس هذا موضع ذكرها وكان قبل ملكه اياها فى خدمة محمود بن صالح صاحب حلب وكان اذ ذاك يلقب بسديد الملك فنبا به مكانه وحدثت له حادثة أوجبت له أن هرب ومضى الى مدينة ترابلس فى زمن بنى عمار أصحاب البلد فأرسل اليه ابن صالح واستعطفه ليعود اليه فخافه ولم يعد فاحضر ابن صالح رجلا من أهل حلب صديقا لابن منقذ وبينه وبينه محبة مودة أكيدة وأجلسه بين يديه وأمره أن يكتب اليه كتابا عن نفسه يوثقه من جهة ابن صالح ليعود فما وسعه الا أن يكتب وهو يعلم أن باطن الامر فى ذلك خلاف ظاهره وأنه متى عاد ابن منقذ الى حلب هلك فأعمل فكره وهو يكتب فى اشارة عمياء لا تفهم ليضعها فيه يحذر بها ابن منقذ فأداه فكره أن كتب فى آخر الكتاب عندما تم انه إن شاء الله تعالى وشدد النون وكسرها ثم سلم الكتاب الى ابن صالح فوقف عليه وأرسله الى ابن منقذ فلما صار فى يده وعلم ما فيه قال هذا كتاب صديقى وما يغشنى ولولا أن يعلم صفاء قلب ابن صالح لى لما كتب الى ولا غرنى ثم عزم على العود وكان عنده ولده فأخذ الكتاب وكرر نظره فيه ثم قال له يا أبت مكانك فان صديقك قد حذرك وقال لا تعد فقال وكيف قال انه قد كتب ان شاء الله تعالى فى آخر الكتاب وشدد النون وكسرها وضبطها ضبطا صحيحا لا يصدر مثله عن سهو ومعنى ذلك أنه يقول ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وان شككت فى ذلك فأرسل الى حلب وهذا من أعجب ما بلغنى من حدة الذهن وفطانة الخاطر ولولا أنه صاحب الحادثة المخوفة لما تفطن الى مثل ذلك أبدا لانه ضرب من علم الغيب وانما الخوف دله على استنباط ما استنبطه (ووجد لبعض الادباء لغز فى حمام) فمنه ما أجاد فيه كقوله وقد أظلتها

سماء ذات نجوم لا استراق لها ولا رجوم وهي مركبة في فلك صحت استدارته وسكنت ادارته

أعجب بها من أنجم * عند الصباح ظاهرة
لكنها اذا بدا * نجم الظلام غائرة

فهي على القياس جنة نعيم مبنية على لظى جحيم لا خلود فيها ولا مقام ولا تزاور بين أهلها ولا سلام أنهارها متدفقة ومياهها مترقرقة والاكواب بها موضوعة والنمارق عنها منزوعة

يطيع بها المولى أوامر عبده * ويصبح طوعا في يديه مقاتله
ويرفع عنه التاج عند دخوله * ويسلب من قبل الجلوس غلائله

التجمل بها معدوم والخادم فيها مخدوم يشكر بها التستر من البرد ويكره حرها اذا جاوز الحد هذا اللغز من فصيح الالغاز ولا يقال ان صاحبه في العمى صانع العكاز واذا تطرز غيره بلمعة من الوشي فهذا كله طراز (ومما سمعته) من الالغاز الحسان التي تجري في المحاورات ما يحكى عن عمر بن هبيرة وشريك النميري وذلك أن عمر بن هبيرة كان سائرا على برذون له والى جانبه شريك النميري على بغلة فتقدمه شريك في المسير فصاح به عمر اغضض من لجامها فقال أصلح الله الامير انها مكتوبة فتبسم عمر ثم قال له ويحك لم أرد هذا فقال له شريك ولا أنا أردته وكان عمر أراد قول جرير

فغض الطرف انك من نمير * فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فأجابه شريك بقول الآخر

لا تأمنن فزاريا نزلت به * على قلوصك واكتبها باسيار

وهذا من الالغاز اللطيفة وتفطن كل من هذين الرجلين لمثله ألطف وأحسن (ومما يجري هذا المجرى) أن رجلا من تميم قال لشريك النميري ما في الجوارح أحب الي من البازي فقال له شريك اذا كان يصيد القطا وكان التميمي أراد قول جرير

أنا البازي المطل على نمير * أتيح من السماء لها انصبابا

وأراد شريك قول الطرماح

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا * ولو سلكت طرق المكارم ضلت

واعلم أن خواطر الناس تتفاضل كتفاضل الاشخاص ومن ههنا قيل سبحان خالق أبي موسى وعمرو بن العاص (النوع الثاني والعشرون في المبادي والافتتاحات)

هذا النوع هو أحد الاركان الخمسة البلاغية المشار اليها فى الفصل التاسع من مقدمة الكتاب وحقيقة هذا النوع أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالا على المعنى المقصود من ذلك الكلام ان كان فتحا ففتحا وان كان هناء فهناء أو كان عزاء فعزاء وكذلك يجرى الحكم فى غير ذلك من المعانى وفائدته أن يعرف من مبدا الكلام ما المراد به ولم هذا النوع والقاعدة التى يبنى عليها أساسه أنه يجب على الشاعر اذا نظم قصيدا أن ينظر فان كانت مديحا صرفا لا يختص بحادثة من الحوادث فهو مخير بين أن يفتتحها بغزل أو لا يفتتحها بغزل بل يرتجل المديح ارتجالا من أولها كقول القائل

ان حارت الالباب كيف تقول * فى ذا المقام فعذرها مقبول

سامح بفضلك مادحيك فمالهم * أبدا الى ما تستحق سبيل

ان كان لا يرضيك الا محسن * فالمحسنون اذا اليك قليل

فان هذا الشاعر ارتجل المديح من أول القصيد فأتى به كما ترى حسنا لائقا وأما اذا كان القصيد فى حادثة من الحوادث كفتح معقل أو هزيمة جيش أو غير ذلك فانه لا ينبغى أن يبدأ فيها بغزل وان فعل ذلك دل على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية أو على جهله بوضع الكلام فى مواضعه (فان قيل) انك قلت يجب على الشاعر كذا وكذا فلم ذلك (قلت فى الجواب) ان الغزل رقة محضة والالفاظ التى تنظم فى الحوادث المشار اليها من فحل الكلام ومتين القول وهى ضد الغزل وأيضا فان الاسماع تكون متطلعة الى ما يقال فى تلك الحوادث والابتداء بالخوض فى ذكرها لا الابتداء بالغزل اذا المهم واجب التقديم ومن أدب هذا النوع أن لا يذكر الشاعر فى افتتاح قصيدة بالمديح ما يتطير منه وهذا يرجع الى أدب النفس لا الى أدب الدرس فينبغى أن يحترز منه فى مواضعه كوصف الديار بالدثور والمنازل بالعفاء وغير ذلك من تشتت الالاف وذم الزمان لاسيما اذا كان فى التهانى فانه يكون أشد قبحا وانما يستعمل ذلك فى الخطوب النازلة والنوائب الحادثة ومتى كان الكلام فى المديح مفتتحا بشئ من ذلك تطير منه سامعه وانما خصت الابتداآت بالاختيار لانها أول ما يطرق السمع من الكلام فاذا كان الابتداء لائقا بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعى على استماعه ويكفيك من هذا الباب الابتداآت الواردة فى القرآن كالتحميدات المفتتح

بها أوائل السور وكذلك الابتداآت بالنداء كقوله تعالى فى مفتتح سورة النساء يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وكقوله تعالى فى أول سورة الحج يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم فان هذا الابتداء مما يوقظ السامعين للاصغاء اليه وكذلك الابتداآت بالحروف كقوله تعالى ألم وطس وحم وغير ذلك فان هذا أيضا مما يبعث على الاستماع اليه لانه يقرع السمع شئ غريب ليس له بمثله عادة فيكون ذلك سببا للتطلع نحوه والاصغاء اليه (ومن قبيح الابتداآت) قول ذى الرمة * ما بال عينك منها الماء ينسكب * لان مقابلة الممدوح بهذا الخطاب لا تخفى بقبحه وكراهته (ولما أنشد الاخطل) عبد الملك بن مروان قصيدته التى أولها * خف القطين فراحوا منك أو بكروا قال له عند ذلك لا بل منك وتطير من قوله فغيرها ذو الرمة وقال

خف القطين فراحوا اليوم أو بكروا * ومن شاء أن يذكر الديار والاطلال فى شعره فليتأدب بأدب القطامى على جفاء طبعه وبعده عن فطانة الادب فانه قال انا محيوك فاسلم أيها الطلل * فبدأ قبل ذكر الطلل بذكر التحية والدعاء له بالسلامة وقد قيل ان امرأ القيس كان يجيد الابتداء كقوله ألا انعم صباحا أيها الطلل البالى * وكقوله * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل (ومما يكره من الابتداآت) قول أبى تمام * تجرّع أسى قد أقفر الجرع الفرد وانما أتى أبا تمام فى مثل هذا المكروه تتبعه للتجنيس بين تجرّع والجرع وهذا دأب الرجل فانه كثيرا ما يقع فى مثل ذلك وكذلك استقبح قول البحترى فؤاد ملاه الحزن حتى تصدّعا * فان ابتداء المديح بمثل هذا طيرة ينبو عنها السمع وهو أجدر بأن يكون ابتداء مرثية لا مديح وما أعلم كيف يخفى هذا على مثل البحترى وهو من مفلقى الشعراء (وحكى) أنه لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان جلس فيه وجمع أهله وأصحابه وأمرهم أن يخرجوا فى زينتهم فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم فاستأذن اسحق بن ابراهيم الموصلى فى الانشاد فأذن له فأنشد شعرا حسنا أجاد فيه الا أنه استفتحه بذكر الديار وعفائها فقال

يا دار غيرك البلى ومحاك * يا ليت شعرى ما الذى أبلاك

فتطير المعتصم بذلك وتغامز الناس على اسحق بن ابراهيم كيف ذهب عليه مثل ذلك مع معرفته وعلمه وطول خدمته للملوك ثم أقاموا يومهم وانصرفوا فما عاد

منهم اثنان الى ذلك المجلس وخرج المعتصم الى سر من رأى وخرب القصر فاذا أراد الشاعر أن يذكر دارا فى مديحه فليذكر كما ذكر أشجع السلمى حيث قال

قصر عليه تحية وسلام * خلعت عليه جمالها الايام

وما أجدر هذا البيت بفتح شعر اسحق بن ابراهيم الذى أنشده للمعتصم فانه لو ذكر هذا أو ماجرى مجراه لكان حسنا لائقا (وسئل) بعضهم عن أحذق الشعراء فقال من أجاد الابتداء والمطلع ألا ترى الى قصيدة أبى نواس التى أولها

يادار ما فعلت بك الايام * لم يبق فيك بشاشة تستام

فانها من أشرف شعره وأعلاه منزلة وهى مع ذلك مستكرهة الابتداء لانها فى مدح الخليفة الامين وافتتاح المديح بذكر الديار ودثورها مما يتطير منه لاسيما فى مشافهة الخلفاء والملوك ولهذا يختار فى ذكر الاماكن والمنازل مارق لفظه وحسن المنطق به كالعذيب والغوير ورامة وبارق والعقيق وأشباه ذلك ويختار أيضا أسماء النساء فى الغزل نحو سعاد وأميم ونوز وماجرى هذا المجرى وقد عيب على الاخطل فى تغزله بقذور وهو اسم امرأة فانه مستقبح فى الذكر وقد عيب على غيره التغزل باسم تماضر فانه وان لم يكن مستقبحا فى معناه فانه ثقيل على اللسان كما قال البحترى

ان للبين منة لا تؤدى * ويدا فى تماضر بيضاء

فتغزله بهذا الاسم مما يشوه رقة الغزل وينقل من خفته وأمثال هذه الاشياء يجب مراعاتها والتحرز منها (وقد استثنى من ذلك) ما كان اسم موضع تضمن وقعة من الوقائع فان ذكره لا يكره وان كان فى اسمه كراهة كما ذكر أبو تمام فى شعره مواضع مكروهة الاسماء لضرورة ذكر الوقائع التى كانت بها كذكر الحشال وعقرقس وأمثالهما وكذلك ذكر أبو الطيب المتنبى هنزيط وشمشاط وماجرى مجراهما وهذا لا عيب فى ذكره لمكان الضرورة التى تدعو اليه وهكذا يسامح الشاعر والكاتب أيضا فى ذكر ما لابد من ذكره وان قبح ومهما أمكنه من التورية فى هذا المقام فليسلكها ومالا يمكنه فانه معذور فيه (واعلم) أنه ليس من شرط الابتداء أن لا يكون مما يتطير منه فقط فان من الابتداآت مايستقبح وان لم يتطير منه كقول أبى تمام * قدك اتئب أربيت فى الغلواء وكقوله * تقى جماتى لست طوع مؤنبى * وكقول أبى الطيب المتنبى

أقل فعالى بها أكثره مجد * وكقوله * كفى أرانى ويك لومك ألوما * والعجب أن هذين الشاعرين المفلقين يبتدئان بمثل ذلك ولهما من الابتداآت الحسنة ما أذكره (أمّا أبو تمام) فانه افتتح قصيدته التى مدح بها المعتصم عند فتحه مدينة عمورية فقال

السيف أصدق إنباء من الكتب * فى حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى * متونهن جلاء الشك والريب

وهذه الابيات لها قصة وذلك أنه لما حضر المعتصم مدينة عمورية زعم أهل النجامة أنها لا تفتح فى ذلك الوقت وأفاضوا فى هذا حتى شاع وصار أحدوثة بين الناس فلما فتحت بنى أبو تمام مطلع قصيدته على هذا المعنى وجعل السيف أصدق من الكتب التى خبرت بامتناع البلد واعتصامها ولذلك قال فيها

والعلم فى شهب الأرماح لامعة * بين الخميسين لافى السبعة الشهب
أين الرواية أم أين النجوم وما * صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرّصا وأحاديثا ملفقة * ليست بنبع اذا عدّت ولاغرب

وهذا من أحسن ما يأتى فى هذا الباب وكذلك قوله فى أوّل قصيدة يمدحه بها أيضا ويذكر فيها خروج بابك الخرمى عليه وظفره به وهى من أمّهات شعره فقال

الحق أبلج والسيوف عوار * فحذار من أسد العرين حذار

وكذلك قوله متغزلا

عسى وطن يدنو بهم ولعلما * وان تعتب الايام فيهم فربما

وهذا من الاغزال الحلوة الرائقة وهو من محاسن أبى تمام المعروفة وكذلك قوله فى أوّل مرثية

أصمّ بك الناعى وان كان أسمعا * وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

(وأمّا أبو الطيب) فانه أكثر من الابتداآت الحسنة فى شعره كقوله فى قصيدة يمدح بها كافورا وكان قد جرت بينه وبين ابن سيده نزغة فبدأ قصيدته بذكر الغرض المقصود فقال

حسم الصلح ما اشتهته الاعادى * وأذاعته ألسن الحساد

وهذا من بديع الابتداء ونادره وكذلك ورد قوله فى سيف الدولة وكان ابن الشمشقيق حلف ليلقينه كفاحا فلما التقيا لم يطق ذلك وولى هاربا فافتتح أبو

الطيب قصيدته بفحوى الامر فقال

عقبى اليمين على عقبى الوغا ندم * ماذا يزيدك فى اقدامك القسم
وفى اليمين على ما أنت واعده * ما دل أنك فى الميعاد متهم

(وكذلك) قوله وقد فارق سيف الدولة وسار الى مصر فجمع بين ذكر فراقه اياه ولقائه كافورا فى أول بيت من القصيد فقال

فراق ومن فارقت غير مذمم * وأم ومن يممت خير ميمم

(ومن البديع النادر فى هذا الباب) قوله متغزلا فى مطلع قصيدته القافية وهى

أتراها لكثرة العشاق * تحسب الدمع خلقة فى المآقى

وله مواضع أخر كثيرة لا حاجة الى ذكرها (ومن محاسن الابتداآت) التى دلت على المعنى من أول بيت فى القصيدة ما قرأته فى كتاب الروضة لأبى العباس المبرد فانه ذكر غزوة غزاها الرشيد هرون رحمه الله فى بلاد الروم وأن نقفور ملك الروم خضع له و بذل الجزية فلما عاد عنه واستقر بمدينة الرقة وسقط الثلج نقض نقفور العهد فلم يجسر أحد على اعلام الرشيد لمكان هيبته فى صدور الناس و بذل يحيى بن خالد للشعراء الاموال على أن يقولوا أشعارا فى اعلامه فكلهم أشفق من لقائه بمثل ذلك الا شاعرا من أهل جدة يكنى أبا محمد وكان شاعرا مفلقا فنظم قصيدا وأنشدها الرشيد أولها

نقض الذى أعطيته نقفور * فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه * فتح أتاك به الاله كبير
نقفور انك حين تغدر ان نأى * عنك الامام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مفلت * هبلتك أمك ما ظننت غرور

فلما أنهى الابيات قال الرشيد أو قد فعل ثم غزاه فى بقية الثلج وفتح مدينة هرقلة (وقرأت فى كتاب الاغانى لأبى الفرج الاصبهانى) ما رواه من شعر سديف فى تحريض الخليفة السفاح رحمه الله على بنى أمية فقال قدم سديف من مكة الى الحيرة والسفاح بها وافق قدومه جلوس السفاح للناس وكان بنو أمية يجلسون عنده على الكراسى تكرمة لهم فلما دخل عليه سديف حمد الله وأثنى عليه وأنشده أبياتا من الشعر فالتفت رجل من أولاد سليمان بن عبد الملك وقال لآخر الى جنبه قتلنا والله العبد فلما أنهى الابيات أمر بهم السفاح فأخرجوا

من بين يديه وقتلوا من آخرهم وكتب الى عماله بالبلاد يأمرهم بقتل من وجدوه منهم ومن الابيات

أصبح الدين ثابت الاساس * بالبهاليل من بنى العباس
أنت مهدى هاشم وهداها * كم أناس رجوك بعد اياس
لا تقيلن عبد شمس عثارا * واقطعن كل رقلة وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها الله * بدار الهوان والاتعاس
خوفهم أظهر التودد فيهم * وبهم منكم كحز المواسى
أقصهم أيها الخليفة واحسم * عنك بالسيف شأفة الارجاس
واذكرن مصرع الحسين وزيد * وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذى بحران أضحى * ثاويا بين غربة وتناسى

وهذه الابيات من فاخر الشعر ونادره افتتاحا وابتداء وتحريضا وتأليبا ولو وصفتها من الاوصاف بما شاء الله وشاء الاسهاب والاطناب لما بلغت مقدار ما لها من الحسن (ومن لطيف الابتداآت) ما ذكره مهيار وهو

أما وهواها عذرة وتنصلا * لقد نقل الواشى اليها فأمحلا
سعى جهده لكن تجاوز حده * وكثر فارتابت ولو شاء قللا

فانه أبرز الاعتذار فى هيئة الغزل وأخرجه فى معرض النسيب وكان وشى به الى الممدوح فافتتح قصيدته بهذا المعنى فأحسن (ومما جاء على نحو من ذلك) قول بعض المتأخرين من العراقيين

وراءك أقوال الوشاة الفواجر * ودونك أحوال الغرام المخامر
ولولا ولوعى منك بالصد ما سعوا * ولولا الهوى لم أنتدب للمعاذر

فسلك فى هذا القول مسلك مهيار الا أنه زاد عليه زيادة حسنة وهى المعاتبة على الاصغاء الى أقوال الوشاة والاستماع منهم وذلك من أغرب ما قيل فى هذا المعنى (ومن الحذاقة فى هذا الباب) أن تجعل التحميدات فى أوائل الكتب السلطانية مناسبة لمعانى تلك الكتب وانما خصصت الكتب السلطانية دون غيرها لان التحاميد لا تصدر فى غيرها فانها تكون قد تضمنت أمورا لائقة بالتحميد كفتح مقفل أو هزيمة جيش أو ما جرى هذا المجرى (ووجدت أبا اسحق الصابى) على تقدمه فى فن الكتابة قد أخل بهذا الركن الذى هو من أوكد أركان الكتابة فاذا أتى

بتحميدة فى كتاب من هذه الكتب لاتكون مناسبة لمعنى ذلك الكتاب وانما
تكون فى واد والكتاب فى واد الا ماقل من كتبه (فمما خالف فيه مطلع معناه) انه
كتب كتابا يتضمن فتح بغداد وهزيمة الاتراك عنها وكان ذلك فتحا عظيما فابتدأ
بالتحميد فقال الحمد لله رب العالمين الملك الحق المبين الوحيد الفريد العلى
المجيد الذى لايوصف الا بسلب الصفات ولا ينعت الا برفع النعوت الازلى
بلا ابتداء الابدى بلا انتهاء القديم لامنذ أمد محدود الدائم لا الى أجل
معدود الفاعل لامن مادة استمدها ولا بآلة استعملها الذى لاتدركه الاعين
بلحاظها ولا تحده الالسن بألفاظها ولا تخلقه العصور بمرورها ولاتهرمه
الدهور بكرورها ولا تضارعه الاجسام بأقطارها ولاتجانسه الصور بأعراضها
ولا تجاريه أقدام النظر أو الاشكال ولا تزاحمه مناكب القرناء والامثال بل
هو الصمد الذى لا كفؤ له والفذ الذى لاتوأم معه والحى الذى لاتخترمه المنون
والقيوم الذى لاتشغله الشؤن والقدير الذى لاتؤده المعضلات والخبير
الذى لاتعييه المشكلات وهذه التحميدة لاتناسب الكتاب الذى افتتح بها
ولكنها تصلح أن توضع فى صدر مصنف من مصنفات أصول الدين ككتاب
الشامل للجوينى أو ككتاب الاقتصاد أو ماجرى مجراهما وأما أن توضع
فى صدر كتاب فتح فلا وهو وان أساء فى هذا الموضع فقد أحسن فى مواضع أخر
وذلك أنه كتب كتابا عن الخليفة الطائع رحمه الله تعالى الى الاطراف عند عوده
الى كرسى ملكه وزوال مانزل به وبأبيه المطيع رحمه الله من فادحة الاتراك فقال
الحمد لله ناظم الشمل بعد شتاته وواصل الحبل بعد بتاته وجابر الوهن اذا ثلم
وكاشف الخطب اذا أظلم والقاضى للمسلمين بما يضم نشرهم ويشد أزرهم
ويصلح ذات بينهم ويحفظ الالفة عليهم وان شابت ذلك فى الاحيان شوائب من
الحدثان فلن تتجاوز بهم الحد الذى يوقظ غافلهم وينبه ذاهلهم ثم انهم عائدون
الى فضل ما أولاهم الله وعودهم ووثق لهم ووعدهم من اعزاز سربهم واعذاب
شربهم واعزاز جانبهم واذلال مجانبهم واظهار دينهم على الدين كله ولو كره
المشركون وهذه تحميدة مناسبة لموضوع الكتاب وان كانت المعانى فيها مكررة
كالذى أنكرته عليه وعلى غيره من الكتاب وقدمت القول فيه فى باب السجع
فليؤخذ من هناك (ومن المبادى التى قد أخلقت وصارت مزدراة) أن يقال

فى اوائل التقليدات ان أحق الخدم بأن ترعى خدمة كذا وكذا وان أحق من قلد الاعمال من اجتمع فيه كذا وكذا فان هذا ليس من المبادى المستحسنة ومن استعمله أولا فقد ضعفت فكرته عن اقتراح ما يحسن استعماله من المبادى والذى تبعه فى ذلك اما مقلد ليس عنده قوة على أن يختار لنفسه واما جاهل لا يفرق بين الحسن والقبيح والجيد والردىء وأهل زماننا هذا من الكتاب قد قصروا مبادى تقاليدهم على هذه الفاتحة دون غيرها وان أتوا بتحميدة من التحاميد كانت مباينة لمعنى التقليد الذى وضعت فى صدره وكذلك قد كان الكتاب يستعملون فى التقليدات مبدأ واحدا لا يتجاوزونه الى غيره وهو هذا ما عهد فلان الى فلان والتحميد خير ما افتتح به التقليدات وكتب الفتوح وما جرى مجراهما وقد أنكرت ذلك على مستعمله فى مفتتح تقليد أنشأته بولاية وال فقلت كانت التقليدات تفتتح بكلام ليس بذى شان ولا يوضع فى ميزان ولا يجتنى من أفنان وغاية ما يقال هذا ما عهد فلان الى فلان وتلك فاتحة لم تكن جديدة فتخلق بتطاول الايام ولا حسنة النظم فيضاهى بمثلها من ذوات النظام وهذا التقليد مفتتح بحمد الله الذى تكفل لحامده بالزيادة وبدأ النعمة ثم قرنها من فضله بالاعادة وهو الذى بلغ بنا من مآرب الدنيا منتهى الارادة وسلم الينا مقاده فذلل لنا بها كل مقادة ووسد الامر منا الى أهله فاستوطأت الرعايا منه على وسادة ونرجو أن يجمع لنا بين سعادة الأولى والأخرى حتى تتصل هذه السعادة بتلك السعادة ثم نصلى على نبيه محمد الذى ميزه الله على الانبياء بشرف السيادة وجعل انشقاق القمر له من آيات النبوة وانشقاق الايوان من آيات الولادة وعلى آله وأصحابه الذين شادوا الدين من بعده فأحسنوا فى الاشادة وبسطت عليهم الدنيا كما بسطت على الذين من قبلهم فلم يحولوا عن خلق الزهادة أما بعد كذا وكذا ثم أنهيت التقليد الى آخره (ومن الحذاقة فى هذا الباب) أن يجعل الدعاء فى أول الكتاب من السلطانيات والاخوانيات وغيرهما مضمنا من المعنى ما بنى عليه ذلك الكتاب وهذا شئ انفردت بابتداعه وتراه كثيرا فيما أنشأته من المكاتبات فانى توخيته فيها وقصدته (فمن ذلك) ما كتبته فى الهناء بفتح وهو هذا الكتاب مشافه بخدمة الهناء للمجلس السامى الفلانى جدد الله له فى كل يوم فتحا وبدل عرش كل ذى سلطان لديه صرحا وجعل كل موقف من مواقف جوده وبأسه

يوم عطر ويوم أضحى وكتبت له على لسان الاسلام ولسان الايام ثناء خالدا ومدحا وأسكنه بعد العمر الطويل دارا لا يظمأ فيها ولا يضحى ثم أخذت بعد ذلك في انشاء الكتاب المتضمن ما يقتضيه معانى ذلك الفتح (ومن ذلك) ماذكرته في الهناء بمولود وهو جدد الله مسرات المجلس السامى الفلانى ووصل صبوح هنائه بغبوقه وأمتعه بسليله المبشر بطروقه وأبقاه حتى يستضى ءبنوره ويرمى عن فوقه وسرّبه أبكار المعانى حتى تخلق أعطافها بخلوقه وجعله كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ثم أخذت في اتمام الكتاب بالهناء بالمولود على حسب ما اقتضاه ذلك المعنى فتأمل ما أوردته ههنا من هذين المثالين وانسج على منوالهما فيما تقصده من المعانى التى تبنى عليها كتبك فان ذلك من دقائق هذه الصناعة (وأما فواتح الكتب التى أنشأتها) فنها ما اخترعته اختراعا ولم أسبق اليه وهى عدة كثيرة وقد أوردت ههنا بعضها (ومن ذلك) مفتتح كتاب الى ديوان الخلافة وهو نشأت سحابة من سماء الديوان العزيز النبوى جعل الله الخلود لدولته أوطانا والحدود لها أركانا ونصب أيامها في أيام الدهر أحيانا وصوّرها في وجهه عينا وفي عينه انسانا ومدّ ظلالها على الناس عدلا واحسانا وجمع الامم على دين طاعتها وان تفرقوا أديانا وآتاها من معجزات سلطانه ما لم ينزل به لغيرها سلطانا فارتاح الخادم لالتقائها وبسط يده لاستسقائها وقال رحمة مرسلة لا تخشى رعودها ولا تخلف وعودها ومن شأنها ترويض الصنائع التى يبقى آثارها لا الخمائل التى تذوى أزهارها وقد يعبر عن الكتاب ونائله بالسحاب ووابله فان صدر عن يد كيد الديوان العزيز فقد وقع التشبيه موقع الصواب وصدق حينئذ قول القائل ان البحر عنصر السحاب لكن فرق بين ما يجود بمائه وما يجود بنعمائه وبين ما يسمى الارض الماحلة وبين ما يسمى الاقدار الخاملة ومازالت كتب الديوان العزيز تضرب لها الامثال وتصرف نحوها الآمال ويرى الحسد فيها حسنا وان عد في غيرها من سيئ الاعمال وهذا فصل من أول الكتاب (ومن جملة الكتب المشار اليها) مفتتح كتاب كتبته الى بعض الاخوان وأرسلته اليه من الموصل الى أرض الشمال من بلاد الروم وهو طلع كوكب من أفق المجلس السامى لا خلت سماداته من عدوّ وحاسد ولا شينت بتوأم يخرجهما عن حكم الواحد ولا عدمت صحبة الجدود المتيقظة في

الزمن الراقد ولا أوحشت الدنيا من ذكره الخالد الذى هو عمر خالد ولا زال مرفوعا الى المحل الذى يعلم به أن الدهر للناس ناقد وللكواكب تختلف مطالعها فى الشمال والجنوب فمنها ما يطلع دائما فى أحدهما وهو فى الآخر دائم الغروب وكتاب المجلس كوكب لم يربهذه الارض مطلعه وان علم من السماء أين موضعه ولما ظهر الآن للخادم سجد له حامدا وخرّ له ساجدا وقال قد عبدت الكواكب من قبلى فلا عجب أن أكون لهذا الكوكب عابدا وها أنا قد أصبحت بالعكوف على عبادته مغرى وقال الناس هذا ابن كبشة الكتاب لا ابن أبى كبشة الشعرى وهذا مطلع غريب والسياقة التالية لمطلعه أغرب ومن أغرب ما فيها قولى وها أنا قد أصبحت بالعكوف على عبادته مغرى وقال الناس هذا ابن كبشة الكتاب لا ابن أبى كبشة الشعرى والمراد بذلك أن ابن كبشة كان رجلا فى الجاهلية يعبد الشعرى فخالف بذلك دين قومه ولما بعث النبى صلى الله عليه وسلم قالت قريش هذا قد خالف ديننا وسموه ابن أبى كبشة أى انه قد خالفنا كما خالف أبو كبشة قومه فى عبادة الشعرى فأخذت أنا هذا المعنى وأودعته كتابى هذا فجاء كما تراه مبتدعا غريبا (ومن جملة الكتب المشار اليها) مفتتح كتاب كتبته الى بعض الاخوان بالشام وهو طلعت من الغرب شمس فقيل قد آذنت أشراط الساعة بالاقتراب ولم يعلم أن تلك الانوار انما هى أنوار الكتاب لم تألف الابصار من قبله أن تطلع الشمس من المغرب وليس ذلك الا كتاب المجلس لاسلبه الله مزية هذا الوصف الكريم واتاه من الفضل ما يقال معه وفوق كل ذى علم عليم وأحيا النفوس من كلمها بروح كلمه كما شفى غليلها من أقلامه بسقيا الكليم . ولما ورد على الخادم صار ليله نهارا وأصبح الناس فى الحديث به أطوارا والمنصف منهم يقول قد جرت الشمس الى مستقرها والشمس لا تجد فرارا وهذا الكتاب فى الحسن والغرابة كالذى قبله (ومن جملة الكتب المشار اليها) مفتتح كتاب كتبته الى بعض الاخوان وهو تأوب زور من جانب المجلس السامى أدنى الله داره وجعل كلماته التامة جاره وأشهد أفعال التقوى ليله وأفعال المكارم نهاره ووهبه من أعوام العمر طواله ومن أعوام العيش قصاره ولا أقدر السابقين الى المعالى أن يجروا معه ولا أن يشقوا غباره وليس ذلك الزور الا سطورا فى قرطاس ولا فرق بين الكتاب وبين مرسله فى

لمظنة الايناس . والله لا يصغر عشي هذا الزائر وتقرّ عيني برؤيته حتى لا أزال بمقربر الناظر ومع هذا فلي عاتب لتأخره وههنا مظنة العتاب ومن تأخر عنه كتاب صديقه فلا بدّ أن يخطر له خاطر الارتياب والظنين بالمودة لا يرى الا ظنينا وقد قيل انها وديعة وقليلا ما تجد على الودائع أمينا وهذا فصل من أول الكتاب (ومن جملة الكتب المشار اليها) مفتتح كتاب كتبته الى بعض الاخوان وهو سنحت روضة من جانب المجلس السامي جعل الله المعالي له رداء ونهايات المساعي له ابتداء وفداء من يقصر عن درجته حتى تكون الاكارم له فداء وهدى المحامد لافعاله وأهدى البقاء لايامه حتى يجتمع له الامران هدى واهداء واتاه من السيادة ما يجعل أعداءه أصادق ومن السعادة ما يجعل أصدقاءه أعداءه فاستنشق الخادم رباها وتلقى بالتحية محياها واستمتع بازهارها التي أنبتها سقيا الاقلام لا سقي الغمام وقال هذا ربيع الارواح لا ربيع الاجسام ولو رام الاحاطة بوصفها لكانت الاقوال المطولة فيها مختصرة ولكنه اكتفى بأن رفعها على رأسه حتى يتمثل أن الجنة في شجرة ومن أوصافها أنها جاءت زائدة ومن شأن الروض أن يرتاد وحلت محاسنها التي هي في غيرها من حظ البصر وفيها من حظ السمع والبصر والفؤاد ولما سرّح فيها ناظره وجد شوقه حمامة تغرد في أكنافها وتردد الشجي لبعد أليفها اذا رددته الحمائم اقرب الافها وهذا قول له عند اخوان الصفاء علامة واذا غدا كتاب الحبيب روضة فهل يمثل شوق محبه الا حمامة وأي فرق بين هذه وبين أخواتها من ذوات الاطواق لولا أنها تملي شجوها على صفحات القلوب وتلك تمليه على عذبات الاوراق وهذا فصل من الكتاب وهو غريب عجيب وفيه معنيان مبتدعان وأعجبهما وأغربهما قولي حتى يتمثل أن الجنة في شجرة وهذا مستخرج من الحديث النبوي (ومن جملة الكتب المشار اليها) مفتتح كتاب كتبته الى بعض الاخوان وهو تضوعت نفحة من تلقاء المجلس السامي رعى الله عهده وسقاه وصان وده ووقاه ويسر لي القاء العصا بلقاه فعطرت الطريق التي سايرتها والريح التي جاورتها وأنت فأفرشتها خدي وضممت عليها ودّي وجعلتها ردعا لجيبي ولطيمة لردني ومحذابا لعقدي وعلمت أنها ليست بنفحة طيب ولكنها كتاب حبيب فان منانشق الارواح غير منانشق الاجسام ولا يستوي عرف

الطيب وعرف الاقلام ثم مددت يدي الى الكتاب بعد أن صافحت يده موصله كما صافحت عبقة منديله وقلت أهلا بمن أدنى من الحبيب مزارا وأهدى لعيني قرة ولقلبي قرارا وهذا في الغرابة كأخواته التي تقدمت ولم أستقص ما اخترعته من هذا الباب في مطالع الكتب (وأما ما أتيت فيه بالحسن) من المعاني ولكنه غير مخترع (فمن ذلك) مطلع كتاب كتبته عن الملك نور الدين ارسلان بن مسعود صاحب الموصل الى الملك الافضل علي بن يوسف يتضمن تعزية وتهنئة أما التعزية فبوفاة أخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر وأما التهنئة فبوراثة الملك من بعده وهو لا يعلم القلم أينطق بلسان التعزية أم بلسان التهنئة لكنه جمعهما جميعا فأتى بهما على حكم التثنية وفي مثل هذا الخطب يظل القلم حائرا وقد وقف موقف السخط والرضا فسخط أولا ثم رضي آخرا وهذا البيت الناصري يتداول درجات العلى فما تقضي الاوالية ترجع وشموسه وأقماره تتناقل مطالع السعود فما يغيب منها غائب الاوآخر يطلع والناس ان فجعوا بماجد ردفه من بعده ماجد وان قيل ان الماضي كان واحدا قيل بل الآتي هو الواحد وهذا فصل من أول الكتاب ثم كتبت في هذا المعنى كتابين آخرين وفي الذي أوردته من هذا الفصل مقنع (ومن هذا الاسلوب) ما كتبته الى بعض الاخوان جوابا عن كتابه وكانت الكتب قد انقطعت بيني وبينه زمانا وهو لقاء كتب الاحباب كلقاء الاحباب وقد تأتي بعد يأس منها فيشتبه لها دمع السرور بدمع الاكتئاب ومن أحسنها كتاب المجلس السامي الفلاني جعل الله الليالي له صحبا والمعالي له عقبا ورفع مجده فوق كل ماجد حتى تكون حسناتهم لدى حسناته ذنبا ولا زال اسمه في الافواه عذبا وذكره في الالسنة رطبا وودّه لكل انسان انسانا ولكل قلب قلبا ثم انتهيت الى آخر الكتاب على هذا النسق وانما ذكرت ههنا مبدأه لانه الغرض المقصود في هذا الموضع (ومن ذلك) ما كتبته الى بعض الاخوان جوابا عن كتابه وهو البشرى تعطى للكتاب كما تعطى لمرسله وكل منهما يوفى حق قدره وينزل في منزله وكذلك فعل الخادم بكتاب المجلس السامي الفلاني لا زال محله أنيسا وذكره للفرقدين جليسا وسعيه على المكارم حبيسا ومجده جديد الملابس اذا كان المجد لبيسا وههنا ذكرت في هذا الكتاب كما ذكرته من الذي قبله فاني لم أذكر الا

مبدأه الذى هو الغرض (ومما ينتظم فى هذا السلك) ما كتبته فى صدر كتاب يتضمن تعزية وهو لو لم يلبس قلمى ثوب الحداد لهجر مداده ونفى عنه سواده وبعد من قريحته وعاد الى طينته وحرم على نفسه أن يمتطى يدا أو يجرى الى مدى لكنه أحدّ فندب وبكى فسكب وسطر هذا الكتاب من دموعه وضمنه ما حملته أحناء ضلوعه وانما استعار ذلك من صاحبه الذى أعداه وأبدى اليه من حزنه ما أبداه وهو نائب عنه فى تعزية سيدنا أحسن الله صبره ويسر أمره وأرضى عنه دهره ثم انهيت الكتاب الى آخره (ومن محاسن هذا الباب) أن يفتتح الكتاب بآية من القرآن الكريم أو بخبر من الاخبار النبوية أو ببيت من الشعر ثم يبنى الكتاب عليه (فن ذلك) ما كتبته فى ابتداء كتاب يتضمن البشرى بفتح وهو

ومن طلب الفتح الجليل فانما * مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

وقد أخذنا بقول هذا الشاعر الحكيم وجعلنا السيف وسيلة الى استفتاح الملك العقيم ورأينا المجد لا ينصب الاعلى النصب والراحة الكبرى لا تنال الاعلى جسر من التعب وكتابنا هذا وقد استولينا على مملكة فلانة وهى المملكة التى تسمى الآمال دونها صرعى واذ قيس اليها غيرها من الممالك كانت أصلا وكان غيرها فرعا وهذا فصل من أول الكتاب (ومن ذلك) ما كتبته فى مفتتح تقليد بالحسبة وهو ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون هذا أمر يشتمل على معنى الخصوص دون العموم ولا يختص به الا ذوو الاوامر المطاعة وذوو العلوم وقد جمع الله لنا هذين الوصفين كليهما وجعلنا من المستخلفين عليهما فلنبدأ أولا بحمده الذى هو سبب للمزيد ثم لنأخذ فى القيام بأمره الذى هو على كل نفس منه رقيب عتيد ولا ريب أن اصلاح العباد يسرى الى الارض حتى تزكو بطونها وتنام عيونها ويشترك فى بركات السماء ساكنها ومسكونها والامر بذلك حمل ان لم تتوزعه الاكف ثقل على الرقاب واذا انتشرت أطراف البلاد فانها تفتقر الى مساعدة من مستنيب ومستناب وقد اخترنا المدينة فلانة رجلا لم نأل فى اختياره جهدا وقدمنا فيه خيرة الله التى اذا صدقت نيتها صادفت رشدا وهو أنت أيها الشيخ فلان فابسط يدك بقوة الى أخذ هذا الكتاب وكن حسنة من حسناتنا التى يرجح بها ميزان الثواب وحقق نظرنا فيك فانه من نور

الله

الله الذى ليس دونه حجاب فتأمّل كيف فعلت فى هذه الآية التى بنيت التقليد عليها وهو من محاسن المبادى والافتتاحات (وكذلك فعلت فى موضع آخر) وهو مفتتح كتاب كتبته الى شخص كانت له السفارة الى مخدومه فى حاجة عرضت وهو ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا وهذا القول تتبع آثاره وتحمل عليه أنظاره وأولى الناس بسيدنا من شاركه فى لحمة أدبه وان لم يشاركه فى لحمة نسبه فانّ المناقب أقارب والمآثر أواصر

وليس يعرف لى فضلى ولا أدبى • الا امرؤ كان ذا فضل وذا أدب

ونتيجة هذه المقدمة بعث خلقه الكريم على عوارف افضاله واستمداد صنيعة جاهه التى هى أكرم من صنيعة ماله ولا تجارة أربح من هذه التجارة والساعى فيها شريك فى الكسب برىء من الخسارة (وأما الاخبار النبوية) فيسلك بها هذا المسلك بان يذكر الخبر فى صدر الكتاب ثم يبنى عليه ولنذكر منها ولو مثالا واحدا وهو توقيع كتبته لولد رجل من أصحاب السلطان توفى والده ونقل ما كان باسمه اليه فقلت قال النبى صلى الله عليه وسلم أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن مات وترك مالا فلورثته ومن ترك دينا أو كلا أو ضياعا فالىّ وعلىّ وهذا خلق من الاخلاق النبوية لا مزيد على حسنه وأساليب المكارم باسرها موضوعة فى ضمنه ونحن نرجو أن نمشى على اثره فنتنزل منزلة رديفه أو ان نتشبه به فنبلغ مبلغ مدّه أو نصيفه وقد أرانا الله ذلك فى قوم صحبونا فاسعفناهم بمباغى الانعام وأحمدناهم صحبة الليالى والايام وتكفلنا أيتامهم من بعدهم حتى ودّوا أن يكونوا هم الايتام وهذا فلان بن فلان رحمه الله ممن كان له فى خدمة الدولة قدم صدق وأولية سبق وحفظ كتاب المحافظة عليها فقيل له فى تلاوته اقرأ وارق ثم أنهيت التوقيع الى آخره فتأمّل مفتتح هذا التوقيع فانه تضمن نص الخبر من غير تغيير وقد ضمنته بعض خبر آخر من الاخبار النبوية وهو قوله اقرأ وارق قال النبى صلى الله عليه وسلم يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فانّ منزلتك عند آخر آية تقرأها (وقد مثلت لك) ههنا أمثالا يقتدى بها فاحذها وامض على نهجها والله الموفق للصواب

(النوع الثالث والعشرون فى التخلص والاقتضاب) وهذا النوع أيضا كالذى قبله فى أنه أحد الاركان الخمسة التى تقدمت الاشارة اليها فى الفصل التاسع

التخلص والاقتضاب

من مقدمة الكتاب وينبغى لك أيها المتوشح لهذه الفضيلة أن تصرف اليه جل همتك فانه مهم عظيم من مهمات البلاغة (أما التخلص) وهو أن يأخذ مؤلف الكلام فى معنى من المعانى فبينما هو فيه اذ أخذ فى معنى آخر غيره وجعل الاول سببا اليه فيكون بعضه آخذا برقاب بعض من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاما آخر بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ افراغا وذلك مما يدل على حذق الشاعر وقوة تصرفه من أجل أن نطاق الكلام يضيق عليه ويكون متبعا للوزن والقافية فلا تواتيه الالفاظ على حسب ارادته وأما الناثر فانه مطلق العنان يمضى حيث شاء فلذلك يشق التخلص على الشاعر أكثر مما يشق على الناثر (وأما الاقتضاب) فانه ضد التخلص وذلك أن يقطع الشاعر كلامه الذى هو فيه ويستأنف كلاما آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك ولا يكون للثانى علاقة بالاول وهو مذهب العرب ومن يليهم من المخضرمين وأما المحدثون فانهم تصرفوا فى التخلص فأبدعوا وأظهروا منه كل غريبة (فمن ذلك) قول أبى تمام

يقول فى قومس صحبى وقد أخذت * منا السرى وخطا المهرية القود
أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا * فقلت كلا ولكن مطلع الجود

وهذان البيتان من بديع ما يأتى فى هذا الباب ونادره وكذلك قوله أيضا فى وصف أيام الربيع ثم خرج من ذكر الربيع وما وصفه به من الاوصاف فقال

خلق أطل من الربيع كأنه * خلق الامام وهديه المتيسر
فى الارض من عدل الامام وجوده * ومن النبات الغض سرج تزهر
تنسى الرياض وما يروض جوده * أبدا على مر الزمان ويذكر

وهذا من ألطف التخلصات وأحسنها وكذلك قوله فى قصيدته الفائية التى أولها * أما الرسوم فقد أذكرن ما سلفا * فقال فيها

غيد أجادوا الحسن سنتها * فصاغها بيديه روضة أنفا
يضحى العذول على تأنيبه كلفا * بعذر من كان مشغوفا بها كلفا
ودع فؤادك توديع الفراق فما * أراه من سفر التوديع منصرفا
تجاهد الشوق طورا ثم تجذبه * جهاده للقوافى فى أبى دلفا

وهذا أحسن من الذى قبله وأدخل فى باب الصنعة وكذلك جاء قوله

زعمت هواك عفا الغداة كما عفت * منها طلول باللوى ورسوم

لا والذى

قوله تنسى فى الديوان تزهو وقوله تنسى الرياض الخ فى الديوان تنسى الرياض وما يروض فعاله * أبدا على طول المدى يتذكر

لا والذي هو عالم أنّ النوى * أجل وأنّ أبا الحسين كريم

ما حلت عن سنن الوداد ولا غدت * نفسي على الف سواك تحوم

وهذا خروج من غزل الى مديح أغزل منه (ومن البديع في هذا الباب) قول أبي نواس من جملة قصيدته المشهورة التي أولها * أجارة بيتينا أبوك غيور * فقال عند الخروج الى ذكر الممدوح

تقول التي من بيتها خفّ مركبي * عزيز علينا أن نراك تسير

أما دون مصر للغنى متطلب * بلى ان أسباب الغنى لكثير

فقلت لها واستعجلتها بوادر * جرت فجرى في جريهنّ عبير

ذريني أكثر حاسديك برحلة * الى بلد فيها الخصيب أمير

ومما جاء من التخلصات الحسنة قول أبي الطيب المتنبي في قصيدته الدالية التي أولها * عواذل ذات الخال فيّ حواسد *

وأورد نفسي والمهند في يدي * موارد لا يصدرن من لا يجالد

ولكن اذا لم يحمل القلب كفه * فكيف اذا لم يحمل الكف ساعد

خليليّ اني لا أرى غير شاعر * فكم منهم الدعوى ومني القصائد

فلا تعجبا ان السيوف كثيرة * ولكن سيف الدولة اليوم واحد

وهذا هو الكلام الآخذ بعضه برقاب بعض ألا ترى الى الخروج الى مدح الممدوح في هذه الابيات كأنه أفرغ في قالب واحد ثم ان أبا الطيب جمع بين مدح نفسه ومدح سيف الدولة في بيت واحد وهو من بدائعه المشهورة (وكذلك) قوله أيضا وهو من أحسن ما أتى به من التخلصات وهو في قصيدته التائية التي أولها * سرب محاسنه حرمت ذواتها * فقال في أثنائها

ومطالب فيها الهلاك أتيتها * ثبت الجنان كأنني لم آتها

ومقانب بمقانب غادرتها * أقوات وحش كنّ من أقواتها

أقبلتها غرر الجياد كأنما * أيدي بني عمران في جبهاتها

الثابتين فروسة كجلودها * في ظهرها والطعن في لباتها

فكأنها نتجت قياما تحتهم * وكأنهم ولدوا على صهواتها

تلك النفوس الغالبات على العلا * والمجد يغلبها على شهواتها

سقيت منابتها التي سقت الورى * بيدي أبي أيوب خير نباتها

قوله أجل في الديوان أعز وقوله ما حلت في الديوان ما زلت وقوله فكيف اذا لم يحمل الخ في الديوان على حالة لم يحمل الكف ساعد

ولنظر إلى هذين التخلصين البديعين فالاول خرج به الى مدح قوم الممدوح والثاني خرج به الى نفس الممدوح وكلاهما قد أغرب فيه كل الاغراب وعلى هذا جاء قوله

اذا صلت لم أترك مصالا لفاتك * وان قلت لم أترك مقالا لعالم
والا فخانتني القوافي وعاقني * عن ابن عبيد الله ضعف العزائم

والشعراء متفاوتون في هذا الباب وقد يقصر عنه الشاعر المفلق المشهور بالاجادة في ايراد الالفاظ واختيار المعاني كالبحتري فان مكانه من الشعر لا يجهل وشعره هو السهل الممتنع الذي تراه كالشمس قريبا ضوؤها بعيدا مكانها وكالقناة لينا مهزها خشنا سنانها وهو على الحقيقة قينة الشعراء في الاطراب وعنقاؤهم في الاغراب ومع هذا فانه لم يوفق في التخلص من الغزل الى المديح بل اقتضبه اقتضابا ولقد حفظت شعره فلم أجد له من ذلك شيأ مرضيا الا اليسير كقوله في قافية الباء من قصيدة

وكأنني اذا الحوادث أظلمت * من شهابا بغزة ابن شهاب

وكقوله في قافية الدال من قصيدة

قصدت لنجران العراق ركابنا * فظلّت ازجيها لمحلة ماجد
آليت لا تلقين جدا صاعدا * في مطلب حتى تناخ بصاعد

وكقوله في قصيدته التي أولها * حلفت لها بالله يوم التفرق * فانه تشوّق فيها الى العراق من الشام ووصف العراق ومنازله ورياضه فأحسن في ذلك كله ثم خرج الى مدح الفتح بن خاقان بسياقة آخذة بعضها برقاب بعض فقال

ورباع من الفتح بن خاقان لم تزل * غنى لعديم او فكاكا لموثق

ثم أخذ في مدحه بعد ذلك بضروب من المعاني وكذلك ورد قوله في قصيدته التي أولها * ميلوا الى الدار من ليلى نحييها * فانه وصف البركة فأبدع في أوصافها ثم خرج منها الى مدح الخليفة المتوكل فقال

كأنها حين لجت في تدفقها * يد الخليفة لما سال واديها

وأحسن ما وجدته له وهو مما الطف فيه كل التلطيف قوله في قصيدته التي يمدح بها ابن بسطام ومطلعها * نصيب عينك من سح وتسجام * فقال عند تخلصه الى

المديح

المديح هل الشباب ملم بي فراجعة * أيامه لي في أعقاب أيام
لو أنه بابل عمرو يجاذبه * اذا اتطلبته عند ابن بسطام

وهذا من الملائح في هذا الباب وله مواضع أخرى يسيرة بالنسبة الى كثرة شعره
وقال أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي ان كتاب الله خال من التخلص وهذا
القول فاسد لان حقيقة التخلص انما هي الخروج من كلام الى كلام آخر غيره بلطيفة
تلائم بين الكلام الذي خرج منه والكلام الذي خرج اليه وفي القرآن الكريم
مواضع كثيرة من ذلك كالخروج من الوعظ والتذكير بالانذار والبشارة بالجنة الى
أمر ونهي ووعد ووعيد ومن محكم الى متشابه ومن صفة لنبي مرسل وملك
منزل الى ذم شيطان مريد وجبار عنيد بلطائف دقيقة ومعان أخذ بعضها برقاب
بعض (فمما جاء من التخلص في القرآن الكريم) قوله تعالى واتل عليهم نبأ ابراهيم
اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل
يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك
يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون فانهم عدو لي الا
رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين واذا مرضت
فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين
رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين
واجعلني من ورثة جنة النعيم واغفر لأبي انه كان من الضالين ولا تخزني يوم
يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم وأزلفت الجنة
للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل
ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس أجمعون
قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين
وما أضلنا الا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون
من المؤمنين هذا كلام يسكر العقول ويسحر الالباب وفيه كفاية لطالب البلاغة
فانه متى أنعم فيه نظره وتدبر أثناءه ومطاوي حكمته علم أن في ذلك غنى عن تصفح
الكتب المؤلفة في هذا الفن ألا ترى ما أحسن ما رتب ابراهيم عليه السلام كلامه
مع المشركين حين سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا سؤال مستفهم ثم أنحى على
آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع وعلى تقليد آبائهم

... فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة ثم أراد
الخروج من ذلك الى ذكر الاله الذى لا تجب العبادة الا له ولا ينبغى الرجوع
والانابة الا اليه فصور المسئلة فى نفسه دونهم بقوله فانهم عدو لى على معنى انى
فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو وهو الشيطان فاجتنبتها وآثرت
عبادة من الخير كله فى يده وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه لينظروا فيقولوا
ما نصحنا ابراهيم الا بما نصح به نفسه فيكون ذلك أدعى لهم الى القبول لقوله
وأبعث على الاستماع منه ولو قال فانهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة فتخلص عند
تصويره المسئلة فى نفسه الى ذكر الله تعالى فأجرى عليه تلك الصفات العظام من
تفخيم شأنه وتعديد نعمه من لدن خلقه وأنشأه الى حين وفاته مع ما يرجى فى الآخرة
من رحمته ليعلم من ذلك أن من هذه صفاته حقيق بالعبادة واجب على الخلق
الخضوع له والاستكانة لعظمته ثم خرج من ذلك الى ما يلائمه ويناسبه فدعا الله
بدعوات المخلصين وابتهل اليه ابتهال الأوابين لان الطالب من مولاه اذا قدم
قبل سؤاله وتضرعه الاعتراف بالنعمة كان ذلك أسرع للاجابة وأنجح لحصول
الطلبة ثم أدرج فى ضمن دعائه ذكر البعث ويوم القيامة ومجازاة الله تعالى من
آمن به واتقاه بالجنة ومن ضل عن عبادته بالنار فجمع بين الترغيب فى طاعته
والترهيب من معصيته ثم سأل المشركين عما كانوا يعبدون سؤالا ثانيا عند
معاينة الجزاء وهو سؤال موبخ لهم مستهزئ بهم وذكر ما يدفعون اليه عند ذلك
من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى العودة ليؤمنوا فنظر أيها
المتأمل الى هذا الكلام الشريف الآخذ بعضه برقاب بعض مع احتوائه على
ضروب من المعانى فيخلص من كل واحد منها الى الآخر بلطيفة ملائمة حتى كأنه
أفرغ فى قالب واحد فخرج من ذكر الاصنام وتنفير أبيه وقومه عن عبادتهم اياها
مع ما هى فيه من التعرى عن صفات الالهية حيث لا تضر ولا تنفع ولا تبصر
ولا تسمع الى ذكر الله تعالى فوصفه بصفات الالهية فعظم شأنه وعدد نعمه
ليعلم بذلك أن العبادة لا تصح الا له ثم خرج من هذا الى دعائه اياه وخضوعه له
ثم خرج منه الى ذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه فتدبر هذه التخلصات اللطيفة
المودعة فى أثناء هذا الكلام وفى القرآن مواضع كثيرة من التخلصات كالذى ورد
فى سورة الاعراف فانه ذكر فيها قصص الانبياء والامم الخالية من آدم الى نوح

عليهما

عليهما السلام وكذلك الى قصة موسى عليه السلام حتى انتهى الى آخرها الذى هو واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لوشئت أهلكتهم من قبل واياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدنا اليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكوة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون هذا تخلص من التخلصات الحسان فان الله تعالى ذكر الانبياء والقرون الماضية الى عهد موسى عليه السلام فلما أراد ذكر نبينا صلوات الله عليه وسلامه ذكره بتخلص انتظم به بعض الكلام ببعض ألا ترى أنه قال موسى عليه السلام واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة فأجيب بقوله تعالى قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين من حالهم كذا وكذا ومن صفتهم كيت وكيت وهم الذين يتبعون الرسول النبى الامى ثم وصفه صلوات الله عليه بصفاته الى آخر الكلام وياالله العجب كيف يزعم الغانمى أن القرآن خال من التخلص ألم يكفه سورة يوسف عليه السلام فانها قصة برأسها وهى مضمنة شرح حاله مع اخوته من أول أمره الى آخره وفيها عدة تخلصات فى الخروج من معنى الى معنى وكذلك الى آخرها ولو أخذت فى ذكر ما فى القرآن الكريم من هذا النوع لاطلت ومن أنعم نظره فيه وجد من ذلك أشياء كثيرة (وقد جاءنى من التخلصات فى الكلام المنثور أشياء كثيرة) وسأذكر ههنا نبذة يسيرة منها (فمن ذلك) ما أوردته فى كتاب الى بعض الاخوان أصف فيه الربيع ثم خرجت من ذلك الى ذكر الاشواق فقلت وكما أن هذه الاوصاف فى شأنها بديعة فكذلك شوقى فى شأنه بديع غير أنه لحرّه فصل مصيف وهذا فصل ربيع فأنا أملى أحاديثه العجيبة على النوى وقد عرفت حديث من قتله الشوق فلا أستفض حديث من قتله الهوى (ومن هذا الاسلوب) ما كتبته فى كتاب الى بعض الاخوان أيضا وأرسلته

اليه من بلاد الروم وهو كتاب يشتمل على وصف البرد وما لاقيته منه ثم خرجت من ذلك الى ذكر الشوق فقلت ومما أشكوه مر برد هاأن الفرو لا يلبس الا في شهر ناجر وهو قائم مقام الظل الذي يتبرد به من لفح الهواجر ولفرط شدته لم أجد ما يخففه فضلا عما يذهبه فان النار المعدة له تطلب من الدفء أيضا ما أطلبه لكن وجدت نار أشواقي أشد حرا فاصطليت بجمرها التي لا تذكى بزناد ولا تؤل الى رماد ولا يدفع البرد الوارد على الجسد بأشد من حر الفؤاد غير أني كنت في ذلك كمن سد خلة بخلة واستشفى من علة بعلة وأقتل ما أعلك ما شفاك فما ظنك بمن يصطلي نار الاشواق وقد قنع من أخيه بالاوراق فضن عليه بالاوراق (ومما ينتظم في هذا العقد) ما ذكرته في مفتتح كتاب يتضمن عناية ببعض المتظلمين فاستطردت فيه المعنى الى ذكر المكتوب اليه وهو هدايا المكارم أنفس من هدايا الاموال وأبقى على تعاقب الايام والليال وقد حمل هذا الكتاب منها هدية تورث حداوة كسب مجدا وهي خير ثوابا وخير مردا ولا يسديها الا سجية طبعت على الكرم وخلقت من عنصر الديم كسجية مولانا أعلاه الله علوا تفخر به الارض على السماء وتحسده شمس النهار ونجوم الظلماء ولا زالت أياديه مخجلة صوب الغمام معدية على نوب الايام مغنية بشرف فضلها على شرف الاخوال والاعمام وتلك الهدية هي تجريد الشفاعة في أمر فلان ومن اعيان المرء سعيه في حاجة أخيه وان لم يمسه بشيء من أسباب أواخيه فان المؤمنين اخوة وان تباينت مناسبهم وتفاوتت مراتبهم ومن صفتهم أن يسعى بذمتهم أدناهم وخيرهم من عناه من الامر ما عناهم ثم مضيت على هذا النهج الى آخر الكتاب (ومن ذلك) ما كتبته من كتاب الى صديق استحدثت مودته وهو من أهل العراق وكنت اجتمعت به بالموصل ثم سارعني فكتبت اليه أستهديه رطبا فقلت هذه المكاتبة ناطقة بلسان الشوق الذي تزف كلمه زفيف الاوراق وتسجع سجع ذوات الاطواق وتهتف وهي مقيمة بالموصل فتسمع من هو مقيم بالعراق وأبرح الشوق ما كان عن فراق غير بعيد وودا استجدت حلته واللذة مقترنة بكل شيء جديد وأرجو أن لا يبلي قدم الايام لهذه الجدة لباسا وأن يعاذ من نظرة الجن والانس حتى لا يخشى جنة ولا باسا وقد قيل ان للمودات طعما كما أن لها وسما وان ذا اللب يصادق نفسا قبل أن يصادق جسما واني لاجد لمودة

سيدنا

سيدنا حلاوة يستلذ دوامها ولا يمل استطعامها وقد أذكرتني الآن بحلاوة الرطب الذي هو من أرضها وغير عجيب لمناسبة الاشياء أن يذكر بعضها بعضها الا أن هذه الحلاوة تنال بالافواه وتلك تنال بالاسرار وفرق بين ما يغترس بالارض وما يغترس بالقلب في شرف الثمار فلا ينظر سيدنا على في هذا التمثيل ولربما كان ذلك تعريضا ينوب مناب التطفيل وهذا من التخلصات البديعة فانظر أيها المتأمل كيف سقت الكلام الى استهداء الرطب وجعلت بعضه آخذا برقاب بعض حتى كأنه أفرغ في قالب واحد وكذلك فليكن التخلص من معنى الى معنى وهذا القدر من الامثلة كاف للمتعلم (ومما استظرف من هذا النوع في الشعر) قول ابن الرمكرم الموصلي وهو

وليل كوجه البرقعيدي مظلم * وبرد أغانيه وطول قرونه
سريت ونومي فيه نوم مشرد * كعقل سليمان بن فهد ودينه
على أولق فيه التفات كأنه * أبو جابر في خبطه وجنونه
الى أن بدا ضوء الصباح كأنه * سنا وجه قرواش وضوء جبينه

وهذه الابيات لها حكاية وذلك أن هذا الممدوح وهو شرف الدولة قرواش ملك العرب وكان صاحب الموصل فاتفق أنه كان جالسا مع ندمائه في ليلة من ليالي الشتاء وفي جملتهم هؤلاء الذين هجاهم الشاعر وكان البرقعيدي مغنيا وسليمان ابن فهد وزيرا وأبو جابر حاجبا فالتمس شرف الدولة من هذا الشاعر أن يهجو المذكورين ويمدحه فأنشده هذه الابيات ارتجالا وهي غريبة في بابها لم يسمع بمثلها ولم يرض قائلها بصناعة التخلص وحدها حتى رقي في معانيه المقصودة الى أعلى منزلة فابتدأ البيت الاول بهجو البرقعيدي فجاء في ضمن مراده ذكر أوصاف ليل الشتاء جميعها وهي الظلمة والبرد والطول ثم ان هذه الاوصاف الثلاثة جاءت ملائمة لما شبهت به مطابقة له وكذلك البيت الثاني والثالث ثم خرج الى المديح بألطف وجه وأدق صنعة وهذا يسمى الاستطراد وما سمعت في هذا الباب بأحسن من هذه الابيات (ومما يجري على هذا الاسلوب) ما ورد لابن الحجاج البغدادي وهي أبيات لطيفة جدا

ألا يا ماء دجلة لست تدري * بأني حاسد لك طول عمري
ولو أني استطعت سكرت سكرا * عليك فلم تكن يا ماء تجري

فقال الماء ماهـذا عجيب * بما استوجبته ياليت شعرى
فقالت له لانك كل يوم * تمر على أبى الفضل بن بشر
تراه ولا أراه وذاك شئ * يضيق عن احتمالك فيه صبرى

وما علمت معنى فى هـذا المقصد ألطف ولا أرق ولا أعذب ولا أحلى من هذا الانمط ويكفى ابن الحجاج من الفضيلة أن يكون له مثل هذه الابيات ولا تظنن أن هذا شئ انفرد به المحدثون لما عندهم من الرقة واللطافة وفات من تقدمهم لما عندهم من قشف العيش وغلظ الطبع بل قد تقدم أوائك الى هذا الاسلوب وان أقلوا منه وأكثر منه المحدثون وأى حسن من محاسن البلاغة والفصاحة لم يسبقوا اليه وكيف لا وهم أهله ومنهم علم وعنهم أخذ (فى ذلك) ما جاء للفرزدق وهو

وركب كان الريح تطاب عندها * لها ترة من جذبها بالعصائب
سروا يخطبون الليل وهى تلفهم * الى شعب الاكوار من كل جانب
اذا آنسوا نارا يقولون ليتها * وقد خصرت أيديهم نار غالب

فانظر الى هـذا الاستطراد ما أخله وأفخمه (واعلم) أنه قد يقصد الشاعر التخلص فيأتى به قبيحا كما فعل أبو الطيب المتنبى فى قصيدته التى أولها

ملث القطر أعطشها ربوعا * فقال عند الخروج من الغزل الى المديح

غدا بك كل خلو مستهاما * وأصبح كل مستور خليعا
أحبك أو يقولوا جر نمل * ثبيرا وابن ابراهيم ريعا

وهـذا تخلص كما تراه بارد ليس عليه من مسحة الجمال شئ وههنا يكون الاقتضاب أحسن من التخلص فينبغى لسالك هذه الطريق أن ينظر الى ما يصوغه فان واتاه التخلص حسنا كما ينبغى والا فليدعه ولا يستكرهه حتى يكون مثل هذا كما فعل أبو الطيب ولهذا نظائر وأشباه وقد استعمل ذلك فى موضع آخر فى قصيدته التى أولها * أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا * فقال

على الامير يرى ذلى فيشفع لى * الى التى تركتنى فى الهوى مثلا

والاضراب عن مثل هـذا التخلص خير من ذكره وما ألقاه فى هـذه الهوة الا أبو نواس فانه قال

سأشكو الى الفضل بن يحيى بن خالد * هواك لعل الفضل يجمع بيننا

على أن أبا نواس أخـذ ذلك من قيس بن ذريح لكنه أفسده ولم يأت به كما أتى به

قيس ولذلك حكاية وهو أنه لما هام بلبنى فى كل واد وجن بها رق له الناس ورحموه فسعى له ابن ابى عتيق الى أن طلقها من زوجها وأعادها الى قيس فزوجه اياها فقال عند ذلك

جزى الرحمن أفضل ما يجازى * على الاحسان خيرا من صديق
وقد جربت اخوانى جميعا * فما ألفيت كابن أبى عتيق
سعى فى جمع شملى بعد صدع * ورأى حرت فيه عن طريقى
وأطفى لوعة كانت بقلبى * أغصتنى حرارتها بريقى

وبين هذا الكلام وبين كلام أبى نواس بون بعيد وقد حكى عن ابن أبى عتيق أنه قال ياحبيبى أمسك عن هذا المديح فما يسمعه أحد الا ظننى قوادا (وأما الاقتضاب) فهو الذى أشرنا اليه فى صدر هذا النوع وهو قطع الكلام واستئناف كلام آخر غيره بلا علاقة تكون بينه وبينه (فمن ذلك) مايقرب من التخلص وهو فصل الخطاب والذى أجمع عليه المحققون من علماء البيان أنه أما بعد لان المتكلم يفتتح كلامه فى كل أمر ذى شأن بذكر الله وتحميده فاذا أراد أن يخرج الى الغرض المسوق اليه فصل بينه وبين ذكر الله تعالى بقوله أما بعد (ومن الفصل الذى هو أحسن من الوصل لفظة هذا) وهى علاقة وكيدة بين الخروج من كلام الى كلام آخر غيره كقوله تعالى واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الايدى والابصار انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار واذكر اسمعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار هذا ذكر وان للمتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الابواب ألا ترى الى ماذكر قبل هذا ذكر من ذكر من الانبياء عليهم السلام وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر غيره وهو ذكر الجنة وأهلها فقال هذا ذكر ثم قال وان للمتقين لحسن مآب ثم لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال هذا وان للطاغين لشر مآب وذلك من فصل الخطاب الذى هو ألطف موقعا من التخلص وقد وردت لفظة هذا فى الشعر الآن وورودها فيه قليل بالنسبة الى الكلام المنثور (فمن ذلك) قول الشاعر المعروف بالخباز البلدى فى قصيدة أولها * العيش غض والزمان غزير

انى ليعجبنى الزنامى سحرة * ويروق لى بالجاشرية زير
وأكاد من فرح السرور اذا بدا * ضوء الصباح من الستور أطير

وإذا رأيت الجوفى نضية * للغيم فى جنباتها تكسير
منقوشة صدر البزاة كأنه * فيروزج قدزانه بلور
نادت بى اللذات ويحك فانتهز * فرص المنى ياأيها المغرور
مل بى الى جورالسقاة فاننى * أهوى سقاة الكاس حين تجور
هذا وكم لى بالجنينة سكرة * أنا من بقايا شربها مخمور
باكرتها وغصونها مغروزة * والماء بين مروزها مذعور
فى ستة أنا والنديم وقينة * والكاس والمزمار والطنبور

هذه الابيات حسنة وخروجها من شدق هذا الرجل الخباز عجيب ولوجاءت فى شعر أبى نواس لزانت ديوانه * والاقتضاب الوارد فى الشعر كثير لا يحصى والتخلص بالنسبة اليه قطرة من بحر ولا يكاد يوجد التخلص فى شعر الشاعر المجيد الا قليلا بالنسبة الى المقتضب من شعره (فن الاقتضاب) قول أبى نواس فى قصيدته النونية التى أولها * يا كثير النوح فى الدمن * وهذه القصيدة هى عين شعره والملاحة للعيون وهى تتنزل منه منزلة الالف لا منزلة النون الا أنه لم يكمل حسنها بالتخلص من الغزل الى المديح بل اقتضبه اقتضابا فبينا هو يصف الخمر ويقول فاسقنى كأسا على عذل * كرهت مسموعه أذنى
من كميت اللون صافية * خير ماسلسلت فى بدنى
ما استقرت فى فؤاد فتى * فدرى مالوعة الحزن
حتى قال تضحك الدنيا الى ملك * قام بالآثار والسنن
سن للناس الندى فندوا * فكأن البخل لم يكن

فأكثر مدائح أبى نواس مقتضبة هكذا والتخلص غير ممكن فى كل الاحوال وهو من مستصعبات علم البيان (ومن هذا الباب) الذى نحن بصدد ذكره قول البحترى فى قصيدته المشهورة بالجودة التى مدح بها الفتح بن خاقان وذكر القاءه الأسد وقتله اياه وأولها * أجدك ما ينفك يسرى لزينبا * وهى من أمهات شعره ومع ذلك لم يوفق فيها للتخلص من الغزل الى المديح فانه بينما هو فى تغزله وهو يقول

عهدتك ان منيت منيت موعدا * جهاما وان أبرقت أبرقت خلبا
وكنت أرى أن الصدود الذى مضى * دلال فمان كان الا تجنبا
فوا أسفا حتام أسأل مانعا * وآمن خوانا وأعتب مذنبا

حتى قال فى اثر ذلك

أقول لركب معتفين تدرعوا * على عجل قطعا من الليل غيهبا
ردوا نائل الفتح بن خاقان انه * أعم ندى فيكم وأيسر مطلبا

فخرج الى المديح بغير وصلة ولا سبب وكذلك قوله فى قصيدته المشهورة بالجودة التى مدح بها الفتح بن خاقان أيضا وذكر نجاته عند انخساف الجسر به وقد أغرب فيها كل الاغراب وأحسن كل الاحسان وأولها * متى لاح برق أو بدا طلل قفر * فبيناهو فى غزلها حتى قال

لعمرك ما الدنيا بناقصة الجدى * اذا بقى الفتح بن خاقان والقطر

فخرج الى المديح مقتضبا له لا متعلقا به وأمثال هذا فى شعره كثير * (النوع الرابع والعشرون فى التناسب بين المعانى) * وينقسم الى ثلاثة أقسام (القسم الاول فى المطابقة) وهذا النوع يسمى البديع أيضا وهو فى المعانى ضد التجنيس فى الالفاظ لان التجنيس هو أن يتحد اللفظ مع اختلاف المعنى وهذا هو أن يكون المعنيان ضدين وقد أجمع أرباب هذه الصناعة على أن المطابقة فى الكلام هى الجمع بين الشئ وضده كالسواد والبياض والليل والنهار وخالفهم فى ذلك قدامة بن جعفر الكاتب فقال المطابقة ايراد لفظين متساويين فى البناء والصيغة مختلفين فى المعنى وهذا الذى ذكره هو التجنيس بعينه غير أن الاسماء لا مشاحة فيها الا اذا كانت مشتقة ولننظر نحن فى ذلك وهو أن نكشف عن أصل المطابقة فى وضع اللغة وقد وجدنا الطباق فى اللغة من طابق البعير فى سيره اذا وضع رجله موضع يده وهذا يؤيد ما ذكره قدامة لان اليد غير الرجل لا ضدها والموضع الذى يقعان فيه واحد وكذلك المعنيان يكونان مختلفين واللفظ الذى يجمعهما واحد فقدامة سمى هذا النوع من الكلام مطابقا حيث كان الاسم مشتقا مما سمى به وذلك مناسب وواقع فى موقعه الا أنه جعل للتجنيس اسما آخر وهو المطابقة ولا بأس به الا ان كان مثله بالضدين كالسواد والبياض فانه يكون قد خالف الاصل الذى أصله بالمثال الذى مثله واما غيره من أرباب هذه الصناعة فانهم سموا هذا الضرب من الكلام مطابقا لغير اشتقاق ولا مناسبة بينه وبين مسماه هذا الظاهر لنا من هذا القول الا أن يكونوا قد علموا لذلك مناسبة لطيفة لم نعلمها نحن ولنرجع الى ذكر هذا القسم من التأليف وايضاح

التناسب بين المعانى

حقيقته فنقول الاليق من حيث المعنى أن يسمى هذا النوع المقابلة لانه لا يخلو الحال فيه من وجهين اما أن يقابل الشئ بضده أو يقابل بما ليس بضده وليس ثمّ وجه ثالث (فأما الاول) وهو مقابلة الشئ بضده كالسواد والبياض وما جرى مجراهما فانه ينقسم قسمين أحدهما مقابلة في اللفظ والمعنى والآخر مقابلة في المعنى دون اللفظ (أما المقابلة في اللفظ والمعنى) فكقوله تعالى فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا فقابل بين الضحك والبكا والقليل والكثير وكذلك قوله تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم وهذا من أحسن ما يجيء في هذا الباب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير المال عين ساهرة لعين نائمة (ومن الحسن المطبوع الذي ليس بمتكلف) قول علي رضي الله عنه لعثمان رضي الله عنه ان الحق ثقيل مرئ والباطل خفيف وبئ وأنت رجل ان صدقت سخطت وان كذبت رضيت فقابل الحق بالباطل والثقيل المرئ بالخفيف الوبئ والصدق بالكذب والسخط بالرضا وهذه خمس مقابلات في هذه الكلمات القصار وكذلك ورد قوله رضي الله عنه لما قال الخوارج لا حكم الا لله تعالى هذه كلمة حق أريد بها باطل (وقال الحجاج بن يوسف لسعيد بن جبير رضي الله عنه) وقد أحضره بين يديه ليقتله فقال له ما اسمك قال سعيد بن جبير قال بل أنت شقي بن كسير وقد كان الحجاج من الفصحاء المعدودين وفي كلامه هذا مطابقة حسنة فانه نقل الاسمين الى ضدهما فقال في سعيد شقي وفي جبير كسير وهذا النوع من الكلام لم تختص به اللغة العربية دون غيرها من اللغات (ومما وجدته في لغة الفرس) انه لما مات قباد أحد ملوكهم قال وزيره حركنا بسكونه وأول كتاب الفصول لابقراط في الطب قوله العمر قصير والصناعة طويلة وهذا الكتاب على لغة اليونان (ومن كلامي في هذا الباب) ما كتبته في صدر مكتوب الى بعض الاخوان وهو صدر هذا الكتاب عن قلب مقيم وجسد سائر وصبر مليم وجزع عاذر وخاطر أدهشته لوعة الفراق فليس بخاطر (وكذلك) كتبت الى بعض الاخوان أيضا فقلت صدر هذا الكتاب عن قلب مأنوس بلقائه وطرف مستوحش لفراقه فهذا مروع بكآبة اظلامه وهذا ممتنع ببهجة اشراقه غير أن لقاء القلوب لقاء عنيت بمثله خواطر الافكار وتتناجى به من وراء الاستار وذلك أخو الطيف الملم في المنام الذي يوهم بلقاء الارواح على لقاء الاجسام (ومن هذا النوع)

ماذكرته

ماذكرته فى كتاب أصف المسير من دمشق الى الموصل على طريق المناظر فقلت من جملته ثم نزلت أرض الخابور فغربت الارواح وشرقت الجسوم وحصل الاعدام من المسار والانزال من الهموم وطالبتنى النفس بالعود والقدرة مفلسة واويت الى ظل الآمال والآمال مشمسة (ومن ذلك) ماذكرته فى جملة كتاب الى بعض الاخوان وعرضت فيه بذكر جماعة من أهل الادب فقلت وهم مسؤلون أن لا ينسونى فى نادى فضلهم الذى هو منبع الآمال وملتقط اللآل ذو وجوه ألفاظه مشرقة بأيدى الاقلام المتسودة وقلوب معانيه مستنبطة بنار الخواطر المتوقدة والواغل اليه يسكر من خمرته التى تنبه العقول من اغفائها ولا يشربها أحد غيرأ كفائها وهذه الفصول المذكورة لاخفاء بما تضمنته من محاسن المقابلة (ومما ورد) من هذا النوع شعرا قول جرير

وأعور من نبهان أما نهاره * فاعمى وأما ليله فبصير

وهكذا ورد قول الفرزدق

قبح الاله بنى كليب انهم * لايغدرون ولا يفون بجار
يستيقظون الى نهيق حمارهم * وتنام أعينهم عن الاوتار

فقابل بين الغدر والوفاء وبين التيقظ والنوم وفى البيت الاول معنى يسأل عنه وكذلك ورد قول بعضهم

فلا الجود يفنى المال والجد مقبل * ولا البخل يبقى المال والجد مدبر

وقد أكثر أبو تمام من هذا فى شعره فأحسن فى موضع وأساء فى موضع فمن احسانه قوله ما ان ترى الاحساب بيضا وضحا * الا بحيث ترى المنايا سودا

وكذلك قال من هذه القصيدة أيضا

سوف على أولى الزمان وانما * خلق المناسب ما يكون جديدا

وعلى هذا النهج ورد قوله

اذا كانت النعمى سلوبا من امرئ * غدت من خليجى كفه وهو منبع
وان عثرت بيض الليالى وسودها * بوحدته ألفيتها وهى مجمع
ويوم يظل العز يحفظ وسطه * بسمر العوالى والنفوس تضيع
مصيف من الهيجاء ومن حاجم الوغى * ولكنه من وابل الدم مربع

(ومن هذا الاسلوب) قوله أيضا

يمينها الشيمة القصوى اذا أخذت * سلاحها وهو الارقال والرمل
اذا تطلبت من أرض فصلت بها * كانت هي العزالا أنها ذلل
لمرضياتك ما أرغمت آنفها * والهاديات وهي الشردالضال
وعلى هذا النحو ورد قوله
وناضرة الصباحين ابتكرت * طلاع المرط والدرع الندى
تشكى الاين من نصف سريع * اذا قامت ومن نصف بطى
وقد جاء لابى نواس ذلك فقال
أقلنى قد ندمت على الذنوب * وبالاقرار عدت من الجحود
أنا استهديت عفوك من قريب * كما استعفيت سخطك من بعيد
فقابل بين الاضداد من الجحود والاقرار والعفو والسخط والقرب والبعد وعلى
نحو من ذلك ورد قول على بن جبلة فى أبى دلف العجلى وهو
أيم المهير ونكاح الايم * يومان يوم أبؤس وأنعم * وجمع مجد وندى مقسم
وكذلك قوله أيضا
هو الامل المبسوط والاجل الذى * يمر على ايامه الدهر أو يحلو
ولا تحسن الايام تفعل فعله * وان كان فى تصريفها النقض والفعل
فعش واحدا أما الثراء فملم * مباح وأما الجار فهو وحى بسل
ومما جاء من هذا القسم قول البحترى
أحسن الله فى ثوابك عن ثغـ * ـره ضاع أحسنت فيه البلاء
كان مستضعفا فعز وحرو * ما فأجدى ومظلما فأضاء
ومن أحسن ما ورد له فى هذا الباب قوله
أشكو اليك أناملا ما تنطوى * بخلا واملاقا تقصفها اليد
أرضيهم قولا ولا يرضوننى * فعلا وتلك قضية لا تقصد
فأذمهم ما ايذم وربما * سامحتهم فحمدت ما لا يحمد
وعلى هذا النهج ورد قوله
وتوقعى منك الاساءة جاهدا * والعدل أن أتوقع الاحسانا
وكما يسرك لين مسى راضيا * فكذاك فاخش خشونتى غضبانا
(واما أبو الطيب المتنبى) فانه استعمل هذا النوع قليلا فى شعره فن ذلك قوله

ثقال اذا لاقوا خفاف اذا دعوا * كثير اذا شدوا قليل اذا عدوا

وكذلك قوله الى ربة مال كلما اشتت شمله * تجمع فى تشتيته للعلا شمل

(ومما) استعذبته من قوله فى هذا الباب

كأن سهاد الليل يعشق مقلتى * فبينهما فى كل هجر لنا وصل

(ومما) جاء من هذا الباب

لما اعتنقنا للوداع وأعربت * عبراتنا عنا بدمع ناطق

فرقن بين معاجر ومحاجر * وجمعن بين بنفسج وشقائق

وهذا تحته معنى يستدل عنه غير المقابلة وذهب بعض أهل العلم الى أن المراد بالبنفسج والشقائق هو عارض الرجل وخد المرأة لان من العادة ان يشبه العارض بالبنفسج وهذا قول غير سائغ لان العارض انما يشبه بالبنفسج عند أول ظهوره فاذا طر وظهرت خضرته فى ابتداء سن الشباب شبه بالبنفسج لانه يكون بين الاخضر والاسود وليس فى الشعر ما يدل على أن المودع كان شابا قد طر عارضه والذى يقتضيه المعنى أن المرأة قامت للوداع فرقت خمارها ولطمت خدها فجمعت بين أثر اللطم وهو شبيه بالبنفسج وبين لون الخد وهو شبيه الشقائق وفرقت بين خمارها وبين وجهها بالتمزيق ولها وموجدة على الوداع هذا هو معنى البيت لا ما ذهب اليه هذا الرجل (وأما المقابلة فى المعنى دون اللفظ فى الاضداد فما جاء منه قول المقنع الكندى) من شعراء الحماسة

لهم جل مالى ان تتابع لى غنى * وان قل مالى لم أكلفهم رفدا

فقوله تتابع لى غنى بمعنى قوله كثر مالى فهو اذا مقابلة من جهة المعنى لا من جهة اللفظ لان حقيقة الاضداد اللفظية انما هى فى المفردات من الالفاظ نحو قام وقعد وحل وعقد وقل وكثر فان القيام ضد القعود والحل ضد العقد والقليل ضد الكثير فاذا ترك المفرد من الالفاظ وتوصل الى مقابلته بلفظ مركب كان ذلك مقابلة من جهة المعنى لا من جهة اللفظ كقول هذا الشاعر تتابع لى غنى فى معنى كثر مالى وهذه مقابلة معنوية لا لفظية فاعرف ذلك (وأما مقابلة الشئ بما ليس بضده فهى ضربان) أحدهما أن لا يكون مثلا والآخر أن يكون مثلا (فالضرب الاول) يتفرع الى فرعين (الاول) ما كان بين المقابل والمقابل نوع مناسبة وتقارب كقول قريط بن أنيف

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة * ومن اساءة أهل السوء احسانا

فقابل الظلم بالمغفرة وليس ضدا لها وانما هو ضد العدل الا أنه لما كانت المغفرة قريبة من العدل حسنت المقابلة بينها وبين الظلم وعلى هذا جاء قوله تعالى أشداء على الكفار رحماء بينهم فان الرحمة ليست ضد الشدة وانما ضد الشدة اللين الا أنه لما كانت الرحمة من مسببات اللين حسنت المقابلة بينها وبين الشدة وكذلك ورد قوله تعالى ان تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل فان المصيبة سيئة لأن كل مصيبة سيئة وليس كل سيئة مصيبة فالتقابل ههنا من جهة العام والخاص (الفرع الثاني) ما كان بين المقابل والمقابل به بعد وذلك مما لا يحسن استعماله كقول أم الحنف وهو سعد بن قرط وقد تزوج امرأة كانت نهته عنها فقالت من أبيات تذمها فيها

تربص بها الايام عل صروفها * سترمي بها في جاحم متسعر

فكم من كريم قد مناه الهه * بمذمومة الاخلاق واسعة الحر

فقولها بمذمومة الاخلاق واسعة الحر من المقابلة البعيدة بل الاولى أن كانت قالت بضيقة الاخلاق واسعة الحر حتى تصح المقابلة وهذا مما يدل على ان العربي غير متعمد الى استعمال ذلك بصنعته وانما يجيء له منه ما يجيء بطبعه لا بتكلفه واذا أخطأ فانه لا يعلم الخطأ ولا يشعر به والدليل على ذلك أنه لو أبدلت لفظة مذمومة بلفظة ضيقة لصح الوزن وحصلت المقابلة وانما يعذر من يعذر في ترك المقابلة في مثل هذا المقام اذا كان الوزن لا يواتيه (وأما المحدثون من الشعراء) فانهم اعتنوا بذلك خلاف ما كانت العرب عليه لاجرم أنهم أشد ملامة من العرب (فمن ذلك) قول أبي الطيب المتنبي

لمن يطلب الدنيا اذا لم يرد بها * سرور محب أو مساءة مجرم

فان المقابلة الصحيحة بين المحب والمبغض لا بين المحب والمجرم وليست متوسطة أيضا حتى يقرب الحال فيها وانما هي بعيدة فانه ليس كل من أجرم اليك كان مبغضا لك (ومما يتصل بهذا الضرب) ضرب من الكلام يسمى المواخاة بين المعاني والمواخاة بين المباني وكان ينبغي أن نعقد له بابا مفردا لكنا لما رأيناه ينظر الى التقابل من وجه وصلناه به (أما المواخاة بين المعاني) فهو أن يذكر المعنى مع أخيه لا مع الاجنبي مثاله أن تذكر وصفا من الاوصاف وتقرنه بما

يقرب منه ويلتئم به فان ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قدحا في الصناعة وان كان جائزا (فن ذلك) قول الكميت

أم هل ظعائن بالعلياء رافعة * وان تكامل فيها الدل والشنب

فان الدل يذكر مع الغنج وما أشبهه والشنب يذكر مع اللعس وما أشبهه وهذا موضع يغلط فيه أرباب النظم والنثر كثيرا وهو مظنة الغلط لانه يحتاج الى ثاقب فكرة وحذق بحيث توضع المعانى مع أخواتها لا مع الاجنبي منها (وقرأت فى كتاب الاغانى لابى الفرج) انه اجتمع نصيب والكميت وذو الرمة فأنشد الكميت أم هل ظعائن البيت فعقد نصيب واحدة فقال له الكميت ماذا تحصى قال خطأك فانك تباعدت فى القول أين الدل من الشنب ألا قلت كما قال ذو الرمة

لمياء فى شفتيها حوة لعس * وفى اللثات وفى أنيابها شنب

ورأيت أبانواس يقع فى ذلك كثيرا كقوله فى وصف الديك

له اعتدال وانتصاب قد * وجلده يشبه وشى البرد

كأنها الهداب فى الفرند * محدودب الظهر كريم الجد

فانه ذكر الظهر وقرنه بذكر الجد وهذا لا يناسب هذا لان الظهر من جملة الخلق والجد من النسب وكان ينبغى أن يذكر مع الظهر ما يقرب منه ويواخيه أيضا وكذلك أخطأ أبو نواس فى قوله

وقد حلفت يمينا * مبرورة لا تكذب * برب زمزم والحوض * والصفا والمحصب

فان ذكر الحوض مع زمزم والصفا والمحصب غير مناسب وانما يذكر الحوض مع الصراط والميزان وما جرى مجراهما وأما زمزم والصفا والمحصب فيذكر معها الركن والحطيم وما جرى مجراهما (وعلى هذا الاسلوب) ورد قوله أيضا

أحسن من منزل بذى قار * منزل خمارة وخمار

وشم ريحانة ونرجسة * أحسن من أينق بأكوار

فالبيت الثانى لا مقارنة بين صدره وعجزه وأين شم الريحان من الاينق بالاكوار وكان ينبغى له أن يقول شم الريحان أحسن من شم الشيح والقيصوم وركوب القينات الرود أحسن من ركوب الاينق بالاكوار وكل هذا لا يتفطن لوضعه فى مواضعه فى كل الاوقات وقد كان يغلب على السهو فى بعض الاحوال حتى أسلك هذه الطريق فى وضع المعانى مع غير أنسابها وأقاربها ثم انى كنت

تأمّل ما صنعته بعد حين فأصلح ما سهوت عنه (وأمّا المواخاة بين المباني) فانه يتعلق بمباني الالفاظ (فمن ذلك) قول أبي تمام في وصف الرماح

مثقفات سلبن العرب سمرتها * والروم زرقتها والعاشق القضفا

وهذا البيت من أبيات أبي تمام الافراد غير أن فيه نظرا وهو قوله العرب والروم ثم قال العاشق ولو صح أن يقول العشاق لكان أحسن اذ كانت الاوصاف تجرى على واحد وكذلك قوله سمرتها وزرقتها ثم قال القضفا وكان ينبغي أن يقول قضفها أو دقتها (وعلى هذا) ورد قول مسلم بن الوليد

تقضت بك الاحلاس نقض اقامة * واسترجعت نزاعها الامصار

فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة * يثني عليها السهل والاوعار

والاحسن أن يقال السهل والوعر أو السهول والاوعار ليكون البناء اللفظي واحدا أي أن يكون اللفظان واردين على صيغة الجمع أو الافراد ولا يكون أحدهما مجموعا والآخر مفردا وكذلك ورد قول أبي نواس في الخمر

صفراء مجدها مرازبها * جلت عن النظراء والمثل

فجمع وأفرد في معنى واحد وهو أنه قال النظراء مجموعا ثم قال المثل مفردا وكان الاحسن أن يقول النظير والمثل أو النظراء والامثال وعلى ذلك ورد قوله أيضا والانكار يتوجه فيه أكثر من الاوّل وهو

ألا يا ابن الذين فنوا فماتوا * أما والله ما ماتوا لتبقى

ومالك فاعلم فيها مقام * اذا استكملت آجالا ورزقا

وموضع الانكار ههنا أنه قال آجالا ورزقا وكان ينبغي أن يقول أرزاقا وأن يقول أجلا ورزقا وقد زاده انكارا أنه جمع الاجل فقال آجالا والانسان ليس له الا أجل واحد ولو قال أجلا وأرزاقا لكان أصوب لان الاجل واحد والارزاق كثيرة لاختلاف ضروبها وأجناسها واذا أنصفنا في هذا الموضع وجدنا الناثر مطالبا به دون الناظم لمكان امكانه من التصرّف (وقد كنت) أرى هذا الضرب من الكلام واجبا في الاستعمال وأنه لا يحسن الحيد عنه حتى تربى في القرآن الكريم ما يخالفه كقوله تعالى في سورة النحل أولم يروا الى ما خلق الله من شئ يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل ولو كان الاحسن لزوم البناء اللفظي على سنن واحد لجمع اليمين كما جمع الشمال أو أفرد الشمال كما أفرد

اليمين

المبين وكذلك ورد قوله تعالى أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون فجمع القلوب والابصار وأفرد السمع وكذلك ورد قوله تعالى حتى اذا ماجاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم فذكر السمع بلفظ الافراد وذكر الابصار والجلود بلفظ الجمع وفى القرآن الكريم مواضع كثيرة هكذا ولو كان هذا معتبرا فى الاستعمال لورد فى كلام الله تعالى الذى هو أفصح من كل كلام والاخذ فى مقام الفصاحة والبلاغة انما يكون منه والمعوّل عليه وما ينبغى أن يقاس على هذا قوله تعالى وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوّآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين وربما قيل ان هذه الآية اشتملت على تثنية وجمع وافراد وظن أنها من هذا الباب وليس كذلك لانها مشتملة على خطاب موسى وهرون عليهما السلام أولا فى اتخاذ المساجد لقومهما ثم ثنى الخطاب لهما ولقومهما جميعا ثم أفرد موسى عليه السلام ببشارة المؤمنين لانه صاحب الرسالة (الضرب الثانى فى مقابلة الشئ بمثله وهو يتفرع الى فرعين أحدهما) مقابلة المفرد بالمفرد (والآخر) مقابلة الجملة بالجملة (الفرع الاول) كقوله تعالى نسوا الله فنسيهم وكقوله تعالى ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وقد روعى هذا الموضع فى القرآن الكريم كثيرا فاذا ورد فى صدر آية من الآيات ما يحتاج الى جواب كان جوابه مماثلا كقوله تعالى من كفر فعليه كفره وكقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وهذا هو الاحسن والا فلو قيل من كفر فعليه ذنبه كان ذلك جائزا لكن الاحسن هو ما ورد فى كتاب الله تعالى وعليه مدار الاستعمال وهذا الحكم يجرى فى النظم والنثر من الاسجاع والابيات الشعرية فأما ان كان ذلك غير جواب فانه لا يلتزم فيه هذه المراعاة اللفظية ألا ترى أنه قد قوبلت الكلمة بكلمة هى فى معناها وان لم تكن مساوية لها فى اللفظ وهذا يقع فى الالفاظ المترادفة ولذا يستعمل ذلك فى الموضع الذى ترد فيه الكلمة غير جواب (فمما جاء منه) قوله تعالى ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ولو كان لا تورد الكلمة الامثلا لقيل وهو أعلم بما تعملون وكذلك قوله تعالى وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوّروا المحراب اذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فقال لا تخف بعد قوله ففزع ولما كان هذا

بل أحدهما بالآخر ولم يقابل اللفظ بنفسه وكذلك جاء قوله تعالى ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن فذكر الاستهزاء الذى هو فى معنى الخوض واللعب وقابل به الخوض واللعب ولو ذكره على حد المماثلة والمساواة لقال أفى الله وآياته ورسوله كنتم تخوضون وتلعبون (فان قيل) انك قد احتججت بالقرآن الكريم فيما ذكرته ونرى قد ورد فى القرآن الكريم ما ينقضه كقوله تعالى والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ولم يقل بجزاء سيئة سيئة مثلها (الجواب عن ذلك) أنى أقول أردت أن تنقض على ما ذكرته فلم تنقضه ولكنك شيدته والذى ذكرته هو دليل لى لا لك ألا ترى أنه لا فرق بين قوله تعالى جزاء سيئة بمثلها وبين قوله جزاء سيئة سيئة مثلها اذ المعنى واحد لا يختلف ولو جاء عوضا عن السيئة لفظة أخرى فى معناها كالأذى والسوء أو ما جرى مجراهما لصح لك ما ذهبت اليه وقد ذهب بعض المتصدرين فى علم البيان أنه اذا ذكرت اللفظة فى أول كلام يحتاج الى تمام وان لم يكن جوابا كالذى تقدم فينبغى أن تعاد بعينها فى آخره ومتى عدل عن ذلك كان معيبا ثم مثل ذلك بقول أبى تمام وقول أبى الطيب المتنبى فقال ان أبا تمام أخطأ فى قوله

بسط الرجاء لنا برغم نوائب * كثرت بهن مصارع الآمال

حيث ذكر الرجاء فى صدر البيت فكان ينبغى أن يعيد ذكره أيضا فى عجزه أو كان ذكر الآمال فى صدر البيت وعجزه وكذلك أخطأ أبو الطيب المتنبى فى قوله

انى لأعلم واللبيب خبير * ان الحياة وان حرصت غرور

فانه قال انى لأعلم واللبيب خبير وكان ينبغى أن يقول انى لأعلم واللبيب عليم ليكون ذلك تقابلا صحيحا وهذا الذى ذكره هذا الرجل ليس بشئ بل المعتمد عليه فى هذا الباب أنه اذا كانت اللفظة فى معنى أختها جاز استعمالها فى المقابلة بينهما والدليل على ذلك ما قدمناه من آيات القرآن الكريم وكفى به دليلا وهذه الرموز التى هى أسرار الكلام لا يتفطن لاستعمالها الا أحد رجلين اما فقيه فى علم البيان قد مارسه واما مشقوق اللسان فى الفصاحة قد خلق عارفا بلطائفها مستغنيا عن مطالعة صحائفها وهذا لا يكون الا عربى الفطرة يقول ما يقوله طبعا على أنه لا يسدد فى جميع أقواله ما لم تكن معرفته الفطرية ممزوجة بمعرفته العرفية

(الفرع

(الفرع الثاني في مقابلة الجملة بالجملة) اعلم أنه اذا كانت الجملة من الكلام مستقبلة قوبلت بمستقبلة وان كانت ماضية قوبلت بماضية وربما قوبلت الماضية بالمستقبلة والمستقبلة بالماضية اذا كانت احداهما في معنى الاخرى (فمن ذلك) قوله تعالى قل ان ضللت فانما أضل على نفسي وان اهتديت فبما يوحي الي ربي فان هذا تقابل من جهة المعنى ولو كان التقابل من جهة اللفظ لقال وان اهتديت فانما اهتدي لها وبيان تقابل هذا الكلام من جهة المعنى هو أن النفس كل ما عليها فهو بها أعني أن كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بسببها ومنها لانها الامارة بالسوء وكل ما هو لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه اياها وهذا حكم عام لكل مكلف وانما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسند ذلك الى نفسه لان الرسول اذا دخل تحته مع علو محله وسداد طريقته كان غيره أولى به (ومن هذا الضرب) قوله تعالى ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا فانه لم يراع التقابل في قوله ليسكنوا فيه ومبصرا لان القياس يقتضي أن يكون والنهار لتبصروا فيه وانما هو مراعى من جهة المعنى لا من جهة اللفظ وهذا النظم المطبوع غير المتكلف لان معنى قوله مبصرا لتبصروا فيه طرق التقلب في الحاجات (واعلم) أن في تقابل المعاني بابا عجيب الامر يحتاج الى فضل تأمل وزيادة نظر وهو يختص بالفواصل من الكلام المنثور وبالاعجاز من الابيات الشعرية (فمما جاء من ذلك) قوله تعالى في ذم المنافقين واذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون وقوله تعالى واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ألا ترى كيف فصل الآية الاخرى بيعلمون والآية التي قبلها بيشعرون وانما فعل ذلك لان أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج الى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر العلم والمعرفة بذلك وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدي الى الفتنة والفساد في الارض فأمر دنيوي مبني على العادات معلوم عند الناس خصوصا عند العرب وما كان فيهم من التحارب والتغاور فهو كالمحسوس عندهم فلذلك قال فيه يشعرون وأيضا فانه لما ذكر السفه في الآية الاخيرة وهو جهل كان ذكر العلم معه أحسن طباقا فقال لا يعلمون وآيات

القرآن جميعها فصلت هكذا كقوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير وكقوله له ما فى السموات وما فى الارض وان الله لهو الغنى الحميد وكقوله ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الارض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه ان الله بالناس لرؤف رحيم فانه انما فصلت الآية الاولى بلطيف خبير لان ذلك فى موضع الرحمة لخلقه بانزال الغيث وغيره وأما الآية الثانية فانما فصلت بغنى حميد لانه قال له ما فى السموات وما فى الارض لا لحاجة بل هو غنى عنها جواد بها لانه ليس كل غنى نافعا بغناه الا اذا كان جوادا منعما واذا جاد وأنعم حمده المنعم عليه واستحق عليه الحمد فذكر الحميد ليدل على أنه الغنى النافع بغناه خلقه وأما الآية الثالثة فانما فصلت برؤف رحيم لانه لما عدد للناس ما أنعم به عليهم من تسخير ما فى الارض لهم واجراء الفلك فى البحر بهم وتسييرهم فى ذلك الهول العظيم وخلقه السماء فوقهم وامساكه اياها عن الوقوع حسن أن يفصل ذلك بقوله رؤف رحيم أى ان هذا الفعل فعل رؤف بكم رحيم لكم (واعلم) أيها المتأمل لكتابنا هذا انه قلما توجد هذه الملاءمة والمناسبة فى كلام ناظم أو ناثر ومن الآيات ما يشكل فاصلته فيحتاج الى فكرة وتأمل كقوله تعالى والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم فانه قد وردت الفاصلة فى غير هذا الموضع بتواب رحيم ويظن الظان أن هذا كذلك ويقول ان التوبة مع الرحمة لا مع الحكمة وليس كما يظن بل الفاصلة بتواب حكيم أولى من تواب رحيم لان الله عز وجل حكم بالتلاعن على الصورة التى أمر بها وأراد بذلك ستر هذه الفاحشة على عباده وذلك حكمة منه ففصلت الآية الواردة فى آخر الآيات بتواب حكيم فجمع فيها بين التوبة المرجوة من صاحب المعصية وبين الحكمة فى سترها على تلك الصورة وهذا الباب ليس فى علم البيان أكثر منه نفعا ولا أعظم فائدة (ومما جاء من هذا الباب) قول أبى الطيب المتنبى

وقفت وما فى الموت شك لواقف * كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة * ووجهك وضاح وثغرك باسم

وقد أوخذ على ذلك وقيل لو جعل آخر البيت الاول آخر البيت الثانى وآخر البيت الثانى آخر البيت الاول لكان أولى ولذلك حكاية وهى أنه لما استنشده سيف الدولة يوما قصيدته التى أولها * على قدر أهل العزم تأتى العزائم * فلما بلغ الى هذين البيتين قال قد انتقدتهما عليك كما انتقد على امرئ القيس قوله

كأنى لم أركب جوادا للذة * ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل * لخيلى كرى كرة بعد اجفال

فبيتاك لم يلتئم شطراهما كما لم يلتئم شطرا بيتى امرئ القيس وكان ينبغى لك أن تقول

وقفت وما فى الموت شك لواقف * ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة * كأنك فى جفن الردى وهو نائم

فقال المتنبى ان صح أن الذى استدرك على امرئ القيس هذا أعلم بالشعر منه فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك لان البزاز يعرف جملته والحائك يعرف تفاصيله وانما قرن امرؤ القيس النساء بلذة الركوب للصيد وقرن السماحة بسباء الخمر للاضياف بالشجاعة فى منازلة الاعداء وكذلك لما ذكرت الموت فى صدر البيت الاول أتبعته بذكر الردى فى آخره ليكون أحسن تلاؤما ولما كان وجه المنهزم الجريح عبوسا وعينه باكية قلت ووجهك وضاح وثغرك باسم لاجمع بين الاضداد

(القسم الثانى فى صحة التقسيم وفساده) ولسنا نريد بذلك ههنا ما تقتضيه القسمة العقلية كما يذهب اليه المتكلمون فان ذلك يقتضى أشياء مستحيلة كقولهم الجواهر لا تخلو اما أن تكون مجتمعة أو مفترقة أو لا مجتمعة ولا مفترقة أو مجتمعة ومفترقة معا أو بعضها مجتمعة وبعضها مفترقة ألا ترى أن هذه القسمة صحيحة من حيث العقل لاستيفاء الاقسام جميعها وان كان من جملتها ما يستحيل وجوده وانما نريد بالتقسيم ههنا ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسم واحد واذا ذكرت قام كل قسم منها بنفسه ولم يشارك غيره فتارة يكون التقسيم بلفظة اما وتارة بلفظة بين كقولنا بين كذا وكذا وتارة منهم كقولنا منهم كذا ومنهم كذا وتارة بأن يذكر العدد المراد أولا بالذكر ثم يقسم كقولنا

فانشعب القوم شعبا أربعة فشعبة ذهبت يمينا وشعبة ذهبت شمالا وشعبة وقفت بمكانها وشعبة رجعت الى ورائها (فمما جاء من هذا القسم) قوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات وهذه قسمة صحيحة فانه لا يخلو أقسام العباد من هذه الثلاثة فاما عاص ظالم لنفسه واما مطيع مبادر الى الخيرات واما مقتصد بينهما (ومن ذلك) أيضا قوله تعالى وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون وهذه الآية منطبقة المعنى على الآية التي قبلها فأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم وأصحاب الميمنة هم المقتصدون والسابقون هم السابقون بالخيرات (وعلى نحو من ذلك) جاء قوله تعالى هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا فان الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع وليس لنا قسم ثالث (فان قيل) ان استيفاء الاقسام ليس شرطا وترك بعض الاقسام لا يقدح في الكلام وقد ورد في القرآن الكريم كقوله تعالى لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون فذكر أصحاب الجنة دون أصحاب النار (فالجواب عن ذلك) أني أقول هذا لا ينقض على ما ذكرته فان استيفاء الاقسام يلزم فيما استبهم الاجمال فيه ألا ترى الى قوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم فانه حيث قال فمنهم لزم استيفاء الاقسام الثلاثة ولو اقتصر على قسمين منها لم يجز وأما هذه الآية التي هي لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة فانه انما خص أصحاب الجنة بالذكر للعلم بأن أصحاب النار لا فوز لهم ولو خص أصحاب النار بالذكر لعلم أيضا ما لأصحاب الجنة وكذلك كل ما يجري هذا المجرى فانه انما ينظر فيه الى المستبهم وغير المستبهم فاعرفه وكان جماعة من أرباب هذه الصناعة يعجبون بقول بعض الاعراب ويزعمون أن ذلك من أصح التقسيمات وهو قولهم النعم ثلاثة نعمة في حال كونها ونعمة ترجى مستقبلة ونعمة تأتي غير محتسبة فأبقى الله عليك ما أنت فيه وحقق ظنك فيما ترتجيه وتفضل عليك بما لم تحتسبه وهذا القول فاسد فان في أقسام النعم التي قسمها نقصا لا بد منه وزيادة لا حاجة اليها فأما النقص فاغفال النعمة الماضية وأما الزيادة فقوله بعد المستقبلة ونعمة تأتي غير محتسبة لان النعمة التي تأتي غير محتسبة داخلة في قسم النعمة

المستقبلة

المستقبلة وذلك أن النعمة المستقبلة تنقسم قسمين أحدهما يرجى حصوله والآخر لا يحتسب فقوله ونعمة تأتي غير محتسبة يوهم أن هذا القسم غير المستقبل وهو داخل فيه وعلى هذا فكان ينبغي له أن يقول النعم ثلاث نعمة ماضية ونعمة في حال كونها ونعمة تأتي مستقبلة فأحسن الله آثار النعمة الماضية وأبقى عليك النعمة التي أنت فيها ووفر حظك من النعمة التي تستقبلها ألا تراه لو قال ذلك لكان قد طبق به مفصل الصواب وقد استوفى أبو تمام هذا المعنى في قوله

جمعت لنا فرق الاماني منكم * بابر من روح الحياة وأوصل

فصنيعة في يومها وصنيعة * قد أحولت وصنيعة لم تحول

كالمزن من ماضي الرباب ومقبل * متنظر ومخيم متهلل

(ووقف أعرابي) على مجلس الحسن البصري رضي الله عنه فقال رحم الله عبدا أعطى من سعة أو آسى من كفاف أو آثر من قلة فقال الحسن البصري ما ترك لأحد عذرا (وقد عاب) أبو هلال العسكري على جميل قوله

لو كان في قلبي كقدر قلامة * حبا وصلتك أو أتتك رسائلي

فقال أبو هلال ان اتيان الرسائل داخل في جملة الوصل وليس الامر كما وقع له فان جميلا انما أراد بقوله وصلتك أي أتيتك زائرا وقاصدا أو كنت راسلتك مراسلة والوصل لا يخرج عن هذين الوصفين اما زيارة واما رسالة (ومن أعجب ما وجدته في هذا الباب) ما ذكره أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي وهو قول العباس بن الاحنف

وصالكم هجر وحبكم قلا * وعطفكم صد وسلمكم حرب

ثم قال الغانمي هذا والله أصح من تقسيمات اقليدس ويالله العجب أين التقسيم من هذا البيت هذا والله في واد والتقسيم في واد ألا ترى أنه لم يذكر شيأ تحصره القسمة وانما ذم أحبابه في سوء صنيعهم به فذكر بعض أحواله معهم ولو قال أيضا

ولينكم عنف وقربكم نوى * واعطاؤكم منع وصدقكم كذب

لكان هذا جائزا وكذلك لو زاد بيتا آخر لجاز ولو أنه تقسيم لما احتمل زيادة والاولى أن يضاف هذا البيت الذي ذكره الغانمي الى باب المقابلة فانه أولى به لانه قابل الوصل بالهجر والعطف بالصد والسلم بالحرب (ومن فساد التقسيم)

قول البحترى فى قصيدته التى مطلعها * ذاك وادى الاراك فاحبس قليلا * فقال

قف مشوقا أو مسعدا أو حزينا * أو معينا أو عاذرا أو عذولا

فان المشوق يكون حزينا والمسعد يكون معينا وكذلك يكون المسعد عاذرا وكثيرا ما يقع البحترى فى مثل ذلك وكذلك ورد قول أبى الطيب المتنبى وهو

فانغر فان الناس فيك ثلاثة * مستعظم أو حاسد أو جاهل

فان المستعظم يكون حاسدا والحاسد يكون مستعظما (ومن شرط التقسيم) أن لا تتداخل أقسامه بعضها فى بعض (ومن هذا الاسلوب) ما ورد فى أبيات الحماسة وهو

وكنت امرأ اما ائتمنتك خاليا * فخنت واما قلت قولا بلا علم

فأنت من الامر الذى قد أتيته * بمنزلة بين الخيانة والاثم

فان الخيانة من الاثم وهذا تقسيم فاسد (ومما جاء من ذلك نثرا) قول بعضهم فى ذكر منهزمين فمن جريح متضرج بدمائه وهارب لا يلتفت الى ورائه فان الجريح قد يكون هاربا والهارب قد يكون جريحا ولو قال فمن بين قتيل ومأسور وناج لصح له التقسيم أو لو قال فمن بين قتيل ومأسور لصح له التقسيم أيضا لعدم الناجى بينهما وقد أحسن البحترى فى هذا المعنى حيث قال

غادرتهم أيدى المنية صبحا * بالقنا بين ركع وسجود

فهم فرقتان بين قتيل * قنصت منه بجدا الحديد

أو أسير غدا له السجن لحدا * فهو حى فى حالة الملحود

فرقة للسيوف ينفذ فيها الحكم قصدا وفرقة للقيود

(ومن فساد التقسيم) قول أبى تمام

وموقف بين حكم الذل منقطع * صاليه أو بحبال الموت متصل

فانه جعل صالى هذا الموقف اما ذليلا عنه أو هالكا فيه وههنا قسم ثالث وهو أن لا يكون ذليلا ولا هالكا بل يكون مقدما فيه ناجيا وفى هذا نظر على من ادعى فساد تقسيمه فان أبا تمام قصد الغلو فى وصف هذا الموقف فقال ان الناس فيه أحد رجلين اما ذليل عن مورده واما هالك فيه أى أنه لا ينجو منه أحد يرده وهذا تقسيم صحيح لا فساد فيه (القسم الثالث فى ترتيب التفسير وما يصح من ذلك وما يفسد) اعلم أن صحة الترتيب فى ذلك أن يذكر فى الكلام معان مختلفة

فاذا

فاذا عيد اليها بالذكر لتفسير قدم المقدم وأخر المؤخر وهو الاحسن الا أنه قد ورد في القرآن الكريم وغيره من الكلام الفصيح ولم يراع فيه تقديم المقدم ولا تأخير المؤخر كقوله تعالى أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء ان في ذلك لآية لكل عبد منيب ولو قدم تفسير المقدم في هذه الآية وأخر تفسير المؤخر لقيل ان نشأ نسقط عليهم كسفا من السماء أو نخسف بهم الارض وكذلك ورد قوله تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم فقدم المؤخر وأخر المقدم والقسمان قد وردا جميعا في القرآن الكريم (فمما روعي فيه تقديم المقدم وتأخير المؤخر) قوله تعالى وما نؤخره الا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقي وسعيد فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ (ومن ذلك) قوله تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة (وكذلك) قوله تعالى ومن رحمته جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ولتبتغوا من فضله فلما قدم الليل في الذكر على النهار قدم سبب الليل وهو السكون على سبب النهار وهو التعيش (ومن ذلك) ما كتبته في كتاب تعزية وهو فصل منه فقلت ولقد أوحشت منه المعالي كما أوحشت المنازل وآمت المكارم كما آمت الحلائل وعمت لوعة خطبه فما تشكى الا الى ثاكل وما أقول فمن عدمت الارض منه حياها والمحامد محياها فلو نطق الجماد بلسان أو تصور المعنى لعيان لاعربت تلك عن ظما صعيدها وبرزت هذه حاسرة حول فقيدها (ومن ذلك) ما كتبته في فصل من كتاب الى بعض الاخوان فقلت وما زالت أيادي سيدنا متنوعة في زيادة جودها وكثابها فهذه متطولة بترقية وردها وهذه آخذة بسنة اغبابها وأحسن ما في الاولى أنها تأتي متحلية بفواضل الاكثار وفي الثانية أنها تلقى متحلية بفضائل الاختصار فاختصار هذه في فوائد أقلامها كتطويل تلك في عوائد انعامها وقد أصبحت

خواطرى مستغرقة بانشاء القول المبتكر في شكر الفضل المطوّل وجواب البيان المختصر وما جعل الله لها من سلطان البلاغة ما يستقلّ بأداء حقوق تنقل على الرقاب ومقابلة بلاغات تنتقل على الالباب (ومما جاء من ذلك) شعرا قول ابراهيم بن العباس

لنا ابل كوم يضيق بها الفضا * ويفترعنها أرضها وسماؤها
فمن دونها أن تستباح دماؤنا * ومن دوننا أن تستباح دماؤها
حمى وقرى فالموت دون مرامها * وأيسر خطب يوم حق فناؤها

وهذه الابيات من نادر ما يجىء فى هذا الباب معنى وترتيب تفسير ومما جاء منه أيضا قول أبى تمام

وما هو الا الوحى أو حدّ مرهف * تميل ظباه أخدعى كل مائل
فهذا دواء الداء من كل عالم * وهذا دواء الداء من كل جاهل

وكذلك قوله أيضا

وكان لهم غيثا وعلما لمعدم * فيسأله أو باحث فيسائله

وهذا من بديع ما يأتى فى هذا الباب ومما ورد منه قول على بن جبلة

فتى وقف الايام بالسخط والرضا * على بذل عرف أو على حدّ منصل

ومن الحسن فى هذا الباب قول أبى نواس

يرجو ويخشى حالتيك الورى * كأنك الجنة والنار

وكذلك ورد قول بعض المتأخرين وهو القاضى الارّجانى

يوم المتيم فيك حول كامل * يتعاقب الفصلان فيه اذا أتى
ما بين حرّ جوى وماء مدامع * ان حنّ صاف وان بكى وجدا اشتا

ومما أخذ على الفرزدق فى هذا الباب قوله

لقد جئت قوما لو لجأت اليهم * طريد دم أو حاملا ثقل مغرم
لألفيت منهم معطيا أو مطاعنا * وراءك شزرا بالوشيج المقوّم

لانه أصاب فى التفسير وأخطأ فى الترتيب وذلك أنه أتى بتفسير ما هو أوّل فى البيت الاوّل ثانيا فى البيت الثانى والاولى أن كان أتى بتفسير ذلك مرتبا فتفسر ما هو أوّل فى البيت الاوّل بما هو ثان فى البيت الثانى واعلم أنّ الناظم لا ينكر عليه مثل هذا ما ينكر على الناثر لانّ الناظم يضطره الوزن والقافية

الى

الى تركه الاولى (وأما فساد التفسير) فانه أقبح من فساد ترتيبه وذلك أن يؤتى بكلام ثم يفسر تفسيرا لا يناسبه وهو عيب لا تسامح فيه بحال وذلك كقول بعضهم

فيا أيها الحيران فى ظلمة الدجى * ومن خاف أن يلقاه بغى من العدا

تعال اليه تلق من نور وجهه * ضياء ومن كفيه بحرا من الندى

وكان يجب لهذا الشاعر أن يقول بازاء بغى العدا ما يناسبه من النصرة والاعانة أو ما جرى مجراهما ليكون ذلك تفسيرا له كما جعل بازاء الظلمة الضياء وفسرها به وأما ان جعل بازاء ما يتخوف منه بحرا من الندى فان ذلك غير لائق (النوع الخامس والعشرون فى الاقتصاد والتفريط والافراط) اعلم أن هذه المعانى الثلاثة من الاقتصاد والتفريط والافراط توجد فى كل شئ من علم وصناعة وخلق ولا بد لنا من ذكر حقيقتها فى أصل اللغة حتى يتبين نقلها الى هذا النوع من الكلام فأما الاقتصاد فى الشئ فهو من القصد الذى هو الوقوف على الوسط الذى لا يميل الى أحد الطرفين قال الله تعالى فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فظلم النفس والسبق بالخيرات طرفان والاقتصاد وسط بينهما وقال تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فالاسراف والاقتار طرفان والقوام وسط بينهما وقال الشاعر

عليك بالقصد فيما أنت فاعله * ان التخلق يأتى دونه الخلق

وأما التفريط فهو التقصير والتضييع ولهذا قال الله تعالى ما فرطنا فى الكتاب من شئ أى ما أهملنا ولا ضيعنا وأما الافراط فهو الاسراف وتجاوز الحد يقال أفرط فى الشئ اذا أسرف وتجاوز الحد والتفريط والافراط هما الطرفان البعيدان والاقتصاد هو الوسط المعتدل وقد نقلت هذه المعانى الثلاثة الى هذا النوع من علم البيان وأما الاقتصاد فهو أن يكون المعنى المضمر فى العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه فى منزلته وأما التفريط والافراط فهما ضدان أحدهما أن يكون المعنى المضمر فى العبارة دون ما تقتضيه منزلة المعبر عنه والآخر أن يكون المعنى فوق منزلته والتفريط فى ايراد المعانى الخطابية قبيح لا يجوز استعماله بوجه من الوجوه والافراط يجوز استعماله فمنه الحسن ومنه دون ذلك (فمما جاء من التفريط) قول الاعشى

وما مزبد من خليج الفرا * ت جون غواربه تلتطم

الاقتصاد والتفريط والافراط

بأجود منه بماعونه * اذا ما سماؤهم لم تغم

فانه مدح ملكا بالجود بماعونه والماعون كل ما يستعار من قدوم أو قصعة أو قدر أو ما أشبه ذلك وليس للملوك في بذله مدح ولا لأوساط الناس أيضا وفي مدح السوقة به قولان ومدح الملوك به عيب وذم فاحش وهذا من أقبح التفريط ومما يجري هذا المجرى قول الفرزدق

ألا ليتنا كنا بعيرين لا نرد * على حاضر الا نشل ونقذف

كلانا به عر يخاف قرافه * على الناس مطلي المشاعر أخشف

هذا رجل ذهب عقله حين نظم هذين البيتين فان مراده منهما التغزل بمحبوبه وقد قصر تمنيه على أن يكون هو ومحبوبه كبعيرين أجربين لا يقربهما أحد ولا يقربان أحدا الا طردهما وهذا من الاماني السخيفة وله في غير هذه الامنية مندوحات كثيرة وما أشبه هذا بقول القائل

يارب ان قدرته لمقبل * غيري فللاقداح أو للاكؤس

واذا حكمت لنا بعين مراقب * في الدهر فلتك من عيون النرجس

فانظر كم بين هاتين الامنيتين (ومما أخذ على أبي نواس) في قصيدته الميمية الموصوفة التي مدح بها الامين محمد بن الرشيد وهو قوله

أصبحت يا ابن زبيدة ابنة جعفر * أملا لعقد حباله استحكام

فان ذكر أم الخليفة في مثل هذا الموضع قبيح وكذلك قوله في موضع آخر

وليس كجدتيه أم موسى * اذا نسبت ولا كالخيزران

وهذا القول من الحديث لا فائدة فيه فان شرف الانساب انما هو الى الرجال لا الى النساء وياليت شعري أما سمع أبو نواس قول قتيلة بنت النضر في النبي صلى الله عليه وسلم

أمحمد ولانت نجل كريمة * من قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما * من الفتى وهو المغيظ المحنق

فانها ذكرت الام بغير اسم الام وأبرزت هذا الكلام في هذا اللباس الانيق وكذلك فليكن المادح اذا مدح وأبو نواس مع لطافة طبعه وذكائه وما كان يوصف به من الفطنة قد ذهب عليه مثل هذا الموضع مع ظهوره وليس لقائل أن يعترض على ما ذكرته بقوله تعالى حكاية عن موسى وأخيه هرون عليهما

السلام

السلام قال يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي فانّ الفرق بين الموضعين ظاهر لانّ المنكر على أبي نواس انما هو التلفظ باسم الامّ وهي زبيدة وكذلك اسم الجدّة وهي الخيزران وليس كذلك ما ورد في الآية (فان قيل) قد ورد في القرآن الكريم ما يسوّغ لأبي نواس مقالته وهو قوله تعالى اذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي الهين من دون الله فناداه باسم أمّه قلت الجواب عن ذلك من وجهين أحدهما أنّ عيسى عليه السلام لم يكن له أب فنودي باسم أمّه ضرورة اذ لو كان له أب لنودي باسم أبيه الوجه الآخر أنّ هذا النداء انما هو من الاعلى الى الادنى اذ الله سبحانه وتعالى هو الربّ وعيسى عليه السلام عبده وهذا لا يكون تفريطا لانه لم يعبر عنه بما هو دون منزلته على أنّ أبا نواس لم يوقعه في هذه العثرة الا ما سمعه عن جرير في مدح عمر بن عبد العزيز كقوله

وتبني المجد يا عمر بن ليلى * وتكفي الممحل السنة الجمادا

وكذلك قال فيه كثير عزة أيضا وليس المعيب من هذا بخاف فانّ العرب قد كان يعير بعضها بعضا بنسبته الى أمّه دون أبيه ألا ترى أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقال له ابن حنتمة وانما كان يقول ذلك من يغض منه وأمّا قول النبيّ صلى الله عليه وسلم للزبير بن صفية بشر قاتل ابن صفية بالنار فانّ صفية كانت عمة النبيّ صلى الله عليه وسلم وانما نسبه اليها رفعا لقدره في قرب نسبه منه وأنه ابن عمته وليس هذا كالاول في الغض من عمر رضي الله عنه في نسبه الى أمّه (وقد عاب بعض من يتهم نفسه بالمعرفة) قول أبي نواس في قصيدته السينية التي أولها * نبه نديمك قد نعس * فقال من جملتها

ورث الخلافة خامسا * وبخير سادسهم سدس

قال وفي ذكر السادس نظر ويا عجبا له مع معرفته بالشعر كيف ذهب عليه هذا الموضع أما قرأ سورة الكهف يريد قوله تعالى ويقولون خمسة سادسهم كلبهم وهذا ليس بشيء لانه قد ورد في القرآن الكريم ما ينقضه وهو قوله تعالى ألم تر أنّ الله يعلم ما في السموات وما في الارض ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم (ومما عبته على البحتري) قوله في مدح الفتح بن خاقان في قصيدته المشهورة عند لقائه الاسد التي مطلعها

أجدك ما ينفك يسرى لزينبا * فقال

شهدت لقد أنصفته حين تبترى * له مصلتا عضبا من البيض مقضبا
فلم أر ضرغامين أصدق منكما * عراكا اذا الهيابة النكس كذبا

قوله اذا الهيابة النكس تفريط فى المدح بل كان الاولى أن يقول اذا البطل كذب والا فأى مدح فى اقدام المقدم فى الموضع الذى يفر منه الجبان والا كما قال أبو تمام

فتى كلما ارتاد الشجاع من الردى * مفرا غداة المارق ارتاد مصرعا

وعلى أسلوب البحترى ورد قول بعضهم من شعراء الحماسة

وانى لقوّال لعافى مرحبا * وللطالب المعروف انك واجده
وانى لممن أبسط الكف بالندى * اذا شنجت كف البخيل وساعده

وهذا معيب من جهة أنه لا فضل فى بسط يده عند قبض يد البخيل وانما الفضيلة فى بسطها عند قبض الكرام أيديهم ومن هذا الباب قول أبى تمام

يقظ وهو أكثر الناس اغضا * ءعلى نائل له مسروق

فانه أراد أن يمدح فذم وعما هو أقبح من ذلك قوله أيضا

يتقى الحرب منه حين تغلى * مراجلها بشيطان رجيم

وقد استعمل هذا فى شعره حتى أفحش كقوله

أنت دلو وذو السماح أبو مو * سى قليب وأنت دلو القليب

ومراده من ذلك أنه جعله سببا للعطاء المشار اليه كما أن الدلو سبب فى امتياح الماء من القليب ولم يبلغ هذا المعنى من الاغراب الى حد يندت أبو تمام حوله هذه الدندنة ويلقيه فى هذا المثال السخيف على أنه لم يقنع بهذه السقطة القبيحة فى شعره بل أوردها فى مواضع أخرى منه فمن ذلك قوله

مازال يهذى بالمكارم والعلا * حتى ظننا أنه محموم

فانه أراد أن يبالغ فى ذكر الممدوح باللهج بالمكارم والعلا فقال مازال يهذى وما أعلم ما كانت حاله عند نظم هذا البيت وعلى نحو منه جاء قول بعض المتأخرين

ويلحقه عند المكارم هزة * كما انتفض المجهود من ألم ملدم

وهذا وأمثاله لا يجوز استعماله وان كان المعنى المقصود به حسنا وكم ممن يتأول معنى كريما فاساء فى التعبير عنه حتى صار مذموما كهذا وأمثاله ومن أحسن ماقيل فى مثل هذا الموضع قول ابن الرومى

ذهب

ذهب الذين تهزهم مداحهم * هز الكماة عوالى المرّان
كانوا اذا امدحوا رأوا مافيهم * فالاريحية منهم بمكان

ومن شاء أن يمدح فليمدح هكذا والا فليسكت (ووجدت) أبا بكر محمد بن يحيى المعروف بالصولى قد عاب على حسان بن ثابت رضى الله عنه قوله

لنا الجفنات الغرّ يلمعن فى الضحى * وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وقال انه جمع الجفنات والاسياف جمع قلة وهو فى مقام فخر وهذا مما يحط من المعنى و يضع منه وقد ذهب الى هذا غيره أيضا وليس بشئ لان الغرض انما هو الجمع فسواء أكان جمع قلة أم جمع كثرة و يدل على ذلك قوله تعالى ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم أفترى نعم الله أكانت قليلة على ابراهيم صلوات الله عليه وكذلك ورد قوله عز وجل فى سورة النمل وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات الى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فاسقين فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين فقال واستيقنتها أنفسهم فجمع النفس جمع قلة وما كان قوم فرعون بالقليل حتى تجمع نفوسهم جمع قلة بل كانوا مئين ألوفا وهذا أيضا مما يبطل قول الصولى وغيره فى مثل هذا الموضع وكذلك ورد قوله عز وجل الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها والنفوس المتوفاة والنائمة لا ينتهى الى كثرتها كثرة لانها نفوس كل من فى العالم (واعلم) أن للمدح ألفاظا تخصه وللذم ألفاظا تخصه وقد تعمق قوم فى ذلك حتى قالوا من الادب أن لا تخاطب الملوك ومن يقاربهم بكاف الخطاب وهذا غلط بارد فان الله الذى هو ملك الملوك قد خوطب بالكاف فى أول كتابه العزيز فقيل اياك نعبد واياك نستعين وقد ورد أمثال هذا فى مواضع من القرآن غير محصورة الا أنى قد راجعت نظرى فى ذلك فرأيت الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم والعوائد لا حكم لها ولا شك أن العادة أوجبت للناس مثل هذا التعمق فى ترك الخطاب بالكاف لكنى تأملت أدب الشعراء والكتاب فى هذا الموضع فوجدت الخطاب لا يعاب فى الشعر و يعاب فى الكتابة اذا كان المخاطب دون المخاطب درجة وأما ان كان فوقه فلا عيب فى خطابه اياه بالكاف لانه ليس

من التفريط في شيء فمن خطاب الكاف قول النابغة

وانك كالليل الذي هو مدركي * وان خلت أن المنتأى عنك واسع

(وكذلك قوله أيضا)

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب

وعليه جاء قول بعض المتأخرين أيضا فقال أبو نواس

اليك أبا المنصور عذبت ناقتى * زيارة خل واقتصان كريم

لاعلم ما يأتى وان كنت عالما * بأنك مهما تأت غير ملوم

وكذلك ورد قول السلامى

اليك طوى عرض البسيطة جاعل * قصارا المطايا أن يلوح لها القصر

وبشرت آمالى بملك هو الورى * ودار هى الدنيا ويوم هو الدهر

وعليه ورد قول البحترى

ولقد أتيتك طالبا فبسطت من * أملى وأطلب جود كفك مطلبى

وجل خطاب الشعراء للممدوحين انما هو بالكاف وذلك محظور على الكتاب فانه ليس من الادب عندهم أن يخاطب الادنى الاعلى بالكاف وانما يخاطبه مخاطبة الغائب لامخاطبة الحاضر على أن هذا الباب بجملته يوكل النظر فيه الى فطانة الخطيب والشاعر وليس مما يوقف فيه على المسموع خاصة (ومن ألطف ما وجدته) أنك اذا خاطبت الممدوح أن تترك الخطاب بالامر بأن تقول افعل كذا وكذا وتخرجه مخرج الاستفهام وهذا الاسلوب حسن جدا وعليه مسحة من جمال بل عليه الجمال كله (فمما جاء منه) قول البحترى فى قصيدة أولها * يودى لو يهوى العذول ويعشق * فقال منها

فهل أنت يا ابن الراشدين مختمى * بياقوتة تبهى على وتشرق

وهذا من الادب الحسن فى خطاب الخليفة فانه لم يخاطبه بأن قال ختمنى بياقوتة على سبيل الامر بل خاطبه على سبيل الاستفهام وقد أعجبنى هذا المذهب وحسن عندى وقد حذا حذو البحترى شاعر من شعراء عصرنا فقال فى مدح الخليفة الناصر لدين الله أبى العباس أحمد من قصيدة له على قافية الدال فقال من أبيات يصف بها قصيده

أمة ولة يا ابن الخلائف من فتى * لديك بوصفى غادة الشعر رودة

فقوله

فقوله أمقبولة من الادب الحسن الذى نسج فيه على منوال البحترى وهذا باب مفرد وهو باب الاستفهام فى الخطاب واذا كان الشاعر فطنا عالما بما يضعه من الالفاظ والمعانى تصرف فى هذا الباب بضروب التصرفات واستخرج من ذات نفسه شيأ لم يسبقه اليه أحد (واعلم) أن من المعانى مايعبر عنه بالفاظ متعددة ويكون المعنى المندرج تحتها واحدا فمن تلك الالفاظ مايليق استعماله بالمدح ومنها مايليق استعماله بالذم ولو كان هذا الامر يرجع الى المعنى فقط لكانت جميع الالفاظ الدالة عليه سواء فى الاستعمال وانما يرجع فى ذلك الى العرف دون الاصل ولنضرب له مثالا فنقول هل يجوز أن يخاطب الملك فيقال له وحق دماغك قياسا على وحق راسك وهذا يرجع الى أدب النفس دون أدب الدرس فاذا أراد مؤلف الكلام أن يمدح ذكر الرأس والهامة والكاهل وماجرى هذا المجرى فاذا أراد أن يهجو ذكر الدماغ والقفا والقذال وماجرى هذا المجرى وان كانت معانى الجميع متقاربة ومن أجل ذلك حسنت الكناية فى الموضع الذى يقبح فيه التصريح (ومن أحسن مابلغنى) من أدب النفس فى الخطاب أن عثمان بن عفان رضى الله عنه سأل قباث بن أشيم فقال له أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر منى وأنا أقدم منه فى الميلاد فانظر الى أدب هذا العربى الذى من شانه وشأن أمثاله جفاء الاخلاق والبعد عن فطانة الآداب (وأما الافراط) فقد ذمه قوم من أهل هذه الصناعة وحمده آخرون والمذهب عندى استعماله فان أحسن الشعر أكذبه بل أصدقه أكذبه لكنه تتفاوت درجاته فمنه المستحسن الذى عليه مدار الاستعمال ولا يطلق على الله سبحانه وتعالى لانه مهما ذكر به من المعاملات فى صفاته فانه دون مايستحقه ومما ورد من ذلك فى الشعر قول عنترة

وأنا المنية فى المواطن كلها * والطعن منى سابق الآجال

وقد يروى بالياء وكلا المعنيين حسن الا أن الياء أكثر غلوا ومما جاء على نحو من ذلك قول بشار

اذا ماغضبنا غضبة مضرية * هتكنا حجاب الشمس أوقطرت دما

ومنه مايستهجن كقول النابغة الذبيانى

اذا ارتعشت خاف الجبان رعاثها * ومن يتعلق حيث علق يفرق

وهذا يصف طول قامتها لكنه من الاوصاف المنكرة التي خرجت بها المغالاة عن حيز الاستحسان وكذلك ورد قول أبي نواس

وأخفت أهل الشرك حتى انه * لتخافك النطف التي لم تخلق

وهذا أشد افراطا من قول النابغة ويروى أن العتابي لقي أبا نواس فقال له أما استحييت الله حيث تقول وأنشده البيت فقال له وأنت ما راقبت الله حيث قلت

ما زلت في غمرات الموت مطرحا * يضيق عني وسيع الرأي من حيلي

فلم تزل دائبا تسعى بلطفك لي * حتى اختلست حياتي من يدي أجلي

فقال له العتابي قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل قولك ولكنك قد أعددت لكل ناصح جوابا وقد أراد أبو نواس هذا المعنى في قالب آخر فقال

كدت مناد مة الدما سيوفه * فلقلما تحتازها الاجفان

حتى الذي في الرحم لم يك صورة * لفؤاده من خوفه خفقان

وما يجيء في هذا الباب ما يجري هذا المجرى وقد استعمل أبو الطيب المتنبي هذا القسم في شعره كثيرا فاحسن في مواضع منه فمن ذلك قوله

عجاجا تعثر العقبان فيه * كأن الجو وعث أو خبار

ثم أعاد هذا المعنى في موضع آخر فقال

عقدت سنابكها عليها عثيرا * لو تبتغي عنقا عليه لأمكنا

وهذا أكثر مغالاة من الاول ومن ذلك قوله أيضا

كأنما تتلقاهم لتسلكهم * فالطعن يفتح في الاجواف ما يسع

وعلى هذا ورد قول قيس بن الحطيم

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها * يرى قائم من دونها ما وراءها

لكن أبو الطيب أكثر غلوا في هذا المعنى وقيس بن الحطيم أحسن لانه قريب من الممكن فان الطعنة تنفذ حتى يتبين فيها الضوء وأما أن يجعل المطعون مسلكا يسلك كما قال أبو الطيب فان ذلك مستحيل ولا يقال فيه بعيد (وأما الاقتصاد) فهو وسط بين المنزلتين والامثلة به كثيرة لا تحصى اذ كل ما خرج عن الطرفين من الافراط والتفريط فهو اقتصاد ومن أحسنه أن يجعل الافراط مثلا ثم يستثنى فيه بلو أو يكاد وما جرى مجراهما فمن ذلك قوله تعالى يكاد البرق يخطف أبصارهم وكذلك قوله عز وجل وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا وقد

ورد هذا فى القرآن الكريم كثيرا وىما ورد منه شعرا قول الفرزدق

يكاد يمسكه عرفان راحته * ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم

وكذلك ورد قول البحترى

لو أن مشتاقا تكلف فوق ما * فى وسعه لسعى اليك المنبر

وهذا هو المذهب المتوسط (النوع السادس والعشرون فى الاشتقاق) اعلم أن جماعة علماء البيان يفصلون الاشتقاق عن التجنيس وليس الامر كذلك بل التجنيس أمر عام لهذين النوعين من الكلام وذلك أن التجنيس فى أصل الوضع من قولهم جانس الشئ الشئ اذا ماثله وشابهه ولما كانت الحال كذلك ووجدنا من الالفاظ ما يتماثل ويتشابه فى صيغته وبنائه علمنا أن ذلك يطلق عليه اسم التجنيس وكذلك لما وجدنا من المعانى ما يتماثل ويتشابه علمنا أن ذلك يطلق عليه اسم التجنيس أيضا فالتجنيس اذن ينقسم قسمين أحدهما تجنيس فى اللفظ والآخر تجنيس فى المعنى فأما الذى يتعلق باللفظ فانه لم ينقل عن بابه ولا غير اسمه وقد تقدم ذكره فى باب الصناعة اللفظية وأما الذى يتعلق بالمعنى فانه نقل عن بابه فى التجنيس وسمى الاشتقاق اى أحد المعنيين مشتق من الآخر (وهو على ضربين صغير وكبير فالصغير أن تأخذ أصلا من الاصول فتجمع بين معانيه وان اختلفت صيغه ومبانيه كتركيب س ل م فانك تأخذ منه معنى السلامة فى تصرفه نحو سلم وسالم وسلمان وسلمى والسليم اللديغ أطلق عليه ذلك تفاؤلا بالسلامة والاصل فى ذلك أن يضع واضع اللغة اسما أولا لمسمى أول ثم يجد مسمى آخر ومسميات شبيهة بالمسمى الاول فيضع لها اسما كالاسم الاول كقوله ضرير اسم للأعمى والضر ضد النفع والضراء الشدة من الامر والضر بالضم الهزال وسوء الحال والضرر الضيق والضرة احدى الزوجتين فان هذه المسميات كلها تدل على الأذى والشر وأسماؤها متشابهة لم تخرج عن الضاد والراء الا أنا الآن لا نعلم ماهو الاول منها حتى نحكم على الثانى أنه مشتق منه لكن نعلم فى السليم اللديغ أنه مشتق من السلامة لانه ضدها فيل من أجل التفاؤل بالسلامة وعلى هذا جاء غيره من الاصول كقولنا هشمك هاشم وحاربك محارب وسالمك سالم وأصاب الارض صيب فهذه الالفاظ كلها لفظها واحد ومعناها واحد أما هاشم فانه لم يسم بهذا الاسم الا لأنه هشم الثريد فى عام محل فسمى

بذلك وأمّا محارب فانه اسم فاعل من حارب فهو محارب وأمّا سالم فمن السلامة وهو اسم فاعل من سلم وأمّا الصيب فهو المطر الذي يشتدّ صوبه أي وقعه على الارض ولا يقاس على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها وعصية عصت الله فانّ أسلم وغفار وعصية أسماء قبائل ولم تسمّ أسلم من المسالمة ولا غفار من المغفرة ولا عصية من تصغير عصا وهذا هو التجنيس وليس بالاشتقاق والنظر في مثل ذلك يحتاج الى فكرة وتدبر كي لا يختلط التجنيس بالاشتقاق ومما جاء من ذلك شعرا قول البحتري * أمحلتي سلمى بكاظمة اسلما وكذلك قول الآخر

وما زال معقولا عقال من الندى * وما زال محبوسا عن الخير حابس

وربما ظنّ أنّ هذا البيت وما يجري مجراه تجنيس حيث قيل فيه معقول وعقال ومحبوس وحابس وليس الامر كذلك وهذا الموضع يقع فيه الاشتباه كثيرا على من لم يتقن معرفته وقد تقدم القول أنّ حقيقة التجنيس هي اتفاق اللفظ واختلاف المعنى وعقال ومعقول وحابس ومحبوس اللفظ فيهما واحد والمعنى أيضا واحد فهذا مشتق من هذا أي قد شق منه وكذلك ورد قول عنترة

لقد علم القبائل أنّ قومي * لهم حدّ اذا لبس الحديد

فانّ حدّا وحديدا لفظهما واحد ومعناهما واحد (وأمّا الاشتقاق الكبير) فهو أن تأخذ أصلا من الاصول فتعقد عليه وعلى تراكيبه معنى واحدا يجمع تلك التراكيب وما تصرّف منها وان تباعد شيء من ذلك عنها ردّ بلطف الصنعة والتأويل اليها ولنضرب لذلك مثالا فنقول انّ لفظة قمر من الثلاثي لها ست تراكيب وهي قرم قمر رقم رمق مقر مرق فهذه التراكيب الست يجمعها معنى واحد وهو القوّة والشدّة فالقرم شدّة شهوة اللحم وقمر الرجل اذا غلب من يقامره والرقم الداهية وهي الشدّة التي تلحق الانسان من دهره وعيش مرمق أي ضيق وذلك نوع من الشدّة أيضا والمقر شبه الصبر يقال امقر الشيء اذا أمرّ وفي ذلك شدّة على الذائق وكراهة ومرق السهم اذا انفذ من الرمية وذلك لشدّة مضائه وقوّته (واعلم) أنه اذا اسقط من تراكيب الكلمة شيء فجائز ذلك في الاشتقاق لانّ الاشتقاق ليس من شرطه كمال تركيب الكلمة بل من شرطه أنّ الكلمة كيف تقلبت بها تراكيبها من تقديم حروفها وتأخيرها

أدت

أدت الى معنى واحد يجمعها فمثال ما سقط من تركيب الثلاثى لفظة و س ق فان لها خمس تراكيب وهى وس ق وق س س وق ق س و قوس وسقط من جملة التراكيب قسم واحد وهو سقو وجميع الخمسة المذكورة تدل على القوة والشدة أيضا فالوسق من قولهم استوسق الامر أى اجتمع وقوى والوقس ابتداء الجرب وفى ذلك شدة على من يصيبه وبلاء والسوق متابعة السير وفى هذا عناء وشدة على السائق والمسوق والقسوة شدة القلب وغلظه والقوس معروفة وفيها نوع من الشدة والقوة لنزعها السهم واخراجه الى ذلك المرمى المتباعد (واعلم) أنا لا ندعى أن هذا يطرد فى جميع اللغة بل قد جاء شئ منها كذلك وهذا مما يدل على شرفها وحكمتها لان الكلمة الواحدة تتقلب على ضروب من التقاليب وهى مع ذلك دالة على معنى واحد وهذا من أعجب الاسرار التى توجد فى لغة العرب وأغربها فاعرفه الا أن الاستعمال فى النظم والنثر انما يقع فى الاشتقاق الصغير دون الكبير وسبب ذلك أن الاشتقاق الصغير تكثر الالفاظ الواردة عليه والاشتقاق الكبير لا يكاد يوجد فى اللغة الا قليلا وأيضا فان الحسن اللفظى الذى هو الفصاحة انما يقع فى الاشتقاق الصغير ولا يقع فى الاشتقاق الكبير ألا ترى الى هذين الاصلين الواردين ههنا وهما ق ر م وروس ق اذا نظرنا الى تراكيبهما وأردنا أن نسبكهما فى الاستعمال لم يأت منهما مثل ما يأتى فى الاشتقاق الصغير حسنا ورونقا لان ذاك لفظه لفظ تجنيس ومعناه معنى اشتقاق والاشتقاق الكبير ليس كذلك

(النوع السابع والعشرون فى التضمين) وهذا النوع فيه نظر بين حسن يكتسب به الكلام طلاوة وبين معيب عند قوم وهو عندهم معدود من عيوب الشعر ولكل من هذين القسمين مقام (فأما الحسن) الذى يكتسب به الكلام طلاوة فهو أن يضمن الآيات والاخبار النبوية وذلك يرد على وجهين أحدهما تضمين كلى والآخر تضمين جزئى فأما التضمين الكلى فهو أن تذكر الآية والخبر بجملتهما وأما التضمين الجزئى فهو أن تدرج بعض الآية والخبر فى ضمن كلام فيكون جزأ منه كالذى أوردته فى حل الآيات والاخبار فى الفصل العاشر من مقدمة الكتاب وقد قيل انه لا يجوز درج آيات القرآن الكريم فى غضون الكلام من غير تبيين كى لا يشتبه وهذا القول لا أقول به فان القرآن الكريم أبين من

التضمين

أن يحتاج الى بيان وكيف يخفى وهو المعجز الذى لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله فان كانت المفاوضة فى التفرقة بينه وبين غيره من الكلام اذا أدرج فيه مع جاهل لا يعرف الفرق فذاك لا كلام معه وان كان الكلام مع عالم بذلك فذاك لا يخفى عنه القرآن الكريم من غيره ومذهبى فى هذا هو ما تقدم ذكره فى الفصل العاشر من مقدمة الكتاب وهو أحسن الوجهين عندى وذاك أنه لا تؤخذ الآية بكمالها بل يؤخذ جزء منها ويجعل أولا للكلام أو آخرا هذا اذا لم يقصد به التضمين فأما اذا قصد التضمين فتؤخذ الآية بكمالها وتدرج درجا وهذا ينكره من لم يذق ما ذقته من طعم البلاغة ولا رأى ما رأيته (وأما المعيب عند قوم) فهو تضمين الاسناد وذلك يقع فى بيتين من الشعر أو فصلين من الكلام المنثور على أن يكون الاول منهما مسندا الى الثانى فلا يقوم الاول بنفسه ولا يتم معناه الا بالثانى وهذا هو المعدود من عيوب الشعر وهو عندى غير معيب لانه ان كان سبب عيبه أن يعلق البيت الاول على الثانى فليس ذلك بسبب يوجب عيبا اذ لا فرق بين البيتين من الشعر فى تعلق أحدهما بالآخر وبين الفقرتين من الكلام المنثور فى تعلق احداهما بالاخرى لان الشعر هو كل لفظ موزون مقفى دل على معنى والكلام المسجوع هو كل لفظ مقفى دل على معنى فالفرق بينهما يقع فى الوزن لا غير والفقر المسجوعة التى يرتبط بعضها ببعض قد وردت فى القرآن الكريم فى مواضع منه فمن ذلك قوله عز وجل فى سورة الصافات فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم انى كان لى قرين يقول أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون فهذه الفقر الثلاث الاخيرة مرتبط بعضها ببعض فلا تفهم كل واحدة منهن الا بالتى تليها وهذا كالابيات الشعرية فى ارتباط بعضها ببعض ولو كان عيبا لما ورد فى كتاب الله عز وجل وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة الصافات أيضا فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين الا من هو صال الجحيم فالآيتان الاوليان لا تفهم احداهما الا بالاخرى وهكذا ورد قوله عز وجل فى سورة الشعراء أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون فهذه ثلاث آيات لا تفهم الاولى ولا الثانية الا بالثالثة ألا ترى أن الاولى والثانية فى معرض استفهام يفتقر الى جواب والجواب هو

فى الثالثة

فى الثالثة ومما ورد من ذلك شعرا قول بعضهم

ومن البلوى التى ليس لها فى الناس كنه
أن من يعرف شيأ * يدعى أكثر منه

ألا ترى أن البيت الاول لم يقم بنفسه ولا تم معناه الا بالبيت الثانى وقد استعملته العرب كثيرا وورد فى شعر فحول شعرائهم فمن ذلك قول امرئ القيس

فقلت له لما تمطى بصلبه * وأردف أعجازا وناء بكلكل
الا أيها الليل الطويل الا انجلى * بصبح وما الاصباح منك بأمثل

وكذلك ورد قول الفرزدق

وما أحد من الاقوام عدوا * عروق الأكرمين الى التراب
بمحتفظين ان فضلتمونا * عليهم فى القديم ولا غضاب

وكذلك ورد قول بعض شعراء الحماسة

لعمرى لرهط المرء خير بقية * عليه وان عالوا به كل مركب
من الجانب الاقصى وان كان ذا غنى * جزيل ولم يخبرك مثل مجرب

(الضرب الثانى من التضمين) وهو أن يضمن الشاعر شعره والناثر نثره كلاما آخر لغيره قصدا للاستعانة على تأكيد المعنى المقصود ولو لم يذكر ذلك التضمين لكان المعنى تاما وربما ضمن الشاعر البيت من شعره بنصف بيت أو أقل منه كما قال جحظة

قم فاسقنيها يا غلام وغننى * ذهب الذين يعاش فى أكنافهم

ألا ترى أنه لو لم يقل فى هذا البيت ذهب الذين يعاش فى أكنافهم لكان المعنى تاما لا يحتاج الى شئ آخر فان قوله قم فاسقنيها يا غلام وغننى فيه كفاية اذ لا حاجة له الى تعيين الغناء لان فى ذلك زيادة على المعنى المفهوم لا على الغرض المقصود وقد ورد هذا فى عدة مواضع من شعر أبى نواس فى الخمريات كقوله فى مخاطبة بعض خلطائه على مجلس الشراب

فقلت هل لك فى الصهباء تأخذها * من كف ذات حر فالعيش مقتبل
حبرية كشعاع الشمس صافية * تطير بالكأس من لألائها شعل
فقال هات وغننا على طرب * ودع هريرة ان الركب مرتحل

وكذلك قوله أيضا

وظبى خلوب اللفظ حلو كلامه * مقبله سهل وجانبه وعر

فحلت له منها الخزلوجهه * وأمكن منه مايحيط به الازر
فقمت اليه والكرى كحل عينه * فقبلته والصب ليس له صبر
الى أن تجلى نومه عن جفونه * وقال كسبت الذنب قلت لى العذر
فأعرض مزورا كان بوجهه * تفقأ رمان وقد برد الصدر
فمازلت أرقيه والثم خده * الى أن تغنى راضيا وبه سكر
ألا فاسلمى يادارمى على البلى * ولازال منهلا بجرعائك القطر

وقد استعمل هذا الضرب كثير الخطيب عبد الرحمن بن نباتة رحمه الله فى ذلك قوله فى بعض خطبه وهو فيا أيها الغفلة المطرقون أما أنتم بهذا الحديث مصدقون فما لكم منه لا تشفقون فورب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون وكذلك قوله فى ذكر يوم القيامة وهو فيوم متذ تغمد والخلائق على الله بهما فيحاسبهم على ما أحاط به علما وينفذ فى كل عامل بعمله حكما وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما ألا ترى الى براعة هذا التضمين الذى كانه قد رصع فى هذا الموضع رصعا وعلى نحو من ذلك جاء قوله فى ذكر يوم القيامة وهو هنالك يقع الحساب على ما أحصاه الله كتابا وتكون الاعمال المشوبة بالنفاق سرابا يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا ومما ينتظم بهذا السلك قوله فى خطبة أخرى وهو أسكتهم الله الذى أنطقهم وأبادهم الذى خلقهم وسيجدهم كما أخلقهم ويجمعهم كما فرقهم يوم يعيد الله العالمين خلقا جديدا ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا (ومن هذا الباب) قوله أيضا هنالك يرفع الحجاب ويوضع الكتاب ويجمع من وجب له الثواب ومن حق عليه العقاب فيضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب وأمثال هذه التضمينات فى خطبه كثيرة وهى من محاسن ما يجىء فى هذا النوع

(النوع الثامن والعشرون فى الارصاد) وحقيقته أن يبنى الشاعر البيت من شعره على قافية قد أرصدها له أى أعدها فى نفسه فاذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتى به فى قافيته وذلك من محمود الصنعة فان خير الكلام ما دل بعضه على بعض وفى الافتخار بذلك يقول ابن نباتة السعدى

خذها اذا أنشدت فى القوم من طرب * صدورها عرفت منها قوافيها
ينسى لها الراكب العجلان حاجته * ويصبح الحاسد الغضبان يطويها

فمن هذا الباب قول النابغة

فداء لامرئ سارت اليه * بعذرة ربها عمى وخالى
ولو كفى اليمين بغتك خوفا * لافردت اليمين عن الشمال

ألا ترى أنه يعلم اذا عرفت القافية فى البيت الاول أن فى البيت الثانى ذكر الشمال وكذلك جاء قول البحترى

أحلت دمى من غير جرم وحرمت * بلا سبب يوم اللقاء كلامى
فليس الذى حللته بمحلل * وليس الذى حرمته بحرام

فليس يذهب على السامع وقد عرف البيت الاول وصدر البيت الثانى أن عجزه هو ما قاله البحترى (وقد جاء الارصاد فى الكلام المنثور كما جاء فى الشعر) فمن ذلك قوله تعالى وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون فاذا وقف السامع على قوله تعالى لقضى بينهم فيما فيه عرف أن بعده يختلفون لما تقدم من الدلالة عليه (ومن ذلك أيضا) قوله عز وجل فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون وعلى نحو منه جاء قوله تعالى مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت فاذا وقف السامع على قوله عز وجل وان أوهن البيوت يعلم أن بعده بيت العنكبوت (ورأيت أبا هلال العسكرى) قد سمى هذا النوع التوشيح وليس كذلك بل تسميته بالارصاد أولى وذلك حيث ناسب الاسم مسماه ولاق به وأما التوشيح فانه نوع آخر من علم البيان وسيأتى ذكره بعد هذا النوع ان شاء الله تعالى (واعلم) أنه قد اختلف جماعة من أرباب هذه الصناعة فى تسمية أنواع علم البيان حتى ان أحدهم يضع لنوع واحد منه اسمين اعتقادا منه أن ذلك النوع نوعان مختلفان وليس الامر كذلك بل هما نوع واحد فمن غلط فى ذلك الغانمى فانه ذكر بابا من أبواب علم البيان وسماه التبليغ وقال هو أن يأتى الشاعر بالمعنى فى البيت تاما من غير أن يكون للقافية فيما ذكره صنع ثم يأتى بها الحاجة الشعر اليها حتى يتم وزنه فيبلغ بذلك الغاية القصوى

فى الجودة كقول امرئ القيس

كأن عيون الوحش حول خبائنا * وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

فانه أتى بالتشبيه تاما قبل القافيــة ثم لما جاء بها بلغ الامد الاقصى فى المبالغة ثم ان الغانمى ذكر بعد هذا الباب بابا آخر وسماه الاشباع فقال هو أن يأتى الشاعر بالبيت معلق القافيــة على آخر اجزائه ولا يكاد يفعل ذلك الا حذاق الشعراء وذلك أن الشاعر اذا كان بارعا جاء بقــدرته وذكائه وفطنته الى البيت وقد تمت معانيــه واستغنى عن الزيادة فيه قافية متممة لا عارضه وزنه فجعلها نعتا للمذكور كقول ذى الرمة

قف العيس فى أطلال مية فاسأل * رسوما كأخلاق الرداء المسلسل

فهذا كلام الغانمى بعينه والبابان المذكوران سواء لا فرق بينهما بحال والدليل على ذلك أن بيت امرئ القيس يتم معناه قبل أن يؤتى بقافيته وكذلك بيت ذى الرمة ألا ترى أن امرأ القيس لما قال كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع أتى بالتشبيه قبل القافية ولما احتاج اليها جاء بزيادة حسنة وهى قوله لم تثقب وهكذا ذو الرمــة فانه لما قال قف العيس فى أطلال مــية فاسأل رسوما كأخلاق الرداء أتى بالتشبيه أيضا قبل أن يأتى بالقافية ولما احتاج اليها جاء بزيادة حســنة وهى قوله المسلسل واعــلم أن أبا هلال العسكرى قد سمى هــذين القسمين بعينهما الايغال وقال هو أن يستوفى الشاعر معنى الكلام قبل البلوغ الى مقطعه ثم يأتى بالمقطع فيزيد فيه معنى آخر وأصل الايغال من أوغل فى الامر اذا أبعد الذهاب فيه ثم مثل أبو هلال ذلك بقول ذى الرمة قف العيس فى أطلال مية فاسأل البيت وهــذا أقرب أمرا من الغانمى لانه ذكره فى باب واحــد وسماه باسم واحــد ولم يذكره فى باب آخر كما فعــل الغانمى وليس الاخــذ عــلى الغانمى فى ذلك مناقشة على الاسماء وانما المناقشة عــلى أن ينتصب لايراد عــلم البيان وتفصــيل أبوابه ويكون أحد الابواب التى ذكرها داخلا فى الآخر فيذهب عليه ويخفى عنه وهو أشهر من فلق الصباح (وههنا ما هو أغرب من ذلك) وذلك أنه قد سلك قوم فى منثور الكلام ومنظومه طرقا خارجة عن موضوع علم البيان وهى بمجوة عنه لانها فى واد وعــلم البيان فى واد فمن فعــل ذلك الحريرى صاحب المقامات فانه ذكر تلك الرسالة التى هى كلمة معجمــة وكلمة مهــملة والرسالة التى حرف من حروف

ألفاظها

ألفاظها معجم والآخر غير معجم ونظم غيره شعراً آخر كل بيت منه أول للبيت الذى يليه وكل هذا وان تضمن مشقة من الصناعة فانه خارج عن باب الفصاحة والبلاغة لان الفصاحة هى ظهور الالفاظ مع حسنها على ما أشرت اليه فى مقدمة كتابى هذا وكذلك البلاغة فانها الانتهاء فى محاسن الالفاظ والمعانى من قولنا بلغت المكان اذا انتهيت اليه وهذا الكلام المصوغ بما أتى به الحريرى فى رسالته وأورده ذلك الشاعر فى شعره لا يتضمن فصاحة ولا بلاغة وانما يأتى ومعانيه غثة باردة وسبب ذلك أنها تستكره استكراها وتوضع فى غير مواضعها وكذلك ألفاظه فانها تجىء مستكرهة أيضا غير ملائمة لاخواتها وعلم البيان انما هو الفصاحة والبلاغة فى الالفاظ والمعانى فاذا خرج عنه شىء من هذه الاوضاع المشار اليها لا يكون معدودا منه ولا داخلا فى بابه ولو كان ذلك مما يوصف بحسن فى ألفاظه ومعانيه لورد فى كتاب الله عز وجل الذى هو معدن الفصاحة والبلاغة أوورد فى كلام العرب الفصحاء ولم نره فى شىء من أشعارهم ولا خطبهم ولقد رأيت رجلا آديباً من أهل المغرب وقد تغلغل فى شىء عجيب وذلك أنه شجر شجرة ونظمها شعرا وكل بيت من ذلك الشعر يقرأ على ضروب من الاساليب اتباعا لشعب تلك الشجرة وأغصانها فتارة تقرأ كذا وتارة تقرأ كذا وتارة يكون جزء منه ههنا وتارة ههنا وتارة يقرأ مقلوبا وكل ذلك الشعر وان كان له معنى يفهم الا أنه ضرب من الهذيان والاولى به وبأمثاله أن يلحق بالشعبذة والمعالجة والمصارعة لا بدرجة الفصاحة والبلاغة (ورأيت أبا محمد) بن عبد الله ابن سنان الخفاجى قد ذكر بابا من الابواب فى كتابه فقال ينبغى أن لا تستعمل فى الكلام المنظوم والمنثور ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم ولا الالفاظ التى تختص ببعض المهن والعلوم لان الانسان اذا خاض فى علم وتكلم فى صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وأصحاب تلك الصناعة ثم مثل ذلك بقول أبى تمام

مودة ذهب أثمارها شبه * وهمة جوهر معروفها عرض

وبقوله أيضا خرقاء يلعب بالعقول حبابها * كتلعب الافعال بالاسماء

وهذا الذى أنكره ابن سنان هو عين المعروف فى هذه الصناعة

ان الذى تنكرهون منه * هو الذى يشتهيه قلبى

وسأبين فساد ماذهب اليه فأقول أما قوله انه يجب على الانسان اذا خاض فى علم أو تكلم فى صناعة أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وأصحاب تلك الصناعة فهذا مسلم اليه ولكنه شذ عنه أن صناعة المنظوم والمنثور مستمدة من كل علم وكل صناعة لانها موضوعة على الخوض فى كل معنى وهذا لاضابط له يضبطه ولا حاصر يحصره فاذا أخذ مؤلف الشعر أو الكلام المنثور فى صوغ معنى من المعانى وأداه ذلك الى استعمال معنى فقهى أو نحوى أو حسابى أو غير ذلك فليس له أن يتركه ويحيد عنه لانه من مقتضيات ذلك المعنى الذى قصده ألا ترى الى قول أبى تمام فى الاعتذار

فان يك جرم عن أو تك هفوة * على خطا منى فعذرى على عمدى

فان هذا من أحسن ما يجىء فى باب الاعتذار عن الذنب وكان ينبغى له على ماذكره ابن سنان أن يترك ذلك ولا يستعمله حيث فيه لفظتا الخطا والعمد اللتان هما من أخص ألفاظ الفقهاء وكذلك قول أبى الطيب المتنبى

ولقيت كل الفاضلين كأنما * رد الاله نفوسهم والاعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب مقدما * وأتى فذلك اذ أتيت مؤخرا

وهذا من المعانى البديعة وما كان ينبغى لابى الطيب أن يأتى فى مثل هذا الموضع بلفظة فذلك التى هى من ألفاظ الحساب بل كان يترك هذا المعنى الشريف الذى لا يتم الا بتلك اللفظة موافقة لابن سنان فيما رآه وذهب اليه وهذا محض الخطا وعين الغلط وأما ما أنكره على أبى تمام فى قوله

مودة ذهب أثمارها شبه * وهمة جوهر معروفها عرض

فان هذا البيت ليس منكرا لما استعمل فيه من لفظى الجوهر والعرض اللتين هما من خصائص ألفاظ المتكلمين بل لانه فى نفسه ركيك لتضمنه لفظة الشبه فانها لفظة عامية ركيكة وهى التى أضعفت بالبيت بجملته ورب قليل أفسد كثيرا وأما لفظتا الجوهر والعرض فلا عيب فيهما ولا ركاكة عليهما وأما البيت الآخر وهو

خرقاء يلعب بالعقول حبابها * كتلاعب الافعال بالاسماء

فليس بمنكر وهل يشك فى أن التشبيه الذى تضمنه واقع فى موقعه ألا ترى أن الفعل ينقل الاسم من حال الى حال وكذلك يفعل الخمر بالعقول فى تنقل حالاتها فما الذى أنكره ابن سنان من ذلك وقد جاء لبعض المتأخرين من هذا الاسلوب

مالايدافع فى حسنه وهو قوله

عوامل رزق أعربت لغة الردى * بجسم له خفض ورأس له نصب

فانه لما حصل له المشابهة فى الاسمية بين عوامل الرماح والعوامل النحوية حسن موقع ماذكره من الخفض والنصب وعلى ماذكره ابن سنان فان ذلك غير جائز وهو من مستحسنات المعانى هذا من أعجب الاشياء وعلى هذا الاسلوب ورد قول بعضهم

وفتى من مازن * فاق أهل البصره
أمه معرفة * وأبوه نكره

وهل يشك فى حسن هذا المعنى واطافته وكذلك ورد من هذا النوع فى شعر بعض العراقيين يهجو طبيبا فقال

قال حمار الطبيب توما * لو أنصفونى لكنت أركب
لاننى جاهل بسيط * وراكبى جهله مركب

وهذا من المعنى الذى أغرب فى الملاحة وجمع بين خفة الحضرية ووقار الفصاحة وقد تقدم القول فى صدر كتابى هذا أنه يجب على صاحب هذه الصناعة أن يتعلق بكل علم وكل صناعة ويخوض فى كل فن من الفنون لانه مكلف بأن يخوض فى كل معنى من المعانى فاضمم يدك على ماذكرته ونصصت عليه واترك ماسواه فليس القائل بعلمه واجتهاده كالقائل بظنه وتقليده وهذا النوع اذا استعمل على الوجه المرضى كان حسنا واذا استعمل بخلاف ذلك كان قبيحا كما جاء فى كلام أبى العلاء بن سليمان المعرى وهو قوله فى رسالة كتبها الى بعض اخوانه حرس الله سعادته ماأدغمت التاء فى الطاء وتلك سعادة بغير انتهاء وهذا من الغث البارد لكن قد جاء فى الشعر ماهو حسن فائق كقوله

فدونكم خفض الحياة فاننا * نصبنا المطايا فى الفلاة على القطع

والخفض والنصب من الاعراب النحوى والخفض رفاهة العيش والقطع من منصوبات النحو والقطع قطع الشئ يقال قطعته اذا بترته (النوع التاسع والعشرون فى التوشيح) وهو أن يبنى الشاعر أبيات قصيدته على بحرين مختلفين فاذا وقف من البيت على القافية الاولى كان شعرا مستقيما من بحر على عروض واذا أضاف الى ذلك مابنى عليه شعره من القافية الاخرى كان أيضا شعرا مستقيما من بحر آخر على عروض وصار مايضاف الى القافية الاولى للبيت

التوشيح

كالوشاح وكذلك يجرى الامر فى الفقرتين من الكلام المنثور فان كل فقرة منهما تصاغ من سجعتين وهذا لا يكاد يستعمل الا قليلا وليس من الحسن فى شئ واستعماله فى الشعر أحسن منه فى الكلام المنثور فمن ذلك قول بعضهم

اسلم ودمت على الحوادث مارسا * ركنا ثبير أو هضاب حراء
ونل المراد ممكنا منه على * رغم الدهور وفز بطول بقاء

وهذا من الجيد الذى يأتى فى هذا النوع الا أن أثر التكلف عليه باد ظاهر واذا نظر الى هذين البيتين وجدا وهما يذكران على قافية أخرى وبحر آخر وذلك أن يقال

اسلم ودمت على الحوا * دث مارسا ركنا ثبير
ونل المراد ممكنا * منه على رغم الدهور

وقد استعمل ذلك الحريرى فى مقاماته نحو قوله

ياخاطب الدنيا الدنية انها * شرك الردى وقرارة الاكدار
دار متى ما أضحكت فى يومها * أبكت غدا بعدا لها من دار
واذا أظل سحابها لم ينتفع * منه صدى بجهامه الغرار

(واعلم) أن هذا النوع لا يستعمل الا متكلفا عند تعاطى التمكن من صناعة النظم وحسنه منوط بما فيه من الصناعة لا بما فيه من البراعة ألا ترى أنه لو نظم عليه قصيد من أوله الى آخره يتضمن غزلا ومديحا على ماجرت به عادة القصائد أليس أنه كان يجىء باردا غثا لا يسلم منه على محك النظر عشره والعشر كثير وما كان على هذه الصورة من الكلام فانما يستعمل أحيانا على الطبع لا على التكلف وهو وأمثاله لا يحسن الا اذا كان يسيرا كالرقم فى الثوب أو الشية فى الجلد (النوع الثلاثون فى السرقات الشعرية) ولربما اعترض معترض فى هذا الموضع فقال قد تقدم نثر الشعر فى أول الكتاب وهو أخذ الناثر من الناظم ولا فرق بينه وبين أخذ الناظم من الناظم فلم يكن الى ذكر السرقات الشعرية اذن حاجة ولو أنعم هذا المعترض نظره لظهر له الفرق وعلم أن نثر الشعر لم يتعرض فيه الى وجوه المأخذ وكيفية التوصل الى مداخل السرقات وهذا النوع يتضمن ذكر ذلك مفصلا (واعلم) أن الفائدة من هذا النوع أنك تعلم أين تضع يدك فى أخذ المعانى اذ لا يستغنى الآخر عن الاستعارة من الاول لكن لا ينبغى لك أن تعجل فى سبك اللفظ على المعنى المسروق فتنادى على نفسك بالسرقة فكثيرا ما رأينا من عجل فى ذلك فعثر

السرقات الشعرية

وتعاطى

وتعاطى فيه البديهة فعقر والاصل المعتمد عليه فى هذا الباب التورية والاختفاء بحيث يكون ذلك أخفى من سفاد الغراب وأظرف من عنقاء مغرب فى الاغراب وقد ذهب طائفة من العلماء الى أنه ليس لقائل أن يقول ان لاحد من المتأخرين معنى مبتدعا فان قول الشعر قديم منذ نطق باللغة العربية وأنه لم يبق معنى من المعانى الا وقد طرق مرارا وهذا القول وان دخل فى حيز الامكان الا أنه لا يلتفت اليه لان الشعر من الامور المتناقلة والذى نقلته الاخبار وتواردت عليه أن العرب كانت تنظم المقاطيع من الابيات فيما يعن لها من الحاجات ولم يزل الحال على هذه الصورة الى عهد امرئ القيس وهو قبل الاسلام بمائة سنة زائدا فنافسا فقصد القصائد وهو أول من قصد ولو لم يكن له معنى اختص به سوى أنه أول من قصد القصائد لكان فى ذلك كفاية وأى فضيلة أكبر من هذه الفضيلة ثم تتابع المقصدون واختير من القصائد تلك السبع التى علقت على البيت وانفتح للشعراء هذا الباب فى التقصيد وكثرت المعانى المقولة بسببه ولم يزل الامر ينمو ويزيد ويؤتى بالمعانى الغريبة واستمر ذلك الى عهد الدولة العباسية ومابعدها الى الدولة الحمدانية فعظم الشعر وكثرت أساليبه وتشعبت طرقه وكان ختامه على الثلاثة المتأخرين وهم أبو تمام حبيب بن أوس وأبو عبادة الوليد ابن عبيد البحترى وأبو الطيب المتنبى فاذا قيل ان المعانى المبتدعة سبق اليها ولم يبق معنى مبتدع عورض ذلك بما ذكرته والصحيح أن باب الابتداع للمعانى مفتوح الى يوم القيامة ومن الذى يحجر على الخواطر وهى قاذفة بما لا نهاية له الا أن من المعانى ما يتساوى الشعراء فيه ولا يطلق عليه اسم الابتداع لاول قبل آخر لان الخواطر تأتى به من غير حاجة الى اتباع الآخر الاول كقولهم فى الغزل

عفت الديار وماعفت * آثارهن من القلوب

وكقولهم ان الطيف يجود بما يبخل به صاحبه وان الواشى لو علم بزار الطيف لساءه وكقولهم فى المديح ان عطاءه كالبحر وكالسحاب وانه لا يمنع عطاء اليوم عطاء غد وانه يجود ابتداء من غير مسئلة وأشباه ذلك وكقولهم فى المراثى ان هذا الرزء أول حادث وانه استوى فيه الاباعد والاقارب وان الذاهب لم يكن واحدا وانما كان قبيلة وان بعد هذا الذاهب لا يعد للمنية ذنب وأشباه ذلك وكذلك يجرى الامر فى غير ما أشرت اليه من معان ظاهرة تتوارد الخواطر

عليها من غير كلفة وتستوى فى ايرادها ومثل ذلك لا يطلق على الآخر فيه اسم السرقة من الاول وانما يطلق اسم السرقة فى معنى مخصوص كقول أبى تمام

لا تنكروا ضربى له من دونه * مثلا شرودا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره * مثلا من المشكاة والنبراس

فانّ هذا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمام وكان لابتداعه سبب والحكاية فيه مشهورة وهى أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التى مطلعها ما فى وقوفك ساعة من باس * انتهى الى قوله

اقدام عمرو فى سماحة حاتم * فى حلم أحنف فى ذكاء اياس

فقال الحكيم الكندى وأى فخر فى تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب فأطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين معتذرا عن تشبيهه اياه بعمرو وحاتم واياس وهذا معنى يشهد به الحال أنه ابتدعه فمن أتى من بعده بهذا المعنى أو بجزء منه فانه يكون سارقا له وكذلك ورد قول أبى الطيب المتنبى فى عضد الدولة وولديه

وأنت الشمس تبهر كل عين * فكيف وقد بدت معها اثنتان
فعاشا عيشة القمرين يحيى * بضوئهما ولا يتحاسدان
ولا ملكا سوى ملك الاعادى * ولا ورثا سوى من يقتلان
وكان ابنا عدو كاثراه * له ياءى حروف أنيسيان

وهذا معنى لأبى الطيب وهو الذى ابتدعه أى أنّ زيادة أولاد عدوّك كزيادة التصغير فانها زيادة نقص وما ينبغى أن يقال انّ ابن الرومى ابتدع هذا المعنى الذى هو

يشكى المحب ويلقى الدهر شاكيه * كالقوس تصمى الرمايا وهى مرنان

فانّ علماء البيان يزعمون أنّ هذا المعنى مبتدع لابن الرومى وليس كذلك ولكنه مأخوذ من المثل المضروب وهو قولهم يلدغ ويصى ويضرب ذلك لمن يتعدى بالاذى ثم يشكو وانما ابن الرومى قد ابتدع معانى أخر غير ما ذكرته وليس الغرض أن يؤتى على جميع ما جاء به هو ولا غيره من المعانى المبتدعة بل الغرض أن يبين المعنى المبتدع من غيره والذى عندى فى السرقات أنه متى أورد الآخر شيأ من ألفاظ الاوّل فى معنى من المعانى ولو لفظة واحدة فانّ ذلك من أدلّ الدليل على سرقته (واعلم) أنّ علماء البيان قد تكلموا فى السرقات الشعرية فأكثروا

وكنت

وكنت ألفت فيه كتابا وقسمته ثلاثة أقسام نسخا وسلخا ومسخا أمّا النسخ فهو أخذ اللفظ والمعنى برمّته من غير زيادة عليه مأخوذا ذلك من نسخ الكتاب وأمّا السلخ فهو أخذ بعض المعنى مأخوذا ذلك من سلخ الجلد الذى هو بعض الجسم المسلوخ وأمّا المسخ فهو احالة المعنى الى ما دونه مأخوذا ذلك من مسخ الآدميين قردة (وههنا قسمان آخران) أخللت بذكرهما فى الكتاب الذى ألفته (فأحدهما) أخذ المعنى مع الزيادة عليه (والآخر) عكس المعنى الى ضدّه وهذان القسمان ليسا بنسخ ولا سلخ ولا مسخ وكل قسم من هذه الاقسام يتنوّع ويتفرّع وتخرج به القسمة الى مسالك دقيقة وقد استأنفت ما فاتنى من ذلك فى هذا الكتاب والله الموفق للصواب ومن المعلوم أنّ السرقات الشعرية لا يمكن الوقوف عليها الا بحفظ الاشعار الكثيرة التى لا يحصرها عدد فمن رام الاخذ بنواصيها والاشتمال على قواصيها بأن يتصفح الاشعار تصفحا ويقتنع بتاملها ناظرا فانه لا يظفر منها الا بالحواشى والاطراف وكنت سافرت الى الشام فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة ودخلت مدينة دمشق فوجدت جماعة من أدبائها يلهجون ببيت من شعر ابن الخياط فى قصيدة له أولها * خذا من صبا نجد أمانا لقلبه * ويزعمون أنه من المعانى الغريبة وهو

أغار اذا آنست فى الحىّ أنة * حذارا عليه أن تكون لحبه

فقلت لهم هذا البيت مأخوذ من شعر أبى الطيب المتنبى فى قوله

لو قلت للدنف المشوق فديته * مما به لأغرته بفدائه

وقول أبى الطيب أدقّ معنى وان كان قول ابن الخياط أرق لفظا ثم انى وقفتهم على مواضع كثيرة من شعر ابن الخياط قد أخذها من شعر المتنبى وسافرت الى الديار المصرية فى سنة ست وتسعين فوجدت أهلها يعجبون ببيت من الشعر يعزونه الى شاعر من أهل اليمن يقال له عمارة وكان حديث عهد بزماننا هذا فى آخر الدولة العلوية بمصر وذلك البيت من جملة قصيدة له يمدح بها بعض خلفائها عند قدومه عليه من اليمن وهو

فهل درى البيت أنى بعد فرقته * ما سرت من حرم الا الى حرم

فقلت لهم هذا البيت ماخوذ من شعر أبى تمام فى قوله مادحا لبعض الخلفاء فى حجة حجها وذلك بيت من جملة أبيات حسنة

يا من رأى حرما يسرى الى حرم * طوبى لمستلم يأتى وملتزم

ثم قلت فى نفسى يالله العجب ليس أبو تمام وأبو الطيب من الشعراء الذين درست أشعارهم ولا هما ممن لم يعرف ولا اشتهر أمره بل هما كما يقال أشهر من الشمس والقمر وشعرهما دائر فى أيدى الناس بخلاف غيرهما فكيف خفى على أهل مصر ودمشق بيتا ابن الخياط وعمارة المأخوذان من شعرهما وعلمت حينئذ أن سبب ذلك عدم الحفظ للاشعار والاقتناع بالنظر فى دواوينهما ولما انصبت نفسى للخوض فى علم البيان ورمت أن أكون معدودا من علمائه علمت أن هذه الدرجة لاتنال الا بنقل ما فى الكتب الى الصدور والاكتفاء بالمحفوظ عن المسطور

ليس بعلم ما حوى القمطر * ما العلم الا ما حواه الصدر

ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع وأنفدت شطرا من العمر فى المحفوظ منه والمسموع فألفيته بحرا لا يوقف على ساحله وكيف ينتهى الى احصاء قول لم تحص أسماء قائله فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده وتتشعب مقاصده ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم فى اتباع من قصر نظره على الشعر القديم اذ المراد من الشعر انما هو ايداع المعنى الشريف فى اللفظ الجزل واللطيف فتى وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل وقد اكتفيت فى هذا بشعر أبى تمام حبيب بن أوس وأبى عبادة الوليد وأبى الطيب المتنبى وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزاه ومناته الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين الى فصاحة القدماء وجمعت بين الامثال السائرة وحكمة الحكماء أما أبو تمام فانه رب معان وصيقل ألباب وأذهان وقد شهد له بكل معنى مبتكر لم يمش فيه على أثر فهو غير مدافع عن مقام الاغراب الذى برز فيه على الاضراب ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ولم أقل ما أقول فيه الا عن تنقيب وتنقير فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه أطاعته أعنة الكلام وكان قوله فى البلاغة ما قالت حذام فخذمنى فى ذلك قول حكيم وتعلم ففوق كل ذى علم عليم وأما أبو عبادة البحترى فانه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الاطلاق فبينما يكون فى شظف نجد اذ تشبث بريف العراق وسئل أبو الطيب المتنبى عنه وعن أبى تمام وعن نفسه

فقال أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري ولعمري انه أصف في حكمه وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه فان أبا عبادة أتى في شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء في اللفظ المصوغ من سلاسة الماء فأدرك بذلك بعد المرام مع قربه الى الافهام وما أقول الا أنه أتى في معانيه بأخلاط الغالية ورقي في ديباجة لفظه الى الدرجة العالية وأما أبو الطيب المتنبي فانه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه لكنه حظي في شعره بالحكم والامثال واختص بالابداع في وصف مواقف القتال وأنا أقول قولا لست فيه متأثما ولا منه متلثما وذلك أنه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا فطريقه في ذلك تضل بسالكه وتقوم بعذر تاركه ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة ابن حمدان فيصف لسانه ما أدى اليه عيانه ومع هذا فاني رأيت الناس عادلين فيه عن سنن التوسط فاما مفرط في وصفه واما مفرط وهو وان انفرد بطريق صار أبا عذره فان سعادة الرجل كانت أكبر من شعره وعلى الحقيقة فانه خاتم الشعراء ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الاطراء ولقد صدق في قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة

لا تطلبن كريما بعد رؤيته * ان الكرام بأسخاهم يدا ختموا

ولا تبال بشعر بعد شاعره * قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى وعين المعرفة التي ما ضل صاحبها وما غوى وجدته أقساما خمسة خمس في الغاية التي انفرد بها دون غيره وخمس من جيد الشعر الذي يساويه فيه غيره وخمس من متوسط الشعر وخمس دون ذلك وخمس في الغاية المتقهقرة التي لا يعبأ بها وعدمها خير من وجودها ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها فانها هي التي ألبسته لباس الملام وجعلت عرضه شارة لسهام الاقوام ولسائل ههنا أن يسأل ويقول لم عدلت الى شعر هؤلاء الثلاثة دون غيرهم فأقول اني لم أعدل اليهم اتفاقا وانما عدلت اليهم نظرا واجتهادا وذلك أني وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها حتى لم أترك ديوانا لشاعر مفلق يثبت شعره على المحك الا وعرضته على نظري فلم أجد

أجمع من ديوان أبي تمام وأبي الطيب للمعاني الدقيقة ولا أكثر استخراجا منهما للطيف الاغراض والمقاصد ولم أجد أحسن تهذيبا للالفاظ من أبي عبادة ولا أنقش ديباجة ولا أبهج سبكا فاخترت حينئذ دواوينهم لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعاني والالفاظ ولما حفظتها ألغيت ماسواها مع مابقي على خاطري من غيرها (وقد أوردت) في هذا الموضع من السرقات الشعرية مالم يورده غيري ونبهت على غوامض منها وكنت قدمت القول أني قسمتها الى خمسة أقسام منها الثلاثة الاول وهي النسخ والسلخ والمسخ ومنها القسمان الآخران وها أنا أبين ماتنقسم اليه هذه الاقسام من تشعبها وتفريعها فأقول (أما النسخ) فانه لايكون الا في أخذ المعنى واللفظ جميعا أو في أخذ المعنى وأكثر اللفظ لانه مأخوذ من نسخ الكتاب وعلى ذلك فانه ضربان (الاول) يسمى وقوع الحافر على الحافر كقول امرئ القيس

وقوفا بها صحبي على مطيهم * يقولون لاتهلك أسى وتحمل

وكقول طرفة وقوفا بها صحبي على مطيهم * يقولون لاتهلك أسى وتجلد

وقد أكثر الفرزدق وجرير من هذا في شعرهما (فمنه) ماورد فيه مورد امرئ القيس وطرفة في تخالفهما في لفظة واحدة كقول الفرزدق

أتعدل أحسابا لئاما حماتها * بأحسابنا اني الى الله راجع

وكقول جرير

أتعدل أحسابا كراما حماتها * بأحسابكم اني الى الله راجع

(ومنه) ماتساويا فيه لفظا بلفظ كقول الفرزدق

وغر قد وسقت مشهرات * طوالع لاتطيق لها جوابا
بكل ثنية وبكل ثغر * غرائبهن تنتسب انتسابا
بلغن الشمس حين تكون شرقا * ومسقط رأسها من حيث غابا

وكذلك قال جرير من غير أن يزيد وقد حكي أن امرأة من عقيل يقال لها ليلى كان يتحدث اليها الشباب فدخل الفرزدق اليها وجعل يحادثها وأقبل فتى من قومها كانت تألفه فدخل اليها فأقبلت عليه وتركت الفرزدق فغاظه ذلك فقال للفتى أتصارعني فقال ذاك اليك فقام اليه فلم يلبث أن أخذ الفرزدق فصرعه وجلس على صدره فضرط فوثب الفتى عنه وقال ياأبا فراس هذا مقام

العاتذ بك والله ما أردت ما جرى فقال ويحك والله ما بي أنك صرعتني ولكن كأني بابن الاتان يعني جريرا وقد بلغه خبري فقال يهجوني

جلست الى ليلى لتحظى بقربها * فخانك دبر لايزال يخون

فلو كنت ذا حزم شددت وكاءه * كما شد جربان الدلاص قيون

قال فوالله مامضى الا أيام حتى بلغ جريرا الخبر فقال فيه هذين البيتين وهذا من أغرب مايكون في مثل هذا الموضع وأعجبه ويقال ان الفرزدق وجريرا كانا ينطقان في بعض الاحوال عن ضمير واحد وهذا عندي مستبعد فان ظاهر الامر يدل على خلافه والباطن لايعلمه الا الله تعالى واذا رأينا شاعرا متقدم الزمان قد قال قولا ثم سمعناه من شاعر أتى من بعده علمنا بشهادة الحال أنه أخذه منه وهب أن الخواطر تتفق في استخراج المعاني الظاهرة المتداولة فكيف تتفق الالسنة أيضا في صوغها الالفاظ (ومما كنت أستحسنه) من شعر أبي نواس قوله من قصيدته التي أولها * دع عنك لومي فان اللوم اغراء

دارت على فتية ذل الزمان لهم * فما يصيبهم الا بما شاؤا

وهذا من عالي الشعر ثم وقفت في كتاب الاغاني لابي الفرج على هذا البيت في أصوات معبد وهو

لهفي على فتية ذل الزمان لهم * فما أصابهم الا بما شاؤا

وما أعلم كيف هذا (الضرب الثاني من النسخ) وهو الذي يؤخذ فيه المعنى وأكثر اللفظ كقول بعض المتقدمين يمدح معبدا صاحب الغناء

أجاد طويس والسريجي بعده * وما قصبات السبق الا لمعبد

ثم قال أبو تمام

محاسن أصناف المغنين جمة * وما قصبات السبق الا لمعبد

وهذه قصيدة أولها * غدت تستجير الدمع خوف نوى غد * فقال

وقائع أصل النصر فيها وفرعه * اذا عدد الاحسان أولم يعدد

فمهما تكن من وقعة بعد لاتكن * سوى حسن مما فعلت مردد

محاسن أصناف المغنين جمة * البيت (وأما السلخ) فانه ينقسم الى اثني عشر ضربا وهذا تقسيم أوجبته القسمة واذا تأملته علمت أنه لم يبق شئ خارج عنه (فالاول) أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه مايشبهه ولايكون هو اياه وهذا

من أدق السرقات مذهبا وأحسنها صورة ولا يأتى الا قليلا (فمن ذلك) قول بعض شعراء الحماسة

لقد زادنى حبا لنفسى أننى * بغيض الى كل امرئ غير طائل

أخذ المتنبى هذا المعنى واستخرج منه معنى آخر غيره الا أنه شبيه به فقال

واذا أتتك مذمتى من ناقص * فهى الشهادة لى بأنى فاضل

والمعرفة بأن هذا المعنى أصله من ذلك المعنى عسر غامض وهو غير متبين الا لمن أعرق فى ممارسة الاشعار وغاص فى استخراج المعانى وبيانه أن الاول يقول ان بغض الذى هو غير طائل اياى مما زاد نفسى حبا الى أى جملها فى عينى وحسنها عندى كون الذى هو غير طائل مبغضى والمتنبى يقول ان ذم الناقص اياى شاهد بفضلى فذم الناقص اياه كبغض الذى هو غير طائل ذلك الرجل وشهادة ذم الناقص اياه بفضله كتحسين بغض الذى هو غير طائل نفس ذلك الرجل عنده (ومن هذا الضرب) ما هو أظهر مما ذكرته وأبين كقول أبى تمام

رعته الفيافى بعد ما كان حقبة * رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

أخذ البحترى هذا المعنى واستخرج منه ما يشابهه كقوله فى قصيدة يفخر فيها بقومه

شيخان قد ثقل السلاح عليهما * وعداهما رأى السميع المبصر

ركبا القنا من بعد ما حملا القنا * فى عسكر متحامل فى عسكر

فأبو تمام ذكر أن الجمل رعى الارض ثم سار فيها فرعته أى أهزلته فكأنها فعلت به مثل ما فعل بها والبحترى نقل هذا الى وصف الرجل بعلو السن والهرم فقال انه كان يحمل الرمح فى القتال ثم صار يركب عليه أى يتوكأ منه على عصا كما يفعل الشيخ الكبير وكذلك ورد قول الرجلين أيضا فقال أبو تمام

لا أظلم النأى قد كانت خلائقها * من قبل وشك النوى عندى نوى قذفا

أخذه البحترى فقال

أعاتك ما كان الشباب مقربى * اليك فالحى الشيب اذ هو مبعدى

وهذا أوضح من الذى تقدمه وأكثر بيانا (الضرب الثانى من السلخ) أن يؤخذ المعنى مجردا من اللفظ وذلك مما يصعب جدا ولا يكاد يأتى الا قليلا (فمنه) قول عروة بن الورد من شعراء الحماسة

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا * من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذراً أو ينال رغيبة * ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

أخذ أبو تمام هذا المعنى فقال

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة * تقوم مقام النصر اذ فاته النصر

فعروة بن الورد جعل اجتهاده فى طلب الرزق عذراً يقوم مقام النجاح وأبو تمام جعل الموت فى الحرب الذى هو غاية اجتهاد المجتهد فى لقاء العدو قائماً مقام الانتصار وكلا المعنيين واحد غير أن اللفظ مختلف وهذا الضرب فى سرقات المعانى من أشكلها وأدقها وأغربها وأبعدها مذهباً ولا يتفطن له ويستخرجه من الاشعار الا بعض الخواطر دون بعض وقد يجيء منه ما هو ظاهر لا يبلغ فى الدقة مبلغ هذه الابيات المشار اليها كقول ابن المقفع فى باب الرثاء من كتاب الحماسة

فقد جر نفعاً فقدنا لك اننا * أمنا على كل الرزايا من الجزع

وجاء بعده من أخذ هذا المعنى فقال

وقد عزى ربيعة أن يوماً * عليها مثل يومك لا يعود

وهذا من البديع النادر وههنا ما هو أشد ظهوراً من هذين البيتين فى هذا الضرب من السرقات الشعرية وذلك يأتى فى الالفاظ المترادفة التى يقوم بعضها مقام بعض وذلك لا اعتداد به لمكان وضوحه لكن قد يجيء منه ما هو صفة من صفات المترادف لا الاسم نفسه فيكون حسناً كقول جرير

ولا يمنعك من أرب لحاهم * سواء ذو العمامة والخمار

أخذ أبو الطيب المتنبى هذا المعنى فقال

ومن فى كفه منهم قناة * كمن فى كفه منهم خضاب

(الضرب الثالث من السلخ) وهو أخذ المعنى ويسير من اللفظ وذلك من أقبح السرقات وأظهرها شناعة على السارق فمن ذلك قول البحترى فى غلام

فوق ضعف الصغير ان وكل الامر اليه ودون كيد الكبار

سبقه أبو نواس فقال

لم يخف من كبر عما يراد به * من الامور ولا أزرى من الصغر

وكذلك قوله أيضاً

كل عيد له انقضاء وكلي * كل يوم من جوده فى عيد

أخذه من على بن جبلة

للعيد يوم من الايام منتظر * والناس فى كل يوم منك فى عيد
وكذلك قوله جاد حتى أفنى السؤال فلما * باد منا السؤال جاد ابتداء
أخذه من على بن جبلة
أعطيت حتى لم تدع لك سائلا * وبدأت اذ قطع العفاة سؤالها
وقد افتضح البحترى فى هذه المآخذ غاية الافتضاح هذا على بسطة باعه فى الشعر وغناه عن مثلها (وقد سلك هذه الطريق فحول الشعراء) ولم يستنكفوا من سلوكها فمن فعل ذلك أبو تمام فانه قال
قد قلصت شفتاه من حفيظته * فخيل من شدة التعبيس مبتسما
سبقه عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن فقال
واذا شئت أن ترى الموت فى صو * رة ليث فى لبدتى رئبال
فالقه غير آئب البدتاه * أبيض صارم وأسمر عال
تلق ليثا قد قلصت شفتاه * فيرى ضاحكا العبس الصيال
وكذلك قال أبو تمام
فلم أمدحك تفخيما بشعرى * ولكنى مدحت بك المديحا
أخذه من حسان بن ثابت فى مدحه للنبى صلى الله عليه وسلم حيث قال
ما ان مدحت محمدا بمقالتى * لكن مدحت مقالتى بمحمد
ولا شك أن أبا بكر رضى الله عنه سمع قول حسان حيث استخلف عمر رضى الله عنه فقال له عمر استخلف غيرى فقال أبو بكر رضى الله عنه ما حبوناك بها وانما حبوناها بك وهكذا فعل ابن الرومى فمما جاء له قوله
بجرحته العيون فاقتص منها * بجوى فى القلوب دامى الندوب
سبقه أبو تمام فقال
ادميت باللحظات وجنته * فاقتص ناظره من القلب
وكذلك قول ابن الرومى
وكلت بمجدك فى اقتضائك حاجتى * وكفى به متقاضيا ووكيلا
سبقه أبو تمام فقال
واذا المجد كان عونى على المر * ء تقاضيته بترك التقاضى
وكذلك قال ابن الرومى

ومالى عزاء عن شبابى علمته * سوى أننى من بعده لا أخلد

سبقه منصور النمرى فقال

قد كدت أقضى على فوت الشباب أسا * لولا تعزى ان العيش منقطع

وكذلك فعل أبو الطيب المتنبي فما جاء منه قوله

فدى نفسه بضمان النضار * وأعطى صدور القنا الذابل

أخذه من قول الفرزدق

كان الفداء له صدور رماحنا * والخيل تدرج فى الغبار مثار

وكذلك قوله أيضا

أين ازمعت أيهذا الهمام * نحن نبت الربا وأنت الغمام

أخذه من بشار حيث قال

كان الناس حين تغيب عنهم * نبات الارض أخطأه القطار

وكذلك قوله فلا زالت ديارك مشرقات * ولا دانيت ياشمس الغروبا

لاصبح آمنا فيك الرزايا * كما أنا آمن فيك العيوبا

أخذه من ابن الرومى حيث قال

أسالم قد سلمت من العيوب * الا فاسلم كذلك من الخطوب

والذى عندى فى الضرب المشار اليه أنه لا بد من مخالفة المتأخر المتقدم اما بان يأخذ المعنى فيزيده معنى آخر أو يوجز فى لفظه أو يكسوه عبارة أحسن من عبارته (ومن هذا الضرب) ما يستعمل على وجه يزداد قبحه وتكثر البشاعة به وهو أن يأخذ أحد الشاعرين معنى من قصيدة لصاحبه على وزن وقافية فيودعه قصيدة له على ذلك الوزن وتلك القافية ومثاله فى ذلك كمن سرق جوهرة من طوق أو نطاق ثم صاغها فى مثل ما سرقها منه والاولى به أن كان نظم تلك الجوهرة فى عقد أو صاغها فى سوار أو خلخال ليكون أكتم لامرها ومن فعل ذلك من الشعراء فافتضح أبو الطيب المتنبي حيث قال فى قصيدته التى أولها غيرى باكثر هذا الناس ينخدع

لم يسلم الكر فى الاعقاب مهجته * ان كان أسلمها الاصحاب والشيع

وهذه القصيدة مصوغة على قصيدة لأبى تمام فى وزنها وقافيتها أولها

أى القلوب عليكم ليس ينصدع * وهذا المعنى الذى أورده أبو الطيب

مأخوذ من بيت منها وهو

ماغاب عنكم من الاقدام أكرمه * فى الروع اذ غابت الانصار والشيع

وليس فى السرقات الشعرية أقبح من هذه السرقة فانه لم يكتف الشاعر فيها بأن يسرق المعنى حتى ينادى على نفسه أنه قد سرقه (الضرب الرابع من السلخ) وهو أن يؤخذ المعنى فيعكس وذلك حسن يكاد يخرجه حسنه عن حد السرقة فمن ذلك قول أبى نواس

قالوا عشقت صغيرة فأجبتهم * أشهى المطى الى مالم يركب

كم بين حبة لؤلؤ مثقوبة * لبست وحبة لؤلؤ لم تثقب

فقال مسلم بن الوليد فى عكس ذلك

ان المطية لا يلذ ركوبها * حتى تذلل بالزمام وتركبا

والحب ليس بنافع أربابه * حتى يفصل فى النظام ويثقبا

ومن هذا الباب قول ابن جعفر

ولما بدالى أنها لا تريدنى * وأن هواها ليس عنى بمنجلى

تمنيت أن تهوى سواى لعلها * تذوق صبابات الهوى فترق لى

وقال غيره ولقد سرنى صدودك عنى * فى طلابيك وامتناعك منى

حذرا أن أكون مفتاح غيرى * واذا ما خلوت كنت التمنى

أما ابن جعفر فانه تداهب وألقى عن منكبه رداء الغيرة وأما الآخر فجاء بالضد من ذلك وتغالى به غاية الغلو وكذلك ورد قول أبى الشيص

أجد الملامة فى هواك لذيذة * شغفا بذكرك فليلمنى اللوم

أخذ أبو الطيب المتنبى هذا المعنى وعكسه فقال

أأحبه وأحب فيه ملامة * ان الملامة فيه من أعدائه

وهذا من السرقات الخفية جدا ولأن يسمى ابتداعا أولى من أن يسمى سرقة وقد توخيته فى شىء من شعرى فجاء حسنا فمن ذلك قولى

لولا الكرام وما سنوه من كرم * لم يدر قائل شعر كيف يمتدح

أخذته من قول أبى تمام

ولولا خلال سنها الشعر مادرى * بناة العلى من أين تؤتى المكارم

(الضرب الخامس من السلخ) وهو أن يؤخذ بعض المعنى فمن ذلك قول أمية

ابن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جدعان

عطاؤك زين لامرئ ان حبوته * ببذل وما كل العطاء يزين
وليس بشين لامرئ بذل وجهه * اليك كما بعض السؤال يشين

أخذه أبو تمام فقال

تدعى عطاياه وفرا وهي ان شهرت * كانت فخارا لمن يعفوه مؤتنفا
مازلت منتظرا أعجوبة زمنا * حتى رأيت سؤالا يجتني شرفا

فأمية بن أبي الصلت أتى بمعنيين اثنين أحدهما أن عطاءه زين والآخر أن عطاءه غير شين وأما أبو تمام فانه أتى بالمعنى الاول لاغير (ومن هذا الضرب) قول علي بن جبلة وآثل مالم يحوه متقدم * وان نال منه آخر فهو تابع

فقال أبو الطيب المتنبي

ترفع عن عون المكارم قدره * فما يفعل الفعلات الاعذاريا

فعلي بن جبلة اشتمل ما قاله على معنيين أحدهما أنه فعل مالم يفعله أحد ممن تقدمه وان نال منه الآخر شيأ فانما هو مقتد به وتابع له وأما أبو الطيب المتنبي فانه لم يأت الا بالمعنى الواحد وهو أنه يفعل مالا يفعله غيره غير أنه أبرزه في صورة حسنة ومن ذلك قول أبي تمام

كالف برب المجد يعلم أنه * لم يبتدأ عرف اذا لم يتمم

فقال البحتري

ومثلك ان أبدى الفعال أعاده * وان صنع المعروف زاد وتمما

فأبو تمام قال ان الممدوح يرب صنيعه أي يستديمه ويعلم أنه اذا لم يستدمه فما ابتدأه والبحتري قال انه يستديم صنيعه لاغير وذلك بعض ماذكره أبو تمام وكذلك قال البحتري

ادفع بامثال أبي غالب * عادية العدم أو استعفف

أخذه ممن تقدمه حيث قال

انتجع الفضل أو تخل عن الدنيا فهاتان غاية الهمم

فالبحتري أخذ بعض هذا المعنى ولم يستوفه وكذلك ورد قول ابن الرومي

نزلتم على هام المعالي اذا ارتقى * اليها أناس غيركم بالسلالم

أخذه أبو الطيب المتنبي فقال

فوق السماء وفوق ماطلبوا * فاذا أرادوا غاية نزلوا

وهذا بعض المعنى الذى تضمنه قول ابن الرومى لانه قال انكم نزلتم على هام المعالى وان غيركم يرقى اليها رقيا وأما المتنبى فانه قال انكم اذا أردتم غاية نزلتم وأما قوله فوق السماء فانه يغنى عنه قول ابن الرومى نزلتم على هام المعالى اذ المعالى فوق كل شئ لانها مختصة بالعلو مطلقا (الضرب السادس من السلخ) وهو أن يؤخذ المعنى فيزاد عليه معنى آخر فمما جاء منه قول الاخنس ابن شهاب

اذا قصرت أسيافنا كان وصلها * خطانا الى أعدائنا فنضارب

أخذه مسلم بن الوليد فزاد عليه وهو قوله

ان قصر الرمح لم يمش الخطا عددا * أو عرّد السيف لم يهمم بتغريد

وكذلك ورد قول جرير فى وصف أبيات من شعره

غرائب آلافا اذا حان وردها * أخذن طريقا للقصائد معلما

أخذه أبو تمام فزاد عليه اذ قال فى وصف قصيدله وقرن ذلك بالممدوح

غرائب لاقت فى فنائك أنسها * من المجد فهى الآن غير غرائب

وكذلك ورد قول ولد مسلمة بن عبد الملك

أذل الحياة وكره الممات * وكلا أراه طعاما وبيلا

فان لم يكن غير احداهما * فسيرا الى الموت سيرا جميلا

أخذه أبو تمام فقال

مثل الموت بين عينيه والذل وكلا رآه خطبا عظيما

ثم صارت به الحمية قدما * فامات العدا ومات كريما

فزاد عليه بقوله * فأمات العدا ومات كريما * ويروى أنه نظر عبد الله بن على رضى الله عنه عند قتال المروانية الى فتى عليه أبهة الشرف وهو يبلى فى القتال بلاء حسنا فناداه يافتى لك الامان ولو كنت مروان بن محمد فقال الا أكنه فلست بدونه قال فلك الامان ولو كنت من كنت فأطرق ثم تمثل بهذين البيتين المذكورين وكذلك ورد قول أبى تمام

يصد عن الدنيا اذا عنّ سؤدد * ولو برزت فى زى عذراء ناهد

أخذه من قول المعذل بن غيلان

ولست بنظار الى جانب العلا * اذا كانت العلياء فى جانب الفقر

الا أنه زاده زيادة حسنة بقوله * ولو برزت فى زى عذراء ناهد * ومما يجرى هذا المجرى قول البحترى خل عنا فانما أنت فينا * واو عمرو أو كالحديث المعاد أخذه من قول أبى نواس

قل لمن يدعى سليما سفاها * لست منها ولا قلامة ظفر

انما أنت ملصق مثل واو * ألحقت فى الهجاء ظلما بعمرو

الا أن البحترى زاد على أبى نواس فى قوله أو كالحديث المعاد وهكذا ورد قول البحترى أيضا

ركبوا الفرات الى الفرات وأملوا * جذلان يبدع فى السماح ويغرب

أخذه من مسلم بن الوليد فى قوله

ركبت اليه البحر فى موخراته * فأوفت بنا من بعد بحر الى بحر

الا أن البحترى زاد عليه بقوله جذلان يبدع فى السماح ويغرب وكذلك ورد قول أبى نواس وليس لله بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

وهذا البيت قد لهج به الناس لهجا كثيرا ومنهم من ظنه مبتدعا لأبى نواس ويحكى عن أبى تمام أنه دخل على ابن أبى دواد فقال له أحسبك عاتبا يا أبا تمام فقال انما يعتب على واحد وأنت الناس جميعا قال من أين هذه يا أبا تمام قال من قول الحاذق أبى نواس وأنشده البيت وهذه الحكاية عندى موضوعة لأن أبا تمام كان عارفا بالشعر حتى انه قال لم انظم شعرا حتى حفظت سبعة عشر ديوانا للنساء خاصة دون الرجال وما كان يخفى عنه أن هذا المعنى ليس لأبى نواس وانما هو مأخوذ من قول جرير

اذا غضبت عليك بنو تميم * حسبت الناس كلهم غضابا

الا أن أبا نواس زاده زيادة حسنة وذلك أن جريرا جعل الناس كلهم بنى تميم وأبا نواس جعل العالم كله فى واحد وذلك أبلغ * ومما ينتظم فى هذا السلك قول الفرزدق علام تلفتين وأنت تحتى * وخير الناس كلهم أمامى

متى تأتى الرصافة تستريحى * من الانساع والدبر الدوامى

أخذه أبو نواس فصار أملك به وأحسن فيه غاية الاحسان فقال

واذا المطى بنا بلغن محمدا * فظهورهن على الرجال حرام

فالفرزدق قال تسترحى من الانساع والدبر الدوامى وليست استراحتها بمانعة من معاودة اتعابها مرة أخرى وأما أبو نواس فانه حرم ظهورهن على الرجال أى أنها تعفى من السفر اعفاء مستمرا ولا شك أن أبا نواس لم يتنبه لهذه الزيادة الا من فعل العرب فى السائبة والبحيرة وعلى هذا الاسلوب ورد قول المتنبى

وملومة زرد ثوبها * ولكنه بالقنا مخمل

أخذه من أبى نواس فى قوله

امام خميس أرجوان كأنه * قميص محوك من قنا وجياد

فزاد أبو الطيب زيادة صار بها أحق من أبى نواس بهذا المعنى وكذلك قال أبو الطيب المتنبى

وان جاد قبلك قوم مضوا * فانك فى الكرم الاول

فأخذته أنا وزدت عليه فقلت

أنت فى الجود أول وقضى الله بأن لا يرى لك الدهر ثانى

وهذا النوع من السرقات قليل الوقوع بالنسبة الى غيره (الضرب السابع من السلخ) وهو أن يؤخذ المعنى فيكسى عبارة أحسن من العبارة الأولى وهذا هو المحمود الذى يخرج به حسنه عن باب السرقة فمن ذلك قول أبى تمام

جذلان من ظفر حران ان رجعت * مخضوبة منكم وأظفاره بدم

أخذه البحترى فقال

اذا احتربت يوما ففاضت دماؤها * تذكرت القربى ففاضت دموعها

ومن هذا الاسلوب قولهما أيضا فقال أبو تمام

ان الكرام كثير فى البلاد وان * قلوا كما غيرهم قل وان كثروا

وقال البحترى قل الكرام فصار يكثر فذهم * ولقد يقل الشئ حتى يكثر

وعلى هذا النحو ورد قول أبى نواس

يدل على ما فى الضمير من الفتى * تقلب عينيه الى شخص من يهوى

أخذه أبو الطيب المتنبى فقال

واذا خامر الهوى قلب صب * فعليه لكل عين دليل

ومما ينتظم فى هذا السلك قول أبى الطيب المتنبى

اذا ما ازددت من بعد التناهى * فقد وقع انتقاصى فى ازدياد

أخذه

أخذه ابن نباتة السعدى فقال

اذا كان نقصان الفتى من تمامه * فكل صحيح فى الانام عليل

وكذلك ورد قول أبى العلاء بن سليمان فى مرثية

وما كلفة البدر المنير قديمة * ولكنه فى وجهه أثر اللطم

أخذه الشاعر المعروف بالقيسرانى فقال

وأهوى التى أهوى لها البدر ساجدا * ألست ترى فى وجهه أثر الترب

وكذلك قول ابن الرومى

اذا شنئت عين امرئ شيب نفسه * فعين سواه بالشناءة أجدر

أخذه من تأخر زمانه عنه فقال

اذا كان شيئ بغيضا الىّ * فكيف يكون اليها حبيبا

ومما ينخرط فى هذا السلك قول بعضهم

مخصرة الاوساط زانت عقودها * بأحسن مما زينتها عقودها

أخذه أبو تمام فقال

كأن عليها كل عقد ملاحة * وحسنا وان أضحت وأمست بلا عقد

ثم أخذه البحترى فقال

اذا أطفأ الياقوت اشراق وجهها * فان عناء ما توخت عقودها

وأمثال هذا كثيرة وفيما أوردناه مقنع (الضرب الثامن من السلخ) وهو أن يؤخذ المعنى و يسبك سبكا موجزا وذلك من أحسن السرقات لما فيه من الدلالة على بسطة الناظم فى القول وسعة باعه فى البلاغة فمن ذلك قول بشار

من راقب الناس لم يظفر بحاجته * وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

أخذه سلم الخاسر وكان تلميذه فقال

من راقب الناس مات غما * وفاز باللذة الجسور

فبين البيتين لفظتان فى التأليف ومن هذا الاسلوب قول أبى تمام

برزت فى طلب المعالى واحدا * فيها تسير مغوّرا ومنجدا

عجبا بأنك سالم فى وحشة * فى غاية ما زلت فيها مفردا

أخذه ابن الرومى فقال

غربته الخلائق الزهر فى النا * س وما أوحشته بالتغريب

وكذلك ورد قول أبى نواس

وكان بالدهر عينا غير غافلة * من جود كفك تأسو كل ما جرحا

أخذه ابن الرومى فقال

الدهر يفسد ما استطاع وأحمد * يتتبع الافساد بالاصلاح

وعلى هذا ورد قول ابن الرومى

كأنى أستدنى بك ابن حنية * اذا النزع أدناه من الصدر أبعدا

أخذه بعض شعراء الشأم وهو ابن قسيم الحموى فقال

فهو كالسهم كلما زدته منـ * ـك دنوا بالنزع زادك بعدا

ولقيت جماعة من الادباء بالشام ووجدتهم يزعمون أن ابن قسيم هو الذى ابتدع هذا المعنى وليس كذلك وانما هو لابن الرومى ومما يجرى هذا المجرى قول أبى العتاهية

وانى لمعذور على فرط حبها * لان لها وجها يدل على عذرى

أخذه أبو تمام فقال

له وجه اذا أبصر * ته ناجاك عن عذرى

فأوجز فى هذا المعنى غاية الايجاز ومما يجرى على هذا النهج قول أبى تمام

كانت مساءلة الركبان تخبرنى * عن أحمد بن سعيد أطيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت * أذنى باحسن مما قد رأى بصرى

أخذه أبو الطيب المتنبى فأوجز حيث قال

وأستكبر الاخبار قبل لقائه * فلما التقينا صغر الخبر الخبر

وكذلك قولهما فى موضع آخر فقال أبو تمام

كم صارما عضبا أناف على قفا * منهم لأعباء الوغى حمال

سبق المشيب اليه حتى ابتزه * وطن النهى من مفرق وقذال

أخذه أبو الطيب فزاد وأحسن حيث قال

يسابق القتل فيهم كل حادثة * فما يصيبهم موت ولا هرم

ومن هذا الضرب قول بعض الشعراء

أمن خوف فقر تعجلته * وأخرت انفاق ما تجمع

فصرت الفقير وأنت الغنى * وما كنت تعدو الذى تصنع

أخذه أبو الطيب المتنبى فقال

قوله كم صارما الخ فى الديوان كم صارم عضب أناف على قفا منهم لأعباء الوغى حمال

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله * مخافة فقر فالذى فعل الفقر

(الضرب التاسع من السلخ) وهو أن يكون المعنى عاما فيجعل خاصا أو خاصا فيجعل عاما وهو من السرقات التى يسامح صاحبها فمن ذلك قول الاخطل

لا تنه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

أخذه أبو تمام فقال

أألوم من بخلت يداه واغتدى * للبخل تربا ساء ذاك صنيعا

وهذا من العام الذى جعل خاصا ألا ترى أن الاول نهى عن الاتيان بما ينهى عنه مطلقا وجاء بالخلق منكرا فجعله شائعا فى بابه وأما أبو تمام فانه خصص ذلك بالبخل وهو خلق واحد من جملة الاخلاق وأما جعل الخاص عاما فكقول أبى تمام ولو حاردت شول عذرت لقاحها * ولكن منعت الدر والضرع حافل

أخذه أبو الطيب المتنبى فجعله عاما اذ يقول

وما يؤلم الحرمان من كف حارم * كما يؤلم الحرمان من كف رازق

(الضرب العاشر من السلخ) وهو زيادة البيان مع المساواة فى المعنى وذلك بأن يؤخذ المعنى فيضرب له مثال يوضحه فمما جاء منه قول أبى تمام

هو الصنع ان يعجل فنفع وان يرث * فللريث فى بعض المواطن أنفع

أخذه أبو الطيب فأوضحه بمثال ضربه له وذلك قوله

ومن الخير بطء سيبك عنى * أسرع السحب فى المسير الجهام

وهذا من المبتدع لا من المسروق وما أحسن ما أتى بهذا المعنى فى المثال المناسب له وكذلك قولهما فى موضع آخر فقال أبو تمام

قد قلصت شفتاه من حفيظته * فخيل من شدة التعبيس مبتسما

أخذه أبو الطيب المتنبى فقال

وجاهل مده فى جهله ضحكى * حتى أتته يد فراسة وفم

اذا رأيت نيوب الليث بارزة * فلا تظنن أن الليث مبتسم

ومما ينخرط فى هذا السلك قول أبى تمام

وكذاك لم تفرط كآبة عاطل * حتى يجاورها الزمان بحال

أخذه أبو عبادة البحترى فقال

وقد زادها افراط حسن جوارها * لاخلاق أصغار من المجد خيب

قوله وما يؤلم مع قوله كما يؤلم فى الاول ان يؤلم جميع بدلهما اه

وحسن دراريّ الكواكب أن ترى * طوالع فى داج من الليل غيهب

فانه أتى بالمعنى مضروبا له هذا المثال الذى أوضحه وزاده حسنا (الضرب الحادى عشر من السلخ) وهو اتحاد الطريق واختلاف المقصد ومثاله أن يسلك الشاعران طريقا واحدة فتخرج بهما الى موردين أو روضتين وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر فمما جاء من ذلك قول أبى تمام فى مرثية بولدين صغيرين

مجد تأوب طارقا حتى اذا * قلنا أقام الدهر أصبح راحلا
نجمان شاء الله أن لا يطلعا * الا ارتداد الطرف حتى يأفلا
انّ الفجيعة بالرياض نواضرا * لأجلّ منها بالرياض ذوابلا
لهفى على تلك الشواهد فيهما * لو أخرت حتى تكون شمائلا
انّ الهلال اذا رأيت نموّه * أيقنت أن سيكون بدرا كاملا
قل للامير وان لقيت موقرا * منه بريب الحادثات حلاحلا
ان ترز فى طرفى نهار واحد * رزأين هاجا لوعة وبلابلا
فالثقل ليس مضاعفا لمطية * الا اذا ما كان وهما بازلا
لا غرو ان فننان من عيدانه * لقيا حماما للبرية آكلا
انّ الاشاء اذا أصاب مشذب * منه اتمهلّ ذرا وأثّ أسافلا
شمخت خلالك أن يواسيك امرؤ * أو أن تذكر ناسيا أو غافلا
الا مواعظ قادها لك سمحة * اسجاح لبك سامعا أو قائلا
هل تكلف الايدى بهز مهند * الا اذا كان الحسام القاصلا

(وقال) أبو الطيب فى مرثية بطفل صغير

فان تك فى قبر فانك فى الحشا * وان تك طفلا فالاسى ليس بالطفل
ومثلك لا يبكى على قدر سنه * ولكن على قدر الفراسة والاصل
ألست من القوم الذى من رماحهم * نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل
بمولودهم صمت اللسان كغيره * ولكن فى أعطافه منطق الفصل
تسليهم علياؤهم عن مصابهم * ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل
عزاؤك سيف الدولة المقتدى به * فانك نصل والشدائد للنصل
تخون المنايا عهده فى سليله * وتنصره بين الفوارس والرجل
بنفسى وليد عاد من بعد حمله * الى بطن أم لا تطرق بالحمل

قوله مجد تأوب الخ ترك أبياتا كثيرة فى خلال الابيات المذكورة حتى انه ترك بيتين فيهما جواب لو أخرت وهما لغدا سكونهما حجى وصباهما * حلما وتلك الاريحية نائلا * ولأصبح النجم المذبذبة * واصار ذاك الطل جودا وابلا * وكذلك الابيات بعد اه

بداوله وعــد السحابة بالروى * وصــدّ وفينا غــلة البلــد المحــل

وقدمدّت الخيــل العتاق عيونها * الى وقت تبديل الركاب من النعل

وريع له جيش العــدو وما مشى * وجاشت له الحرب الضروس وما تغلى

فتأمّل أيها الناظر الى ماصنع هــذان الشاعران فى هذا المقصد الواحد وكيف هام كل واحد منهم مافى واد منه مع اتفاقهما فى بعض معانيه وسأبين لك ما اتفقا فيــه وما اختلفا وأذكر الفاضــل من المفضول فأقول أمّا الذى اتفقا فيــه فانّ أباتمام قال لهوى على تلك الشواهد فيهما * لو أنجرت حتى تكون شمائلا وأمّا أبو الطيب فانه قال

بمولودهم صمت اللسان كغيره * ولكنّ فى أعطافه منطق الفصل

فأتى بالمعنى الذى أتى به أبو تمام وزاد عليه بالصناعة اللفظية وهى المطابقة فى قوله صمت اللسان ومنطق الفصل وقال أبو تمام

فجمان شاء الله أن لايطلعا * الا ارتداد الطرف حتى يأفلا

وقال أبو الطيب

بداوله وعــد السحابة بالروى * وصدّ وفينا غلة البلد المحل

فوافقه فى المعنى وزاد عليه بقوله * وصدّ وفينا غلة البلد المحل * لانه بين قدر حاجتهــم الى وجوده وانتفاعهــم بحياته (وأمّا ما اختلفا فيــه) فانّ أبا الطيب أشــعر فيــه من أبى تمام أيضا وذلك أنّ معناه أمتن من معناه ومبناه أحكم من مبناه وربما أكبر هــذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شــبهة الزمان وقدمه لامع فضيلة القول وتقدمه وأبو تمام وان كان أشــعر عندى من أبى الطيب فانّ أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضع وبيان ذلك أنه قد تقدم القول على ما اتفقا فيه من المعنى وأمّا الذى اختلفا فيه فانّ أبا الطيب قال

عزاؤك سيف الدولة المقتدى به * فانك نصل والشدائد للنصل

وهذا البيت بمفرده خير من بيتى أبى تمام اللذين هما

ان ترزفى طرفى نهار واحد * رزأين هاجا لوعــة وبلابلا

فالثقل ليس مضاعفا لمطية * الا اذا ما كان وهــما بازلا

فانّ قول أبى الطيب والشــدائد للنصــل أكرم لفظا ومعنى من قول أبى تمام انّ الثقل انما يضاعف للبازل من المطايا وقوله أيضا

تظن المنايا عهده فى سليله * وتنصره بين الفوارس والرجل

وهذا أشرف من بيتى أبى تمام اللذين هما

لاغرو ان فننان من عيدانه * لقيا حماما للسبرية آكلا
ان الاشاء اذا أصاب مشذب * منه اتمهل ذرا وأث أسافلا

وكذلك قال أبو الطيب

ألست من القوم الذى من رماحهم * نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل
تسليهم علياؤهم عن مصابهم * ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل

وهذان البيتان خير من بيتى أبى تمام اللذين هما

شمخت خلالك أن يؤاسيك امرؤ * أوأن تذكر ناسيا أوغافلا
الا مواعظ قادها لك سمحة * اسجاح لبك سامعا أوقائلا

(واعلم) أن التفضيل بين المعنيين المتفقين أيسر خطبا من التفضيل بين المعنيين المختلفين وقد ذهب قوم الى منع المفاضلة بين المعنيين المختلفين واحتجوا على ذلك بأن قالوا المفاضلة بين الكلامين لاتكون الا باشتراكهما فى المعنى فان اعتبار التأليف فى نظم الالفاظ لايكون الا باعتبار المعانى المندرجة تحتها فالم يكن بين الكلامين اشتراك فى المعنى حتى يعلم مواقع النظم فى قوة ذلك المعنى أوضعفه واتساق ذلك اللفظ أواضطرابه والا فكل كلام له تأليف يخصه بحسب المعنى المندرج تحته وهذا مثل قولنا العسل أحلى من الخل فانه ليس فى الخل حلاوة حتى تقاس حلاوة العسل عليها وهذا القول فاسد فانه لو كان ماذهب اليه هؤلاء من منع المفاضلة حقا لوجب أن تسقط التفرقة بين جيد الكلام ورديئه وحسنه وقبيحه وهذا محال وانما خفى عليهم ذلك لانهم لم ينظروا الى الاصل الذى تقع المفاضلة فيه سواء اتفقت المعانى أواختلفت ومن ههنا وقع لهم الغلط وسأبين ذلك فاقول من المعلوم أن الكلام لايختص بمزية من الحسن حتى تتصف ألفاظه ومعانيه بوصفين هما الفصاحة والبلاغة فثبت بهذا أن النظر انما هو فى هذين الوصفين اللذين هما الاصل فى المفاضلة بين الالفاظ والمعانى على اتفاقهما واختلافهما فمهما وجدا فى أحد الكلامين دون الآخر أوكانا أخص به من الآخر حكم له بالفضل (وقرأت فى كتاب الاغانى) لابى الفرج فى تفضيل الشعر أشياء تتضمن خبطا كثيرا وهو مروى عن علماء العربية لكن عذرتهم

فى ذلك

فى ذلك فان معرفة الفصاحة والبلاغة شئ خلف معرفة النحو والاعراب (فمما وقفت عليه) أنه سئل أبو عمرو بن العلاء عن الاخطل فقال لو أدرك يوما واحدا من الجاهلية ماقدمت عليه أحدا وهذا تفضيل بالاعصار لا بالاشعار وفيه مافيه ولو أن أبا عمرو عندى بالمكان العلى لبسطت لسانى فى هذا الموضع (وسئل جرير) عن نفسه وعن الفرزدق والاخطل فقال أما الفرزدق ففى يده نبعة من الشعر وهو قابض عليها وأما الاخطل فأشدنا اجتراء وأرمانا للقرائض وأما أنا فمدينة الشعر وهذا القول فى التفضيل قول اقناعى لا يحصل منه على تحقيق لكنه أقرب حالا مما روى عن أبى عمرو بن العلاء (وسئل الاخطل) عن أشعر الناس فقال الذى اذا مدح رفع واذا هجا وضع فقيل فمن ذلك قال الاعشى قيل ثم من قال طرفة وهذا قول فيه بعض التحقيق اذ ليس كل من رفع بمدحه ووضع بهجائه كان أشعر الناس لان المعانى الشعرية كثيرة والمدح والهجاء منها (وسئل الشريف الرضى) عن أبى تمام وعن البحترى وعن أبى الطيب فقال أما أبو تمام فخطيب منبر وأما البحترى فواصف جؤذر وأما المتنبى فقائل عسكر وهذا كلام حسن واقع فى موقعه فانه وصف كلا منهم بما فيه من غير تفصيل (ويروى عن بشار) أنه وصف نفسه بجودة الشعر والتقدم على غيره فقيل له ولم ذلك فقال لانى نظمت اثنى عشر ألف قصيدة وما تخلو واحدة منهن من بيت واحد جيد فيكون لى حينئذ اثنا عشر ألف بيت وقد تأملت هذا القول فوجدته على بشار لا له لان باقلا الذى يضرب به المثل فى العى لو نظم قصيدا ما خلا من بيت واحد جيد ومن الذى ينظم قصيدا واحدا من الشعر ولا يسلم له منه بيت واحد لكن كان الاولى ببشار أن قال لى اثنا عشر ألف قصيدة ليس واحدة منهن الاوجيدها أكثر من رديئها وليس فى واحدة منهن ما يسقط فانه لو قال ذلك وكان محقا لاستحق التقدم على الشعراء ومع هذا فقد وصل الى ما فى أيدى الناس من شعره مقصدا ومقطعا فما وجدته بتلك الغاية التى ادعاها لكن وجدت جيده قليلا بالنسبة الى رديئه وتندر له الابيات اليسيرة (وبلغنى) عن الاصمعى وأبى عبيد وغيرهما أنهم قالوا هو أشعر الشعراء المحدثين قاطبة وهم عندى معذورون لانهم ما وقفوا على معانى أبى تمام ولا على معانى أبى الطيب ولا وقفوا على ديباجة أبى عبادة البحترى وهذا الموضع لا يستفتى فيه علماء العربية وانما يستفتى فيه كاتب بليغ أو شاعر مفلق فان أهل

كل علم أعلم به وكما لا يسأل الفقيه عن مسئلة حسابية فكذلك لا يسأل الحاسب عن مسئلة فقهية وكما لا يسأل أيضا النحوى عن مسئلة طبية فكذلك لا يسأل الطبيب عن مسئلة نحوية ولا يعلم كل علم الا صاحبه الذى قلب ظهره لبطنه وبطنه لظهره على أن علم البيان من الفصاحة والبلاغة محبوب الى الناس قاطبة وما من أحد الا ويحب أن يتكلم فيه حتى انى رأيت أجلاف العامة ممن لم يخط بيده ورأيت أغتام الاجناس ممن لا ينطق بالكلمة صحيحة كلهم يخوض فى فن الكتابة والشعر ويأتون فيه بكل مضحكة وهم يظنون أنهم عالمون به ولا لوم عليهم فانه بلغنى عن ابن الاعرابى وكان من مشاهير العلماء أنه عرض عليه أرجوزة أبى تمام اللامية التى مطلعها * وعاذل عذلته فى عذله * وقيل له هذه لفلان من شعراء العرب فاستحسنها غاية الاستحسان وقال هذا هو الديباج الخسروانى ثم استكتبها فلما أنهاها قيل له هذه لابى تمام فقال من أجل ذلك أرى عليها أثر الكلفة ثم ألقى الورقة من يده وقال يا غلام خرق خرق فاذا كان ابن الاعرابى مع علمه وفضله لا يدرى أى طرفيه أطول فى هذا الفن ولا يعلم أين يضع يده فيه ويبلغ به الجهل الى أن يقف مع التقليد الشنيع الذى هذا غايته فما الذى يقول غيره وما الذى يتكلم فيه سواه (والمذهب عندى فى تفضيل الشعراء) أن الفرزدق وجريرا والاخطل أشعر العرب أولا وآخرا ومن وقف على الاشعار ووقف على دواوين هؤلاء الثلاثة علم ما أشرت اليه ولا ينبغى أن يوقف مع شعر امرئ القيس وزهير والنابغة والاعشى فان كلا من أولئك أجاد فى معنى اختص به حتى قيل فى وصفهم امرؤ القيس اذا ركب والنابغة اذا رهب وزهير اذا رغب والاعشى اذا شرب وأما الفرزدق وجرير والاخطل فانهم أجادوا فى كل ما أتوا به من المعانى المختلفة وأشعر منهم عندى الثلاثة المتأخرون وهم أبو تمام وأبو عبادة البحترى وأبو الطيب المتنبى فان هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان فى طبقة الشعراء أما أبو تمام وأبو الطيب فربا المعانى وأما أبو عبادة فرب الالفاظ فى ديباجتها وسبكها (وبلغنى) أن أبا عبادة البحترى سأل ولده أبا الغوث عن الفرزدق وجرير أيهما أشعر فقال جرير أشعر قال وبم ذلك قال لان حوكه شبيه بحوكك قال ثكلتك أمك أوفى الحكم عصبية قال يا أبت فمن أشعر قال الفرزدق قال وبم ذاك قال لان أهاجى جرير كلها تدور على أربعة أشياء هى القين والزنا وضرب الرومى بالسيف

والنفى

والنبي من المسجد ولا يهجو الفرزدق بسوى ذلك وأما الفرزدق فانه يهجو جريرا بأهاج مختلفة ففي كل قصيدة يرميه بسهام غير السهام التي يرميه بها في القصيد الآخر وأنا أستكذب راوي هذه الحكاية ولا أصدقه فان البحتري عندي ألب من ذلك وهو عارف بأسرار الكلام خبير بأوساطه وأطرافه وجيده ورديئه وكيف يدعى على جرير أنه لم يهج الفرزدق الا بتلك المعاني الاربعة التي ذكره وهو القائل

لما وضعت على الفرزدق ميسمي * وعلى البعيث جدعت أنف الاخطل

فجمع بين هجاء هؤلاء الثلاثة في بيت واحد (ولقد تأملت كتاب النقائض) فوجدت جريرا ارباب تغزل ومديح وهجاء وافتخار وقد كسا كل معنى من هذه المعاني ألفاظا لائقة به ويكفيه من ذلك قوله

وعاو عوى من غير شئ رميته * بقافية انفادها يقطر الدما
واني لقوال لكل غريبة * ورود اذا الساري بليل ترنما
خروج بأفواه الرواة كأنها * شبا هندواني اذا هز صمما
غرائب آلاف اذا حان وردها * أخذن طريقا للقصائد معلما

ولو لم يكن لجرير سوى هذه الابيات لتقدم بها الشعراء وسأذكر من هجائه الفرزدق ما ليس فيه شئ من تلك المعاني الاربعة التي أشار البحتري اليها فمن ذلك قوله

وقد زعموا أن الفرزدق حية * وما قتل الحيات من أحد قبلي
ألم ترأني لا أتبل رميتي * فمن أرم لا تخطى مقاتله نبلي
رأيتك لا تحمي عقالا ولم ترد * قتالا فلاقيت شرا من القتل

وقوله أبلغ هديتي الفرزدق انها * عبء تزاد على حسير مثقل
اني انصببت من السماء عليكم * حتى اختطفتك يافرزدق من عل

وقوله

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا * فابشر بطول سلامة يامربع
ورأيت نبلك يافرزدق قصرت * ورأيت قوسك ليس فيها منزع
ان الفرزدق قد تبين لؤمه * حيث التقت خششاؤه والاخدع

وقوله أحارث خذ من شئت منا ومنهم * ودعنا نقس مجدا تعد فضائله

لبست سلاحى والفرزدق لعبة * عليه وشاحا كرّج وجلاجله
فلست بذى عز ولا ذى أرومة * وما تعط من ضيم فانك قابله

وقوله
لا يخفين عليك ان مجاشعا * لو ينفخون من الخؤورة طاروا
قد يؤسرون فلا يفك أسيرهم * ويقتلون فتسلم الآثار

وقوله
بنى مالك ان الفرزدق لم يزل * يلقى المخازى من لدن أن يفعا
مددت له الغايات حتى تركته * قعود القوافى ذا علوب مرقعا

وقوله
الا انما كان الفرزدق ثعلبا * ضغا وهى فى أشداق ليث ضبارم

وقوله
مهلا فرزدق ان قومك فيهم * خور القلوب وخفة الاحلام
الظاعنون على العمى بجميعهم * والنازلون بشر دار مقام

وقوله
اذا سفرت يوما نساء مجاشع * بدت سوأة مما تجن البراقع
مباشيم من عبء الهرير كأنما * تصوت فى أعفاجهن الضفادع
رأت ملا لا مثل الفرزدق قصرت * عن العلو لا يأبى عن العلو بارع
أتعدل احسابا كراما حماتها * بأحسابكم انى الى الله راجع
اذا قيل أى الناس شر قبيلة * وأعظم عارا قيل تلك مجاشع

وقوله
علق الاخيطل فى حبالى بعد ما * عثر الفرزدق لا لعا للعاثر
لقى الفرزدق ما لقيت وقبله * طاح التعيس بغير عرض وافر
واذا رجوا أن ينقضوا الى مرة * مرست قواى عليهم وممرا ثرى

ولجرير مواضع كثيرة فى هجاء الفرزدق غير هذه ولولا خوف الاطالة لاستقصيتها بجميعها ولو سلمت الى البحترى ما زعم من أن جريرا ليس له فى هجاء الفرزدق الا تلك المعانى الاربعة لاعترضت عليه بأنه قد أقر لجرير بالفضيلة وذلك أن الشاعر المفلق أو الكاتب البليغ هو الذى اذا أخذ معنى واحدا تصرف فيه بوجوه التصرفات وأخرجه فى صروف الاساليب وكذلك فعل جرير فانه أبرز من هجاء الفرزدق بالقين كل غريبة وتصرف فيه تصرفا مختلف الانحاء فمن ذلك قوله

ألهى أباك عن المكارم والعلا * لى الكتائف وارتفاع المرجل

وقوله
وجد الكتيف ذخيرة فى قبره * والكلبتين جعن والمنشار
يبكى صداه اذا تصدع مرجل * أو أن تفلق برمة أعشار

قال

قال الفرزدق رقي أكيارنا * قالت وكيف ترقع الاكيار

وقوله اذا آباؤنا وأبوك جدوا * بأن المقرفات من الغراب

فأورثك العلاة وأورثوني * رباط الخيل أفنية القباب

وسيف أبي الفرزدق فاعلموه * قدوم غير ثابتة النصاب

(فانظر) أيها الواقف على كتابي هذا الى هذه الاساليب التي تصرف فيها جرير وأدارها على هجاء الفرزدق بالقين فقال أولا ان أباه شغل عن المكارم بصناعة القيون ثم قال ثانيا انه يبكي عليه ويندبه بعد الموت المرجل والبرمة الاعشار التي يصلحها ثم قال ثالثا ان أباك أورثك آلة القيون وأورثني أبي رباط الخيل وقد أورد جرير هذا المعنى على غير هذه الاساليب التي ذكرتها ولا حاجة الى التطويل بذلك ههنا وهذا القدر فيه كفاية وحيث انتهى بنا القول الى ههنا فلنرجع الى النوع الذي نحن بصدد ذكره وهو اتحاد الطريق واختلاف المقصد فما جاء منه قول النابغة

اذا ما غزا بالجيش حلق فوقه * عصائب طير تهتدي بعصائب

جوانح قد أيقن أن قبيله * اذا ما التقى الجمعان أول غالب

وهذا المعنى قد توارد عليه الشعراء قديما وحديثا وأوردوه بضروب من العبارات فقال أبو نواس

تتمنى الطير غزوته * ثقة باللحم من جزره

وقال أبو مسلم بن الوليد

قد عوّد الطير عادات وثقن بها * فهن يتبعنه في كل مرتحل

وقال أبو تمام

وقد ظللت أعناق أعلامه ضحى * بعقبان طير في الدماء نواهل

أقامت مع الرايات حتى كأنها * من الجيش الا أنها لم تقاتل

(وقد ذكر) في هذا المعنى غير هؤلاء الا أنهم جاؤا بشئ واحد لا تفاضل بينهم فيه الا من جهة حسن السبك أو من جهة الايجاز في اللفظ ولم أر أحدا أغرب في هذا المعنى فسلك هذه الطريق مع اختلاف مقصده اليها الا مسلم ابن الوليد فقال

أشربت أرواح العدا وقلوبها * خوفا فأنفسها اليك تطير

لو حاكمتك فطالبتك بذحلها * شهدت عليك ثعالب ونسور

(فهذا) من المليح البديع الذى فضل به مسلم غيره فى هذا المعنى * وكذلك فعل أبو الطيب المتنبي فانه لما انتهى الامر اليه سلك هذه الطريق التى سلكها من تقدمه الا أنه خرج فيها الى غير المقصد الذى قصدوه فأغرب وأبدع وحاز الاحسان بجملته وصار كانه مبتدع لهذا المعنى دون غيره (فما جاء منه) قوله

تفدّى أتم الطير عمرا سلاحه * نسور الملا أحداثها والقشاعم
وما ضرّها خلق بغير مخالب * وقد خلقت أسيافه والقوائم

ثم أورد هذا المعنى فى موضع آخر من شعره فقال

سحاب من العقبان ترجف تحتها * سحاب اذا استسقت سقتها صوارمه

وهذا معنى قد حوى طرفى الاغراب والاعجاب وقال فى موضع آخر

وذى لجب لا ذو الجناح أمامه * بناج ولا الوحش المثار بسالم
تمرّ عليه الشمس وهى ضعيفة * تطالعه من بين ريش القشاعم
اذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة * تدوّر فوق البيض مثل الدراهم

(وهذا) من اعجاز أبى الطيب المشهور ولو لم يكن له من الاحسان فى شعره الا هذه الابيات لاستحق بها فضيلة التقدم (ومما ينتظم بهذا النوع) ما تواردعليه أبو عبادة البحترى وأبو الطيب المتنبي فى وصف الاسد وقصيدتاهما مشهورتان فأوّل احداهما * أجدك ما ينفك يسرى لزينبا * وأوّل الاخرى فى الخدان عزم الخليط رحيلا * أمّا البحترى فانه ألمّ بطرف مما ذكر بشر بن عوانة فى أبياته الرائية التى أوّلها

أفاطم لو شهدت ببطن خبت * وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا

وهذه الابيات من النمط العالى الذى لم يأت أحد بمثلها وكل الشعراء لم تسم قرائحهم الى استخراج معنى ليس بمذكور فيها ولولا خوف الاطالة لاوردتها بجملتها لكن الغرض انما هو المفاضلة بين البحترى وأبى الطيب فيما أورداه من المعانى فى هذا المقصد المشار اليه فما جاء للبحترى من قصيدته

وما تنقم الحساد الا اصالة * لديك وعزما أريحيا مهذبا
وقد جرّبوا بالامس منك عزيمة * فضلت بها السيف الحسام المجرّبا
غداة لقيت الليث والليث مخدر * يحدّد نابا للقاء ومخلبا
اذا شاء غادى عانة أو عدا على * عقائل سرب أو تقنص ربربا

شهدت لقد أنصفته حين ينبرى * له مصلتا عضبا من البيض مقضبا
فلم أر ضرغامين أصدق منكما * عراكا اذا الهيابة النكس كذبا
هزبر امشى يبغى هزبرا وأغلبا * من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا
أذل بشعب ثم هالته صولة * رآك لها أمضى جنانا وأشغبا
فاحجم لما لم يجد فيك مطمعا * وأقدم لما لم يجد عنك مهربا
فلم يغنه أن كر نحوك مقبلا * ولم ينجه أن حاد عنك منكبا
حملت عليه السيف لا عزمك انثنى * ولا يدك ارتدت ولا حده نبا

وبما جاء لابى الطيب المتنبى فى قصيدته

أمعفر الليث الهزبر بسوطه * لمن ادخرت الصارم المصقولا
وردا اذا ورد البحيرة شاربا * ورد الفرات زئيره والنيلا
متخضب بدم الفوارس لابس * فى غيله من لبدتيه غيلا
ما قوبلت عيناه الا ظنتا * تحت الدجى نار الفريق حلولا
فى وحدة الرهبان الا أنه * لا يعرف التحريم والتحليلا
يطأ البرى مترفقا من تيهه * فكأنه آس يجس عليلا
ويرد عفرته الى يافوخه * حتى تصير لرأسه اكليلا
قصرت مخافته الخطا فكأنما * ركب الكمى جواده مشكولا
ألقى فريسته وزمجر دونها * وقربت قربا خاله تطفيلا
فتشابه الفريان فى اقدامه * وتخالفا فى بذلك المأكولا
أسد يرى عضويه فيك كليهما * متنا أزل وساعدا مفتولا
مازال يجمع نفسه فى زوره * حتى حسبت العرض منه الطولا
وكأنما غرته عين فادنى * لا يبصر الخطب الجليل جليلا
أنف الكريم من الدنية تارك * فى عينه العدد الكثير قليلا
والعار مضاض وليس بخائف * من حتفه من خاف مما قيلا
خذلته قوته وقد كافحته * فاستنصر التسليم والتجديلا
سمع ابن عمته به وبحاله * فمضى يهرول أمس منك مهولا
وأمر مما فر منه فراره * وكقتله أن لا يموت قتيلا
تلف الذى اتخذ الجراءة خلة * وعظ الذى اتخذ الفرار خليلا

قوله أمعفر الليث الهزبر الخ وقع خلال الابيات المذكورة ابيات أخر كثيرة اه

(وسأحكم) بين هاتين القصيدتين والذى يشهد به الحق وتنفيه العصبية أذكره وهو أنّ معانى أبى الطيب أكثر عددا وأسدّ مقصدا ألا ترى أنّ البحترى قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح فى تشبيهه بالاسد مرّة وتفضيله عليه أخرى ولم يأت بشئ سوى ذلك وأمّا أبو الطيب فانه أتى بذلك فى بيت واحد وهو قوله أمعفر الليث الهزبر بسوطه * لمن ادّخرت الصارم المصقولا
ثم انه تفنن فى ذكر الاسد فوصف صورته وهيئته ووصف أحواله فى انفراده فى جنسه وفى هيئة مشيه واختياله ووصف خلق نجله مع شجاعته وشبه الممدوح به فى الشجاعة وفضله عليه بالسخاء ثم انه عطف بعد ذلك على ذكر الانفة والحمية التى بعثت الاسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح وأخرج ذلك فى أحسن مخرج وأبرزه فى أشرف معنى واذا تأمّل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين عرف ببديهة النظر ما أشرت اليه والبحترى وان كان أفضل من المتنبى فى صوغ الالفاظ وطلاوة السبك فالمتنبى أفضل منه فى الغوص على المعانى ومما يدلك على ذلك أنه لم يعرّض لما ذكره فى أبياته الرائية لعلمه أن بشرا قد ملك رقاب تلك المعانى واستحوذ عليها ولم يترك لغيره شيأ يقوله فيها ولفطانة أبى الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر لانه قصر عنه تقصيرا كثيرا ولما كان الامر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك الطريق وسلك غيرها فجاء فيما أورد مبرزا (واعلم) أنّ من أبين البيان فى المفاضلة بين أرباب النظم والنثر أن يتواردا اثنان منهما على مقصد من المقاصد يشتمل على عدّة معان كتوارد البحترى والمتنبى ههنا على وصف الاسد وهذا أبين فى المفاضلة من التوارد على معنى واحد يصوغه هذا فى بيت من الشعر وفى بيتين ويصوغه الآخر فى مثل ذلك فان بعد المدى يظهر ما فى السوابق من الجواهر وعنده يتبين ربح الرابح وخسر الخاسر فاذا شئت أن تعلم فضل ما بين هذين الرجلين فانظر الى قصيدتيهما فى مراثى النساء التى مفتتح احدهما يا أخت خير أخ يابنت خير أب * كناية بهما عن أكرم العرب وهى لأبى الطيب ومفتتح الاخرى

غروب دمع من الاجفان ينهمل * وحرقة بغليل الحزن تشتعل

وهى للبحترى فانّ أبا الطيب انفرد بابتداع ما أتى به فى معانى قصيدته والبحترى أتى بما أكثره غث بارد والمتوسط منه لا فرق فيه بين رثاء امرأة أو رجل (ومن

الواجب) أنه اذا سلك الناظم أو الناثر مسلكا في غرض من الاغراض أن لا يخرج عنه كالذى سلكه هذان الرجلان في الرثاء بامرأة فان من حذاقة الصنعة أن يذكر ما يليق بالمرأة دون الرجل وهذا الموضع لم يأت فيه أحد بما يثبت على المحك الا أبو الطيب وحده وأما غيره من مفلقى الشعراء قديما وحديثا فانهم قصروا عنه وله في هذا المعنى قصيدة أخرى مفتتحها

نعد المشرفية والعوالى * وتقتلنا المنون بلا قتال

وكفى بهما شاهدا على ماذكرته من انفراده بالابداع فيما أتى به والفتيا عندى بينه وبين البحترى أن أبا الطيب أنفذ فى المضيق وأعرف باستخراج المعنى الدقيق وأما البحترى فانه أعرف بصوغ الالفاظ وحوك ديباجتها وقد قدمت أن الحكم بين الشاعرين فى اتفاقهما فى المعنى أبين من الحكم بينهما فيما اختلفا فيه لانهما مع الاتفاق فى المعنى يتبين قولاهما ويظهران ظهورا يعلم ببديهة النظر ويتسارع اليه فهم من ليس بثاقب الفهم وأما اختلافهما فى المعنى فانه يحتاج فى الحكم بينهما فيه الى كلام طويل يعزفهمه ولا يتفطن له الا بعض الناس دون بعض بل لا يتفطن له الا الفذ الواحد من الناس ولى فى هذا مقالة مفردة ضمنتها الحكم بين المعنيين المختلفين وتكلمت عليه كلاما طويلا عريضا وأقمت الدليل على ما نصصت عليه وما منعنى من ايرادها فى كتابى هذا الا أنها سنحت لى بعد تصنيفه وشياعه فى أيدى الناس وتناقل النسخ به وعلى هذا الاسلوب توارد البحترى والشريف الرضى على ذكر الذئب فى قصيدة للبحترى دالية أولها * سلام عليكم لا وفاء ولا عهد * ومقطوعة للشريف الرضى أولها

وعارى الشوى والمنكبين من الطوى * أتيح له بالليل عارى الاشاجع

وقد أجاد البحترى فى وصف حاله مع الذئب والشريف أجاد فى وصف الذئب نفسه (وأما المسخ) فهو قلب الصورة الحسنة الى صورة قبيحة والقسمة تقتضى أن يقرن اليه ضده وهو قلب الصورة القبيحة الى صورة حسنة (فالاول) كقول أبى تمام

فتى لا يرى أن الفريصة مقتل * ولكن يرى أن العيوب مقاتل

وقول أبى الطيب المتنبى

يرى أن ما مابان منك لضارب * بأقتل مما بان منك لعائب

فهو وان لم يشوه المعنى فقد شوه الصورة ومثاله فى ذلك كمن أودع الوشى شملا وأعطى الورد جعلا وهذا من أرذل السرقات وعلى نحو منه جاء قول عبد السلام بن رغبان

نحن نعزيك ومنك الهدى * مستخرج والصبر مستقبل
نقول بالعقل وأنت الذى * نأوى اليه وبه نعقل
اذا عفا عنك وأودى بنا الدهر فذاك المحسن المجمل

أخذه أبو الطيب فقلب أعلاه أسفله فقال

ان يكن صبر ذى الرزية فضلا * تكن الافضل الاعز الاجلا
أنت يا فوق أن تعزى عن الاحباب فوق الذى يعزيك عقلا
وبألفاظك اهتدى فاذا عزاك قال الذى له قلت قبلا

والبيت الاخير من هذه الابيات هو الآخر قدرا وهو المخصوص بالمسخ (وأما قلب الصورة القبيحة الى صورة حسنة فهذا لا يسمى سرقة بل يسمى اصلاحا وتهذيبا (فمن ذلك) قول أبى الطيب المتنبى

لو كان ما تعطيهم من قبل أن * تعطيهم لم يعرفوا التأميلا

وقول ابن نباتة السعدى

لم يبق جودك لى شيأ أؤمله * تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل

وعلى هذا النحو ورد قول أبى نواس فى أرجوزة يصف فيها اللعب بالكرة والصولجان فقال من جملتها

جن على جن وان كانوا بشر * كأنما خيطوا عليها بالابر

ثم جاء المتنبى فقال

فكأنها نتجت قياما تحتهم * وكأنهم ولدوا على صهواتها

وبين القولين كما بين السماء والارض فانه يقال ليس للارض الى السماء نسبة محسوسة وكذلك يقال ههنا أيضا فان بعد ما فى قول أبى نواس من النزول والضعف فكذلك فى قول أبى الطيب من العلو والقوة وربما ظن بعض الجهال أن قول الشماخ

اذا بلغتنى وحملت رحلى * عرابة فاسرقى بدم الوتين

وقول أبى نواس

وإذا المطيّ بنا بلغن محمدا * فظهورهنّ على الرجال حرام

من هذا القبيل الذى هو قلب الصورة القبيحة الى صورة حسنة وليس كذلك فانّ قلب الصورة القبيحة الى صورة حسنة هو أن يؤخذ المعنى الواحد فيكسى عبارتين احداهما قبيحة والاخرى حسنة فالحسن والقبح انما يرجع الى التعبير لا الى المعنى نفسه وقول أبى نواس هو عكس قول الشماخ وقد تقدم مثل ذلك فيما مضى من ضروب السرقات ألا ترى الى قول أبى الطيب المتنبى وقول الشريف الرضى فقال أبو الطيب

انى على شغفى بما فى خمرها * لاعفّ عما فى سراويلاتها

وقول الشريف الرضى

أحنّ الى ما تضمن الخمر والحلى * وأصدف عما فى ضمان المآزر

فالمعنى واحد والعبارة مختلفة فى الحسن والقبح وهذه السرقات وهى ستة عشر نوعا لا يكاد يخرج عنها شئ واذا أنصف الناظر فى الذى أتيت به ههنا علم ان قد ذكرت ما لم يذكره غيرى وأنا أسأل الله التوفيق لان أكون لفضله شكورا وأن لا أكون مختالا فخورا (واذا فرغت من تصنيف هذا الكتاب) وحررت القول فى تفصيل أقسام الفصاحة والبلاغة والكشف عن دقائقهما وحقائقهما فينبغى أن أختمه بذكر فضيلتهما فأقول (اعلم) أنّ هذا الفن هو أشرف الفضائل وأعلاها درجة ولولا ذلك لما افتخر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدة مواقف فقال تارة أنا أفصح من نطق بالضاد وقال تارة أعطيت خمسا لم يعطهنّ أحد قبلى كان كل نبى يبعث فى قومه وبعثت الى كل أحمر وأسود وأحلت لى الغنايم وجعلت لى الارض طيبة وطهورا ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر وأوتيت جوامع الكلم وما سمع بأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم افتخر بشئ من العلوم سوى علم الفصاحة والبلاغة فلم يقل انه أفقه الناس ولا أعلم الناس بالحساب ولا بالطب ولا بغير ذلك كما قال أنا أفصح من نطق بالضاد وأيضا فلو لم تكن هذه الفضيلة من أعلى الفضائل درجة لما اتصل الاعجاز بها دون غيرها فانّ كتاب الله تعالى نزل عليها ولم ينزل بمعجز من مسائل الفقه ولا من مسائل الحساب ولا من مسائل الطب ولا غير ذلك من العلوم ولما كانت هذه الفضيلة بهذه المكانة صارت فى الدرجة العالية والمنثور منها أشرف من المنظوم لاسباب من جملتها أنّ الاعجاز

لم يتصل بالمنظوم وانما اتصل بالمنثور الا ترى أن أسباب النظم أكثر ولهذا نجد المجيدين منهم أكثر من المجيدين من الكتاب بل لا نسبة لهؤلاء الى هؤلاء ولو شئت أن تحصى أرباب الكتابة من أول الدولة الاسلامية الى الآن لما وجدت منهم من يستحق اسم الكاتب عشرة واذا أحصيت الشعراء فى تلك المدة وجدتهم عددا كثيرا حتى لقد كان يجتمع منهم فى العصر الواحد جماعة كثيرة كل منهم شاعر مفلق وهذا لا نجده فى الكتاب بل ربما ندر الفرد الواحد فى الزمن الطويل وليس ذلك الا لوعورة المسلك من النثر وبعد مناله والكاتب هو أحد دعامتى الدولة فان كل دولة لا تقوم الا على دعامتين من السيف والقلم وربما لا يفتقر الملك فى ملكه الى السيف الا مرة أو مرتين وأما القلم فانه يفتقر اليه على الايام وكثيرا ما يستغنى به عن السيف واذا سئل عن الملوك الذين غبرت أيامهم لا يوجد منهم من حسن اسمه من بعده الا من حظى بكاتب خطب عنه ونفخ أمر دولته وجعل ذكرها خالدا يتناقله الناس رغبة فى فصل خطابه واستحسانا لبداعة كلامه فيكون خلود ذكرها فى خفارة ما دونه قلمه ورقمته أساطيره وليس الكاتب بكاتب حتى يضطر عدو الدولة أن يروى أخبار مناقبها فى حفله ويصبح ولسانه حامد لمساعيها وبقلبه ما به من غله ولقد أحسن أبو تمام فى هذا المعنى حيث قال

سأجهد حتى أبلغ الشعر شأوه * وان كان طوعا لى ولست بجاهد

فان أنا لم يحمدك عنى صاغرا * عدوك فاعلم أننى غير حامد

وهذا الذى ذكرته حق وصدق لا ينكره الا جاهل به وأنا أسأل الله الزيادة من فضله وان لم أكن أهلا له فانه هو من أهله (ووقفت على كلام لابى اسحق الصابى) فى الفرق بين الكتابة والشعر وهو جواب لسائل سأله فقال ان طريق الاحسان فى منثور الكلام يخالف طريق الاحسان فى منظومه لان الترسل هو ما وضح معناه وأعطاك سماعه فى أول وهلة ما تضمنته ألفاظه وأفخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه الا بعد مماطلة منه ثم قال بعد ذلك ولسائل أن يسأل فيقول من أية جهة صار الاحسن فى معنى الشعر الغموض وفى معانى الترسل الوضوح فالجواب أن الشعر بنى على حدود مقررة وأوزان مقدرة وفصلت أبياته فكان كل بيت منها قائما بذاته وغير محتاج الى غيره الا ما جاء على وجه التضمين وهو عيب فلما كان النفس لا يمتد فى البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه وكلاهما

قليل احتيج الى أن يكون الفصل فى المعنى فاعتمد أن يلطف ويدق والترسل مبنى على مخالفة هذه الطريق اذ كان كلاما واحدا لا يتجزى ولا يتفصل الا فصولا طوالا وهو موضوع وضع ما يهذه هذا ويمر به على أسماع شتى من خاصة ورعية وذوى أفهام ذكية وأفهام غبية فاذا كان متسلسلا ساغ فيها وقرب بجميع ما يستحب فيه الاول يكره فى الثانى حتى ان التضمين عيب فى الشعر وهو فضيلة فى الترسل ثم قال بعد ذلك والفرق بين المترسلين والشعراء أن الشعراء انما أغراضهم التى يرمون اليها وصف الديار والآثار والحنين الى الاهواء والاوطار والتشبيب بالنساء والطلب والاجتداء والمديح والهجاء وأما المترسلون فانما يترسلون فى أمر سداد ثغر واصلاح فساد أو تحريض على جهاد أو احتجاج على فئة أو مجادلة لملة أو دعاء الى ألفة أو نهى عن فرقة أو تهنئة بعطية أو تعزية برزية أو ما شاكل ذلك هذا ما انتهى اليه كلام أبى اسحق فى الفرق بين الترسل والشعر ولقد عجبت من مثل ذلك الرجل الموصوف بذلاقة اللسان وبلاغة البيان كيف يصدر عنه مثل هذا القول الناكب عن الصواب الذى هو فى باب ونصى النظر فى باب اللهم غفرا وسأذكر ما عندى فى ذلك لا ارادة للطعن عليه بل تحقيقا لمحل النزاع فأقول أما قوله ان الترسل هو ما وضح معناه والشعر ما غمض معناه فان هذه دعوى لا مستند لها بل الاحسن فى الامرين معا انما هو الوضوح والبيان على ان اطلاق القول على هذا الوجه من غير تقييد لا يدل على الغرض الصحيح بل صواب القول فى هذا أن يقال كل كلام من منثور ومنظوم فينبغى أن تكون مفردات ألفاظه مفهومة لانها ان لم تكن مفهومة فلا تكون فصيحة لكن اذا صارت مركبة نقلها التركيب عن تلك الحال فى فهم معانيها فمن المركب منها ما يفهمه الخاصة والعامة ومنه ما لا يفهمه الا الخاصة وتتفاوت درجات فهمه ويكفى من ذلك كتاب الله تعالى فانه أفصح الكلام وقد خوطب به الناس كافة من خاص وعام ومع هذا فمنه ما يتسارع الفهم الى معانيه ومنه ما يغمض فيعز فهمه والالفاظ المفردة ينبغى أن تكون مفهومة سواء كان الكلام نظما أو نثرا واذا تركبت فلا يلزم فيها ذلك وقد تقدم فى كتابى هذا أدلة كثيرة على هذا فتؤخذ من مواضعها وأما الجواب الذى أجاب به فى الدلالة على غموض الشعر ووضوح الكلام المنثور فليس ذلك بجواب وهب أن الشعر كان كل بيت منه قائما بذاته فلم

لكن مع ذلك غامضا وهب أنّ الكلام المنثور كان واحدا لا يتجزى فلم كان مع معناه واضحا ثم لو سلمت اليه هذا فماذا يقول في الكلام المسجوع الذي كل فقرة منه بمنزلة بيت من شعر وأمّا قوله في الفرق بين الشاعر والكاتب انّ الشاعر من شأنه وصف الديار والآثار والحنين الى الاهواء والاوطار والتشبيب بالنساء والطلب والاجتداء والمديح والهجاء وأنّ الكاتب من شأنه الافاضة في سداد ثغر أو اصلاح فساد أو تحريض على جهاد أو احتجاج على فئة أو مجادلة لملّة أو دعاء الى الفة أو نهى عن فرقة أو تهنئة بعطية أو تعزية برزية فانّ هذا حكم معنى لا يستند الى شبهة فضلا عن بيّنة وأىّ فرق بين الشاعر والكاتب في هذا المقام فكما يصف الشاعر الديار والآثار ويحنّ الى الاهواء والاوطار وكذلك يكتب الكاتب في الاشتياق الى الاوطان ومنازل الاحباب والاخوان ويحنّ الى الاهواء والاوطار ولهذا كانت الكتب الاخوانيات بمنزلة الغزل والنسيب من الشعر وكما يكتب الكاتب في اصلاح فساد أو سداد ثغر أو دعاء الى الفة أو نهى عن فرقة أو تهنئة أو تعزية فكذلك الشاعر فان شذ عن الصابي قصائد الشعراء في أمثال هذه المعاني فكيف خفى عنه قصيدة أبي تمام في استعطاف مالك بن طوق على قومه التي مطلعها * لو أنّ دهرا ردّ رجع جوابي * أم كيف أخل بالنظر في ديوان أبي الطيب المتنبي وهما في زمن واحد فتأمّل قصيدته في الاصلاح بين كافور الاخشيدي وبين مولاه الذي مطلعها * حسم الصلح ما اشتهته الاعادي وكذلك لا شك أنه لم يقف على قصيدة أبي عبادة البحترى في غزو البحر التي مطلعها ألم تر تغليس الربيع المبكر * ولو أخذت في تعداد قصائد الشعراء في الاغراض التي أشار اليها وخص بها الكاتب لاطلت وذكرت الكثير الذي يحتاج الى أوراق كثيرة وكل هذه الفروق التي نص عليها وعدّدها ليست بشئ ولا فرق بين الكتابة والشعر فيها (والذي عندي في الفرق بينهما هو من ثلاثة أوجه الاوّل) من جهة نطم أحدهما ونثر الآخر وهذا فرق ظاهر (الثاني) أنّ من الا[illegible]ب استعماله نثرا ولا يعاب نظما وذلك شئ استخرجته ونبهت عليه في القسم الاوّل المختص باللفظة المفردة في المقالة الاولى من هذا الكتاب وأنا أعيد ههنا منه شيأ فأقول قد ورد في شعر أبي تمام قوله

هى العرمس الوجناء وابن ملمة * وجاش على ما يحدث الدهر خافض

وكذلك

وكذلك ورد فى شعر أبى الطيب المتنبى كقوله

ومهمه جبته على قدمى * تعجز عنه العرامس الذلل

فلفظة المهمه والعرامس لا يعاب استعمالهما فى الشعر ولو استعملا فى كتاب أو خطبة كان استعمالهما فيهما سيئا وكذلك ما يشبههما كالهماوشا سبهما من الالفاظ التى ضبطتها بضوابط وحددتها بحدود تفصلها من غيرها من الالفاظ فليؤخذ من المقالة الاولى ولولا خوف التكرار لاعدته ههنا (الثالث) أن الشاعر اذا أراد أن يشرح أمورا متعددة ذوات معان مختلفة فى شعره واحتاج الى الاطالة بأن ينظم مائتى بيت أو ثلثمائة أو أكثر من ذلك فانه لا يجيد فى الجميع ولا فى الكثير منه بل يجيد فى جزء قليل والكثير من ذلك ردىء غير مرضى والكاتب لا يؤتى من ذلك بل يطيل فى الكتاب الواحد اطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس أو أكثر وتكون مشتملة على ثلثمائة سطر أو أربعمائة أو خمسمائة وهو مجيد فى ذلك كله وهذا لا نزاع فيه لاننا رأيناه وسمعناه وقلناه (وعلى هذا) فانى وجدت العجم يفضلون العرب فى هذه النكتة المشار اليها فان شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من أوله الى آخره شعرا وهو شرح قصص وأحوال ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم كما فعل الفردوسى فى نظم الكتاب المعروف بشاه نامه وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها وعلى أن لغة العجم بالنسبة اليها كقطرة من بحر اللهم صل على سيدنا محمد النبى الامى وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين

*(قال مصحح دار الطباعه * جمل الله بالكمال طباعه)*

لله المثل الأعلى ولنبيه من المدحة الأسنى وآله الذين انتهى اليهم الكمال وصحابته الذين بلغوا غاية الجلال وبعد فقد تم طبع هذا الكتاب الباهر الذى هو فى حسنه المثل السائر محلى بحلية البيان والمعانى مشيد بجواهر التركيب والمبانى

اذا امتحنت محاسنه أتته * غرائب جمة من كل باب

بالمطبعة العامرة التى ببولاق مصر القاهرة ذات الشهرة العالية والمناقب الزاهية البالغة كمال الشرف بنسبتها للدائرة السنية لا زالت محاسنها بهية

في ظل صاحب السعادة الأكرم الخديو الأعظم حامي حمى الأمصار مفيض العدل في الأقطار محيي رفات المكارم ناشر لواء العلوم فوق المعالم عزيز مصر ووحيد العصر سعادة أفندينا المحروس بعناية ربه العلي اسمعيل بن ابراهيم ابن محمد علي حفظ الله سبحانه دولته كما حفظ رعيته وأدام مجده وخلد جده وحرس أشباله الكرام وجعلهم غرة في جبين الأيام مطبوعة دار الطباعة المذكورة بنظر ناظرها المشمر عن ساعد الجد والاجتهاد في تدبير نضارتها من لا تزال عليه أخلاقه باللطف تثنى حضرة حسين بك حسني والملتزم لهذا الطبع الظريف والوضع اللطيف من بطبعه أحيا الدارس من كتب الأوائل وكان أجل آثاره أن ما لها مماثل فنازت ببهجة التكثير حتى وصلت إلى يد الغني والفقير المتحلي بالعلوم والمعارف حضرة محمد باشا عارف أفاض الله عليه سجال التهاني ومنحه غيوث الأماني ثم ان التصحيح بعد التنقيح كان بمعرفة الفقير الى الله سبحانه محمد الصباغ أسبغت عليه النعم أتم اسباغ فجاء بحمد الله على أتم نظام يفوق بحسنه بدور التمام واذ بلغ بدره الكمال أنشأ مؤرخه لسان الحال

راق الشراب ورقت نغمة الاسل * وطاب أنسي وعن لاحي لم أسل
وبت أجني طلا بدر يميس به * غصن على كثب يهتز عن كسل
في روضة رقصت فيها الغصون وقد * غنى الهزار وطاب نشوة الثمل
غناء قد وردت فيها الظباء على * نهر اللجين فصاغت معدن العسل
ورصعت من عقيق تاجها وحوت * بالنرجس الورد عن جان من الخول
ان شئتها همت من عقد على رقة * من سحرها أو بجيد صيغ من خضل
كأنما شاهدت عيناك أسطر ذي * كنز ذخائره من صائب الجمل
سفر به رائد السحر الحلال على * لب المشوق أتى بالنفث والحصل
حوى من القول ما ساغت مناهله * وجل معنى وعن عيب الملال خلي
وحاز من رقة الطبع البهي سنا * منه ترى أنجم الزهراء في خجل
واذ تناهى بجميل الطبع أرخ لي * بدر الكمال زها في دارة المثل

٤٠ ٢٠٦ ١٣٢ ١٣ ٩٠ ٢١٠ ٦٠١

سنة ١٢٨٢